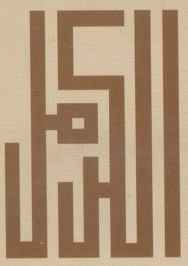


فصلية ثقافية

66

شتاء 2001

رئيس التحرير

محمود درويش

مدير التحرير

حسن خضر

تصدر عن : مؤسسة الكرمل الثقافية
مركز خليل السكاكيني الثقافي - ص.ب ١٨٨٧ - رام الله - فلسطين
هاتف : ٢٩٦٥٩٣٤(٠٢) - هاتف/ فاكس : ٢٩٨٧٣٧٤/٥ (٠٢)
E-mail : editor@alkarmel .org
الكرمل على الانترنت: http://www.alkarmel.org

تصدر طبعة الاردن عن : دار الشروق للنشر والتوزيع، ص.ب ٩٢٦٤٦٣
الرمز البريدي ١١١١٠ - عمان - الاردن - هاتف : ٤٦١٨١٩٠/١ - فاكس : ٦١٠٠٦٥

باريس : Mr. S. Hadidi
17, avenue Georges Duhamel
94000 Creteil
France

الاشتراكات السنوية : ٦٠ دولاراً للافراد ١٢٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)
ترسل الاشتراكات شيكاً الى العنوان البريدي او حوالة بنكية على حساب المؤسسة
Al-Carmel Cultural Foundation
Arab Bank - Manara branch - Routing number : 49852
Ramallah - Palestine

العدد 66

شتاء 2001

الكرمل

فصلية ثقافية

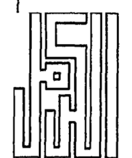
الغلاف : خالد حوراني
لوحة الغلاف: رسوم أطفال - خليل بركات (8 سنوات)
التنضيد والانتاج والطباعة: مؤسسة " الايام "- رام الله

ستوقظنا شروط السلام المعلنة من حلم جميل يتحوّل كابوساً. فلا تعدنا هذه الشروط بنهاية الاحتلال، بل تطالبنا بالإعلان عن انتهاء مطالبنا الوطنية وبإنهاء الصراع من أجلها، قبل أن نتعرف على خارطة بلادنا الجديدة... مقابل حقّ غامض في إضفاء صفة الدولة على شبه دولة محرومة من الاستقلال والسيادة، حيث تتبوأ الاستعارة مكانة الجغرافيا، وحيث ينفصل الدالّ عن المدلول والدلالة، ولا تعثر الرموز على أرضها.

سيرتفع العَلَم الوطني، بانضباط صارم، هنا. ثم يختفي بعد قليل هناك، ليظهر ثانيةً على بقعة ما في خارطة مليئة بالثقوب الملونة، وسيحتاج دائماً إلى دليل أمني أو سياحي. وسيصعب على عالم الجغرافيا الشقيّ أن يحفظ حدود بلاده المتعرجة، المتدرّجة، المتموّجة، تحاشياً للاصطدام بمجال المستوطنة التي تحتلّ مكانة المركز وبئر الماء.

سيحلّ تعريف الدولة المتحرك محل الوطن الثابت، مع كل ما في هذه العملية من تداعيات ثقافية وتربوية. ستنسحب الذاكرة الجمعيّة من تاريخها ومكانها لتبحث عن رواية جديدة، أو تتشظّى إلى روايات فردية. سيُغيّر مكان الولادة، فلم يولد فلسطيني، منذ الآن، في فلسطين الأولى. إذ تقتضي الواقعية السياسية ألاّ يتذكر أحد طفولته إلاّ في الأدب. وسيُتّهم الحالمون بعودةٍ ما إلى أرض الماضي القريب بالإفراط في الخيال والحماقة. فكيف يفكّر عاقل بأن يعود خمسين عاماً إلى الوراء إذا لم يكن يهودياً؟ إن الحداثة الصهيونية، وحدها، هي التي تجدّد حق العودة إلى ألفي سنة خلت، فتكون الحداثة بنْتَ الخرافة الشرعية، ويكون التاريخ نتاج الأسطورة المسلحة.

سننجرُّ إلى مناقشة أكاديمية لا تنتهي حول تعريف «مَن هم اللاجئون؟». سيقول لنا الإسرائيليون إن اليهود المهاجرين من البلاد العربية هم أيضاً لاجئون لهم حقّ في التعويض عن ممتلكاتهم. وإذا قيل لهم: ألم تنعتوا تلك البلاد دائماً بالمنفى أو الشتات؟ سيتوقف الجواب على انتقائية مفهومية لا ترمي إلى أكثر من حرمان اللاجئ الفلسطيني من «احتكار» هذه الصفة. وإذا قيل لهم: طالبوا بحقكم في العودة، قال العقائدي: هنا وطننا التاريخي. وقال الليبرالي: لن نخرج من واحة الديمقراطية إلى صحراء الاستبداد. وقال المثقف المنفتح على الآخر: لاجئون أنتجوا لاجئين، وتلك هي إحدى مفارقات المصير الإنساني!. أمّا عاموس عوز فيدق ناقوس الخطر قائلاً: إن حق العودة معناه القضاء على حق إسرائيل في الوجود. ولذلك فإن الشعب الفلسطيني ليس مستعداً لصنع السلام.



لن نسأل مَنْ يحتلُّ أرضَ مَنْ؟ فلعلّ الجواب ليس واضحاً بعد في المجتمع الإسرائيلي المتأهّب لانتخاب رئيس حكومة أكثر يمينية. ولكن الشعب الفلسطيني ليس مستعداً لاختيار العبوديّة حتى لو سمّاها عوز «سلاماً». لقد أثبت الشعب الفلسطيني، بدمه وبخطابه السياسي، أنه مستعدٌّ لدفع أيّ ثمن لحريته التي تؤدي إلى السلام، أو لدفع أي ثمن لسلام مشروط بالتحرّر وبنسبة معقولة من العدالة!

وعلى الرغم من الحصار المتعدّد الجنسيات والأشكال، فقد استطاعت الانتفاضة، وهي وسيلة من وسائل الربط المُحْكَم بين مفهومي التحرر والسلام، أن تكسر بعض المحرّمات في الديانة السياسية الإسرائيلية، مثل النقاش الجاري حول تقسيم القدس التي لم تعد، على مستوى الوعي، «عاصمة إسرائيل الموحدة إلى الأبد»، ومثل النقاش الدائر حول ضرورة التخلّي عن «المستوطنات السياسية». لكن نضج هذه المناقشات وانتقالها من المجال النظري إلى السياسة، وربط سؤال الأمن «المقدّس» بمسألة العدالة المقدّسة هي أيضاً، يحتاج إلى وقت يتحمل فيه القدَرُ الفلسطيني المزيد من المعاناة لاختراق قلعة الوعي الإسرائيلي بأن العدالة هي التي تؤدي إلى تسوية، قد تؤدي إلى سلام قد يؤدي إلى مصالحة... بينما لن يؤدي أيّ سلام مفروض إلاّ إلى اغتراب فكرة السلام، وإلى تصعيد وتيرة الصراع.

إن أية تسوية تستند إلى وضع الشرط الإسرائيلي في مكانة المقدّس الذي لا مَساس به، ويُحَدّدُ فيها توازنُ القوى – وحده – حجمَ الحقوق، وتستبدل فيها الشرعية الدولية بتشريعات الكنيست الإسرائيلي أو الكونغرس الأميركي، ستكون تسوية مفروضة لا يستطيع فقهاء الواقعية وصفها إلاّ بالقول: هذا هو الممكن..

وهذا يعني أن السلام الحقيقي غير ممكن!

الفهرست

المواد المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي «الكرمل»

ألقربان

محمود درويش

هيا... تقدمْ أنتَ وحدكَ، أنتَ وحدكَ.
حولكَ الكهّانُ ينتظرون أمرَ الله، فاصعدْ
أيُّها القربان نحو المذبح الحجريِّ يا كبشَ
الفداءِ – فدائنا ... واصعدْ قويّاً

لكَ حبُّنا ، وغناؤنا المبحوحُ في
الصحراء : هاتِ الماءَ من غبَشِ السراب ،
وأيقظِ الموتى ! ففي دمكَ الجوابُ ، ونحن
لم نقتلكَ ... لم نقتلْ نبيّاً /

/ إلاّ لنمتحنَ القيامةَ ، فامتحنّا أنتَ
في هذا الهباء المعدنيِّ . ومُتْ لتعرفَ
كم نحبُّكَ ... كم نحبُّكَ ! مُتْ لنعرف
كيف يسقط قلبكَ الملآن ، فوق دعائنا ،
رطَباً جنيّاً.

لكَ صورةُ المعنى . فلا ترجع إلى
أعضاء جسمكَ . واتركِ اسمكَ في الصدى
صفةً لشيءٍ ما . وكنْ أيقونةً للحائرين ،
وزينةً للساهرين ، وكنْ شهيداً شاهداً ،
طلَقَ المحيّا

فبأيّ آلاءٍ نكذّبُ ؟ من يطهّرنا

سواكَ ؟ ومن يحرّرنا سواك ؟ وقد
ولِدتَ نيابةً عنّا هناك . ولِدتَ من نور
ومن نار . وكنّا نحن نجّارين موهوبين في
صنع الصليب ، فخذْ صليبكَ وارتفعْ
فوق الثريا

سنقولُ : لم تخطئ ، ولم نخطئ . إذا
لم يهطلِ المطرُ انتظرناه ، وضحيّنا بجسمكَ
مرّةً أخرى . فلا قربانَ غيرك ، يا حبيب
الله ، يا ابنَ شقائق النعمان . كم مِنْ
مرةٍ ستعود حيّاً !

هيّا ، تقدّمْ أنت وحدك ، يا استعارتنا
الوحيدةَ فوق هاوية الغنائيّين . نحن الفارغين
النائمين على ظهور الخيل ... نسألك الوفاءَ ،
فكنْ وفيّاً للسلالةِ والرسالةِ . كنْ وفيّاً
للأساطير الجميلة ، كنْ وفيّاً !

وبأيّ آلاءٍ نكذّبُ ؟ والكواكبُ في
يديك . فكنْ إشارتنا الأخيرةَ . كنْ عبارتنا
الأخيرةَ في حطام الأبجدية «لم نزَلْ
نحيا ، ولو موتى» . على دمِك اتّكلنا .
دلّنا ، وأضئْ لنا دمَك الزكيّا !

لم يعتذر أحدٌ لجرحك . كلّنا قلنا
لروما : «لم نكن معَهُ» . وأسلمناكَ للجلاّد .
فاصفحْ عن خيانتنا الصغيرةِ ، يا أخانا
في الرضاعةِ . لم نكن ندري بما يجري .
فكنْ سمحاً رضيّاً

سنُصدّقُ الرؤيا ونؤمن بالزواج الفذّ
بين الروح والجسدِ المقدّسِ . كلُّ وردِ
الأرض لا يكفي لعرشك . خفّتِ الأرضُ ،
استدارتْ ، ثم طارتْ كالحمامة في سمائك –

يا ذبيحتنا الأنيقةَ . فاحترقْ لتضيئنا ، ولتنبثقْ
نجماً قصياً

أعلى وأعلى . لستَ منّا إن نزلتَ
وقلتَ : «لي جسدٌ يعذّبني على خشب
الصليب» . فإن نطقتَ ... أفقتَ ، وانكشفتْ
حقيقتنا . فكنْ حلماً لنحلم . لا تكنْ بشراً
ولا شجراً . وكنْ لغزاً عصياً

كنْ همزةَ الوصلِ الخفيفةَ بين آلهة
السماء وبيننا . قد تمطر السحبُ العقيمةُ
من نوافذ حرقك العالي . وكن نور البشارة ،
واكتب الرؤيا على باب المغارة ، واهدِنا
درباً سوياً

وليحتفلْ بك كلُّ ما يخضرُّ ، منْ
شجرٍ ومن حجرٍ ، ومن أشياءَ تنساها
الفراشةُ فوق قارعة الزمان قصيدةً ...
وليحتفل بك كلُّ من لم يمتلك ذكرى ،
ولا قمراً بهياً

لا تنكسرْ ! لا تنتصرْ . كنْ بيْنَ -
بيْنَ معلّقاً . فإذا انكسرتَ كسرتَنا . وإذا
انتصرتَ كسرتَنا ، وهدمتَ هيكلنا . إذنْ ،
كن ميّتاً - حياً ، وحياً - ميتاً ، ليواصلَ
الكهّانُ مهنتَهمْ . وكنْ طيفاً خفياً

ولتبقَ وحدك عالياً . لا يلمس الزمَنُ
الثقيلُ مجالكَ الحيويَّ . فاصعدْ ما استطعتَ ،
فأنتَ أجملنا شهيداً . كنْ بعيداً ما استطعتَ
لكي نرى في الوحي ظلّك أرجوانيَّ الخريطةِ .
فالسلامُ عليك يومَ ولدتَ في بلد السلام ،
ويومَ متَّ ، ويومَ تبعثُ من ظلام الموت
حياً !



المعنى والمبنى

عبد الرحمن منيف

بسبب التراجع في الموقف العربي والفلسطيني، في مواجهة إسرائيل والضغط الأمريكي، كان لا بد من وقفة للمراجعة، وخلق مناخ جديد، ثم شروط مختلفة، لعملية التفاوض التي بدأت منذ أوسلو ولم تصل بعد إلى نتيجة فعلية، رغم مرور ما يزيد على سبع سنوات، خاصة وأن الاستيطان الإسرائيلي قد اتسع وزاد، وتحديداً في ظل حكومة حزب العمل التي تتظاهر أنها أكثر استعداداً للوصول إلى نتائج من الليكود واليمين الديني!

في ظل وضع مثل هذا كان يفترض ظهور عوامل جديدة لتغيير المعادلة، فكانت الانتفاضة، صحيح أن زيارة شارون إلى المسجد الأقصى كانت السبب المباشر في اشتعال الانتفاضة، لكن الدواعي العميقة لمثل هذه الانتفاضة كانت موجودة وقوية، وبالتالي كان يفترض أن تنفجر لهذا السبب أو لسبب آخر، وإن اختلف التوقيت قليلاً.

إن انفجار الانتفاضة تعبير عن صحوة، وإشارة إلى تكوّن وعي جديد، كما يمثل استعداداً للتضحية من ناحية، ورفضاً للصيغ المقترحة، المذلة والمجحفة من ناحية ثانية، وهذا الذي يفسر اتساعها وامتدادها، والذي يفسر أيضاً الضراوة التي تتسم بها، كما تظهر ردود الفعل، على أكثر من مستوى.

فالجماهير الفلسطينية العريضة التي اندفعت، ولا تزال، للمشاركة في الانتفاضة، تجاوزت الحدود التي تضعها السلطة عادة أو تحتملها، وهذا دليل أكيد على عدم الرضى الذي يسود الشارع الفلسطيني من الشروط التي تريد إسرائيل فرضها، ودليل أكيد على مدى الاحتقان، الذي تمتلئ بهما النفوس وتنتظر اللحظة المناسبة للتعبير واتخاذ مواقف جديدة، لتغيير المعادلات السائدة.

أما عن مدى شمول الانتفاضة والقوى التي شاركت فيها فقد امتدت إلى كل أنحاء فلسطين، دون استثناء أو تسيير، وشارك فيها الجميع: عرب ١٩٤٨؛ سكان المدن والقرى التي تغيرت أسماؤها أو أزيلت عن الخريطة؛ المسلمون والمسيحيون بتفاعل وتآخٍ قلّ نظيره، خاصة بعد محاولات الفتنة التي

جرت في أكثر من مكان خلال السنين الأخيرة، وتحديداً في الناصرة. سكان الضفة وغزة، حتى البدو الذين يراد عزلهم وتحييدهم، كل هؤلاء كان لهم وجود ومشاركة في الانتفاضة الجارية الآن، بحيث أعيد رسم الخارطة الفلسطينية وفقاً لمنطق جديد لم يكن مألوفاً خلال السنوات السابقة. لقد توحدت فلسطين من جديد والانتفاضة هي التي وحدتها، وخلقت الإمكانية كي يتم التعامل مع القضية تبعاً لنظرة حاولت إسرائيل ومعها أميركا تغييبها، إذ بعد أن عزلَ الاحتلال عرب فلسطين ١٩٤٨ واعتبر أن لهم وضعاً خاصاً عادوا للاندماج من جديد في الجسد الفلسطيني العربي، وأثبتوا جدارة كنا ننكرها عليهم طوال السنين الماضية، الأمر الذي يستدعي نظرة جديدة وموقفاً جديداً.

كما أن المطالب التي كان يحاول تأجيلها، خاصة مطلب عودة النازحين، أصبح الآن مطروحاً وملحاً. يقابله الحزم المتزايد المعبر عن الرفض المطلق لوجود المستوطنات، والرفض المطلق لتجزئة الأرض الفلسطينية التي تحولت إلى ما يشبه أقفاص الطيور المعزولة، حسب تعبير محمود درويش.

إن النتائج المباشرة للإنتفاضة أنها خلقت وضعاً جديداً، بمعنى أن الصيغ التي كان يجري الحديث عنها أو التفاوض عليها لم تعد صالحة أو ممكنة الآن، وهذا ما يفسر الاضطراب والاختلاف والصراع الذي يجتاح القوى والحياة السياسية في إسرائيل، بما في ذلك إعادة التحالفات، والدعوة لإجراء انتخابات جديدة، وما يفسِّر أيضاً العنف الأعمى الذي يميز السلوك والتصرفات للقوى السياسية، والجيش، والمستوطنين.

يقابل ذلك على الجانب الفلسطيني: اضطرار القيادات من سلطة وتنظيمات سياسية إلى الإصغاء لنداء الشارع، والاستجابة لمطالبه. ومما يلفت النظر في هذه الانتفاضة أيضاً أن أصبح الشارع هو القائد، وهو الذي يملي المواقف. كما أن الجماهير التي دفعت بقادة جدد ورموز جديدة أصبح لها الناطقون باسمها، خلافاً لفترات سابقة، حيث كان هناك صوت بمفرده هو الذي يفرض نفسه ولا يسمح للأصوات الأخرى إلا أن تكون صدى أو امتداداً له.

من خلال الانتفاضة أصبحت قوى أي مسؤول فلسطيني مستمدة من اعتراف الشارع وتأييده، لا من المنظمة التي ينتسب إليها أو الموقع الرسمي الذي يحتله، وهذا يدل على قوة الشارع ومدى قدرته على فرض مواقف وصيغ تتجاوز ما كان يراد فرضه وتأييده، وهذا يستوجب إعادة النظر بالصيغ التنظيمية ومحاولة تلافي النواقص والأخطاء التي ميزت المرحلة السابقة.

لقد استطاع الشارع الفلسطيني، وإلى حد ما الشارع العربي، أن يستعيد دوره وأهميته، وتراجعت، في ذات الوقت، رابطة العصبوية أو التقسيمات السابقة، إذ مثلما ارتفعت الانتفاضة عن الانقسامات والتقسيمات الدينية والمذهبية والمناطقية، فإن جدارة التنظيمات والأحزاب والأفراد تتمثل وتقاس بمدى المشاركة وبمقدار التضحية، وليس اعتماداً على الأطر التنظيمية الضيقة وحدها.

ومن جملة الانعكاسات للانتفاضة: آثارها في المحيط العربي، إذ لأول مرة، ومنذ سنين طويلة، يُرد الاعتبار، ولو جزئياً، للشارع العربي، والذي أثبت وجوده وجدارته على أكثر من مستوى، وفي أمكنة جديدة، فقد تحرك هذا الشارع، معبراً عن التضامن من ناحية، وعن موقف من سلطاته الحاكمة

من ناحية ثانية، ولعلها من المواقف القليلة في التاريخ العربي المعاصر التي تمتلئ شوارع المدن العربية من المغرب حتى عُمان بهذا المقدار من الغضب والرفض، وأيضاً في إدانة سياسات قائمة، وإدانة تحالفات الأنظمة الحاكمة مع دول خارجية، خاصة أميركا.

وإذا استطاعت الأنظمة الحاكمة أن تلتف على الغضبة الشعبية، وأن تستجيب لبعض المطالب، من خلال مؤتمر القمة العربي أولاً ثم الإسلامي بعده، وأن تشتري سكوت الجماهير عن طريق التغاضي عن المظاهرات والمسيرات، وأن تعلن تبرعاً بمبالغ معينة لدعم الانتفاضة، فإن ما كسبه الشارع من تجاوز لحاجز الخوف، ومن التعبير عن الإدانة، يمكن أن يعتبر رصيداً للمستقبل؛ إذ مجرد أن يكون الشارع موجوداً ومشاركاً، وأن تكون الجماهير جاهزة وغير خائفة، فإن أموراً كثيرة يمكن أن تتحقق غداً ثم في اليوم الذي يليه، خاصة وأن الأنظمة العربية حجرت على الجماهير منذ مدة طويلة، وحرمتها من أية مشاركة أو تعبير، والآن جاءت الإنتفاضة لتكسر هذا الحرم، ولتخلق مناخاً نفسياً جديداً ومختلفاً عن السابق، الأمر الذي يساعد على تطوير هذه الحالة وإلى دفعها للأمام.

يضاف إلى ذلك، ونتيجة استمرار الانتفاضة واتساعها، تزايد عدد الضحايا، فإن انعكاسات ذلك على الرأي العام الدولي في زيادة مضطردة، إذ علاوة على المظاهرات التي قامت في أنحاء متعددة من العالم تأييداً للانتفاضة، وإدانة للعنف الإسرائيلي الموجه ضدها، فقد أعلنت اللجان الخاصة بحقوق الإنسان، بما فيها المنبثقة عن الأمم المتحدة، استنكارها وإدانتها لمواقف إسرائيل.

ورغم الضغط الأميركي والنفوذ الصهيوني المسيطر على وسائل الإعلام العالمية، فإن التململ تجاه ما يجري، والإدانة المتزايدة لإسرائيل وسياستها وعنفها، يعم أوساطاً واسعة في أوروبا وآسيا، الأمر الذي يطرح القضية الفلسطينية برمتها تحت أضواء جديدة، ويساعد على كسب الرأي العام، وتجاوز الحصار الصهيوني.

هذا التحول في نظرة الرأي العام، تجاه القضية الفلسطينية ما كان ليحصل لولا الإنتفاضة، وما ولّدته من نتائج وآثار، الأمر الذي يسهل لاحقاً إعادة طرح القضية باعتبارها قضية تحرر وطني ومقاومة للاحتلال ومطالبة بحقوق مشروعة، وبالتالي كسب رأي عام دولي متعاطف، كما حصل تجاه قضايا مشابهة، مثل قضية فيتنام وقضية جنوب إفريقيا، فقد كان الرأي العام في هاتين القضيتين ذا تأثير واضح.

لهذا يمكن وصف الإنتفاضة بأنها كسر للقفص الذي يراد سجن القضية الفلسطينية داخله وفقاً لإرادة إسرائيل وضغط أميركا وعجز الأنظمة العربية؛ كما تعتبر تطلعاً نحو أفق جديد قد استطاع الوصول إليه من خلال تمتين العناصر الإيجابية في هذه الإنتفاضة، وقدرتها على الاستمرار، وتحمُّل الصدمات وإمكانية خلق وحدة وطنية أكثر صلابة، دون الانجرار إلى تحقيق مكاسب فئوية أو تنظيمية.

وإذا كانت إسرائيل قد استفادت من دروس الإنتفاضة السابقة، ولجأت إلى اعتماد وسائل جديدة لمواجهة الإنتفاضة الحالية، فيفترض بالفلسطينيين أيضاً الاستفادة من دروس تلك الإنتفاضة، وأن يحاولوا الآن تجاوز النواقص والأخطاء، والانتباه للخطط والأساليب الجديدة التي تحاول إسرائيل اتباعها.

إن أساليب العنف التي تجاوزت كل الحدود، والتي يتبعها الجيش الإسرائيلي والمستوطنون حالياً، وهذا الصمت والغياب لما يسمى اليسار الإسرائيلي، خلافاً لما حصل في أوقات سابقة، حيث كان اليسار حاضراً ومشاركاً في فضح وإدانة العنف، هذه المرة نلاحظ أن صوتاً واحداً، أو متقارباً، يسربل إسرائيل بيسارها ويمينها، بعلمانييها ومتدينيها، وربما أحسست أكثر من أية فترة سابقة أن الجميع أمام مفترق خطير وأمام خيارات مصيرية.

لقد جرت العادة في السابق أن يكون المستوطنون النسق الثاني في أية مواجهة تقع بين الفلسطينيين والقوات الإسرائيلية، في هذه الإنتفاضة أصبح المستوطنون، في المقدمة، وكانت مهمة الجيش التغطية والحماية، ليس ذلك فقط، عبّر المستوطنون عن حقد أسود، وأبدوا صنوفاً غير عادية من العنف، هذا مع الإشارة أن جزءاً غير قليل من هؤلاء المستوطنين، نتيجة موجات الهجرة الأخيرة، خاصة من الاتحاد السوفياتي السابق، ليسوا من اليهود، حسب بيانات الجهات الإسرائيلية المسؤولة، فكيف نفسر هذا العنف؟.

لا بد أن نلاحظ في التحول الجديد أن الأمر لم يعد مجرد اقتطاع أجزاء إضافية من الأرض الفلسطينية والصاقها، وإنما يتجاوز ذلك إلى الإعلان أن الأرض لم تعد تتسع لاثنين، وبالتالي على الفلسطينيين أن يغادروا وأن يجدوا لهم مكاناً آخر، أي أن إمكانية العيش المشترك لم تعد واردة، وهذا يفسر، جزئياً، المبالغة في استعمال القوة، واللجوء إلى أساليب قاسية إلى أبعد الحدود في التعامل، سواء في هدم البيوت أو اقتلاع الأشجار، أو اللجوء إلى تغيير المعالم الجغرافية إضافة إلى جعل الحياة لا تطاق للفلسطينيين المجاورين للمستوطنات من حيث تضييق سبل الرزق والحركة والحرمان من المقومات الأساسية للحياة والاستمرار.

إن السياسة التي تتبعها إسرائيل في مواجهة الإنتفاضة لا تقتصر على اتباع أقسى أنواع العنف، وبالتالي إيقاع خسائر كبيرة بالمواطنين الفلسطينيين من حيث عدد الإصابات، سواء بالقتل أو بالإعاقات الدائمة، بل ولجأت، ولا تزال تلجأ، إلى إيقاع أكبر أذى مادي ونفسي بالمواطنين الفلسطينيين، من حيث تضييق الحصار، ومنع وصول المستلزمات الأساسية للحياة كالكهرباء والوقود والمواد التموينية، وحتى المياه في أحيان كثيرة، عدا عن منع الحركة والانتقال بين المدن، وبين الضفة وغزة وبين هذه جميعاً والخارج، بما في ذلك سد المعابر البرية والبحرية وإغلاق المطار، وحتى منع وصول سيارات الإسعاف من أجل إخلاء الجرحى. كل ذلك لإرغام الفلسطينيين على التسليم، وجعْل الحياة بالغة الصعوبة فيما لو قالوا لا أو حاولوا الاعتراض على ما تخطط إسرائيل، يجري ذلك جهاراً نهاراً، تحت سمع العالم وبصره، وأيضاً بحماية أميركا ودعمها الكامل والعلني. حتى فكرة إيفاد مراقبين، ليس لوضع حد للعنف، وإنما لتقصي الحقائق، تقابل بالرفض المطلق من قبل إسرائيل وتؤيدها أميركا في ذلك، وبالتالي تفشل المحاولات العربية والإسلامية والأوروبية لوضع حد لما يجري، وتعجز الأمم المتحدة عن اتخاذ أي إجراء، لأن الفيتو الأميركي جاهز في مواجهة أي قرار للإدانة أو التدخل.

سياسة إسرائيل المدعومة من أميركا لا تهدف الوصول إلى تسوية، وإنما فرض واقع، وهذا الأمر

الواقع ذاته متحرك، متغير، تبعاً لموازين القوى وما يمكن أن تفرضه في مرحلة معينة، لذلك من الخطأ، وتالياً من الوهم. التصور أن إسرائيل تريد السلام أو تبحث عنه، خاصة في ظل وضع عربي يزداد انقساماً وشرذمة، وضعفاً، مما يمكّن إسرائيل من تحقيق مكاسب إضافية، وعليه فإن أي حل لا يعدو كونه محطة في طريق طويل، ونقطة انطلاق جديدة في هذا الصراع.

الإنتفاضة إذن وبمعناها الجوهري، رد على حالة التراجع والاستسلام، صحيح أنها ليست حلاً كاملاً ولكنها بداية الحل، أي أنها تنبيه ورفض للصيغة السياسية التي كان يراد فرضها من قبل إسرائيل وأميركا خلال الفترة الماضية، صيغة مدانة وغير مقبولة، الأمر الذي يستوجب حشد جميع القوى لمقاومتها وتهيئة الظروف من أجل الوصول إلى حل يضمن الحقوق الأساسية. ومهمة من هذا النوع تعني الجميع مساحة وعمقاً، أي أنه ليس من حق فئة أو مرحلة زمنية محددة أن تفرض صيغة أو ما تعتبره حلاً، لأن الأمر أكبر من ذلك وأخطر. فالقضية الفلسطينية لا تعني الفلسطينيين وحدهم وإنما تعني المنطقة العربية بأسرها، وتعني العرب جميعاً. وإذا كان الاتجاه الذي ساد خلال فترة معينة استهدف تغييب الفلسطينيين، وأن ينوب عنهم الآخرون في التعامل بهذه القضية، وبالتالي تعالت الدعوة إلى ضرورة أن يكون أصحاب القضية من يتفاوض من أجل الوصول إلى حل، فإن القيادات الحالية ليست قادرة بمفردها أن تفرض حلاً. لأن النتائج التي ستترتب على أي حل ستنعكس على الجميع وستؤثر على المنطقة بأسرها، مما يستوجب أن يشارك الجميع وأن يكون لهم دور ورأي. وبالتالي إعادة رسم وتحديد العلاقة ثم الأدوار، بين ما هو قطري وبين ما هو قومي، ومن له حق التصرف ومن يحق له الاعتراض.

ثم إن القضية الفلسطينية لا تقتصر بآثارها ونتائجها على المرحلة الحالية والجيل الحالي، بل تمتد إلى الأجيال القادمة، وتترك تأثيرها لفترات طويلة قادمة، مما يستوجب أخذ هذا الأمر بعين الإعتبار في أي حل يراد الوصول إليه لكي تتجنب مستقبلاً التطاحن والصراع الدموي، وكي لا تورث التركات السلبية التي تتولد الآن من أخطاء المتنفذين إلى الأجيال اللاحقة.

اعتماداً على هذا المناخ الذي ولدته الانتفاضة يجب التوقف وإعادة النظر، ومحاولة الوصول إلى معادلة جديدة، ومن شأن مثل هذه المعادلة إذا تم تحديدها أن تمنع الانغلاق أو التسيب، وتحدد الصيغ والعلاقات بين ما هو خاص وقطري، وما هو عام وقومي، وكيف يجب التصرف في هذه الحالة أو تلك.

إن هذه الاشكالية طبعت العمل العربي طوال القرن العشرين وخلفت سلبيات لم يُستطع حلها أو تجاوزها حتى الآن، وبالتالي لا بد من الوصول إلى حلول لهذه الإشكالية الكبرى، إذ بدون ذلك سيبقى التداخل والارتباك، وسوف تتكرر الأخطاء أيضاً.

لقد هيأت الإنتفاضة الفرصة والإمكانية لإعادة ترتيب العلاقات والصيغ والأولويات، ولا بد أن يجري ذلك وفقاً للأهداف الأساسية والقضايا الكبرى، تماماً كما تفعل إسرائيل، إذ مهما بلغ الاختلاف بين الأحزاب والأفراد فإن هناك ثوابت أساسية لا يتنازل عنها أحد، وليست موضع اجتهاد أو مساومة،

وهذا ما يجب أن يشكل قواسم مشتركة للنضال العربي في المرحلة الراهنة.

الانتفاضة ليست وحدها حلاً. لكنها إمكانية ومناخ ملائم للحل، شرط أن يُعمل على توفير الشروط المناسبة، بمعنى: إنها تُهيئ الظروف لعلاقات فلسطينية ـ فلسطينية من نمط جديد. نمط يتجاوز التعصب الفئوي، ويؤكد على القضايا المشتركة، ويخلق مناخاً لنضال أكثر صلابة وأكثر جرأة، لأن الأطراف المقابلة لا تفهم إلا لغة القوة، لغة المصالح، أما لغة التسامح واللين والحلول الوسط فإنها تعبير أكيد عن العجز والضعف، وهذا ما أكدته هذه الفترة، وبأمثلة حية وملموسة.

ولأن الإنتفاضة هي مناخ أكثر مما هي حل، فإنها تلقي بمسؤولية الصيغ وطبيعة العلاقات على عاتق القوى المنظمة، والتي يجب أن تمتثل لرأي الشارع وقناعاته، وأن تكون وفية لتضحياته، ومعنى ذلك أن تتخلى عن النظرة الفئوية، وأن تعتمد القواسم المشتركة.

وباعتبار أن الإنتفاضة امتدت إلى الشارع العربي من أقصاه إلى أقصاه، وتركت آثاراً هامة، فيجب أن تبقى عربية بتوجهها وعلاقاتها، أي أن لا تقتصر على الضفة وغزة، وقد تأخذ أشكالاً، لا حصر لها من حيث ترتيب الصيغ والعلاقات، كي تبقى فعالة ومؤثرة، خاصة وأن الوضع العربي الآن أكثر استعداداً من أية فترة سابقة.

لأن قوة الانتفاضة تتمثل في استمرارها أولاً، وفي مداها العربي بعد ذلك، ثم العالمي. بمعنى أن المجال الحيوي وعناصر الإمداد لحركة مثل هذه، بعد أن ازداد الحصار وتزايد ثقل المواجهة والعبء، لا بد أن يُستمد أولاً من المحيط العربي ثم من التأييد العالمي، وهذا يقتضي أن يتم التفكير باستمرار لتوفير عناصر الدعم من المحيط، بالدرجة الأولى.

ولا بد أيضاً أن يتم التفكير بوسائل جديدة وإبداعية من أجل مواجهة الحصار والعنف، عن طريق الاستعانة بالإعلام، بالفضح، بالكشف، ولعل في قضية محمد الدرة درساً كبيراً، فهذا الطفل الشهيد حرك ضمير العالم كله، وترك تأثيراً يوازي، ربما عدد الشهداء مجتمعين، الأمر الذي يجعلنا نفكر بتوظيف الصورة، الملصق، الأغنية، الوثيقة، بحيث تلعب دوراً في إيصال فكرة، في لعب دور، في خلق مناخ ضاغط، وهذا يقتضي أن يفكّر ثم يشارك، كل مبدع. كل صاحب موهبة في توظيف طاقاته من أجل التعبئة وتجنيد كل الطاقات. وفي هذا يكمن أحد عناصر التحدي من أجل الاستمرار، إذ مهما كانت طاقات المقاومة، ومهما تزايد شهداء الانتفاضة وضحاياها، فإن قوة الخصم ومدى ما يملك من وسائل وإمكانيات تمكنه في النهاية من التغلب على هذا التحدي، ومن هنا على الإنتفاضة أن تمتلك وأن تبتدع وسائل إضافية وجديدة من أجل المقاومة.

الصورة في المرحلة الراهنة تلعب دوراً مهماً، وهذا ما يجب الانتباه إليه وتوظيفه. ويبرز في هذا المجال عنصران أساسيان: الصدق والسرعة، ثم تأتي طريقة التوظيف والمتابعة والابتكار، خاصة إذا اعتبرنا أن المعركة طويلة، وأن الخصم شديد المكر، ويملك وسائل كثيرة من أجل إخفاء الحقيقة أو تمويهها، أو على الأقل تأجيل ظهورها.

دمشق

المنفذ المطلق

سعدي يوسف

في الثّامن والعشرين من تشرين ثاني (نوفمبر) ٢٠٠٠ ، وعَبْر رسالة هاتفٍ مسجّلة، أخبرتني رسّامةٌ نمساويّة الأصل، صديقةٌ، أنّها ستمرّ عليّ في السّاعة الرابعة والنصف، عصر الغداة، قالت أيضاً إنّها لن تستخدم سيّارتها، بل ستجيء بالمترو، لكي تصحبني إلى إعتصامٍ في داوننغ ستريت، بمواجهة مقر رئيس الوزراء، توني بلير. الإعتصام من أجل فلسطين. من أجل شعب فلسطين.

في التّاسع والعشرين، أي في الموعد المحدّد، إنتقلنا بالمترو من جنوبيٍّ إيلنغ حيث أقيمُ، إلى ساحة الطرف الأغر الشهيرة، ومنها مضينا، ماشيين، تحت سماءٍ طليقة، إلى داوننغ ستريت. من البعيد لمحتُ العلم الفلسطيني، طويل البيرق، قصير السارية، يلوّح به شابٌ للحافلات العابرة، حيث الركّاب الهادئون لا يكادون يرمشون. دخلنا بين حاجزين من القضبان، أحدهما يلاصق الشّارع، وثانيهما يلاصق الرّصيف، حيث وقف شرطيّان مستريحان يراقبان ما يجري.

ماذا يجري في الواقع؟

كُنّا بين الحاجزين، مع العَلَم الفلسطيني. وفي المساء الذي لم يزل شاحباً، أشعلنا شموعاً داخل زجاجٍ هشٍّ، وصمتنا طويلاً. العدد متواضع : عشرون بريطانيّاً. خمس بريطانيّات. طالبات وطلاّب من فلسطين لا يتجاوزون أصابع اليدين. و : أنا.

بعد ثلاث ساعات (كان الطقس جيّداً بشكل غريب) قالت الرسّامة إنّها مضطرة للمغادرة كي تلتقي إبنتها في مكانٍ ما. عدتُ معها إلى ساحة الطرف الأغرّ، ودخلنا المترو، لينطلق كلٌّ إلى مبتغاه.

أنا عدتُ إلى بيتي في الطابق الثاني. البيت المطلّ على الحدائق الخلفيّة لمنازل شارعٍ فرعيّ كامل. الحدائق الخلفيّة مهجورة في الشتاء، وشجرةُ الجوز الضخمة (أظنُّها شجرة جوز) التي أكاد ألمس أطراف فروعها، تقدّم صورة متحركة لسنجابٍ مرحٍ (والت ديزني الطبيعيّة).

لم أكن مبتئساً لمحدوديّة ما جرى في داوننغ ستريت.

فكما ضاقت بفلسطين الدنيا، ضاق أولو الشأن بفلسطين.

وهنا، في العاصمةِ البريطانيّة، وقفتُ مع أناسٍ يفتحون لفلسطين الأبواب، ويرفعون رايتَها في السّاحة.

فلسطين ليست وحيدة.

■

أستعيدُ الآن، في هذه اللحظات من لندن، بعض ما تحسّستُ وكتبتُ في بيروت ١٩٨٢ ، في

ذلك الصّيف السّاخن الذي تبدّدَ حتى تخومِ الخريف المبكّرة :

« إنّك لا تزال تدور، دائخاً، بين الأنقاض... صداعٌ حادٌّ يمسك بك تحت الشّمس الشديدة، وأنت لا تزال تدور. من هنا اخترق الصّاروخ العمارة. موجة هائلة من الهواءِ المندفعِ المضغوط تدفع بالأثاث والبشر والأبواب والنوافذ. وفي جحيم الدّمار تدور مآثر أسطوريّة، مآثر القدّيسين والشهداء. ساحةٌ ضيّقة وتضيق لكنّها لن تضيق إلى ما لا نهاية. هذه السّاحة التي أراد العدوُّ أن يجعلَها مقتلةً لنا جميعاً، هذه الساحة سوف تنتشر يوماً ما، على إمتداد الأرض الواسعة التي نعرفها ولا نعرفها أيضاً...

نحن لم ننكفئ كي نظلّ وحيدين في « الشّارع الأخير »، وإنّنا لنعرفُ أنّنا والنّاس، كالسّمك والماء، نعرف أنّنا الآن في ساعة الضّيق الشّرسة، وأنّ المعادلة التي أحكمت عناصرها وأطرافها ضدّنا تبلغ بدايتّها أو نهايتها يوماً ما. وكنّا في ساعة الضّيق هذه نتمسّك بـ« الشارع الأخير » ونتماسك ظهورُنا إلى الجدران إتّقاء الضّربة الغادرة، وعيوننا إلى الآفاق الرّحبة، ورئاتُنا تتنفّس هواء عالمٍ نحلم به، ونعمل من أجلِه. حتى إذا جاءت الغارة الأولى، أحسسنا جميعاً بأنّ ما انهارَ، مع الملعب الرياضيّ، كان جدران « الغيتو » وأسواره، وأحسسنا بأنّ الوجوه التي تشمّعت وتشبّعت بالهواءِ الثقيل تكتسب نضارة مبتغاة، أنّ ثياب المقاتل التي طُويت زمناً قد آن لها أن تُنشر، وأنّ البندقية التي كادت تصدأ تتحرّق إلى النّار. لكنّنا أحسسنا أكثر من هذا كلّه، بالماء الدافئ للنّهر العظيم، للشّعب العظيم، يغسل عنّا أدواءنا، ويعيدنا من جديد، إلى ذلك النّشيد الذي غنّيناه طويلاً، وافتقدناه طويلاً : حرب الشعب ».

■

من لي، أنا المتوحّد في جنوبيّ إيلنغ، بأن أبلغ الأرض المقدّسة؟

في ايار (مايو) ١٩٨٢ كنتُ في قبرص، وآن شرعت الأجواء تدلهمّ، إلتحقتُ بفلسطين، حتى قذفت بي آخر سفينةٍ مغادرة، إلى شاطئٍ آخر، في أيلول الذي ما كانت أوراقُه ذهباً ذلك العام.

الأمر يختلف.

في ١٩٨٢ كان لدى الفلسطينيّين مَنفذ.

أمّا في العام ٢٠٠٠ فلم يعد لدى الفلسطينيّين سوى المنفذ المُطلق : الحريّة القصوى...

■

في أوائل كانون أول (ديسمبر) هذا العام، عقدت منظمات وتنظيمات سياسيّة يساريّة، عربية وعراقية، إجتماعاً في إحدى القاعات بمبنى بلدية إيلنغ. أُلقيتْ كلمات من بينها كلمة لنائب عُمّاليّ هو كذلك نائب في البرلمان الأوروبي. لم يكن في الإجتماع ما يلفت النّظر سوى أنّ القاعة لم يدخلها حتى فلسطينيٌّ واحد.

كيف حدث هذا؟

أي، كيف كنت، أنا، العربيَّ الوحيد، في إعتصامٍ فلسطينيّ، وكيف لم يحضر حتى فلسطينيٌّ

وحيدٌ إجتماعاً عربيّاً؟

سيرورة العقود الأخيرة من تاريخنا الرّاهن، وتعقيداتها، تقدّم لنا التفسير (المنطقي ؟)، لكن الأمر يظلّ بالغ القسوة والوطأة على شخص مثلي تقوده الرؤيا والبراءةُ، ويتخبّط في رؤية الخط الفاصل بين السياسة والشّعر.

هل الواقع مخيفٌ إلى هذا الحدّ؟

هل الوعي الفاعل غائبٌ إلى هذا الحدّ؟

■

أتقصّى، هذه الأيام، الصّحف، والصفحات الثقافية بخاصة، باحثاً عن الشعراء والكُتّاب الذين كانت الثورة الفلسطينية خيمتُهم، عشرات السنين... وأتساءلُ في سِرّي : لمَ لا يكتبون. أحياناً يكون سؤالي : لمَ يكتبون؟

إنّ بين إقامة حفلة في الشّارع الأخير، والوقوف وراء المتاريس، فرقاً هائلاً.

■

حين أوشك ياسر عرفات أن يغادر بيروت المحاصرة، سأله أحد الصحافيّين من غير العرب : إلى أين أنت ذاهب؟

أجابه الرجل : إلى أين؟ طبعاً إلى فلسطين.

■

اليوم، وفي كل موضع من الأرض المقدّسة، من البحر إلى الغور، يذهب الفلسطينيّون، بطرائقهم الخاصة، وطُرقهم هم، إلى فلسطين العجيبة.

هل قُدِّرَ لنا، نحن الأبناء، في أجيالِ الخيبات المتراكمة، أن نشهدَ التحقّقَ الأصعب للحلمِ الذي كاد يمسي كابوساً؟

لقد فُتِنّا، طويلاً، بمرادفات الغياب.

فهل آن لنا، أن نُفتَتَنَ بمرادفات الحضور، بمرادفات الإنتفاضة، الإنتفاضة التي لا مرادف لها؟

نعم... لأنّ الإنتفاضة ظافرة.

عمّان

٢٠٠٠/١٢/١٢

العودة إلى الأصل

جمال الغيطاني

جاءت الانتفاضة لتعيد الأمور إلى أصولها، ولتذكر بالبديهيات التي كاد أن يدركها الطمس والتمييع، ولتعيد إلى الذاكرة العربية مراكز بدت وكأنها تآكلت أو توارت عن المناطق، التي يستمد منها الكائن الصُوَر والذكريات وسائر ما يسهم في تعرفه إلى نفسه وإلى ذاته وإلى ماضيه وبالتالي حاضره ومستقبله. منذ أن هبّ الشباب والكهول والنساء من أبناء الشعب الفلسطيني للدفاع عن المسجد الأقصى بعد أن دنسه السفاح ايريك شارون بزيارته المدبرة، منذ أن افتدى الفلسطينيون مقدسات المسلمين بأرواحهم، لم يتوقف نزيف الدم حتى اليوم، وها هو الشهر الثالث على وشك أن يبدأ ويومياً يتساقط شهداء برصاص العدو الموجه إلى الصدور وإلى القلوب، ولا يثن هذا آلافاً آخرين ليتقدموا بجسارة إلى لقاء الموت بصدور عارية، وأيدٍ ليس في قبضاتها سوى الحجارة، هنا نتوقف نحن الذين نتابع ما يجري لنرى ولنتأمل ولنتساءل : ماذا بعد ؟ إلى أين ؟.

بداية أعادت الإنتفاضة الأمور إلى أصولها عندما وضعت حداً لهذا التمييع الذي ساد طوال السنوات الماضية، منذ عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف، منذ مؤتمر مدريد، منذ اتفاقيات أوسلو، منذ إعلان البعض أن جوهر المشكلة بين العرب وإسرائيل نفسي، لذلك رتّبوا مؤتمراً في السبعينات من القرن المنصرم حضره عدد من أساتذة التاريخ والتحليل النفسي من الجانبين ليخرجوا على الناس بمزاعم تؤكد السعي الحثيث باتجاه تمييع الأصول، وتبديد الجذور، شيئاً فشيئاً بدأ ذلك يعم ويسود، ولأضرب مثالاً بالإعلام العربي، لقد توقفت الإشارة الى بلد اسمه فلسطين، وأصبحنا نسمع في نشرات الأخبار عن عرب ٤٨، وعرب ٦٧، وعن الضفة والقطاع، كأنهما نبتتان، لا صلة لهما بكيان اسمه فلسطين، وبشعب يعيش فوق هذه الأرض منذ آلاف السنين، تجرى محاولة لاقتلاعه تماماً وإحلال شعب آخر مكانه تأسيساً على دعاوى عنصرية، أسطورية، وذاكرة مفتعلة لا سند يؤيدها إلا الأساطير.

كُنْتُ أفكر تماماً في الأجيال الجديدة، الذين تدور أعمارهم في العشرينات، عن تأثير الجهد المنظم لمحو الذاكرة الوطنية والقومية، لكن جاءت الانتفاضة لتفاجئ الجميع، سواء الحكام العرب أو الحكام الإسرائيليين، أن الذاكرة لا تزال، وأن محو الواقع مستحيل.

مع سقوط أول شهيد فلسطيني كان الشباب المصريون الذين يدرسون في الجامعة الأمريكية أول المتظاهرين في القاهرة مع كل ما يحمله ذلك من دلالات، أنزلوا العلم الأمريكي وأحرقوه، ثم هدرت مئات الألوف من جامعات مصر، واشتعلت المساجد بعد صلاة الجمعة، ومرة أخرى يصبح الأزهر

منبراً للكفاح الوطني والقومي.

كانت المفاجأة حقاً أولئك الشباب المنتمين إلى الأجيال الجديدة والذين نما وعيهم تحت ما سُمي في الإعلام العربي بثقافة السلام، وكأن السلام يعني طمس الواقع، وتزييف الحاضر، والقبول بالواقع المؤسس على الأسطورة.

قاد هذا الجيل الجديد حركة شعبية واسعة للتعاطف مع الانتفاضة والتضامن معها، وقدّم وسائل جديدة لم يعرفها جيلنا نحن، مثل انشاء المواقع على شبكة الإنترنت التي تبث المعلومات للعالم عن الإنتفاضة، أو تلك التي تدعو لمقاطعة البضائع والمنتجات الإسرائيلية والأمريكية، وبدأت دعوة واسعة لمقاطعة كل ما يرمز إلى الولايات المتحدة، ورغم أن هذه الدعوى لم تلق أية مساندة على أي مستوى رسمي، بالعكس، فقد انتشرت بشكل واسع هدد اقتصاديات هذه المنشآت وانخفض حجم التعامل معها.

بالطبع، جرى في المقابل ما يؤدي إلى تمييع الموقف، والغريب أن الإهتمام بالإنتفاضة وهي على وشك أن تدخل شهرها الثالث في الغرب، يبدو أكثر منه في العالم العربي، تراوحت ردود الأفعال في البلاد العربية، ولاح الداء القديم، كل نظام يريد أو يسعى لتوظيف قضية فلسطين لحسابه، أو للدعاية للشخصيات التي تقود الزعامة! في بداية الإنتفاضة قُدر لي أن أزور فرنسا، وكان الموقف على المستوى الإعلامي سيئاً بالنسبة لنا، فركائز إسرائيل وتأثيرها القوي في وسائل الإعلام صوروا الأمر على أنه حرب دينية يشنها المسلمون ضد اليهود، وبالتالي تمييع القضية الحقيقية، قضية وطن مغتصب وشعب تجرى محاولة إبادته بانتظام، وكان هناك نفر قليل من العرب والفرنسيين يحاولون إيصال قبس من الحقيقة إلى الرأي العام الذي كان متأثراً بالدعاية الصهيونية، إلى الحد الذي دعا ملكة السويد الرقيقة إلى اتهام الفلسطينيين باستخدام أطفالهم كدروع بشرية!.

إلا أن الواقع في الغرب بدأ يتغير، وبدأ الرأي العام يكتشف حقيقة جرائم الصهاينة، واستهدافهم العُزل بالرصاص الحي. وتوالت الصور التي تبثها الفضائيات في مشاهد بربرية دموية لا يمكن لعاقل أن يصدق وقوعها في القرن العشرين.

طائرات الهليوكبتر تقذف البيوت الآمنة بأحدث أنواع الصواريخ.

مدافع الدبابات تصوب تجاه الشقق والسيارات الخاصة.

توازن مختل، شيئاً فشيئاً بدأ الضمير يستيقظ في الغرب، في نفس الوقت الذي بدأت فيه مشاهد التظاهر والاستشهاد وإلقاء الحجارة تصبح أمراً مألوفاً أو تكاد في كثير من الأقطار العربية، ذلك أن استمرار الموقف الذي تفجر في البداية في حاجة إلى عمل سياسي مكثف ومستمر وجهد منظم، وهذا غير متوفر كما ينبغي أن يكون.

يستمر الدم في النزيف، ويستمر الشهداء في السقوط.

العزل في مواجهة الدروع السميكة وأحدث الأسلحة.

إلى متى ؟

هذا ما أطرحه على نفسي يومياً وأنا أتابع ما يجري على أرض الواقع الملتهب، غير أن أخطر ما حققته الإنتفاضة إلى جانب تعرية الأوهام، والجهود التي بذلت على مدى سنوات إعادة الأمور إلى أصولها كما ذكرت، هنا يجب أن أكون صريحاً إلى أقصى حدّ، بعيداً عن تعبيرات السياسيين المنمقة، أو الإعتبارات التي تجعلنا نسكت أحياناً عن الجوهر، فمن أخطر الأمور أننا أخضعنا ما هو جوهري لما هو عابر.

أقول بصراحة والفضل في ابدائها يرجع إلى انتفاضة الشعب الفلسطيني العظيم.

لو اجتمعت كافة قوى الأرض من شرق وغرب، ولو استنفرت القوى المؤثرة في عالمنا اليوم وجلها من الغرب كافة ما تملك، ولو وقعت الاتفاقيات ولو اجتمع البعض من هنا أو هناك، فلن تترسخ لديّ أية قناعة حقيقية بدولة إسرائيل التي ارتكبها الغرب الاستعماري منذ أن عمل المشروع الصهيوني العلماني المؤسس على الأسطورة (!) على زرعها في منطقتنا العربية كخطيئة وخطأ من أفدح ما ارتكب في التاريخ.

قناعاتي تتأسس على عدة حقائق، منها أولاً، استحالة قبول قيام دولة على أساس ديني، وهذا جوهر ما قامت عليه إسرائيل، إن قبول قيام إسرائيل على أساس ديني، على أساس أنهم شعب الله المختار، وأن أرض فلسطين أرض الميعاد بالنسبة إليهم، فيه نفي للآخرين، مسيحيين كانوا أو مسلمين، وفيه أيضاً تبرير لقيام دول أخرى على أساس ديني صرف، وعندما تقوم الدول على أساس المعتقد الديني وحده، فهذا يفتح باب الصراع اللانهائي، لأن كل طرف سيعتمد كتابه المقدس كمرجعية وحيدة، وهذا في حدّ ذاته مضاد للفكر الغربي الذي تكون وتأسس بعد حروب طويلة أريقت فيها دماء غزيرة، حتى توصل إلى الصيغة الحالية التي تفصل بين الدين والدولة، هذه الصيغة التي تبلورت في ثورة ١٩١٩، من خلال الشعار الذي صاغته الحركة الوطنية المصرية عبر مفهومنا وتراثنا، «الدين لله والوطن للجميع»، إذ كان جوهر الحضارة المصرية عبر تاريخها، التعايش للجميع من منطلق إنساني، وقبول الآخر رغم الخلاف.

لا أقبل فكرة دولة إسرائيل الدينية، ولا الفكرة الأخرى التي تقول بانشاء وطن لليهود بسبب ما لاقوه من اضطهاد في الغرب، نعم.. لقد لاقى اليهود اضطهاداً مروعاً من عنصرية الغرب، خاصة من النازية، ولقد كتبت أكثر من مرة معلقاً حول الجدل الذي يثور بين الحين والآخر حول المحرقة النازية، وعدد اليهود الذين أبيدوا فيها، قلت إن موت إنسان واحد فقط بالنسبة لي بسبب عقيدته أو لونه كارثة إنسانية ولا يعنيني هنا العدد، الخطورة في المبدأ، لكن من ناحية أخرى، ما هي مسؤولية العرب عن الاضطهاد الذي لحق باليهود، سواء خلال العصور الوسطى أو القرن العشرين.

يقول التاريخ إن اليهود لم يجدوا الملاذ الآمن إلا في الأقطار العربية، بعد خروجهم من الأندلس مع المسلمين، استقروا في المغرب الكبير، في المغرب الأقصى وجزيرة جربة في تونس، وفي المغرب أقامت

الجاليات اليهودية بجوار القصور الملكية رمزاً للحماية الخاصة وتعرف المناطق تلك بالملاح، وفي مصر ساهموا في جميع أنشطة الحياة الإقتصادية والفنية ولم تكن هناك مناطق خاصة لإقامتهم (غيتو).

لم يحدث أن تعرض اليهود لأي اضطهاد من العرب، بل كانوا جزءاً من المجتمع العربي، ولكن الغرب العنصري أراد التخلص من اليهود، ولكن ليس عن طريق المحرقة النازية والعنف، إنما بدفعهم إلى تأسيس دولة تقوم على أساس ديني، وعلى أساس اختلاق تاريخ كامل عناصره الأسطورة ومعاداة المنطق، من هنا كان دعم الغرب الاستعماري، العنصري لقيام دولة إسرائيل ليس كخطيئة وجريمة في حق العرب عامة والفلسطينيين خاصة، إنما كخطيئة أيضاً ضد اليهود بحشرهم في «غيتو» اتخذ هذه المرة شكل دولة، دولة تقوم على أساس عنصري، المتميزون فيها هم اليهود لأنهم يهود، وداخل اليهود أنفسهم تمييز آخر بين من هو غربي ومن هو شرقي، إذن.. ما الفرق بين الفكرة العنصرية والفكرة الصهيونية، كلاهما يقوم على أساس الإنتقاء العنصري، والتعصب لجنس ولفكرة. هكذا جند الغرب طاقته لازاحة شعب كامل من مكانه، وإحلال اليهود مكانهم، وما نراه الآن من قصف بأحدث الأسلحة الأمريكية لمنازل ومستشفيات وسيارات مدنية ما هو إلا فصل من فصول المأساة التي أعلنت رسمياً باسم دولة إسرائيل.

هنا قد يسأل البعض، وما هو الحل؟

الحل يجيء هذه المرة من مفكّرين يهود بارزين، يدركون خطورة فكرة دولة إسرائيل على اليهود أنفسهم، وأبرز مثال على هذا الاتجاه الجديد مقال مستشار الرئيس الفرنسي السابق جاك ايتالى الذي تُرجم ونُشر في «أخبار الأدب»، هذا يمثل تياراً جديداً بين اليهود، وفي مواجهته تيار عنصري صهيوني يدعو إلى حرب مقدسة ضد العرب والمسلمين.

في رأيي، إن فلسطين كلها، وليست فلسطين أوسلو، أو فلسطين ٤٨ أو فلسطين ٦٧، كما اعتاد الإعلام العربي أن يستخدم هذه المصطلحات التي تكرس واقعاً قائماً، مفروضاً، لا توجد إلا فلسطين واحدة، والتي تقوم على جزء من أراضيها الآن خطيئة ارتكبها الغرب اسمها دولة إسرائيل، فلسطين يمكن أن تتسع للجميع، معتنقي الأديان الثلاثة، باعتبارهم مواطنين متساوين، بحيث يمكن أن يكون رئيسها فلسطينياً مسلماً أو فلسطينياً مسيحياً أو فلسطينياً يهودياً، ولهذا تفصيل آخر.

حتى يتحقق ذلك، أتطلع بقلب باك إلى طوابير الشهداء اليومية، وإلى الحجارة في مواجهة الطائرات والدروع، وأسأل.. إلى متى؟.

القاهرة

انتفاضة أولاد مصر ..

يوسف القعيد

. . لن أستعير فذلكة المؤرخين وأقول إن مصر على مدى تاريخها، خاضت حروبها في سوريا، وأن السلطان الأشرف قانصوه الغوري استشهد في مرج دابق، وأن فكرة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، نبتت أثناء حصار الفالوجا الذي مر به جمال عبد الناصر وصحبه.

لن أكتب أن ثلاثة من أنبل وأشرف شهداء مصر في القرن العشرين استشهدوا من أجل فلسطين وهم جمال عبد الناصر وأحمد عبد العزيز وعبد المنعم رياض. وأنهم يتقدمون طابوراً طويلاً من شهداء مصر الذين قدموا أرواحهم ودماءهم في الصراع العربي - الإسرائيلي.

سأتكلم فقط عن أبطال الانتفاضة الراهنة، ولا أقول الأخيرة. أولاد مصر الذين قاموا بانتفاضتهم الخاصة بهم. وقد أثبت أهل مصر أن روح الوطن لا يمكن أن تتوه تحت ركام محاولات التوهان وقلب القيم. وتبديل الحقائق ومحو صفات التاريخ المكتوبة بدماء الشهداء.

قبل الانتفاضة الراهنة. كنت أتوهم أن روح مصر قد جرى اغتيالها. وأن تحييد المصريين أوشك أن يقع. لكن الانتفاضة، انتفاضة القدس، انتفاضة تحرير الوطن، انتفاضة إعلان الدولة، أعادت تأكيد الحقائق القديمة التي ما زالت قادرة على إثارة الدهشة. رغم ما جرى وما حدث.

مفاجأة المفاجآت جاءت من هؤلاء الصبية الذين يجرون في السنوات من الخامسة عشرة حتى الخامسة والعشرين، الذين ولدوا بعد دمار الجسور وخراب الديار، جاءوا إلى الدنيا بعد أن صوّر من صوّر تعبير أن اكتوبر آخر الحروب. وقال من قال: فلنحاول بداية مشروعنا الخاص بعيداً عن الآخرين، وأعلن من أعلن أن المشروع الصهيوني لا يشكل خطراً على مصر.

أعترف أنني كنت واهماً، ولم أكن قادراً على تَلَمُّس تضاريس روح مصر، لأن ما جرى اسقط كل أوهامي. المشهد الأول جرى عندما دعتني احدى المدارس الإعدادية والثانوية التي تدرس موادها بلغات أجنبية، أي ابناء المترفين الجدد في مصر، كنت أتوقع أنهم يعيشون في الضفة الغربية من برّ مصر، لا يدركون ما ندرك، ولا يعانون مما نعانيه، ولا تحتك جلودهم بأشواك الواقع.

وقف صبيّ في آخر أيام الطفولة، وأول ليالي صباه، وطلب الكلمة، قال:

-إن كُلَّ ما قمنا به في مصر حيال الانتفاضة الفلسطينية البطلة لا يكفي أبداً.

لا يعرف الصبي كلمة الحد الأدنى، حتى يقولها، لكنه لم يكن راضياً عن كل ما قدمه الشعب أو الحكومة والأحزاب. هناك ما هو أكثر، حتى نكون جديرين بأن نكون أولاد مصر، قال ما معناه إننا لا نليق بهذا البلد، وأن مصر تستحق شعباً آخر غيرنا يعيش فيها.

في اليوم التالي، كانت مفاجأة الفتى الذي هرب من أسرته، لكي يسافر إلى فلسطين، يفتديها بروحه، ومن شدّة رومانسيته، ولغياب خرائط الوطن العربي واختفائها، ولأن بعض التلفزيونات العربية

تعرض خريطة الوطن العربي، ومكان فلسطين، تقلع الأعين من مكانها بكلمة اسم المغتصب.

من شدّة سذاجة الصبيِّ تصور أن الطريق إلى العريش يمر بالاسكندرية. وسافر إليها فعلاً، وفيها عرف الحقيقة، وعاد إلى القاهرة، ليسافر إلى القناة، ومنها إلى الحدود المصرية ـ الفلسطينية، ولأنه يمر بمرحلة الحلم، لم يتسلل من الأسلاك الشائكة، وانما اتجه الى الضابط من نقطة الحدود، وقال له إنه يريد العبور إلى فلسطين، ليشارك أهلها وشعبها إنتفاضتهم ضدَّ المحتلين.

الباقي معروف، فالضابط أبقى الفتى عنده، واتصل بوالده حتى يسافر إلى نقطة الحدود من أجل العودة به. ذلك أن سِنَّه لا يسمح له بالمشاركة في الانتفاضة مع ابطالها من أبناء فلسطين الذين من نفس سنه، إنه الجيل الذي نبت من وراء ظهورنا، وفاجأنا بما لم نعد قادرين حتى على الحلم به.

إن كان الصبي أحمد شعراوي هو أول مصري فكر في هذه الرحلة، فلم يكن الأخير، ذلك أن فتاة من نفس سنِّه هربت من وراء أسرتها، وسافرت إلى حدود فلسطين من أجل أن تشارك في ما يجري هناك، كانت قد ذهبت إلى مراكز التبرع بالدم، وتبرعت بكل ما طلبوه منها، لكنها عرفت أن المحتلين منعوا سيارات الاسعاف المصرية من الدخول، وأغلقوا الحدود بين مصر وفلسطين، فقررت أن تسافر بنفسها، ما دام دمها ودماء غيرها من المصريين قد منعت من الدخول.

مظاهرات طلاب جامعات مصر، كانت أكثر من مفرحة، لكن الجديد كان مظاهرات طلاب المرحلتين الثانوية والإعدادية، هذا ما لم نتعوده من طلاب العلم في مصر من قبل، بكل ما في هذه المرحلة العمرية من براءة وتصور وبُعد عن التنظير ووصول الحقائق البديهية من أقصر الطرق وأسهل الدروب، منذ مظاهرات الطلاب في النصف الثاني من الأربعينات. وكانت فلسطين من الأسباب الجوهرية لها، أقول منذ أكثر من نصف قرن لم نشهد مظاهرات مصرية فيها هذا القدر من العفوية والصدق.

ثم تنادت مصر بالمقاطعة.

استوقفتني ربَّة منزل، في أحد محلات حَيِّ مدينة نَصْر، قالت لي، بدون تعارف أو مقدمات

ـ هوايتكم الوحيدة هي تعذيبنا، تتكلمون عن المقاطعة ولا أحد منكم يفكر في أن يحدد لنا ماذا نقاطع؟! حددوا لنا البضائع والمحلات التي يجب مقاطعتها، ولا تنسوا أن أمريكا هي إسرائيل، وأن جميع شهداء فلسطين يستشهدون بيد قناص من النازيين الجدد، فإن السلاح آت من هناك، من أمريكا.

كأن الزمان، دار دورته الكاملة، مع أن هذه الدورة جرت في أقل من شهر، من قبل كانت المحلات تتسابق في الفخر بأصولها الأجنبية. وتعلن عن أماكن صنع بضاعتها خارج مصر، كانت تلعب على عقدة الخواجة، وتراهن على سبق الجري وراء كل ما هو مستورد، وكان الناس يجرون وراءها كنوع من المباهاة الاجتماعية.

بعد الانتفاضة البطلة، ورفع شعار المقاطعة كسلاح شعبي، إذ بهذه المحلات نفسها، بعد أن انصرف عنها الناس، تنشر إعلانات في الصفحات الأولى من الصحف، تقول إنها لا تبيع منتجات شركات مقاطعة وأنها تساند شعب فلسطين، وإن كانت لم تقل إنها ضد الصهاينة.

هذه المحلات تُصَفِّي أعمالها الآن، وقد بلغت خسائر احداها ستة عشر مليوناً من الجنيهات في أقل

من شهر واحد، رغم أن هذا المحل أعلن بياناً بعدد العاملين الذين يعملون لديه، وبالتالي عدد الأسر والعائلات التي تعيش من دخل هذا المحل، في محاولة لاستعطاف الناس، ومع هذا قاطعه المصريون.

خيل إليّ أحياناً أن الزمن يعود إلى الوراء، وأن الستينات تهل علينا مرة أخرى، وأن الناس ـ خاصة العاديون منهم ـ يبدون سعداء في كل مكان من بر مصر، ذلك أنه لا يوجد بيت في مصر، لا يعلق على جدرانه صورة شهيد من شهداء حروب الصراع العربي الإسرائيلي الخَمْس.

إن المصري لا ينسى عدوَّهُ أبداً، والدماء مُقَدَّسة بالنسبة إليه، عندما تكون دماء شهداء استشهدوا في سبيل الوطن، هل أكتب ما هو أكثر؟ لديَّ ما لا يمكن الانتهاء منه من الكلام الذي يمكن أن يشكل ملحمة طويلة عنوانها المصريون يحرقون كامب ديفيد.

يخطئ من يتصور أن كلمة النهاية يمكن أن تُدَوَّن في سجل هذا الصراع، الذي لم يكن صراع تحرير تراب محتل بقدر ما كان صراع وجود، ويخطئ من يقول إننا كنا ندافع عن فلسطين، كنا ندافع عن أنفسنا عن بلادنا وعن هويتنا، فالمحتل واحد، والخطر واحد.

لو لم تضع فلسطين، لاخترعناها.

لو لم تكن القدس، مدينة الله، وكلمة السماء لبَنَيْناها بخفقات القلوب ونور الأعين.

ها هم أولادك يا مصر، في صورة تذكارية عند قمة الوجدان القومي العربي..

لقد صار الكل في واحد.

وما قام به المصريون، كان رَسَائل مُحَدَّدَة، ثلاث رسائل، تميزت من بين ملايين الرسائل التي خرجت من ضمير مصر مؤخراً، رسائل أهل مصر كانت متنوعة.

لحُكَّام تل أبيب نقول :

نحن لم نخرج من الصراع العربي الصهيوني، ما زلنا في قلب قلبه، وفلسطين قضية كل مصري.

ولأمريكا نقول :

إن هذا الانحياز الأعمى للمحتل والمغتصب ضد صاحب الحق، سيهدد مصالحها ووجودها في كافة أنحاء الوطن العربي والأمة الإسلامية.

للعرب والمسلمين كافة، نقول :

مَنْ قال إن الصمت من ذهب ضحك عليكم قروناً طويلة، وصدقتموه، لقد خرج صوتنا ليعلن رأينا، الصمت موت وغياب، والكلام حضور.

والفعل أقوى إنباءً من أيِّ كلام..

فلسطين .. تكون أو لا تكون ..

ولا بد أن تكون ..

ذلك هو الممكن الوحيد.

القاهرة

شرفة الانتفاضة

الياس خوري

كنّا نجلس في مقهى «الروضة» في بيروت، البحر الأزرق على يميننا، وأمامنا مدى المدينة الذي يلفه الصمت، وكنا نتحدث عنكم. أقول عنكم وأقصد عنّا. فنحن الرجال الثلاثة الذين تلونت رؤوسهم بالشيب، لم نعتد بعد على الفصل بين ضميري المتكلم والغائب. فالضميران يمتزجان كأنهما ما انفصلا. الغائب يحضر والمتكلم يغيب أمام شرفة الانتفاضة التي تنزف دماً.

كنا نجلس في مقهى «الروضة» في بيروت، حين غرق البحر في الليل. حين يفقد البحر لونه الأزرق وينغمس في الليل، يصبح غريباً. كان البحر غريباً، وكنا نستمع إلى أمواجه تضرب صخور الشاطئ، ونحكي معكم. وأخذنا الكلام، جاء الكلام كإطار، وكنتم على شرفات الموت التي تفتح انتفاضتكم على السماء، وكنا على شرفة الليل الذي يبتلع الألوان. وفجأة التمعت قنبلة مضيئة في الأفق، ورأيناكم تحملون بيروت وتمضون بها الى هناك تحت زخات الرصاص، ودوي القنابل.

كنا نجلس في المقهى، وكنتم معنا. عدنا فجأة أبناء هذه الحركة التي أخذتنا إلى الأردن يوماً وأعادتنا إلى لبنان أياماً. عجيب أمرنا، لا نزال نحكي كالأبناء، مع أننا نستطيع أن نكون أجداداً. لا نزال حين نتحدث عنكم ومعكم نشعر أننا أمام البداية التي تبدأ كل يوم. وحدهم الأطفال من رماة الحجارة يضعون البداية، لأنهم مع كل حجر يبدأون، لكننا نحن أيضاً، حين يأتي الكلام عن فلسطين، نصبح أبناء هذا المدى، ونستعيد نكهة البداية.

كنا نجلس في المقهى، الأول يحمل هاتفاً خليوياً ويتصل برام الله، والثاني يعدد أسماء المستوطنات الإسرائيلية التي يجب أن تزول، وثالثهم أنا. كأن بيروت صارت في رام الله، كأن الحكاية تبدأ من جديد، كلماتها هي كلماتنا، وموتها هو موتنا، وحلمها أيضاً.

كنا نجلس، نقبض على أصابعنا كمن يقبض على الجمر، وتحدثنا عنكم. وهذه المرة لم تكن ذاكرتنا هي التي تحكي. كنا في الماضي، حين نلتقي، نحكي مثلما يحكي قدماء المحاربين. نذهب إلى شوارع الذاكرة، نعيد بناء ما تهدم، وإحياء من قضى، ثم حين نفترق يعود كل واحد منا إلى عالمه الحقيقي الذي لا تحتل الذاكرة فيه سوى موقع ثانوي. كنا نلتقي من أجل الذاكرة، أما في الأمس، فلقد تراجعت الذاكرة القديمة أمام هذه الذاكرة الجديدة التي تصنعها الانتفاضة. ورأينا كيف تتجدد الأشياء، ويولد الحي من الميت.

كنا نجلس، ونحكي.

لم نسأل أنفسنا لماذا نكتفي من الكلام بالكلام. فنحن الذين عرفنا كيف يتحول الكلام فعلاً في العرقوب والأغوار وشوارع بيروت، كنا نشعر أن الكلمة لا تزال مثلما تركناها وهي تغطي أجساد

رفاقنا الشهداء، تملك القدرة على الفعل، حتى وإن كان الفعل بعيداً عنا.

وفي لحظة، شعرنا أننا في الخطأ.

تأتي بعد كلمة جميلة نقولها، أو عبارة نكتبها. الحقيقة أنني عندما ذهبت إلى الجنوب بعد تحريره في أيار الماضي، ووصلت إلى شرفة الجليل اللبناني في قرية العديسة، حيث يمتد إلى يمينك الجليل الفلسطيني في لا نهاية الأفق، أحسست وأنا أقف مع الواقفين أن قلبي يسقط هناك.

قلت إنني أريد أن أذهب، وأنا أعرف أن عليّاً محق في قوله، وأنني لو ذهبت، لن أفعل شيئاً يختلف عمّا أفعله هنا في بيروت.

«لكن عيوننا تعبت»، قلت لهما. «لم أعد أستطيع النظر إلى الشاشة الصغيرة التي أصبحت تشبه الكفن. لم أعد أستطيع التفرُّج على الموت»، قلت، ووافقاني، وقال حسام إنه يشعر كل ليلة بالدموع تخرج من عينيه، وأنه صار يخجل من زوجته وأولاده.

وهنا يكمن الخطأ.

كنا نجلس في المقهى، والخطأ يحاصرنا من كل ناحية. لم نعد نملك من الكلام سوى الكلام، تتحول الكلمة حبلاً يخنق، بدلاً من أن تكون طريقاً. الخطأ هو أننا نجلس بدل أن نفعل شيئاً، أردت أن أقول، لكنني لم أقل، فأنا في الحقيقة لا أشعر أنني لا أفعل شيئاً، أشعر أن يدي ترمي مع كل رمية، وأن جسدي ينحني مع كل قذيفة أو رشقة، وأن حكايتي مستمرة هناك، فلماذا نقول إننا لا نفعل شيئاً؟.

«لا تقارنّا بالشهداء»، قال حسام، «الشهداء وحدهم هناك، أما نحن... نحن لا شيء».

كنا نحكي ونحكي، حين سأل حسام عن الفعل، «ماذا يجب أن نفعل»؟ سأل الرجل الذي استعاد اسمه القديم فجأة. كنا نسميه حساماً في حركة فتح، لأنه مثلنا جميعاً كان قد اتخذ لنفسه هذا الاسم الحركي، مستبدلاً به اسمه القديم.

فجاة رأيت أحمد وقد عاد إلى حسام، وسمعت صوته القديم، واختلطت الأمور في عينيّ. رأيتنا في «التخطيط» أو في «القطاع الغربي»، حيث كان السؤال حين يرتفع يتحول مشروعاً أو خطة.

كنا نجلس أمام البحر حين سأل حسام ماذا يجب أن نفعل، وبدأ السؤال في التلاشي. وحين قلت «نذهب إلى هناك»، ابتسما وقال علي: «وهل تعتقد انهم يحتاجون الى كوادر من الكهول تثقل عليهم بدل أن تساعدهم». ووافقه حسام، أما أنا فلا.

ربما كنت أكبرهم عمراً، لكنني لم أستسغ عبارة الكهول هذه، لا لأنني لا أسلم للزمن، ولا لأنني أكره شيبي أو أخافه، فأنا أردد دائماً مع المتنبي بيته الرائع:

«خُلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا»

بل لأنني كنت أشعر في تلك اللحظة، أنني أملك حيوية فتى في الخامسة عشرة، وأنني قادر أن أحمل كل حجارة العالم، وأقذفها في وجه جنود جيش الاحتلال.

قلت إنني أريد أن أذهب فقد سقط قلبي في الجليل. وحكاية قلبي ليست خيالية، ولا علاقة لها

على الاطلاق بالمشاعر الرومنطيقية التي تصنعها كلمة نقولها أو عبارة جميلة نكتبها، الحكاية حصلت هكذا، ولم يكن في الأمر لجوءاً الى الكناية أو الاستعارة. فبعد تحرير الجنوب في أيار ٢٠٠٠، ذهبت مع الذاهبين إلى هناك من أجل أن أقرأ التاريخ قبل أن يُكتب، وعلى مشرفة العديسة التي تطل على المدى اللامتناهي، مددت يدي في الهواء فصرت في فلسطين. هناك سقط قلبي ورأيته كيف تدحرج أمامي، وذهب بعيداً، من شرفة الجليل اللبناني الذي يطلّ على الجليل الفلسطيني، أحسست أن القلب يسقط، لا مثل صورة في الأدب، بل مثل قلب يُعتصر داخل القفص الصدري ثم يهوي.

أردت أن أذهب من أجل قلبي، وهنا يكمن الخطأ.

أنتم تؤجلون لغة القلب دون أن تدروا. فرغم أن الانتفاضة طلعت من أعماق اليأس والخيبة والشعور بالمهانة، لكنها تمتلك لغة سياسية واضحة يجب أن نتعلم قراءتها. إنها تعلمنا أن السياسة يجب أن تكون مثل السياسة. فالشعب الفلسطيني لا يذهب اليوم إلى موته، ولا يحتفي بذاكرته، بل يذهب إلى صناعة استقلاله الوطني على ٢٢٪ من أرض فلسطين.

القلب يجب أن يتأجل الآن، وبدل اللغة المليئة بالاستعارات، يجب أن تولد لغة باردة تقول الحقيقة المباشرة. هناك احتلال ومستعمرات استيطانية، وهناك ثورة شعب من أجل الاستقلال. المعادلة واضحة، يجب تأجيل كل الكلام من أجل أن يتحقق هذا الهدف. وبعد ذلك نصوغ لغة جديدة من أجل الحق والعودة.

قال علي إنه لم يعد يحتمل العجز العربي العام.

قال حسام إن الخطأ في كل مكان.

وبدل أن أجاوبهما أحنيت رأسي موافقاً. أردت أن أقول لهما إننا نكتشف اليوم الخطأ العربي، أي أخطاءنا نحن، فالعالم العربي يكتفي من الانتفاضة بالتباكي على صدرها. «لكنها الأنظمة»، قال علي.

«العجز ليس في الأنظمة فقط، بل في الشعوب أيضاً، لقد كشفت الانتفاضة ما عجزت النكبة عن كشفه»، قال حسام، «النكبة أشارت إلى عجز الأنظمة، لكننا نكتشف اليوم أن العجز بنية كاملة في مجتمعاتنا، من القمع إلى التسلط إلى الرضوخ فالقبول».

أردت أن أقول إننا نتحدث عن العجز، في زمن تفتح فيه الانتفاضة الأفق على الاحتمالات. وهنا الخطأ أيضاً.

الانتفاضة لا تلغي العجز العربي، لكنها تؤشر إلى احتمال تجاوزه. العالم العربي يبدو الآن عاجزاً لأنه فقد صورته وفكرته، لقد تحطمت المرايا العربية التي كنا نرى فيها صورنا. جاء الديكتاتور وحطم المرايا، وفرض صوره بديلاً عن كل الصور. وحين تقبض فلسطين من جديد على فكرتها وصورتها، فإن هذا يؤشر الى احتمال عربي أيضاً، أليس كذلك.

قلت «أليس كذلك»، دون أن أقول مقدمتها، فابتسم صديقاي، كأنهما أرادا مداراة تلعثمي بالابتسام.

كنا نجلس في «مقهى الروضة»، وكانت بيروت مثل ذاكرة لا تتذكر، كانت المدينة تنبسط أمامنا

سوداء على مرآة البحر الذي تلوّن بالليل.

ولم نكن نملك كلاماً.

ورأيت في مرآة هذا البحر الذي أسموه في الماضي بحر الروم، ويسميه الأتراك البحر الأبيض، ويسميه الأوروبيون البحر المتوسط، ونمزج نحن العرب بين اسميه التركي والأوروبي، رأيت في مرآة هذا البحر كل الدم الذي أريق فيه وعلى جنباته. وتساءلت، وأنا أروي لصديقي كيف انتهت الحروب الصليبية بهزيمة مزدوجة للفرنجة والمغول على أيدي المماليك، عن المعركة القديمة والمغول، حين سألني حسام عن المماليك، «من سيخرج المماليك» بعد ذلك. وضحكت، لا لأن المقارنات التاريخية مضللة فقط، بل لأن الاسرائيليين وفروا على المنطقة حرباً مزدوجة لأنهم مزجوا في داخلهم الفرنجة بالمغول.

«نهزمهم هذه المرة حين نهزم المماليك الذين يتحكمون فينا»، قلت. وكنت على خطأ أيضاً.

فالمسألة الآن ليست انغماساً في تاريخ مضى، حتى ولو احتلت بعض رموزه الثقافية والدينية، مكانة في وعي الانتفاضة لنفسها. المسألة الآن هي كيف يتحقق الاستقلال الفلسطيني، كمقدمة لمعالجة نظام الفصل العنصري الذي تؤسسه اسرائيل في المشرق العربي.

كنا نجلس في المقهى، وكان البحر. وكنا على مقربة من فلسطين. عكا تبعد رمية حجر عن صور وبيروت في حيفا، ورام الله تولد إلى جانب القدس، وبيت جالا تحت القصف، وأسماء المعابر وخطوط التماس. فلسطين تولد اليوم.

ونحن الذين نخبئ في عيوننا قضبان السجون، نحن من المحيط إلى الخليج، أمام البحر الأبيض، نقرأ أوجاعها، ولا نملك سوى كلمات لم نعد نعرف أن نكتبها.

بيروت

اسم الفلسطيني ورسالته

عباس بيضون

الصورة والخبر إياهما كل يوم. الفتيان والشبان بالحجارة والمقلاع وراء جدران أو في عبور سريع في الشارع. الجنود الإسرائيليون من بعد يرمون بكل شيء وبالنار بالطبع. عدد يومي من القتلى من المعتاد أن يشمل فتى أو أكثر، حرب غوار بالحجارة متحركة ومتنقلة. من دون تعديل أو بتعديل طفيف تتكرر الأمور ذاتها، يغدو عادياً موت الأطفال ومبادلة الحجارة بالرصاص. يغدو عادياً أن يقتل يهودي المستعمرات المسلح عربياً لأنه عربي. يغدو ذلك عادياً ومتكرراً حتى للفلسطيني نفسه.

يحدث كل يوم من دون نتائج منظورة أو متوقعة وأحياناً من دون نتائج على الإطلاق. الإصغاء العالمي أقل، ففجأة بدأوا يتحدثون، في عالم مهجوس بالبيدوفيليا، عن استغلال الأطفال العمد، والتضحية بهم قرابين إعلامية وتحريضية. والأرجح أن فوبيا العنف في مسألة معقدة كهذه قد تدعو إلى صرف النظر ـ حين يمكن ذلك ـ عن تحديد المسؤول ومساواة الحجر بالرصاصة، ثم إن المجتمع الإسرائيلي يزداد عدائية فهو لا يرى في الحجر إلا رصاصة مستقبلية، وهو يعلم أن الكراهية عنوان سلوكه طيلة نصف قرن وأكثر لا ينتظر بالطبع، ولا يصدق، أن يقابل بالتسامح. مع كل ذلك نعرف أن الانتفاضة لا تحتاج إلى بارقة أمل ولا إلى نتيجة منظورة، ولا إلى مطلب قريب ولا تحتاج حتى إلى مستقبل لتستمر وتستمر أشهراً وأعواماً. ليست هي المرة الأولى التي نختبر فيها قدرة الشعب الفلسطيني على المثابرة من دون أمل. لعله فريد في ذلك ونسيج وحده. تمر أشهر وأعوام من العسر الكامل ويستمر التحرك مع ذلك ولا يفقد زخمه بسبب انسداد الآفاق أو فقدان الوعود. أمر يحير وقد تدعونا الحيرة في أحيان كما دعت كثيرين إلى سيكولوجيا عدائية، فنقول إن الفلسطينيين شعب انتحاري مهجوس بعبادة الموت كاره للحياة، ويضحي بأطفاله قرابين لديانة من هذا القبيل. كثيرون عرباً أو غير عرب تكلموا هكذا من دون أن يسألوا عن السبب في دفع الفلسطينيين إلى هذا اليأس وذلك الجدار. مَن جعل الفلسطيني ـ إذا صح التحليل ـ عابداً للموت؟.

لا ننسى أن هذا الشعب لا يزال يقاتل في دائرة غير منظورة وفي سبيل مطالب جُلّ أن تسمى كما كان يقول المتنبي. هو وحده بين الشعوب يقاتل ليكون له صوت واسم ووجود. كم هي الشعوب التي لا تزال في درجة من الوجود الاحتمالي أو ما قبل الوجود وما قبل الاسم وما قبل الوطن؟ هُدِر دم فلسطيني كثير في معركة غير منظورة هي أن يكون للفلسطيني اسم وبطاقة. أن يراه العالم ويضطر لمخاطبته. أن يجبر العالم على نطق اسمه. أن يعود لفلسطين بالقوة اسمها. من أجل ذلك يقاتل الفلسطيني الرصاصة بالحجر، فهذه معركة لا يرجى منها نصر بالطبع ولا يؤمل أن تفضي إلى كسب. إنها معركة الاسم الفلسطيني، لنسمها هكذا، والسلوك الإسرائيلي لم يكن في يوم سوى انكار هذا الاسم وطمسه وازالته وتجاهله في أحسن الأحوال. الاستيلاء على الأراضي والمنازل والاقامة على سطوح المساجد وانتهاك المقدسات الفلسطينية ليس له معنى آخر. زيارة شارون الباذخة للحرم ليست شيئاً سوى هذا. إنها مجدداً سحب الاعتراف وإعادة الاسم إلى ما قبل الوجود. الإسرائيلي يصارع أيضاً على هذه النقطة. إنها تخيفه هو الذي يعرف بخبرته أن المسألة هنا ويريدها أن تبقى دائماً في نقطة الصفر. في الاسم واللااسم. في الاعتراف وسحب الاعتراف. يقاتل الفلسطيني بالحجر لأنه، بخلاف ما يقال، لا يتجاهل العالم، فالحجر ليس سلاحاً حقيقياً بقدر ما هو إعلان، وبقدر ما هو لفت انتباه. وبقدر ما هو في النهاية استغاثة ودعوة للاعتراف، إنه لغة أخرى كلغة الدخان والنار، رسالة إلى العالم.

يخاطب العالم أولاً، وكم يحتاج الأمر إلى مثابرة وزخم ودم ليضطر العالم إلى سماع الصوت الفلسطيني الذي لا يصل إن لم يكن له هذا الثمن الفادح. لنتحدث عن الثمن. لنقل إن العالم يفرضه على الفلسطيني، إنه لا يصغي إلاّ برقم ضحايا كبير وبمدد طويلة. العالم هو الذي لا يعطي

اعتباراً لحياة الفلسطيني. الاسرائيلي المسلح هو الذي لا يعطي اعتباراً لحياة الفلسطيني. ننسى ذلك أحياناً، ننسى أن ثمة قاتلاً وأن الرصاصة تأتي من الجهة الأخرى. ننسى أن لا سعر لحياة الفلسطيني أو العربي في إسرائيل وأن المحاكم لا تجازي تقريباً على قتل عربي، وأن بوسع يهودي المستعمرات المسلح أن يقتل رغم أن الجيش الإسرائيلي القوي لا يحتاج إلى دعم. إذا كان من حق يهودي المستعمرات أن يقتل فضلاً عن الجندي الإسرائيلي، تجلت صوره معاكسة. الفلسطيني «الثائر» لا يستعمل سلاحاً متوفراً ويكتفي بالحجر، لأنه يحترم أكثر حياة الإسرائيلي وحياة أطفاله بالأخص، ويحترم حق الحياة بوجه عام، ويحترم القانون الذي يحرم القتل. أما الإسرائيلي في دولة القانون فيبيح لنفسه أن يجازي الحجر بالقتل، وأن يستحل حياة العربي كما ينتهك ملكه. العالم لا يرى دائماً هذه المقابلة البسيطة. لا يريد أن يضع الأمور في هذه المعادلة. وكم على الفلسطيني أن يدفع ضحايا ودماً ليراها ويفهمها. حق الحياة يتعلق غالباً بحياة الآخر ومن يقتل طفلاً هو من يقتله فعلاً، والأمر أبسط من أن تفهمه سيكولوجيا عنصرية لا تريد أن تفهم.

لا أحد يسأل من الذي يدعو شعباً إلى هذا النضال الطويل من دون أمل. ما الذي يخرج فتياناً وأطفالاً إلى لعبة كهذه. حب الحياة وحق الحياة، كم نطلبهما من الذين لا يحترم حياتهم أحد ولا يرعى لهم أحد حقاً. ليس من الضروري أن نروي حياة الفلسطينيين في كل مكان لنرى أننا دائماً أمام الجدار ودائماً بلا أمل ودائماً في وضع معلق ودائماً في الدرجة الصفر أو أمامها. ألا نفكر أحياناً بمعجزة اليأس. ألا نفكر بأن زخماً مخيفاً وهائلاً طويلاً هو وحده الذي يمكن أن يزحزح حجراً في الجدار، أن يكسر سياج الصمت، وأن يحرك شيئاً في وضع معلق ساكن.

في الانتفاضة الأولى انتظر العالم طويلاً ليرى الفلسطيني الحقيقي طفلاً مرعوباً ومطارداً وقتيلاً. في الانتفاضة الثانية ينتظر العالم طويلاً قبل أن يعرف أن الحجارة للعب، وأن الأطفال الذين يحملون الحجارة يلعبون، وان لعبتهم خطرة لكنهم يلعبون، أن الجندي الإسرائيلي يطلق النار لا لأنه يتأذى من الحجر، بل لأنه لا يطيق أن يرى الفلسطيني يلعب، ولو بحياته. لأنه يريده غير موجود وميت وبلا اسم ولا صوت ولا لعبة في الأساس. لأن العالم، (وللخطابة الفلسطينية والأدبيات الفلسطينية والخطاب العشائري مسؤولية في ذلك) لم يصدق أن الفلسطيني يخاطب العالم برسالة الحجر، وأنها رسالة سلمية، وقد تكون موجهة - حتى - للإسرائيلي نفسه. لن يصدق العالم اليوم أن الديمقراطية الإسرائيلية هي ارستقراطية الأكثرية ودكتاتورية الأكثرية، وانها في عالم، قوام الديمقراطية فيه حقوق الأضعف وحقوق الأقليات، متخلفة عن العالم وعن العصر. إن الفلسطيني الذي يرمي حجراً هو بالتأكيد أكثر حضارية ومعاصرة. «كم يسيئون لذلك ويوفرون سبباً لطمس كل الألم الفلسطيني أولئك الذين يضعون متفجرات في باص للأطفال الإسرائيليين».

الطفل الفلسطيني. لا يسأل أحد من جعله قادراً على اللعب بحياته. من يجعل الفلسطينيين أمام جدار لا يخترقونه إلا بموتهم وبكلفة مرتفعة محسوبة من الدم. لماذا لا يسمع العالم أولئك الذين يجازفون بكل شيء لكي يُسمعوا. لماذا نتهم موت الطفل الفلسطيني قبل أن نسأل من هو القاتل. لماذا نقبل بسيكولوجيا عنصرية ترتاب حتى في موت الناس وتبحث عن «التخلف» حتى في رسالتهم

السلمية هذه. من يعطي أناساً حق القتل ويشتبه بحق الموت لأناس آخرين. وأي عالم هذا هو الذي يلقي على الأطفال مسؤولية موتهم، بدون أن يتساءل لحظة، عن أي يأس وأي بؤس دعاهما إلى المجازفة بالحياة.

بيروت

إقبلونا ضيوفاً ...

نزيه أبو عفش

ما علينا ـ بعد كل هذه السنين، وبعد كل هذا الدم ـ إلا أن نتأمل وننتظر.

جرحٌ مفتوحٌ، وعدالةٌ شائخةٌ، وضميرٌ إنسانيٌّ كسولٌ وأعمى.. لا يفعل غير أن يَعُدّ حصيلة الخراب ويتأفف من وفرة دماء الموتى!... وأيضاً : ينتظر.

ضجرت ذاكرةُ التاريخ. ضجر الشهود. ضجرت الأسلحة والقوانين والمذاهب والسماوات، وضجرت أرواح الموتى. لكنْ ـ وحدها ـ شهوة القاتل إلى مزيد من الدم.. لم تضجر! الدمُ يشحذ شهية الدم.

منذ خمسين عاماً، وعلى شاشة الملأ الكوني، تترقرق (لكنْ.. دون أن تُرى!) الدمعةُ الأكثر إيلاماً وسطوعاً في تاريخ صناعة العذاب؛ وتفيضُ (لكنْ.. دون أن تُسمع!..) غصّاتُ الأمهات على حافة الدمار؛ وتعلو صيحةُ الضمير الأعزل الحزين الكفيف، مستنكِرةً ومستنكَرة، كأنما هي صيحةُ ميتٍ طالعةٌ من قاع التابوت : ثمة أطفال موتى.

ودائماً : ثمة أطفال موتى !..

ودائماً : ثمة الأمل.

أطفالٌ موتى. أطفالٌ يتطوعون للموت.

أطفالٌ (قبل أن يصيروا موتى) كانوا أحياء كالأحياء. أحياء بسببِ «تسامحِ» القاتل وغفلةِ عين الجلاد : أحياء بالمصادفة!...

أطفال أطفال، منذورون لمجدٍ واحدٍ ووحيد هو الموت. يقاتلون ـ ليس بأكثر من الأمل ـ فولاذَ العالم، وكسلَ ضمير العالم، وصمت العالم، وضجر العالم.. عالم مقسوم بين قاتلٍ أعمى وشاهدِ موتٍ أعمى!.. يقاتلهم العماءُ والجنونُ والمعدنُ وصلافةُ القوة وحيرةُ شهود العار!.. وتقاتلهم شهوتهم للحياة.

أما هم فبماذا يقاتلون؟!.. أما هم فبماذا يواجهون عسف العالم؟!..

بأن يكونوا ضعفاء إلى الأبد، مخذولين ووحيدين وآملين.. إلى الأبد، وبالعدّةِ الوحيدة التي يملكون: إرادة الضحية مترجمةً إلى إرادة حياة، وإرادة الحياة مترجمةً إلى إرادة موت...، وأيضاً بالأمل.

ما علينا ـ بعد كل هذه السنين وكل هذا الدم ـ إلا أن نواصل التأمل في هذه التراجيديا الضارية، لعلّنا نستطيع التقاط أسرار المعجزة التي تترجم شهوة الحياة إلى شهوة موت: (من يعرب هذه الأحجية؟..)

أطفالٌ.. أو شبيهو أطفال.

أمضوا حياتهم وهم يشكرون أنْ ثمة من «يرى موتهم»! الآن يتوجب عليهم أن يباركوا أولئك الذين يصنعون أو يشاركون في صناعة ذلك الموت!!.. عليهم أن يكونوا سعداء لأنهم ما زالوا يملكون من «لقمةِ الحياة» ما يمنحهم الفرصة لمزيد من الموت، أو.. لمزيد من الموت.

وحدهم في عراء الخليقة الدامي. تقذفهم الرياح الكونية من بيتٍ مغزوّ.. إلى بيتٍ يتهدم.. إلى هواء يتهدم.. إلى جغرافية تتهدم.. إلى عدالة تتهدم...، إلى أملٍ يضيق ولا يتهدم!.. ذلك هو العراء الخالص.

وفوقهم (فوق، في الأعالي الكونية) يترنح القتلة مأخوذين بنشوة النصر. يأخذون دمهم ويَعِدونهم بـ«كعكة السلام».. السلام الذي من دمٍ وآلامٍ، ونحيبِ أمهات! السلام الذي من رصاصٍ وبغضاء وأعلامٍ ملفوفةٍ على جثثِ صبيان لم يُتَح لهم الوقت ليكبروا ويصيروا رجالاً! السلام الذي لا يعرف من أوصاف «سلامه» غير أن يكون أحبولة موت.. أو موتاً مضافاً إلى لقمةِ موت!..

سلام يؤجل سؤالَ الحياة إلى ما بعدها: كرامةٌ مؤجلةٌ، سعاداتٌ مؤجلةٌ، هواءٌ مؤجلٌ، ألعابُ طفولة مؤجلة، وأعراس مؤجلة، وعيدُ حياة مؤجل، وبرتقال مؤجل، وقبلاتُ شباب مؤجلة.. وعلمٌ مؤجل.. وهوية مؤجلة!!..

لكنْ، كيف يمكن أن تؤجل الحياة؟.. إلى متى يمكن تأجيل أحلام القلب؟..

أحلامُ القلب؟!.

لكن، بماذا يمكن أن تحلم قلوب الأطفال فيما الحياةُ مسروقةٌ والموتُ يتربص ـ صاحياً ومدججاً ـ بين حافة قلب الضحية.. وحافة سماوات الرب!..

مع ذلك يحلمون!

يحلمون أن يموتوا «فيما بعد».. على أرض أوسع من قبر وأضوأ من هاوية. يحلمون بعدالة تملك القدرة على تأجيل ضربة الموت ريثما تبدأ لسعةُ الحياة. يحلمون أن يموتوا كبشرٍ «عاشوا». يحلمون الحياة. يحلمونها بعذابٍ ودم.

ربما سيأتي يوم (نشهده ولا يشهدونه) تُنسى فيه عذاباتُ الدم. لكن من سيكون بوسعه أن ينسى أن كل ذلك الدم (الدم الدم) سال على الأرض نفسها حيث كان القاتل، خلف قناع القديس، يطلق هدايا الموت. فيما الأطفالُ ينشدون من علياء كوابيسهم:

«تحيا الحياة... وتحيا أرضُ الحياة».

ـ لكن، ما الذي فعلوه ليموتوا؟..

ـ كانوا ينشدون : نريد أن يكون لنا بيت كالبيت، وهواء كالهواء. أن يكون لنا سماءٌ ومئذنة وشجرة وعلم وحقول وأغنياتُ عيد. لهذا كان لا بد من إسكات شهقة الأمل بالرصاص. رصاصٌ لذبح أغنية!..

ودائماً، خلف القاتل، كان حلفاء وقضاة وجيوش. وخلف الضحية.. العماءُ والصمت. وخلف العماء والصمت أطفالٌ يقيمون أعراسهم على حوافّ المقابر: أعراسٌ مجللة بالسواد ومبللة بالنحيب. أعراس دم.

ـ لكن، كيف يمكن أن تُمنح الحياةُ لمن لم يخرج من أرض؟!. يقول أنبياء إسرائيل الجُدُد.

ـ الفلسطينيون مولودون من الهواء. إذنْ أعيدوهم إلى مسقط رأسهم الهواء، إلى أمهم الهواء، إلى وطنهم الهواء، إلى تاريخهم الهواء. أعيدوهم إلى نسبهم الهواء. لكن، أيها الأنبياء، حاذروا: ليس أمامكم من أمل غير أن تطردوهم خارج الخريطة الكونية كلها. أطردوهم من التراب، والمنزل، والشجرة، والريح، والقصيدة، والقبر. أطرودهم إلى زوالهم. ذلك هو الحل.

إلى زوالهم، لأن كل ما قد يذكّرهم بالحياة (على أرض حياتهم) سيتحول مع الزمن إلى كمينِ موت. فإذن: اقتلعوا الذاكرة. ستعيشون (إلى الأبد؟) على أرض تكرهكم. إن لم تقتلكم كراهيةَ الضحايا.. ستقتلكم كراهية الهواء.

ـ وهل ندفنهم في الريح؟..

ـ أعتقد أنكم عازمون. لكن لا بد من تذكيركم بين الوقت والآخر، بين المذبحة والأخرى: إنهم يريدون أن يظلوا أحياء، فيما تريدون أنتم ـ بدهاء القاتل وفزع الجلاد ـ أن تجردوهم حتى من حقهم في أن يكونوا أحياء، حتى من حقهم في أن يولدوا، حتى من حقهم في أن يموتوا... من حقهم ـ إذا ماتوا ـ في أن يكون لهم جناحٌ متواضعٍ في متحف التاريخ الطبيعي!!... «هم» ليسوا بشراً. ليسوا كائناتِ أرض. ليسوا أحداً وليسوا شيئاً. بل مجرد «لا شيء» غامضٍ ومريبٍ وثقيل الوطأة، يتحرك في الفراغ الكوني؛ عبوةُ أملٍ مصنوعة من لا شيء سوى الأمل؛ مجرد «لا شيء» مُفسِد وعدواني.. ويتوجب الحكم عليه بالإعدام...

لكن، فيما أنتم تقتلون، حاذروا :

بذاكرته المخرَّبة، القويُّ يستطيع أن ينسى ما يشاء من حقائق الحياة. لكنْ ـ حتى هو الأعمى ـ لن يستطيع نسيان التاريخ : التاريخ مليءٌ بهزائم الجبابرة.

ـ وبماذا يمكن أن نُهزم ؟

ـ الحكمة تقول : في مواجهة هذا القدر الباهظ من القوة، ولئلا يكونوا أمواتاً بلا ثمن، خيرٌ لهم أن يخضعوا لمشيئة العقل.. ويكفّوا عن استدراج الأمل.

ـ القويُّ يتكلم بجنونه.. والضعيف بأمله.

علّمنا التاريخ انه في أحيان كثيرة يمكن للأمل الأعزل أن ينتصر على جنون القوة المدرّعة. إذن سنأمل.

ـ وما الذي تطلبون؟..

ـ العدالة.

ـ العدالة كلمة يتلذذ بمذاقها الشعراء والحمقى. العدالة الوحيدة الممكنة على الأرض هي سلطة المنتصر.

ـ يا لحماقة المدمنين على النصر! .. ما من أحد يستطيع أن يظل منتصراً إلى الأبد. أنتم الآن، إذ تواصلون نصركم الحزين، عاكفون على بناء هزيمتكم. تستطيعون إلى ما شئتم أن تواصلوا صناعة الموت. لكنْ ـ بصناعة الموت وحدها ـ لا يستطيع القاتل أن يسوّي حساباته مع العالم، إذ لا يمكن ـ بالقوة وحدها ـ أن يطمس حسابات الموتى.

ما الذي تستطيعون فعله حين يهب الأموات لنجدة موتاهم؟!...

ـ المزيد من الموت.

ـ يا لحماقة المنتصر حين يبدأ بالانحدار إلى هاوية هزائمه: لا مفرّ أمام المنتصر التاريخي غير أن يتحول إلى سفاح تاريخي، وبعدها.. إلى جثة. السفاح ـ بما يريقه من دم ـ يحدد الثمن النهائي لدمه. إذن فاسمعوا: إن لم تقتلكم الكراهية.. سيقتلكم استغراقكم في شهوة النصر واسمعوا أيضاً: الجبابرةُ ـ فقط لأنهم يحتقرون الطفولة والضعف ـ تقتلهم أصغر الهزائم.

واسمعوا أيضاً وأيضاً: في واحدة من حكاياته البليغة يروي «أليخاندرو كاسونا» عن ملك قوي ومستبد (إذ القويُّ لا يستطيع إلا أن يكون مستبداً) أنه شاهد في حلمه طفلاً يصارع أسداً. كان الطفل أعزل ولا سلاح له غير براءته. وبنظرة واحدة منه جعل الأسد يتمرغ في التراب!. (*)

أنتم الآن الأسد. أسد مدجج حتى نخاع قلبه بالكراهية والفولاذ.

ـ وأنتم، بماذا ستصرعون الأسد؟..

ـ بلا شيء. بضعف الطفولة.. وقوة الأمل.

ـ قوة الأمل.. أم قوة اليأس؟..

ـ ليس لدى اليائس إلا أن يأمل. الأمل ليس نقيض اليأس: الأمل مغزاه. الأمل معجزة اليائس.

لهذا ـ على هذه المبعدة الغامضة عن نجمة العيد ـ يمكننا أن نرى، خلف دخان الجنون وجلبة القوة، علم فلسطين وشمسها وأشجارها وبيوتها وأعيادها ومدارس أطفالها وحقولها وأشجارها وسماءها.. وتحت سمائها تتلألأ الرثّةُ السخيةُ لفرح الإنسان. نرى ونرى. ليس لأننا نثق باريحية الوحش، بل لأننا نؤمن بقدرة الطهارة على ترويضه، ولأنه لا بد لنا من الإيمان ـ بعد كل هذا الهول ـ بأن في وسعنا، ذات أمل، أن نطحن حديد الدبابات بأسنان العصافير.

.. ..

إذن: أيها الناسُ الضعفاء، الجميلون، الذاهبون بأحلامهم من حافة الموت إلى حافة الحياة...

أيها الناس، هناك، على أملِ القيامةِ، هيئوا لنا المقعدَ والنافذةَ والسماء وظل الشجرة والرغيف وأنشودة العيد ونبيذ بيت لحم المبارك...، واقبلوا ضيوفاً على مائدتكم: مائدة الأمل.

دمشق

(*) هل كان «كاسونا» قبل نصف قرن من الآن يحلم بطفل اسمه: محمد درة؟!..

ذاب الثلج وبان الـ ... مرج

ممدوح عدوان

يذوب الصقيع . . ويتكسر الجليد .

يتململ رشيم، ويمد رأسه من حبة لم تكن تحمل إلا يباسها . ناشفة كانت، وتحمل عطش الرمضاء .

يتململ رشيم فينكسر الجليد . وتمد رأسها سلغونة خجلة، ولكنها عنيدة . تطلق صرختها الخضراء بين الصخور العارية . وتتلفت باسمة وهي ترى انسياح الجليد الذائب الخجل .

***

يذوب الصقيع، ويتكسر الجليد .

كان ثمة ولد يلعب بشيء مثل كرة من الخرق لفها بنفسه . ويركض لاهياً، ومعه شيء يجاريه مثل كلب أليف يلاعب صاحبه، ويتريّض . ركض اللاهيان وتمرغا على الأرض ضاحكين .

***

يذوب الصقيع، ويتكسر الجليد .

كان ثمة ولد يلعب بالموت، أو يلعب مع الموت، كان يعرف أنه موت . أو كان يعرف أن الموت لا يخيف إلا العجائز . أو كان يعرف أنها لعبة الصغار . وأن الكبار باقون في الداخل حول موقد الذكريات . سيكمل لعبته . ولديه ما يكفي من الوقت لأن يكمل ولدنته . سيبقى لديه متسع من الوقت ليرتاح حين يتعب . وسيظل حول الموقد متسع له حين يبرد، ويحتاج الى دفء الذكريات .

فتابع لعبه مع موته . وتابع الموت لعبه معه .

دبت الحرارة في عروقه، وتصبب العرق على جسده كله، وفاحت رائحته شهية، ودبت الحرارة في جسد الموت، أيضاً، فاستيقظ كلبه .

بدا الأمر مثل مصارعة لاهية بين ولدين، بين ولد وكلب . يتطاردان ويتمرغان ويضحكان .

ولكن الكلب كان قد استيقظ كلبه . وصار كلباً . فاكتشف ذئبيته .

***

ذاب الصقيع بينهما . ذاب تحتهما . وتفتت الجليد .

انتصبت القامة الخضراء من الرشيم المنسي . كانت قامته تستقبل الشمس وتشربها . وراح الاخضرار الوليد يخلع عتمته عنه . عرى أحلامه . وتأجج الرشيم مثل عريس يتأهب بباب غرفة دخلته . تسرب الولد فيه شعاعا دافئاً حاملاً نكهة أرض الآباء، كبرياء وكرامة وموتاً زاهياً .

***

اشتعل الحقد مع أول ضوء . وتراكض البردانون ليستدفئوا .

اشتعل الحقد وأضاء. فبدت الكراهية عارية. وكانت كلها عورة دون تعرية. فلم تصبح أقل بذاءة وقبحاً حين تعرت. خرجت من تحت ابطيها زواحف البيات، وراحت تدب مشرعة نوامسها القذرة وتقذف بسمومها في وجه الربيع.

كأنما ذاب الثلج وبان المرج. وكان المرج مليئاً بالزبالة والعشب. فاحت الروائح، كما تزهزهت الزهور وزهت.

كأنه يوم الدينونة. يأتي الولد بموته كله. وتأتي الكراهية بجشعها كله، وقبحها كله. ويأتي العشب باخضراره كله.

هذه قيامتهم. قامت قيامتهم. ربض الموت الخريفي على أكتاف ولد يانع. وظل الولد يلعب.

مات وظل يلعب.

لم يكن يعرف أنه يموت، وظن أنه ما يزال يلعب.

كان يخال أنه يستطيع في أية لحظة أن يحتمي بأبيه. أو يصرخ: أماه. فيستعيد عمره كما يستعيد الدفء فور دخوله إلى البيت. ويثق أن أمه قد خبأت له العروسة ليتناولها فور انتهائه من اللعب.

ولذلك ظل يلعب في العراء، بعد أن مات..

لم توقف الرصاصة لعبه. كانت أقوى من أن يفلت منها. ولكنها كانت أضعف من أن توقف حلماً. وكان الولد يمتطي حلماً نسيه أبوه، أو تغافل عنه، أو اضطر جده إلى التخلي عنه وإهماله.

كان الولد، وهو لا يهتم، أو لا يدري، يشيع حياةً في أرض يباب.

وكان منتشياً بدنيا جديدة تتفتح حوله من موته، ولم ينتبه إلى أنه بلعبه كان يثير زوابع غبار تشيل معها أكوام زبالة الكلام والوعود والخطابات والانتماءات الخاوية.

لم تعد نشوته قادرة على الانحباس فيه. وأراد أن يصيح مغبطاً: تعالوا تفرجوا على موتي. ولكن أمه، كالعادة، ستقول له: دير بالك يا امه. وأحد الكبار سيقول له: يكفي شيطنة.

وسيقول له شيخ حكيم: ما هذه التربية؟ ألم نمنعك من اللعب مع هذه الكراهية البذيئة؟

***

على غفلة ولد شعب كامل من الأولاد الذين يتقاذفون الموت بينهم وهم يضحكون كما يتقاذفون كرات الثلج.

وكانوا يعرفون أن الزحام لن يتيح لأي منهم فرصة للعب أكثر من شوطة واحدة. لكنها كانت لعبة مبهجة. وجديدة. ومدهشة.

ذلك الموت الذي يتستر عليه الآخرون كعورة، ويخفونه عن الأعين كعرض مخدوش، ويشيحون بأوجههم التي تحمله كما يجنبون الآخرين رائحة الثوم من أفواههم.

ذلك الموت أعاد له الفتيان سمعته العطرة.

تسللوا به من خلف المواقد. وخرجوا يلعبون. كانوا سعداء باللهو والبرودة المنعشة والموت. وكل يحمل موته فرحاً متباهياً، وكان الموت غرة تتأرجح على جبينه.

كان الكبار يتلفعون بالدفء والسترة. وكانوا يتظاهرون بالاطمئنان الى أن الأولاد سيشبعون من اللعب بعد قليل. ويعودون إلى الجلوس حول الموقد. وراحوا يسربون تلك الطمأنينة إلى الأمهات. ثم يتظاهرون بأنهم لا يفهمون معنى أن ينقطع صوت أحد الأولاد وهو يتوقف عن اللعب، ولا يعود إلى البيت.

بعد الإرهاق من المكابرة، وبعد الاختناق من الدموع الحبيسة، والتظاهر بأن دخان الغلايين والحطب الأخضر هو الذي يدمع العيون، قالوا: فلنخرج لنرى وجه ربنا.

وخرجوا عراة من كلامهم. ففوجئوا بتناقص عدد الأولاد. ولكنهم وجدوا ذاكرة مزهرة أمام كل بيت. وفوجئوا بالرشيم يشق طريقه عبر الصقيع.

وبالمرج عارياً متجلياً بخضرته الزاهية..

لم يكن لعباً اذاً. كان اقتحاماً عنيداً ودامياً للزمن. واكتشف العجائز أن الأولاد المقتحمين قد زحموا الدنيا وأفسحوا مجالاً لضوء صار وطناً.

دمشق

عن الانتفاضة والملحمة

وليد إخلاصي

نخجل من الكتابة عن الانتفاضة العربية في فلسطين في زحمة الكلام.

نخجل لأن الكلمات، ما زالت تحوم في الفلك المحيط بجوهر الانتفاضة، ولأنها تصبح فعلاً مجسّداً خارجاً من شرايين جسدها الغاضب وأوردتها. وستكون الكتابة عن هذه الانتفاضة المدهشة فعلاً مفعماً بالصدق إذ تصبح عملاً معادلاً لعظمة اليأس الذي تجلى فيها دون مساومة.

وهكذا تحوّل الإنتظار الذي طال إلى ثورة ترسم المستقبل، تلك الثورة الشعبية التي هي ليست رداً على اعتداء الغرور الصهيوني وحسب، بل ثورة على الماضي المدعوم بالظلم العالمي وبالدور الظالم للسلاح المتقدم وهو يقابل الحجارة المتمردة.

هل نخجل من الكتابة لأننا بانتظار «هومير» عربي كي يسجل ملحمة التحرر الحديثة وهي تتخبط في بحر التآمر الدولي، أو لأن الملحمة التي ستُكتب بالكلمات ستكون المعادل الحقيقي لعظمة هذه الانتفاضة؟

المقهورون وحدهم يمهّدون الأرض أمام من سيكتب تلك الملحمة لتدخل في سجل التاريخ كعملٍ عظيم يوازي الملاحم الكبرى في حياة الإنسانية.

الغاضبون هم الذين يصنعون أُسُس عمارة الملحمة التي ستنتصب في مسيرة التاريخ شاهداً على أن الكتابة فعلٌ يوازي عظمة الغضب.

لذا فنحن نخجل من الكتابة عن الانتفاضة التي ما زالت انشاءً لغوياً يبرر هزيمة قدراتنا على الدوران خارج النبل التاريخي المتمثّل في غضب الانتفاضة.

قدر الفلسطيني المعاصر أن يحمل وطنه معه في هجراته، وقدر الفلسطيني أيضاً أن يحمل لوعة الانتماء إلى التراب الذي أنبته، وقدر الفلسطيني كذلك أنه يُقايض رصاص الأعداء الغادر بحجارة الألم الغاضب، وقدر الفلسطيني أن يُساند بالنحيب العربي ويُمطَر بوابل الخطب المتعاطفة وباللغة المنسوجة على نول البلاغة.

وقدر الأطفال في فلسطين ألا يبلغوا الحلم، بينما قدر النساء أن يُصبن بلوعة الحزن على الأحباب، وقدر العائلة هناك أن تُمزَّق أطرافُها المتماسكة جوارح التعسف الظالم.

ألا نخجل من تسطير الحروف وحسب، بينما يخجل الفلسطيني من الاستسلام فيحوّل مسيرة الحياة إلى نقمةٍ لا يملك فيها سوى الرفض والحجارة؟

لهذا ولذاك نتطلّع جميعاً إلى ملحمة البطولة التي تمثّلت على الأرض بالمقاومة، والتي ستتجلّى في تصحيح التاريخ بأمثولة تكتب لكل الشعوب ملحمةً خالدة تُقاوم الموت المتعسف وتكشف زيف قوة الذراع والسلاح، لتمجد ألق الروح الشعبية التي تكتب الشعر بإيقاع الانفتاح على الخلود.

لا أقول إن الرأس تطأطأ أمام الموت من أجل الوطن، بل أن الرأس لتظل مرفوعةً فخراً بشعبٍ أعزل يؤمن بأن الشجرة إذا ما اقتلعت تفجرت جذورها حياةً جديدة، وتلك هي ملحمة الإنبعاث من رماد القهر وهي بانتظار من يُدخلها ذاكرة التاريخ عملاً عظيماً يشع منارةً في المسيرة الظالمة التي تنشر ظلمتها قوى الشر في هذا العالم.

حلب

على حافة الليل بلا فجر ولا قيامة

محمد برادة

مثل مُسَرْنَمٍ أسير وسط ظُلمة مُطبِقة وأنا أَهذي مُردّداً ما سمعتُه وشاهدتُه منذ هزيمة ١٩٦٧... لكن تجدُّد الانتفاضة، هذه المرّة، حمل أَملاً ونبَّه السائرين نياماً مِثْلي: لُعبة التّخبئة لم تعد تجدي مع إسرائيل. سبع سنوات من التّسويفات والمفاوضات والانتظار، وشعب فلسطين يتنزّى في قيوده، ونحن نتابع من بعيد، صامتين أو معلقين على تصريحات المتفاوضين. ولعلنا عوّدنا النفس على تلك

المسرحية ـ اللعبة التي تهدئ بالَ العالم كله، إذ تُوهمنا بأن السلام آتٍ ولو دامت المفاوضات خمسين سنة أخرى!.

تَفجُّرُ الانتفاضة ورشقات الحجارة، ودماء الأطفال والشباب أيقظت الجميع من الغفوة المريحة لأنها ذكَّرتنا بالبديهيات: إسرائيل في حقيقتها العارية دولةٌ محتلّةٌ لها مُمارسة المستعمر، وترفض الاعتراف بحرية ووجود مَنْ سلبتْ أرضهم... سقطت الأقنعة، وتوارتْ رموز الديمقراطية والاشتراكية والعلمانية التي تدثَّر بها مؤسسو الصهيونية والمصفّقون لها في الغرب.

من ثمَّ فإن هذه الانتفاضة هي حدَثٌ ـ قطيعة لأنها تطمح إلى أن تُخرجنا من الواقع القائم لِنُخايِلَ واقعاً مُمْكناً يتحرر فيه الوطن والمواطن. والحدث ليس مجرد أحداثٍ تتطاير أنباءَها وسائلُ الإعلام؛ إنه هزَّة عميقة مُخلخِلة للوعي المخدَّر، المستَلَب. الانتفاضة هي حَدَث ممهور بالدّم، محفوف بالأسئلة الجوهرية، أسئلة الحرية والسيادة والتحرُّر: شعب يرفض الاستمرار في العبودية والتهميش. شعب فلسطين جزء منَّا يأخذ الكلمة باسمنا جميعاً لِيُنبّه المسؤولين المزعومين عن السلام في العالم...

رسالة الانتفاضة ـ الحدث هذه، قوية في بساطتها، مقنعة بشجاعة أطفالها وطلائعها وقُدرة شعبها على المقاومة. لكن الأمور ليست، للأسف، بمثل هذه البساطة والوضوح لدى الجميع. ذلك أن السياق العربي ـ ماضياً وحاضراً ـ ينتصب مثل حَاجِبَة الوميض ليمتصَّ اللَّهب ويعزل شرارات الانتفاضة عن مجالاتها الطبيعية. ولا يقتصر الأمر على ظُلم ذوي القُربَى، بل هناك أيضاً عمَى الألوان الذي أصابَ أمريكا وأوروبا بما فيها فرنسا، بلد الثورة المناصرة لحقوق الإنسان.

خلال هذه الانتفاضة التي تختم شهرها الثاني، عشتُ أحداثها من مواقع ثلاثة: لبنان، سورية، فرنسا.

فكيف كانت تبدو الصورة؟

في بيروت، كانت الانتفاضة حاضرة بِقُوة ومعها كلّ الآمال، لأن حركة المقاومة اللبنانية، وبخاصّةٍ حزب الله، كانت تُدعّم الانتفاضة من خلال الفعل المقاوِم المتمثّل في أَسْرِ ثلاثة ضُباط إسرائيليين واستِدْراج عضو في المخابرات الصهيونية إلى شَرَك الاعتقال... أتَى ذكاءُ الفعل والتّخطيط المحكَم لِيَهْدم أُسطورة إسرائيل التي لا تُقْهَر! وبعيداً عن الخلفيات الإيديولوجية، كانت تدخُّلات حزب الله تكتسي طابعاً سياسياً يُثبت على أرض الواقع، ما تستطيعُه القُوّى العربية المنظمة إذا تَرْجَمتْ المقاومة إلى عمل دائبٍ، مُستمر..

وفي سوريا، كان هناك حماس وتجاوُب فَتدفّق المواطنون على المظاهرات لمساندة الانتفاضة ومهاجمة أمريكا.. لكن الخطاب الرسمي كان عالياً يَمْتَصُ الغضب العامَّ الذي يجب ألا يَعْلو على موقف الدولة الرافض للتفاوض مع إسرائيل وِفْقَ شروطها.. إلاّ أن حادثة بسيطة أثارت انتباهي حين أمضيتُ ليلةً واحدةً بِحَلَب الجميلة. فَقَد تَنَادَى عشراتٌ من كُتَّاب وفنّاني هذه المدينة لِيَقفوا في ساحة الشهداء مُعبرين عن مساندتهم للانتفاضة. والجديد في المبادرة، هو أنَّهم لم يطلبوا إِذْناً بالتظاهر كما

تقتضي ذلك أجْهزةُ الأمن منذ ثلاثين سنة. وفي الساعة الحادية عشرة امتلأت الساحة بالأدباء والفنانين ومعهم أطفالهم وبناتهم وهم يرفعون اللافتات وَيَطوفون بالساحة هاتفين ومُندِّدين.. بعد نصف ساعة، تَوَافَدَتْ على الساحة جماعة من أعضاء حزب البعث يرفعون لافتاتٍ ويهتفون ضد إسرائيل؛ ذلك أن مكتب الحزب لم يكن بعيداً عن الساحة، ففُوجئ المسؤولون بِمبادرة الكُتَّاب وقرروا هم أيضاً التَّظاهر بسرعة.

وفي باريس، تبدو صورةُ الانتفاضة وأصداؤها مُتلوِّنة، مُتباينة تبحث عَبَثاً عن تَوازُنٍ لا يُغْضب الإسرائيليين وأنصارهم المستعملين دَوْماً لمسألة معاداة السَّامية حتَّى يُلْجِموا التعبيرات المُتضامِنة مع قضية فلسطين. والذي كان فاضِحاً، هذه المرّة، هو موقف لوكريف Le korif، هذا المجلس الذي يضمُّ مجموعة كبيرة من اليهود الفرنسيين ويُخوِّل لنفسه الدفاع عن الديانة اليهودية ومَنْ ينتمون إليها، مع التحيُّز لوجهة النظر الإسرائيلية... وبمجرد انطلاق الانتفاضة، كشف المسؤولون عن «لوكريف» مَوقفَهم المتحيّز بل وانتقاداتهم الوَقِحة تجاه الدولة التي يحملون جنسيتها، فَخِلال حفل العشاء المُقام كل سنة والذي يحضره رئيس الحكومة والشخصيات البارزة، لم يتردَّد رئيس المجلس في أن ينتقد السياسة الفرنسية المناصرة، في نظره، للفلسطينيين وإعلان أن فرنسا هي «خارج اللعبة» الدولية بسبب هذه المناصرة! وفي نفس الاتجاه، يَتَنَادَى اليهود المنتمون لهذا التيار إلى تنظيم سفريات عاجلة إلى إسرائيل تضامناً مع الدولة العِبرية المهدَّدة بالزَوال على يد أطفال الحجارة!.

أما الذين «يصنعون» الرأي العام الفرنسي، عبر وسائط الإعلام والنداءات الرَّنَّانة، فإنهم يُغمضون العيْنَ أو يقولون كلاماً يُساوي بين الضحية والجلاَّد، والعشرات، من الشهداء الفلسطينيين الذين يسقطون كل يوم، يُشار إليهم بكلمات معدودة في التلفزيون وكأن هذا القتْل الذي تُمارسه إسرائيل مُبرَّر ومقبول!.

لقد كنتُ، عند انطلاق هذه الانتفاضة وما فَجَّرَتْهُ من حماس لَدَى كل الشعوب العربية بدون استثناء، ميَّالاً إلى أن أقرأ الظاهرة على أنها تعبير مُشترك عن رفض استمرار الاستعمار الإسرائيلي، وعن رفض أوضاع القهر واللاّديمقراطية المفروضة، مُنذ عقود، على المجتمعات العربية. كانت تلك المظاهرات الحاشدة تُذكّرنا بشيء بديهي لَمَسْنَاهُ منذ هزيمة ١٩٦٧ وهو: كيف لم يفكر العرب وأنظمةُ حُكْمه، طوالَ خمسين سنة من الوجود الإسرائيلي، في الأسس الناجعة التي تسمح بالحدّ من سطوة إسرائيل وتتيح للكفاح الفلسطيني أن يُحقّق أهدافه العادلة، وللجماهير العربية أن تتخلص من التخلُّف والتبعية والحُكم الفردي؟

هذا هو الجُرح الذي لا تنفع معه الكلمات.

كل شيء في عالمنا العربي، يفصل المواطنَ عن القضية الأساسية التي تُكوِّن فلسطين حلقةً جوهريةً داخلها: تحرير الأرض وتحرير الذات من تسلُّط الحاكمين. ومن هنا يبدأ الليل الشاسع الذي يكتم أنفاسي فَأحِسُّني كالمسرنَم أغتنم اليقظة اللاَّشعورية لأَهذي بالكلمات التي لا تُطاوِعَني في حالة

الصحو، حيث أتحول إلى متفرّج عبر الشاشات الصغيرة وعبر التصريحات والتحقيقات الصحفية . . . وَضْعيةٌ مَتَاهِيَّة لا يمكن أن أُمْسِكَ لها بِرأسِ خيْطٍ يُعَقْلِنُ هذه الأحداث المتناقضة التي تُشْعِرني بالعجز المطلق .

الفلسطينيون وحدهم يستطيعون أن يتحدثوا عن أملٍ مُمكن يَنْبثقُ من دفقات الدَّم وَوُضوح الموت . المواجهةُ عندهم تَعني الفعل الذي لا يقفُ عند حدود الكلام والنوايا، وإنما هي فِعْلُ وُجودٍ يصرخ أمام كل العالم بأن الاستعمار غير مقبول وبأن الحرية والسيادة مَبْدآنِ لا يمكن التخلي عنهما مهما كانت سَطْوةُ الجيش الإسرائيلي وَعَمَاءُ الدول الكبرى المتفرِّجة على إسرائيل وهي تستعرض عضلاتها . . .

في مثل هذه الوضعية، كيف أُقْنِعُ النَّفس بأن عدالة القضية سَتَحميها من وحشية الذين يمارسون سياسة اليَد الطُّولى ولا يحترمون قوانين المنظمات العالمية؟

أكتفي بأن أُتابع المشهد . أنام وأصحو لأُحْصيَ عدد المستشهدين، وأتابع مواكب الدَّفن وحركات الأذرع الفتيَّة الملوِّحة بالحجارة .

كيف يستعيد المنطق قُدرتَه على إقناعي بأن هذه المواجهة غير المتكافئة لَنْ تُعرِّض جزءاً كبيراً من شعبي هناك، للإبادة؟ .

لماذا تبدو الظلمة عائدةً بنفس القوَّة بَعْدَ أن نجحتْ الأنظمة في ضَبْط الشارع العربي، وإصدار قَرارتِ قمَّةٍ لا تغيِّر شيئاً؟ .

لماذا الماسِكُونَ بزمام العالم يُعبِّرون عن تخوفاتهم من زَعْزَعة دولة إسرائيل ولا يُنادون بتصفية الاستعمار في فلسطين؟

مِنْ أيِّ موقع، إذن، أتكلَّم ويكون لِكلامي معنىً أَوْ ثقل؟

أحس كأن حَاجِبات الوميض تَنْتصب من جديد، وقُوى التَّغيير تُحبَس داخل قُمْقُمِ السلطة وتحايلاتها التي لا تبغي سوى الاستمرار مهما كانت التنازلات . . ودفقات الدَّم الفلسطيني، عبر التلفزيون، تذكِّرني أكثر فأكثر، بهذا العجز الخانق . تُذكرني بالحصار المضروب على غزة والضفة الغربية والقدس فِيما القذائف والصواريخ تواصل هَجَمَاتِها، وليس هناكَ فِعْل عربيّ يساند بِالملموس انتفاضة التحرير . . .

لأَكُون صادقاً أقول إنني الآن، وأنا غارق في عجزي، أُحسُّني على حَافَة ليلٍ طويل، بَهيم، ولا أَستطيع أَن أُعزِّي النفس بأنني أنتظر فجراً أَوْ قِيامة .

باريس

فلسطين المكان الذي غدر به الزمان

محمد لطفي اليوسفي

الهبوط إلى العالم السفلي

سأحدّث عن المكان.

لأنني كنت هناك في أريحا ورام الله وبيت لحم ومخيّم الأمعري والبيرة وبيتونيا ومشارف القدس؛ لأنني ذهبت للمشاركة في مهرجان فلسطين الشعري الأول، لكن الشعب الفلسطيني العظيم أبى إلا أن يجعلنا نعيش فلسطين متوهّجة غضباً ودماً وناراً، فشهدنا انتفاضة الأقصى تسطّر أمجادها؛ ولأنه من الصعب على من يدخل فلسطين أن يشفى منها تماماً، فحالما يطأ ترابها يتسلّل شيء ما قدسيّ، شيء سحريّ، هشّ، مشتهى، شيء يخترق الجسد ويستبدّ بالروح، سأحدّث عن المكان.

لأنني رأيت كيف يتخفّف المكان من ماديّته وصلابته ويستعير من الحلم شفافيته وفتنته؛ لأنني رأيت الحلم يشهد من التكثيف ما يحوّله إلى مكان صلب قاس مهيب يربك الجسد ويدوّخ الحواس سأحدّث عن المكان. عن الهبوط الجحيمي إلى أرض أريحا الصابرة تحت شمس قرّرت أن تحرق كبد العالم؛ عن جبالها الرواسي وخطوات المسيح على جبل التجربة؛ عن رام الله الناظرة صوب القدس المحاصرة؛ عن وادي النار؛ عن بيت لحم؛ عن كنيسة المهد؛ عن فلسطين المكان الذي غدر به الزمان.

سأحدّث عن أب مثقل بالهمّ مكدود نتقدّم إليه بالعزاء فيغالب الوجع مزدهياً بأنه قدّم ابنه الطفل محمد نبيل علي حامد البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة فداءً لفلسطين وكرامة الأمة العربيّة. عن المكان عدوانياً ووحشياً؛ عن المكان واقعاً أرضياً مضرّجاً بدم الأبرياء؛ عن الفعل رسولياً؛ عن الوجع ربّانياً؛ عن قطّة هدّها الإعياء رأيتها تهبط مدرجاً يتفرّع عن شارع النجمة طريق المطارنة المتلّفت صوب كنيسة المهد. سأحدث عن الدمع مكتوماً وسرّياً؛ عن الأرض أمّاً تتغذّى بلحم بنيها؛ عن عرب الجهالين يحيطون بالقدس خياماً وقطعان ماعز تبحث بين الصخر عن أعشاب وهميّة لا ترى وتعلك الضجر؛ عن طفلة تلبس مريلة صفراء وقفت في الساعة التاسعة صباحاً قدّام بيت متداعٍ في مدخل البيرة تراقب أطفالاً في سنها لم يتجاوزوا السابعة، يجمّعون حجارة وإطارات سيارات استعداداً لمواجهات بعد الظهر.

عن الزغاريد مأهولة بالنوح مكتوماً سأحدّث؛ عن معركة سرّية تجري في المكان بين الألوان، الأصفر والأزرق والأبيض وما بينها من صراع رمزيّ إشاريّ مدوّخ؛ عن المغارة التي سجد فيها المجوس قدّام المسيح وطرحوا كنوزهم ذهباً ولباناً ومرّاً؛ عن المساجد تبكي مسجد عبد الله بن عمرو بن العاص في الرملة وقد صار مرقصاً ليلياً، عن الكنعانيين يسرق حلمهم وتراثهم ومدائنهم وطريقة مقامهم على الأرض؛ عن جبل أبو غنيم؛ عن قمم الجبال والهضاب مزروعة بالمستوطنات؛ عن المكان حين يصبح جنداً ويصير عسكراً وخسراناً لبني البشر أجمعين، عن الصبر فلسطينيّاً، عن الرّعب صهيونيّاً، عن اتفاقات أوسلو يذروها مكر الصهاينة هباءً ومرارات، زبداً وطواحين ريح.

■■■

توجّهنا إلى فلسطين بعد يوم واحد من استشهاد محمد الدرّة في حضن والده يوم الأحد ١ تشرين الأوّل ٢٠٠٠، قتل الطفل على مرأى من الدنيا قاطبة. الأرض لم تصب بقشعريرة ولا الشمس أفلت. وحده الدم ظلّ صارخاً في العراء. قتل الطفل البارحة وها نحن نتوجّه صوب فلسطين، صوب جسر الملك حسين. صباح يوم الاثنين ٢ تشرين الأول أي بعد مضي ٥٢ سنة لا غير على وقوع فلسطين في قبضة اليهود، وبعد مضيّ ١٠ سنوات فحسب على محرقة العامريّة واللّحم العربيّ مشويّاً حتى التفحّم، وبعد مضيّ سبعة قرون لا أكثر على رحيل القائد الأعظم صلاح الدين الأيوبي. صار عمر الولايات المتّحدة الأمريكيّة قرنين من الزمان لا غير.

■■■

هبوط مدوّخ باتّجاه الغور حيث نهر الأردن. مكدودة تنزل الحافلة على الطريق الملتوية باتجاه المكان الأشدّ انخفاضاً في العالم حوالى ٣٥٠ متراً تحت سطح البحر. الضغط يصمّ الآذان. هناك بعيداً في الأفق تبدأ جبال أريحا بالظهور جرداء لا نبت ولا شجر، شهباء مشوبة بصفرة باهتة حتى لكأنها غيوم هائلة تجمّدت على الأرض. هكذا يبدو المشهد للوهلة الأولى. مشهد قياميّ لا يمكن أن يجري إلا في حلم. لكأن المكان نفسه يفقد صلابته كلما اقتربنا منه ويتخفّف من مادّيته فتفقد الموجودات ألفتها لتتّشح بغلالة من القسوة والفظاظة.

في غور الأردن لا شيء يدلّ على وجود حياة سوى بعض مزارع الموز التي تبدو مثل بقع خضراء محاصرة بالقحط والسخط في آن معاً. مزارع الموز تبدو مصابة بالذعر. شجيرات متلاصقة متراصّة بعضها متداخل بالبعض الآخر كأنه يبحث عن حضن أو عن بعض من دفء. بالقرب من تلك المزارع حدثت في ذات يوم تلك المعركة التي سيسمّيها العرب تبرّكاً معركة الكرامة.

على الطرف الآخر من الجسر الفاصل بين الأردن وأرض فلسطين التي صارت تسمّى حتى لدى العرب أنفسهم إسرائيل، بعضٌ من حياة توحي به أشجار أريحا الصابرة ومزارعها التي تبدو مثل بقع خضراء رميت في المكان صدفة واتّفاقاً. كنا نتقدّم باتجاه فلسطين، الحلم العربي الذي ما يفتأ يعاود الظهور في كلّ مرّة تصبح فيها الكرامة العربيّة مجرّد ذكرى، وتصبح الشعوب العربيّة مثل الهوام لا أمل ولا فرح ولا نسمة من حياة.

فلسطين لم تعد موجودة على خارطة العالم. لقد تمّ محو الاسم. حدث فعل استبداله. ونحن لا نتقدّم باتجاه بلد بل نمضي إلى حلم شرس مروّع أو باتجاه وهم. المكان لا يملك تحت الشمس غير اسمه. واسم فلسطين قد تمّ محوه من خارطة العالم، تم محوه من المعاجم ودروس الجغرافيا حتى لدى بعض المؤسسات الحكوميّة العربيّة المجيدة. لكن الاسم احتمى بالوجدان العربي حزناً صامتاً عميقاً سنظلّ نتوارثه جيلاً بعد جيل. وطوبى للحزانى.

■■■

مشهد خلفيّ يشبه المهزلة : عندما ذهبت إلى السفارة طلباً لتأشيرة العبور إلى الأشبار المحرّرة من أرض فلسطين كانت نبيلة معي. على شبّاك مكتب الاستقبال وضعت ورقة تحمل البشارة للمواطنين

العرب بأن سعر التأشيرة قد تضاعف مرّات. أشارت نبيلة إلى الخارطة وهمست: إنك تذهب إلى بلد غير موجود على الخارطة، إذا ضعت كيف أبحث عنك في مكان لا يوجد على خارطة الدنيا؟ لم أفهم ما قصدت، فأشارت إلى الجهة اليسرى. على الجدار علّقت خارطة ترسم حدود بلدان المنطقة: العراق الأردن سوريا لبنان إسرائيل مصر.

قلت لها مداعباً: هذا خطأ مطبعي. فغضبت. قلت: اسمعي نحن أمّة ذات رسالة عظيمة حتماً سنسترد أمجادنا في نهايات الزمان، وسنسود العالم من جديد. إن غداً لناظره... هكذا جاءتني الإجابة. قاطعتها قائلاً: عندما يحين الحين ويأتي زماننا سنسمّي أمريكا أرض الرجال الحمر أسياد الدنيا، ونعينهم على طرد الرجل الأبيض زارع الخراب. وسنسمّي المكسيك بلاد المايا والأزتيك. سنثأر لأنفسنا من روما التي روّعت أطفال قرطاج، وسنستورد من السماء حكّاماً عادلين يملأون بالحلوى والأقلام الملوّنة جيوب الأطفال ولا يأكلون اللحم العربي نيّئاً.. في المساء رفضت أن تعود معي لاستلام جواز السفر وادّعت أنني أخطو باتجاه خيانة ما. دخلت السفارة وحيداً بعد أن آليت على نفسي أن لا أنظر إلى الخارطة. ونجحت في تحقيق هذه البطولة التي ستنضاف إلى أمجاد العرب العاربة والعرب المستسلمة. خيّل لي أن موظّف السفارة يبتسم لي فابتسمت له.

■■■

الحافلة تواصل التقدّم ودرجة الحرارة تزداد ارتفاعاً. كنت على يقين من أننا لا نمضي إلى مكان بل نتقدّم باتّجاه حلم له كلّ مواصفات الكابوس. هي ذي... هي ذي فلسطين. الأرض المقدّسة التي برعت في أكل لحم أبنائها المتسابقين إلى الموت. مكان غدر به الزمان. مكان يلتقي فيه يهوشع بن نون مع العمالقة من الكنعانيين وربّه إله الجنود يستحثّه في نبرة ساديّة مروّعة على إراقة الدم وقتل النسل وإحراق الزرع. لحظة ويحطّ البراق على حائط المسجد الأقصى وتنفتح السموات. فيكون إسراء. ويكون معراج والنجوم تترجّل في ساحة الأقصى. لحظة أخرى ويأتي يهود يهزّون الرؤوس بقرب الحائط الذي سيدّعون أنه أعدّ لبكائهم.

ريتشارد قلب الأسد يعبر البحار مدجّجاً بالضّغينة. صليبيون جاؤوا وأبادوا الناس في عكّا. صلاح الدين الأيوبي العابر من جبال الأكراد على فرس صارع الريح والنوء يأتي منقذاً ومخلّصاً. الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي يخرج للتوّ من مقصورة في الأقصى ويمضي باتجاه دمشق. عبد الغني النابلسي هنا أقام، هنا درّس قبل مجيء اليهود بقليل. المغاربة ببرانيسهم الصوفيّة جاؤوا من شمال افريقيا وخلعوا اسمهم على باب من بوابات الأقصى.

يوحنّا المعمدان يكرز في البرّية قائلاً توبوا لأنّه ملكوت السماء اقترب، اليعازر ينهض من القبر، يوسف النجار يسوق حماراً مكدوداً ينشد الوصول إلى أرض مصر كي يتمّ ما قيل من الربّ بالنبيّ القائل من مصر دعوت ابني. عمر ابن الخطّاب يترجّل عن فرسه الآن وكبير مطارنة كنيسة القيامة يدعوه للصلاة في كنيسته فيبادله كرماً بكرم. صوت في الرامة نوح وعويل راحيل تبكي أولادها ولا تريد أن تتعزّى لأنهم ليسوا بموجودين. هي ذي فلسطين إذن. هو ذا المكان. مكان غدر به الزمان. وللفلسطيني أن يدفع الثمن دماً ودموعاً. ولنا نحن المقيمين خارج فلسطين أن نسمّي ذلك بطولة كي

ندرأ الوجع ونتخفف من تأنيب الضمير. وطوبى للحزانى!!!.

عبور الصّراط : جسر الملك حسين

جسر على نهر الأبديّة. جسر تسيل تحته مياه ضحلة ضاربة إلى الصفرة. هو ذا نهر الأردن. جسر خشبيّ كأنه خربشة بقلم رصاص على ورقة منزوعة من كتاب قديم نهشته الأرضة دهراً. جسر متواضع في منتهى التواضع. طوله عشرة أمتار أو أقل. وعرضه بالكاد يتجاوز المترين. في وسطه، في وسطه بالضبط، رسم بالطلاء الأبيض خطّ هو الحدّ الفاصل بين الأردن وفلسطين القابعة في الأسر. والخطّ الأبيض يضعك منذ الوهلة الأولى في حضرة العدالة الصهيونية التي أعطت للأردن نصيبه من هذا الجسر وأخذت نصيبها.

على يسار هذا الجسر الخشبي الهرم الذي رأى الويلات كلّها، وشهد وصول الانجليز والأمريكان، ورأى وصول الإسرائيليين، ورأى هجرات الفلسطينيين في اتجاه بقاع ستسمّى مخيّم اليرموك، مخيّم فلسطين، مخيم صبرا، مخيّم شاتيلا مخيّم الوحدات مخيم عين الحلوة، ثم تصير المخيّمات مدناً من إسمنت رماديّ ضارب إلى السواد؛ تصير المخيّمات أحلاماً بعودة تزداد استحالة كلما انضاف إلى الزمن العربي ليل آخر - على يسار هذا الجسر المقفل بالوجع ربّانياً - ثمّة أشغال حثيثة.

جرّافات، شاحنات، أعمدة حديديّة ضخمة. تلك تباشير هبات السّلام، مرّة أخرى تأتي التسميّة محمّلة بالمكائد. وطوبى لصانعي السلام. مطلوب منا أن نهلّل ونفرح نحن العرب الواقفين على شفا الهاوية. علينا أن نفرح ونهلّل فسيقع استبدال الجسر الصغير، الجسر الخشبي الذي هدّته السنون والويلات تتوالى تباعاً، بجسر عظيم كبير ضخم فخم يسرّ الناظرين ويملأ بالبهجة قلوب العابرين إلى أرض كانت تسمّى فلسطين.

ولنا أن نتخيّل المشهد في المستقبل. ستتوالى الخيرات من هناك من تلك الأرض التي كانت تسمّى فلسطين عسلاً ولباناً ومرّاً. سيعمّ الخير والرفاه بلاد العرب من البحرين حتى أقاصي بلاد شنقيط موريتانيا العظمى، وستنال الصحراء الغربيّة نصيبها من الغنيمة أيضاً. وعلى العرب أن يفرحوا. عليهم أن يهلّلوا للصدقات إسرائيليّة هذه المرّة. ولهم أن يبتهجوا بالنظام العالمي الجديد صانع المعجزات. وكافر كلّ من يردّد قول المسيح ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

غريب أمر هذا الشعب الفلسطيني لا يكتفي بالخبز بديلاً عن الحياة والكرامة. مدهش أمر هذا الشعب الفلسطينيّ الذي شهد أسلافه خطوات المسيح على جبل التجربة، ورأوا يوحنا المعمدان وعلى حقويه منطقة من جلد وهو لا يتغذّى إلا بقليل من الجراد والعسل البرّي. غريب ومدهش أيضاً أمر هذا الشعب الذي سمع أسلافه ذات ليلة حفيف أجنحة البراق وهو يحطّ خفيفاً على سور الأقصى والدنيا تضيء. تلك حيل المتخيّل الجماعي وذاك طابعه المقاوم. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بذاكرته المنقوشة في المكان. أزمنة متراصّة مكثّفة. هي ذي فلسطين إذن. زمان تكثّف حتى غدا مكاناً وحكايات، أقاصيص وملاحم، سماء تنفتح في وجه الأرض، أرض تتسامى وتتخفّف من ماديتها حتى تصبح كالأثير. ثم يلتقيان. الأرض والسماء يغدوان واحداً.

■■■

مكانان.

بنايتان.

مدخلان.

والطريق إلى أحشاء الوحش على مرمى حجر. ومثلها الطريق إلى الحلم العظيم، الحلم الضاري الذي نسمّيه فلسطين.

■■■

البناية الأولى متواضعة كأنها وضعت للتوّ على عجل. على مدخلها كتبت لافتة: القادمون إلى السلطة الفلسطينيّة. البناية الثانيّة فخمة عالية عليها لافتة بالعبريّة أعدّت لاستقبال الدنيا والمطبّعين العرب. منذ الوهلة الأولى تبدأ المعركة إشاريّة ورمزية. البنايات تحدّث، والمداخل تحدّث، والمكان يحدّث بأن العدالة قد فقدت من الأرض تماماً. نتخطّى العتبة فيصبح الطابع الإشاري أكثر عنفاً. شبابيك ونوافذ. ناس من الفلسطينيين ينتظرون إذناً بالدخول. نساء يرتدين السواد خفراً وحشمة أو حداداً. أطفال في الزاوية واجمون لا يلعبون. ثمة دكّان صغير شبه مقهى أو شبه مشرب.

ثمة شيء يطبق على الروح كالدوار. شبابيك ونوافذ. وراء كلّ شبّاك يجلس أحد رجال الشرطة من الفلسطينيين العائدين مع اتفاقيات أوسلو. يجلس الشرطيّ الفلسطيني الذي كان فدائياً محارباً داخل زيّه الكحلي متعباً مكدوداً. وبجانبه مجنّدة صهيونيّة شابّة تجلس مرتاحة في جسدها. مطلوب أن تسلّم جواز سفرك وتصريح الدخول إلى الشرطي الفلسطيني. وهو بدوره يتولّى الحكي مع المجنّدة. لكأن الشرطي الفلسطيني يحرص على تجنيبك ويل التعامل معها. درع واق هو، أو غلالة مضلّلة. ثمّة في العيون غيظ مكتوم. في عينيها حقد شيطاني وفي عينيه وعيد ربّاني. هنا يجلس الفلسطيني الضحيّة ومعه تجلس جنديّة من الجلادين.

«أنت من تونس الخضراء يا هَلا!» قلت: «إنها تصفرّ صيفاً حتى لكأنها مصابة بالتهاب الكبد».

الشرطيّ الفلسطيني يخطو باتجاه الحلم ألوهيا وربّانياً لم يفقد الأمل تماماً. ففي عينيه المكدودتين يتراءى الأمل معجوناً بالتّعب وحاجة الأطفال إلى القوت. لقد كان في تونس، جاءها في سفينة حرص ربّانها أن يضيف للأوديسيا فصلاً فاجعاً لا يمكن لهوميروس نفسه أن يتخيّل عنفه. حتماً لم يكن الربّان وهو يرسي السفينة على شاطئ مدينة بنزرت التونسيّة يدري بأنه كان يدوّن في سجّلات خسران العرب ونكد أيّامهم يوماً آخر له مذاق النوح وطعم النحيب. الشرطي الفلسطيني الذي تسلّم جوازي، صديقي هذا الدرع الواقي، كان قبل ذلك في عمّان ورأى قمر جرش في شهر أيلول يهوي من السماء. القمر ذاته رآه في بعلبك وبيروت وتلّ الزعتر محاطاً بالدم مظلماً لا ينير.

هذا الفدائي الذي ارتدى زيّ الشرطة، يعلم أن الطريق التي اختارها محمد الدرّة هي الطريق المؤديّة. ثمّة فسحة من أمل إذن. ففي اللحظة التي «استتبّ فيها الأمن»، في اللحظة التي صارت فيها الكرامة العربية مجرّد ذكرى بعيدة، في اللحظة التي أيقن فيها الحاكم العربي بأمر أمريكا ان الجماهير العربيّة غدت مثل الهوام لا أمل ولا فرح ولا غاية، عاود الغضب الفلسطيني الظهور ليشير

إلى الطريق المؤديّة.

أرض أريحا الصابرة

«هذا جوازك تفضّل ومرحباً بك في فلسطين». تحاول أن تردّ على تحيّة الشرطي. لكنّ الصوت يخون. وجع اتّخذ من الجسد معبراً وتسلّل إلى عروق القلب. تكتفي بردّ التحيّة بحركة باتجاه القلب. يبتسم. تبتسم. هل هذا عبور الصراط. رجفة،، رعشة،، برد يتسلّل إلى المفاصل،، إحساس بلا معنى الوجود أصلاً.. شعور بالضآلة،،، شعور بالعجز،،، دمع حبيس يثقل الصدر.

في الجانب الأيسر من البناية المتهالكة ثمّة قبالة المدخل باب ضيّق، باب ضيّق كأفراحنا ينفتح فجأة ونعبر. أذرع دافئة تحضنك. تنسيك للحظة أنك كنت تعبر الصراط. تكاد تنسى أنك صرت الآن في أحشاء الوحش تماماً. «يجب أن نسرع، اصعدوا إلى الحافلة، اطلعوا في هذه السيّارة. يجب أن نسرع قبل أن تبدأ المواجهات. سنفتتح المهرجان بعد قليل افتتاحاً رمزياً. يا هَلا! يا هَلا! مرحباً بكم في فلسطين شرّفتم فلسطين، سنهتم بالحقائب...».

هو ذا المكان: أرض أريحا. لم تعد الجبال مجرّد أشكال تتراءى في الأفق. إنها هنا جاثمة راسية كلسيّة رمليّة. ملح وطين. صفرة باهتة ضاربة إلى الرماد قليلاً. الحرارة لا تطاق. والشمس مزمعة فعلاً على أن تحرق كبد العالم. جنديّ اسرائيلي مدجّج بالسلاح أشقر على وجهه بثور ورديّة وعلى رأسه قبّعة خضراء يغلق الباب الحديديّ. يصرخ السائق الفلسطيني في وجهه بالعبريّة. الجندي يغضب. ينادي جندياً آخر بشرته البنّية تدلّ على أنه قادم من أثيوبيا. يأتي شاهراً رشّاشه. عصبيّاً متوتّراً ظلّ يراقبنا، تكاد شهوة الدم تستبدّ بروحه. يجري الجندي ذو الوجه الموشّى بالبثور ورديّة قانية اتصالاً هاتفياً من جهاز معلّق على حائط مخفر المراقبة. ثم يفتح لنا الباب الحديدي الأصفر. نعبر. يشرع السائق الفلسطيني في شتم العالم ودولة بني إسرائيل. سباب وشتائم وغضب: «الجبناء، نحن نعرفهم وما نخافهم، حِلّوا عنّا. هلاّ! هلاّ! بالأخوة العرب في أريحا. انظروا هنا وقعت مواجهات الأمس استشهد شابان... الملازم أيضاً قتلوه أمام بيته، الملازم المكّلف بالتنسيق الأمني.. لو تأخّرت تصاريحكم إلى اليوم لما عاد بإمكانكم الدخول.. مرحباً نوّرتوا فلسطين هلاً!!».

■■■

هي ذي أريحا. هي ذي أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً. هي ذي أرضك أريحا وقد دارت الحياة دورتها. هي ذي أرض أريحا الصابرة. حين وصل إليها يهوشع بن نون ليدمرها ارتعدت فرائصه فحدّث عنها مرتعباً: «إنها تفيض لبناً وعسلاً، غير أن الشعب الساكن في الأرض معتزّ والمدن حصينة عظيمة جداً، رأينا فيها أناساً طوال القامة فكنّا في أعيننا كالجراد وهكذا كنّا في أعينهم.» وللفلسطيني أن يفخر بأسلافه الذين ملأوا بالهلع قلب يهوشع بن نون القادم من التيه العائد إليه. للفلسطيني أن يفخر بأطفاله، فان يختار طفل موته، أن يمضي شاب لملاقاة دبّابات وعسكر ولا سلاح معه غير جسده وإصراره، فمعنى ذلك أن المقدّس فيه قد تجلّى.

■■■

المكان : أرض أريحا. والمشهد عبثيّ تماماً. مشهد يليق بشريط سينمائي غرائبي لا يقدر حتى غودار المناصر لقضيّة فلسطين أن يتخيّله. أرض رمليّة كلسيّة صفراء. أرض أشدّ قسوة من صحراء. في الوسط بناية ضخمة عالية شاهقة تمتدّ بين السماء والأرض مثل لعنة ارتعدت لها فرائص الأرض. إنه كازينو أريحا. الفلسطينيون لا يذهبون إلى هذا الكازينو. وتأتيه الجنسيات الأخرى لتتسلّى. قيل إنه يدرّ من الأموال ما يعين السلطة على تحمّل أعباء السنوات العجاف بعد أن تراجع الدعم العربي وشحّ المال والماء والأمل.

بيت الشعر بأريحا : افتتاح سريع. تمجيد للشهداء. تمجيد للشعر وسلطان الكلمة. احتفاء بنا نحن الأخوة العرب الذين عبرنا إلى فلسطين والدم يراق شلالاً وأرواح تزهق والعالم يتقن الفرجة. في اللحظة التي كنّا نفتتح فيها المهرجان افتتاحاً رمزياً استشهد ثلاثة من شباب فلسطين على مرمى حجر من القاعة. اختزلت الكلمات. وكانت القاعة مليئة بالناس. كنت على يقين من أنهم لم يأتوا لسماع الشعر والأدب والنقد. بل جاؤوا لأنهم اعتبروا دخولنا إلى فلسطين في هذه الظروف ذا طابع رمزي إشاريّ. كانوا يعتبروننا جزءاً من الوجدان العربي. ولا يمكن للمرء في مثل هذه الحالة إلا أن يشعر بأنه ضئيل عاجز عن تقديم أيّة مساعدة عمليّة.

ثمّة كآبة ما تخترق الجسد وتطبق على الروح. رغبة في البكاء، رغبة في النشيج تستبدّ بك حين ترى كم هو قاس قدر الفلسطينيّ في هذا الليل العربي الذي ما فتئ يزداد كثافة ودياجير. وكم هي مهيبة رسالته. ولا تقدر أن تفعل شيئاً عمليّاً.

نحن في السيّارات من جديد وهي تمرق سريعة في الشوارع الخاليّة إلا من بعض عابري السبيل. على الجدران شعارات تدعو إلى المقاومة وتمجّد الشهادة والاستشهاد. هي ذي أريحا الصابرة. رائحة بارود وصوت سيّارات إسعاف. فجأة فندق فخم يقف قبالة سلسلة الجبال الراسيّة مثل كائن خرافي ينتظر فرصة الانقضاض على الدنيا لسحقها مزقاً وغباراً.

قرية أريحا السياحيّة :
فندق ومنتجع صحّي .
شارع بيسان قرب قصر هشام . أريحا فلسطين.

Jericho Resort
Village
Hotel & Spa
Near Hisham Palace, Bisan St, Jericho - Palestine

فلسطيني صاحب الفندق. العمال فلسطينيون. الترحاب فلسطينيّ مشوب ببعض من كرم الأنبياء. والمواجهات تجري هناك بعيداً عن الفندق. نحن في أحشاء الوحش إذن. والطريق إلى رام الله يعبر من تلك الجبال الراسية. أشدّ الأمكنة انخفاضاً تحت سطح البحر. المكان رحم الدنيا. لعلّ الحياة بدأت هنا. حتماً بدأت من هنا. كائنات بحريّة خطت باتجاه اليابسة حين شرعت المياه في الانحسار. وبدأ

العنف تاريخه الدمويّ. كائنات بحريّة كانت تحيا في هذا المكان. هنا عاشت. هنا تناسلت. هنا نفقت . . . المكان خرافة مدوّخة. أن تنام في فندق يقع على عمق ٣٥٠ متراً تحت سطح البحر والبحر قحط وخلاء: هي ذي أريحا المكان الشبيه بخرافة قادمة من ليل الدهور.

هي ذي أريحا بوّابة فلسطين. الاسم لم يمح من الأرض إذن. كما لن يمحى من ذاكرة أطفالنا. لقد تمّ محوه في الخرائط والعديد من المؤسّسات العربيّة. على يقين أنا من أن الذاكرة هبة من السماء. ليست الذاكرة مجرّد ملكة تحفظ الوقائع والوجوه. إنها إدراك مقاوم لسطوة الموت وسلطانه. والنسيان صنو الموت وسميّه وقناعه. علينا أن لا ننسى أبداً. ولكم هو عظيم أن يمتلك المرء ذاكرة. وهذا هو الصراع في بعده الإشاريّ العظيم. يافطة الفندق. كارت الفندق نفسه فعل مقاومة. وللتسميّة مفعولات التميمة والبلسم. أريحا، فلسطين، قصر هشام. كان الخليفة هشام يأتي إلى أريحا شتاء وكان للعرب وقتها كرامة.

■■■

الثلاثاء ٣ تشرين الأول صباحاً. سدّوا المنافذ إلى رام الله. الطريق إلى القدس مغلقة هي الأخرى. عسكر ودبابات. «هناك طرق ومسالك ترابيّة سنسلكها. لا بدّ أن نغادر أريحا قبل المواجهات، يجب أن نسرع.» الفلسطينيون رفاقنا كانوا حريصين على سلامتنا وهكذا استحثّونا. لا يجب أن نصاب بأي خدش في أجسادنا. لا يجب أن يطالنا أي أذى أو أي مكروه. سنغادر أرض كنعان وأجسادنا سليمة تماماً. لكن لا أحد سأل عن الروح.

روحي صارت دياجير وظلمات. حزن صامت عميق يداخل شغاف القلب. إحساس باللاجدوى. ماذا يمكن للمرء أن يفعل. كيف يمكن أن يكون عمليّاً وهو لا يتقن غير الكلمات. حتى الكتابة في مثل هذه الحالة خيانة ودنس، خزي وعار. كنت أدوّن جميع ما أرى. جميع التفاصيل التي اجتذبتني إليها دوّنتها خلسة. حملت معي من التفاصيل ما يكفي لتأليف كتاب. كيف يرتقي المرء إلى مستوى ما رأى، كيف يكتبه محاطاً بهالته الأسطورية دون أن يقع في نقل الواقع أو وصفه وصفاً إخبارياً مسطّحاً يفقره ويلغي كثافته، كيف يكتب جانبه السحريّ الأسطوريّ المروّع. الحياة أقدس من النص، والفعل المقاوم أعظم من أن تحيط به الكلمات لا سيّما إذا كان الفعل أسطوريّاً رسولياً على النحو الذي نرى.

■■■

الطريق الى رام الله

الوجهة رام الله. والجبال تزداد عتوّاً عندما نتوغّل في الطريق الملتوية التي تخترقها. ليس طريقاً هذا الخيط الاسفلتي الذي يمتد بين ضلوع الجبال دوائر والتواءات بل هو ثوب حيّة رقطاء نسيته هنا في بدايات الزمان.

■■■

الساعة التاسعة صباحاً. الشمس ساحت في السماء ناشرة نوراً أصفر ثقيلاً. حالما تخطو خارج بهو فندق أريحا المتلفّت صوب قصر هشام تتلقّفك الأرض طينيّة صفراء كلس وملح وصفرة. ويبدو

المشهد قيامياً تماماً. لو صوّت في السماء بوق لسلّم المرء بأن نهايات الدنيا قد حان حينها. شيء كالزفير المكتوم تحسّه في الهواء يصّاعد من الأرض التي خزّنت في ترابها الموات لهب شمس البارحة. وها هي الشمس ذاتها تعاود الظهور من جديد عاقدة العزم على الخطب العظيم ذاته: إحراق كبد العالم. ما رأيته البارحة بعد عبور الجسر ـ الصراط لم يكن مجرّد وهم إذن. ها هي الشمس تطلع شاحبة نورها أصفر معجون بالرماد. وها هي أرض أريحا وجلة مأهولة بالخطوب قادمة من ليل التاريخ. والجبال، الجبال ما زالت هنا. لست مطالباً بأن تنظر إليها هي التي تأتيك، هي التي تداهمك وتقتحم جسدك ضخمة عاتيّة جرداء لا نسمة ولا حياة. خلسة تنظر إليها كأنك تسترق النظر إلى وحش مرعب تخشى أن تستفزّه فيرتدّ البصر كسيراً.

■■■

نصعد الحافلة «مرحباً.. نوّرتوا فلسطين.. هلاً! هلاً بالأخوة العرب.. الطرق مسدودة بالدبابات والعسكر.. سنأخذ طرقاً ترابيّة.. أهلين! يا مرحبا!.. سنسلك الطرق، الطرق الترابيّة.. طرق وعرة قليلاً.. بعد قليل ستبدأ المواجهات...» يرتفع صوت المحرّك وتضيع كلمات السائق فتصبح كالتمتمة أو الوشوشة «اليـ..هـود... استشهد.. مستوطنون...»

نحن الآن على الطريق باتجاه رام الله. بدأنا نصعد من أشدّ الأمكنة انخفاضاً تحت سطح البحر باتجاه الدنيا. من العالم السفلي نصعد. الكلّ صامت. إنها مهابة المشهد. كانت الجبال تقترب. ها هي تزداد قرباً. هي ذي تزداد قسوة وشراسة. أريحا بدأت تبتعد. بقع خضراء وبعض مبان. أريحا صارت هناك. مذهلة ومدهشة تجربة الصعود هذه وأريحا هناك في الأسفل صابرة.

■■■

أريحـ..ـا!

يا أريحا الصابرة. أحتاج قليلاً من صبرك الربّاني فالروح محض عذاب. جسر على نهر. كازينو في أرض موات. قصر ينوح في السرّ ليلاً على أمجاد من سكنوه. والشمس تعاود الظهور. رجف يستبدّ بالأرض وليت نور القمر لا يضيء. طوبى لنا!! لكن من أين سيجد العزاء طريقه إلى الحزانى.

■■■

ثمّة في تجربة الصعود هذه من أريحا إلى رام الله المتلفّتة صوب القدس، من العالم السفلي إلى الدينا، شيء سحريّ يربك الحواس جميعها. قسوة الجبال، عظمتها، جدبها، عراؤها، هالة المهابة التي تجلّلها، كل هذا يجعلك تكاد تسلّم بأنك قفزت في العمى والكون لم يزل بعد سديماً. بعد قليل، بعد برهة قد تنحني آلهة ما، قد يأتي ملاك ما، قد يتجلّى كائن أثيري ما ويقتطع من طين الجبال قسطاً، حفنة أو حفنتين، ويبدأ التكوين. من هنا، من جبال أريحا يسهل الصعود إلى السماء. يكفي أن نحدّق قليلاً وسندرك أن السماء تتكئ فعلاً على هذه الجبال العارية من كلّ نسمة أو عشبة أو حياة. وليس غريباً أن يكون المعراج هنا من أرض فلسطين. ليس غريباً أن تنفتح السماء في وجه المسيح ويأتي روح الله نازلاً عليه مثل حمامة وتدوي السماء بالصوت قائلاً: «هذا ابني الحبيب الذي به سررت». المشهد قاس ومروّع، فظاظة رقيقة، هشاشة صلبة، غلظة حانية، جبال صلبة مثل لعنة

أبديّة، هشّة كجبال من الغيم الضارب إلى الصفرة، طين تجمّد : هذه هي جبال أريحا المتلقّتة صوب رام الله والقدس عروس المدائن ثكلى العواصم.

■■■

الحافلة مكدودة تصعد من أشدّ الأماكن انخفاضاً إلى قمم الجبال، الطريق يمتدّ ثنيّة بين ضلوع الأرض. ثمّة شيء خرافي، ثمّة شيء إشاريّ مدهش في تجربة الصعود هذه، الجبال يميناً ويساراً مهيبة مجلّلة بالصمت والقحط، مسخوطة تبدو ومتحرّكة. يكفي أن يستسلم المرء قليلاً لحواسه ويتملّى ما يراه دون أن يعقلن المشهد وسيشعر بأنه في حضرة كائن أسطوري مروّع، كائن خرافي يتحرّك في ثقة وتؤدة وثبات باتّجاه كون أزمع على أن يهلكه. غير أن هذا الشعور سرعان ما يتراجع ويتحوّل الوحش المخيف إلى كائن خرافي مسكون بأسى لا يطفأ.

الأبديّة هنا في هذا المكان متوارية خلف غلالة شفّافة، غلالة في منتهى الرقّة، لو خدشنا الهواء الجاف قليلاً سنجد أنفسنا هناك في الماوراء حيث نهر الأبديّة ودموع بني البشر أجمعين. جبل التجربة أحد هذه الجبال الواقفة في المهبّ ما بين المادي الصلب والأثيري الشفاف. على اليسار قليلاً بناية بيضاء تبدو كأنها تتشبّث بالجبل، بالكاد تتماسك ولا تسقط. إنه دير قرنطل المحتمي بجبل التجربة. دير صغير، دير معلّق يجاهد الأفول متلقّتاً إلى الهاوية. لو هبّت نسمة من هواء لتداعى ولكان سقوطه عظيماً.

الأبديّة متوارية خلف غلالة رقيقة حتى لتكاد تتراءى من خلال المكان من فجوات في الهواء. لا بدّ أن يكون يسوع المسيح قد عاش هذه اللحظة. لا بدّ أن يكون هذا المكان موطناً للأنبياء ومرتعاً لنجوم السماء. هي ذي جبال أريحا إذن: مكان محمّل بالاشارات، غابة من رموز وإيماءات. لا يمكن للمرء أن يعبر من هناك ولا يرى بعضاً من تلك الإشارات والإيماءات التي تملأ المكان بالقسوة والمهابة والهشاشة. فالمشهد يربك الجسد ويدوّخ الحواس. وحيداً خاض يسوع المسيح التجربة في هذا المكان. ظلاله ما زالت في المكان مثل رفّ جناح، بعد قليل سيُدَقّ لحمه بالمسامير صدئة سيصعد إلى الجلجلة. وبعد قليل يوم الاربعاء ٤ تشرين الأول سنة ٢٠٠٠ حين نكون في فندق BEST EASTERN برام الله سيدخل شابّ فلسطيني فزعاً ويخبرنا أن المستوطنين قد أمسكوا فلسطينياً ودقّوا المسامير ذاتها في جسده.

هكذا يتّخذ الحلم طابع الكابوس ويلتحف بجميع سماته. يكفي أن يحدّق المرء قليلاً في الجبال الجرداء، في صفرتها الشاحبة المعجونة بالرماد، في الكيفيّة التي تتماسّ بها ويتكئ البعض منها على البعض الآخر فيما هو يواصله، حتى يخيّل إليه أنها جبال متحرّكة، جبال تزحف باتجاه فلسطين تريد سحقها نهائياً ثم تطحن الكون بأسره. من هنا سينتهي العالم.

صرنا في الأعالي، عبرنا الهاوية. حين تلتفت باتّجاه الجبال وقد صارت بعيدة تراها جبالاً متحرّكة تحثّ الخطو وراءنا وهديرها المكتوم يطبّق الآفاق. يتغيّر لون الأرض. يصير التراب أحمر ضارباً إلى السواد قليلاً. شجيرات زيتون هنا. شجيرات هناك. ولا شيء يشدّ العين على الطريق المؤديّة إلى رام الله التي تتفرّع عنها الطريق المؤديّة إلى القدس وبيت لحم وبيسان غير الحجارة. حجارة وصخور مرمية

على الأرض مثل قطعان من الأغنام والماعز وصغار أبقار خرجت للتوّ من شكيمتها. أحجار من كل الأحجام. حجارة تكاد تغطّي أديم الأرض كلّه. لكأن الأرض زلزلت زلزالها. لكأن هذه الأحجار هي أثقال الأرض مقذوفة في العراء.

هي ذي أرض رام الله. على قمم الجبال المجاورة يلمع قرميد المستوطنات. على كلّ الجبال المحيطة بالقدس مستعمرات بنيت بالطول لا بالعرض فصارت عبارة عن سور أفعواني ضخم يحيط بالقدس والقرى المجاورة.

■■■

هي ذي فلسطين،

لا عسل ولا لبان ولا مرّ. وإنما هي حجارة منثورة وصخور تطلّ برؤوسها من الأرض لتشهد على قسوة المكان. يقال إن شمال فلسطين يشبه جنات من تحتها تجري الأنهار. لن نذهب إليها وتلك حكمة صهيون. من أين جاءت أرض رام الله بكلّ هذه الصخور، من أين أتت بكلّ هذه الحجارة. لكأننا في كوكب آخر. لكأن الأرض تحثّ بنيها على استخدام الحجر سلاحاً. حين ترى هذا الكمّ الهائل من الأحجار منثوراً على الأرض يداخلك الشكّ في أن انتفاضة الأقصى وانتفاضة يوم الأرض وكلّ الانتفاضات التي دوّخ بها الشعب الفلسطيني العالم، ليست فعلاً اختيارياً أتاه شعب محاصر بالليل، بل هي تلبية لنداءات الأرض. تكاد تسلّم بأن الأرض تطرح كنوزها أحجاراً وصخوراً والفلسطينيّ يلبّي النداء. فالأرض هي التي ترجم الاحتلال بالحجارة. ليس الفلسطيني سوى وسيلة في معركة الأرض ضدّ غزاتها، هذه الأرض المزروعة صخوراً وحجارة، هذه الأرض المسخوطة هي نصيب الفلسطينيين من كلّ فلسطين. ولنا أن نفرح. لنا أن نهلّل. وطوبى للحزانى لأنهم عند الله يتعزّون.

■■■

شارات مرور إرشاديّة: أورشليم القدس بيسان - بيت شآن - رام الله. عسكر ودبّابات. يتقدّم الجند. يقومون بإشارات. فوهات رشاشاتهم موجّهة نحو الحافلة. يفهم السائق أن العبور ممنوع. يتراجع قليلاً ويعود ثم ينهال بالسباب والشتائم: «أوغاد.. سفلة.. سنسلك طريقاً ترابيّة... وحياة المصحف راح نمرق رغماً عن أبيكم... هذا طريق القدس.. يلوّح في الهواء بقبضته.. رأيتم كيف نحيا.. حياتنا معهم هيك.. كل يوم هيك..». تدخل الحافلة مسلكاً ترابياً ملتوياً وتشرع في الصعود والسائق ما زال يلعن أم المستوطنين وخالاتهم من الرضاعة والأمم المتحدة.

■■■

وصلنا إلى منطقة البيرة. بلدة متكئة على رام الله. بلدة تقع على خطّ النار. درع واق لرام الله. بيوت من طوب رماديّ. بيوت وبنايات كتلك التي تراها في مخيّمات الفلسطينيين عادة، ولست تدري هل هي كئيبة أم مقفلة بالوجع والأسرار. رفع السائق علم فلسطين، وعلّقه. شرع العلم يرفرف حفيف أجنحة ووشوشات. في مدخل البيرة سيارة محروقة. «هاي سيارة أحد المستوطنين. الشباب أحرقوها أمس. جاء ليطلق عليهم ناراً قال السائق مبتسماً. حجارة مرميّة هنا وهناك على الطريق

الاسفلتي المغبرّ. أطفال لم يتجاوزوا السابعة من عمرهم يجمّعون الحجارة بالقرب من السيارة المتفحّمة.

ثمانية أطفال، تسعة، لا، ها هو طفل آخر يأتي راكضاً وهو يدحرج إطار عجلة سيّارة. يضع الإطار قرب كومة الأحجار. ويهمس لرفاقه شيئاً فينخرطون في ضحك طفولي عابث. أحد الأطفال استلقى على ظهره من شدّة الضحك وبدأ يفحص الأرض بقدميه. في الزاوية قدّام بيت متداع بابه مفتوح قليلاً هناك بنيّة صغيرة على عتبة الباب تلبس مريلة صفراء وقفت تراقبهم. تفرك عينيها بيد. وبالأخرى تسوّي جديلتها. يطفح القلب بأسى مهلك صامت مبيد. لو أنه بإمكان المرء أن يوسّع بين جدران الروح مكاناً لهذه البنيّة. لن أعرف اسمها أبداً. لن أراها ثانية. وهؤلاء أحفاد صلاح الدين نسل الأنبياء، والمقدّس فيهم قد تجلّى. الروح صارت خراباً. محمد الدرّة من جديد والدمع الحبيس يحزّ شغاف القلب. بالكاد ترى البيوت المتراصّة على جانبي الطريق. لكأنها ترقص في بحيرات من الدمع. الدمع حبيس والروح خرقة وصدأ.

■■■

الحافلة تعبر. أفهمنا السائق أنهم يعدّون لمواجهات ما بعد الظهر. دخلنا رام الله وشوارعها مقفرة إلا من بعض العابرين. الدكاكين مغلقة والإضراب عامّ. على الجدران شعارات تمجّد الشهداء، ملصقات نعي، ملصقات شباب خطفهم الموت فصاروا شهداء. شباب في زهرة العمر ينظرون إلينا مبتسمين. صور بالألوان لشباب مضوا في الشوط إلى أقصاه. فجأة فندق BEST EASTERN برام الله. شباب مسلّحون من فرقة الـ ١٧ الشهيرة أمام الفندق يراقبون السيارات متحفّزين لأي طارئ. هي ذي رام الله. وغداً سيكون نهار آخر.

درب الآلام

يوم الثلاثاء ٣ تشرين الأول ٢٠٠٠ الساعة العاشرة صباحاً. حين وصلنا قدّام مشفى رام الله، كان الشعب الفلسطينيّ هناك يذرع الساحة في اتجاه باب الخروج مجلّلاً بالغضب. كان الموكب مهيباً. فلسطينيون من كلّ الأعمار. أطفال وشيوخ وشباب يتقدّمون واجمين. تنحّينا جانباً لأننا كنّا نتقدّم في الاتجاه المعاكس نريد الدخول إلى المشفى لعيادة الجرحى. الموكب مهيب ومروّع. هو ذا العلم الفلسطيني وقد غدا كفناً. على الأكتاف شاب في ربيع العمر مسجّى في الأسود والأخضر والأبيض والأحمر. هو ذا شهيد ثان. الكفن ذاته. الوجه مكشوف. والفتى الثاني، الفتى الذي خطفه الموت يبدو نائماً مثل الفتى الأول تماماً. الفلسطينيون يكفّنون شهداءهم هكذا. يتركون الوجه مكشوفاً يواجه السماء. كأنهم يولّونه للسموات كي تراه، كي تحفظه، كي لا تنساه أبداً بعد أن ضاقت الأرض به. الموكب مهيب مروّع. شيء في قاع الروح يتفتّت. دمع حبيس يحزّ شغاف القلب. يرقص المشفى كلّه في بحيرات من الدمع الحبيس في عينيك. ستصوّر الجنازة وستتناقلها الفضائيات. هو ذا الموت فرجوياً متوحّشاً قاسياً فظّاً بدائياً ساديّاً همجيّاً عاتياً ضارياً فاجعاً. هو ذا القتل على مرأى من الدنيا والعرب. الأرض لم تصب بقشعريرة ولا باندهاش. إنها تأكل بنيها.

في أروقة المشفى ومدارجه نساء يدارين الوجع.. أطفال جاؤوا لعيادة جرحاهم.. رجال.. شباب.. المشفى مليء بالناس. كأن الشعب الفلسطيني كلّه هنا يعود جرحاه. فيما الشعب الفلسطيني الآخر

ذهب يشيّع الشهداء المقتّلين. شهداء قتلوا بالرصاص. ثم قتلوا بالصمت العربي. ثم قتلوا بلامبالاة الدنيا قاطبة. أنا على يقين من أن الانتماء إلى الجنس البشريّ جناية لن تغفرها السماوات. ندخل إلى غرف الجرحى.. المشهد يخلع القلوب.. الطبيب الجرّاح فوزي سلامة رافقنا من غرفة إلى غرفة. في كلّ غرفة أسرّة. وعلى الأسرّة يرقد الشعب الفلسطينيّ جريحاً. رام الله كلّها هنا. أطفال جرحى.. كهول جرحى.. شباب.. المشهد يخلع القلوب.. قوارير الأوكسجين.. خراطيم في الأفواه.. خراطيم تنتهي بإبر حادّة مغروزة في عروق الأذرع.. بعض الجرحى في حالة موت سريري... الطبيب الجرّاح فوزي سلامة شخص نشط متفانٍ في خدمة ناسه وشعبه. لقد أنقذ العديد من الجرحى من هلاك محقّق. صارع الموت مراراً وغلبه أحياناً. كان يحدّثنا بفرح طفوليّ مشوب ببعض من حزن الأنبياء عن كيفيّات نجاحه في طرد الموت وإعلاء الحياة. ارتعش صوته حين تحدّث عن تلك اللحظات التي غلبه فيها الموت وافتكّ منه شابّاً أو طفلاً أو قطعة من بدن.

مكتب الدكتور موسى أبو حميد مدير المستشفيات. ندخل. يرحّب بنا نحن الأخوة العرب. يحدّثنا عن عدد الإصابات. «إنهم يريدون ترويعنا فيقتنصون الأطفال. لقد بلغت نسبة المصابين من الأطفال ٥٢٪». هكذا حدّثنا متوتّراً. تدخل ممرّضة شابّة حسناء. خفر وجمال تجلّله الأحزان. تعتذر وتهمس في أذن المدير شيئاً ما. «سنخبرهم فيما بعد هاي مصيبة. لا تخبريهم الآن. إنه وحيد والديه». هكذا قال لها فخرجت مجلّلة بالوجع ذاته مخفورة بالبهاء ذاته. أرانا ما يسمّى الرصاص المطّاطي. رصاص حقيقي مغلّف بقشرة مطّاطيّة لا يتعدى سمكها ميلميتراً واحداً. على كلّ رصاصة وضعت ورقة تحمل اسم المصاب الذي طاله الغدر.

حين غادرنا المشفى كانت الشمس في الأعالي قرصاً أحمق عاجزاً حتى عن القشعريرة والرّجف والأفول قدّام كلّ هذا الويل. لو كان في هذا القرص الناريّ الأبله بعض من حنان لانهار على الأرض وسحقها. متى ينتهي العالم؟ متى الدنيا تنتهي؟ الحياة فسدت. وهذا الكوكب الأرضي يمتلئ بالشرور والدياجير وربّ الجنود يكشّر عن نابه الأزرق. لا يجب أن تنتهي الحياة إكراماً للذين يتسابقون إلى الموت إعلاءً للحياة. أنا على يقين من أن أمريكا ستظلّ تدحرج العالم باتجاه الهاوية حيث لا شيء غير الموت وصرير الأسنان. فالصهاينة ومن ورائهم أميركا وكلّ قوى الخراب في هذا الكوكب الأرضي الكئيب، يريدون أن يقنعوا الناس بأن الفلسطينيين هم الذين يحملون أجسادهم ويضربون بها الرصاص الصهيوني النائم في الرشاشات. وهم الذين يستفزّون الموت الغافي في الصواريخ والدبابات والقلوب الحاقدة. وليس الجند المدجّجون بالضغينة والحقد هم الذين يقتلون الأبرياء قدّام العالم. شريك في الجريمة هذا العالم الذي يكتفي بالتفرّج على الدم العربيّ مراقاً. ثمّة حرص على الإقناع بأن الفلسطيني يعاني من عقدة الحياة والجندي الإسرائيلي يخلّصه من تلك العقدة عندما يطلق عليه النار ويرديه قتيلاً. وهذا هو منطق الإنسانيّة في مطلع الألفيّة الثالثة.

اتفاقيات تذروها الرياح

قبل سَفَره إلى باريس بحوالي ثلاث ساعات وجّه إلينا الدعوة. وها نحن في الطريق إليه. «الختيار» يسميّه الفلسطينيون تحبّباً. وحين يغضبون أو يعتبون عليه يصبح اسمه ياسر عرفات أو عرفات فقط.

لقب ولا اسم. ينادونه أيضاً الأخ أبو عمار. ويحلو للبعض أن ينعته بالقائد الرمز أو السيّد الرئيس بحسب السياق والمقام. وبعد ما سمّي من قبيل السخرية السوداء بقمّة كامب دايفيد الثانية جاب «الختيار» الدنيا بلداً، بلداً. زار «الختيار» ملّة النصرانيين والهندوس وملّة يقال لها ملّة المسلمين. دخل بلاد السند والهند والصين، ووصل ذات مساء حتى أقاصي أفريقيا السوداء؛ حتى نيلسون مانديلا الذي خبر في سجنه الويلات كلّها نصحه بالتريّث. فقفل راجعاً إلى ناسه في غزّة والضفّة.

بناية متواضعة، خمسة طوابق. مدخل كبير قدّامه بعض الشباب يحملون رشّاشات ويبتسمون مرحّبين. باب حديدي يفتح. يدور الباب على صائره محدثاً صوتاً أصمّ. تمرق السيارات. الطابق الرابع. ندخل قاعة صغيرة. في الوسط ثمّة مائدة في منتهى الصّغر عليها منفضة سجائر. استقبلنا مبتهجاً. جلس في وسطنا على تلك المائدة نفسها. وبنبرته المتهدّجة دائماً حرص على أن يشكر الجميع ويشكر الأمة العربية. تفهم من كلامه أنه مبتهج بالانتفاضة لاعتقاده انها ستسقط من جديد أقنعة ابنة صهيون، فينكشف الجحيم المتكتّم على نفسه في صميم فكرة دولة عنصرية، فالفكرة ذاتها مضرّجة بالويلات والشرور والدم المراق. كان يحدّثنا مبتهجاً وهو على يقين من أن صورة محمّد الدرّة وحدها كفيلة بأن توقظ في الدنيا بقايا من إنسانيّة. لكنه سيمضي إلى باريس. ومن باريس يشدّ الرحال إلى شرم الشيخ. من شرم الشيخ سيعاود الرحيل مكدوداً إلى قمّة جمعت ما تبقّى من العرب العاربة وأختها العرب المستسلمة. ومن هناك سيعود منكسر النفس إلى ناسه وبلده. فالعالم بأسره قرّر أن يكتفي بالتفرّج على الدم الفلسطيني مراقاً وعلى الجنائز تخبّ كلّ يوم في مشهد قيامي مروّع باتجاه المقابر.

■■■

اتفاقات تذروها الرياح زبداً وطواحين ريح. وفي رفح شباب يواجهون العسكر بالحجارة ويقتلون. في الناصرة والجليل وفي بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور ورام الله والبيرة، المشهد ذاته في قلقيلية وطولكرم. حجر يواجه دبّابات ومروحيات، في غزّة وجنين ونابلس. غضب وحجارة في كلّ فلسطين.. دبّابات وحجارة.. عساكر.. جنائز تسير خبباً باتّجاه المدافن. نسمة من جنوب لبنان المتلقّت باتجاه شمالك فلسطين.. نسمتان ونرجس:

الإمام علي ابن أبي طالب لم يدفن. على فرس أبيض ما زال يجوب الأرض حتى نهايات الزمان. وكان الإمام فارساً بطلاً صنديداً دوّخ جند الأعداء. سيفه كان بتّاراً. في ساحات الوغى كان الإمام علي يضرب الفارس فيشطره هو وفرسه شطرين ويتوغّل السيف في الأرض يكاد يبلغ منها الرحم والأحشاء. كانت الأرض تألم وتتوجّع ويصدر عنها صوت كزفير الجحيم وهي تتوعّد الإمام قائلة: «يأتيك يومك يا عليّ». الأرض كانت قد أضمرت شرّاً عظيماً، وأقرّت العزم على أن تثأر لنفسها منه يوم يموت ويقبر في ترابها. قتل الإمام وهو يصلّي صلاة العشاء. قتل غيلة. فكان أن بكاه أهله والمسلمون والدنيا أصابها رجف وسمع في الآفاق كلّها نوح ونحيب.

وكي لا يتمّ ما به توعّدت الأرض الإمام. كي يدرأ الشرّ الذي أضمرته، كفّنوه ووضعوه على سرج فرسه. فانطلق الفرس الأبيض يسابق الريح خفيفاً كفرس من أثير معجون بالنور. الفرس سيظلّ يجوب الأرض حتى نهايات الزمان. والإمام لن يترجّل إلا يوم القيامة. فيكون عدل؛ وتبدأ الحياة الأبدية؛

والموت يموت ذبحاً. كانت الزهور والورود كلّها قد خلقت في الأيّام الستّة الأولى التي ابتدأ فيها الخلق. النرجس لم يكن من بينها. خلق النرجس بعد مقتل الإمام. أزهار النرجس صارت تنبت في مواضع حوافز فرس الإمام الشهيد. كلّ نرجس الدنيا هو البشارة، وهو الأمارة على أن الفرس ما زال يجوب الأرض ملتحفاً بالغياب يتراءى وبالكاد يرى.

هكذا حدّثوني عندما كنت طفلاً. وأنا رأيته، رأيت الفرس يمرق في الأيام الشتائيّة الماطرة حين السحب تترجّل على الأرض ضباباً، كثيراً ما كنت أراه. هذه حيل المتخيّل الجماعي في تمجيد الحقّ ومن ناصروا العدل. ولكنني رأيته في طفولتي يمرق بين الهضاب والجبال. ويبدو أنه كان هناك في جنوب لبنان.

بيوت العزاء

وصلنا الى البيرة بعد الظهر عبر طريق ترابيّة وعرة. حفر ومطبّات. سيّارات وشاحنات وجرّارات أرغمت كلّها على أن تتسلّل إلى حاجاتها ووجهاتها عبر هذه المسالك الترابيّة. وهذا جزء من حكمة الصهيونية وعدالتها. خيمة كبيرة سويّت على عجل. أعمدة خشبيّة كسيت بالأبيض والأحمر والأسود، خيمة مستطيلة تتوسّط البيوت تحتها ناس كثيرون. هو ذا الشعب الفلسطيني يتقبّل التعازي. أب مثقل بالهمّ يداري الوجع ويصافحنا محتفياً بالأخوة العرب. أب فقد طفله البارحة وجلس اليوم هنا يتقبل التعازي. «شرف لي أنني قدّمت ابني فداء لفلسطين ولكرامة الأمّة العربيّة.» هكذا ظلّ يردّد وهو يصافحنا ويتقبّل تعازينا. عيناه زائغتان. على ملامحه مسحة من ذهول. وتلك ضراوة الموت. ذاك طابعه الكاسر المتوحّش. الأب لم يصدّق بعد أنه لن يرى طفله ثانية أبداً. لم أرفع رأسي كي أرى الملصق. لم أجرؤ على النظر إلى صورة الشهيد. هنيهة،، برهة،، رعشة في المفاصل وتستجمع بقية من صبر. ترفع عينيك إلى الملصق. طفل عمره ١٣ سنة. صورة بالألوان والطفل يبتسم. ألوان علم فلسطين. لم ترتجف يد قاتله. تقرأ في أسفل الصورة الشهيد البطل محمد نبيل علي حامد. تدوّن الاسم خلسة كي لا تخدش مهابة الموقف. الذّاكرة ازدحمت بالتفاصيل والويل وقد أنسى الاسم لا سيّما أن أغلب الأطفال الذين سقطوا يحملون اسم محمد. دوّنته خلسة. قتل الطفل ولم ترتجف يد قاتله. القنّاص الذي أرداه قتيلاً برصاصة في الرأس لا بدّ أنه يحتفل الآن بأمجاده وبطولاته. نغادر المكان في صمت. نحثّ الخطو كأننا نبتعد عن مكان الجريمة. كأننا شركاء فيها. كأننا مورّطون. يكفي أن تكون هنا؛ يكفي أن تعيش مهابة الموقف وترى فظاعة الفقد في عيني الأب الثاكل؛ يكفي أن ترى الهالة التي تحيط بعيني الطفل القتيل الذي ظلّ يرقبنا من الملصق مبتسماً؛ يكفي أن تتخيّل روحه وهي ترفض أن تأخذ طريقها إلى مملكة الموت لأن الصبيّ لم يستكمل بعد ألعابه وضحكاته وشيطنته على مقاعد الدرس ـ يكفي أن تأتي وترى ـ حتى تشعر أنك مورّط في هذه الجريمة.

كانت الشمس قد مالت إلى الغرب قليلاً وشرعت ترسل خيوطاً صفراء فاقع لونها حين وصلنا إلى بيت على منحدر في بيتونيا. فلسطينيون هنا أيضاً. الشعب الفلسطيني جالس على كراس يتقبّل العزاء. الأب في الوسط مجلّل بحزن لا يمكن أن يطفأ. نقدّم التعازي. ثم نجلس. الكراسي بالكاد تتماسك فوق الأرض. لافتة كبيرة مثبّتة على عمودين خشبيين كتب عليها: حركة فتح تنعى بكل

فخر واعتزاز شهيدها البطل محمود ابراهيم العمواسي. شاب بيده فناجين وإبريق يقدّم لنا القهوة مطيّبة بالهال. في مخيّم اليرموك بدمشق تعلّمت من الأصدقاء الفلسطينيين أن من لا يرغب في الاستزادة من هذه القهوة المرّة يجب أن يمسك الفنجان بإصبعين، السبابة والابهام، ويحرّكه يمنة ويسرة فيفهم الساقي المضيّف أنك أخذت كفايتك. وإن لم تفعل فإنه سيظلّ يملأ فنجانك كلّما انتهيت من احتسائه. فيما كنا نغادر المكان وصل شباب من قوة الـ ١٧ ليؤدّوا واجب العزاء، فالشهيد محمود العمواسي رفيقهم في السلاح عمره ٢٣ سنة، وقد استشهد الليلة الماضية على الساعة الواحدة والنصف. عندما صعدنا الحافلة بدأ السائق يناور كي يديرها فكادت تهوي في المنحدر. لو فعلت لكان سقوطها عظيماً، ولابتسم رب الجنود في الأعالي نكاية وشماتة بالاخوة العرب الذين قدموا إلى أرض كنعان فيما أحفاد الكنعانيين والنبيّين من الفلسطينيين يتسابقون إلى الموت إعلاء للحياة وتمجيداً للحياة.

■■■

شعاع،، شعاعان،، قرص أصفر في غاية البلاهة يختفي يسيراً يسيراً وراء الهضاب. الشمس غابت تقريباً حين وصلنا إلى مخيّم الأمعري المأهول بالرفض والإصرار. على الجدران شعارات تمجّد حركة فتح... شعارات وقّعها أنصار الديمقراطيّة والشعبيّة والجهاد وحماس تذكّر بالكفاح المسلّح طريقاً إلى فلسطين. شعارات تمجّد الشهادة والشهداء وتحقّر إيهود باراك مجرماً وشارون جزّاراً وتدعو إلى تحرير كلّ فلسطين. شعارات تندّد باتفاقيات أوسلو وبالسلطة العائدة للتوّ من تيه دام دهراً في بلاد تسمّى المشرق العربي والمغربي العربي.. شعارات تندّد بالأنظمة العربيّة المتخاذلة... شعارات أخرى تتوعّد بالويل والانتقام من كلّ من تسوّل له نفسه أن يروّج المخدّرات.

بعد أن ترجّلنا من الحافلة في مدخل هذا المخيّم المليء بالحياة صاخبة هدّارة مفتوحة على كل الاحتمالات وصلنا إلى مركز شباب الأمعري. ناد رياضي واجتماعي وثقافي للمخيّم. داخل ملعب كرة سلّة فسيح وواسع جداً حتى لكأنه على استعداد في كلّ لحظة للتحوّل إلى ملعب كرة قدم، وضعت الكراسي تحت الجدران المحيطة بالملعب. وعلى الكراسي جلس الشعب الفلسطيني واجماً. هي ذي اللافتة المحتفية بالشهيد. هو ذا الملصق وقد ذيل بالعبارة ذاتها، بالتميمة ذاتها: مخيّم الأمعري ينعى الشهيد البطل عماد عبد الرحمن توفيق العناني. عائلة الشهيد، الأب والأخوة اختاروا لهم مكاناً في مدخل الملعب. تعاز. دمع حبيس. من مكبّر صوت يأتي القرآن مرتّلاً. آيات تذكّر بأن الذين قتلوا أحياء يرزقون. شابّ ملتح وسيم أوقف آلة التسجيل ورحّب بنا في لغة عربيّة أنيقة موقّعة كالنشيد. ندّد بالصمت العربي والتواطؤ العالمي. وسّع المسافة الفاصلة بين الأنظمة العربيّة وشعوبها، «الشعب العربي من المحيط الى الخليج معنا.. لسنا وحدنا.. الشارع العربي معنا.. نحن نعلم هذا ونحفظ الأمانة.. لسنا وحدنا.. لسنا وحـــ.دنا.» هكذا اختتم كلمته. عاد صوت المقرئ. بعد قليل سيتفرّق الجمع وستخلو عائلة الشهيد إلى الوجع ربّانياً.

حين غادرنا مركز شباب الأمعري كان سيف الرحبي يمشي مذهولاً ويهمس: «العدم الضاري.. العدم الضاري.» أنا سمعته ورأيته يجرّ الخطى مذهولاً. من خلل الغيم المتناثر طلع قمر أصفر باهت الصفرة وبدأ يتسلّق السماء متعباً مكدوداً. الفلسطينيون أحفاد الكنعانيين والنبيّين يعلمون علم

اليقين ان هناك من عقد العزم على ابادة الحياة وعلى إفسادها وتحويلها إلى جحيم. وهم على يقين ايضاً بأنه يستدرج الحياة الى الهاوية. وها هم يتسابقون الى الموت لأنهم مؤتمنون على استمرار الحياة. من هنا تستمدّ المواجهة في ديارهم عنفها المدوّخ الضاري.

فلسطين يا بيت العرب. ذات ربيع رحل أوكتافيو باز. كتب شعراً ثم رحل. لست أنا القائل بل هذا الشاعر الذي اسمه اوكتافيو باز هو القائل: «لا يجب علينا أن نترك التماسيح الكبيرة تصنع تاريخ البشريّة. إنني لا أستبعد الانهيار الأمريكي فالتاريخ لا يمكن أن يتحمّل الى ما لا نهاية هذا الالتحام الهائل بين الموت والموت. لذلك أدعو دول العالم الثالث إلى العودة إلى الجوهر، والى الوقوف وقفة واحدة في مواجهة الجحيم.» حتماً لم يكن اوكتافيو باز يدري ان الفلسطيني سيقف في مواجهة الجريمة وأمريكا وحيداً. ومحمود درويش، الشاعر الذي كان طفلاً يحسب ان البرتقال ينبت في الصناديق سيحرص كما شعبه على الترحاب بالأصدقاء العرب، يلغي سفره الى باريس ويستبقنا الى رام الله ليرحّب بنا في فلسطين.

وادي النار، الطريق الى بيت جالا المتلفّتة صوب بيت لحم.

الإضراب في رام الله ما زال متواصلاً. والمدينة تبدو مقفرة خلاء لولا أبواق بعض سيّارات الإسعاف تملأ المكان ولولة بين الحين والآخر، فيما تردّد المباني صدى الطلق الناري القادم من تخوم المدينة ومدخلها الرئيسي، حيث الحواجز والمواجهات. على الجدران ملصقات لشباب استشهدوا، بعضها قديم ألوانه باهتة، وبعضها فاقعة ألوانه كأنه ألصق هذا الصباح. وفي أسفل الملصقات كلمات تعرّف بأسماء الشهداء وتمجّد البطولة. علي كلّ الجدران ملصقات لشهداء يبتسمون ابتسامات مجلّلة بالحزن. وتلك مفعولات الموت ضارياً كاسراً. يكفي أن تحدّق في العيون وستراها طافحة بهالة من سحر الموت وجاذبيّته وفتنته. الكلمات التي تمجّد البطولة والإستشهاد تبدو ذليلة لم تتمكّن من القضاء على فجائيّة الموت وضراوته وطابعه الكاسر. وعبارة «الشهيد البطل» التي تذيّل بها الملصقات ليست سوى تميمة تدرأ الوجع وتدجّن الموت لكنّها لا تمحو طابعه المتوحّش الضّاري. فوراء عبارة الشهداء نفسها ثمّة شباب وأطفال سقطوا في العتمة. بيوت اجتاحها النّوح. قلوب داهمها الوجع كاسراً. ثكل ودمع ولا عزاء.

وصلنا إلى البيرة عبر طريق ترابيّة وعرة. مطبّات وحفر من جميع الأحجام. على الهضاب المجاورة يلمع قرميد المستوطنات تحت شمس باهتة. ثمّة حشد من غيوم رماديّة بالكاد تتحرّك. يكفي أن تحدّق فيها قليلاً. يكفي أن تديم النظر إليها، وسترى يداً خشنة معروقة تمتدّ من خلال تلك الغيوم وتتوعّد الحياة نفسها بالويل والخراب. إنّها يد ربّ الجنود المأخوذ بالدّم الفلسطيني. ليست زخّات رصاص هذه التي تدوي في الجوّ. إنها قهقهة هذا الربّ العائد من ليل التاريخ. كانت الحافلة تعبر وادي النار. والطريق ترابيّة ملتوية. وربّ الجنود من هناك يراقب المشهد ممنّياً النفس بمزيد من الدم الفلسطيني.

فجأة حفنة من بيوت،، حفنتان على هضبة. الهضبة تصير هضاباً والبيوت تزداد وضوحاً. بيوت

معلّقة على مرتفع من الأرض. بيت جالا، بيت لحم، حيث يقيم الفلسطينيون. ومستعمرة جيلو المأهولة بالمستوطنين، على بعد عدّة فراسخ تندسُّ في المكان هزءاً ورزءاً

عبرنا بيت جالا. مدينة في حجم بلدة مبنية على الصخر. الشوارع مقفرة تماماً والبيوت مقفلة على نفسها. يقال إن ناس هذه المدينة يستدرّون من الكروم نبيذاً يزيل الصدأ عن الروح ويطهّر الجسد. ولا بدّ أن تكون الخمر التي قدّمها المسيح لتلامذته كي يباركهم مجلوبة من هذه الديار المقفلة بالأسرار. وحتماً شهدت بيت جالا خطى يوسف النجار وهو يسوق حماره ويحثّ الخطو باتجاه مصر. من هنا مرّ المجوس أيضاً. ومن هنا مرّ المنجم الذي كان يتقدّمهم دليلاً حتى موضع كنيسة القيامة، حيث المغارة التي شهدت مولد يسوع.

دير العبيدية: دير مقفل. جدران عالية. باب صغير مثل كوّة في جدار ضخم. قدّام الباب راهب يحدّق في الفراغ. كأنه على يقين من أن يهوذا هو الذي قام لا المسيح. وصلنا حقل الرعاة. فجأة: بيت لحم. لافتة ترفرف كلما هبّت نسمة من هواء:

الجمعيّة الخيريّة الوطنيّة ترحّب بقداسة البابا يوحنّا بولس الثاني.

هذه اللافتة هي ما تبقى من إحتفالات الألفيّة الثانية التي حضرها البابا القادم من روما. كلّ ليلة تُقصف بيت لحم والبابا لا يحرّك ساكناً. كبير مطارنة كنيسة القيامة الأب عطا الله المرابط في القدس يعرف كيف يحافظ على شرف الإسم وأمجاد رجال عاهدوا التاريخ العربي وتواصوا بالصبر رسوليّا. البابا بعد الإحتفالات لم يتلفّت بصوبك بيت لحم. هي ذي كنيسة المهد. كنيسة وسط ساحة عظيمة. مدخلها كمدخل دير العبيدية مجرّد كوّة صغيرة مستطيلة. يجب أن تنحني حتى لتكاد تلامس الأرض بيديك كي تدلف إلى الداخل. مطران يشبه كائناً من أثير يلبس رداءً أسود استقبلنا على العتبة ونبّهنا إلى ضرورة الإنحناء كي لا نصدم بالجدار هاماتنا. صوته حفنة من الوشوشات بالكاد تُسمع. داخل الكنيسة حشد من السياح الأجانب ونظرات بلهاء. قطعان من العجائز والشيوخ. والكنيسة من الداخل على شكل صليب. أيقونات في منتهى البهاء: هو ذا المسيح الرضيع يبتسم لنا. هي ذي أمّه العذراء. والمجوس جاؤوا. ها هم يسجدون له ويطرحون كنوزهم قدّامه. عباءات سود تسير على الأرض في تؤدة وسكون وتحيط بنا. داخل العباءات مطارنة بالحزن والوجل والنّور طفحت وجوههم. مطارنة فلسطينيون يبتسمون لنا مرحّبين بالأخوة العرب الذين جاؤوا في هذه اللحظة التاريخيّة التي يُسفك فيها الدم الفلسطيني مسيحياً ومسلماً في بيت لحم. وروما تلزم الصمت.

أنزلونا إلى المغارة حيث شهد المسيح النّور. رائحة البخور والرطوبة والشموع تملأ المكان. هنا ولدته العذراء التي حبلت به من الرّوح القدس. هنا المجوس سجدوا له. صوت الراهب كان خفيضاً كنسمة رقيقة تمرق بين أعشاب يابسة. «الإسرائيليون هم الذين يستفيدون من كنيستنا ويستثمرونها سياحياً. لهم ١٥٠٠ دليل سياحيّ. أما نحن الفلسطينيون فلا نملك إلاّ ١٥٠ دليلاً. وفي دعاياتهم لاستجلاب السيّاح يرفعون شعار زوزوا إسرائيل تنعموا بزيارة كنيسة المهد». هكذا قال المطران فيما طفحت عيناه بحزن صامت عميق يجعلك تخجل من إنتمائك للجنس البشريّ.

مهد المسيح في خطر. والبابا يوحنّا بولس الثاني لا يحرّك ساكناً. شارع بولس السادس، شارع

النجمة، طريق المطارنة. من ساحة المهد تتفرّع الطرق جميعها والبيوت تنتشر محيطة بالكنيسة كأنها تخشى على المسيح من الصلب ثانية. طريق المطارنة شارع يمتدّ من ساحة كنيسة المهد حتى سوق بيت لحم. في وسطه بالضبط بالقرب من مدرسة الراهبات مدرج ينحدر متسلّلاً بين البيوت المقفلة. ولا شيء هناك. لا شيء. فجأة لمحت قطّة رماديّة منقّطة بنقط سوداء تهبط المدرج لائذة بالجدار. تمهّلت في مشيتها. وقفت. الرأس مال. الرأس دار. جذعها لم يتحرّك. عينان صفراوان تشعّان في عتمة المدرج. واصلَتْ القطّة الهبوط كسلى مخفورة بسحر سرّي. لعلّها رهبة المكان. صورة محمد الدرّة ثانية. والروح صارت رماداً. الكرامة العربيّة صارت مجرّد ذكرى بعيدة. وعلى الفلسطيني أن ينهض للصراع من جديد ليبدّد بعضاً من نكد أيّامنا. صوت صارخ في شاشة التلفزيون: مات الولد... مات الولد.. مات...

■■■

مطعم بيت جالا. صاحب المطعم في عمر المسيح يوم أُسْلِمَ إلى حتفه. شاب ملتح وسيم وقف يرحّب بنا نحن الأخوة العرب الذين نمثّل جزءاً من الوجدان العربي. شابّ فلسطيني كنعاني خالص، أسلافه رأوا يوسف النجار يحثّ الخطى باتجاه مصر وحموا المسيح رضيعاً مهدوراً دمه، جاء يخدمنا مبتهجاً بالأخوة العرب. سألته حذراً:

– عزيزي إسمح لي، هل أنت مسيحي؟

– أنا فلسطيني مسيحي. مرحباً! يا هلا!

– قيل لي إنّ بيت جالا تستدرّ من الكروم نبيذاً فردوسيّاً.

– أمّي تصنع نبيذاً في البيت لو جُبْتَ الأرض لن تجد له مثيلاً.

سألته مداعباً هل عندك أخوة، فأجابني بأنّه سادسهم. فاقترحت عليه مداعباً أن أصير أخاً له، وسألته هل تقبل أمّه بأن أصير لها إبناً سابعاً. فكان أن أهداني قنينة التأمت بعدها شظايا من روحي التي صارت مزقاً ونفايات. بعد مغادرتنا للمطعم بعشر دقائق إبتدأت المواجهات في بيت جالا. واختطف الموت شهيدين في مقتبل العمر.

العشاء الأخير

غداً صباحاً سنغادر رام الله إلى الجسر. فندق *BEST EASTERN* وقت العشاء. مطعم الفندق في القبو. والنور خافت. الفوانيس المعلّقة على الجدران بالكاد تطرد العتمة. والشباب في المطعم يخدموننا بتفان وبكرم منقطع النظير. الإبتسامة وعبارة «هلا، تؤمر» تسبق النادل إليك. الشباب فرحون بنا نحن الأخوة العرب القادمين من العواصم العربيّة التي «استتبّ فيها الأمن» تماماً. نحن القادمين من أوطان غادرها المستعمرون بدءاً بالنصف الثاني من القرن العشرين علينا أن نفرح ونهلّل. فنحن نملك تحت الشمس علماً ووطناً وأشياء أخرى. لكننا جميعاً حزانى حزناً صامتاً تعوّدنا عليه وألفناه حتى غدا جزءاً من كياننا. الجميع يائسون يدركون أن العدالة في الوطن العربي المجرّد فكرة تلوذ بالكوى

المعتمة، وكثيراً ما تتلقّت في السرّ مذعورة من أحذية العسكر ورجال الأمن، وفي الليالي الشتائيّة الموحشة كثيراً ما تجلس مسدلة الشعر في منعطفات الشوارع وتمعن في النحيب. كبير الطبّاخين في مطعم فندق *BEST EASTERN* يتقن إعداد شوربة البصل. أنا طلبتها مراراً قبل هذا العشاء الأخير. هذه الليلة جاءني النادل بها دون أن أطلبها. سألته عن كيفيّة إعدادها. ودوّنت ذلك.

■■■

من نافذة طائرة الملكيّة الأردنيّة لمحت القدس التي منعنا الجند الغزاة من زيارتها. لمحت قبّة الصخرة وأنا عائد إلى تونس. طائرات حربيّة صهيونيّة حلّقت على بعد فراسخ من طائرتنا، ولم تقصفنا لتثبت لنا أنّ «للسلام» محاسن وفضائل وأشياء أخرى.

وصلت إلى بيتي ومعي شيئان: شيكلان وكيس زعتر إشتريته من رام الله. كيس من نايلون عليه ورقة خضراء كُتب عليها بالأحمر:

زعتر أبناء الريف *ZATAR ABNA AL-REIF*

مفروك بالزيت البلدي

المحتويات: زعتر بلدي – سمسم بلدي – سمّاق – ملح. تاريخ الإنتهاء ٣٠/٣/٢٠٠١

رام الله – المنطقة الصناعية – تلفون: ٠٢٢٩٨١٧١٣

وشيكلان: قطعتان معدنيتان مدوّرتان كعيني حيّة رقطاء. افتقدتهما في صباح الغد. وكان أن عاد إبني علاء ١٣ سنة من المدرسة حانقاً ووجلاً بعد الظهر. صارحني معتذراً بأنّه قد تسلّل إلى مكتبي خلسة واستولى على الشكيلين. وهناك قدّام المدرسة إجتمع هو وأقرانه واقتطعوا من كرّاساتهم ودفاترهم أوراقاً ولفّوا فيها الشيكلين وأضرموا فيهما النار وهم يردّدون الإسم، كانوا يرفعون الإسم عالياً، إسم الحلم العظيم الضّاري: فلسطين. ولكم كان ذهولهم عظيماً عندما لم تأت النار على الشيكلين المعدنيين. فكان أن ازدادوا إصراراً وانهالوا على القطعتين مسحقاً بالحجارة حتى أتلفوهما.

■■■

أنا لطفي اليوسفي المقيم في الشمال الافريقي، أنا الذي ذهبت ورأيت أعترف أنني هناك في فلسطين رأيت الوجع ربّانيا، ورأيت الفعل رسوليّاً. وأعترف أيضاً بأنّ ما رأيته في بيوت العزاء وفي المستشفيات والشوارع ليس شهادة واستشهاداً فحسب، بل هو حدث عبور للحدود الفاصلة بين السماويّ والأرضي، بين ما هو بشريّ وما هو ألوهي. ثمّة فسحة من أمل في دياجير هذا الليل العربي. خطوة باتجاه الطريق المؤدّية، خطوة.. خطوتان ومن حقّنا أن نواصل الحلم. ولتحيا الحياة.

تونس

رحلة الأيام الستة في فلسطين

منصف الوهايبي

صبيحة يوم الثلاثاء ٣ - ١٠ - ٠٠

كُنّا نحنُ وفد الشّعراء العرب المشاركين في ملتقى فلسطين الشّعري الأوّل في الطّريق من عمّان إلى جسرِ الملك حسين.

كان زهير أبو شايب (شاعر فلسطيني) قد سلّمنا تصاريحَ السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة وقال لنا : الإجراءات في الجسرِ لن تكون صعبةً هذه المرّة برغم أنّ الإشتباكات بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين من جنود ومستوطنين قد إندلعت في أكثر مناطق الضفّة والقطاع .. ذلك أنّ لا أحد يغامر بزيارةِ فلسطين.

في هذا الظّرف الإستثنائي ... كان الجسرُ خالياً أو يكاد على غير المعتاد، إلاّ من بضعةِ مغادرين أكثرهم كهول وعجائز ... كنتُ أوّلَ مَنْ نوديَ على اسمِه ... تقدّمت إلى المكتبِ الإسرائيلي .. تصفّحَت الضابطة الإسرائيليّة الشابّة الجواز .. ودقّقت في التصريح ثم سألتني إنْ كنتُ أتكلّم الإنكليزيّة : قلت « إلى حدٍّ ما. ولكن الأفضل الفرنسيّة ». قالت : « تتكلّم العربيّة؟ » ... قلتُ مستغرباً : « أجل ». سألتني بلطفٍ عن الهدفِ من الزّيارة. قلت : «المشاركة في ملتقى شعري برام الله ». إرتسمت على وجهِها الأبيض المشرّب بحمرةٍ خفيفةٍ علامات الدّهشة والاستغراب. ثم إلتفتَت إلى زميلتِها وتحدّثت إليها بعبريّة لم أفهمها، إلاّ أنّي التقطتُ منها وهي تبتسم كلمةً تشبه كلمة شعر أو هكذا تهيّأ لي. قلتُ في نفسي : لا بدّ أنّها قالت هذا مجنون حقّاً. فمن يُقْدِم على زيارةِ فلسطين في هذا الظّرف غير المجانين. إنتقلت إلى المكتبِ الفلسطيني المجاور. تجاذبت مع الضّابط حديثاً خاطفاً. قال إنّ له إبناً يحصل هذا العام على الباكالوريا وهو يتمنّى أن يستكمل دراستَه الجامعيّة في تونس.

ركبنا حافلةً صغيرة لنُباغَتْ بعد مسافةٍ قصيرة ببوّابةٍ حديديّة ضخمة وجنود إسرائيليّين مدجّجين بالسّلاح. إستوقفَنا أحدهم وتكلّم إلى السائق ثم أَمَرَ بعد تردّد يسير بفتح البوّابة. أنزلنا حقائبَنا وخرجنا.

في الطريق إلى أريحا القريبة بدأت الجغرافيا ترسم تضاريسَها وتقلّباتها الغريبة .. جبال الملح المترامية .. صورة السّراب أو وهم الماء .. أشبه في وحشتها بظلٍّ خياليٍّ رجراج لا أثر فيها إلاّ لبضع خيام منصوبة في العراء ولفح الشمس .. وأغنام كأنّها تزحف أو تنسلّ كالزّواحف .. ونباتات جافّة

سرى فيها الملح والرّمل . . جبالٌ بيض موحِشة ربّما انحفرت في بعض منحدراتِها بئر أو ما يشبه البئر المعطّلة التي غار ماؤها وكَسَتْهُ الطحالب . . إستشعرنا ضغطاً وحرارة غير عاديّين، فأريحا ليست أقدم مدينة في العالم فحسب، إنما هي أيضاً أخفض مدينةٍ عن سطحِ البحر . . ولعلّها كانت في بواكير الأبديّة بحراً لم يبق منه غير ماء آسن وسراب مترقرق كالذي يكسو أرجاء الصّحراء ويعلو حواشيها . . بريقٌ تركض به البيداء . . تغرق فيه الكثبان وتنحسر . . تتبدّى الهضاب وتتوارى . . في قليل من الماءِ يبدو من بعيد كماءِ الغسلِ . . النبات الذي كان من عادةِ العربِ أن يضيفوه إلى الماءِ عند الإغتسال أو ماء السُّخد الأصفر الذي يخرج مع الجنين عند الولادة . . حتى إذا وافينا أريحا بدأ المشهد يتغيّر . . فالأخضر سيّد الألوان يصبغ أشجار أريحا ونباتاتها . . والنّخيل ينتصب في البساتين المحيطة بالمدينة وفي الحدائق الصغيرة التي تتخلّلها . . ليست أريحا صحراء لا تؤنسها سوى أسراب القَطا والحمام . . أو ما تحدسه قوّة الشعر كلّما التبست الكثبان بجسدِ المرأة . . وشفتها بزهرة الرّمل . . وأنفاسها بأنفاس الصّحراء . . إنّما هي المكان الطيّب الأهل حتى إنْ بدت شوارعُها خاليةً أو تكاد . . تكلّمنا أشجارُها وبساتينها . . . في سرابٍ يرفع الشّخوص المنطلقة في آفاقِها التي لا يمكن اللّحاق بها. إستقبلنا جمعٌ من الفلسطينيّين في مدخل مكتب الرئيس ياسر عرفات بأريحا . . كان من بينهم الشّاعر غسّان زقطان . . بادرني باسماً . . ما تفعل يا تمبكتي في أريحا . . وظننتُه يذكرني بقصيدة لي ولكنّه أسرّ لي بأنّ مفاجأةً بإنتظاري في رام الله . . فقد أعدّ مسرح عشتار بالمدينة عملاً درامياً أساسه قصائد من كتابي مخطوط تمبكتو وأخرى لسيف الرحبي ونتالي حنظل . . .

إنتقلنا إلى مركز أريحا للثقافة والفنون، فقد قرّرنا جميعاً أن نفتتح المهرجان . . أن يكون مهرجانَ شعرٍ وتضامنٍ . . فنحن لا نستغني بالشّعر عن فلسطين ولا نستغني بفلسطين عن الشّعر . . كما قلتُ في كلمة لي قدّمت بها أمسية لمحمود درويش وسميح القاسم في حفل توديع الفلسطينيّين بتونس عام ٩٤ .

افتتح المتوكّل طه المهرجان ليؤكّد أنّ الحياة تستمرّ رغم الحصار المضروب على المدنِ الفلسطينيّة والرّصاص الذي اغتال يوم وصولِنا إثنين من أريحا . . ثم قطع كلمتَه بسبب الإعلان عن سقوطِ شهيدٍ ثالث في أريحا . . وتداول الكلمة بعض أصدقائنا . . وقرأنا بعضاً من شعرِنا . . أنا وجريس السماوي ويوسف عبد العزيز. غادرنا المركز تحت شمسٍ تبسط ظلالنا أبعد فأبعد . . ونحن نسلك صامتين . . دونما خوف . . قال لنا محمود درويش عندما التقينا به في رام الله وقد سأله بعضنا إنْ كان هذا الحصار يشبه حصار بيروت . . الأمر مختلف ولكن الواحد منّا قد يستشعر خوفاً ما في البداية ثمّ يتلاشى كل خوف . . وأخال أنّ هذا الإحساس هو ما خامرني وأنا أرى ظلّي عند مدخل الفندق في أريحا هاجعاً ساكناً لا ينشد غير كفنٍ ناعمٍ يحويه . . حتى إذا انطفأ في البهوِ وجدتّني مجرّداً من كلِّ شيء، إلاّ من جسدي المشتعل موكولاً إلى نفسه، عندها فقط رأيتني في مرآة عينيّ فينيقاً منيعاً حتى أنّي لم أتمالك من الضحكِ عندما هاتفت زوجتي في المساء، كان صوتُها يأتيني من القيروان متوجّساً خائفاً . إستغربَتْ ضَحِكي . . قلت لها إنّي أضحك من نادرة واقعيّة رواها لي أحد أصدقائنا الفلسطينيّين

للتوّ . . . أصيب شابٌّ فلسطينيّ برصاصةٍ مطّاطيّة في رأسِه. إنتابه وجعٌ شديد. تلمّس جبينَه. نظر في يدِه الملوّثة بالدّم ثم التفت إلى أصدقائه وقال: الله، يبدو أنّي استشهدتُ يا جماعة!

سَيَدنو اللّيل الأريحي أيّها المجنون مُحمَّلاً بريحٍ كريحِ الخزامى رشّها الطلّ حتّى مسّها بالقوادمِ ونحن نجلس بعد العشاءِ في شرفةِ الفندق: يوسف وجريس وطاهر وسيف والمتوكّل ولطفي ونتالي وهاشم وجهاد ورسمي وغسان وحسين ويحيى . . . نتجاذب أحاديث شتى ولكن صورة الطفل محمد الدرّة تأبى أن تفارقني. قال بعضنا إنّها صورة الصيّاد والفريسة، ولكنّي قاطعتُه وقلت الصيّاد لا يصيب فريستَه عندما تكون لائذةً بسدرةٍ أو جذعِ شجرة أو شيء ما . . فيما بعد في رام الله قِيل لنا إنّ محمود درويش علّق على الصورة المروعة: هي صورة النّمر والغزال. وأظنّ أنّ هذا هو الوصف الأدقّ. أجل كان لمحمّد المحتمي بوالده جمال الموكول إلى قدرِه وجه الغزال المرتعب يطارده قاتلوه وصرخته الخرساء المكتومة. والقتَلَة كما يقول أحد الشّعراء: لصوص يجيئون في اللّيل كخيوط الضّباب وكثيراً ما يأتون في وضَحِ النّهار لا تراهم أبداً وجهاً لوجه . . لزِجُونَ كثمرة اللّيتشي الصينيّة يشربون زمنَكَ ويبصقونَه. غير أنّنا عرفنا فيما بعد إسم القاتل الذي أمر بإطلاق النّار على محمّد ووالده. فليحفر أطفالُنا هذا الإسم «إيغور إيلاند» في ذاكرتِهم، وليتساءلوا عندما يكبرون وهم يكبرون في فلسطين قبل الأوان: أيّة إستعارة تلفّ الجسدَ المعذّب، الجسد الفلسطيني المقطّع المبتور الموسوم في العينِ أو في الوجهِ أو في الصّدرِ أو في الكتفِ في مشهدٍ إحتفاليٍّ يرتكب فيه القتل ببرودة ودونما ندم، حيث تعقد الجريمة مع الطبيعيّ الحيواني المتوحّش في الكائن علاقات قرابة مشبوهة في طقسٍ غابرٍ يحمل في مطاويه عنفاً بدائيّاً، يفترض بعضنا من المأخوذين بديمقراطيّة الخطاب الغربي أنّه لم يبق إلاّ مجرّد ذكرى باهتة . . اليهوديّ الصهيونيّ يعتقد أنّه إله، ولذلك يرفض حُكّام إسرائيل إجراء أيّ تحقيق بشأن جرائمهم، فلا أحد يحقّق مع الآلهة. يرفضون حتى إجراء العقاب العادي على المتوحّشين من جنودٍ ومستوطنين. العقاب من حيث هو إقتصاد حقوق معلّقة يؤخذ فيها الجسدُ بنظامٍ من الإكراه والحرمان والمحظورات، يرفضون حتّى طوباويّة الحياء القضائي أي الحرمان من الوجود مع تفادي الإحساس بالألم.

سأل صحافيّون من معاريف موفاز رئيس الأركان، كيف تفسّر إختلاف روايات الجيش في قضيّة مقتل الطفل محمّد في نتساريم وكان جوابُه المكابر وكأنّه يبرّر الجريمة، بل هو يسوغها: «لم أجرِ تحقيقاً جذريّاً في احدث، ولكن الإنطباع لديّ أنّ إحتمال إصابته من نيرانِ جنودنا عالية نسبيّاً، ولكن يجب أن نذكر أنّه شارك في الإضطرابات ولم يشاهده أحد في مهداف سلاحِه».

محمد الدرّة المقتول في حضنِ والدِه ومحمّد حامد الذي طلب من والدِه صبيحة إستشهاده أن يأتيه ببيجاما من الكويت، ثمّ توجّه إلى مواقع الإشتباكات التي كانت تدور عند المدخل الشّمالي لمدينة البيرة ولم يَرْتَدِ محمّد البيجاما، إنما لُفَّ بالعلمِ الفلسطيني.

هذان مشهدان من مشاهد كثيرة تثوي في خلفيّة المسرح، مسرح التاريخ، أو هي تروح وتجيء كظلالِ الأشكال السحريّة ورسومها تدور حول مصباح يمسكه صاحب العرض في لحظة ما من

لحظات الأبديّة .. مشاهد تبيّن كيف أنّ لوم إسرائيل على الإستخدام المفرط للقوّة هو من المضحكات المبكيات، فللعنفِ مفارقاته أيضاً، بل هو المفارقة ذاتها، مفارقة الأخلاقي يستبعد العنف تشريعاً، والسياسي يكرّسه ممارسةً، مفارقة المتوحّش في الإنسان يغوص عميقاً في ماضٍ غابرٍ، ومفارقة المؤسّسة كما هو الشأن في الايديولوجيا الصهيونيّة يجري العنف في ثناياها بدءاً باللّغة وصولاً إلى السلطة، وغير ذلك من المفارقات كثير، ولكن المفارقة الأشدّ إحراجاً من بينها ولعلّها جماع القول في شأنها جميعاً هي مفارقة المعرفي يذيب العنف في عدميّة خلو من المعنى مجرّدة من القيمة. ومع ذلك تكون المعرفة في أمسِّ الحاجة إلى أن تستنبت له معنى وتجترح قيمةً حتى يتسنّى لها أن تحاصرَ العنفَ وتتصدّى له، وإنّه لمن اللافت أن يتصدّى الفلسطينيون لهذا العنف الهمجي باللاّعنف، الأمر الذي يزعج المؤسسة الصهيونيّة ويربكها، برغم أنّ إختيار الخطاب ضدّ العنف والمواظبة باستمرار على تنقية هذا الخطاب ممّا قد يعتريه منه، قد يثير أكثر من التباس مفهومي بين الحقّ والسلطة والقوّة وحتى الضعف . . .

صحيح أنّ فلسفة الحقّ في هذا الصّراع الدائر على أرض فلسطين تقيم في مجملِها تقابلاً منطقيّاً بين العنف والحقّ يتمّ على أساسِه سلب الأوّل من دائرة الثاني، غير أنّ ذلك يبقى في نهاية المطاف رهين تشريع نظري كثيراً ما تعدم وسائل إجرائه ممارسة. وصحيح أنّ بعض أهل الفلسفة يعقد مقايسةً يخلص بموجبها إلى إثبات القوة معادلاً يتوسّط الإفراط (العنف) والنقصان (الضعف) لكن إلى أيّ مدى يجوز تحديد العنف على أساس مقايسة كمّيّة ؟

إنّ معضلة المعرفة تخصيصاً أو إجمالاً هي ما المسافة التي يتوجّب قطعها من العنفِ باتّجاه اللاّعنف. ذلك أنّ الإجابة عن هذا السؤال تبدو شرط إمكان خلع مشروعية على القيم التي يكتسبها الإنسان، وإلاّ فإنّ القيم التي في حوزتِه مكسوبة بغير وجه حقّ، أي بالعنف. ولا شكّ أن ما يدرك بالعنف يظلّ عديم القيمة (فليس يفوز المرء بقلب إمرأة إن هو اغتصبها).

صبيحة الثلاثاء ٣ أكتوبر كُنّا في الطريق إلى مدينة رام الله. قلتُ لنفسي كان ينبغي أن أكونَ في بلنسية هذا اليوم للمشاركة في ملتقى شعراء المتوسّط، ولكنّي إخترتُ أن أسافر إلى فلسطين في هذا الظّرف الإستثنائي. والحقّ أنّ اللّحظة الفلسطينية هي منذ إحتلال فلسطين وإقامة دولة إسرائيل لحظة إستثنائية في تاريخ الأمّة، حتى عندما يتهيّأ لنا في لحظاتِ اليأس أنّ كلّ شيء قد انتهى، فاليأس من كلِّ شيء قد يكون مفتاح الأمل في كلّ شيء، وبرد اليأس هو من بردِ اليقين أيضاً. هل ضاع كلّ شيء بعد حرب الخليج الثانية ؟ لا أظنّ. الفلسطينيون أنفسهم يقولون إنّ شعبَهم يفاجئهم من حيث لا يدرون ولا يتوقعون. وقد ذهب في ظنّ كثير أو قليل منهم بعد أوسلو أنّ المسألة الفلسطينية في طريقِها إلى حلٍّ منقوص أو جزئي مبتسر .. إنّ الحلم الذي راودنا جميعاً سيظلّ حلماً مبتوراً .. ولكن يتأكّد مرّة تلو أخرى منذ ١٩٩٤ أنّ الحلم يتجسّد على أرض فلسطين في ظلّ قيادة تعي خصوصيّة الآخر (الإسرائيلي) الذي تواجهه لا من خارج الوطن وإنّما من داخلِه. وربما تجلّى ذلك كأظهر ما يكون في ظاهرةِ المقاومة الفلسطينيّة من جهة، وفي هذا الشرخ الذي يضيق حيناً في المجتمع

الإسرائيلي ويتّسع حيناً وفي هويّة فلسطينيّة (عرب ٤٨) لم تستطع المؤسّسة الإسرائيليّة خنقها أو طمسها.

فإذا كان الحلم الفلسطيني مبتوراً حتى هذه الساعة، فإنّ الحلم الصهيوني حلمٌ مبتور هو أيضاً. والحلم عالمٌ مغلق لا قَبْل فيه ولا بعد، لا داخل فيه ولا خارج، ولكن شتّان بين حلم صهيوني وحلم فلسطيني. فماهيّة الأوّل جغرافيا لاهوتيّة تجعل من إسرائيل في المنظور الصهيوني (دولة الصّعود والعودة والتجمّع وإعادة التكوين). وهذا طرحٌ زائف لا ينهض له سند من تاريخ فلسطين، في حين أنّ ماهيّة الثاني يعضدها التاريخ والجغرافيا. ويبدو أنّ هذا الحلم الإسرائيلي القائم على جغرافيا لاهوتيّة أخذ يتبدّد عند طائفة من الإسرائيليّين ليحلّ محلّه واقعٌ آخر. فقد كتب يوسي سريد (الثابت لدينا هو أنّه ليس ثمّة حلم أكثر إكتمالاً من الحلم المحطّم الذي تجمع حطامه).

هذا الحلم هو ما كُنّا نراه ونحن نقطع شوارع أريحا في صباحٍ خريفي رطب إلى رام الله. كان هناك أطفالٌ يجمعون الحجارة والزجاجات الفارغة ويدفعون العجلات المطّاطية متحفّزين لاشتباك آخر مع المستوطنين والجنود الإسرائيليّين غير مبالين بأسلحتِهم الفتّاكة. وفي الطريق نرى المستوطنات القائمة على التّلال والهضاب مسوّرة بالأسلاك الشّائكة. ولقد راعنا إتّساعها وربما تساءل أكثرنا .. أيّ سلام سيستتبّ في ظلّها. وقد رأيت فيما بعد كثيراً منها في رحلتِنا إلى بيت لحم بما فيها تلك التي تطوّق القدس.

قد تكون هناك نبرة مختلفة عند طائفة من الإسرائيليّين يبدو أنّها لا تتذرّع بالخيال الدّيني، ولكن لا يقوم لها سندٌ من الواقعِ الذي رأيناه ولامسناه طوال رحلتنا. فأيّهما أكثر عمى (كما كتب بعض الفلسطينيّين) الجندي الإسرائيلي أم الطفل الفلسطيني المصاب في عينِه اليمنى أو اليسرى .. يتذكّر زياد أحمد فراح أنّه كان قريباً من مسجد بلال بن رباح في بيت لحم عندما أصاب جندي عينَه اليسرى بعيارٍ معدنيٍّ مُغطّى بالمطّاط .. ويقول تقرير المستشفى إنّ العين كانت قد أُفرِغت من محتوياتها وقت إدخاله إلى المستشفى .. وتقول إحدى الممرّضات (كلّ ما نستطيع فعله هو تركيب عين صناعيّة. وسنحاول أن نختار لوناً قريباً من لون العين الأخرى) .. ولا أحد يحتاج إلى عينين ليرى بشاعة الجندي الإسرائيلي ووحشيّة القوّة والغطرسة. لقد زرنا بعضَ المستشفيات ورأينا بعض هؤلاء الأطفال والشُبّان المصابين. ولن أنسى صورة ذلك الطّفل المعوّق ذهنيّاً وقد أصابه جندي إسرائيلي في يده وكتفه .. قال لنا المتوكّل إنّ أهل رام الله يحبّونه كثيراً ويستلطفونه وهو يتقمّص بدلة شرطيّ ويسيّر حركة المرور في المدينة .. كان في سريرِه يتمتم بكلمات غير مفهومة، وكانت المغربيّة وفاء العمراني إلى جانبي تنشج في صمت .. لا أحد سيجبلنا ثانية من الأرض والطّمي .. لا أحد يبارك ترابَنا .. نعم كان لدينا جميعاً حلم منذ عودة بعض الفلسطينيّين إلى جزءٍ من أرضهم، ولكن يبدو أنّه يتبدّد وقد لا يقدر أحد على سبكِه ثانية .. خاصة أنّ الأغلبيّة من الإسرائيليّين لا تزال تطرح المسألة من حيث هي حقيقة مطلقة. فلا جبل صهيون حتى بالنسبة إلى المسيحي مملكة من هذا العالم وهو لا يعني فلسطين بالتأكيد، فالجغرافيا اللاّهوتيّة فيما يقرّره فيلسوف غربي هو بول ريكور

في نصٍّ قديم له مرحلة ألغاها تاريخ الأنبياء اليهود الروحي. وعليه فإنّ الماهيّة المؤسّسة للوجود الإسرائيلي ليست الماهيّة المؤسّسة لوجود المسلم أوالمسيحي، واعتبار إسرائيل نفسها إمتداداً لإسرائيل الذاكرة إنّما سنده المخيال الديني أو التاريخ.

نبلغ مدينة رام الله. كانت ريحٌ جبليّة تحملنا أبعد فأبعد. نستريح قليلاً في الفندق ثمّ نزور مؤسّسة عبد المحسن القطان .. يهدينا صاحبُها بعض المنشورات، منها كتاب شدّني كثيراً هو كتاب (أزهار فلسطين) وقد قدّم له محمود درويش بلغتِه النثريّة المذهلة. ولقد قرأتُ هذا الكتاب عند عودتي إلى تونس. وأحسستُ أنّ الحياة يمكن أن تجري أحياناً بكلّ يُسْرٍ .. أنّ كلّ زهرة في هذا الكتاب حديقة تحتفظ بسريرتها الحميمة .. أنّ كلاًّ منها جزيرة خضراء في زحمة هذا الصّراع القاسي .. وكأنّي أراها من مشبّك وأقول لعلّ الفردوس صُنع ليظلّ مسيّجاً .. لا يسكنه أحد .. غير أنّ فلسطين ليست الفردوس المفقود.

نلتقي بالرئيس ياسر عرفات .. وهو يشيد بقدرة الفلسطيني على اجتراح معجزة الصمود والتصدّي. وأُدرك أكثر من أيّ وقت مضى أنّ شرف الفعل السياسي أو الشّعري في فلسطين ليس في الواقعة المباشرة، وقد تكون غفلاً من المعنى، وإنّما في الترميز، أي في إقامة علاقة دلالة بين الأشياء والكائنات .. لأقُلْ في (التدلال) أي خلق الدلالة، وهو ليس واحداً وإنّما يجريه اللّسان مجرى مخصوصاً ... وهذا ما استكشفتُه طوال الأيّام الستّة التي قضيتها في فلسطين، فلا الرّمز السياسي ولا الرّمز الشعري أو الثقافي لاحق على الوجود وإنّما كلّ منهما يتنزّل في الصميم منه .. إنّه بإمتياز بؤرة الأنطولوجيا ..

سلام هي فلسطين .. إذ تقول وجودنا تقول وجودها الخاص حصراً .. فلا هويّة لنا خارج فضائها .. وهي مقامنا أنّى حللنا .. وهي السّفر .. تناظر فريد بيننا وبينها وهي تبدّد الوهم وتتدبّر أمر كينونتها وتنضجها على نار أصواتِها وتراكيبها ومفاصلها .. نحبّ وهي التي تحب .. وكلّما ارتجف منّا الجسد لهذه الصّورة أو ذاك المشهد كانت هي التي ترتجف تحت جلدتِنا أصواتاً وتراكيب ومعاني .. بل كانت هي الجسد عينه .. الحقيقة عينها .. أي هذا الحشد المتدافع من الإستعارات والكنايات ومن ضروب تشبيه الأشياء بالإنسان. فإذا حبّة الشهوة تنغلق على طرف اللّسان لحظة تنغلق فلسطين في الجسد وهي التي تنبسط عندما ينبسط .. وهي التي تنقبض عندما ينقبض .. وهي التي .. عندما هو الذي ...

أعود وكأنّي « كريستوف كولومب الحياة الداخليّة »، يستكشف فلسطينَه الحميمة، أعني وطنه الخاصّ. وما الشّعر إنْ لم يكن تسمية .. إنْ لم يكن ملامسة المكان باللّغة.

سلام هي فلسطين.

القيروان – تونس

حر تماماً.. لست سوى
عبد لرغبات مؤجلة وأخرى دفينة

جهاد هديب

سأصارح.

لا أرغب بهذا الحضور الطاغي كله والمتَسلِّط، راهناً وفي المعرفة التاريخية، لاثنين:

* شهداءُ فلسطينْ . . لقد احتكروا فكرةً واحدةً للافتداء، قرَنوها بفكرةٍ أبديةٍ للألم. ما زالتا تسيران معاً منذ اكْتُشفت أول حبة من القمح في أريحا.

* أنبياؤها، الذين ما رأوا للتاريخ إلا وجهاً واحداً لا محيد عنه.

قلت، بينما أخاف مصيراً ما، صنيع ما يمكن أنْ يؤول بي إليه مثلُ هذا الوعي.

سأصارح.

لذلك أنا فلسطيني في معنى ما، وليس وفقاً للمعاني كلها، وربما أقيمُ في جِهَتَيْ فلسطين: الجغرافيا التاريخية وسؤال المعرفة؛ الانتماء الحصيف والعدم العدم.

لذلك سأذهبُ إلى حديقةٍ بعيدة. وفي ظلِّ شجرةٍ سأقرأ رواية غرامية، تخرجُ إليّ كائناتُها التي تتعذّبُ من فرط الحب، وتبكي بين يديَّ. . وربما أكتبُ عن المرأة التي لا أعرف إسماً لها؛ المرأةُ التي من عسَلٍ مُقسّى ولم تَذُبْ، بَعْدُ، في فمي.

سأصارح.

أُكثِروا، كما تشاؤون، أيها الشهداء. لكنْ أبطئوا في سيركُم. لم أُخْلَق لأحصي فحسب.

مرةً، أَوْقَعَتْني القافلةُ سهواً عني. . سهواً عنكم.

* * *

لي أنْ أتألّم بصمتٍ فيما أرى «محمداً» الدرة يُقْتل.

لي أنْ أتأمّلَ بصمت تذكارةُ في ماضينا؛ ماضي ذلك الجيل الذي دخل إلى مدارس وكالة الغوث الإبتدائية في منتصف السبعينات وما تلاها. . كان لأيٍّ منا نحن، أن يكونَهُ. إنما من غير أعداء أو كاميرا أبو رحمة.

لقد كنّا أطفالاً نهرم في مخيمنا آنذاك. جاءت «الكوليرا»، وفي عَصْفِها حملت أحد عشر محمداً درةً، عدّاً وحصراً، في قرابةِ شهر من عامٍ واحد. . وظلّ فارغاً في المقعدِ نفسهِ المكانُ الذي جَمَعَ أحدَهُم إليّ.

هل كان الله قريباً مني إلى هذا الحدّ؟ لا أعلم. لكنْ شَهِدْتُ محمد «الدرة» يرتعدُ ثم يموتُ في حضن والده.. هو طائر في الجنة الآن. أنا ما زلتُ منذ ذلك الوقت أرتعدُ والجنة ما زالت هي الجنة!!

«كِنّا نْودِّعْنا وْصَوْتَكْ غاب»

* * *

حين عدْتُ إليه، قال الذي نسيتُه مرةً في المرآة:

«نِحْنا تْخَبَّيْنا من دربْ الأعمار.

هِنّ كِبْروا،

وبقينا زْغار»

مِشْ هيك؟ لا تْرد عاحدا. ولا تِعْتَبْ.

* * *

لا أجدُ تفسيراً لخوفٍ سرى في أوْصالي وانقباض، لحظةً أنْ بدا ذلك الشابُ العشريني أو أقل، وظلت صورتُهُ تتكرر في خاطري، مَزْهُوّاً بكفَيْنْ تَغَمَّستا بالدم يُشهرهما عالياً فيما يركض خارجاً من ذلك المكان حيث قتَل الغاضبون «مستعربيْن» أسيريْن احتُجزا في رام الله التي كنتُ غادرتها منذ أيام.

حقاً، ما جاءا إلى المدينة التي ودعتْ شهداءها نهاراً في نزهة ليلية ولا دخلاها بسلام دون مآرب.. فهل خوفي لأنني أريد لفلسطين أنْ تبقى تاريخ حضارتنا الذي يُقاس بنا لا بالغزو فالثارات، أم لأن هذا القتلَ لأسيريْن هو ردُّ فِعْل جمعي لذاكرةٍ مثقلة إلى حدّ أنها تستبدلُ القتال وإدارة المعركة بمحض الانتقام من عدوٍ شرسِ القلبِ والطِباع تَسْتَجْمِعُهُ - أي الذاكرة - في أسير منزوع السلاح كان من الممكن مبادلتُهُ بأكثر من سواه بكثير؟؟ لماذا تتنازل «تراجيديا» نا عن روحها عند الإمساك بأسيرين لا نُبْلَ فيهما مبتلَّيْن بخوفٍ من هياجٍ شعبي؟ من أجل لحظة زهوٍ عابرة يتنازل «هاملت» عن قضيته التي لو ألقى خطابها في صخر سوف يدمع؟؟

أثِقُ بأنني خائفٌ من المقبلِ كلِّه، ولا أثقُ بما قلت. لست ممن هناك فأعرف. لكنْ وَدَدْتُ لو أنَّ للمسألة وجهاً آخر، طرفُه ليس يَتَبدّى لي.

* * *

أنا

وذبابةٌ عمياء، وَحْدَنا إلى آخر هذا الليل، نلوب في غرفة حَسَنَة الإضاءة ومكتبة وطاولة إلى جوارها مدفأة، وفي الحائط صورة للفتى غيفارا في فمه سيجار كوبي، سوف تأتيه الشمس بعد ساعات قليلة من النافذة، وربما أشْعَلَتْه.

هنا. في البعيد، يشعر المرء بالبرد.

ومن هناك، جِئتُ بردانا وأرتعد. كانت صواريخ اللاو تقصف، والرشاشات تقتل في الشوارع والبيوت ليلاً ونهاراً، والشهداء على الأكتاف، والحناجر تتوعد.. والأمهات، منذ الأزل، يواجهن

مصائرَ أبنائهن المحتومة والمنتظرة برشقة ملحٍ خُلِطَ بأرز؛ بدمعة صريحةٍ رافقتْ زغرودة مكتومة سواءً بسواء.

كأنما لستُ من هنا
كأنما لستُ من هناك
كلُّ شيء يشي بذلك.

* * *

مَنْ قتَلَ طفلاً في الشجاعية، تَنَبَّأ بمصير طاغية
مَنْ قصَفَ منزلاً في بيت جالا، عبّدَ طريقاً إلى الجحيم
مَنْ اغتصب زيتونة، أوصى بهجرة «قبيلةٍ» إلى الأبد
والذي صلب بحراً، يخاف من الدم أنْ يُغرقَ هاويةً بين مُتَحاربيْن.

«عُدْ مرةً أخرى لو استطعت.. الناسُ، قبلُ، غيرهم الآن. لقد اختلفوا» يقول وليد أبو بكر. وتضيف إيمان عون وهْيَ تنظُرُ في عينيَّ تماماً «تبدو قلِقاً لأنك لا ترى بعينيك أنت.. سَهْلٌ الاعتياد. سهل أنْ ترجُمَ بحجر، وأسهَلُ مشيُك بين حاجزٍ ومستوطنة حيث الموتُ طيف يُرى في الهواء أو يتجول في هيئة قطيع من غربان.. أَلَمْ يكنْ أنك ستبقى، لِمَ عُدْتَ؟

يقولان، دون القصد بالتوجه بذلك إليّ، بل دون الحاجةِ إلى سياق أصلاً.

لا يدرك القادمون من ذلك المكان المتخيّل والعميق في أيّ ألَمٍ تقع كلماتُهم.

* * *

إنْ بَقيتُ هناك.

هل أُحْسِنُ عَدَّ الشهداء بلا خطأٍ أو تأخذني خطى الأنبياءِ إلى «يقينٍ» لا يصلُ بي إلى «إيمان»؟

إنْ بَقيتُ هنا.

هل أُحسِنُ غير الاقامة في البياض حيثُ لا شيءَ يُتَذَكَّرُ.. حيثُ لا شيء يُنْسى؟

وعادةُ المخيم؛ شِبْهِ المنفى، أنْ تبقى بلا رجاء أو أمل.. لا يدان لكَ فيه فتُصَفِّقُ لأحد. مشاعرٌ غامضةٌ ومحتدمةٌ.

غاضباً ومُلْتَبساً؛ هكذا أنتْ: حرٌّ تماماً.. لستَ سوى عبدٍ لرغبات مؤجلة وأخرى دفينةً.

عمان

ما ثمة مجاز

طاهر رياض

كيف يمكن للغة أن تنجو من لغوها، وهي يحك بعضها بعضاً، في محاولة (ما أشد يأسها !) للتعبير (ما أسخفها كلمة !) عما انطبع وينطبع في الذات من مشاعر وخواطر، يثيرها ويركض أمامها حدث الروح الفلسطيني الأعظم : الانتفاضة ؟!

وبعيداً عن التجريد المشخصن الذي آلت إليه كلمة « الانتفاضة » وعن تصدرها قائمة أسهم الخطاب في بورصة العجز العربي الثرثار، بل بعيداً حتى عما تفجره من تداعيات معنوية وحلمية، أجدني أميل الى العودة إلى التجسيد، إلى القبض على الشيء والمعنى بالحواس المتأتئة، قبل أن تقنصهما التسمية، وتحبسهما في أقفاصها الرنانة.

وما كنت لأجرؤ على مجازفة كهذه، لولا أنني كنت هناك، على الأرض التي ينتفض لحمها البشري، فشاهدت وشهدت، وإن كانت مشاهدة لم تخرج من حيز الشهود ـ أسفاً ـ إلى فضاء الاستشهاد!.

ثمة سؤال أبله يدور في خلدي، قد يصلح ليكون بداية، وإن كانت فجة، للملامسة المقصودة هنا : لماذا يجب على الشعراء أن يكتبوا، شعراً أو نثراً، عن الانتفاضة؟!.

هو سؤال أبله كما ترون، ولكنه، ككل أبله، يلح في طلب إجابة شافية، وككل أبله لن ترضيه الإجابات المخاتلة، أو تلك المبنية على الركون إلى البدهيات والأعراف.

والوجوب المفترض من الشعراء (أو المفروض عليهم!) هو إما نابع من ضمير الشاعر نفسه، من ضيقه بما احتشد في وجدانه من مشاعر وانفعالات صاخبة، لن تهدأ حتى يخرجها كلمات على الورق؛ أو أنه نابع من إحساس الشاعر بواجبه في التعبير عن مشاعر وانفعالات الآخرين ممن حرموا القدرة على الكتابة، وفي كلتا الحالتين يراد منه أن يكون اسهاماً في الفعل الجاري على الأرض ـ الانتفاضة.

وكأني بالشاعر ما يزال يعتبر نفسه، ويعتبره الآخرون، صوت أمته، وضميرها الحي، الحامل لهمومها وأفراحها وآلامها، المعدد لمناقبها، الممجد لانتصاراتها، الرائي لقتلاها، الشاتم لأعدائها... وربما هو كذلك، أو كان كذلك، في جاهلية انقضت (أو هكذا حسبناها!)، قبل أن تخرج الأمور عن مجرد نزاعات قبلية بالسيف والرمح على مرعى وكلأ، وقبل أن تتعقد العلوم والاختصاصات، فيتولى آخرون فيما بينهم تلك المهام التي كانت منوطة بلسان الشاعر وفصاحته، وأعني بهم علماء الاجتماع وعلماء السياسة وعلماء الاقتصاد وعلماء التاريخ وعلماء الحرب وعلماء النفس وعلماء الإعلام.. حتى علماء الكلام!.

لكن الناس ينتظرون من الشاعر، الشاعر وحده، أن يقول ويكتب! وهو في داخله يحس أنها مهمته هو، دون غيره! وكأنه راسخ في وهمه أن حركة التاريخ، وسيرورة الواقع، ورياح التغيير مرهونة

بما سيسيل به قلمه على لوح الأقدار المكشوف، هذه المرة، لا المحفوظ! وكأننا ما نزال ننظر إلى صراع وجودنا نظرة شاعرية، تستبدل الحركة والفعل الناتجين عن الدرس والتحليل والرصد الموضوعي، بانثيالات عاطفية، وتهويمات مدغدغة، وبلاغات لفظية، لا تعمل على تحويل الدم إلى حبر فحسب، بل أيضاً على تحويل الشهادة إلى رمز، والألم البشري إلى مجاز، والفجائع اليومية إلى استعارات وتوريات!.

والسؤال الأبلة السابق يلد أسئلة أخرى ليست أقل بلاهة: هل تُعد قصائد الشعراء وكتابات الكتّاب وخطابات الخطباء مشاركة في الانتفاضة، أم أنها ليست سوى تعويض مرضٍ عن العجز عن المشاركة الحقيقية فيها؟ بكلمات أخرى؛ هل من شأن هذه الكتابات أن تسهم في تحرير الأرض وإنقاذ الإنسان، أم أن جدواها تقتصر على تحرير ضمير كاتبها من وطأة الإحساس باللانفع، وإراحة ضمائر متلقيه من الرهق الذي يرين عليها، بسبب ما تعانيه من شلل شامل؟!.

وحين يستعمل أحدهم لغته لتصوير رمية حجر أو نظرة غضب أو مصرع طفل أو نواح أم... هل يكون في روعه أن صوره أصدق وأبلغ وأبعد أثراً من صورة الحقيقة التي رآها عياناً، أو عبر ما تبثه أجهزة الإعلام صبح مساء؟!.

وحين تعلو أصواتهم بالحمد والتمجيد آناً، والحزن والتفجع تارة، والوعيد والبشرى تارة أخرى، هل يحسبونها تبلغ علو أصوات الدم المراق على الإسفلت وحول الحواجز وفي المستشفيات؟ بل هي حين تهدأ أسيانة، هل يرونها تداني الهدوء والأسى اللذين يغلفان وجوه الشهداء المرفوعة أمام سماء عمياء؟!.

وهل في ظن أحدهم أن أولئك البسطاء الواقعيين، ولا أقول الأسطوريين، المنتفضين على القهر والظلم والاحتلال، كما ينتفض الجسد الحي تحت وخز الإبر، يقرؤون قصائده، أو يفهمونها، أو يتخذون من تكاثرها وتراكمها ذخيرة لهم في مواصلة نضالهم، وهم الذين ما انتظروها حين أشعلوا هذا النضال واشتعلوا به؟!.

وإذا كانت هذه القصائد موجهة إلى بقية الشعب والجماهير والحكام وصناع القرار، أن «تنبهوا واستفيقوا أيها الـ...»، فلماذا لم تصل رسالتها بعد، على الرغم من تلال القصائد المتلّلة، التي تكرر الفحوى ذاتها دون هوادة، بالألفاظ ذاتها دون هوادة، عبر أكثر من نصف قرن من الخيبات... دون هوادة؟!.

أما إذا كان يراد من هذه القصائد والكتابات أن تكون أعمالاً فنية جمالية، تسعى، بأدوات دقيقة ومحترفة، إلى استلهام الحدث لتخليده، وجعله عبرة وراقة وجدانية أصيلة، تنفعل بها وتتعلم منها الأجيال القادمة، فلعمري ألا تكفي قصيدة جيدة واحدة، أو بضع قصائد لتلبية هذا المطمح؟.

أجل، إنها أسئلة بلهاء، لا أظنها ترد على خاطر كثير من الشعراء وغيرهم من ممتهني الحرف، وهم ينتظرون هبوب الحدث فعلاً، لكي يندفعوا في هبوبه.. قولاً!.

ولعل هذه أن تكون إحدى شؤون الانتفاضة وغاياتها، أن تكشف فنياً بلاهتنا، وتفضح ادعاءاتنا وأكاذيبنا على صفحة مرآة صدقها الجارحة، وتثير فينا شهية الانتفاض، بدورنا، على ما تواتر واستتب

حتى أصبح أعرافاً وتقاليد، وتحرك فينا ما أسن من أفكار وأساليب، علها تتنفس هواءها النقي الطازج.

*

«ما ثمة مجاز، الكل حقيقة!» قال ابن العربي، ذات كشف بعيد. وكأنه كان يعطينا مفتاح الرؤية السحري، الذي به، وبه فقط، يمكن فضّ مغاليق المعنى، وملامسة الانتفاضة، وجس نبضها الخارق.

كنت أود أن أكتب كلاماً آخر، أعبر فيه عن مشاعري تجاه ما شهدته على الأرض الفلسطينية المنتفض شعبها، وعن تفاصيل لقائي الأول بها، الذي أبت الأقدار إلا أن ينشأ بعد سنوات، حتى يتزامن مع انطباق الفكرة على معناها، وتماهي الحلم مع حقيقته.

ولست خجلاً من الاعتراف بأنني لطالما حاولت، طوال ما يزيد على الشهرين، أن أفعل ذلك، لكنها محاولات كانت أشبه ما تكون بتثبيت قطرة زئبق على لوح خشبي.. بمسمار!.

لقد جردتني الانتفاضة من أدواتي اللغوية والبلاغية جميعها، ومسحت بممحاة واقعيتها كل ما حفظته من كلمات وتعابير، وما خزنته من أسماء وتشبيهات، وأوقفتني هكذا، مذهولاً مبهوتاً، أمام حقائقها العارية!.

ما ثمة مجاز، هذا أول الكلام!

فلسطين ليست مجازاً. الاحتلال ليس مجازاً. الشهداء ليسوا مجازاً. الأمهات العائدات إلى بيوتهن بعدد من أطفالهن لسن مجازاً. أشجار الزيتون التي تقتلع والبيوت التي تهدم ليست مجازاً. الفتية المشمرون عن سواعدهم المغذاة بشمس بلادهم، يرجمون البغي ويقاومون القمع ليسوا مجازاً. محمد الدرة ليس مجازاً. الآخرون الذين سقطوا برصاص الاحتلال الحي (الحي؟!) ولم نحفظ أسماءهم، ولم يحظوا بمصور عابر ينقل تفاصيل إعدامهم ليسوا مجازاً. ما يجري على الساحة السياسية، بموازاة كل هذا، وخفية عنه، ومتاجرة به، ليس مجازاً. الكل حقيقة. الكل حقيقة. هذا منتهى الكلام!.

عمّان

إنها تحاول إنجازنا!

خيري منصور

بدءاً، لا بد من تصحيح أكثر القراءات رواجاً للإنتفاضة، تلك القراءة التي حذفت أبجدية المقاومة الفلسطينية، وبدأت من الياء، فانتفاضة الخريف الأخير التي اجترحت ربيعها التاريخي من صلب الجغرافيا الرسولية، هي واحدة من قيامات مهّدت لها، وهي تجلٍّ من تجلّيات قرن أوشك أن يكون إسرائيلياً، لولاها.

أما القراءة المتدنية الثانية التي لم ترتقِ إلى مرتفعات هذه الظاهرة الفذّة، فهي التعامل الموسمي مع رياحها، وكأنّها عوْد إلى صفر البدايات، وسلسلة من العتبات التي لم تُفْضِ إلى أي بيت!

لهذا ازدهرت الكتابات (عنها) و«حولها» وقلما كانت (منها) أو (فيها)، ليس لأنّها لم تتمدد خارج

نطاقها الجغرافي، بل لأنّ ظهيرها العربي والإسلامي يفتقر إلى رشاقة الإستشعار، وبالتالي لا يتذكّرها إلاّ إذا لامس وجهه رذاذ الدم! فالكتابة عنها كرصد خارجي وأفقي، بدأت تحصي أيامها، وأسابيعها، وشهورها.

أكثر من عشرين صحيفة ومجلّة عربية أحلّت الإحتفاء مكان التحريض والمشاركة.

فبدت البشائر بأن الإنتفاضة دخلت شهرها الثالث، كما لو أنها مقدمات لبشارة قادمة، تَعِدُ العرب بأن الشهر التاسع سيكون المخاض الأخير، وهكذا تنجز الإنتفاضة وحدها «وطناً» واستقلالاً، وتحريراً لمقدسات تخص ملياراً ونصف المليار من البشر!

هذه الإنابة، يتنازل بموجبها ثلاثة آلاف عربي ومسلم ليهودي واحد، وكان بمقدور طفل فلسطيني كالشهيد (الدرة) أن يفك الأحجية بعملية حسابية لا تحتاج إلى حاسوب!

لقد أدّى الترميز المبالغ فيه لإسناد الإنتفاضة المحاصرة، إلى جعلها شبه جزيرة، محاصرة من إسرائيل من الجهات الثلاث.. والجهة الرابعة هي البَحْر، وبالطبع تختلف أشباه الجزر عندما تكون سياسية أو تاريخية عن مثيلاتها في الجغرافيا الصمّاء!

كان أسبوعها الأوّل زلزالاً، خلخل حالة الإستنفاع السياسي والإجتماعي وحتى الثقافي في الوطن العربي، لكن إغاثات متعاقبة حصّنت النظم والأتوقراطيات من هذا الزلزال، وبالرّغم من الإنحسار الذي أصاب «الظّهير»، إلاّ أن الانتفاضة كدينامية كاشفة وفاضحة أسقطت جملة أوهام دفعة واحدة، وَهْم الشقيق اللدود، والحليف غير المأمون والإركان إلى سلام أنكى من أيّة حرب.

وأوشكت أيضاً على إسقاط الأبويات السياسية والإجتماعية وسائر تربويات الوصاية. ولعلّ هذا التهديد الذي اقترن بوهجها هو ما حفّز الخائفين إلى استدعاء كل الاحتياطيات لتدجينها، وتحويلها إلى مجرّد جملة معترضة في كتاب العرب الإمْتِثالي، وفي قرن جديد من ألفية، بدت منذ ميلادها مطوّبة للولايات المتحدة وضاحيتها الإستيطانية شرق البحر المتوسط.

إنّ إنتفاضة «مُتلفزة» لهي محظوظة بمقياس ما بالنسبة إلى سابقاتها، منذ عشرينات القرن الماضي. لكن «التلفزة» أيضاً لها أعراضها وأخطارها الجانبية، فبدا الإعلان للحظة يقتسم الجنازة على شاشة واحدة.

وبدت الندوة بديلاً عن أيّة مشاركة، وهكذا تحوّلت فروض العين إلى سلسلة لا نهائية من الإنابات والترميز، والإراحة من شرّ القتال!

وكان التّرميز تحديداً في بعده الإقتصادي كالتبرّع وتوائمه قد اختزل التراجيديا كلّها إلى مجرّد حادث سير كبير، أو نكبة طبيعية، وكأن الفلسطيني قد اندلع من القمقم، وطفا على دمه من أجل الخبز أو إعادة بناء بيت منسوف.

إنها حرب استقلال، تعرضت إلى تحريف، وأصبحت الآن في حاجة إلى إعادة (تعريف) كي لا تغتسل الذاكرة الآثمة بحفنة دولارات، وتحقق التوازن الوهمي في لحظة أصبح الدم فيها يحدد منسوب كل شيء!

بقي أن أنتهي - رغم مراوحتي في البدايات - إلى أن الوجدان الأدبي حوّل الإنتفاضة إلى (ممدوح) جديد، فتشابهت المدائح حتى الشّحوب، وتغذت على الظاهرة ولم تُغذّها، وفي غياب الجدل الحيوي بين المكتوب عنه والكاتب، تكون الخسارة محتمة للمكتوب عنه، لأنه يتعرض إلى تنميط، واختزال، وبالتالي لا يُقرأ من البحر كلّه إلاّ سطحه الأزرق المتموّج.

فالإنتفاضة مبثوثة في الأنساغ كلّها، وعلى من يبحث عن موقع بجوارها، أو في مدى توهّجها أن يعثر على إنتفاضته، لغةً ورؤىً، وأن يستغيث بها للتحرّر من تراثِ المديح الذي تورطت به الثورات العربية كلّها خلال نصف قرن!

وسيبقى السؤال مفتوحاً على آفاق لا آخر لها، تنبعث فيها الإنتفاضات كالعنقاوات وهو.. أيّهما أنجز الآخر؟

أيهما سينجز الآخر، الوطن أم إنتفاضته؟

أم كلا الإثنين، سينجزان عربياً حُرّاً خطوته الأولى على هذه الأرض.. فلسطينية؟؟

عمّان

سأكون بين اللوز ...

حسين جميل برغوثي

بعد ثلاثين عاماً أعود إلى السكن في ريف رام الله، إلى «هذا الجمال الذي تمت خيانته». نفيت نفسي، طوعاً، عن «بدايتي» فيه، واخترت المنفى، وأنا ممن يتقنون «البدايات»، وليس «النهايات»، وعودتي، بالتالي، «نهاية» غير متقنة.

كان القمر بدراً، والهواء صقيعياً في جنائن اللوز حول بيتنا وأنا أتجول بين الظلال وأتأمل في هذه «النهاية». أرجعني إلى هنا مرضي بالسرطان، ووجع في أسفل الظهر مستمر إلى حد الملل. والملل، كما قال عنه كيركيغارد، «مرعب إلى حد لا يمكنني عنده أن أصفه إلا بالقول بأنه مرعب إلى درجة مملة». والمرض، عندي، وجهة نظر في الحياة.

لم يعد لي من مكان في كل هذه «الإنتفاضة» إلا التردد، بشكل ممل أيضاً، على مستشفى رام الله، فهو الآن كعبتي أو حائط مبكاي الأخير. هناك متسع لي بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة حفظ الموتى تحت. أعني بأنني معاق تماماً، وأطوف على حافة الأحداث، في ضواحي الأشياء. مثلاً، في ممرات المستشفى الغريبة، ممرات تسكنها كائنات بقبعات خضراء وأردية خضراء، خبيرة في «التشريح»، تمشي وراء عربات عليها مخدرون لم يفيقوا بعد، أو لن يفيقوا أبداً. وفي باب غرفة الطوارئ تتدفق سيارات إسعاف عليها رسم هلال أحمر كالذي كنت أراه خلف الجبال، جرحى وشهداء، وأنا تائه أسأل عن دكتور أمراض الدم. فترد ممرضة متوترة: «نحن في حالة طوارئ، ألا ترى؟». فأدرك أنني شخص زائد عن الحاجة، مريض متطفل يمشي نحو مصيره وحده، بهواجس فردية، لست «زائراً»، ولا «معافى»، ولا جريحاً ولا على وشك الشهادة، بل «مريضاً عادياً»، أي لفظة حائرة بين قاموسيّ الموتى والأحياء، بين الولادات الجديدة في الطابق العلوي، وبين ثلاجة الموتى في الطابق السفليّ. بماذا يشعر كائن قدره أن «يراقب»، ممنوع عليه «التدخل»، ويشم رائحة الأدوية، بدل الزعفران، بين طابقين؟.

هذا ما أرجعني إلى الريف، إلى جمال سبق وخنته، رجعة غير محكمة الحبكة.

كنت أخطط للعودة من زمن. فزرت جبال طفولتي، ليلاً. كان القمر كاملاً، والصمت شاملاً، بين خرائب «دير» قديم ومهدم، في قمة جبل بعيد عن القرية. وقفت هناك أتأمل البدايات والنهايات. فجأة حدث شيء غريب فعلاً. سمعت صوتاً يشبه بالضبط بكاء طفل صغير، يأتي من جنائن التين والزيتون المقمرة، وقف شعر رأسي من الذهول، وحدقت في تفاصيل الظلال، والصخور البيضاء، ولم أر أحداً. بدا الصوت وكأنه يأتي من كائن لا يرى في هذا البر الواسع.

مشيت نحوه بحذر، خائفاً ومندهشاً، فواصل بكاءه، ولكنه كان يبتعد كلما اقتربت. أسرعت ولم أصله. قطعت عدة جنائن وكان لم يزل بعيداً عني بنفس المسافة. رجعت من حيث أتيت، وقلت بأن هذه جبال بها شبه الجنون، أو مسكونة بالجن، أو مختلفة، ببساطة. ولكن الصوت لحق

بي، واقترب إلى حد محرج ومخيف. حملت عصا واتجهت إليه، وأنا لا أرى غير شجر قصير مقمر. كان في الحقل الأول، ولما وصلت بدا وكأنه يأتي من الثاني، واحترت تماماً. فكرت بأن هذا قد يكون «ضبعاً». ولكن ليس لضبع صوت بهذه الرقة، بهذا الحزن، والطفولية، والشعور الماورائي. على كل، قد يكون «ضبعاً». والضبع يخشى من النار، ويهاجم المنفردين مثلي، وقيل بأنه يرشق بوله على وجه الضحية كي يتخدر حسها بالأشياء. أخرجت علبة كبريت من جيبي، ورجعت نحو خرائب الدير، ووقفت هناك أفكر.

كانت أمي يتيمة، وعاشت زمناً ترقص وتغني في مواسم فلاحي المنطقة. وتبناها عم لها يدعى «قدورة»، شيخ عملاق وصلب، كان يسكن مع أخيه، على ما أعتقد في هذا «الدير»، وكانا قاطعي طرق مسلحين، أيضاً. إن اختفت فرس أو بقرة قالوا إنها في «الدير الجوّاني»، ولم يجرؤ أحد على الذهاب إلى هناك.

في ذات ليلة كان راجعاً إلى الدير على ظهر حماره، ورجلاه تتأرجحان فوق الطريق المقمرة، فلقفت قدمه اليمنى أفعى «زعراء» (قصيرة وملونة وسامة جداً). نزل، وقفز قفزات متوالية قبل أن تفلت قدمه من نابها، ووصل الدير منهكاً، ومات هنا، حيث أقف، ربما. كانت أمي تقسم لي، وأنا طفل، أنها رأت نفس الأفعى «الزعراء» تطير فوق الجبال المقمرة وتزغرد لأنها قتلته. ومرة قالت بأنها أفعى لها قرنا ثور هرم، ويتحرك العشب اليابس من زفيرها، وتدعى «أفعى القصبة».

خطرت ببالي «ذاكرة المكان» هذه، وأنا واقف فوق الخرائب. غرباً، في قمة جبل مغطى بغابات صنوبر وسرو وبلوط، تشع أضواء النيون من مستعمرة إسرائيلية تدعى «حلميش»، عندهم، و«مستعمرة النبي صالح»، عندنا. أضواء باردة، وكاشفة، ومحاطة بأسلاك شائكة. وبدت المستعمرة معلقة في الفضاء، ربما بسبب الضوء أيضاً، ولم تلمس الأرض، ولا التاريخ، بعد.

ماذا يرى مستعمر جاء من روسيا أو أستونيا، ربما، قبل سنة فقط، حين يفتح الآن شباكه، ويحدق في نفس هذه الجبال التي أنا فيها؟ ماذا يرى، أو يدرك من هذه الجبال التي تسبح في تاريخها وتبزغ منه؟ لن يرى، حتماً، الأفعى الملونة التي تطير وتزغرد فوق الخرائب، ولن يسمع هذا الصوت الذي يبكي، ولا هذا السر الذي يجعل حتى مصابا بالسرطان يمشي فيها في الواحدة ليلاً! لن يلمس التاريخ، ولو كان عرافاً، ليس تاريخي أنا، على الأقل، ولو كان إلهاً.

وأنا واقف فوق الخرائب تلك، شعرت بفرق شاسع بين نوعين من «الضوء» : القمر والنيون في المستعمرة. كان الأخير مرتباً، ومهيمناً، حاد البياض، منتشراً حتى وراء الأسلاك الشائكة التي تعزل كل مستوطنة عن محيطها، أشبه ما يكون بـ «رؤيا مسلحة»، باحتلال بصري، ومعمار ضوئي لدولة تهذي حتى في منامها برؤى مسلحة ومضاءة بالنيون. وبدت المستعمرة كلها كتاباً في النفس أيضاً: في العلاقة بين «القوة» و «الضوء»! لم يدرس أحد، بعد، العلاقة بين القوة والضوء!.

وبدا لي بأنني أرى «ذاكرتين» معاً : ذاكرة الأفاعي التي تزغرد وهي تطير، وذاكرة من رؤى وأساطير مسلحة تحلم بإبادة الأفاعي. (أو لم يقل إسحق شامير، رئيس وزراء اسرائيل السابق، في الانتفاضة السابقة، بأن العرب «أفاع»؟). وبين الذاكرتين، ذاكرة الضحية وجلادها، ما يشبه الوادي، أو «الهوّة»،

صدع عميق ما، وأنا واقف على شفير هذا الصدع اللامرئي. هل يمكن لهذا الصوت الغريب الذي يشبه بكاء طفل صغير في هذا البر المقمر أن يكون قادماً من أعماق الصدع؟.

لما رجعت إلى بيتنا سألت خالاً لي، أكبر سناً مني، وذاكرة، عن الصوت قال: «هذا صوت حيوان صغير يدعى الـ «غريريا». كانوا قديماً يطاردونه بكلاب الصيد والبنادق، ولحمه لذيذ، والآن انقرض تماماً. ربما أنك سمعت صوت آخر غريريا في هذه الجبال!». قلت لنفسي: لا، رأيت غريريات أخرى كثيرة في مستشفى رام الله، كن يلدن ويولدن في الطابق العلوي، فوق، أو يحفظن في ثلاجة الموتى، تحت، لكن رأيتهن...

رام الله

أقواس لإنتفاضة خارج الأقواس

أحمد دحبور

تقتادك الإنتفاضة من يد روحك، وتمضي بك لا إلى فردوس الطمأنينة، بل ربما إلى النقيض. فأنتَ إزاء هذا الفعل الإنساني الجبّار، حائرٌ على غير مستوى. ثمّة دمٌ يُراق ولا تملك غير الحِبر، وما من حِبرٍ يرقى إلى منصّة الدم. وحتى حين يمور الدّم في جسدك باحثاً عن مخرج، فإنّك حينئذٍ فدائي لا شاعر. وليس معنى هذا أنّ الفداء ينافي الثقافة، أو أنّ الثقافة متعالية على الميدان، ولكن لا بد من تفادي خلط الأوراق، فلا يمكن للممارسة أن تتحوّل إلى حكم قيمة أدبي، مع أنّ الحِبر عرضة لاختبار دائم – لقد خلصنا من ترفِ الكتابة للكتابة وهي ذي الإنتفاضة، بوهجها وضرائبها اليومية، تعيد إنتاج السؤال التقليدي عن جدوى الكتابة، وإذا كان السؤال قاسياً أو عصياً على الجواب، فلنبحث عن صيغة ثانية: «هل من عزاء في الكتابة؟» ويرسلك هذا السؤال إلى مستوى آخر من المشكلة، يتصّل هذه المرّة بكينونة المثقف المتورّط بوجوده في زمنٍ ملتهب: «هل قدَرك أن تلبس هذا اللّبوس الماسوشي، مقرّعاً حيّزك الفيزيائي المحدود، بدعوى عدم صعوده إلى لحظة الإشتباك؟»... وحين يدخل المثقف العضوي – مع الإعتذار من غرامشي – على الخط، فإنّك في مستوى ثالث من الحيرة: كيف أمارس كمثقف وكيف أكتب كمحارب؟ وفي كلتا الحالتين: ألستُ مثقلاً بأسئلتي الوجودية، أنا المفرد في فضاء محذوف؟ فكيف أتحوّل إلى خليط فعّال في نسيج الجماعة؟ ولك أن تعتبر، في طفرة يأس أو ضجر، أنّ ما سبق ليس إلّا دلعاً لغوياً، وأنّ عليك أن تعود إلى سؤال الأسئلة عن دورك،

مثقفاً في هذه الملحمة. وساعتها لا مناص من مستوى جديد يدعم حيرتك الأولى، هو أنّ الإنتفاضة هي نشيد الجماعة ومرآتها، وليس الفرد إلاّ نبرة في إيقاعها الجمعي المتكاثر. بهذا لن تكون ذاتك إلاّ بالحدّ الذي تسمح به الإنتفاضة، فهي تهدّد شخص الثقافة بالتنميط. وحين تنأى عن الإمتثال للثقافة السائدة، فمعنى ذلك أنّك اخترتَ الغربة – أمغترب ومثقّف ثوري في آن؟ كيف تلتئم المعادلة؟

١

على أن حرارة الجو تعفيك من التفلسف، وتضعك في عين العاصفة مباشرة. وللجوّ أن يشتعل حتى ولسعة البرد الخريفية تمسّ منك العصب. وبين أن تنشغل ببرد زاحف وحرارة موقف محتدم، تنسى دور المثقف أو تتذكر أن المثقف لا يملك دماً أزرق. إنّه في المحنة كالآخرين فماذا عن الآخرين الآن؟ سأقتطع فقرة من مادّة تشبه اليوميّات، فلعلّ «الآخرين» عايشوا تلك الليلة كما فعلت: أسجل هذه الكلمات في الدقيقة العاشرة بعد السادسة من مساء الإثنين الموافق ٢٠/١٠/٢٠٠٠ من غزة. لقد قطعت ما بدأت به أعلاه. لسبب بسيط: إنقطعت الكهرباء وبدأ القصف. من أين؟ إلى أين؟ كل ما أعرفه الآن أنّ القصف جوّي وبحري. صوت الطائرات يملأ المكان، ووسط الظلمة تلوح من البحر أضواءٌ حمراء تطلقها الزوارق الحربيّة، ولأنّني أكتب من غير تدبير مسبق، ومن غير أفكار مرتبة، فإنّني أسجّل كل ما يخطر لي أوّلاً بأوّل. مثلاً: هذه أوّل مرّة أتعرّض للخطر وأنا في بيتي الشخصي. فقد كانت المخاطر تجول معي وتنتقل، كما حدث لآلاف الفلسطينيين من أبناء جيلي: من عمّان ١٩٧٠، إلى جنوب لبنان ١٩٧١، إلى درعا – جنوب سورية عام ١٩٧٢.

ويجب ألاّ تفوتني الفترة التي عملتُ فيها مراسلاً ميدانياً في غور الأردن الشمالي بين عامي ١٩٦٨ و ١٩٧٠. كان للطائرات خرير خبيث، أشبه بهذا الذي أسمعه الآن.

لحظة، ثمة دويٌّ كبير، إنفجارٌ آخر، لعلّ القصف قريبٌ جداً. الكهرباء مقطوعة فلا تلفزيون بالتالي ولا أدري أين يوجد الراديو؟ وأكتشف المفارقة: فحين تتعرّض للخطر بعيداً عن أهلك تكون مشكلتك بحجمك، أمّا حين يأتيك الخطر إلى البيت فأنت مسؤولٌ أمام حيرتك... وعجزك وغضبك. ما علينا؟ ها هي أصوات أطفال البناية تصلني إلى هنا: الله أكبر...

ياه! الله أكبر... كنّا أطفالاً عندما سمعنا هذا النشيد أوّل مرّة، يا هذه الدنيا أطلّي واسمعي، جيش الأعادي جاء يبغي مصرعي. وأتذكّر ذلك النص المثير للمحامي الفرنسي جاك فرجيس الذي دافع عن الأسير الفلسطيني الأوّل محمود بكر حجازي. لقد سأله: على من تعتمد؟ إنّ الجيش الذي تحاربونه هو أقوى جيش في المنطقة: فقال له محمود: نعتمد على الله... ويقول جاك فرجيس: «لقد ارتجفت عندما سمعتُ تلك الكلمة.. الله.. إنّها الكلمة التي سمعتها أيضاً من ثوّار الجزائر»..

ولكنني لا أتوقّع الآن تدخّلاً من الله وبطبيعة الحال، أستبعد إحتمال أيّ تدخّل عربي رسمي.

لا أتحدّث عن البطولة ولا أعرف ما سيحدث بعد دقائق. لكنّني أقرّر حتى هذه اللحظة أنّني لن أغادر. لقد غادرنا كثيراً، ولجأنا كثيراً، وهذا أوّل سقفٍ يغطّي رأسي ويكون لي. صحيح أنّني لم أسدّد أقساط بيتي، ولكنّه لي. لن أتركه، فقد بكى أبي بما يكفي وكان يقول: «ليتني سمعتُ جارنا

الحلاّق «أبي جورج» وهو ينصح ألاّ أغادر حيفا». ولن أغادر إلاّ إلى حيفا.. لا يوجد عندي زيتون ليقصفه الجنرال. ولكن أمام بيتي بحيرة سمك. يجب أن يقصفوها، لم لا؟ أليس السمك – مثل الزيتون – من أعداء السلام؟

٢

(إكتشف العلماء أنّ المخلوقات الحيّة جميعها تغيّرت منذ أن وُجدت على وجه الأرض حتى اليوم إلاّ العقرب. فقد وجدت متحجّرات من العقرب منذ مئات آلاف السنين تدلّ على أنّ العقرب بقيت على صورتِها الأولى التي وجدت عليها).. ليس هذا فصلاً من بحث في علم الأحياء، ولكنني ورثتُ عن أبي المسحر في رمضان تقليداً شعبيّاً، هو إقتناء مفكّرة يومية، فاقتطع كل يوم ورقة منها تدلّ على التاريخ بالتقويمين الميلادي والهجري، وأقرأ، على ظهرها، حكمة أو مأثورة أو معلومة. ويوم الإثنين الموافق ٢٣ / ١٠ / ٢٠٠٠، المتوافق مع ٢٥ رجب للعام ١٤٢١ الهجري، قرأت في تلك الورقة، هذه المعلومة عن العقرب..

وفي ذلك الإثنين، كنتُ عائداً من عملي إلى البيت، فبشّرتني زوجتي بأنّ الجنرال أصدر أوامره بإغلاق المطار الفلسطيني في رفح، ورداً على النار بالمثل، بشّرتها بأنّ الجنرال المذكور أمر بوضع حاجز بين غزّة وخانيونس، ففصل بذلك قطاع غزة بعضه عن بعضه الآخر... تماماً كما فعل في الضفة...

أمّا الشخص الذي إسمه يغئال كرمون ممّا يسمى معهد أبحاث صحافة الشرق الأوسط، فقد ظهرت صورتُه، على عينك يا عربي، في إحدى القنوات الفضائيّة العربيّة. وكان كصهيوني شديد التهذيب يسخر من رغبة الشعب الفلسطيني في الإستقلال، ويتهكّم على دماء الشهداء قائلاً: «إنّ الفلسطينيين يريدون صنع الإستقلال بدم أطفالهم الذين يضطر الجنود إلى إطلاق النار عليهم... كونوا مكان الجندي الذي يتعرّض للحجارة، ماذا يفعل؟» ثمّ أعلن يغئال كرمون حزنه الصهيوني كاملاً غير منقوص على الشهيد محمد الدرّة، موضحاً بموضوعية صهيونية أكاديمية أنّ التحقيق لم يثبت أنّ الطفل الدرة تعرّض لرصاص الجنود... وبشيء من الحسبة المنطقية الصهيونية، وإذا كان الجنود لم يقتلوه، فإنّ الفلسطينيّين هم الذين أطلقوا النّار؟.. ومن يدري، فلعلّ الخبير في أبحاث صحافة الشرق الأوسط الصهيوني سيعلن قريباً أنّ والد محمد الدرّة هو القاتل؟؟

وأمدّ نظري إلى صفحة اليوم – أحصي متاعب النهار وآلاء الإنتفاضة، فيكون قد مرّ بنا الكثير. وعلى طريقة العرب في التعبير أقول «على سبيل المثال لا الحصر»... فيكون أمامي هذا المثال: هذا رجلٌ طيّب، وجهه يطفح نبلاً وتعاطفاً و.. فضولاً. إنّه صحفي أوّلاً وأخيراً، مهنته البحث عن الحقيقة فهو يسأل. ولهذا فإنّ العتبَ مرفوع ما دام السؤال لا يعني وجهة نظرٍ مسبقة. قدّم نفسه بأنّه بلجيكي. فضحكت معقّباً: «ونحن بلجيك أيضاً..»، إبتسم وظنّ أنّ ثمّة خطأ في الترجمة، فأكدت له أنّ الفلسطينيّين، في أحد الأقطار العربيّة، يُطلق عليهم إسم البلجيك، لا إنتقاصاً من شعب بلجيكا، بل ليُقال إنّ الفلسطيني غريب عن العرب كالبلجيكي، إلاّ أنّ هذا موضوع آخر. وكان السؤال الأوّل هو: «ما تعقيبكم على راديو باراك الذي يقول إنّكم ترسلون أولادكم إلى الموت

وتختبئون في البيوت؟».

مساء ذلك اليوم، صرّحت ملكة السويد بأنّها تنتقد الفلسطينيّين الذين لا يرحمون أبناءهم، فهم يزجّونهم في الحرب، مع أنّهم أطفالٌ صغار، وكان بإمكان الفلسطينيّين أن يلفتوا أنظار العالم إلى قضيّتهم بأسلوب غير هذا، وإنّ عليهم أن يراعوا حقوق الإنسان..

في يوم واحد يُعاد إنتاج السؤال ثلاث مرّات، وبنوايا مختلفة، لكن مصدر البرابجندا واحد، والرواية واحدة : إنّ الفلسطينيّين يرسلون أبناءهم إلى الموت.. وبالتالي فهم المسؤولون عن موت أبنائهم. ولو بذل العقلُ (شرط أن يكون عقلاً) جهداً بسيطاً في مشاركة الضّمير (شرط أن يكون ضميراً) لمشاهدة التلفزيون (اللهم إلاّ من فضائيّة السي إن إن) لرأى ما تراه البشريّة في القارات الخمس : شباب فلسطين ينادون بالإستقلال، فيردّ عليهم الجنود بالرّصاص الحيِّ الموجّه إلى الرؤوس والقلوب أساساً، وإذا كان الجنود يسجّلون رقماً قياسيّاً في قتل الأطفال، فإنّ عدداً لا يستهان به من الشهداء، تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين. لقد نجح الرصاص الصهيوني في تحقيق عدالةِ الأعمار : لقد قتل الرضيع، وتلميذ المدرسة، وربّة البيت، وطالب الجامعة، وأبا الأطفال الخمسة.. وكان الجميع في الشوارع يرفعون الهتاف، ويضعون الشهداء على الأكتاف، فيندلع الرصاص من غير تمييز أو رحمة..

ناشدت الصحفي البلجيكي أن ينزل إلى الشارع، بكاميرا ومن غير كاميرا، فالمهم أن يشاهد ويشهد وأتاني شاحباً، بل إنّه أجهش بالبكاء، ثم لم يلبث أن اجتاحته نوبة من الغثيان والدوار..

وأما ملكة بلاد نوبل، فرجاؤنا عندها أن تفتح التلفزيون على نشرة الأنباء. ولأنّنا نؤمن بحسّها الإنساني نناشدها ألاّ تأمر – مع أنّها تملك ولا تحكم – بإلغاء تلك المناظر المرعبة، وإنّ كنّا نتضامن مع رغبتها لو وجهت نصيحة إلى الآباء والأمّهات السويديين والسويديّات بأنّ يحجبوا ويحجبن تلك المناظر عن الأطفال، حتى لا تحلّ السوداويّة محلّ الجنسية السويديّة...

وبالعودة إلى الأكاديمي الصهيوني أدون كرمون، تنقطع أسباب الحوار الذي لم يدر لحظة واحدة، إنّه في بيتي وهذا هو الأمر الحقيقي بشأنه. ولهذا فإنّ من حقّه أن يبكي على جنودِ جيشه الذين يتعرّضون للعنف من دفاتر تلاميذ المدارس، ومن أشجار الزيتون المحترقة، ومن الأمّهات الثكالى، ومن الأطفال المفزوعين.. ومن صورهم على شاشات التلفزيون وهم يقتلون أطفالَنا فيسبّبون الرّعب لأطفالهم هم.. طويلاً تأمّلت ملامحَ السيد كرمون، وتمعّنت في دقّة تعبيرهِ وهو يتكلّم اللغة العربية. ترى هل يعرف معنى كلمة عقرب؟

٣

كان صوت السيّد المسيح يتدحرج من ليلة الليالي تلك إلى أيّامنا السوداء هذه : «أعنّي.. أعنّي..» أمّا محمد درّة فكان يقول : «إحمني يا أبي» وكان الفتى المصري أحمد محمد شعراوي يطلق صرخة على طريقته. فقد هزّنا لأنه اهتزّ.. أفزعه ما جرى لمحمد الدرة، وبقيت صورة الطفل الشهيد تلاحقه أثناء النوم، وفي المدرسة، وعلى مائدة الطعام.. وكان يعزّ على الفتى المصري أن يرى أباه

يبكي عاجزاً عن تقديم شيء لأيّ محمد درّة يموت على الهواء مباشرة، أو في صمتِ التعتيم : مات الولد مات مات.. من؟ وكيف؟ ولماذا؟

ولم ينم أحمد محمد شعراوي تلك الليلة... كانت فلسطين تنادي، ولم يكن يحلم بشجيع السينما أو فتوة الحارة، بل كان يسأل نفسه عمّا يمكن أن يقدّم لفلسطين. وهكذا اختفى أحمد من البيت في اليوم التالي. ظنّ الأب والأم، في البداية، أنّه يدرس عند أصدقائه، ثم واسى أحدهما الآخر بانّ من حقّ إبنهما المجتهد بعض اللّعب، لكن الليل إنقضى ولم يظهر أحمد..

أما هو فكان تلميذاً شاطراً في الجغرافيا، وفي الدروس كلّها، والجغرافيا تقول إنّ هناك بلدتين لهما إسم واحد : رفح، وأنّ إحداهما مصريّة والثانية فلسطينيّة، فهما متجاورتان.. وعلى هذا فإنّهما تشكّلان منطقة الحدود.. وحتى يصل إلى رفح المصريّة ثم الفلسطينية، فإنّ عليه أن يعبر صحراء سينا، وهو يعلم بطبيعة الحال أنّ مدينة العريش هي عروس سيناء .. ولكن كيف الوصول إليها؟..

ذات يوم، حين تنعم بلادُنا بالسّلام والطمأنينة، سيظهر مذيع فلسطيني على شاشة التلفزيون الوطني الفلسطيني في عاصمة فلسطين الأبديّة، القدس.. وسيروي حكاية الولد المصري الشجيع أحمد محمد شعراوي.. ولأنّني في لهفة إلى تلك النشرة، فإنّني آمل ألاّ يكون هذا الولد قد أصبح عجوزاً وهو يروي وقائع رحلتِه المثيرة من حيّ الحلميّة في القاهرة، إلى الإسكندريّة، إلى الإسماعيلية، إلى القنطرة، إلى العريش، إلى رفح.. على أمل أن يدخل فلسطين. لقد أعيد أحمد إلى والديه. كانت الأمُّ تحتضنه وتبكي. كانت تكابر حتى لا يظهر الفزع في وجهها، فهي، مثل أيّ أم، تخاف على طفلها... مع عدم الإعتذار من ملكة السويد..

٤

في مسرحيّته التاريخية «هنري السادس»، يقدّم شكسبير شخصيّة فتاة في مقتبل العمر، ويركّز على أنّ إسمها جان لا بوسل، ويحرص على ألاّ يناديها عدوّ أو صديق إلاّ بهذا الإسم. وهذه الفتاة الفرنسيّة تتمكّن – كما هو مُثبت في التاريخ – من إنزال ضربات مؤلمة في الجيش الإنكليزي، حتى أنّها تذلّ اللورد تالبوت، فارس الإنكليز الشجاع. وما كان لسيّد المسرح على إمتداد العصور، وليم شكسبير، إلاّ أن يعترف ببطولة هذه الفتاة، وينقل على لسانِها أنّها تشارك في جهاد بلادها بوحيٍ من السّماء. لكنّها حين تقع أسيرة في يدِ الإنكليز، تكشف عن وجهٍ آخر أراده لها المؤلّف الإنكليزي، ولم تثبته وقائع التاريخ حتى في أقلّ النصوص أمانة، وهي أنّها تستجير بالسّحَرَة والشياطين والأرواح الشرّيرة صارخة :

العون أيّتها الرقى الساحرة والتعاويذ
وأنت أيّتها الصفوف من الأرواح
إظهري وأعينيني على هذه المهمّة
لقد دبّ الضعف في تعاويذي القديمة

وعندها تتدخّل الشياطين من غير أن تستطيع أن تقدّم لجان لابوسل أيّ نفع، وحين تقترب النار منها – لأنّ الإنكليز يحرقونها – تتراجع في ادعائها، فهي ليست عذراء طاهرة كما كانت تقول، بل إنّ في أحشائها جنيناً تنسبه إلى غير أب، ولكن من غير جدوى..

بقي أن نتذكّر أنّ شكسبير كتب هذه المسرحية عام ١٥٩٢، أي في نهاية القرن الذي شهد تلك الوقائع الحقيقية التاريخية. والأهمّ من ذلك أنّ شاعر الإنكليز الأكبر هذا، لم يكتب هذه المسرحيّة تلقائياً، بل كان يأخذ بالإعتبار إرادة القصر الملكي.

... ولكن هل انتصر شكسبير العظيم – ووراءه الملكة اليزابيث المعظّمة – على الفتاة الفرنسية جان لا بوسل؟.. دعونا نسأل مكر التاريخ..

لم يبق من اللورد تالبوت، إلاّ ما يمكن أن يحفظه تلميذ إنكليزي نجيب من درس التاريخ، أمّا ما بقي من الفتاة التي إسمها جان لا بوسل فهو كثير.. بقي منها أنّها ليست في الحقيقة، إلاّ بطلة فرنسا وقدّيستها جان دارك...

وحين تهزم الفتاة ذات التسعة عشر ربيعاً أعظم صوت أدبي أوروبي في العصر الوسيط، فمعنى ذلك أنّ ثمّة خلَلاً في قدرات هذا الصوت الجبّار حتى لو كان شكسبير بجلالة قدره. ولهذا يبدو طبيعيّاً ما تقوم به الآلة الإعلامية الصهيونية الجبّارة. دبّاباتهم تطحن عظام الأطفال، وإذاعتهم تسرق خطاب الضّحيّة.. فنحن المعتدون. وزيتوننا آثم، وبرتقالنا شرّير، أمّا نخيلنا فيكفي أنّه عربي.. يا للنخيل الغوييم! على أن قوّة السرّ لا تكمن في القوّة المجرّدة للحقّ المجرّد من القوّة. بل في هذا التيّار الذي لا يمكن القبض عليه باليد. بهذا الذي قاربه محمود درويش، وهو بعد فتى، بالريح التي لا تجرحها ضربة سيف. كانت جان لا بوسل – ومنذ الآن سنعيد لها إسمها : جان دارك – تحارب وفي قلبها فرنسا. وهذاما يفعله الشاب الذي يقذف الحجر وفي نبضه إيقاع فلسطين. كان هناك شكسبير شاهق البناء. ويوجد الآن أقمار وتلفزيونات وصحف وقوى ضغط.. بحيث يمكن التشويش على الشاشة، ووضع النجم السداسي على رأس محمد الدرّة وكأنّه طفل يهودي قتله الأغيار... لكن هذه الغول الإعلامية لم تستطع أن تمسح عبارة مكتوبة بالأحمر القاني على الجدار الذي أوى إليه محمد وجمال الدرّة، وأستغرب كيف لم ينتبه الكثيرون لتلك العبارة التي قالها جمال عبد الناصر قبل ثلاث وثلاثين سنة من تلك اللّحظة : ما أُخذ بالقوّة لا يُستردّ إلاّ بالقوّة.. ثلاث وثلاثون سنة.. إنّه عمر المسيح على الأرض، والمسيح إبن بلادنا.. وعلى هذا فلا نطلب العون من الرقى والتعاويذ. بل من هذه الأرض.

٥

لقد منحت الإنتفاضة، في العقد الأخير من القرن العشرين، لغات العالم كلمة جديدة ودخلت كلمة الإنتفاضة بحرف الضّاد على مختلف الألسنة، ثم أنّها منحت شاشات تلفزيونات عام الألفين،

عدداً من الصور التذكاريّة الخالدة : الطفل محمّد الدرّة يستشهد في حضن أبيه، الطفل فارس عودة يلتحم بالدبّابة العملاقة ويرجمها بالحجر، الولد السبع شادي أبو دقّة يتسلّق السارية، تحت مطر من الرصاص فيلقي بالعلم ذي النّجم السداسي إلى الجحيم، فيما يتصدّر المشهد ولد – سبع آخر، يرفع العلم الفلسطيني هناك، مكان العلم العدو...

صورٌ تتناسل من صور. ودم يرث الدم. أمّا علم فلسطين فهو علم الثورة العربيّة الكبرى الذي قلبته النكبة فجعلت اللون الأسود في الأعلى، حداداً أو عبوساً في وجه زمن المظالم هذا، وانزاح المثلث الأحمر ليحتلّ الرّكن الأيسر... فهو من العَلَم محل القلب من الجسد الإنساني، لكن اليد على القلبِ لا لتحرسه، بل لتعبّر عن الحياء والأسف، لأنّني أبحثُ عن عَلَم بلادي، في مواكب الشهداء، فأخشى ألاّ أراه بالبهاء الذي له، وأحدّق إلى الموكب ثانية : لن يندم شادي أبو دقة لأنّه جازف بعمرِه الطري مقابل إسقاط العَلَم السداسي وإطلاق عَلَم الثورة العربية الكبرى. مع أنّ ما يحدث.. مع الأسف.. هو هذا الذي يحدث. نتأمّل المسيرات وجنازات الشهداء، فماذا نرى؟ ثمّة رايات حزينة : رايات خضراء وحمراء ومزركشة. رايات تتدافع وتتسابق... هي راياتنا على أي حال، وقد سقط في ظلالِها مئات الشهداء وآلاف الجرحى، ولكن أين عَلَم فلسطين؟

دعونا للمناسبة نتذكّر واقعةً أليمة : عندما استشهد غسّان كنفاني في الثامن من تموز عام ١٩٧٢، كانت تمرّ بنا الذكرى الأولى لأبي علي إياد الذي استشهد في الثالث من تموز ١٩٧١. واجتهد القائمون على مجلّة «فلسطين الثورة» يومها. فوضعوا صورة الشّهيد أبي علي إياد على واجهة غلاف المجلّة، فيما تركوا صورة صغيرة في خلفيّة المشهد للشهيد غسان كنفاني الذي لم يكن دمُه قد جفّ بعد. وكان رئيس تحرير «فلسطين الثورة» كما هو معروف، هو الشهيد كمال ناصر الذي ما إن رأى الغلاف حتى جنّ جنونه، وجمع المحرّرين ليلقي عليهم خطبة حقيقيّة ناريّة، مزمجراً : «منذ متى كان الفلسطينيّون يتبارزون بأسماء الشهداء؟ وهل الجبهة الشعبيّة وحدها هي التي فجعت بالشهيد غسان كنفاني أم فلسطين كلّها والأمّة العربية جمعاء؟ وهل كان الشهيد أبو علي إياد ليرضى عن ذلك الغلاف المتحزّب الذي يسيء لجوهر رسالة فلسطين الثورة»... واعتذر يومها المسؤولون عن تلك الفعلة، واستدركوا الأمر في العدد اللاّحق من المجلّة..

وما دمنا قد شرعنا بتلميع الذّاكرة – وهو، للمناسبة، تعبير يحبّه الأخ أبو عمار – فلنأخذ الدّرس من إسم المجلّة «فلسطين الثورة» نفسها...

فقد كان إسم المجلّة، كما هو معروف، مؤلّفاً من كلمة واحدة : «فتح»، وكانت جريدة «فتح» قد حظيت من القيادة الفلسطينية مجتمعة يومذاك، بأن تكون هي الجهة الإعلاميّة الوحيدة، النّاطقة بإسم الفصائل جميعاً، بإسم منظمة التحرير الفلسطينيّة. ولم يلبث الشهيدان الكمالان ناصر وعدوان أن اتّفقا على إنطلاقة الإعلام الفلسطيني الموحّد. وذلك صيف ١٩٧٢، وإلغاء الأسماء والعناوين ذات الإشارات التنظيميّة، فتحوّلت «وكالة فتح للأنباء» إلى وكالة الأنباء الفلسطينيّة «وفا» وأصبحت «إذاعة العاصفة» هي «صوت فلسطين، صوت الثورة الفلسطينية»، وحلّت محلّ جريدة «فتح» مجلّة «فلسطين الثورة».. هكذا انضوينا جميعاً تحت الراية الأعلى، راية فلسطين..

والآن، بعد ملحمة الصّمود في لبنان ١٩٨٢، وبعد الإنتفاضة المعجزة التي فرضت إسمها على لغات العالم، وفيَ ذروةِ الإنتفاضة المتجدّدة، نجد من ينسلّ وهو لا يدري أنّه، بهذه النسبة أو تلك، يبتعد عن علم الأعلام. فتحلّ القبليّة الحزبية محل الوطن، والراية الفئويّة محلّ علم فلسطين...

وعلى غير سعادة أو إحتفال بذاكرة عنيدة، أذهب إلى عام ١٩٧١، عندما كتب المثقّف الفرنسي جيرار شاليان كتاباً نوعيّاً عن الفدائيّين الفلسطينيّين : صدقهم وفعاليّتهم. فسأله صحفيّان من بلاده عن نقطة ضعف هؤلاء الفدائيّين، فقال : إنّهم شجعان.. ولكن تنقصهم روح الفريق، روح الجماعة...

ولقد ظننت ما يجب ألاّ يكون ظنّاً، بل هو جمرة يقين، أنّ معموديّة الماء والنّار قد أعادتنا خلقاً آخر، وأبطلت نظريّة شاليان : لكنّني حين أرى المتسابقين إلى رفع راياتهم مكان عَلَم فلسطين، أنتكس، ولا يسندني إلاّ الولد السّبع شادي أبو دقّة.

٦

الإثنين ٢٧ / ١١ / ٢٠٠٠ – الموافق الأول من رمضان ١٤٢١

يتسلسل رمضان كماءِ النّبع العتيق فترتوي الذاكرة من عطش الصيام، وقد ترك التاريخ علامتين من الشّهر الفضيل. ففيه بداية القرآن، وبداية القرآن : إقرأ.. ومن حروف القراءة والكتابةِ يتشكّل وعيُنا بالوجود والغيب – وفيه أوّل إنتصارٍ عسكريٍّ للإسلام، وأوّل إنتصار هو بدر، والبدر ذروة القمر، ورمضان ذروة التقويم القمري...

على أنّنا إذا أخذنا هاتين العلامتين للزّرع في حديقة الرّوح، فإنّ رمضان الحديث له في أرواحنا وأجسادنا ذكريات وذكريات...

حين عشتُ جوّ المجازر، لأوّل مرّة، قبل ثلاثين سنة، كان الوقت رمضان، ولقد رأيت بعيني يومها ذلك الرّجل الذي كان يحمل سطل الماء، ليبل ريق الأسرة في الإفطار، لكن الرصاصة عاجلته فاتّكأ على ناصية الّدرج، هناك في وسط المدينة وكان الدم ينزّ من جسدهِ قطرة قطرة على ماءِ السّطل. مسكين ذلك الماء، لن يشربه أحد، ولن يرطّب جوف الصائم... وحين وقعت حرب ١٩٧٣، كان التاريخ القمري يشير إلى العاشرِ من رمضان، وهي ذكرى بدر أيضاً، ومنها على سبيل الدمعة والمثال، صورة جارِنا محمد زيدان، ذلك الشاب الطيراوي الوسيم، وكنيته أبو الفهد، وكان أخوه فؤاد أبو العمرين قد استشهد قبل بضعة أشهر على طريق البادية المؤدية إلى العراق.. أمّا أبو الفهد، فقد هرع، في دمشق، إلى جهة أركان الجيش، حيث كانت طائرة الميراج تمخر الفضاء كأنّها تنتظره.. ولستُ أدري كيف استدلّ أهله على أشلائه...

وحين اجتاح جيش بيغن وشارون، بالسّلاح الأمريكي الحديث، مدن لبنان وقراه وعاصمته واستمرّ الإجتياح والحصار ثلاثة أشهر، مرّ شهر رمضان في المشهد. لم يحتفل الأطفال بمدفع الإفطار، لكنّهم عاشوا على دويٍّ مدافعٍ من نوعٍ آخر، وأرسل البحر شواظ الحمم والقذائف. ودلفت السماء صواريخ وقنابل، أمّا الأرض فأخرجت بعض أثقالِها، ولكن الحكّام العرب لم يقولوا : مالها؟ وكان على

الفلسطيني والوطني اللّبناني أن يتعمّد في وحدة الدّم، فكان صيامُهما مقبولاً، حتى وإن طالبنا بمياه الشّرب التي كان المندوب الأمريكي فيليب حبيب يضنّ بها إلاّ بشروط...

واندلعت الإنتفاضة الفلسطينيّة الكبرى أواخر عام ١٩٨٧ واستمرّت إلى ربيع ١٩٩٣، فمرّ رمضان بها ستّ مرّات. كان الحجرُ ينطق، والرّيح تشهق، والتاريخ يحار في الملحمة التي تتشكّل بين يديه، وكان العجز العربي الرّسمي هو الفاكهة الدائمة لشعب تعوّد أن يتجرّع العلقم.. ويتقدم. وها هي إنتفاضة الأقصى تخلخل حسابات المنطق، والشهداء يسجّلون الأرقام القياسيّة، فتجتمع قمّة خجلى كان مُقدّراً لها أن تتأخّر بضعة أشهر، لولا إنفجار الشارع العربي هذه المرّة، فكان لا بد من تنفيس هذا الشارع، وظلّ الحجر يقابل الطائرة والدبّابة والمدفع والطرّاد البحري. ويطلّ رمضان على حصارٍ جديدٍ تزفّه جرّافات تقتلع الزيتون والبرتقال والنخيل من الجذور. لكن الفلسطينيّين الصائمين والمؤدّين شعائر الإيمان على مختلف طرائقهم، يواصلون الصعود، وقد يعزيهم كل مساء أن يذهب الظّمأ وتبتلّ العروق.. وثبت الأجر إن شاء الله. لكن المفارقة لها حصّة في الموضوع. لأنّ الجنرال يريد حصّة من هذا الأجر؟ فقد حاول أن يجرّ رمضان بجنازير الدبّابة، قبل موعده القمري. إنّ الحصار الذي يشمل المواد الغذائيّة جاء قبل رمضان. وكأنّه إقتراح بصيام مبكّر. المواد تشحّ في الأسواق، والمدن الفلسطينيّة مقطّعة الأوصال، فلن ينعم الغزّاوي بلبن الجنيدي الخليلي مثلاً، ولا بموز أريحا...

ومع ذلك فللفلسطينيّ أن يهندس يومه ورمضانه على مقاسِ الحصار. ويأتي رمضان في موعدهِ وما لا يسرّ الجنرال، أنّ العيد قادم بالتأكيد بعد شهر الصّوم الفضيل...

٧

السبت ٩/١٢/٢٠٠٠

فجأة يقدّم الجنرال إستقالته. ردّ الفعل الأوّل: لقد هزمتُه الإنتفاضة بحجارة فلسطين وليست الحجارة إلاّ رموزاً من لحم ودمٍ وتاريخ. لقد كان من شأن أهلِ البلاغة أن يقولوا: إنتصر الدّم على السّيف، حسناً، ستقول آلة الجنرال إنّه استقال بهدف إدارة معركته السياسيّة الداخلية على طريقته. ولسنا في وارد المناكفة، فليكن.. ولكن ما كان حقّاً، هو أنّ الجنرال، حتى لو استقال بدوافع إنتخابيّة، فإنّه ما كان ليركب هذا المركب الخشن المعقّد، لو لم تُلجئه إلى ذلك هذه الإنتفاضة. وقد يتساءل المراقبُ عمّا كان سيفعل الجنرال في هذه الورطة: الرصاص الحيّ موجّه إلى الرؤوس والقلوب. غول الدعاوة والإعلان تحتلّ شاشات الدنيا وصحفها وشوارعها. اللّبن أسود، والفحم أبيض.

ولقد تنفّس الجليل غضباً و«عصافير – بلا أجنحة».. قال الفلسطيني العتيق: ربّوني وأعرف أهلي. الإنتفاضة في الجليل والمثلث أيضاً.. وفي النّقب تمور نار الغضب. هل يملك الجنرال إلاّ أن يقتل؟ ثلاثة عشر شهيداً يليهم ومشروع لمحاكمة الشخصيّات الوطنية. عرب الخط الأخضر يتميّزون بالعقوق. أخضر أو أصفر أو أزرق أو ما شاء الجنرال من الألوان. لكنّهم عرب فلسطينيّون وقد ظلّوا كذلك. ألم يكونوا هكذا يوم الإنتفاضة الأولى؟ فماذا يفعل الجنرال؟

سيذكر هذا كلّه ويذكر الكثير. الشارع العربي العاصف من الرّباط إلى بغداد وما بينهما. أمّا

شارعه فيهتف : الموت للعرب، إقتلوا العرب. لكن الإنتفاضة مستمرّة إ.ن.ت.ف.ا.ض.ة باللغات كلّها. وما زلنا على قيد الحياة. والإنتفاضة لا تقبل إستقالة الجنرال بل تقيله من إبتسامته الصفراء.

فلسطين تحصي شهداءها وجرحاها. ويسأل الطفل أباه عن ماهيّة الإستقلال. فيجيب الأب : إنّه أنت...

■■■

وفي حكايتنا الشعبيّة، يستطرد الرّاوي ويتوغّل في القصص الفرعيّة، ثم يفطن إلى ما بدأ به، فيقول : يرجع مرجوعنا إلى...، والآن أصبح واضحاً، لي على الأقل، أنّ المرجوع إليه هو الإسهام الثقافي في هذا الفعل الجبّار الإنساني الذي إسمه الإنتفاضة، لا أعتقد بأنّ هناك سؤالاً سادياً أكثر إيلاماً من هذا السؤال الموجّه إلى الكاتب : ماذا تفعل في هذه الأثناء؟ والمفارق أن السؤال، على وضوح ساديّته، لا يكف عن إنتاج نفسه. فقد كانت الإنتفاضة الجديدة في أيّامها الأولى، عندما كنت أحد من فوجئوا بكلام من نوع : كيف تقرأ خارطة الأدب الفلسطيني تحديداً بعد إنفجار الإنتفاضة بهذا الزّخم والنّفَس الطويل...؟

وهذ المرّة لم يرجع مرجوعنا إلى...، بل عملت ما يشبه الإستخارة، لأهتدي إلى جواب، فكان أن بدأ الجواب بسؤال، رحم الله المتنبّي – وكثير من ردّة تعليل، فَرُحتُ أقول، وعمر القراءة يطول :

– أين هذا الأدب أوّلاً؟ لقد قرأت قصيدةً قصيرة، جميلة طبعاً، للشّاعر محمود درويش، وكتبت قصيدة في بداية أيّام الإنتفاضة... ولا شك في أنّ شعراء آخرين قد فعلوا ذلك. ولكن هل يمكن إعتبار هذه الصفحات خريطة جديدة للأدب الفلسطيني أو حتى العربي؟ بسؤال آخر : هل التحوّلات الكبرى في الأدب مشروطة بالمعارك؟ إنّ الشعر العربي الإسلامي، مثلاً، لم يتغيّر بسبب معركة بدر أو أُحد. ولكن الشعر العربي تغيّر بعد الإسلام. بمعنى أنّ هناك تغيّرات نوعيّة من شأنها أن تُحدث تغييراً جوهريّاً في المشروع الثقافي، ولكن ببطء، ولم يحدث أن وقعت تغيّرات في الأدب بسبب هذه المعركة أو تلك، لكنّه أمرٌ شديد الأهميّة أن ترصد حركة الشّعر الحديث وإنتشارها بعد زلزال نكبة ١٩٤٨. فالنكبة مفصل تاريخي نوعي..، والآن نحن أمام إنتفاضة شعبيّة تمتدّ بشكل أو بآخر إلى الحياة العربيّة، فإلى أيّ حدّ يمكن لتوابع الزلزال أن تنشئ خريطة جديدة؟ هذا، كما أرى، سؤال من المبكّر أن نجيب عنه الآن باطمئنان...

ولا أظنّ من العدل في هذه العُجالة، ولهذه المناسبة أن أكون مطالباً بإعطاء أجوبة عن أسئلة متقعّرة تناقش ما بعد الحداثة مثلاً، إلاّ إذا قصرنا الأمر على التناول الخارجي للموضوع، ممّا يمسّ العلاقة بين الإلتزام في الأدب والإكتفاء بنظريّة الفنّ للفن. وهو موضوع سابق على ما بعد الحداثة بطبيعة الحال.. لكن هذا لا يعفي السؤال من حقيقة أنه لا يزال مطروحاً، بغضّ النظر عن المدخل المؤدّي بنا إليه..

وما يمكن أن يُقال في هذا الشأن، ينطبق عليه التشريع الشهير : الحلال بيّن والحرام بيّن. بمعنى أنّ كل وجهة نظر أصبحت واضحة، فهناك جماعةٌ من المتطيّرين الذين تروعهم شبهة الوطن في الأدب بدعوى أنّ الشأن العام يؤثّر سلباً في الذات، التي هي مملكة الفن وجوهره ومآله الطبيعي.

وهناك جماعتنا التي تؤمن، مع التواضع والثّقة مجتمعين، بفهمٍ خلاّق لغائية الفن، فالفن لا يمكن

إلاّ أن يتّجه إلي الآخر. والآخر صيغة متشظّية، فهو الصّدى حيناً، وهو الصادم حيناً آخر، كما أنّه المصدوم دائماً باعتبار أنّ للعمليّة الإبداعية أثر الصدمة. هناك العدو وهناك الذات الجماعيّة، هناك المتلقّي النّفعي وهناك المتلقّي الجمالي المجرّد. وهو ما يجيز لنا أن نسقط دعاوى الذاتيّة المغلقة في الفن. فحتى هذا الذاتي الذي ورث صرخة أوسكار وايلد : «لا نفع في الفنّ إطلاقاً» سيظل في حاجة إلى ذاتيّ مثله ليسخرا منّا في أقلّ تقدير. وعلى هذا فقد لا نأخذ تلك الإنعزالية على محمل الجدّ. وتأتي الوقائع النّوعية الجسيمة بحجم الإنتفاضة كالمرآة المكبّرة، لترسم بصورة كاريكاتورية حجم قصور المثقّف، ولكنّه إذا لم يكن قصوراً مشروعاً، فهو على الأقل يتطلّب الرأفة. ولا شك عندي في أنّ الإنتفاضة رحيمة بنا.. أليست هذه أحد تجلّيات الأم الفلسطينيّة؟

غزة

ليليات

ليانة بدر

١

أتمتع بمرأى النجوم وهي تومض لامعة في مساء رام الله المحاصر. أظن نفسي للوهلة الأولى تحت سماء طفولتي في أريحا، ثم أعاود التذكر والتركيز لكي أعرف أنني هنا، أمام باب بيتي الذي سينفتح بعد هنيهة فادخل رغماً عني. أمتلئ من ثم بنشوة استمتاع مزدوج بالحياة رغم تهديد القصف الماثل في أية لحظة. بعد هذه الهنيهة المرسومة بمخمل الليل الطري الذي يحمل آلاف ماسات النّجوم سوف ادخل إلى تحت سقف يجلل حيطاناً جامدة لا تعرف ماهية مسرى النجوم في العروق. فما عاد ثمة فسحة للتسكع والتمشي تحت أنوارها الخافتة كما اعتدت أن أفعل قبلها.

الناس في جميع الأمكنة في حالة استنفار، سيارات قليلة تعبر الشارع بسرعة خرقاء أحياناً، وأخرى لها ذات التجوال المتردد لأناس مثلي يريدون أن يستمتعوا بنعمة الفضاء الخارجي كي لا يقتلهم السأم احتباساً واختناقاً داخل أسوار كثيرة.

أتساءل أنا التي شهدت حروباً كثيرة :

ومتى كانت الأسوار تحمي ؟

لكن حكمتي لا تحتمل رفض جبرية الحياة الإستنفارية، فها هي تضطر إلى أن تغادر ملجأها الأول في الطبيعة، كي تحتمي مثل الجميع وراء أبعد الأسوار الممكنة. فبعد قليل سوف تنهال علينا حمم الرشاشات المستعرة من قبل المستوطنة، وسينجرف رواء هذا الليل المبكر ليصبح كتلاً من (اللافا) والسواد المتحجر.

٢

فجأة انتبهت إلى الصور التي كنت ألصقها فوق مكتبي بعد أن بات جلوسي إليه نادراً. نصف منها يروي آثار حروب ماضية، ونصف آخر ملون بالسهرات والورود والأمسيات والأضواء واخضرار الأشجار. كان هذا تماماً مثل قطبي حياتي منذ عودتي إلى فلسطين حين كانا يتجمعان خطوطاً على الحائط الذي ظلل كتاباتي ستة أعوام كاملة قبل أن يبدأ القصف، وقبل أن تتغير عادات حياتي لتصبح من جديد كما كانت أيام الحروب الماضية. غربة قاسية عن الكتابة وقلق عنيف يطيح بالأوراق التي كانت قد كتبت سابقاً.

٣

في مساء رام الله أشهدهم كل يوم في طابورهم. أطفال بين الخامسة والعاشرة يركضون بهدوء ويهتفون بروية بعد أن يهدأ صخب تجمعهم الأول. يلّتمون استعداداً بعد أن كان معظمهم يتناثر في عرض الحارات أو يتسلق أنابيب الماء الصاعدة على جوانب الطريق. يسيرون في التواءات الأزقة وهم يغنون : تعيشي.

تعيشي يا فلسطين.

أسمع صوت مدرسهم وهو يهيب بهم :

دُق الأرض بكعبك أنتَ هناك. وأنت الذي بجانبه... بدي أسمع صوت دق الكعب على الأرض.

يشرعون في الركض كالكبار وربما بانضباط أعلى. بعضهم يرتدي طاقيات صوفية سوداء يقومون بفردها على وجوههم فتحتجب وجوههم المدورة، ولا تظهر من ثمة سوى أسنانهم الصغيرة المغردة وأعينهم البراقة.

مخلوقات ملائكية هم، يطوفون بشوارع مساءاتنا رغم عفرتتهم المكبوحة. يطلقون أينما وصلوا دفق عذوبة يغطي ولو للحظات كمد الأحداث في الخارج. عبر انتظامهم كل مساء يصارعون الخوف اليومي من القصف العشوائي الإسرائيلي، ويحاربون رعبهم الذي كان يتجلى في دموعهم وصرخاتهم ومخاط بكائهم الذي كان يظهر أمام الكبار رغماً عنهم في بداية الأحداث. بعضهم يصير «زورو» بقناع طاقيته الصوفية السوداء، وكل منهم يحس في قرارة نفسه بأنه «فدائي» يجتاز الحدث المرعب دون أن يخاف. هؤلاء ابتدأ طابورهم بعد قتل الطفل (محمد الدرة).

أتكون هذه المسيرات واسطة لإمتصاص الرعب الذي يعصف ببيوت الناس العاديين الذين لم يشهدوا قبلاً كل هذا القصف الثقيل؟

أيكون القناع حامياً للطفل، أم أن فحواه الرمزي هو الذي يرفع من معنوياته؟

هل يحمي القناع الطفل حين يرخيه على وجهه ويصير واحداً مغفلاً بين الجميع، لكنه يرمز إليهم جميعهم في الوقت ذاته؟

في حكاية ليلى والذئب، تخفى الذئب في ثياب سيدة عجوز كي يلتهم الطفلة.

في مساء رام الله يخفي الأطفال وجوههم مثل اخوتهم الكبار الذين يتحدّون الوحش الإسرائيلي

على الحواجز، في إشارة إلى أن القناع قد يحميه هو الطفل من أن يصير فريسة للذئب المسلح بالأنياب والموت.

٤

الطفل الذي كان يقف في الملصق حاملاً مقلاعه أمام جسد الدبابة الضخم استشهد بالأمس، تخبرني صديقتي ونحن نحدق سوياً في الصورة المعلقة على حائط مطبخها. كيف تسللت هذه الصورة أصلاً إلى الجدار لتلصق مقابل كيس الخبز على المائدة، وتندمج بين أغراض متناثرة، ثم تضيء مثل ماء الشرب اليومي المتدفق من الحنفية. صورة ولد صغير أذهلت العالم يشبه أن يكون عصفوراً يتصدى لسديم معدني أولد دبابة هائلة. صحن فضائي يحمل أقنعة الشر كلها. بشاعة الدبابة المصفحة وثقل كتلتها العملاقة تشبه أن تكون وحشاً حديدياً هبط بغتة على كوكب يحكمه الأولاد الصغار.

مات الولد بعد أيام من مصرع ابن خالته الذي كان يماثله عمراً، وفي مكان المواجهات ذاته. للوهلة الأولى عندما حدقت في الصورة قبل موت الصبي خلال توزيعها في ندوة حول الإنتفاضة هالني جسد الدبابة الهائل وهو يوشك أن يطبق على الأمير الصغير، الذي لا يطاله اليأس في قصة «سان اكسوبيري». كانت قبضته الصغيرة تلوح بمقلاع هو سيفه السحري الذي سوف يخلصه من جنون الوحش الفالت.

الآن وأنا أعاود التحديق بعين الأسى والحزن بعد استشهاد الطفل برصاصة من نوع ٥٠٠ قطعت معظم شرايين وأوردة رقبته، أنتبه من جديد إلى يده الصغيرة، إلى ملابسه البسيطة، أرى حذاءه المدعوك. أتذكر فارس الذي أرق وما عاد ينام بعد استشهاد ابن خالته شادي، والذي كان مغرماً بأغنية يدبك عليها مع رفاقه في المدرسة

(لو كسروا عظامي مش خايف

لو هدّوا البيت مش خايف)

وأرى وحشية الحديد المدرع حين يهجم به جنود إسرائيل لينقضوا على حلم الأمير الصغير الذي كان يقطن في غزة.

٥

في وسط رام الله ميدان «المنارة» اجتهدت بلدية رام الله كي تثبت فيه منحوتات تمثل أسوداً حجرية تقف حول بركة تعيد إلى الأذهان ذلك الميدان القديم الذي عرف بإسمه الشهير في السابق.

منذ أن جرى تركيب الأسود الجديدة التي تتماز بضخامتها صارت هواية الأطفال تسلق واعتلاء الأجساد الحجرية لملوك الغابة في ليل رام الله الصيفي. في بداية المواجهات كان هناك من أتى ووضع أكاليل الجنازات الذابلة على أعناق المنحوتات التي بدت وحيدة وكئيبة.

الآن، لا يمر مساء إلا وقد ازدادت أعداد الأطفال الذين يتنافسون على اعتلاء هذه الأسود.

الفارق الوحيد هو أن أجساد هذه الأسود المرمرية باتت مغطاة بملصقات كثيرة لأطفال آخرين.

٦

من جديد تختلف علاقتنا بالظل والنور. قبل هذا القصف كنت أعنى بأن ألاحق شذرة الضوء الأخيرة قبل الغروب فلا أسدل الستائر. الآن، أقفل أغطية الشبابيك (الأباجورات) بحرص بالغ وكأن اقتفاء آثار الغروب يشبه جريمة عقابها القصف المؤبد. صار للنور واشعاعاته الشمسية شروط وجودية أخرى تتضمن الحماية من أية أنوار ليلية.

أستمتع بالقراءة على قليل من ضوء المصباح الجانبي حينما يكون مخفياً لا تتسرب أسراره من وراء الستائر السميكة. فأصبح كمن يجد نفسه مشدوداً إلى طوف وسط فيضان عات قد يعد بالوصول إلى فردوس سحري وعالم أخاذ. كل العوالم ساحرة حين تخلو من عين المستوطنة السيكلوبي الذي يراقبنا ليل نهار.

بالأمس كان هنالك رجل يعمل على تركيب أشغال الكهرباء في بناية قريبة من الحاجز الإسرائيلي على المدخل الشمالي لمدينة البيرة قرب مستوطنة بيت إيل، حين قضى بطلقات رشاش هائل شطرت جسده إلى أجزاء. وكم كان السبب في غاية البساطة، فقد ظن الإسرائيليون أنه يحمل سلاحاً بيده رغم أن مسافة كيلومتر على الأقل تفصل بينه وبينهم.

لا أحد يصدق ما نراه إلا إذا عاش على حافة هذا العالم السوريالي الذي يحمي جرائم اسرائيل ويغض الطرف عنها.

هكذا، تطل أبراج المستوطنات العالية قرب جميع المدن والقرى الفلسطينية لتخبرنا عن حقد عنصري لا مثيل له إلا في قصص خيالية.

٧

تنقض المستوطنة على مساكن البيرة ورام الله وخصوصاً تلك التي تواجهها وكأنها بثرة قيح في جسد مريض. حقد ينفض آفات جرثومية، ويلوث ليل العالم الجميل من حولنا بصواريخ وقذائف ورشاشات ثقيلة لها قدرة تدميرية هائلة.

هذه المستوطنة التي انتزعت بالقوة من أراضي البيرة ورام الله لم تنشأ إلا في عام ٨٤.

الرقم نفسه معكوساً كان عام استيطان البلاد الإستعماري سنة ٤٨. هنا أتم الإحتلال الإستيطاني عمله بسهولة فائقة لم تزد عن إصدار أوامر مصادرة الأراضي من قبل الحاكم العسكري. كم حصل الغزاة على أراضٍ سرقت من أصحابها دون أن يتكلفوا شيئاً سوى اصدار الأوامر بانتزاعها. كان تمزيق الأراضي وتدمير الزراعة المحلية أسهل عندهم من شرب فنجان من القهوة السريعة.

وها هي النتيجة، جسم غريب عن البيئة لا يمتلك من مقومات الوجود عدا العزلة عن المحيط، وزرع القهر والكراهية لكل من يجاوره.

جيراني نظرياً، أعدائي عملياً حسب جميع القيم والمواصفات. فهم لا يحلمون إلا بإزالتنا من

الوجود كي يسرقوا كل الأرض دون مساءلة من أحد.

مساء كنت أحاول النزول من السيارة في الشارع الرئيسي الموصل بين القدس ورام الله، حينما أزّت القذيفة في فضاء الشارع آتية من المستوطنة، ثم هبطت على معهد الإعلام العصري التابع لجامعة القدس. شحنة ثقيلة من الهواء الساخن تصطدم بالأرض فتدك سوراً وتجرح رجلاً كان واقفاً بالصدفة خارج البناء المجاور.

ليس إلا الطمع وحده من أحضرهم إلى هنا. فبيوتهم مُشَيَّدة بأحجار بلادنا البيضاء، ومبنية بأيدي عمالنا وفوق أراضينا، وهم يسطون على حقول زيتوننا ويجرفون أشجار اللوز والبرقوق كي يقيموا طرقاً سريعة تدمر بيئتنا الطبيعية وتقتل الحيوانات البرية التي عاشت آلاف السنين في هذه الجبال والوديان. وعلى صدى آلامنا ودموعنا تستثمر شركاتهم المتعددة الجنسيات أموالاً تجنى لإبادتنا ولتسليفهم قروضاً سخية لأرقامها وقع الخيال.

وهم ... وهم ...

ورغم كل هذا، فالأرض أرضنا ... والحياة حلوة رغم هذا الليل.

رام الله

مدخل وعنوان وحجر من ياقوت

علي الخليلي

سيارة مرسيدس أُجرة تنزل بنا من الطابق الثاني في المحطة المركزية برام الله، وتتجّه إلى الرام شمالي القدس، السائق يفرك زر المذياع على صوت فلسطين، تصعد الأغاني التي تمجّد الحجر وأطفال الحجارة. في المقعد الأمامي إلى جانبه، يختفي رأس راكب تحت الحطة والعقال. ما أن تمرّ السيارة أمام مبنى الشرطة الذي دمّره القصف الإسرائيلي قبل بضعة أسابيع، حتى يضرب هذا الراكب كفاً بكفّ، ويلتفتُ إليّ في المقعد الأوسط، أو إلى الشابين قربي، ويحكي مع نفسه، أو معنا: «لحقونا بالصواريخ حتى إلى هنا. أخذوا السهل والبحر، وطاردونا للوعر. يا ناس، هل هذا معقول؟». نصمتُ. ويواصل وحده الحكي عن الانتفاضة، وعن السلطة الوطنية، وعن جيش اسرائيل، والمستوطنين اليهود، وعن العرب والمسلمين، وعن أميركا، وعن الدنيا كلها. ثم يسكت، ليعود إلى ضرب كفيه والهمهمة بكلام تطغى عليه الأغاني. أغمض عينيّ، وأفكّر بمدخل مؤثر لمقالتي. فكرة المقالة موجودة. وهل يمكن لفكرة هذه المقالة، أو غيرها، أن تبتعد في هذه الأيام، عن أجواء الانتفاضة؟ فقد عاد شعار «لا

صوت يعلو فوق صوت الانتفاضة » ليتصدّر الخطابين السياسي والثقافي معاً، وهو في صدارته يستجيب لحتمية تلقائية، أكاد أحسّ أنه لا علاقة للسياسيين، أو للمثقفين فيها! غير أن « المدخل » في كل مرة، هو الذي يصنع سيولة الكتابة أو جفافها. وثمة، أجد نفسي، رغم امتلاء الصدارة، حائراً مثل المأخوذ على حين غرّة، أو كمن يكرّر مقالاته السابقة، في سلسلة من التساؤلات الثقافية المكرّرة أيضاً، منذ ثلاث عشرة سنة. أرفض هذا التكرار الذي يتلبّسني على شكل هاجس يتضخم في داخلي، وأتجاوز مسألة المدخل إلى العنوان.

سأجعل عنوان مقالتي « بحر الانتفاضة ». أمواج متدفقة، وكلمات حية ساخنة أدفع بها فوراً على الورق، من انتفاضة أولى إلى ثانية. في الأولى كان الوصول إلى المفاوضات والسلطة الوطنية، وفي الثانية الآن، لا بدّ من الوصول إلى الاستقلال والدولة. لكنني أعود بذاكرتي إلى بدء النشوء والتكوين لمفردة « الانتفاضة » ذاتها. كنا نلوب على هذه المفردة العزيزة الغالية في صحافتنا الفلسطينية تحت الاحتلال، في العام ١٩٨٧، وما تلاه من أعوام، حتى مؤتمر مدريد، فلا يتسنّى لنا نشرها في خبر أو مقال، إلاّ مستبدلة بتسميات شتى، مثل « أحداث دامية، موجات عارمة من التظاهرات وأعمال الرشق بالحجارة، اشتباكات عنيفة، صدامات . . ». وكانت كل هذه التسميات باردة وبليدة وعاجزة إلى حد القهر، عند وصولها إلى مفردة « الانتفاضة » الممنوعة بسبب الرقابة العسكرية الإسرائيلية الصارمة. وقد اندحرت هذه الرقابة المعادية. وصار لنا إعلام فلسطيني جديد، في فضاء واسع، وتقنيات حديثة، وانتفاضة صمدت وتغلّبت على كل التسميات والمصطلحات البديلة. غير أن الهاجس يدهمني في مزيد من قلق الأسئلة. لماذا ينزاح المثقف إلى إشكالية « التسمية والمصطلح » دائماً؟ هل هو انزياح إلى العمق، أم أنه خروج إلى الهامش الفكريّ، ولربما إلى الترف الفكريّ في بلاغة الإنشاء؟ ولماذا يصير للكلمات على مختلف أشكالها ومعانيها، كل هذا الضغط المتفجّر في عقل المثقف، إزاء المسافة بينها وبين حركة الأحداث، أو حركة الفعل التاريخي على الأرض؟ وما هو « الفعل التاريخي »، ليس في مرحلة ما على وجه التحديد، وإنما في كل يوم، وفي كل جملة يشتمل عليها النص؟ أم أن مرحلة معينة تفرض شروطها، فيزداد الضغط ليصبح الأنزياح من المنفى إلى الهامش أو العكس، قلقاً وجوديّاً يستولي على عقل الكاتب؟

إن النار والدم والأجساد المثقّبة برصاص العدو في الشارع المنتفض، هو المشهد البارز. فما هو مشهدي الثقافي فيه؟ أسرعتُ إلى كتابة قصيدة عن الطفل الشهيد محمد الدرة، احتفظت بها عدة أيام، غير راض عن مستواها الفني، وعن قدرتها في استكناه غضبي وأحزاني. ثم نشرتها في صحيفة « الأيام ». لقد أنجزت هذه الكتابة مثل عشرات (مئات، ألوف) الشعراء على امتداد الأمة العربية. لا بدّ لي من « إنجاز » أعمق وأكبر، يتجاوز الانفعال بالمشهد التلفزيوني إلى المشاركة بالفعل ذاته. ماذا أفعل؟ يستغرقني القلق الغاضب المتسائل. هل هو قلق البحث عن « دور ما » للمثقف الفلسطيني، كلما جرى التحديق في المسافة بين الكلمة والرصاصة، أو بين الكلمة والحجر؟ وكأنّ هذا « الدور » غائب، ولا نتحسس غيابه المزعوم، إلاّ بضغط الرصاصة مرة، وضغط الحجر مرة ثانية؟ هل هي صفات التمزّق التي تضرب المثقف في تناقضه بين « أنا » ثقافية متضخّمة لا ترى العالم إلاّ من خلالها، و« أنا »

دونيّة منكمشة في إطار ذاكرة مدرسيّة «السيف أصدق أنباءً من الكتب»، و«تكلم السيف، المدفع، الحجر، فاسكت (اخرسْ) أيها القلم»، .. إلخ؟

اضطرب بشدة، فافتح عينيّ، وأصحو على حوار فيه ما يشبه زقزقة العصافير، بين ركّاب المقعد الخلفي. أعرف من هذا الحوار أنهنّ جدة وابنتها وحفيدتها. لا ألتفتُ. وانصت للحفيدة التي تكرّر «تيتا، تيتا». لعلها في الخامسة من العمر. ثم تكشف هذه الحفيدة التي تعلو زقزقتها على الأغاني، وعلى همهمة الكهل، وعلى الصمت المطبق للشابين قربي، عن سر صغير، هو أن أباها كان يرفض أن تسافر هي وأمها من نابلس إلى الرام، خوفاً عليهما من اليهود. تغضب الحماة. ولكن الحفيدة تقول للجدة: «تيتا، تيتا، لا تخافي، معي حجر، إذا رأيت اليهودي قرب بيتكم، سأضربه في بوزه». فتصيح الجدة: إوْعِكْ! إياك ياحبيبتي! إرمِ الحجر من الشباك، ارمِه. سوف يقتلونك، ويقتلوننا كلنا!». كانت السيارة قد بدأت تتجاوز «سطح مرحبا» وتتسلق ببطء وحذر تلال قرية «كفر عقب» عبر طريق فرعي ضيق ومحفّر، ضمن صف طويل من السيارات بمختلف أنواعها وأحجامها، ذلك أن الشارع الرئيس الذي يربط رام الله بالرام مغلق بحاجز عسكري إسرائيلي عند «سمير اميس» منذ عدة أسابيع، مثله في هذا الاغلاق الذي يمزق شرايين الوطن، مثل كل الشوارع بين مختلف المدن والقرى. الجدة تصرخ مجدداً، آمرة حفيدتها برمي الحجر. ألتفتُ إلى ورائي هذه المرة. الطفلة تزقزق وترفض أن تفتح أصابع قبضتها عن الحجر. الجدة والأم تخلّصان الحجر الذي هو في حجم حصوة صغيرة لونها بُنيّ مشرّب بالخضرة، كأنها ياقوت، من قبضتها الطرية، فتتلقّفه الجدة وتلقي به من الشبّاك.

أتابع الحجر أين استقر بين أشجار الزيتون. تبكي الطفلة، فقد أخذوا منها لعبتها، وألقوا بها بعيداً عنها. أحسّ بالحنو الشديد نحوها، وأودّ لو رفعتها من مكانها بين جدتها وأمها، وحملتها إلى حضني. ثم أحس فجأة بالرعب، بما يشبه لطمة البرق الخاطف. ماذا لو واجهنا بالفعل، حاجزاً اسرائيلياً متنقلاً، عند مدخل مخيم «قلنديا» مثلاً؟ تقوم الطفلة بإلقاء حجرها فجأة. يعني تلعب بلعبتها، فيردّ جنود إسرائيل بزخة من رصاصهم القاتل فوراً، على الطفلة وعلينا جميعاً؟

واصلت الطفلة بكاءها. ثم نامت. وفي الصمت الذي ساد السيارة، كنت استرجع حجر الطفلة، وأعيده لعبة ياقوتيّة بُنيّة خضراء، إلى أصابعها الغضة الرقيقة.

الحجر؟ الحجر الفلسطيني بالنسبة للإسرائيليين «سلاح» بكل ما يعنيه السلاح من عنف وشراسة وقتل. وزير عدلهم، وهو وزير سياحتهم في آن، ابراهام شارير، يقول في العام ١٩٨٨ أن «الحجر سلاح». واسحق شامير رئيس وزرائهم آنذاك يقول «أنها حرب حقيقية، هؤلاء بحجارتهم يحاولون هزيمة اسرائيل». واسحق رابين الذي حقّق شهرته في تكسير عظام أطفال وشبان الانتفاضة، يصرّح أنه لم يستخدم الطائرات والدبابات بعد، فمن ذا الذي يتحدث عن هزيمة اسرائيل؟ وكي يُغطيّ ذلك التصريح نفسه، قبر رابين بعد اغتياله بيد يهودي، ها أن ايهود باراك رئيس حكومة اسرائيل وزعيم حزب العمل نفسه، يستخدمها الآن. وحين يسخر أحد أعمدة الليكود موشيه عميراف، في ذلك الحين، من «هذا السلاح الحجري»، إزاء القنابل الذرية، قائلاً: «اسمعوا، نحن نملك قنابل ذرية. أية حجارة هذه إذن؟»، فإن شمعون بيريس يطوّر من اسرائيلية هذه السخرية بقوله: «إن التاريخ لا

تصنعه الحجارة». وأما بن اليعزر، من كان يسمّى بالحاكم العسكري الاسرائيلي للضفة الغربية المحتلة في العام ١٩٨١، فيقول: «إن سلطات الحكم العسكري تعتبر كل حجر صغير بمثابة قنبلة يدوية». فيا طفلتي الصغيرة، أنت بذلك، كنت تقبضين على قنبلة يدوية!

ولكننا في السيارة، ما بين مطار قلنديا ومخيم قلنديا، نواجه ما توقعناه، أطفال وشبان المخيم من جانب، وجنود اسرائيل وراء سياج مدرج المطار من جانب آخر. حجارة ومقاليع وإطارات مشتعلة، ورصاص، فوق رؤوسنا. يندفع السائق إلى الأمام، بين عشرات السيارات، وتراكم النفايات والخردة في الشارع. لقد اعتاد، واعتدنا كلنا على هذا كله. الطفلة تبكي مجدداً. والكهل يصمت. والسيارة تصل أخيراً إلى مفترق الرام. ألتفت إلى الطفلة وأبتسم لها. ما اسمك يا صغيرتي؟ كأنني كدتُ أن أسألها حقاً. أسكت. وأنزل إلى حال سبيلي نحو البيت. في البيت، اشمّ بقايا رائحة الغاز المسيل للدموع. لعلّ قنبلة غاز انفجرت في مكان قريب، أضغط على الرموت كنترول، فتضيء شاشة التلفزيون. من محطة إلى محطة، أتابع الانتفاضة المصوّرة. ما الفرق بين الانتفاضة على التلفزيون، والانتفاضة في الشارع؟ أظنّ أنه الفرق ذاته، بين المثقف في مخيلته وحيرته للإبداع المنتفض من جهة، وبين احساسه العميق بضرورة المشاركة الميدانية المنتفضة، من جهة ثانية. ندوات، معارض، أمسيات، مسيرات، . .إلخ. لماذا إذن، لم نحتفل بيوم التراث الشعبي الفلسطيني في ٧ تشرين الأول؟ كنا في وزارة الثقافة، أعددنا ملصقات جميلة لهذا اليوم، وبرامج لكل المحافظات.

هل يتعارض الاحتفال التراثي مع فعاليات الانتفاضة؟ أم أنه على الأصح، جزء منها؟ لم يعد الأولاد من مدارسهم، ولا أُمهم من مكان عملها بعد. لقد غادرت مكتبي في الوزارة مبكّراً. لا شيء في الوزارة. قراءة جرائد. راديو ترانزستر. أخبار. لحظات مع الانترنت. صحف العالم العربي. تعليقات وأخبار مكرّرة. نقاش مع بعض الزملاء الذين تمكنوا من الالتفاف حول الحواجز والوصول إلى مكاتبهم. لا بدّ من «فعل ثقافي بارز» للتلاحم مع الانتفاضة! كيف؟ هل نجتمع مرة ثانية أو ثالثة، ونصدر بياناً ثقافياً جديداً؟ جدل وغضب وأحزان. نخرج من مكاتبنا ونشارك في جنازة تشييع شهيد. يسأل أحدنا هل يجوز الاضراب التجاري في كل يوم؟ ملصقات صور الشهداء وكتابات نعي الشهداء على الجدران، تزداد يوماً بعد يوم. هل تبقى الانتفاضة سلمية أم تندفع إلى الحرب؟ بالنسبة لإسرائيل، هي الحرب في كل الأحوال. القصف ليلة البارحة. هل ستظهر المروحيات الإسرائيلية هذه الليلة أيضاً؟ والدبابات؟ والبوارج؟ هل قرأت ما يقوله قنّاص إسرائيلي في لقاء معه أجرته صحيفة هآرتس ٢٠ / ١١ / ٢٠٠٠؟ يقول: «تعليمات الجيش لنا تنص على اطلاق النار القاتلة على من هم في سن ١٢ فما فوق». كم عدد الأطفال الشهداء حتى الآن؟ إن الصحافي الإسرائيلي الشهير زئيف شيف لا يكترث بهذا الرقم فهذه «الحرب» بالنسبة له، «لا تدار بمنظمات الأمهات» كما يقول. أرأيت؟ ولكن الانتفاضة تحتاج إلى منظمات الأمهات الفلسطينيات ليشرحن أنهن لا يرسلن أولادهن إلى الموت. لماذا يكون على الضحية أن تشرح للقاتل، سبب قتلها؟ انتبه لخفقان الضوء على شاشة التلفزيون. خبر عاجل: الدبابات الاسرائيلية في مستوطنة جيلو تجدّد قصفها لبيت جالا. ماذا أعمل؟ أتحرك إلى الورق للكتابة. اضطرب. لو يأتي الأولاد، الآن! ألمح كتاب «أفكار لأزمنة الحرب والموت» لسيغموند فرويد، متنحياً

قرب وسادة مطرزة، بين فوضى مئات الكتب، في كل مكان بالبيت. لماذا رغبت بقراءة هذا الكتاب ليلة أمس؟ كم مرة سبق لي أن قرأته؟ أرفعه إلى عيني. أفتحه على صفحة تركت طرفها مطوّياً: «من المستحيل اصدار أي حكم شامل على حروب الغزو، فبعضها مثل الحروب التي شنّها المغول والأتراك، لم تجلب إلاّ الشر. وبعضها على النقيض من ذلك، أسهم في تحويل العنف إلى قانون على طريقة إقامة وحدات أكبر، وجعل استخدام العنف داخلها مستحيلاً، وأدى نظام جديد من القوانين فيها إلى حل الصراعات. بهذه الطريقة أعطت غزوات الرومان للبلدان المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، السلام الروماني الذي لا يقدّر بثمن». ماذا يقول هذا الفيلسوف أو المحلّل النفسي؟ لو قُدرّ له أن «يحلّل» حرب اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، هل كان سيرى فيها امتداداً «للسلام الروماني» المزعوم؟ أحسّ بالهلع من كل أشكال الفلسفة والتحليل النفسي. ورغم أن فرويد يكتب مقالته في هذا الكتاب تحت عنوان فرعي «لماذا الحرب»، عن محصلة الحرب العالمية الأولى، إلاّ أنه يكتبها بالنسبة لي، كما لو أنها الآن، عن محصلة حروب القوة ذاتها في القرن الحادي والعشرين، ضد الشعوب الفقيرة والضعيفة، وفق مقولته هو نفسه «الحق هو قوة جماعة». اسرائيل – أميركا قوة جماعة، مثلاً؟ ملسوعاً، أُلقي بالكتاب الذي اهترأ غلافه الأزرق واتسخ كثيراً، من يدي. وأعيد تصفّح الجرائد واقفاً، ثم منكمشاً على وجع في صدري، على أريكة في الصالة.

رام الله

الانتفاضة وتجدد الأسئلة الصعبة

جميل هلال

ليس من السهل الكتابة عن حدث لم ينته بعد. كما يصعب للكلمات أن تضيف لما تسجله الكاميرا من مشاهد لحركة شعب يجدد ثورته ضد احتلال استوطن، ويذكّر العالم أن ما فيه استعمار. ويريد، كما أراد غيره من شعوب، أن يرفع علماً للحرية وأن يمارس الحياة.

تضيف الذاكرة الفلسطينية الانتفاضة الجديدة إلى تاريخ كفاحي طويل، ليس أوّله هبّة البراق عام ١٩٢٩، وثورة العام ١٩٣٦، ويوم الأرض عام ١٩٧٦، وصمود حصار بيروت عام ١٩٨٢، ومن بعده النهوض بعد مجازر مخيمات بيروت، وانتفاضة عام ١٩٨٧، وعلى الأرجح لن تكون الانتفاضة الجديدة آخره. لعلّ ما يميّز الانتفاضة الجديدة أنّها تجمع بعض سمات ما سبقها من هبّات وثورات وانتفاضات ومجابهات، وتعيد تكوينها في زمنٍ كوني جديد بثورة المعلومات والاتصالات تنقل الحدث اليومي وإن أغفل بعضها، أو أغلبها، أو شوّه أو تجاهل معانيه. أعتقد جنرالات حرب إسرائيل،

في الانتفاضة السابقة، أن تكسير سواعد المنتفضين سيوقف رجم الاحتلال. ونجدهم الآن قد طوّروا أساليب حربهم لتشمل قتل الأطفال الفلسطينيين، واثقين من أن العالم المتحضّر سيلقي باللوم على أمهات الأطفال لأنّهن أتحْنَ فرصة قتلهم لجنود الاحتلال. فلوم الضحية وتجريدها من إنسانيتها كان دوماً منطق القوة المشبعة بالعنصرية والتي تنصب نفسها حكماً أوحد لحركة التاريخ.

يتمثّل غنى الانتفاضة كأيّة ثورة، في إتاحتها فسحاً جديدة لإعادة صياغة مفردات لغة الذات، ووضع الآخر عنوة أمام المرآة. وها هي تعيد شيئاً من الاعتبار إلى لغة التحرّر من قيود تفاوض عبثي سُوّق لنا، أو نحن سوّقناه لأنفسنا، تحت عنوان «عملية سلام»، وصاغه الآخر المستعمر كمعادلة يُقايض وفقها جزءاً من أرضنا بالتخلي عن حقنا في الحرية والعدل. وتراءى له أن المصالحة التاريخية التي سعينا إليها، ولا نزال، ليست سوى مجرّد شعار نرفعه ليحتفل هو بقيدنا، ولنباركه نحن على منحه لنا «بنتوستانا» ولنشكره على ميّزات فصله العنصري لنا.

تطرح الانتفاضة على الآخر السؤال: هل وبعد أن فشل تكسير العظام وقتل الأطفال وتجريب مختلف أنواع الحصار سيعيد، هو ومن تواطأ معه، النظر في المرآة؟ وهل سيُعيد صياغة مفردات لغته ومشروعه ويدرك أنّ الضحيّة التي كان قد انتقلت إلى موقع الجلاّد؟ وهل سيُدرك أنّه قد آن الأوان ليسعى للسلام القائم على الحريّة وبعض العدل، وأنّ الآخر إنسان؟ هل يعي جنرالاته، وقد غرّر بهم شبق الأمن وحجم ترسانات السلاح، أنّ معاني الانتفاضة لا تُقاس بكم ونوع آلات الحرب ولا بمفردات اقتصاد السوق؟

قد نقرأ الانتفاضة الجديدة بلغة الصراع على تخوم ومصطلحات الدولة الفلسطينية، ونترقّب فعلها داخل حدود الحقلين السياسي والثقافي لإسرائيل. وقد نستبشر بأن قيام دولة فلسطينية بات أمراً حتمياً بعد أن تولّدت قناعة عند مراكز القرار الإسرائيلية والإقليمية والدولية بأنّ لا مفرّ من الاعتراف بدولة للفلسطينيين. ونسمع من داخل المؤسّسة الحاكمة الإسرائيلية، ونُخبها السياسية والاقتصادية والثقافية، أصواتاً تدعو لقيام دولة فلسطينية، حرصاً على أمن إسرائيل وحفاظاً على سمتها اليهودية. ونغذّي رؤيتنا لحتمية الدولة الفلسطينية بما تبديه النُظم العربية من حرص على رؤية قيامها حتى ولو كان الدافع وراء ذلك إزالة عبء المسألة الفلسطينية عن كاهلها، أو خشيتها من انتقال عدوى الانتفاضة إلى عواصمها. ونقرأ بيانات مراكز القرار الدولي، عسى أن نجد ما يؤيد قيام دولة فلسطينية رغم انحيازها للمشروع الصهيوني، ونعرف أن غايتها هو ضمان استقرار مصالحها في المنطقة.

لكنّ المسألة الفلسطينية غير قابلة للاختزال في ثنائية أن تكون دولة فلسطينية أو أن لا تكون، ولا على أيّة مساحة من أرض فلسطين تقوم. بل وفق أيّة شروط وحقوق. وهُنا تتباين الرؤية الفلسطينية لوظيفة الانتفاضة. فالبعض يحصرها في تحسين شروط التسوية لتشمل حدود الدولة الأراضي التي احتلت العام ١٩٦٧، بما فيها القدس الشرقية، ورحيل المستوطنين أو معظمهم، وإيجاد صيغة لا تسلب الحقوق الجماعية والفردية للجزء اللاجئ من الفلسطينيين. والبعض يرى في الانتفاضة فعلاً تثويرياً يكتفي بذاته وينتظر إلى أن تتوفّر شروط دولة فلسطينية على كلّ أرض فلسطين التاريخية. وربّما يكتفي البعض إن نجحت الانتفاضة في إعادة المفاوض الفلسطيني إلى طاولة المفاوضات بتحسينات

ما على صيغة المشروع الأمريكي - الإسرائيلي للدولة الفلسطينية، حتى إن تطلّب ذلك الدخول في تسويات مرحلية جديدة.

لكن هل يقف سؤال الانتفاضة عند حُدود جلاء الاحتلال عن الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧؟ أم أنه يمتد ليختبر حدود طاقتنا على تذليل الصعاب وحدود مخيلتنا على تحويل الضرورة إلى إمكانيات؟ ربّما علينا إعادة صياغة السؤال ليكون: هل ينتهي مشروع الانتفاضة، بما هي فعل يومي مقاوم للاحتلال، عند حدود دولة تُضاف إلى قائمة دول جمعية الأمم المتحدة؟ هل تمنحنا الانتفاضة وتجربة سنوات طويلةٍ من التفاوض وحكم الذات، حريّة محاورة الذات، بما تراكم لنا من وعيٍ على مدار قرنٍ من الزمان، ونحن نقف على عتبة ألفيةٍ جديدة، حول ماذا نُريد ان نكون وأيّ مُجتمع يستحقّ الأحياء منّا وقد ترك لنا الشهداء أحلاماً جميلة؟ هل من حقّنا أن نُحاور الأسئلة الصعبة، من نوع لماذا فشلت ثورة العام ١٩٣٦، ولماذا انتهت انتفاضة العام ١٩٨٧ إلى ما انتهت إليه، وكلاهما انحدرا إلى عنفٍ داخلي وبروز أشكالٍ جديدة من الفكر والممارسات السَلَفيّة، ولماذا اعتبرت سلطتنا الوطنية نفسها غير معنية بالقيم والمبادئ التي احتفل بهما إعلان الاستقلال عام ١٩٨٨؟

إذا كان محرّك الانتفاضة الجديدة هو رحيل الاحتلال ومستوطنيه، وهو كذلك، وإن كان انقشاع الأوهام التي راهنت على الوصول إلى سلامٍ عادلٍ وفق الآليات والأُسُس التي صاغها اتفاق أوسلو، هو مُفجّر هذه الانتفاضة، فإنّ وصولها إلى هدفها الوطني هو مسؤولية المُجتَمَعَيْن السياسي والمدني. ويصعب، حتى اللحظة، على الأقلّ تقديم شهادة بوجود ما يحوّل تصميم الحركة الشعبية إلى تشكيلات تنظيمية أو من يمدّها برؤية لا تُقيّد فعلها عند حدود الحاجة التفاوضية رغم أهمية هذه. فلدينا كثيرون ممّن يعتقدون أن تخوم الوطنية الفلسطينية تقف عند حدود مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وهي تُحقّق ذاتها لحظة قيام الدولة. وهو فهم يحمل مخاطر أوّلاً على مشروع الدولة نفسه. فهل تتوقف الوطنية الفلسطينية، بما تحمله من مضامين تحرريّة، قوميّة ومدنيّة وإنسانيّة، عن إعادة إنتاج نفسها بعد قيام الدولة؟ ألا يحقّ لنا القلق إزاء من يُريد كسر أجنحة طموحنا بأن تقوم الدولة العتيدة على المواطنة الحرّة والمجتمع العصري المنفتح؟ وأليست المواطنة، بما هي ممارسة فعلية للحريّة والمسؤوليّة في آن، حقٌّ لكلّ شعب، بما فيها شعب امتدّ نضاله التحرّري قرناً من الزمن؟

فكما لا يجوز العودة إلى التفاوض مع الآخر، ومن يتواطأ معه، وفق أُسُسٍ وآليات ما قبل الانتفاضة، كذلك لا يجوز العودة إلى التعاطي مع قضايانا الوطنية الحيوية في الغرف المغلقة أو استمرار الارتجال في تنظيم شؤون مجتمعنا وحياتنا وفق رُؤى ومُمارسات كشفت عن عُقمها. وكما يمكن أن تكون الدولة كياناً (بما هو مُؤسّسات وقوانين وثقافة ورُموز) لممارسة التفرّد والتسلّط والقمع، ويمكن أن تكون كياناً يحيل المواطن إلى فرد خائف يتوسّل حقوقه وإنسانيته (وعالمنا لا يشكو من قلّة دول على هذه الشاكلة)، كما يُمكن أن تكون الدولة كياناً حاضناً وحافظاً لحقوق كلّ أفراده، نساءً ورجالاً، بما فيها الحقّ في حريّة الرأي، والتعبير والتنظيم والمُعتقد، وأن تكون كياناً يُمأسِس قيم العدالة والتكافل الاجتماعي، ويُوفّر البيئة التي تستقبل وتُشجّع الإبداع الفكري والثقافي والفني، وكياناً مُنفتحاً على مُحيطه القومي والإنساني وفاعلاً فيهما. وهنا التحدّي الأكبر في تجديد الذات لمؤسّسات مُجتمعنا السياسي والمدني، من سلطةٍ وأحزاب وجمعيّات واتّحادات وجامعات ومُنظّمات أهليّة، بعد أن تكشّف قُصورها.

رام الله

حصاة مشتعلة ..

أنطوان شلحت

ما مِن شيء أكثر سهولة في إسرائيل من عودةِ المتخصّصين في الدعايةِ للحربِ إلى العملِ، كلّما استلزم الأمر. وداخل هذه العودة الأخيرة يجتاحنا، منذ انفجار إنتفاضة أيلول ٢٠٠٠، فيضانٌ من الكتاباتِ السّاخنة بالعبريّةِ تسير في وجهةِ «إكتشاف» أسباب هذه الإنتفاضة وتحليل ما ترتّب عليها من «إنجرافٍ» فلسطيني معها داخل تخوم «الخطِّ الأخضر»، في الجليل والنّقب والمثلّث، فضلاً عن السّاحل و«المدن المختلطة».

ويمكن القول إنّه بمقدار ما كان هذا «الإنجراف» تعبيراً بسيطاً عن ردِّ الإعتبارِ لذاتِنا الوطنيّة، فإنّ معظم تلك التعليقات لم يعوزها العناء لترى أنّه كان خذلاناً للتّوقعات الإسرائيليّة من الفلسطيني المعلّب المفترض أن يكونه كائنٌ بشريٌّ يُسمّى «المواطن العربي في إسرائيل»!

ولا يُنبئ النصّ المكتوب بما يحمله، على الصّعيد النظريّ، فوق أسطحِ الورقِ فحسب بل يؤثّر أيضاً على المشاعرِ الإعتياديّة للإسرائيلي العادي، تلك التي تتكشّف، على الصّعيد العملي، في الحياة اليوميّة: حياتهم وحياتنا.

قلتُ إنّها دعايةٌ للحربِ، ولذا فإنّ تقطيع المفاهيم نادراً ما يختلف باختلافِ أصحابها.

وفي الحربِ كما في الحربِ كلّ شيءٍ مباح، بما في ذلك، بل في المقدّمة، الإنكشاف التّلقائي لأغوار البشرِ الباطنيّة التي كانت مكبوتةً لدى البعض في «زمان السلام».

من المتعارفِ عليه لدى الخبراء أنّ الدعاية، التي تكون مؤهّلة لأن تعدّ جزءاً من «المجهودِ الحربيّ» لأيّة دولة محاربة، هي الدّعاية التي تتّخذ صبغة «الحرب النفسيّة». وهي، كما يقول ف. تايلور، قذائفٌ من الكلماتِ التي تُختار بعناية وتُصاغ بحساب دقيقٍ مستهدفة التّشكيك في العدوّ وفي قدرته على تحقيقِ النّصر. فكيف تكون الحال حين تسقط مثل هذه الدعاية، في أوضاعِ إسرائيل، على آذانٍ صاغية لجمهورٍ مستهدفٍ لا يتقنُ شيئاً أكثر من العنصريّة الجامحة وتنميط شخصيّة الإنسان الفلسطيني من أجلِ تدعيم «تصوّره الذّاتي»؟

حربٌ نفسيّة سرعان ما تهضمها حالةٌ نفسيّة، أو عصاب جماعي تتمثّل بعض مواصفاتِه في إشارات «صافية وصريحة» توَصّل إليها مؤخّراً بروفيسور إسرائيلي في علم النّفس، يرأس أيضاً «الشركة العالميّة لعلمِ النّفس السياسي»، بعد أنْ مدّد المجتمع الإسرائيلي على أريكةِ التّحليل النّفسيّ.

مهما يكن أمرُ هذه الخلاصات، فإنّ واحدةً منها تتعلّق بالتّنشئةِ الإجتماعيّة، أومأت إلى أنّ الأطفال اليهود، منذ عمر الثّانية والنّصف، يتشكّل لديهم تصوّرٌ سلبيٌّ عن العربِ تحت تأثيرِ العواملِ الكثيرةِ المحيطةِ بهم، المتداخلة في تنشئتِهم، ما يعني أنّ هؤلاء الأطفال يفتقرون إلى مرحلةِ السّذاجةِ البريئة. ويبقى العربيُّ، في تصوّرهم، مفردةً ملازمةً لصفاتٍ سلبيّةٍ وشرّيرة. وهذا التصوّر يُعبّرُ بكيفيّة ما، عن مجاراة مع ما تبثّه كتُبُ التّدريس العبريّة، التي لا تنفكّ تكرّس النّزاع مع العربِ والفلسطينيّين

وتجمّده في إطارِ الحربِ تثبيتاً على الماضي، من غيرِ أدنى تغييرٍ يتناسب على الأقل مع سيرورة «عمليّة السّلام».

يبدو أنّ السلام، حتى في شروطه الكائنة، بقي خارج حدودِ المدرسة. وهذه الأخيرة هي، بطبيعة الحال، خليّة حيّة مصغّرة عن المجتمعِ الأوسع.

من ينظر إلى السّلام، قال هذا البروفيسور، فإنّه يفعل ذلك بوصفِه إمّا شيئاً ما ينتمي إلى «السّياسة» لا أكثر، وتختلف الآراء حوله، وإمّا بوصفِه إنحرافاً عابراً وطفيفاً عن مسارِ التّاريخ (الإسرائيلي) الحافل بالحروبِ ... تبعاً لهذا، فإنّ لسانَ حالِ الجميع هنا يقول بمنطقِ التّشكيك: ما جدوى تغييرِ كتبٍ وغير ذلك إذا كان هذا السّلام، وفق المنظورِ السّالف، مجرّد فصلٍ قصيرٍ، وقد لا يصمد طويلاً ؟!

ما أبانت عنه تصرّفات الجمهور الواسعِ في إسرائيل يحيل، إذاً، على واقعٍ قديمٍ يعيد تجديد نفسه: الإسرائيلي العادي لم يباغت بأننا فلسطينيون، لأنّنا في الأصلِ عربٌ أيضاً. لكن ما بوغت به «حَمَلَةُ القلم» هو أنّنا لا نندمُ على كونِنا كذلك.

وقد لا نعثر على دليلٍ يؤكّد ذلك أفضل ممّا يمكن أن نستخلص من تحليلِ الجانبِ المضموني للكثيرِ من تعليقاتِ أصحابِ النّزعة الثقافويّة.

ها هو أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة حيفا، البروفيسور دافيد بوكاعي، يعيد إلى أذهانِ قُرّائه أنّ الإشكاليّة الرئيسيّة في النّزاعِ الفلسطينيّ – الإسرائيليّ هي إشكاليّة ثقافيّة.

وممّا كتبه: يمكن أنْ تسألوا الخبراء في اللّغة العربيّة كي تطّلعوا على مسألةٍ مثيرةٍ: ليس في العربيّة كلمة تحمل دلالة «ندم» أو تبكيت ضمير. ثمّة كلماتٌ تتطرّق إلى أمورٍ مشابهةٍ لكنّها بعيدة جداً عن تحديدِ النّدم وتحمّلِ الذنب، وبالتأكيد على المستوى القومي!

واضحٌ أنّ مثل هذا الهذر الرّخيص لا يستهدفُ النّقاش في اللغة وإنّما تعزيز موقف «بني قومِه» من زاوية الإفتراء بأنّ لغتَهم تبدو، من وجهةِ ما يقوله، أغنى بالمفاهيم الإنسانيّة.

أمّا التصوّر الذّاتي لليهودي الإسرائيلي، ورؤيته للعربي في حدودِ ما يفترضه مثل هذا التصوّر، فقد انعكس في قولِ الشّاعر حاييم غوري: «لقد إعتدنا حتى الآن أنْ نراهم عرباً خاصتنا – إسرائيليّين».

والنّاقد إيهود بن عيزر قال، ضمن أشياء أخرى: «إذا إعتقدنا سابقاً أنّه في الحروب سليتزم عربُ إسرائيل جانبَ الصّمتِ، فإنّ مثل هذا السيناريو يبدو بعد الآن مستحيل التحقّق».

إنّ أقلّ من عشرِ سنواتٍ من الصّراع على «إتّفاقِ السلام» كانت كافية لِبن عيزر كي يُطلقَ الأعنّة لخيالِه في إفتراض أنّ التّوحيد ممكنٌ بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، لإنتاج شيءٍ لا وجود له كشيءٍ إلاّ في ذاكرتِه الإفتراضيّة. وبمثلِ هذا الخيالِ يتمّ إختزال المسافةِ بين فعلِ الإفتراض وبين تدافع جماهير الغوغاء لإرتكاب مذابح غطاؤها صيحات: الموت للعرب!

ولم تبلغ هذه الصيحات مَسْمَعي، كما كان في العادة، عبر وسائلِ الإعلام المرئيّة فقط، وإنّما أيضاً عبر المشاهدة المباشرة والحيّة، أكثر من مرّة واحدة، لهؤلاء الغوغاء في مدينتي «المختلطة».

إحدى هذه المرّات كانت في ساعاتٍ متأخّرة من ليلة من ليالي أكتوبر، مصحوبة بإعتداءات على

محالٌ تجاريّة يملكها فلسطينيّون. لم نتفاجأ بهذا. لكن هذه الليلة إنحفرت عميقاً في أذهان الأجيال الصغيرة من الأُسَرِ الفلسطينيّة، الذين كانت عيون مجايليهم من الفتية اليهود المتوهّجة بصيحة «الموت للعرب» أشبه بطرف حصاةٍ مشتعلةٍ في ليلةٍ دامسة الظّلام، مؤشّرة إلى ما يحدث على هذه الأرض منذ أكثر من مئةِ عام.

عكا

حكاية عائلية

حسن خضر

تبلغ ابنتي في هذه الحرب مقدار عمري في حرب عام ١٩٦٧. وقد بادرت إلى الاتصال بها خلال موجة القصف الأولى بالطائرات. أنا في رام الله وهي في خانيونس، في البيت الذي تعرّض للقصف بمدافع الهاون قبل ثلاثة وثلاثين عاما. كانت طائرات الهليوكوبتر تقصف المدينتين، وكانت ابنتي فريسة رعب يشل اللسان.

ورغم ذلك، تبدو البنت أسعد حظا من أبيها - حتى الآن على الأقل - ففي ذلك البيت شهد أبوها مصرع أبيه، عندما سقطت قذيفة هاون على البيت فأصابته إصابة مباشرة، قصفت عمر الوالد، هدمت جزءا من البيت، وأصابت الولد يجرح في قدمه، ما زال واضح المعالم حتى الآن.

وليس في مفارقة البنت التي تعيش في بيت شهد مصرع جدها، لتشهد حربا أخرى لم تنته بعد، ما يمكنني من تجريد الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي في فلسطين وعليها من شبهة الحكاية العائلية. فقد خرج أبي مطاردا ومطرودا من قريته في عام ١٩٤٨ بقوة الحراب، ليلحق به مطاردوه إلى مخيم للاجئين بعد ١٩ عاما. هناك، صفوا حسابهم معه، لكنه تمكن بين حربين من إنجاب أولاد وبنات في مجرد وجودهم الفيزيائي على الأرض ما يجعل خاتمة الحكاية العائلية بعيدة المنال، وكذلك الصراع.

ففي البيت نفسه يتعلم المشي طفل جاء إلى الدنيا في الذكرى الخمسين للنكبة قبل عامين. إنه ابن شقيقي الأصغر، الذي كان عمره أقل من ثلاثين يوما في حرب عام ١٩٦٧. وليس من قبيل الصدفة أو المفارقة أن الطفل يحمل اسم جده، أيضا. وأرجو أن تمن الحياة على الاسم بما يمكنه من النهوض في جسد فتي جديد.

ربما في الحكاية العائلية ما يحرّض على القيام بعمليات حسابية دائمة. ففي عام ١٨٩١، زار فلسطين رجل أطلق على نفسه اسم آحاد هاعام، وكتب بعد الزيارة بقليل مقالة بعنوان « حقيقة من فلسطين ». سأورد مقطعا من تلك المقالة بعد قليل، لكنني حريص على التذكير بحقيقة لن يذكرها

أحد من المؤرخين: كان جدي على قيد الحياة، آنذاك، ربما كان طفلا يتعلم المشي. لذلك لا يندرج ما كتبه آحاد هاعام في تاريخ الاستيطان اليهودي في فلسطين وحسب، بل يندرج في كتاب الحكاية العائلية، أيضا.

قال آحاد هاعام في وصف المستوطنين اليهود في فلسطين: «أقنان كانوا في ديار الدياسبورا، وفجاة نالوا حريتهم، فأيقظ فيهم تبدل حالهم ميلا إلى الاستبداد، يعاملون العرب بعدوانية وقسوة، يحرمونهم من حقوقهم، يسيئون إليهم دون سبب، ويتباهون بتلك الأعمال، ولا يوجد بيننا معارض لهذا الميل الخطر والبغيض».

لنتذكر أن هذا الكلام كان قبل نهاية القرن التاسع عشر. فما الذي تغيّر بعد مائة عام. سأصف مشهدا يوجز المعاملة في نهاية القرن العشرين: كانت طائرات الهليوكوبتر، التي قصف رام الله مؤخرا تغير على المدينة في تشكيلات تتكون من ثلاث طائرات، تحرسها طائرة مقاتلة - وربما أكثر - من فوق، بينما تتولى طائرات، يتم التحكم فيها عن بعد، نقل صور حية للمواقع المستهدفة قبل القصف وبعده.

تابعت المشهد باهتمام فائق. تحوّم طائرات الهليوكوبتر لفترة من الوقت على ارتفاع شاهق، ومسافة بعيدة عن المواقع التي تستهدف قصفها. فجأة، تكف الطائرات التي تشبه جنادب معدنية هائلة الحجم، وتطلق طنينا مرعبا، عن الحركة، كأنها جمدت في الهواء. تتقدم واحدة منها إلى الأمام، تطلق صاروخها ثم تتراجع إلى المؤخرة، بينما تخطو طائرة أخرى إلى الأمام، لتأخذ مكانها وتعمل عملها، وهكذا دواليك.

لا شك أن المناورة التي اتبعتها الطائرات المغيرة تنسجم مع أفضل وأحدث تكتيكات القصف من الجو، ومبادئ الحرب الحديثة، ويمكن النظر إلى الطائرة المقاتلة، التي تقوم بالحراسة من أعلى، والطائرة بدون طيّار التي ترسل صورا حيّة على مدار الساعة، كعلامات على مدى الدقة في التنفيذ والتخطيط الذي لا يترك مجالا للصدفة.

ومع ذلك، في هذا المشهد ما يثير السخرية، ويدعو إلى تأمل سيرة الأقنان الذين وصفهم آحاد هاعام، أكثر مما يدعو إلى التفكير في تقنيات الحرب الحديثة. فطائرة الحراسة المقاتلة غير ضرورية لأن الفلسطينيين لا يملكون طائرات مقاتلة قد تشكل تهديدا محتملا للجنادب المعدنية، كما أن القصف من ارتفاع شاهق غير ضروري، أيضا، لأن الفلسطينيين لا يملكون أسلحة مضادة للطائرات. والأكثر مدعاة للكوميديا السوداء أن الطائرات تقصف مدينة مأهولة بالسكان، مدينة لا توجد فيها معسكرات لجيوش مدربة ومسلحة، لا تقصفها تمهيدا لاحتلالها كما قد يحدث في حرب شاملة، بل كنوع من العقاب، الذي أصبح - بكل بلاغته التقنية المعززة بالدبابات والمدفعية - من الطقوس شبه اليومية.

ألا يحمل مشهد أواخر القرن العشرين ما يعيد التذكير بذلك الميل غير المبرر إلى القسوة في نهاية القرن التاسع عشر؟ الفرق الوحيد أن طاقة الأذى أصبحت أكثر كفاءة مما كانت عليه قبل مائة عام.

نعثر على فرق كهذا في الواقع، أما في الخطاب فلم تتغير أشياء كثيرة: بررت القسوة نفسها في الحالة الأولى بعدم وجود خيار آخر، وما زالت تستخدم الذريعة نفسها في الحالة الثانية. فالقصف جزء من مفاوضات تستهدف تحقيق السلام.

وإذا كنتُ لا أستطيع فصل الصراع في فلسطين وعليها من شبهة الحكاية العائلية، فإنني حريص على تمكين أفراد العائلة من امتلاك أدوات ضرورية تساعدهم على فهم طبيعة وخصوصية تلك القسوة، لما لهذا الأمر من صلة بحاضرهم ومستقبلهم من ناحية، وبحكم العلاقة الحتمية والمؤكدة بين السيرة الذاتية والتاريخ القومي العام من ناحية ثانية.

برّر الخطاب الصهيوني ـ بمختلف ألوان الطيف التي كوّنها وكوّنته ـ تلك القسوة استنادا إلى فرضية بسيطة وتبسيطية مفادها اصطدام حركتين قوميتين في فلسطين. وقد انخرط في ما يشبه الرثاء الذاتي، عندما أعلن دامع العينين: لن يكف الحظ السيئ عن ملاحقة اليهود، أبدا. فقد تصادف ظهور مشروع الحركة القومية اليهودية مع ولادة الحركة القومية الفلسطينية، وبالتالي جعلت مصادفة التوقيت من الصدام مسألة قدرية، بقدر ما هي مأساوية ومحزنة.

وقد تطوّع شخص كان مولعا بالخطابة والحلول المتطرفة، بتحويل القسوة الناجمة عن مصادفة التوقيت إلى نظرية كاملة شحنها بتاريخ وكوابيس يهودية أوروبا الشرقية والوسطى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأطلق على نظريته تسمية الجدار الحديدي.

يعرف المطلعون على تاريخ الصهيونية، بالتأكيد، مقالات زئيف جابوتنسكي الشهيرة عن الجدار الحديدي، في سياق مرافعاته اللاذعة ضد نفاق الصهيونية العمالية والتواء سياستها تجاه الفلسطينيين. ويعرف المطلعون، أيضا، أن العماليين تبنوا تلك النظرية ـ بعد تمويه أصولها الأيديولوجية وبلاغتها الجارحة ـ وطبقوها على الأرض، لتصبح سياسة رسمية لقيادة الييشوف اليهودي، والدولة الإسرائيلية بعد قيامها.

قال جابوتنسكي آنذاك: يحب الفلسطينيون بلادهم كبقية شعوب الأرض (على طريقة البدائيين وأقل من الشعوب المتحضرة، إذا تحرينا الدقة) لذلك لن يقبلوا بمشروعنا، ومن العبث التفكير في حلول وسط معهم، فما علينا سوى حماية المشروع بجدار من الحراب، وعدم المساومة أو التفكير في حلول وسط، بل دحرهم بعنف كلما حاولوا اختراق الجدار وهدم المشروع. بهذه الطريقة، فقط، وبعد هزيمتهم، وقبولهم بنا كأمر يستحيل الانقلاب عليه، يمكن التوصل إلى اتفاق معهم.

ربما جاز لشخص هبط من المريخ، للتو، تأمل حقيقة أن قبول الفلسطينيين بعشرين في المائة من وطنهم التاريخي، الذي يحبونه، من أجل السلام مع الإسرائيليين، يحوّل بلاغة الجدار الحديدي إلى ما يشبه النبوءة. فهذا معنى ومبنى اتفاقيات أوسلو، في نهاية الأمر.

لكن تأمل هذه الحقيقة لا يستدعي الاستعانة بكائنات من خارج الأرض. فقد حاول مؤرخ يدعى إيان لوستيك تحليل الكيفية التي تحوّلت بها فكرة الجدار الحديدي من نظرية إلى استراتيجية لمختلف

أجنحة المشروع الصهيوني، وعبّر عن حيرته العميقة بشأن تصرّف الإسرائيليين بعد اقترابهم من خط النهاية. فكل ما فعلوه يدل على تخريب متعمد لاستراتيجية الردع والتراكم واستثمار الفوز.

يمكن ترجمة هذا الكلام إلى مفردات متداولة ومألوفة من نوع الجهود الاستيطانية المحمومة، ومصادرة الأراضي، وزيارة عدد المستوطنين، وتفتيت الكثافة الديمغرافية الفلسطينية وتقطيع أوصالها حتى - وخاصة - في ذروة التفاوض على السلام مع الفلسطينيين. وهي جهود كانت لحكومات العماليين فيها، وما زالت، حصة الأسد.

الخلاصة أن لحيرة لوستيك ما يبررها. فمن الواضح - رغم كل ما يقال - ان الاحساس بالاقتراب من خط النهاية لم يتحول إلى فكرة سائدة في أوساط النواة الصلبة لمشروع الدولة اليهودية في فلسطين. أو ربما كانت فكرة الوصول إلى نهاية ما مبعث قلق عميق.

ومع ذلك، الحيرة هي وصف ما يتركه الواقع من أثر على أشخاص يحاولون فهمه أو التعاطي معه، وليست، بهذا المعنى، وصفا للواقع نفسه. وهذا الأمر يستدعي القيام بخطوة إضافية تستهدف مقاربة الواقع، أو محاولة وصفه. ولعل في الأدبيات الصهيونية التي تغطي مائة عام من النشاط الاستيطاني والدولاني اليهودي في فلسطين ما يحقق بعض هذا الطموح.

زاوية النظر في هذا الشأن هي الموقف من السكان الأصليين، كما صاغته الرواية الرسمية، التي تشكل ديانة مدنية للمجتمع الإسرائيلي: يتعلمها التلاميذ في المدارس، ويعبر عنها بتنويعات مختلفة عدد لا يحصى من الكتّاب والصحافيين والفنانين والباحثين. وبما أن الرواية خطاب، والخطاب مؤسس على عملية انتخاب وإقصاء دائمة، فمن المثير ملاحظة ما صرّح به الخطاب وما سكت عنه. ولتكن فكرة القسوة، هنا، الأداة الوحيدة لاختبار الخطاب.

نعثر في أدبيات الرواية الرسمية على فكرة مفادها أن الآباء المؤسسين لم يفكروا في احتمال الصدام مع السكان الأصليين، بل فكّر بعضهم أن البلد تكاد تخلو من السكان، وفكّر البعض الآخر أن المنافع الاقتصادية والتحديث الاجتماعي القادم مع المستوطنين سيحرّض السكان الأصليين على الترحيب بالقادمين الجدد.

لكن الأبحاث التاريخية في العقدين الماضيين تشير إلى حقيقة أن محاضر اجتماعات الأحزاب الصهيونية في فلسطين وخارجها منذ مطلع القرن العشرين، إلى جانب محاضر اجتماعات النقابات العمالية، وقيادة الييشوف تعرّضت للتحرير والتنقيح لحذف كل ما يمت إلى العرب بصلة، أو تقليصه إلى الحد الأدنى. فقد كان السكان الأصليون مصدر قلق عميق، وكانت فكرة الصدام معهم في صلب الموقف الصهيوني.

تترافق البراءة المزعومة للمستوطنين الأوائل، عادة، وتنسجم مع الكلام عن أيديولوجية اشتراكية حكمت سلوك ومواقف بناة اليوتوبيا الجديدة. لكن النزعة العمالية المساواتية لبناة الييشوف اليهودي في فلسطين أصبحت موضع شك عميق في السنوات الأخيرة. ويكفي التذكير في هذا الصدد

بكتاب زئيف شتيرنهال المعنون « الأساطير المؤسسة لإسرائيل »، الذي يبين أن الاشتراكية الصهيونية لا تختلف من حيث الجوهر عن الاشتراكيات القومية التي عرفتها أوروبا بين الحربين الأولى والثانية، أما كلام العماليين عن القيم الإنسانية العليا للإشتراكية، وأخوّة الشعوب، فلم يكن في حقيقة الأمر سوى قشرة خارجية. لذلك لم يثر بناء تعاونيات عمالية على أرض جرى طرد أصحابها الأصليين، والتنكيل بهم في حالات عديدة، اهتمام أحد.

وكما جرى حذف الكلام عن السكان الأصليين في محاضر الاجتماعات، جرى حذف العلاقة بين وجودهم الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من ناحية، ونشوء اليشوف اليهودي وتطوّره الثقافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي من ناحية ثانية. فقد حرص منتجو الرواية الرسمية في حقلي التاريخ وعلم الاجتماع على دراسة اليشوف في فلسطين الانتدابية كوحدة اقتصادية واجتماعية منفصلة تحركها ديناميات يهودية داخلية، بينما تجاهلوا كل تأثير محتمل لوجود الفلسطينيين.

مرّة أخرى، تعرضت الرواية الرسمية في هذا الجانب لنقد عميق. ففي دراسات غيرشون شافير، وأوري رام، وباروخ كيمرلنغ الجديدة، ما يبدد حقيقة التطوّر المنفصل والمستقل للمجتمع اليهودي في فلسطين، وللدولة الإسرائيلية في وقت لاحق. فقد كانت علاقة التفاعل السلبي والإيجابي مع السكان الأصليين، والصراع ضدهم، هي العامل الحاسم والمقرر في كل ما يتصل بمؤسسات المجتمع الإسرائيلي، وثقافته السائدة، أما العوامل اليهودية الداخلية فتأتي في المرتبة الثانية من حيث الترتيب.

لكن ما أظهرته الرواية الرسمية من كفاءة في تجاهل وجود السكان الأصليين في زمن اليشوف يشحب أمام محاولتها طمس ما أصابهم في حرب عام ١٩٤٨، حيث حاولت التنصل من المسؤولية المباشرة عن ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. ولعل هذا الجانب من الرواية هو الأكثر تعرّضا للنقد في السنوات الأخيرة، وهو الأكثر شيوعا بين الناس، أيضا. ففي كتابات بيني موريس، وإيلان بابي، وآفي شلايم وغيرهم، ما يمكّن من العثور على تفاصيل دقيقة لعملية طرد استهدفت زحزحة تجمعات ديمغرافية فلسطينية كبيرة من مراكز استراتيجية معينة، أو دفعها خارج البلد.

يُلاحظ أن القاسم المشترك بين ثلاثة تجليات للموقف من السكان الأصليين في الرواية الرسمية يتمثل في محاولة تجاهل أو تقليص وجودهم. وفي هذه المحاولة التي يمكن العثور عليها بصيغ مختلفة في تجليات لا يتسع المجال لذكرها ما يبرر الشك والارتياب: لماذا حاولوا تجاهل أو حذف الوجود الموضوعي للسكان الأصليين ؟ ولماذا حاولوا طمس معالم القسوة التي وسمت علاقتهم بالسكان الأصليين ؟ ولماذا برروا تلك القسوة عند افتضاح أمرها بعدم وجود خيار آخر، أي أضفوا على أنفسهم صورة قاتل يبكي على نفسه وعلى ضحيته في آن.

من حقي كواحد من السكان الأصليين البحث عن إجابات مناسبة تحرر الحكاية العائلية من شبهة الأقدار العاتية أو المصادفات الناجمة عن سوء الحظ، ففي سيرة أربعة أجيال من عائلة واحدة ما يبرر البحث عن ناظم يعقلن السيرة، أي يضعها على سكة التاريخ.

وأشعر أن كلمة القسوة، التي تمثل الناظم المشترك لكل التمثيلات السابقة، كلمة مخادعة وفارغة. فقد تكون ذات دلالات معنوية أو أخلاقية، لكنها لا تعني أو تفسر شيئا بالمعنى التاريخي. ففي كل موضع وردت فيه يمكن وضع كلمة الكولونيالية في مكانها، وإعادة تأمل المشهد من جديد.

فالمشروع الذي حاول جابوتنسكي تسييجه بجدار من الحراب، كان في الواقع مستوطنة بيضاء لا تختلف من حيث المعنى والدلالة والخطاب والأدوات عن مستوطنات أخرى عرفتها شعوب وبلدان في أميركا الشمالية وآسيا وأفريقيا منذ ثلاثة قرون مضت. وإذا كانت ثمة خصوصية تسم المستوطنة الصهيونية البيضاء في فلسطين، فهي تتمثل في ثلاث حقائق: ظهورها المتأخر في زمن تصفية الاستعمار وظهور حركات التحرر القومي في المستعمرات، وغياب المركز الكولونيالي الأم، وضعف الطاقة البشرية القادرة على ضخ دماء جديدة في عروق المستوطنة بصفة دائمة.

في هذه الحقائق ما يفسر محاولة تجاهل أو تقليص الوجود الموضوعي للسكان الأصليين، ومحاولة إخفاء معالم الجريمة ضدهم، أو تبريرها بعدم وجود خيار آخر. ففي الوقت الحالي - كما في كل الأوقات السابقة - نستطيع نحن الأحياء، وشهود المشهد، البرهنة على وجود أكثر من خيار يمكن الطرفين من التوصل إلى حل وسط في الواقع. لكن في تجربة السنوات السبع الماضية بعد اتفاقيات أوسلو، وتكثيف الجهود الاستيطانية، وسياسة إسرائيل المعلنة بشأن الفصل الديمغرافي، وعنف الحرب الحالية، ما يشير إلى تصميم آخر المستوطنات البيضاء في أواخر القرن العشرين على حماية نقائها عن طريق نظام الأبارتهايد، الذي عرفته وجربته أنظمة كولونيالية في أماكن أخرى من العالم.

وإذا كانت حيرة لوستيك قد أصبحت خارج السياق، فإن كلامه عن فشل الإسرائيليين في استثمار الفوز بعد وصولهم إلى ما يشبه خط النهاية، وعن دور الفشل في تحريض الخصم على تبني استراتيجية الجدار الحديدي، أيضا، يفتح فصلا جديدا من فصول حكاية عائلية بدأت منذ مائة عام، ولا نعرف متى تنتهي.

ثمة أشياء تحدث الآن وهنا. أشياء نعرفها. أقيم، مثلا، في بناية تبعد أقل من كيلومتر واحد عن فندق السيتي إن ومستوطنة بيت إيل، إحدى أكبر المستوطنات في الضفة الغربية، ومقر الإدارة المدنية الإسرائيلية. أصبح الفندق الذي قام الجنود الإسرائيليون باحتلاله في الأيام الأولى للانتفاضة، من أكثر نقاط التماس سخونة في الانتفاضة الحالية. فمن هنا تخرج طلقات القنّاصة، وقذائف المدفعية والدبابات، ومختلف أنواع المقذوفات النارية للأسلحة الرشاشة الخفيفة منها والثقيلة، إلى جانب أصوات سيّارات الإسعاف، التي لا تكف عن الحركة معظم اليوم وحتى وقت متأخر في المساء.

يشحذ هذا القدر من القرب عددا من الحواس أهمها حاسة السمع، التي لا تكتفي برصد الأصوات، بل تحاول تمييزها. فدوي رصاصة واحدة يعقبها بوق لسيّارة إسعاف يعني أن قنّاصا أطلقها، وأن جريحا، أو شهيدا سقط على الأرض. كما يعني دوي انفجار في مكان قريب أن القذيفة لم تسقط على أم رأسك، أو في مكان ما من البناية، فعندما يحدث أمر كهذا لن تمنح سرعتها الفائقة حاسة السمع لديك رفاهية التمييز. وبالقدر نفسه تكتسب مع مرور الأيام كفاءة التمييز بين أنواع الانفجارات،

وإمكانية تخمين أنواع الأسلحة التي أطلقتها.

واظبت على الصعود إلى سطح البناية في الأيام الأولى لمراقبة سحابات الدخان التي يحدثها القصف: تصعد بيضاء، خفيفة ومتماوجة في البداية، ثم تزداد كثافة وميلا إلى السواد، كلما اتسعت مساحة انتشارها. أما في الليل فتطلق ضوءا أصفر تشوبه حمرة قاتمة، عنيفة، وسريعة الانطفاء، ما لم تشعل حرائق صغيرة.

لكن رغبة مشاهدة القصف فترت بعد أيام قليلة، وكذلك رغبة البحث عن زاوية أكثر أمنا في البيت، لأن النوافذ تحتل مساحة واسعة في كل الحجرات، كما أن القذائف لا تعجز عن اختراق الجدران. لا بد، إذاً، من قدر محسوب من اللامبالاة كي لا نمكن الخوف من تحويلنا إلى كائنات مذعورة. ولعل تلك الرغبة تفسّر إصرار عدد كبير من الناس على ممارسة طقوسهم اليومية المعتادة، بما لا يمكن الخطر المحدق بهم من شل قدرتهم على الحياة.

لذلك، عادت الحياة بعد يومين من صدمة القصف بالطائرات إلى سياقها اليومي. يكتظ دوار المنارة بالشباب في ساعات ما بعد الظهر، تفتح المحلات التجارية والمقاهي والمطاعم أبوابها، ويزدحم الشارع الرئيسي في رام الله بالسيارات التي يغضب أصحابها من اختناقات مرورية تؤخرهم وتحرضهم على الشكوى الدائمة.

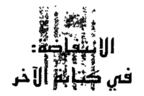
في دوار المنارة تطل وجوه فتية بصفة شبه يومية من ملصقات كثيفة الألوان تجاور ملصقات أقدم عهدا. ربما كان أصحابها في هذا المكان يوم أمس. من المؤكد أنهم مرّوا من هذا المكان. وربما كان بين الفتية الجالسين على سور الكنيسة شهيد محتمل.

لا تستطيع الغالبية العظمى من الناس مغادرة رام الله أو الدخول إليها. هناك أعداد قليلة تتمكن من القدوم من القدس أو مدن أخرى، لكنها تحتاج إلى ثلاثة أضعاف الوقت المعتاد، وإلى سلوك طرق ترابية مرتجلة تم « اكتشافها » بعدما أغلق الإسرائيليون الطرق الرئيسية. لكن الطريق إلى بير زيت ما زالت سالكة حتى الآن.

أرى الطريق من نافذة البيت. حاول الإسرائيليون أغلاقها في الأيام الأولى، لكنهم تعرّضوا لوابل من النيران. ويبدو أن صعوبة التواجد في ذلك المكان بصفة يومية لأسباب أمنية محضة، دفعتهم إلى التراجع عن تلك الفكرة. في رؤية السيّارات الصاعدة إلى بير زيت ما يمنح المشهد الصباحي قدرا من الألفة والعادية، لكن صوت الرصاص القادم من السيتي إن وبيت إيل يبدد العادي والمألوف.

أصبحت أصوات القذائف والرصاص متقطعة في الآونة الأخيرة، لكن ذلك لا ينفي احتمال عودتها، ولا ينفي عدم وقوعها أو ازدياد كثافتها في أماكن أخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة. فالواضح والمؤكد أن ما نشهده الآن وهنا مرشح للاستمرار في المدى المنظور.

رام الله



الركض في ساحة خراتيت :
لا أحد يحصي عدد الشهداء !

اسحق لاؤور

« يشبه الشرق الأوسط فيلماً من أفلام فيلليني، ولا يشبه أفلام انغمار برغمان، العنف والغضب رهن الإشارة، دائماً»

عاموس عوز، « غارديان »، ٢٥ / ٧ / ٢٠٠٠ (مباشرة بعد فشل كامب ديفيد)

لي رجاء في البداية : أرجو أن يتنبه قراء هذا المقال لتواريخ الاقتباسات. أحياناً ما تكون قريبة من بعضها؛ فمقال مكتوب وسط طفرة الإحساس بـ« نهاية الصراع »، بدافع من نوع من السجود الغبي لايهود باراك و/ أو من خلال استخفاف بمنتقدي الذهاب إلى كامب ديفيد في صيف ٢٠٠٠، يختلف بروحه عن مقال مكتوب بعد ذلك بأسبوع، بدافع من كراهية كبرى لعرفات، « من أتلف » نهاية الصراع، التي كادت تجيء. مهم كذلك من أين يأتي الاقتباس. عندما يكتب عاموس عوز للغارديان، فهو يفكر بالليبرالي الإنكليزي، في أكسفورد أو كامبريدج. إنه متفائل، وحذر في تصاويره العنصرية، حتى بعد « حادثة القتل » في رام الله التي كانت الإشارة على « الزعزعة من سفك الدماء » (كان تعداد قتلى الفلسطينيين آنذاك تجاوز المائة). وعندما يكتب لصحيفة « نيويورك تايمز »، يستخدم تعابيره « القديمة والجيدة »، عن الأرواح والشياطين، المستمدة من مصنع القولبة، بواسطة « كيتش » ميلودرامي، لأنه يعرف، مثل كاتب نصوص جيد، أو موجه إعلامي قومي، إلى أي جمهور يكتب هذا المقال.

خاص بـ« الكرمل »

كذلك، فإن أرقام القتلى جديرة بان تنتصب من خلل هذا «المفهوم ضمناً» في هذه القراءة. كلهم ينتمون إلى إنكار الكارثة الفلسطينية. كانت عملية الخضيرة في أواخر نوفمبر قاتلة، راح ضحيتها اثنان، أما قتل خمسة مواطنين من قلقيلية مباشرة بعد ذلك فكان «حادثاً اعتيادياً»، وفي أحسن الحالات، قصة «نجاح لقواتنا». كان بالإمكان الحديث عن دور المراسلين العسكريين، واختفاء الحوار في تقديم الأخبار. يسأل مقدم البرنامج أياً من روني دانيئيل أو ألون بن دافيد: «هل ينوي جيش الدفاع الرد في إحدى الليالي؟» ولا بد للإجابة من أن تتضمن دائماً «نعم، بالتأكيد»، «هل هذا صعود مرتبة أعلى؟»، «نعم، بالتأكيد»، عندها، وبعد الـ«نعم، بالتأكيد» الثانية أو الثالثة، يواصل المراسل العسكري نقل كلمة الجيش، كما فعل مقدم البرنامج، كما المذيع في الراديو، كما المحلل السياسي، كما أمنون ابراموفتش، أو اهود يعري، أو أريه غولان، أو ميكي حيموفتش، مع ابداء القلق على «مصير شعبنا»، بالطبع، وبقية الملاذات الأخرى التي يلجأ إليها الوطني، بما في ذلك انكار الكارثة والجرائم المحيطة. هؤلاء هم مستنسخو القوة من النوع المنحط، وناسخوها الاوتوماتيكيون. ما تداعى بالنسبة للإعلام في الحرب الأخيرة لم يكن سوى تصوراته الذاتية، كأنها لم تعد كما كانت في «العهد البن غوريوني». كل من سجّل امنون ابراموفتش لنفسه بالفيديو أمكنه مقارنة الدور الذي يلعبه هذا المحلل، مثلاً، مع تنميط مشابه للأخبار في أيام بن غوريون: «دكتاتور مصر»، و«الدكتاتور المصري»، الخ. بإمكان كل راغب بالتوسع، التأكد بالضبط متى عاد التعبير البائس «المخربون» إلى لغة الأخبار. دفعة واحدة.

ما برز أكثر من أي شيء آخر في الإعلام كان اجتهاده في الحصول على دعم من بيت المثقفين العجزة. توجه ملحق «هآرتس» لمختلف أنواع المثقفين ليقوم بتنميط «ارتباك اليسار»، اختبأ معظم من قابلهم في البيت عندما بدأت حرب لبنان، قبل عشرين عاماً تقريباً. غالبيتهم كانت «مرتبكة» آنذاك أيضاً. لم يكن يرمياهو يوفيل، على سبيل المثال، «يسارياً» مرة، باستثناء نوع من التماثل النرجسي بينه وبين سبينوزا، عن طريق وساطة «السلام الآن»: لو كان سبينوزا يعيش في أيامنا لكان بالتأكيد عضواً في «السلام الآن» سوية مع يرمياهو يوفيل. في كل الأحوال، عندما تنشأ الحاجة لخلخلة اليسار، يتجندون لليسار لكي يخلخلوه. ومقالات عاموس عوز في خارج البلاد نشرت أولاً من دون الإشارة لمواقفه السياسية. بعد ذلك، وفي أوج الحرب، حرص على منح نفسه لقب «من مؤسسي سلام الآن»، وبالذات، وعندما كانت كتابته أسوأ من صراخ العامة في ملعب كرة قدم، حرص على الإشارة إلى كونه من مؤسس «السلام الآن»، الآن في أوج أيام تأييده للحرب.

جرى تجنيد الرأي العام، منذ انهيار مغامرة كامب ديفيد في أواخر يوليو ٢٠٠٠، بواسطة دعم قدمه «المثقفون» للصحافيين. وإذا رغبتم، فإن سلسلة الأمور لا تعمل بصورة مباشرة: فالقناص الذي يطلق النار على فتى متظاهر، ليس بحاجة لمقابلة في الصحيفة مع البروفسور مناحم برينكر، لكي يقول للمراسل ببث مباشر «أنزلت واحداً آخر». ولكن لو قامت الدنيا في اليوم التالي على هذه الجملة التي قيلت على الهواء، لفكّر قائد القناص مرتين، ولو اتصل اثنان ـ ثلاثة من أصحاب جائزة اسرائيل بمقدمة البرنامج في الراديو، معبرين عن استنكارهم الشديد، كما يفعلون في مسائل تكاد تكون عادية، وحتى لو أن أسّاكشير، الرجل الذي وضع نظام الضوابط الأخلاقية للجيش دون أن

يشير فيها ولو بكلمة واحدة إلى الاحتلال، اتصل وقال كلمة عن «لا تقتل»، لاكتسب «القانون» المهم إلى هذا الحد في الشيفرات الأخلاقية في مثل هذه الحالة، دلالات أخلاقية، ذلك لم يحدث. وحدث العكس: حصل الصحافيون، الهوامش المنخفضة للعالم الثقافي، على الدعم من السلوك المشين للمثقفين، ومن حين لآخر تراكض نفس الصحفيين لكي يبنوا السلوك المشين، وينمطوه كمصطلح إعلامي - «ارتباك اليسار» - وهم الذين منحوا الدعم للسياسيين، ولا يجب أن ننسى التحريض في الحث على «رد فعل ملائم» من جانب مقدمي البرامج، والمذيعين والمراسلين؛ ولا يجب أن ننسى الكذبة الكبرى التي طورتها الصحافة عن «تبادل ثقيل للنيران»: نار الرشاشات الأوتوماتيكية، في أخطر الحالات من جهة، ونار صواريخ ورشاشات ثقيلة ومروحيات ومدافع من الجهة الثانية. على هذه المذبحة، على ميدان الرماية هذا، أطلق الإعلام اسم «تبادل للنيران» - والسياسيون هم الذين منحوا بـ«تصويت في مجلس الوزراء» الدعم لتحويل المتظاهرين إلى مرمى جماعي، بمن فيهم البروفسور شلومو بن عامي، المختص بالفاشية والوزيرة البروفسور يولي تمير، المختصة بالتعددية الثقافية.

لم يحمل «الشارع» التحريض ضد الفلسطينيين إلى أعالي السلطة التي ردت بسبب الشارع. لم تقع حرب بسببها تبين بهذا الوضوح النقيض التام للعملية. وأي هتاف بـ«الموت للعرب» في ملعب كرة قدم لم يُشتق من «رؤى» عنصرية محسوبة أو تربية عمرها سنوات. تلقت العامة في الملعب وفي الشارع درساً جيداً مما شاهدته في الأخبار، إذ ليس هناك أسرع وأسهل من إنزال «الموت بالعرب»، لكن العامة كانت أقل فظاعة من قرارات الحكومة ومجلس الوزراء التي تم تنفيذها في نفس الليلة وكان معناها الوحيد هو الموت للعرب. لذلك، يجب توجيه النداء المنطوي عليه هذا المقال نحو ما يسمى «مثقف اليسار الصهيوني». وُلدت هذه الفئة من المثقفين، الذين أريد الاشتغال بهم هنا، من داخل انكار الجرائم المنفذة بالفلسطينيين منذ ١٩٤٨ والسنوات التالية لها، مروراً بالحكم العسكري ومصادرة الأراضي والاعتقالات الإدارية. لعل هذه القضية - التغييب - أبرز مركّب في صلف وغرور مؤيدي رحلة باراك الغيبية إلى كامب ديفيد. مهما يكن من أمر، فإن مثقفي اليسار الصهيوني العجزة لا يستطيعون النظر نحو الفظائع والقول «نحن ضد ذلك». عندما تحدثوا فرادى، كل شخص في مقاله، أو المقابلة معه، رددوا بالضبط أقوال السلطة، بدون أية اضافة شخصية. وعندما جرؤوا، بالتالي، في السابع عشر من نوفمبر على التوقيع على عريضة قالت العكس مما كتبوه طيلة الوقت، قالوا ذلك سوية، كأنهم ثُلة جبناء. لم يسألهم أحد «ماذا تغير؟»، وواصلت الصحافة مهمتها بقوة الدفع الآلية التلقائية. وعن ذلك هذا المقال. كم تبدو هذه المسألة مختلفة، إذا قارنا الاستهتار الذي تميز به سلوك ثلة الجبناء هذه مع الإعلان الذي بادر البروفيسور داني غور إلى نشره في «هآرتس»، مع سقوط أوائل الشهداء. كم كان جراح القلب هذا جريئاً في سعيه لرفع صوته.

١ - «أحصوا الموتى»...

في حرب لبنان، التي استمرت منذ ١٩٨٢ حتى ١٩٨٥، قتل أكثر من ستمائة إسرائيلي - لم نتوقف عن سماع هذا الرقم في مظاهرات السلام. في غضون الشهرين الأولين على الإنتفاضة الحالية

قتل حتى الآن ما يقارب الثلاثمائة فلسطيني، من بين مجموعة سكانية أقل بكثير من تلك الموجودة في دولة إسرائيل، أي ثلث ما فقدته إسرائيل خلال ثلاث سنوات، إضافة لآلاف الجرحى ومئات المعوقين، وهناك مَنْ يقول الآلاف. كانت الأغلبية الساحقة من القتلى من الأولاد والفتية، لكن مثقفي «اليسار الصهيوني» صمتوا، وبإصرار. كان بمقدور ليئة رابين المريضة أن تدعو باراك من سرير موتها لوقف القتل. بينما لم يكن بمقدور عاموس عوز مثلاً اسماع صوته ولو مرة واحدة. وهكذا، فإن قضايا كان يتوجب نقلها أمام المحكمة الدولية في لاهاي تمرّ مرّ الكرام على جدول الأعمال كأنما المقصود رش المتظاهرين بالمياه الملونة، أو رميهم بالحصى. لا أحد يحصي عدد القتلى الفلسطينيين. اتصلت غلاظة القلب هذه خلال السنوات الأخيرة بالغرور في كل ما يتصل بعملية أوسلو. «انتصرت الصهيونية»، «انتصرت البراغماتية»، و«انتصر الحمائم»: أثبتت النخبة صِدقيتها. بدأ ذلك بالتأكيد من قبل، لكن يضيق المجال عن البحث في القيمة الأخلاقية للشعار «الاحتلال مُفسِد»، أو «المناطق هي ورقة مساومة». وعموماً، منذ اتفاقية أوسلو بُني الشبيه باليسار الحمائمي في إسرائيل، من دون فلسطينيين. «هم هناك ونحن هنا». وحقيقة أن «هناك» محكوما لـ«هنا» طُمست تماماً عبر أكذوبة «نهاية الصراع».

بعد انهيار كامب ديفيد في الصيف الأخير، بث التلفزيون الرسمي الهولندي لقاء بين أ. ب. يهوشع والكاتبة الفلسطينية من رام الله، ليانة بدر، جلب زميلنا ران هكوهن شريط اللقاء من محطة التلفزيون تلك، وأقنع هيئة تحرير أسبوعية «هعير-المدينة» بنشر أجزاء من نص الحديث. نشر الحديث في «هعير» بعد أسبوع من القتل بالقرب من المسجد الأقصى.

بدر مولودة في القدس، لجأت للأردن، ومنه للبنان، ثم إلى تونس، ومنها سُمح لها بالعودة إلى رام الله. قُدّم يهوشع في البرنامج باعتباره «ناشط سلام يكاد يكون ملاحقاً في البلاد ليساريته». بنية الكذب هذه الصادرة عن دعائيي المؤسسة تكرر نفسها، كذلك عاموس عوز، إذ عرّض نفسه كملاحَق في السابق جراء تأييده قيام دولة فلسطينية. حتى بناته لوحقن بسبب مواقف الأب. لم يلاحقهن أحد، بالطبع! ايجاد الملاحقة مربح على ما يبدو جيداً لإثبات أن «الفلسطينيين، حتى مع اليسار غير قادرين على التدبر» فحسب، أي أن هناك إجماعاً قومياً في إسرائيل ضد «الرفض الفلسطيني»، بل هو متصل بالحاجة لشرح «الإنقلاب الداخلي الذي مرّت به إسرائيل»: من كانوا مطارَدين بسبب يساريتهم في «ماضي إسرائيل المظلم»، يعدون اليوم أشخاصاً مركزيين في الثقافة. لا تستهتروا بهذا الوصف البنيوي، فهو يتكرر كثيراً إلى جانب أنماط تغييب مشابهة في الدعاية الحمائمية.[٢].

وهذا ما قالته بدر في التلفزيون الهولندي، شهراً واحداً قبل اندلاع الإنتفاضة: «لا دولة لي، ولا أي احساس بالأمن، ومن حولي يسرقون أرضي كل الوقت ...». وهنا قاطع أ. ب. يهوشع أقوالها قائلاً: «لا تتظاهري كأنكم مساكين أكثر مما أنتم حقاً. لديكم مشاكل، ولكن...». حاولت بدر انهاء الجملة التي بدأتها، لكن مؤلف «ازاء الغابات»، الذي سبق له أن قطع لبطله العربي اللسان في قصته الشهيرة، وبعد ذلك أعطاه لساناً لكي يقتبس.. بياليك (في «العاشق»)، يواصل الكلام بدلاً منها:

«لديكم شرطة، ولديكم منذ الآن ما يشبه الجيش الخاص بكم، عندما أذهب لرام الله أرى رجال

الشرطة الفلسطينيين بالكلاشنيكوفات الخ. ولديكم عرفات، الذي يُستقبَل في العالم كله كما لو كان رئيس حكومة».

لا تسحبوا أكتافكم استخفافاً بغباء المتكلم. حاولوا أن تقرأوا في هذه الأقوال المنطق البنتوستاني، لكي تفهموا ماذا حدث في الجمهور الإسرائيلي حتى الإنتفاضة الأخيرة.

اشتكت بدر من الحظر على دخول القدس (وهي مسألة غُيّبت تماماً في السنوات الأخيرة): «بالنسبة لي فهي نوع من المنفى الجديد، هذه ليست عودة للبيت. أنا ابنة هذه المدينة، فلماذا أنا في المنفى ولماذا يحظر عليّ الدخول بدون تصديق منكم؟ أعتقد أن كل هذا الاختناق، والإحساس بأنك في نفس المكان مرة أخرى، بكل المشاكل والعنف المحيط، يسد الطريق أمام مشاعري ...». حاول يهوشع مقاطعتها عدة مرات، وبالتالي سيطر على الحديث بواسطة المونولوج الذي يحظر نسيانه، ولو بسبب التاريخ فقط، الأول من سبتمبر ٢٠٠٠، قبل اندلاع الإنتفاضة بأقل من شهر.

«أنا الآن غاضب حقاً، أنا الآن غاضب حقاً، لأنكِ لستِ منطقية. وقعت هنا إنتفاضة. وفي كل يوم يُجرح فلسطيني، ويُجرح إسرائيليون أيضاً، والحرب مستمرة كل الوقت. اختفى الارهاب منذ ثلاث - أربع سنوات. كل شيء هادئ، لا مظاهرات، ربما القليل هنا وهناك، ولكنها تقلصت، إذن، لا يمكنك القول إنه نفس الوضع. هناك تحسن ...».

للحظة لم يخطر بباله الإصغاء لها أو الرد عليها. لا حوار له معها. فهو يمثل دولة اسرائيل، يمثل الهوية الجمعية التي ينتمي إليها، ومحط تماثله. إنه لا يستطيع الإصغاء لها، فليس لهذا الغرض هو موجود هناك. فهو ليس وحده. إنه رسول الهجرة في الوكالة بروحه. بعد ذلك قد يجلس لكتابة رواية عن شاعرة فلسطينية ويضع في فمها نصاً سهلاً، شيئاً ما قومياً، يجعلنا نكون «يهوداً»، في مواجهتها بالطبع، ويتحدث عن مصالحة بين القوميتين، ولكن حديثها عن الأرض، والحاجز، والاختناق، لا يمكنه سماعه (عامي أيلون، رئيس «الشاباك» السابق يتحدث عن ذلك، أما أ. ب. يهوشع، في هولندا أو إسرائيل، فلا يستطيع). وها هو يواصل:

«تعرفون أن ما يقارب ١٨٠٠ فلسطيني وحوالي مائتي إسرائيلي قتلوا في سنوات الإنتفاضة. انظروا ما حدث في كوسوفو أو سراييفو أو البلقان، في حرب من ثلاث إلى أربع سنوات، قتل ٤٠٠ ألف شخص هناك. (...) أقول ذلك لأنني أرغب في وضع الأمور في نصابها الصحيح. قوموا بإحصاء الموتى، يجب احصاء الموتى، ذلك هام جداً ..».

بعد ذلك بستة أسابيع، وبيومين على يوم الغفران (كان قد سقط بضع عشرات من القتلى)، ورد في أخبار الصباح في القناة الثانية باقتضاب نبأ زيارة تعزية أدباء عبريين لدى عائلة من الناصرة، فقدت ابنها برصاص القناصة. أظهر المقطع القصير أ. ب. يهوشع يتحدث للأب الثاكل بكلمات التعزية: «الآن دخلتم إلى الوعي الإسرائيلي، لأن الكل ملّ عرفات والفلسطينيين. الآن دخلتم إلى الوعي». قبل ذلك كان قد باع بدر الاحترام الكبير الذي يحظى به عرفات كعزاء عن فقدان أرضها، حريتها. والآن يبيع الأب الثاكل من الناصرة عداء الإسرائيليين لعرفات كعزاء على موت ابنه. لست معنياً بغباء أ. ب. يهوشع ولا بانسداده العاطفي أيضاً، بل بالاستعلاء الكولونيالي الكامن في هذه الجملة. فالمعارك في الناصرة، بموجب رواية يهوشع، لا علاقة لها بالأحداث في المناطق المحتلة. فقد

توجهوا للشوارع للتظاهر هكذا، «بلا سبب»، والآن، بعد أن «ملّ الجميع السلطة في المناطق»، لأننا كلنا مللنا عرفات، كذلك الأب الثاكل، الذي من المؤكد أن شعوره يتحسن لسماعه كلمات العزاء، الآن فقط سنفرغ قليلاً لكم، يا «عربنا».

٢ - مصلحتهم هي مصلحة باراك، وبالعكس

لو قاد هذا القتل الجماعي في صفوف الفلسطينيين «بيبي» أو شارون، لانطوت بلادة اليسار الصهيوني ولاستمعنا لخطاب آخر، قد يكون انفعالياً أحياناً، وربما مليئاً بالأسطورة «المُحكَمة». لا يوجد ما هو أفضل من النموذج الذي قدمته التصريحات المتلاحقة ضد حكومة نتنياهو بعد أحداث «النفق»، في الأسبوع الأخير من سبتمبر ١٩٩٦. على مدار يومين من القتال قتل ١٦ اسرائيلياً وأكثر من ثمانين فلسطينياً. لكن اصبع اتهام «المعسكر المغلق» وجهت فقط ضد نتنياهو، لا ضد عرفات بأي حال من الأحوال، لم نسمع كلمة واحدة عن عرفات، فقد كان المحرض «بيبي». وهل هناك ما هو أفضل من افتتاحية «هآرتس»:

«جاء الانفجار الفلسطيني العنيف رداً على فتح نفق الحشمونئيم في الحي الإسلامي في القدس، لكنه يعكس خيبة أمل جوهرية من عملية السلام. الإغلاق، البطالة، الفقر، البنى التحتية المتداعية، والتدخل المتواصل بحياة السكان، لم تعد مجرد معاناة من يمضي نحو مستقبل أفضل، بل وضعاً لا مخرج منه» («هآرتس»، ٢٧/٩/٩٦).

أين اختبأ «فهم» كهذا بعد إطلاق النار الجماعي على متظاهرين كانوا خرجوا للتو من المسجد الأقصى، عشية رأس السنة، بعد أن تلقى أرئيل شارون اذناً بالتوجه إلى هناك، بعد أن حاول عرفات لدى باراك في «كوخاف يئير» آلا يسمح لبطل صبرا وشاتيلا بالتوجه إلى هناك؟ لم يكن هناك أي «فهم» من هذا القبيل. كان هذا الفهم في أيام نتنياهو كما في أيامنا هذه، نافعاً تماماً، وهو منتشر في ما لا حصر له من أشكال البكاء والاحتجاج على غرار «نتنياهو يهدم الدولة»، التي كانت تعني على الدوام: «يا رب للسلطة اخترتنا، نحن الجماعة الأفضل من «اليسار الصهيوني»...». ويفترض هؤلاء الأشخاص الطيبون، بشكل عام، حتى لو لم يكونوا عنصريين واعين عنصريتهم، وجود تناقض مركزي واحد في سياستنا، بين «الليكود» و «العمل»، أي بين السلام والحرب، أي بين الخير والشر، وهو تناقض يجب على الفلسطينيين أيضاً «ادراكه»، والموافقة عليه وحتى مساعدة «الخير على الانتصار» على الشر، أي تمكين «السلام» من التغلب على «الحرب»، أي مساعدة اهود باراك في التغلب على أرئيل شارون، لأن كل شيء ينحصر فقط في التناقض بين باراك و«بيبي» (= شارون).

ولو رغبنا بالمخاطرة بلغة افتراضية أكثر: اجمال التناقضات «التي بداخلنا» هو المطلق الوحيد، وكل ما تبقى تافه، من هنا لا بد للتناقض المركزي «في حياتنا» من أن يكون تناقضاً مركزياً في حياتهم أيضاً. وتنحية الفلسطينيين عن التناقض المركزي بين مصالحهم وبين الاحتلال الإسرائيلي، وتحييدهم عن التناقض بين الاحتلال وبين حياتهم تحت الاحتلال، أي تنحيتهم عن جدول الأعمال بواسطة «جدول الأعمال الواقعي»، أو شيء ما من نوع «اتفاق بيلين - أبو مازن» باعتباره نهاية المطاف في المفاوضات،

كلها جزء من عملية طويلة بلغت أوجها في اتفاقية أوسلو، وتواصلت بتحويل « ميرتس » إلى حزب « معاد للدين »، أو « طائفي ـ اشكنازي »، وبعد ذلك باختفاء « السلام الآن » ونهايتها في « واجب اليسار » وحتى « واجب الفلسطينيين » مساعدة ايهود باراك لكي ينتخب مجدداً لرئاسة الحكومة، بعد القتل الجماعي الذي أشرف عليه.

أي تبريرات يستخدمها مثقفو اليسار الصهيوني لإلزام الفلسطينيين بابتلاع هذا التناقض الجزئي، المختصر، الكامن في « باراك أو بيبي »؟ باسم الواقعية، بالطبع، الـ « الواقعية السياسية ». من بحاجة لدفع ثمن باهظ لقاء الواقعية السياسية؟ هم. من لا يجب عليه أن يدفع البتة لقاءها؟ « نحن ». تحت هذا العهر الكلامي تستتر العنصرية.

عشية سفر باراك استعداداً لخطأه الغيبي في كامب ديفيد، أبلغ البروفيسور مناحم برينكر اليسار الإسرائيلي عبر صفحات « هآرتس » :

« جاء باراك إلى كامب ديفيد مع برنامج سياسي بعيد المدى. لم يسبق لأي قائد إسرائيلي في الماضي أن عرض خطة كهذه على الفلسطينيين. لا يوجد لدى اليسار أي سبب لتوجيه النقد لخطوطه الحمراء» (« هآرتس »، « أخلاق البراغماتية »، ١٧ /٧/ ٢٠٠٠).

بكلمات أخرى، لا يوجد لدى اليسار أي سبب لتوجيه النقد لأنه مستعد لإعطاء الكثير. حسنة تنقذ من الموت. برينكر لا يكتفي بهذا القليل :

« أنا معني بسلام في أرض الواقع، وليس على الورق، لذلك، فإنني ملزم بأن أفهم أن هناك أسباباً موضوعية تفرض على باراك حدود تنازلاته ».

كل من يعرف خريطة مقترحات باراك، يعرف أن برينكر كاذب، وأن جميع من باعوا قائمة المشتريات بالنسب المئوية، ٩٠٪ من الضفة الغربية وغير ذلك من الترهات، كذابون. ومن تعلم إحصاء الفلسطينيين سنين طويلة باعتبارهم « تهديداً ديموغرافياً »، أي : كم من الفلسطينيين سيكونون « بيننا »، تعلَّمَ كيف يحصي أيضاً أرضهم بالنسب المئوية، لا كأبناء البلاد. تذكرون « أكبر قدر ممكن من الأرض، وأقل قدر ممكن من الفلسطينيين »؟ ها هو إذن تفسير كذبة النسب المئوية المكشوفة. سيضطر المؤرخون لأن يسألوا ذات يوم إذا لم يكن باراك راغباً بتفجير كامب ديفيد، أم أن ما حدث كان مجرد احباط سياسي. ولكن، ما الذي دفع أشخاصاً مركزيين في حياتهم اليومية، بهذه الطريقة أو تلك، في مجالات عملهم على الأقل، للتطوع وتسليم السلطات المفاتيح القليلة التي بقيت للمعارضة اليسارية ـ هذه المسألة لن يعالجها حتى المؤرخون، مع ذلك يجدر التوقف عند ذلك. يعرف برينكر، باعتباره أستاذاً للفلسفة، أن استخدام التعبير « ظروف موضوعية » قد يخفي وراءه استعراض القوة الوحشي، في القسمة بين « الموضوعي » و « الانتقائي » وفي الطريقة التي يؤدي ذلك بواسطتها.

ما قاله برينكر باستعراض قوة يكاد يكون فلسفياً هو أن الظروف الموضوعية (التاريخ) هي ظروف انتقائية (مشاكل ائتلافية) لدى الجانب القوي (اسرائيل والولايات المتحدة بجانبها) ومن يقرر ما هو الموضوعي هو الجانب القوي، الذي يقدم برينكر لقوته « القليل من التاريخ »، أي « الواقع الموضوعي ». جاء أبناء اللاجئين وغيروا لنا « الواقع الموضوعي » (ولذلك فهو بالتأكيد صامت منذ تموز).

كذلك البروفسور افيشاي مرغليت، حبيب الـ« نيويورك ريفيو أوف بوكس» في كل ما يتعلق بإسرائيل، دفع بذكاء خطوة باراك البهلوانية، هو الآخر تحدث في هذه المقابلة في «هآرتس»، عشية كامب ديفيد، وهو كذلك، مثل برينكر، سمع النقد الموجه لباراك ورفضه، كلاهما استمع إلى ما قالاه في أكثر من موقع عن عوامل التهوّر المغامرة :

« أقوال باراك عن خطوط حمراء لا تهمني حقاً. هذه بلاغة كلامية، ترهات لن تكون ملزمة له فعلاً. تحت هذه الخطوط الحمراء يمكنه أن يدخل إلى الاتفاقية كل ما يرغب بإدخاله (...) يمكن ابقاء ٧٥ حتى ٨٠٪ من المستوطنين في اسرائيل على ستة ونصف بالمائة من مساحة الضفة، ويمكن ابقاؤهم حتى على خمسين بالمائة من مساحة الضفة. (« هآرتس»، ١٧ / ٧ / ٢٠٠٠).

لماذا يصدّق باراك؟ هكذا، إنه ببساطة يصدّق باراك. على أي أساس؟ على أساس « مصادر عليمة بالأمور » [٣]. في أي حال، وفي سبتمبر، الشهر الذي كان القتل فيه قد بلغ أوجه، نشر في « نيويورك ريفيو أوف بوكس » مقال لأفيشاي مرغليت، « الشخص المهم » على مدار سنوات طويلة في « السلام الآن » . بموجب مضمونه ورقّته، يبدو أن المقال مكتوب مباشرة بعد انهيار مؤتمر كامب ديفيد، وقبل الحرب :

« الصراع الممتد منذ مائة عام، كما يصفه ايهود باراك، تقلص في كامب ديفيد بحجم نُواته. ووفقاً لمصادر عليمة بالأمور، فإن النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود. وهي لا تمس مشاكل الأمن أو المياه. إنها القدس» (مجلة نيويورك لمراجعة الكتب ٢١ / ٩ / ٢٠٠٠).

« النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود »، هكذا يكتب الفيلسوف، بهذه الكلمات : « النواة لا تخص اللاجئين الفلسطينيين ولا المستوطنين اليهود » .

عندما ارتفع عدد القتلى بصورة ملحوظة، وبعد أن قتل ١٣ مواطناً عربياً من دولة إسرائيل، نشر ملحق « هآرتس» تقريراً حاول أن يبني فيه صورة « يسار حائر » . قبل أن نعود إلى ذلك التقرير، الذي لم يقابل أحداً من مئات الناشطين الذين كانوا قد بدأوا العمل ميدانياً، وشاركوا في المظاهرات واللقاءات، يجدر أن نتذكر أ. ب. يهوشع في هذا السياق، خلافاً لآخرين مقتبسين هنا، فإن يهوشع صاحب قلم ثقيل، بقدر ما يبدو الأمر غريباً بالنسبة لأديب. من جهة أخرى، إنه يحب أن يقابلوه. ومن حين لآخر كان يحاول بيع الفلسطينيين النصائح والعظات عبر الراديو، في أيام الدماء التي سفكها الجيش الإسرائيلي. لا أعرف من هم الأشخاص الذين استضافوه في رام الله، عندما قام بزيارتها، كما يقول، لكن من الواضح أن هذه الضيافة تمت على خلفية ما فعله الفلسطينيون باليسار الإسرائيلي الحقيقي بعد اتفاقيات أوسلو، مفضلين عليه « الوجهاء الإسرائيليين »، وبكلمة واحدة : خانونا. المهم أن يهوشع قال في ذلك التقرير من « هآرتس » عكس ما قيل للبيانة بدر:

« صحيح. رد فعل اليسار الإسرائيلي وخيبته مفهومة. جلسنا مع عرفات، وكان عرض باراك سخياً، لكنه تجاوز كل الأصول بدافع من الاعتقاد بأنه بالعنف والضغط الدولي فقط يمكنه احراز انجازات كبيرة. هذه هي خيبة الأمل وهو يرتكب خطأً كبيراً لأن من وقف أمامه هو باراك لا شارون أو نتنياهو، مع اجماع قومي عريض للانتهاء من الأمر » (« حيرة اليسار » ، ملحق « هآرتس »، ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠).

وكالعادة، وعلى هذا المستوى من العبادة الغيبية، لم يكن هناك من هو أشد حماساً من عاموس عوز في قول أنصاف الحقائق. أحياناً بدا أن وجوده كشخصية إعلامية متعلق برمته بالقدرة على نفخ البالون الإسرائيلي، بالانكليزية، في خارج البلاد. أرجو أن تنتبهوا لعبادة الشخصية لدى «المثقف».
هذه هي أيام «نجاح» ايهود باراك، قبل كامب ديفيد :

«هناك شبه مذهل بين هذه الأيام واللحظات الحاسمة لولادة الأمة الإسرائيلية : نوفمبر ١٩٤٧ (...) وأيار ١٩٤٨ (...) وقف ايهود باراك أمام تحدٍّ بمقاسات بن غوريونية؛ إنه يبدو كمن يخرج لملاقاة التحدي بشجاعة بن غوريون.» (عاموس عوز، «الجراح الرئيسي ملزم بوقف سفك الدماء»، «غارديان»، ١١/٧/٢٠٠٠).

وبعد أن يمط الى حد لا معقول المقارنة بين بن غوريون ومعارضيه داخل الحركة الصهيونية ـ مرة في أوساط المعسكر اليميني المتطرف عشية قرار الأمم المتحدة، وبعد ذلك من جانب بعض المحسوبين على المعسكر المعتدل عشية الإعلان عن إقامة الدولة ـ يصل عوز ذروة اللامبالاة في طفرة شعورية عاجزة عن فهم الكارثة المقتربة:

«يبدو أن ايهود باراك ورفاقه ملزمون الآن بالصراع ضد نموذجي المعارضة هذين في وقت واحد : واحدة صقرية على غرار ١٩٤٧ وأخرى جبانة من نوع ١٩٤٨. لو حكمنا بموجب سلوك السيد باراك، فإن لديه الشجاعة لمجابهة النموذجين. مهما يكن من أمر، فالسؤال لا يخص شجاعته الشخصية والسياسية فحسب، بل ما إذا كان الحمائم في إسرائيل يملكون ما يكفي من طاقة لدعمه، بينما بعض الشركاء الأشد صقرية، أو الأكثر تسلطاً، ينشقون» (نفس المصدر).

مرة أخرى، فالمشكلة ليست في الزعيم بل في «اليسار»، أي الحمائم التي لا تجرؤ وتكاد تكون جبانة، من نوع «معارضي بن غوريون من الداخل». مرة أخرى يُكنَس جانباً النقد الموجه لاجراءات باراك المغامرة، كأنه لم يكن، ولم يتردد، ولم يكن مناسباً :

«علينا أن نخرج الآن، وأن نظهر للداخل وللعالم أن ملايين الإسرائيليين يغمرون رئيس حكومتهم بالدفء وتمنيات النجاح» (ن. م).

من يكتب لهم هذه النصوص ؟ كيف أن نفس الكلمات تتردد في مظاهرة أمام بيت رئيس الحكومة في القدس، وفي أقوال رؤساء «السلام الآن» وفي كتابات أديب «منعزل في النقب»؟.

«امضِ إلى كامب ديفيد ايهود باراك، امضِ بشجاعة وحذر وحكمة ورؤيا وتفهم للآخرين، وبحسك الحاد بالواقع. امضِ إلى كامب ديفيد كما الجراح الذي يخطو بثبات نحو حلبة الجراحة؛ الحلبة التي فوقها سيُحسم مستقبل إسرائيل ومستقبل فلسطين». (ن. م).

هذه مقالة سطحية لم تكن «الغارديان» لتنشرها لو أنها خصت الحلبة البريطانية. هذه الكلمات الجوفاء، لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى المشاكل التي يقف أمامها باراك. هذا المقال المحلق، الذي يبدو كخطاب في الساحات العامة، لا يتضمن كلمة واحدة عن المياه والمستوطنات والعراقيل الأكيدة والمحاولة الإسرائيلية في فرض تسوية شاملة بدون التنازل عن المستوطنات في أهم مناطق الضفة (منطقتي بيت لحم ورام الله)، ولا يشير للقدس التي لا تدخل ضمن احصاءات النسب التي «يعطيها

باراك للفلسطينيين» من ضفتهم، انها القدس التي تكبر باضطراد وتصل تقريباً حتى البحر الميت، كلمة واحدة عن هذا كله لم يحملها «ناشط السلام الإسرائيلي»، ممثلنا في بريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا.

بعد ذلك بأسبوعين، ولم تكن الحرب قد اندلعت، كان عوز ملزماً بأن يبيع قراء «الغارديان» نوعاً من التحليل السياسي (مرات تساءلت إذا لم يكن هذا الإذن بارتكاب البلاهة والنشر في «الغارديان» متصلاً بالاستخفاف الإنجليزي العميق بالانتلجنسيا الإسرائيلية: «ماذا تريدون؟ هكذا هو عقلهم»، كان محرر الصحيفة يقول لقرائه الانجليز). هكذا كتب عوز في ٢٥/٧ عندما تبين أن المقال المنشور ١٤ يوماً قبل ذلك كانت له قيمة فقط لدى آكلي السمك والشيبس في مطر لندن:

«ايهود باراك قطع شوطاً طويلاً نحو الفلسطينيين، حتى قبل قمة كامب ديفيد، أبعد بكثير مما قد يقطعه أي زعيم إسرائيلي آخر.

في طريقه إلى كامب ديفيد، كان موقف باراك المعلن حمائمياً للغاية، إلى حد أنه فقد غالبيته البرلمانية، الإئتلاف، بل فقد قسماً من جمهور ناخبيه.

على رغم ذلك، وبينما هو يستعد للطيران، ووراءه جسمه وذنبه، واصل باراك مثل قمرة ربان محلقة، المهم أنه استمر. يبدو أن ياسر عرفات لم يقطع شوطاً طويلاً ووحيداً كهذا نحو الإسرائيليين. لعله لم يكن قادراً، أو أن الحماس المخلص لصنع السلام كان غائباً لديه. (عاموس عوز، «حتى لو فشل كامب ديفيد، فإن هذا النزاع يقف على ساقيه الخلفيين»، غارديان، ٢٥/٧/٢٠٠٠).

افتقد عرفات إلى «الحماس المخلص لصنع السلام». انتبهوا إلى غياب الاهتمام التام بالمشاكل الحقيقية التي كانت تغلي في تلك الأيام تحت الأرض وفوقها. بالنسبة للدعائي الإسرائيلي، فقد كان عرفات ببساطة أقل حماساً من باراك. وإذا سلبت مياههم، ألن يعطشوا؟ وإذا صودرت أراضيهم، ألن يجوعوا؟ وإذا أغلقوا في قراهم ومدنهم، ألن يختنقوا؟ وإذا ضويقوا في الطريق إلى عملهم اليومي في ثلاثة إلى أربعة حواجز كل يوم، ألن يرغبوا بالقتل؟ لكن المقال مكتوب كما أسلفنا للغارديان، وما طلب من عوز كان شيئاً خفيفاً، ليس انفعالياً أكثر مما يجب، وليس معادياً للعرب أكثر من اللازم. قراؤنا أيها القومومي العزيز ليبراليون مهذبون.

٣ - ألوان الحرب ، ملوّنوها وضباعها

لم تتوقف مسيرة بث الأوهام بشأن سخاء باراك عند المقابلة المنشورة عشية سفره إلى كامب ديفيد، أو المقالين في «الغارديان»، بعد أن تكشفت الرحلة عن مغامرة. تواصلت المسيرة في كل حلبة أمكن فيها بيع الحرب القادمة. ليس مهماً إذا ما كان عاموس عوز عرف أو لم يعرف بوجود مخططات احتياطية للجيش لقمع انتفاضة جديدة. من كان راغباً، عرف بهذه المخططات. فقد ألمح إليها في ما لا حصر له من الأحاديث والتوجيهات الصحفية، حتى في الراديو والتلفزيون. تحدثوا عن دبابات. تحدثوا عن صواريخ. تحدثوا عن مستوى منخفض من الخسائر.

من نيويورك، أرسل دان ميرون، شيخ الدراسات الأدبية العبرية، مباشرة لـ«يديعوت احرونوت»،

نفس الصيغة عن سخاء باراك، الذي لم ينوجد له أي اثبات، عميقاً في داخل الحرب :

«في الصراع الحالي فإن إسرائيل محقّة أكثر مما كانت في جميع صراعاتها من يوم خروجها إلى حرب الأيام الستة، وربما كذلك منذ حرب الاستقلال في ١٩٤٨ . إسرائيل لا تحارب على التمسك بالمناطق المحتلة ولا حتى على وجود المستوطنات والأحلام عن إسرائيل الكبرى، التي انقطعت عنها غالبية الجمهور الإسرائيلي. كل ما طالبت إسرائيل به هو أن يتم اخلاء المناطق بغالبيتها الساحقة وتسليمها للسلطة الفلسطينية، لكي تقيم عليها دولة مستقلة، في اطار اتفاق ومصالحة شاملة، يتم التعبير فيهما عن بعض متطلباتها الحيوية («علامَ الصراع»، «يديعوت احرونوت»، ٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٠).

تجند دان ميرون للدعاية عندما كان وضع إسرائيل، كما بدا له من نيويورك، في أسوأ حال في «الإعلام العالمي». مهم أن نتنبه إلى أنه بتدهور الحرب إلى حضيض لم يكن له مثيل منذ سنوات، ظل الحديث يدور عن «سخاء إسرائيلي». وهنا تتملكنا رغبة قوية في سؤال الدعائي من نيويورك صن «المتطلبات الحيوية لإسرائيل»؟ غوش عصيون؟ كريات أربع؟ الحي اليهودي في الخليل؟ بساغوت؟ جيلو؟ غوش قطيف؟ نتسريم؟ كفاردروم؟ الشوارع الالتفافية؟ شارع الأنفاق؟ السيطرة على مياه الضفة الغربية؟ ما هو مهم قوله الآن هو أنه عندما قوضت الحرب «التوقعات» بإنهاء النزاع، احتاج كل واحد من الدعائيين إلى مستوى أعلى من ألوان الحرب على سحنته.

أما عاموس عوز، وفي مقال في «الغارديان» من الثالث عشر في أكتوبر-وهو اليوم الذي أمكن فيه استخلاص الحد الأقصى من عملية مقتل جنديين اسرائيليين على يد فلسطينيين غاضبين في رام الله (وهو يفعل ذلك، فهي فرصته : لم يفاجئه «اللينش»، كما جاء في مقاله، ولماذا لم يفاجأ؟ لأنه سمع المثقفين الفلسطينيين في الراديو والتلفزيون التابعين لهم، كما حكى عوز لقراء «غارديان»، فجأة أمكنه سماع «صوتهم») - فكتب هكذا :

«ايهود باراك (...) عرض في كامب ديفيد اعطاء الفلسطينيين أكثر من تسعين بالمائة من الضفة الغربية والاعتراف بدولة فلسطينية مع شرق القدس عاصمة لها. حتى أنه وافق، بأسنان مصطكة (هكذا) أن تنتقل الأماكن المقدسة في القدس المختلف عليها إلى وصاية إسلامية». (غارديان، ١٣ / ١٠ / ٢٠٠٠).

لنعد للحظة للوراء : مباشرة بعد انهيار المحادثات في كامب ديفيد حرص عوز على نشر مقال متلون وشرير وحتى عنصري، في «نيويورك تايمز». كان ذلك هو الإعداد للحرب. لاءم عنوان المقال عالم عوز الأدبي : «شبح صلاح الدين» (٢٨ / ٧ / ٢٠٠٠). يجدر التنبه للفوارق الأسلوبية بين المقال الذي كتبه لـ«غارديان» ثلاثة أيام قبل ذلك (٢٥ / ٧)، على نفس الخلفية. مهم أن نتنبه كم كان البُعد الدعائي محسوباً :

«اجلس أمام التلفزيون في الصالون، وأرى ياسر عرفات يحظى باستقبال الأبطال في غزة، وكل ذلك لأنه قال لا للسلام مع إسرائيل» (نيويورك تايمز ٢٨ / ٧ / ٢٠٠٠).

لم ترتجف يده جراء هذه الجملة. ولن ترتجف في المستقبل كذلك.

«قطاع غزة كله مغطى بالأعلام والشعارات التي تعلن قدوم «صلاح الدين الفلسطيني». «أهلاً وسهلاً بصلاح الدين الجديد»، كتبوا على الجدران (...) تهاوى قلبي بين ضلوعي.» (ن. م).

هكذا إذن، بعد وصف دقيق لعودة «الحربجي»، تنتقل الميلودراما إلى عاموس عوز نفسه، فقلبه ينكسر في الصالون، أمام قطاع غزة المغطى باللافتات (هل شاهد أم لم يشاهد غوش قطيف، نتسريم وكفار دروم، ومخيمات اللاجئين؟) :

«منذ العام ١٩٦٧ وأنا واحد من أولئك الإسرائيليين القلائل الذين أثاروا حل دولتين جارتين مع القدس كعاصمة لهما، واعتراف متبادل وقبول متبادل. منذ ذلك الحين، ولسنوات طويلة، تعاملوا معي كخائن، في صفوف شعبي. تحمل أولادي في المدرسة مختلف أنواع الإهانات، واتهموا بكونهم أبناء من هو مستعد لبيع وطنه». (ن. م).

حقاً، كانت معاناته كبيرة. طفل المؤسسة الإسرائيلية المدلل يبيع الأمريكان كونه شخصاً مطارداً. لكن ما حدث الآن، أن الميلودراما انتقلت من الضحية السلبية لبعض من الوقت (عاموس عوز) إلى البطل الناشط، المخلّص : «وبعد كل هذه السنوات الصعاب ذهب رئيس الحكومة ايهود باراك إلى كامب ديفيد ليعرض الحل الذي تنبأت به قبل أكثر من ثلاثين عاماً». (ن. م)

(وحقاً، لم تكن الضحية سلبية تماماً، فهو أيضاً يتكشف عن مستشار لا بأس به لشؤون السلام، وأولاده فقط كانوا ضحايا حقيقيين؛ آه، أيها الأب الكبير). وفي كل الأحوال، لا بد من العودة الآن إلى الأيام التي سبقت ثورة المعلومات الكبرى التي غيرت ملامح إسرائيل كلية وحولتها من دولة ملاحِقة للفلسطينيين إلى دولة ملاحقة للسلام :

«أتوقف لكي أفكر. أتذكر كيف كفت في تلك الأيام خلية هاتف عمومي لاحتواء المؤتمر القطري لناشطي السلام الإسرائيليين. أمكننا عدّ أنفسنا بأصابع أيدينا حقاً، أقلية صغيرة داخل أقليات. اليوم تغير كل شيء. أكثر من نصف الأمة معنا» (ن. م)

٤- ماذا يريد الفلسطينيون ؟

لو لم يكن «كيتش» عوز جزءاً من مأساتنا، لأمكن أن نضحك. لكن المسألة أعمق من ذلك، بسبب دوره السياسي. في سياق هذه الحرب، كان طبالاً مهماً. عندما غادر ايهود باراك إلى كامب ديفيد لم يحاول الشخص التفكير مرتين. فدوره ليس دور المثقف الذي يقف جانباً، بل حالاً، وبدون تفكير كثير، وبدافع من الشعور بالشراكة، وبتضامن تام. بإمكانه هنا أيضاً أن يكون «رجل سلام»، وكذلك إلى جانب السلطة وأيضاً أن يقوم بلجم أعداء السلطة «والسلام». كان العنوان على الجدار، بل إنهم تحدثوا عنه داخل حزب العمل (بيريس)، لكن عوز، مثل مثقفي اليسار الصهيوني الآخرين، لا وقت لديهم للنقد. إنهم يريدون المشاركة في «المشروع الصهيوني».

أما أ. ب. يهوشع، الذي لم يدع ليانة بدر تتكلم، تماماً بنفس الطريق التي قطع بها لبطله العربي اللسان في «إزاء الغابات»، ووعدها أن وضعها جيد، لأن لديها شبه رئيس حكومة، فقد «اعترف» بخطأه، عندما اندلعت الانتفاضة. ماذا يعني أن يخطئ؟.

« أعترف أنني لم أفهم ما يريده عرفات. لكن الشعب اليوغسلافي أيضاً سار وراء ميلوسوفتش وحارب لجانبه، وها هو الآن لم يعد موجوداً » (« حيرة اليسار »، ملحق « هآرتس »، ٢٠ / ١٠ / ٢٠٠٠).

بالمناسبة، ميلوسوفتش متهم بالمسؤولية عن « تطهير عرقي ». من تتم مقارنته هنا بمنفذي « التطهير العرقي »؟ الفلسطينيون بالطبع. أي، أنه أخطأ. والآن، فهو يصحح نفسه.

من هذه الناحية، فإن المقابلة مع أفيشاي مرغليت ومناحم برينكر مثيرة أكثر. إنهما لم يذهبا لإعطاء حديث صحفي فقط لمجرد أن المراسل، الذي هو بنفسه ناشط سابق في « اليسار الصهيوني »، عرض عليهما إجراء مقابلة. لقد اختارا هذه الحلبة، لتسديد الضربة لـ« السلام الآن ». لذلك، تم عرضهما في « هآرتس »، عشية سفر باراك إلى كامب ديفيد، وبإسهاب، كمؤسسي « السلام الآن ».

في الشهور التي سبقت كامب ديفيد اتخذ باراك له هدفاً مركزياً (بل تباهى أكثر من مرة بتحقيق هذا الهدف): تجنيد معارضة شاملة في الغرب لإعلان الفلسطينيين من جانب واحد عن إقامة دولة مستقلة. بعدها تباهى بحقيقة فرض مؤتمر كامب ديفيد على عرفات (ستظل تُذكر لسنين طويلة في الفولكلور الفلسطيني تلك الصورة التي ينجح فيها باراك بدفع عرفات إلى داخل بناية مغلقة، بنوع من المزاح، وأمام الكاميرات). في الإعلام الإسرائيلي، المكان الذي يتحكم فيه « المفهوم ضمناً »، والمستخلص فيه يومياً، « مفهوم ضمناً » إنه إذا كان باراك راغباً بمؤتمر قمة ونجح بفرضه على عرفات، فذلك لنجاح، توجب أن نتوقع من مثقفين يبحثون في قضايا الاحتلال هذا العدد الكبير من السنوات أن يتخذوا لأنفسهم موقف الشك. فالأمور تتم بدونهم أيضاً، بدون صوتهم. مقابل ذلك فإن موقفاً نقدياً أمكنه أن يمنح المعارضة المتقلصة من يوم لآخر قوة معينة، هذه المعارضة التي أدركت أن المؤتمر سيؤدي إلى انفجار، لأن باراك لا يملك القدرة لفرض مواقفه على الفلسطينيين.

من خلال الجدل مع اليسار الداعم للفلسطينيين (الجبهة، غوش شالوم، عزمي بشارة وناطقون آخرون عرب في إسرائيل، وقلة في داخل « السلام الآن ») أطلّت في هذه المقابلة مع « الفيلسوفين » خيانتهما للحركة، هذه الخيانة التي ستسمى بعد شهرين من ذلك، وفي قلب المذبحة، « حيرة اليسار ». هو ذا أفيشاي مرغليت، في البحث عن شرعية لفرض تسوية على الفلسطينيين:

« يمكن أن نبقي في إسرائيل ٧٥ – ٨٠ من المستوطنين فوق ستة ونصف بالمائة من مساحة الضفة، ويمكن ابقاؤهم على ٥٠ بالمائة من مساحة الضفة. (...)

السؤال الوحيد المثير لاهتمامي هل باراك يعرض هناك مواقف تطابق اتفاق بيلين - أبو مازن. إذا كان الأمر كذلك - « كله تمام ». إذا عرض فجاة مواقف أكثر شبهاً بخطة ألون - فسيكون مسؤولاً عن فشل القمة. نفس الشيء بالنسبة لعرفات. إذا وافق على ما وافق عليه أبو مازن - « كله تمام ». إذا طلب أكثر من ذلك بكثير - سأحمله مسؤولية الفشل » (« هآرتس »، ١٧ / ٧ / ٢٠٠٠).

لا أحد يعرف شيئاً واضحاً عن إتفاق بيلين - أبو مازن. وحقيقة وجود اتفاق لم تحظ بأي تصديق في أي مكان. حتى حقيقة وجوده خاضعة حالياً للشك. لكن أفيشاي مرغليت يطالب عرفات بقبول الاتفاق كأساس للمصالحة: ليست قسمة البلاد بين الشعبين، بل تقسيم المناطق المحتلة منذ ١٩٦٧ بين الشعبين. هذا هو الحل الوسط الإقليمي الذي تحدث عنه حزب العمل. لهذا كان لا بد

لأستاذ فلسفة اللغة من تضييع لياليه في نشاط لأجل السلام وأيامه على مسطحات العشب الأخضر في الحرم الجامعي. أمكنه حالاً الذهاب إلى الانتخابات التمهيدية في حزب العمل. لماذا يولي أهمية لتأكيد اتفاق ١٩٩٥ ؟ لماذا يولي أهمية للقول في هذه المقابلة أنه يجب العودة لاتفاق بيلين ـ أبو مازن؟ .

« الأمر متعلق هنا بشخصين ليسا هامشيين بالمرة في مجتمعيهما، وهما لم يجتمعا في داخل الحصار، وتوصلا لاتفاق. اتفاق يكون مشابهاً، بهذه الصورة أو تلك، لاتفاق بيلين أبو مازن، لن يكون اتفاقاً مفروضاً بأي حال من الأحوال » (ن . م) .

يبرز هنا البحث عن الشرعية، من خلال « مراعاة الصوت الفلسطيني » . هل هناك حاجة لأن نذكر في هذا السياق أن البروفسور يولي تمير فيلسوفة أيضاً، وناطقة بلسان وفد باراك أيام كامب ديفيد، والناطقة بلسان الحكومة أيام المذبحة، وهي أيضاً صاحبة مؤلفات في التعددية الثقافية، ومن دافعت حتى عن حق الأقليات بختان نسائها؟ نعم، هناك حاجة . أبرز تلميذين في إسرائيل للسير يشعياهو برلين لامَسا لُبَّ المسألة، وكلاهما، في اللحظة الحاسمة، اختارا جانب القوة، وأيدا انكار حق الفلسطيني بإسماع صوته . « الأمر متعلق هنا بشخصين ليسا هامشيين بالمرة في مجتمعيهما »، يشرح مرغليت أساس الشرعية . اذهب وقل ذلك للأشخاص الهامشيين في المجتمع الفلسطيني، للفتية من مخيمات اللاجئين، لأشكال البط في المرمى العسكري، إن مرغليت تخلى عنهم، باسم الإصغاء لـ « شخصين ليسا هامشيين بالمرة في مجتمعيهما، لم يجتمعا في داخل الحصار » .

أعطيت هذه المقابلة في الأساس للغمز في قناة « السلام الآن »، التي انشغلت في السنوات الأخيرة فقط في تتبع توسيع المستوطنات . يختبئ مرغليت خلف صيغة أبو مازن ـ بيلين، لكي يتحدث عن « ابقاء غالبية المستوطنين في أماكنهم » . برينكر يخز بقوة أكبر . لم يعد لديه المزيد من الوقت للاشتغال بالصراع اليومي المرير ضد المستوطنات، هذا هو الشيء الوحيد الذي قامت به هذه الحركة الغنية الموارد والفقيرة بالناشطين في السنوات الأخيرة . وهكذا جاء في التقرير :

« الخطوط الحمراء التي عرضها باراك قبل مغادرته إسرائيل مقبولة لدى برينكر بكاملها . ضم كتل استيطانية، يقطن فيها معظم المستوطنين الموجودين اليوم في الضفة الغربية، لا يناقض برأيه تطلعات الحد الأدنى للفلسطينيين ولا يمس باحتمالات إقامة دولة فلسطينية مستقرة . بل إن برينكر مستعد للابتعاد كثيراً والقول إن رأيه هذا مقبول على الفلسطينيين أيضاً » . « لو فكروا بيميت »، يقول « لما ذهبوا إلى أوسلو من الأساس . كل فلسطيني قدم لأوسلو أدرك أن سابقة يميت لن تكرر نفسها في الضفة الغربية » . (نفس المصدر) .

كم هي شبيهة هذه الصياغة بما قاله مرغليت بخصوص اتفاق أبو مازن ـ بيلين. مرغليت بحاجة لشائعة عن صيغة، لكي يرسخ ادعاء ما بخصوص الشرعية، لكي يجادل في ما سيحدث بعد فشل القمة (ومن الواضح لكليهما أن الفشل متربص بالباب، وهو ما أوحت به كل كلمة في المقابلة) . برينكر ليس بحاجة بالمرة للأساس « القانوني » لدى الفيلسوف التحليلي . فهو ظواهري، وحتى أنه تعلم هايدجر في الآونة الأخيرة . لذلك يحق له الاشتغال بالتكهنات . من الصيغتين، « القانونية »

والافتراضية، تتصاعد نفس الرائحة الكولونيالية : «نحن نعرف ماذا يريدون». يواصل المراسل النشيط اقتباس برينكر : «دائماً اعتبرنا المستوطنات عقبة أمام السلام، وعليها ركزنا باستمرار انتقاداتنا»، يضيف في غمز نحو زملائه في السلام الآن، الذين ركزوا خلافاً لرأيه جل اهتمامهم في السنوات الأخيرة في المستوطنات ـ «الآن يتضح أن الفلسطينيين يتعاملون مع المستوطنات بشكل مختلف تماماً. إنهم لا يرون بها عقبة للسلام ولا يطالبون باخلاء جميع المستوطنات» (ن. م).

إلى هذا الحد. لا توثيق لديه، بل له تصورات من «لديه تماسك في الشخصية»، وذلك يكفيه. بواسطة هذه الأداة ـ «تماسك الشخصية» ـ يمكنه أن يسدد نحو «السلام الآن». ويواصل المراسل المؤيد :

«في الأسبوع الماضي تذكر برينكر فجأة لقاءً اسرائيلياً ـ فلسطينياً جرى قبل عشرين عاماً في جامعة هارفارد في الولايات المتحدة. كان في الوفد الإسرائيلي إلى جانب برينكر كل من اريه لوبا الياف وماتي بيلد، وكان ضمن الجانب الفلسطيني الأساتذة ادوارد سعيد ووليد خالدي». (ن. م).

انظروا إلى عجائب الوعي الوجودي، ففي السنين التي عارض خلالها برينكر، البروفسور في الجامعة العبرية، وفي جامعة شيكاغو، المستوطنات، وحتى عندما تجند لنشاط في صندوق من أجل سلوان، استقرت في قعر وعيه الحقيقة المنسية، تلك الذكرى الغابرة، من هارفارد :

«تحدثنا نحن الاسرائيليين، عن ابقاء المستوطنات، ومنذ تلك الأيام كان هناك فلسطينيون لم ينفروا من ذلك» (ن. م).

إنهم «لم ينفروا من ذلك». إنه ـ بعد كل هذا النقاش المتشعب، وبعد كل هذه الصياغات عن الموضوعي والإنتقائي، وبعد كل الأقوال المرتفعة عن تفضيل السلام الميداني على العدل «على الورق» ـ إنه جوهر الصوت الفلسطيني : «لم ينفروا من ذلك». كيف لم ينفروا؟ هزوا رؤوسهم علامة الموافقة؟ شدوا أكتافهم؟ اشمأزوا؟ أم أن هذا التغيير في حالة ذاكرة أكبر أنصار سارتر في إسرائيل متصل بالذات بالقائد الجديد، ايهود باراك؟ ولعل هذه الذاكرة المتأخرة متصلة بـ «جدول الأعمال» القومي الكبير، الذي لا يستطيع المثقف الصغير الوقوف بوجهه؟

بعد أن بدأت الحرب، لو كان هناك صحفي نشيط وليس دعائياً بنفسه، لكان ملزماً بالعودة للإثنين وسؤالهما : أين كان خطأهما؟ لكنه لم يفعل ذلك. الأول فضل بطبيعة الحال السكوت في مستودع العسل في جامعة شيكاغو، والثاني أفيشاي مرغليت، ضم صوته لـ «حيرة اليسار»، وتطرق ـ وهل يمكن ألا يفعل؟ ـ بالذات لـ «رغبة الفلسطينيين»، باعتبارها «تكهن بالحالة»، وهي الإرادة ذاتها التي لم تهمه من قبل، في مرحلة «تشخيص الحالة» :

«يمكن للفلسطينيين العيش، ولو بصعوبة، مع أشياء نفرضها عليهم ولكن المؤكد أنهم لا يستطيعون التوقيع عليها. هذا ما اتضح لنا في الحقيقة. النظام الذي يتضمن اعلاناً موقعاً بأنها نهاية الصراع تكشّف أنه مستحيل. تبين أن عرفات لم يرغب بالوصول إلى نهاية الصراع، ضمن الشروط المعروضة، حتى بدون صلة بتحديدها. تبين أنه أمر لا يمكنه أو أنه لا يريد القيام به. («حيرة اليسار»، ملحق «هآرتس»، ٢٠/١٠/٢٠٠٠).

وكان لدى دان ميرون أيضاً معرفة واضحة بـ« ارادة الفلسطينيين »، أي ماذا يقول الصوت الفلسطيني « بالفعل ». هكذا يتشكل الصوت الفلسطيني في مقاله الدعائي، بعد أن تصدعت صدقية الحرب والإستعداد الإسرائيلي البعيد المدى لإعادة كل شيء، باستثناء « بعض المصالح الحيوية ». هذا هو تفسير عدالة الحرب الحالية، أي أكثر الحروب التي شهدتها إسرائيل منذ ١٩٦٧ عدلاً، على الأقل :

« قررت السلطة الفلسطينية أنها ستتوصل إلى إخلاء المناطق والإعلان عن إقامة دولة بدون اتفاق مع إسرائيل. سيتم الإخلاء كما تم في لبنان، بطريق العنف ويضغط دولي. سوف تعمل الحجارة والرصاص والصحافة الدولية ولجان التحقيق وجيش الأمم المتحدة على خلق واقع تبقى فيه إسرائيل بدون المناطق، وبدون السلام وبدون اتفاق ينظم المسائل المشتركة بينها وبين فلسطين ضمن مطالب جديدة : كل القدس « العربية » التي من قبل ١٩٦٧، وتطبيق حق العودة الخ الخ ». (« علامَ الصراع »، « يديعوت احرونوت »، ٢٤/١٠/٢٠٠٠).

توثيق لهذه التكهنات المنفلتة؟ لا يوجد. مرة أخرى تختفي من هذا الوصف الحواجز، والتقييدات على السير، والمستوطنات، والعطش، والاحتلال الذي ترك خلفه خراباً تاماً للجهاز العام (طيلة الـ٣٣ عاماً لم يبن مستشفى واحد في المناطق المحتلة، ولم يتم شراء باصات جديدة، ولم تمد خطوط مياه جديدة الخ)، وعموماً، لا مصالح مباشرة، وبسيطة، لجموع الشبان في الخروج في مواجهة القناصة الإسرائيليين. مقابل ذلك، يوجد لدى ميرون خوف واحد : توسيع القدس العربية غرباً و « حق العودة »، أي الخوف من الاختراق، لذلك:

« فإن الرد الإسرائيلي حتمي. جنود جيش الدفاع يضطرون لإطلاق النار (رصاص مطاطي) لأن إسرائيل ملزمة بخوض صراع على مبدأ إخلاء مناطق في إطار اتفاق سلام شامل. والفتية الفلسطينيون، سواء كانوا يائسين أو مستثارين، فإنهم من ناحية موضوعية، منفذو سياسة مرسومة، تسعى لإنشاء دولة فلسطينية لم تسلم باسرائيل ولم تتنازل عن مطالبها تجاهها. إسرائيل مضطرة لأن تمنع بالقوة تطبيق سياسة كهذه». (ن. م).

عدا عن العبث بالأفكار الجنونية كحالة من فقدان السيطرة، ما الذي يدفع إنساناً مثل دان ميرون للكذب على صفحات صحيفة إسرائيلية، عندما يؤكد بين قوسين، وعلى مسامع القارئ الإسرائيلي، حقيقة أن الجنود يطلقون « رصاصاً مطاطياً »؟ (دائماً كتبت الصحافة الأمريكية التي يقرؤها « رصاصات فولاذية مغلفة بالمطاط »). ما الذي يدفع إنساناً للشد على أيدينا من مسافة عابرة للمحيطات؟ ما الذي يجعله يقول لنا « لا مناص، يجب قتل الفتية الصغار لأنهم يريدون دولة تملك متطلبات تجاه اسرائيل »؟ الإجابات على ذلك، عندما لا تكون متصلة بجوهر هذا الشخص أو غيره، بفلان كاذب مرضي، أو بعلان المعجب الكبير بجنرالات الجيش، الإجابات كامنة في الخوف من انهيار « النظام »، الذي فيه نحن من يحدد جدول أعمال اليهود والعرب. يحدث عاموس عوز على القراء الأمريكان عن رد الفلسطينيين على سخاء ايهود باراك :

« مع ذلك قال الفلسطينيون لا. إنهم متمسكون بـ« حق عودتهم » بينما نعرف كلنا جيداً أن ما يحيط بـ« حق العودة » كونها كلمة عربية خالصة لإبادة دولة إسرائيل.

لا يتمسك السيد عرفات فقط بالحق بالدولة الفلسطينية، وهو حق أؤيده بالكامل. الآن يطالب أن يعود المغتربون الفلسطينيون لا إلى فلسطين فحسب، بل لإسرائيل أيضاً، وبذلك تختل المعادلة الديموغرافية، ما يحول إسرائيل في نهاية المطاف إلى الدولة العربية السادسة والعشرين. هناك ملايين الألمان الذين لن يعودوا أبداً الى بيوتهم السابقة في بولندا، شرق بروسيا أو إقليم الوديت.

للفلسطينيين الحق بفلسطينهم مستقلة. لكن إذا كانوا راغبين بالحصول على إسرائيل أيضاً، عليهم أن يعرفوا أنهم سيجدونني مستعداً للدفاع عن بلادي: ناشط قديم في السلام الآن مستعد للقتال دفاعاً عن وجود دولة إسرائيل. إنني واثق بأنها الفرصة الأخيرة. على الفلسطينيين أن يختاروا إذا ما كانوا يريدون صلاح الدين الجديد أو العمل بالفعل من أجل السلام». (نيويورك تايمز، ٢٨/٧/٢٠٠٠).

انتبهوا للتاريخ: المقال لم يكتب إبان المعارك. كتب بعد فشل المؤتمر. إنه لا يتطرق من قريب أو بعيد لما يسمى النقاش مع الموقف الفلسطيني. إنه لا يدخل بالتفاصيل. إذ أن استنتاجات عاموس عوز ليست «مناورة» فحسب، لأنه بالفعل أديب استنتاجي، لا يهتم بالتفاصيل، ويرتكز على «المفهوم ضمناً». إنه يبني فزّاعة (انهارت قمة كامب ديفيد بسبب المطالبة بحق العودة). إنه يحول الفزاعة إلى «إبادة دولة إسرائيل». انظروا التوسع في هذه التفاصيل عن الإبادة. انتبهوا كيف أن عوز اختار في تلك الأيام الامتناع عن بيع البريطانيين هذه الترهات. في أكسفورد أو كامبردج، يبدو ان ادعاء ديماغوجيا كهذا يشعرهم بالمهانة.

٥- وهنا تدخل عريضة الأدباء

عندها، وفي السابع عشر من نوفمبر، بعد أكثر من مائتي قتيل فلسطيني، وبعد أن انتهى الدعائيون الإسرائيليون من اقناع الرأي العام العالمي، وبعد أن أخذت سياسة باراك الإسرائيلية تغوص في دماء الإسرائيليين، وليس الفلسطينيين فقط، وبعد أن نجحوا بالصمت في كل ما يتعلق بجرائم الحرب، صدر بيان لمفكرين من اليسار الصهيوني، على شكل إعلان ممول من طرف خفي، احتل مساحة كبيرة في الصحيفة وجاءت صياغاته السياسية ملتوية، لكنه يبلغ ذروته بالمطالبة بتفكيك المستوطنات، وفي صلبه هذا الموقف الحاسم التالي :

«لم تفكك حكومة باراك أية مستوطنة. بل بذلت أكثر من حكومة نتنياهو في تطوير المستوطنات وتكبيرها (...) ابقاء المستوطنات في أماكنها أو توسيعها يحول دون أية إمكانية لمد خط حدود منطقي بين اسرائيل وفلسطين. وهو ما يعني من الناحية العملية تخليد النزاع» («أوقفوا التدهور»، إعلان في «هآرتس»، ١٧/١١/٢٠٠٠).

وقّع على هذه العريضة كتّاب مثل يهوشع كناز، س. يزهار، ايلي عمير، حاييم بئير، بعد أن تمكنوا من ضبط النفس والامتناع عن قول كلمة واحدة علناً منذ بداية المذبحة في صفوف الفلسطينيين، وبطبيعة الحال وقعته أيضاً تلك الفئة التي من الأفضل لنا جميعاً لو أغلقت أفواهها، مثل أ. ب. يهوشع (نعجز عن اقتباس أحاديثه المطولة مع الإذاعي عميكام روطمن)، عاموس عوز، وكذلك

الشاعر نتان زاخ. عندما تدافعوا جميعاً ليكونوا «حيرة اليسار» تدافع هو الآخر، وأعلن في «هآرتس» المزاعم الثابتة كلها [٤]. والآن تغيرت الصورة. «لماذا، ما الذي حدث؟»، «لماذا، من المتوفى؟».

بعد مرور شهرين ونصف من القتل وصل هذا الصالون الأدبي النقال، بمن فيهم الأعضاء الثابتون في الرحلة (نسيم كلدرون، رونيت متالون الخ)، لقول ما كان يجب قوله قبل كامب ديفيد، قبل الثلاثمائة قتيل، وقبل آلاف الجرحى، وقبل مئات المعوقين تماماً. لو لم أعرف هذا المشهد منذ اليوم الأول لحرب لبنان، لما كبدت نفسي عناء هذه المقالة المطولة. لم تكن لعريضة الأدباء (التي نظمها بجهود جبارة دافيد غروسمن، الذي لم يخن للحظة أصدقاءه الفلسطينيين خارج الخط الأخضر، وأصرّ على التحدث كل الوقت عن حل وسط في منتصف البلاد، وليس في منتصف الضفة؛ تلك العريضة التي موّلتها «السلام الآن»، أو ما فاض عن حساب البنك الضخم) قيمة كبيرة في المرحلة التي نشرت فيها. كذلك حركة «ميرتس»، الحزب الذي مصوتوه هم المستهلكون المركزيون لمقالات من النوع المقتبس هنا، للمقابلات الاذاعية والتلفزيون التي لم تقتبس هنا ـ هذه الحركة نزلت إلى العمل السري، وتركت زهافا غلئون لتكون مهرجة «معسكر السلام». اختفى يوسي سريد (الذي سبق أن قيل عنه إنه «يسكن في الإذاعة»)، كان وجوده مرهون بالمجابهة مع «شاس»، وقد عاد حقاً للشاشة بعد أن عادت قضايا بحجم الميزانية المعطاة لـ«شاس» لإشغال المجتمع السياسي. جاء الإعلان متأخراً فلم يتمكن من التصدي لكرنفال القتل والخراب، ووسط بحر من العرائض والبيانات التي سبقته، لم يكن هو الوسيلة الصحيحة ـ لو كانت هناك رغبة بالقول: «اللعنة، أخطأنا» (ولكن من منهم أخطأ مرة؟) ـ لوقف أعمال القتل. كان هذا الإعلان مجرد مؤشر على «الركض في ساحة خراتيت». ولم يكن بمقدوره أيضاً أن ينقض شيئاً من كل ما قلناه «كلنا». «كلنا» قلنا إن عرفات مذنب وباراك يريد السلام. «كلّنا» قلنا إنّ كلّ شيء عرض عليهم. «كلّنا» قلنا إنّهم لا يفهمون ما يخسرونه. والآن، فجأة، هكذا، بلا سبب، «كلّنا» نقول إنّ باراك إستثمر في المستوطنات أكثر مما لو استثمر نتنياهو. قلنا؟ طيّب، قلنا! «وشو يعني»؟

لماذا لم تعرفوا بذلك من قبل؟ لأنّكم لم تهتموا بذلك من قبل. لماذا لم تهتموا بذلك من قبل؟ لأنّ الفلسطينيّين وجحيم حياتِهم لم يهمكم أبداً. لأنّ الإحتلال فقط «يفسدنا»، وإذا لم نسمّ الإحتلال إحتلالاً، فلن يكون إحتلالاً، بل جزءاً من منظومة رمزيّة نقوم نحن بترسيخِها، وبكلمات أقلّ بريقاً: نحن النّاطقون بلسان النّخبة الحاكمة في دولة إسرائيل. عندما يكون الليكود في السّلطة، نكون مع السّلام وضد اللّيكود. حتى ذلك الحين فإنّ دورنا هو الكذب.

وشربت الأرض المحتلّة دماً، وكفّ الدم عن أن يكون فلسطينيّاً فقط، ومن خلل الجرح المفغور أطلّ الحقيقي، وأجبرهم على الإهتمام فجأة بشيء ما أبعد من «المفهوم ضمناً»، أبعد من الكذبات السابقة. ولعلّه لم يبزغ شيء، بل كانت هناك حاجة لمراكمة «إعلان» حمائمي واحد للسنوات القادمة، عندما سيضطر عاموس عوز أو أ.ب. يهوشع الرد على السؤال: «ماذا فعلت عندما ذبحوا فتية فلسطينيّين؟». عندها سيستخرج أحدهما، الدعائي (أ) أو (ب) هذا الإعلان ويقول: «كنت ضد. ها هو». من جهة ثانية، إذا كان عاموس عوز مصدقاً لما كتبه بنفسه في «غارديان» وفي «نيويورك تايمز»،

فكيف أمكنه التوقيع على عريضة كهذه التي من السابع عشر من نوفمبر ؟ وإذا كانت الحقائق التي وقّع عليها في السابع عشر من نوفمبر صحيحة، هل يمكنه التحدّث بشكل مختلف عن الحرب القذرة ؟ وبكلمات أخرى : هل معنى «النذير على الأبواب» إنّه كذاب، أو ديماغوجي؟ يبدو أنّه كذلك. وممنوع أن نخطئ بشأن هذا الإعلان : فالفقرة الختاميّة فيه تؤكد، بعد كل ما جاء فيه، «نحن نناشد القيادة الفلسطينيّة لتسوية النزاع ليس بالعنف». لا تخطئوا بذلك. إنّه ليس إرضاء للعين القارئة. هذا هو الوقوف خلف «شرعيّة» العسكري. هذه هي الجملة التي تضمن شرعية نشاط الجيش، والحصار على القرى، والدبابات عند مشارف المدن، وإطلاق الرصاص اليومي على المتظاهرين، وتصديق الجرائم : «نحن نناشد القيادة الفلسطينيّة لتسوية النّزاع ليس بالعنف». إنهم عنيفون حقاً. الجيش يقوم بكل ما يقوم به لأنّهم عنيفون. هذا هو المعنى الحقيقي لهذا الموقف. مهما كان مصير المستوطنات، فهو ليس متعلّقاً بنا، أم أنّه حقاً متعلق بنا. ذلك يتعلّق بالمزاج. لكن، بكل ما يتّصل بالجيش، فلن نستمد الشرعيّة أبداً من مكانتِه كمدّعٍ وقاضٍ وجلاّد. هذه روحنا القتاليّة من وراء ظهرِ الجندي، المكتوب على خوذته born to kill (وُلد ليقتل).

٦- شبح ١٩٤٨

لم يكن أي حديث متعجرف أو مغرور كهذا الذي يتمتّع به عاموس عوز، من النّوع الذي صاغه برينكر كما لو كان «مسجل تاريخ في البلاط»، ممكناً، ولو تحوّل الوعي بالجرائم ضد الفلسطينيّين ليصير جزءاً من تراث اليسار الإسرائيلي، لما جرؤت أيّة حركة سلام على توجيه الدعوة لهؤلاء الأشخاص للتحدّث بإسمها، ولو جرت أيّة محاولة لدى اليسار اليهودي للإنقطاع عن ماضي الدولة الكولونيالي، ولو بذلت جهود للنّظر في هذا الماضي والقول إنّنا لسنا ملزمين تجاه هذا الميراث، الذي أوصلنا إلى هنا. هذا هو عملياً الخط الفاصل بين من عارضوا الحرب من اليوم الأول وبين من «ارتبكوا»، و«حذروا»، وأيّدوها. الحديث هنا لا يدور عن «مشاعر الذنب»، أو «الشعور بالمسؤولية»، بل بالإصغاء للصّوت الفلسطيني، الذي هو جزء من الحل، وليس فقط جزءاً من النزاع. في المقابلة الخفيفة التي منحها مرغليت وبرينكر لـ«هآرتس» قال مناحم برينكر :

«لا يمكن لإسرائيل بأيّ حال من الأحوال قبول المطلب الفلسطيني بخصوص مسؤوليتها القانونية والأخلاقية عن خروج اللاجئين. ما يطالب به الفلسطينيّون هو مسألة من إختصاص المؤرّخين، لا السياسيّين. ماذا يريدون ؟ أن يتحدّد في مفاوضات سياسية عدد الفلسطينيّين الذين طردتهم إسرائيل وكم كان عدد المغادرين بمحض إرادتهم لكي يعودوا مع الجيوش العربيّة المنتصرة؟ هذا سؤال من إختصاص بيني موريس، لا ايهود باراك» («أخلاق البراغماتية»، ١٧/٧/٢٠٠٠).

كل عنصرية المثقف الصهيوني قيلت عبر هذا النص القصير. مخيمات اللاّجئين في الضفة أو لبنان ليست مشكلة سياسيّة. إنّها جزءٌ من كتب التدريس. سنتحدث عنها في «فان لير»(*). مَن بحاجة لأن يجابه، مثلاً، هذه القضية السياسية في لبنان ؟ سياسيّون أم مؤرّخون ؟ ومن بحاجة للتحدّث عن لم الشمل ؟ مؤرّخ أم سياسي ؟ وبأثر من ذلك، من سيكون المؤرّخ ؟ يهودي، بالطبع،

كما قيل: «هذه مسألة من إختصاص بيني موريس، لا ايهود باراك». القضية تبقى دائماً بأيدي اليهود، أي أنّه لا وجود لصوت فلسطيني حتى في إستيضاح المسألة التاريخيّة.

٧- هذه ليست النهاية

عندما ينتقد يساريون «اليسار الصهيوني» يجابهونهم بادّعاءات مثل «لماذا تتخاصمون مع أقرب المقرّبين إليكم وليس مع اليمين؟». الحقيقة معكوسة بالطبع. فالسبب الذي دفع ايهود باراك لاستنفار مساعدة مثقفي «اليسار الصهيوني» لجانبه، قبل كامب ديفيد، وبعد كامب ديفيد وفي زمن الحرب، هو بالضبط الرغبة بكم أفواه «المتطرّفين» هنا وفي الخارج. لماذا يحتاج عاموز عوز لأن يضيف إلى كتابته في الخارج اللّقب «من مؤسّسي السلام الآن»؟ بالضبط لأنّ المقال يرمي لكم الأفواه، داخل المجموعة الثقافيّة في الخارج، أو هنا، لمن يعتقدون أنّ باراك خطرٌ على السلام.

من المهم أن ندير ظهرنا لمن تتوجّهم الصحافة بشكل عام بأنّهم «يسار». الصحافة هي صاحبة المصلحة. كانت مصلحتها عدم نشر أيّ حرف عن نشاطاتنا السياسيّة المتعاظمة، منذ بداية هذه الحرب. لسنا جموعاً غفيرة، بل مئات وحتى آلافاً. قوموا بإحصاء العرائض، الصغيرة، الدقيقة، والثمينة، وعودوا إلى لقاء المحاضرين المائة من جامعة تل أبيب، مباشرة بعد يوم الغفران، وهو اللقاء الذي بدأ النّشاط في جامعة تل أبيب وحيفا وبئر السبع، عودوا للحظة للمظاهرات في باحة المتحف في تل أبيب، والمظاهرة الكبرى في حيفا، والمظاهرات في القدس، ونشاطات منظمات النساء، والصلة بين مجموعة نشاط من تل أبيب وقرية حارس في الضفة، لتتبيّنوا أنّنا، في اليسار الراديكالي، عائشون وموجودون، حتى لو كانوا يشطبوننا في الصحافة الغربيّة وحتى في الصحافة التي نقرأها ونكتب بها. الصوت الممحو ليس ممحواً بسهولة. فالفتية من رام الله، الذين أسماهم زاخ بـ«العامّة»، وأطلق عليهم دان ميرون، قرينه العجوز، صفة «اليائسين أو المستثارين»، نجحوا على الأقل بشيء واحد، حتى الآن، وهو تذكيرنا بأنّ الحقيقة ليست محصّلة كل ما كتب في الصحيفة.

عندما اختتم هذه الأقوال، فإنّ الأحداث في المناطق المحتلة، وضمن ذلك القتلى الفلسطينيون، هذا عدا الحصار الشديد والنّقص في المال والموارد والأدوية، وقطع الأشجار بأيدي المستوطنين والجيش، وهدم البيوت بأيدي الجيش، كل هذه الأمور ليست مغطاة أبداً، لا في وسائل الإعلام الإسرائيليّة، وتقريباً ليس في وسائل الإعلام في العالم. هذه الجرائم تكبر. وسندفع جميعنا ثمن ذلك.

١/١٢/٢٠٠٠

ترجمة: محمد حمزة غنايم

اشارات :

(١) إلى زميلتي هالة ناصر، ابنة بيت جالا، أهدي هذا المقال. استضافتني أمها في بيت عائلتها الجميل في صيف ١٩٩٦، عندما لم تكن هناك مياه في البلدة، وللتجول فيها كان لا بد من المرور عبر الحاجز، من منطقة C إلى B. هذا البيت، كبقية بيوت الحي الجميل، الذي سلبه شارع الأنفاق طبيعته الجميلة (دون سؤال سكان البلدة عن رأيهم فيه)، تهدم، كما تناهى إلى مسامعي، بنيران متفجرات الجيش الإسرائيلي. لماذا أجدني أقدّم لهالة مقالاً بالذات ؟ لأن هذا كل ما أملك تقديمه الآن لها، ولأبناء شعبها.

(٢) هناك شبه كبير بينه وبين أسطورة « الرابينيّين » : وبقدر ما تنطوي عليه هذه الأسطورة من تحقير لرابين نفسه كشخص مركّب، فإنها تمثل في الأساس الحاجة لشرح عملية أوسلو باعتبارها « هزة أرضية وضعت حداً لماض احتلالي طويل ». بما أن اتفاقية أوسلو لم تضع حداً للاحتلال، ترتفع قيمة الأسطورة، بعلاقة عكسية لأهمية الإتفاقية.

(٣) مرة حاول نقض ما كتبه نعوم تشومسكي عن مذبحة الرجال في مخيم لاجئين في قطاع غزة في ١٩٥٦، قالت له « مصادر عليمة بالأمور » إن جميعهم « كانوا فدائيين ». جرى الجدل على صفحات « نيويورك ريفيو أوف بوكس ».

(٤) نتاخ زاخ : « ايهود باراك - الشخص الذي كان مستعداً للابتعاد كثيراً في تنازلاته لعرب المناطق المحتلة - لو صدقنا ما نشر في الصحافة ولم يتم انكاره - أكثر من أي رئيس حكومة سبقه ». عرفات؟ « ما لم ينجح اليمين الإسرائيلي المتعصب حدّ الجنون بالحصول عليه في كل هذه السنوات بقواه الذاتية، تمكن الآن، وبمساعدة متواصلة من « الريّس » وحلفائه القدامى - الجدد : « حماس »، الجهاد الإسلامي، والعامة المنفلتة في رام الله وأريحا، وجاك شيراك » (« حيرة اليسار »، « هآرتس »، ٢٠/١٠/٢٠٠٠).

(*) ڤان لير- مؤسسة بحثية في إسرائيل.

المثقفون الإسرائيليون وإنتفاضة الأقصى :

إعادة إنتاج حكاية مستهلكة

محمد حمزة غنايم

«كيف تجرؤ على القولِ أنّ المثقف اليهودي في إسرائيل صار جزءاً من المؤسسة، لذا فهو غير قادرٍ على الموقف النقدي الراديكالي؟ ... كلّنا هنا مؤسسة، بمن فينا أولئك الساخرون منّا. ومن لا يريد أن يكون جزءاً من المؤسّسة هنا، فليذهب. لأنّ المؤسسة جالسة اليوم في قناة السويس. من ليس راغباً، فليذهب..».
(غرشوم شولم في حوار من العام ١٩٧٠)

١

لعلّه الإعتقاد («الساذج» قليلاً؟) بأنّ الإنتلجنسيا الإسرائيلية «المحترمة» مطالبة اليوم أكثر من ذي قبل بالخوض حالاً في طورِ «محاسبة الذّات» الخاص كجزءٍ من الحسابِ القوميُّ العام المطلوب، ما أعاد إلى ذهني مجدّداً تلك «الصدمة الكهربائية» التي أحدثها كِتاب الكاتب والصحفي الإسرائيلي بوعز عفرون، «الحساب القومي»، لدى صدوره بالعبريّة في الثمانينات، عندما كانت تجربة الغوص في «الوحل اللبناني» ما تزال حاضرةً بثقلها المأساوي على الأجندة العامّة في إسرائيل. في مقدّمة الفصل الأخير، الذي يحمل العنوان «إسرائيل واليهودية»، ينوّه عفرون إلى أن الضعف والعجز اليهوديّين، هما اللّذان فجّرا الوهم القائل بأنّ العنصر الجوهري في أيّ كيان قومي مستقل هو القوّة المادية. وهما أيضاً اللّذان يقفان وراء النّظر إلى الصهيونية ودولة إسرائيل، ليس كوسيلة للإنخراط والمشاركة مع الشّعوب الأخرى كطرف متساوٍ، بل كوسيلة للإنتقام التاريخي. («الحساب القومي»، ص ٦٠٩، الترجمة العربيّة، القاهرة، ١٩٩٥).

لم يسبق أن أبدت هذه الإنتلجنسيا هذا القدر الكبير من «بَلادة الإحساس»، كما فعلت في الشهور التي سبقت ورافقت إنتفاضة الأقصى، وإن خيّل لنا أن أنهار الكلمات الممهورة بالدّم المُراق التي تجرّعناها هذا العام في تتبّع وقراءة أدبيّاتها لم تنجح بتغطية هذه الحاجة إلى الحساب، التي يتعامل عددٌ من الرموز الثقافية معها في نطاق «إسقاط الواجب». لكن ذلك لا يحدث وفق مفهوم

«النزاهة السياسية» الصهيوني الذي صاغته أجيال من المثقفين العبريّين، وإنّما يظلّ خاضعاً للأمزجة الثقافية والقومية العامّة، التي لا تسمح بطبيعة الحال بإهدار الطّاقات على «حساب لا يمضي في الإتجاه الصحيح». وحقّاً، هل يمكن أن نستخلص من طوفان الكلمات المتدفّق هذا، نصّاً جديداً وجديراً بالإهتمام حول مجريات الحساب القوميّ، دون أن يكون ذلك محكوماً بضوابط التأريخ الصهيوني؟ أو، كما يتساءل شلومو زاند (في مؤلّفه المهم «المثقف، الحقيقة والقوّة» الصادر مؤخراً بالعبريّة): «هل كتابة أدب جميل، شعر أو نثر، أو مقالة صحفيّة، ستظل أسيرة بالضرورة لمنظومة اصطلاحيّة أبويّة للغاية، تم إيجادها من داخل التوتّر المحفز في المراحل الأولى لإرساء وتوجيه الثقافة القوميّة»؟ (ص ١٧٧). وهل الحقيقة المحكومة للمخزون الكلامي العبري الحديث ملزمة بالإنصياع للشيفرة الداخلية للتخطيط اللّغوي الأيديولوجي الذي خلقها، لذلك فهو محكوم بأن يظلّ أسيرها إلى الأبد؟

«الكلمات لا تتجوّل لوحدها في الشارع، وهي دائماً ممسكة باليد الكبرى واللزجة للأشياء»، وفي السياق الثقافي الإسرائيلي، فإنّه «أكثر ممّا لو كانت الكلمات تولد في داخلنا، فإنّنا نولد في داخل الكلمات. الأنماط الكلاميّة تصوغ تفكيرنا منذ بدايته» (زاند : ١٧٥).

من يقرأ مثل هذه الأقوال، سيتخيّل أنّ «شعب الكتاب» يملك حساسيّة خاصّة تجاه الكلمات، التي تقوم بخلق علاقات القوى الإجتماعية لديه، وتلعب دور السّلاح في حلبات صراعه السياسي، حيث يتم حسم أشكال السيطرة والسيادة والإرتباط. فوق هذه الحلبات، تعيد الكلمات إعادة إنتاج ذاتها، بصورة تلقائية، لتكون ظلالاً باهتةً لقوالبها السابقة، مع تبدّل بسيط في المواقع والتواريخ والأسماء. إنّها «اللغة القوميّة في خندق البقاء»، إذ دائماً ما كانت الكلمات «حجر أساس في خلق القوميّة اليهوديّة الجديدة» (زاند : ١٧٦)، التي ما تزال تمر في أطوار التقلّب والنّقض والتجريب.

لماذا «الحساب القومي»، إذن؟

لأنّ ما يحدث اليوم في بلادنا أقرب إلى «الإنتقام التاريخي» منه إلى «المشاركة والإنخراط مع الشّعوب الأخرى» أو «المصالحة التاريخيّة» معها. نحن إزاء وضع مستحيل، تجتمع في صنعه عناصرُ الواقع الصّعب كلّها، وتشترك في استعادته ضمن «خطاب السّلم» الثقافي المشروخ، فئات مثقفين لا يتحدّرون بالضرورة من اليمين القومي المتعصّب، بل الغريب أن نجدَ رهطاً كبيراً منهم من بين المثقفين اللبراليّين الإسرائيليّين اليهود، ممّن يشتركون، دون أيّ خجل أو تردّد أو تأنيب ضمير، في صياغة هذا الخطاب وترسيخ جذوره في الأرض!

يوميّاً، تتضخّم قائمة «المسكوت عنه» في أجندة الثقافة الإسرائيلية «المحاربة» (نعم، المحاربة، وهو ما سيتبيّن في السّياق أيضاً) حتى تكاد تنفجر، وتبدّد بانفجارها ما تبقّى من شرف مهنة وكلمة وضمير، بعد أن تآكل الشرف وانهارت مداميك أخرى أخلاقية في «حروب – إسرائيل – الثقافية». وكأنّ هذه الثقافة كانت تترقّب إندلاع الإنتفاضة الفلسطينيّة الثّانية، بما رافقها من فظائع صنعتها «قرينتُها» الآلة العسكرية، وما تلا ذلك من ردود فعل وتقلّبات سياسية – حزبية في الأصل (يبدو أن الإنتفاضة الثانية في طريقها لأن تحدث إنقلاباً سلطويّاً جديداً في إسرائيل، في ضوء التطوّرات السياسيّة

والحزبيّة الداخلية) حتى تكشف عن حقيقتها، ولا يظلّ لمن بقي في قلوبهم بصيرة وفي عيونهم بصر سوء القول: «الملك عارياً»، من جديد! وحتى لا ننجرف في القول، لا بأس من التحفّظ في البداية والتأكيد على أن قلّة قليلة فقط من الكُتّاب الإسرائيليين «المخضرمين» (بين انتفاضتين: ١٩٨٧، ٢٠٠٠) حافظت على «شرف الكلمة» ولم تنظر بعيون زائغة إلى واقعٍ لم يعد فيه أيّ شيء مفاجئاً، ولا حتى عندما يحمل إلينا نقائضَ ما يشي به من إيحاءات.

في أوقات المحن، يعمل رهطٌ كبير من كُتّاب اليسار الإسرائيلي ساعات إضافيّة في «النفخ في البوق». مع الوقت تبلور هنا جيش «النافخين في الأبواق»، أفرادُه كُتّاب معروفون، يقيمون منابرَهم القديمة، ويقفون خلفها ويصرخون عبر بوقٍ كبير وبنبرة إحتفالية قاطعة، إنّ كل شيء قد انتهى: «تغيّر كل شيء من الأساس؛ لا شيء بقي على حاله»، كما حدث بعد «يوم الغفران»، و«النفق» (١٩٩٦)، وكما بعد مقتل رابين (١٩٩٥)، وكما بعد صبرا وشاتيلا (١٩٨٢)، وكما بعد العمليات الإنتحارية في أواسط التسعينات، وكما بعد مدريد، وكما بعد كلّ المرّات المؤسية.

بين «مفصلٍ» وآخر، تقوم الكلمات بإعادة إنتاج نفسها بصورة شبه آلية، بعد أن أنهكها أصحابها بالكليشيهات المعروفة، عندما فشلوا أنفسهم وفشلت كلماتهم في ملامسة الحقائق بنجاح، وفشلوا في أن يكونوا وكلاء للتغيير الإجتماعي، وفي أن يكونوا «وكلاء أخلاقيين» أيضاً. «فقدوا مسؤوليّتهم في تقديم الحقيقة حول قضايا ذات أهميّة إنسانية، أمام جمهور قادر على فعل شيء في الأمر»، - كما يقول نعوم تشومسكي في سياق مشابه، في حديث له عن مسؤولية الكُتّاب: «في محاولة الكُتّاب هذه للعثور على الحقيقة وتقديمها إجابة جزئيّة على السؤال حول من هو الوكيل الأخلاقي وليس الوحش. صعب التفكير في زعم أقلّ إثارة للخلاف من هذه، أو هكذا يخيل لنا على الأقلّ. لشدّة الأسف، الوضع ليس كذلك بالضبط، وسبب ذلك بسيط: إن النّشاط المتعارف عليه للمجموعات الثقافية التي ننتمي إليها يتنكّر بحرارة وحماس باديين لهذا المبدأ الأخلاقي الأساسي. وبموجب المقياس الطبيعي لحجم النشاط المقبول ومقارنته بكميّة الفرص، من المحتمل أن نكون قد غصنا في حضيض تاريخي» («قوّة السيادة»، ص ٧٠، بالعبرية).

«الغوص في الحضيض التاريخي» هو الوجه الآخر لـ«المسؤولية الثقافية» أو «الإستقامة الثقافية». وفي مؤلفه المذكور أعلاه ينوّه تشومسكي إلى أنّه إنّما يقدم «تفسيراً ضيقاً» لهذه التعبيرات، فهناك «أبعاد كثيرة أخرى أقوم بحذفها، منها الأبعاد الجمالية» (ص ٦٩). سقطت «الأبعاد الأخلاقيّة» للكلمات، كمقدمة لسقوط «الأبعاد الجماليّة» لها. وتجددت العودة (في إسرائيل ٢٠٠٠) إلى تلك الكليشيهات الممجوجة عن «العربي، كحلٍّ أدبيٍّ»: «في نهاية كل جملة بالعبرية يجلس عربيٌّ مع نرجيله. حتى لو كان ذلك يبدأ في سيبيريا أو هوليوود مع نشيد هيّا نفرح»، كما كتب مئير عوزيئيل مرّة في «أغنية عن الألم».

في فبراير ٢٠٠٠ نشرت مائة شخصيّة فلسطينية «نداءً عاجلاً للجمهور الإسرائيلي»، حذّرت فيه من المسارِ الذي دخلته عمليّة التسوية في الشرق الأوسط بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وشدّدت على أنّ التطوّرات المقترنة بذلك ستؤدي بالضرورة لمواصلةِ الصّراع بدلاً من أن توصل إلى «حلٍّ

تاريخي نهائي يسمح لشعوب المنطقة بالعيش بسلام وكرامة إنسانيّة». كانت المجموعة التي ضمّت طائفة من الشخصيّات الثقافية والسياسيّة والأكاديمية تؤكد على أنّ إسرائيل استغلّت التطوّرات المترتّبة على عمليّة أوسلو، لتقوم بتوسيع غير مسبوق للمستوطنات الكولونيالية وتسمينها وزيادة عدد سكانها إلى حد مضاعفته، الأمر الذي كان متّصلاً بالضرورة بتواصل مسلسل الإستيلاء على الأرض، وهو ما صنع لاحقاً (سبتمبر ٢٠٠٠) الإنفجار المؤجّل منذ سنين.

كان ذلك نداء فلسطينياً نادراً يصدر عن فئات واسعة من الأكاديميّين والباحثين والكُتّاب الفلسطينيين، في مخاطبة «مستعجلة للجمهور الإسرائيلي»، كما قال النداء - البيان (الأوّل)، الذي مرّ من دون أيّ تعقيب، وبدا مثل صوتٍ صارخ في بريّة. هذه الحقيقة لم تحل دون هذه المجموعة والعودة إلى تكرار نفس المحاولة بعد ثمانية شهور بالتقريب، مع تأكيدات جديدة - قديمة على الثوابت الوطنية الفلسطينية، ولكن بفارق واحد: إنّها اختارت التوجّه بندائها «المستعجل» في عزّ العدوان الدموي الوحشي الجديد على الشّعب الفلسطيني، الذي بادرت إليه حكومة الجنرالات في إسرائيل. نوّهت الشخصيات في بيانها المذكور إلى أن الفلسطينيين باتوا الآن بلا حماية جسدية أو قانونية أو سياسيّة، وإلى أنّ «الإحتلال العسكري المؤثّر والمقرّر في أنماط حياتنا اليومية مرّ بعملية تمويه في إطار إتفاقات أوسلو بشكل يحول بيننا وبين الحصول على الحماية التي أمكننا تلقّيها من القانون الدولي». ووجدت المجموعة الموقّعة على البيان أنّ «القيادة الإسرائيلية - «ليكود» و«عمل» معاً - واصلت الإفتراض أنّها بواسطة الميزان العسكري المختلّ لصالحها ستنجح بفرض تصوّراتها غير العادلة لإنهاء الصّراع على القيادة الفلسطينية، متوهّمة أنّ اتفاقاً غير عادلٍ كهذا ممكن التوصّل إليه مع الرئيس ياسر عرفات لوحده، ومتوقّعة أن يفرض عرفات هذه التسوية على شعبه - هذه الأوهام هي المسؤولة إلى حدٍّ كبير عن الوضع الخطير الذي نجد أنفسنا فيه هذه الأيام». وانتهت المجموعة الفلسطينية في البيان إلى ما قد يبدو للوهلةِ الأولى تطلّعاً قابلاً للهضمِ والإستيعاب لدى المثقفين الإسرائيليين، عندما اختتمت بالقول: «إنّنا نأمل أن ننجح، من خلال المآسي التي شهدتها الأسابيع الأخيرة، في التوصّل إلى رؤيا جديدة ومعقولة للسّلام». (هآرتس، ١٠/١١/٢٠٠٠).

خلافاً لما لقيه بيان المائة الأوّل من إهمال، «تجاوب» عددٍ قليل من الكُتّاب الإسرائيليين مع النداء الثاني، كان أبرزهم إثنان: الأديب دافيد غروسمن والنّاقد نسيم كلدرون. وللتّذكير فقط نقول إنّ ذلك جرى في وقت تجاوز فيه عددُ ضحايا الآلة العسكريّة الإسرائيلية المائتي شهيد (ولا تزال «اليد ممدودة» فيه لمزيد من القتل والدمار!). كان دافيد غروسمن، الأديب الأكثر شهرة لدى الفلسطينيين والعرب، أوّل المبادرين للرد، على شكل «رسالة جوابيّة للبيان الفلسطيني»، (نشر الرد بالعربيّة في ٢١ نوفمبر ٢٠٠٠):

«كإسرائيلي محبّ للسّلام، أوافق مع غير قليل من المواقفِ المطروحة في ندائكم، مع وصفكم الوضع الصعب الناشئ في المناطق المحتلّة تحت شعار عمليّة أوسلو، ومع عدم الجدوى من إتفاق سلام يعكس، أكثر من أيّ شيء آخر، التفوّق العسكري الإسرائيلي، لذلك فإنّ أكثرية المبادئ العامة التي طرحتم، تبدو لي أساساً ممكناً للإتفاق المستقبلي...».

تحفّظ غروسمن في ردّه على «بيان المائة» الفلسطيني، في وقت بدا فيه أنّه «نداء إستغاثة» إلى الرأي العام الإسرائيلي، بعد أن وصل الحال الفلسطيني إلى وضع لا يُطاق، ولم يتوقّف عند هذا الحد، بل تقدّم خطوات إلى أمام في «الإشتراط» على ما وصفه بـ«الحوار المنطقي» مع الفلسطينيين، الذي يبحث عنه في ظلّ القتل والموت والدّمار، ما حدا به لأن يضيف: «بالإضافة لهذا، كإسرائيلي محبّ للسلام، كان ينقصني في ندائكم إعلان موقف بأنّ إتفاقاً كهذا يشكّل نهاية للمطالب المتبادلة، ويتضمّن إعترافاً بحدود ١٩٦٧ (مع تعديلات متّفق عليها) كحدود دائمة بين إسرائيل وفلسطين، توقّعت أن أرى في نداءٍ كهذا أيضاً موقفاً واضحاً أكثر لمستقبل العلاقات بين الدولتين، للحرب المشتركة ضد الإرهاب والنّضال ضد التحريض، النضال الذي بدونه تكبر هنا أجيال وأجيال على مفاهيم الكراهيّة والعنصرية».

لم «يتوقع» غروسمن «هذا الحجم من الكراهيّة» في الجانب الفلسطيني، كما يقول، مع ذلك «توقع» أن يتضمن النداء «إستعداداً فلسطينياً للحرب المشتركة ضد الإرهاب، والنّضال ضد التحريض»، لذا فهو مندهش لردّ الفعل الفلسطيني الميداني (المقاومة المنتفضة) وأبعاده «السلبيّة» على المجتمع الإسرائيلي: «لا يجوز الإستخفاف بهذا الجمهور الإسرائيلي الذي يحسّ اليوم بأنّه مهدّد من عدّة نواحٍ: أغلبه لم يكن يوماً مدركاً لعمقِ الغضب الفلسطيني فيما يتعلّق بشكل إدارة العمليّة السلميّة، وهو ذاهل من قوّة العنف الموجّه إليه..».

في هذه النقطة، تصل السذاجة القاتلة لدى غروسمن حدوداً غير محتملة، وبخاصّة محاولته بعث نهج «التبادليّة» للحكم على الموقف والسلوك وإتجاهات الخطاب. يقول: «آمنت أكثرية الإسرائيليين أنّه مع بداية العمليّة تبدأ المصالحة أيضاً... وها هم يرون عند خط النهاية أنّ الشركاء في العمليّة قد «خانوهم»، وخرقوا الإتفاق الموقّع..».

بإسم من ينطق غروسمن حقّاً؟ هل بإسم «أكثرية الإسرائيليين»، أم أنّه يريد فقط «تصوير الواقع» بلغة الريبورتاج الصحفي، وهو المجرّب والخبير في هذا المضمار (في كتابين سابقين له – «الزمن الأصفر» و«حاضرون غائبون» – في نفسِ المحور طرح غروسمن أسئلة كثيرة لم ينجح في الإجابة عليها، مكتفياً بالإيحاءات المبلبلة حول المواقف العامّة للناس موضوع مادّته، وليس عن الناس أنفسهم)، إلى الحدّ الذي يجعله يكتب في الردّ على بيان المائة: «أكتب هذه السطور ويتملّكني الإحساس بالتّفاهة الباعثة على اليأس بمجرّد العودة إلى الإدّعاءات المعروفة لنا جيداً». نسجاً على هذه «التفاهة الباعثة على اليأس» (؟!) وبعد التساؤل عن «جدوى اللف والدوران في مسار الإتّهامات المتبادلة بينما نجد المئات من بني البشر الأبرياء من فلسطينيين وإسرائيليّين يُقتلون»، يعود غروسمن إلى محاولته الإحتفاظ بحديثِه إلى المثقفين الفلسطينيين فوق «سطح إنساني»، وهو العارف أنّ هذا السطح لا ينجح هذه المرّة أيضاً في حقنِ كل هذا الدّم المُراق: «ما الفائدة – يكتب – في الظرف الحالي من محاولة تحديد المتّهم أو البادئ؟ كلّنا، من إسرائيليّين وفلسطينيّين، شركاء في المأساة التي أحاقت بنا، بهذا القدر أو ذاك..». وبعد هذا الحكم الصارم بالشراكة في المسؤوليّة، والإنتقال للحديث عن «ضرورة فتح إتفاقات أوسلو بصورة أجرأ والعثور على حلٍّ جديد أكثر منطقية وشجاعة، من

المؤكد أنّه سيقطع في اللّحم الحيّ لدى الشعبين »، يعود غروسمن إلى « حجمه الطبيعي »، وينكمش إلى السطح الذي لا يُسمح له بالتأثير، ومع ذلك، فهو يكتب بغرور من يزعم معرفة « الآخر » بكل جوانبِه، ما يجعله يخلص إلى القول : « ما زال بإمكان الفلسطينيّين الذين وقّعوا على الرّسالة المعلنة للجمهور في إسرائيل، وبإمكان فلسطينيّين وإسرائيليّين كثيرين أيضاً ممّن يؤمنون بالأفكار التي طرحتها، فتح حوار بينهم بصورة منطقيّة. واضح أنّنا لسنا مخوّلين لإجراء مفاوضات، لكنّنا نملك قوّة على الأقل لتجديد الحوار، لعلّه يمكننا أيضاً إيجاد حلول خلاّقة وعادلة في النقاط التي لا يستطيع فيها السياسيّون ـ لمختلف الأسباب ـ الترفّع على المصالح القصيرة الأمد . . . ».

يعرف غروسمن جيّداً موقف الموقّعين على بيان المائة، فقد التقى بعضهم في رحلته الميدانية لتجميع مادّة كتابيه المذكورين آنفاً ويلتقيهم اليوم، ويعرف أين هي « الحدود » الجغرافيّة، لا الثقافية، التي يريدونها لدولتِهم العتيدة، ولكن حديثه المتواصل عن « تعديلات حدودية متفق عليها » وضبابية موقفه في قضيّة اللاجئين، تجعله يفضّل « النضال من داخل خيمة الحوار »، على الخروج علناً إلى الشوارع وإشهار الإحتجاج على القتل البشع المتواصل في صفوف الفلسطينيين (للأمانة نقول أنّ غروسمن « تأثّر » كثيراً من الترحيل المتجدّد لعرب الجهالين من أراضيهم شرقي القدس، ما دفعه إلى إعلان تظاهرة متلفزة لم تات بأيّ نفع على « البدو الرُحّل » في الإعلام الإسرائيلي، وإن نفعت الأديب الطليعي في مسعاه لترسيخ دعائم شخصية « الطليعي » فيه، مجرّباً هذا النوع من التضامن الفردي الذي لم يعرف بهذا الشكل، في مسعى واضح لتحويله إلى « ظاهرة » عامّة، وهو ما لا يحدث بطبيعة الحال؟؟؟)، طالما أنّ غروسمن لا يفعل ذلك، لا هو ولا غيره، يظلّ من الصعب عليه أن يحدّد موقع « الخيمة »، التي تحدّث عنها في خاتمة مقالِه، عندما تساءل : « هل نستطيع اللقاء في هذه الأيام بالذات عند خط الحدود، الرمزي والمحسوس أيضاً في أيّة نقطة بين إسرائيل وفلسطين؟ لنفترض أنّ ذلك سيتمّ في خيمة سلامٍ نقيمها معاً؟ هل يمكننا أن نضع هناك بديلاً ما للعداء المنفلت، والكراهيّة، والقتل والرغبة بالإنتقام؟ هل يمكننا وقف دوّامة العنف المنفلت التي تهدّد بجرفنا جميعاً إلى داخلها؟ » .

تبدو هذه « الدعوة إلى الحوار »، الموجهة بلغة الضحية إلى الضحية نفسها (نشرت بالعربية في الصحافة الفلسطينية داخل وخارج « الخط الأخضر »)، مستهجنةً في ضوء حجم القتل اللاحق بالشعب الفلسطيني، عندما يجد غروسمن نفسه، بخطابه هذا، شريكاً في تحميل الضحية مسؤولية السّوء الحاصل للجميع هنا، ومحاولة ايجاد جذوره في مسؤولية الفلسطينيين ضمن معادلة « التبادلية » المثيرة للتقزز . كذلك : ترى، أين سيحدد موقع « خيمة الحوار » من حدود الرابع من حزيران، طالما أن غروسمن لم ينته بعد من « تعديلاته الحدودية »؟ وبالتالي : هل يعرف غروسمن « بالضبط » حدود دولته اليهودية « التي فيها أقل قدر ممكن من العرب، وأكثر قدر ممكن من الأرض »، كما ترتسم « المصالحة التاريخية » في مخيلات اليسار الصهيوني المنتمي هو إليه؟!.

لا يبدو غروسمن أكثر سخاءً في موضوع اللاجئين، مع أنه يدافع عن « الحلول الإسرائيلية المقترحة » لهذه القضية (نسخة باراك ٢٠٠٠)، ويكتب في رده السابق : « حول قضية اللاجئين أيضاً مقترحة اليوم حلول إسرائيلية سخية، هدفها إنهاء مشكلة اللاجئين. . . ». ولكن، ما هو الحل لدى غروسمن؟

هذا ما تركه المقال - الرد غامضاً، وإن كانت مواقف الشخص معروفة في هذا السياق من مناسبات ومنابر أخرى، تبين استقراءها حقيقة «السخاء» الذي تحدث عنه في سبيل حل هذه المشكلة.

ليس بعيداً عن غروسمن، يقف الناقد الأدبي نسيم كلدرون، الذي - رغم علاقاته «المزمنة» مع الفلسطينيين - يبدو عاجزاً ومقصراً أيضاً في فهم «الفباء الفلسطينية» الجديدة، التي يكتب لها ويخاطبها بلغة أمه.

في ردٍّ ثانٍ له على بيان المائة، يكتب كلدرون تحت عنوان «بدون المستوطنات، بدون حق العودة» : «يجب الاستعداد لأيام طويلة وصعبة، وكذلك لأيام مظلمة ستشهد انهيارات في قضية السلام وتراجعات عنه. يمكن للمثقفين من الطرفين إعلاء صوت الأمل في هذه الأيام المظلمة، مهما كان بعيداً، ومن المؤكد أنهم قادرون على القيام بذلك بصورة أفضل في اطار الحوار. لذلك، وحتى لو كنت عاجزاً عن التوقيع على البيان - الفلسطيني - فإنني أرى فيه خطوة للحوار، وآمل أن تكون له استمرارية. . . ».

القضية أن كلدرون لا يتوقف عند هذا الحد، ويتجاوز صيغة التعميم في النوايا «الحسنة»، وتعويم الموضوع فوق أسطح «انسانيته»، ويبتعد في توصيف وتخطيط طبيعة وغايات هذا الحوار، بنوع من الإصرار المغرض على أنها «عنزة، ولو طارت». وإلا، ماذا يحضر كلدرون لهذا الحوار، وما هي الأسس التي يبنيه عليها؟ ليس أقل من نفي حق الفلسطينيين المشروع بالعودة إلى الوطن! مقابل ما يعد به الفلسطينيين من «انجازات» وهمية بالطبع. إذا وافق محاوروه من بينهم على هذا الشرط «الطازج» القادم إلينا من فرن اليسار الصهيوني (هناك من يجادل في كون كلدرون يقف في «يسار اليمين»، بينما المتفائلون يقولون إنه في «يمين اليسار» . . .) فلعلّ حواره معهم يصبح ذا غايات حقيقية. لذلك يكتب هكذا : «لا يمكن أن يتم الحوار الجوهري إذا طلب الفلسطينيون من الإسرائيليين التوقيع على صيغة كهذه التي ظهرت في نداء المثقفين («إعتراف إسرائيل بمسؤوليتها عن خلق قضية اللاجئين الفلسطينيين في العام ١٩٤٨، هو شرط مسبق لإيجاد حلٍّ عادل ودائم لهؤلاء اللاّجئين، بموجب قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة بالأمر»). من يطلب مني التوقيع على صيغة كهذه يطلب أمرين : أوّلاً، تعريف حرب الإستقلال في ٤٨ كإثم اقترفتْه إسرائيل؛ ثانياً، القبول بـ«حق العودة»، التي تعني عدم إعتراف الفلسطينيين بخط الرابع من حزيران ١٩٦٧. أرفض بكلتا يدي هذين المطلبين. مسؤولية إسرائيل عن طرد الفلسطينيين قائمة، وهي ثقيلة. لكنها أصغر من مسؤولية القيادة الفلسطينية، التي رفضت خطّة التقسيم ونادت الجيوش العربية لغزو إسرائيل وتصفيتها».

هكذا يبدأ حوار كلدرون، لذلك، فهو منته بهذا الشكل المأساوي. وليس غريباً أن ينتهي إلى نفس النهاية في مقالته المذكورة، عندما يكتب :

«سيكون من الصعب اقناع الشعبين بالتصالح. من يعلم كم من الدماء ستسفك حتى تجيء المصالحة. القوى المعارضة للحل في الجانبين هائلة. لذلك من المهم أن يوضح المثقفون الأوضاع والمواقف لا أن يشوشوها. بدون خط الرابع من حزيران لن تكون مصالحة، بدون خط الرابع من حزيران سيظل وقود «مصير عوفرة كمصير يافا» يزود المستوطنين، ووقود «مصير يافا كمصير قبر يوسف» في نابلس

يزود حماس. وتدلّنا التجربة على أنّ الحوار بين المثقفين الإسرائيليين والفلسطينيين حقّق نجاحاً فقط بعد أن امتنعوا عن إدخال تصريحات تاريخية شاملة، وعندما لم يقطعوا الطريق أمام ديناميكا الحوار بوثائق متشددة». («يديعوت احرونوت»، ٢٨/١١/٢٠٠٠).

هذه الديناميكا التي يطلبها نسيم كلدرون تختفي عندما يكون الحديث متعلّقاً بالمعاناة الفلسطينية الحقيقية اليومية وليس القومية فقط. وهي ظاهرة تسم قطاعات كبيرة من اليسار الصهيوني المثقف، ثم تجريبها في حروب إسرائيل كافة، وبرزت بشكل خاص في الموقف من العدوان على لبنان، وفي المواقف العامة من حقوق الإنسان داخل وخارج «الخط الأخضر». لم تنفع مئات النصوص المكتوبة ابان الحرب في نفي صفة «البلادة» إزاء الألم الإنساني، ما دام ذلك يخصّ حالة الإستنفار القومي العام الذي يعيشه الجميع في إسرائيل. وفي داخل هذه الحالة، «لا مكان للعواطف. ففي الحرب، كما في الحرب»، كما يقولون في اليسار أيضاً، ويتباكون!

إنغلق اليسار عن الألم الفلسطيني، وبرز ذلك كظاهرة عامة مقرونة بالأجواء التي ما زال يحاول التهيئة لها ضمن مناخ الحريق العام. وفي ذلك لدينا «شهادات على أهله»، وردت في كتابات اسحاق لاؤور وأمنون راز وعادي أوفير وآخرين، تبدو معروفة لنا من «حرائق» أخرى سابقة - لبنان، مثلاً، لمن يكاد ينسى.

في مقال بعنوان «أبواب القلب المغلقة»، كتب الشاعر اسحاق لاؤور: «لا يعتبر الإنغلاق صفة نفسية لهذا الشخص أو غيره، بل هو موقف يجمع قسماً كبيراً ممن يسمى بمعسكر السلام أو اليسار الصهيوني: ممنوع التماثل مع ألم الفلسطينيين، لأن تماثلاً كهذا يضع المتماثل في مستوى واحد مع العرب (...) أحد دروس حرب لبنان لليسار الصهيوني كان عدم إبقاء الشارع لليسار، فالتماثل مع الألم - وهذا هو الموضوع الأساسي لمعسكر السلام منذ سنوات، يتحول إلى نقيضه - الإنكار الشديد لهذا الألم». («هآرتس»، اكتوبر ٢٠٠٠).

تلك هي خيانة اليسار الإسرائيلي، التي لم تبدأ مع الأحداث الأخيرة، بل قبل ذلك بكثير. ولدينا في ذلك «شهادات يسارية» تؤكد بحرارة على ما استنتجه الباحث والمؤرّخ التقدّمي أمنون راز، عندما كتب يقول إنّ «الكشف عن الوجه الحقيقي لليسار الإسرائيلي ربما يكون أحد أهم مكاسب الإنتفاضة الفلسطينية الحالية»، وله في ذلك عبرة: أنّ اليسار الإسرائيلي لم يتأخّر فحسب عن الوقوف إلى جانب الفلسطينيين، بل قدّم مساهمة حاسمة في ممارسة الضغوط في سبيل إملاءات إسرائيلية عرضت كأنّها أفضل مما يعرضه اليمين. لم يلتفت اليسار الإسرائيلي أبداً للموقف الفلسطيني، وهذه حقيقة تاريخية، بل إنّ تأييده للسلام جاء بدافع الحفاظ على صورته كمتنور وتقدمي «فقد اشتغلوا بانفسهم وبهويتهم أكثر مما لو اشتغلوا بحقوق الفلسطينيين. وطرحوا أنفسهم كطلاب سلام، دون أن يكون لهم موقف مبدئي. وعدا «كوكتيلات السلام» التي نظمها اليساريون الصهيونيون مع النّخبة الفلسطينية، أغلق هذا اليسار الباب أمام أيّة محاولة للنقد أو التضامن. (راز، في مقالة عن التعايش، «فصل المقال»، اكتوبر ٢٠٠٠).

٢

بينما يعطي أمنون راز كركوتسكين الأولوية للكشف عن الوجه الحقيقي لليسار الصهيوني، يبحث ران هكوهن، أستاذ الأدب المقارن في جامعة تل أبيب، في «انجاز» آخر من انجازات «انتفاضة الأقصى» : أنها أعادت إلى أجندة اليسار الصهيوني مسألة البحث في مصير المستوطنات الكولونيالية في أراضي الدولة الفلسطينية. «إذا كان بالإمكان الإشارة إلى انجاز مركزي للإنتفاضة الفلسطينية الشعبية - يقول هكوهن - فتلك هي إعادة المستوطنات إلى جدول الأعمال القومي العام في إسرائيل».

في البداية، كان رد الفعل العام متميزاً بالضبابية، وقد كان بمثابة محصلة طبيعية حتمية لايحاءات عملية التسوية الضبابية لدى «نصف الإسرائيليين» ممن يتربعون في خانة «معسكر السلام» في القاموس السياسي الإسرائيلي، بأن إنجازات التسوية المعنوية هي الأهم، وبإمكان الانجازات المادية أن تنتظر «الظرف المناسب» (اخلاء المستوطنات، القدس، حق العودة). ويخيل أن ذلك ناجم عن الطريقة التي بها فسّر اليسار الإسرائيلي الصهيوني إتفاقية أوسلو المرحليّة، وكان من الأسهل له أن يبني على عملية بث الضباب أمام الوعي العام على المسار الفلسطيني من التفكير ولو من باب البحث في «الغيبيّات المحظورة والمؤجلة» في مصير المستوطنات مثلاً في ظل «المصالحة التاريخية»، وهي مصالحة فضلوا الاحتفاظ بها على السطح المعنوي، «مطمئنين» إلى «أخلاقية القوة» في المحافظة على البيت القومي من مخاطر ما باتوا يعترفون بأنّها «حرب الإستقلال التي يخوضها الشعب الفلسطيني»، بوازع من دروس هذه «المصالحة» وعبرها بالذات.

قوبل ردُّ الفعل الفلسطيني في البداية بما يُسمّى بالبلبلة لدى اليسار الصهيوني - «لغة نقية جداً تعبّر عن جرف قوموي حاد ومنسق جيداً مع الأوساط العليا في الإعلام، وبالتنسيق مع المؤسسة بطبيعة الحال»، كما يكتب هكوهن، الذي يكشف في مقاله كيف أن صحيفة ليبرالية مثل «هآرتس» رفضت في الأسابيع الأولى من الانتفاضة نشر مقالات نقدية، حتى لكتّاب أعمدة الرأي المخضرمين فيها، تطرح مسألة اخلاء المستوطنات كمخرج من هذا الحريق.

لكن بعد شهر، وفي مطلع نوفمبر، بدأت تتردّد أصوات «متعقلة»، لم يكن صدفة أنها أصبحت تنادي بوضوح كبير بإخلاء المستوطنات : «من الصعب أن نحدّد بالضبط الأسباب التي دفعت بالمتعقلين للعودة إلى الحديث عن المستوطنات. لعلّهم استوعبوا أخيراً حقيقة أنّ الهتافات المطالبة بإبادة دولة إسرائيل لم تعد تصدر عن الفلسطينيين، بل تنطلق من صندوق الترجيعات الأيديولوجية الإسرائيلية المستهدفة تبرير الإحتلال.». (ران هكوهن، من كتاب يصدر بالعبرية قريباً عن الانتفاضة الثانية واليسار الصهيوني، أشرف على تحريره عادي أوفير).

مهما يكن من أمر، فقد عاد الموضوع إلى الصالونات اليسارية، بكثير من التشويه والحقائق المقلوبة. وابتداء بشهر نوفمبر أخذنا نقرأ كلاماً كهذا لم يعد صادراً عن «غير المبلبلين» المخضرمين فحسب، الذين اتّخذوا موقفاً نقدياً من أوسلو قبل اندلاع الإنتفاضة، بل شمل أسماءً جديدة لم يسبق أن قالت شيئاً في هذا الصدد. كان الأديب دافيد غروسمن أول الأصوات التي نادت بإخلاء المستوطنات، وهو المعروف بتأييده لعملية أوسلو، وممن يتحدثون أحياناً عن «استحالة» اخلاء جميع المستوطنات،

وعن « ضرورة » ابقاء « كتل استيطانية كبيرة » داخل أراضي الدولة الفلسطينية. لكنه استخلص هذه المرة أنه « لم يعد بالإمكان التأتأة بعد الآن » (« هآرتس »، ٣ / ١١ / ٢٠٠٠). بعد أسبوع على ذلك نشر الأستاذ الجامعي زئيف شطرنهال أحد أبرز مؤيدي أوسلو في اليسار الصهيوني مقالاً بنفس الروح بعنوان « العودة إلى السابقة المصرية » (في إشارة إلى اخلاء « يميت » من سيناء بعد اتفاقات كامب ديفيد مع أنور السادات)، وصدرت أصوات مشابهة عن الباحث الإجتماعي موشيه شكيد ومناحم كلاين وافيعاد كلاينبرغ (« ليس لبنان بل الجزائر »، « هآرتس »، ٢٦ / ١١ / ٢٠٠٠)، وحتى عن ميخائيل بن يئير، المستشار القضائي السابق للحكومة الإسرائيلية (« لنعترف بمحدودية القوة »، « هآرتس »، ٢٧ / ١١ / ٢٠٠٠).

لا يعني تغلغل النقاش في مصير المستوطنات إلى صالونات اليسار الصهيوني أن صداه تناهى إلى أطراف المجتمع الأخرى. لكن البارز هنا أن الأكاديمية الإسرائيلية وأساتذة علم الإجتماع والأدب كانوا السباقين هذه المرّة إلى إثارة الموضوع، وحتى في التهيئة له على الصعيد الإعلامي على الأقل. وقد وصلت ذروة ذلك في العريضة المنشورة في الصحافة الإسرائيلية يوم ١٧ / ١١ / ٢٠٠٠ التي جاء فيها : « لم تفكك حكومة باراك ولا حتى مستوطنة واحدة. بل بذلت في تطوير المستوطنات وتوسيعها أكثر من حكومة نتنياهو. إذا لم نكن إزاء إنعدام إستقامة هنا، فنحن إزاء غياب الفهم على الأقل. إبقاء المستوطنات في مكانها أو توسيعها يحول دون أيّة إمكانيّة لمد خط محدود معقول بين إسرائيل وفلسطين. ذلك يعني من الناحية العملية تخليد الإحتلال. إنّنا نطالب حكومة إسرائيل بالإعلان عن تجميد فوري للمستوطنات والإعتراف بحدود ٤ حزيران ٦٧ كقاعدة لترسيم الحدود بيننا وبين الفلسطينيين... الغالبية العظمى من المستوطنات ستضطر لأن تُزال ».

كان الجديد في هذه العريضة أنّها لم تقتصر على حفنة يساريّين راديكاليّين كما في الماضي، بل ضمّت توقيعات العشرات من مؤيّدي « ميرتس » البارزين، جميعهم من الشخصيات الثقافية والفكرية العامّة، ولم يسبق لهم أن انتقدوا أوسلو علانيّة. من أبرزهم : لوبا الياف، حاييم بئير، ابراهام ب. يهوشع، نتان زاخ، س. يزهار، سامي سموحة، ايلي عمير، دييف قمحي، وحتى من تحوّل في عهد باراك إلى أديب بلاط — عاموس عوز! بعد أيّام على صدور البيان، كتب باروخ كمرلنغ، أستاذ علم الإجتماع المعروف وصاحب كتاب « صيرورة شعب » الذي يبحث في التاريخ الحديث للشعب الفلسطيني، مقالاً في صحيفة « هآرتس » قارن فيه بينه وبين عريضة سابقة لأدباء « من أجل أرض إسرائيل الكبرى » نُشرت بعد عدوان الخامس من حزيران ٦٧، مجملاً إستنتاجاته بالعنوان « نهاية عهد الكولونيالية الإسرائيلية » (٢٢ / ١١ / ٢٠٠٠).

يرى كمرلنغ أنّ « عمليّة نقض الكولونياليّة الإسرائيليّة عبرت حاجز التراجع »، وأنّ « الأسئلة الوحيدة التي بقيت مفتوحة هي كم من الدماء ستُسْفَك إلى أن يتغلغل هذا الإعتراف لدى القيادات السياسيّة وتستخلص النتائج العملية المطلوبة ».

لعلّ هذه النتائج رهينة الوسط الأكاديمي الذي ينحدر منه كمرلنغ وهكوهن، مع ذلك، يحمل هكوهن بدوره « النتائج العملية المطلوبة »، وإن كان يتحفّظ في مقالِه من أنّه في الجدل حول مصير

المستوطنات بين الوسط السياسي والوسط الشعبي لا ضمانة بأنّ صوت الأخير سينتصر:

«يجب التعلّم من الخطأ الكبير لعملية أوسلو، التي أسقطت معسكر السلام في فخ مسيحانية سلبيّة، تؤمن خلافاً لكلّ الدلالات انّ المستوطنات ستُخلى ذات يوم «من تلقاء ذاتِها»، لذلك لا يجب مضايقة حكومات اليسار بالذات التي توسعها وترعاها. إذا كانت لدى حكومات إسرائيل نوايا خفيّة، فهي توسيع المستوطنات وليس إخلاؤها أبداً. أفضل صديق للإحتلال هو من يصمت أمامه بدافع من الإيمان بنوايا حسنة خفيّة، وبحيويّة التاريخ وديناميكا العملية. من يريد السلام مطالب بالمطالبة بإخلاء المستوطنات، جميعها، من نتسريم وبساغوت مروراً بعوفرة وبيت إيل حتى جيلو وكتسرين (في هضبة الجولان). المطالبة بإخلائها الآن، سواء كان هناك شريك أم لا، أكان هناك عنف أم لا. تحت الرصاص أيضاً. خصوصاً تحت الرّصاص. يخيّل أن أفضل تعبير عن المطلب الشهير ليشعياهو لايبوفتش وإسحاق بن اهرون في هذا المجال، هو شعار قديم لهما، عمره في مثل عمرِ الإحتلال: الخروج من جانب واحد من المناطق، الآن!».

٣

فجأة صارت هناك «غربة يهودية» في فلسطين، عبّر عنها ابراهام ب. يهوشع في مقالةٍ مشحونة بالإنفعالات والعواطف، نشرها في أوسع الصحف اليومية إنتشاراً («يديعوت احرونوت»، ٢٢ / ١١ / ٢٠٠٠) في مكانٍ بارز وسط بحر الأخبار «الدامية»، تحت عنوان «من أجل أطفالكم...»، خاطب فيها المستوطنين الكولونياليين بلغة: «اخوتي... من أجلكم ومن أجل أولادكم»، مطالباً إيّاهم بالعودة من «المنفى الفلسطيني» إلى «البيت»، إلى هذا الجانب من «الخط الأخضر». وجرياً على عادته، يضفي يهوشع صبغة ميلودراميّة على نصّه، تكاد تلامس حدّ التهريج: «هل كان ينقصكم مكان في دولة إسرائيل حتى ذهبتم إلى قطاع غزة وقلب السامرة؟ هل الجليل مأهول بأهله؟ ألا يوجد مكان لكم في النّقب؟ هل جميع هذه الأماكن ليست أرض إسرائيل - مثل نتساريم أو كفار دروم أو غوش قطيف أو بساغوت؟».

ومع انّ يهوشع يتناسى هويّة منتدبي هؤلاء المستوطنين - حكومات العمل واليسار الصهيوني - إلاّ أنّه يمضي في استدرار عطف الميلودراما، في مسألة شائكة وتنطوي على قدرٍ كبير من السخرية: «قولوا، هل بإمكانكم أن تأتوا بمثالٍ واحد من التاريخ نجح فيه شعبٌ بالسيطرة على شعب آخر لفترة طويلة؟ هل تعرفون مكاناً واحداً في العالم يعيش فيه بشرٌ في وطنهم بدون حقوق إنسان مثل الفلسطينيّين؟ (...) حتى لو قطعنا الشعب الفلسطيني، لن نتمكن من سحق رغبته بالإستقلال وحقّه بدولة على ٢٢٪ فقط من الأرض التي نظر إليها دائماً كوطنه الأصلي؟». ويختتم: «أيّها الأخوة، أيّها المستوطنون، لا تكونوا عنيدين، بل كونوا أقوياء وعقلاء... عودوا إلى دولة إسرائيل، فهي موجودة أيضاً في أرض إسرائيل».

اللاّفت للنّظر في خطاب «يهوشواع» هذا، انّه لا يقول كلمة نقدٍ واحدة للسّلطة التي أوفدت هؤلاء المستوطنين - وهي السلطة التي هو جزء من حزبها - بل يقوم بإخراج المسألة من سياقِها،

ويختار أسهل الطرق : « مناشدة » المستوطنين تجنيبه وتجنيب دولته عناء الشرور، جرّاء استمرار مكوثهم هناك. على أيّ حال، هي كلمة حقّ يُراد بها باطل!

على عكس يهوشع، يدافع أهرون ميجد، الكاتب اليميني المعروف، عن هذا « الإنتفاء اليهودي » في الوطن من خلال العودة إلى التأكيد على « الصلة الروحانية » التي يحتاج إعادة إبتكارها الآن على ما يبدو أكثر من ذي قبل مع هذا « المنفى ». ومع أنّه بات يصرّح مؤخراً فقط وبوضوح نسبي أنّه مؤيّد لقيام دولة للفلسطينيّين، إلاّ أنّه لا يوضح كيف يريد الحفاظ على « صلاتِه الروحانية » بما يقول أنّه جذوره التاريخية فيها، بينما يمضي في أحلامِ يقظتِه بقدوم السلام. ويقول :

« سكّان البلاد العرب، المنزرعون في أرضِها منذ عشرات الأجيال، جديرون بالإستقلال كبقيّة الشعوب، إذا كانوا يعتبرون أنفسهم شعباً مختلفاً عن الشّعب الأردني أو السّوري أو اللّبناني، فليس نحن من يقرّر لهم. لذلك علينا التسليم بقيام دولة فلسطينية في جزء من أرض إسرائيل. لكن حتى بهذه الطريقة لن نتمكّن من الإنقطاع، لا تاريخياً، ولا ثقافياً، ولا دينياً، ولا ذاتيّاً، من ذلك الجزء الذي سيكون تحت سيطرة الفلسطينيين، ولن نستطيع اعتباره « منفى » أبداً. فلو كانت يهودا والسامرة، وبضمنها الخليل وبيت لحم وتقواع وعناتوت وبيت إيل وأريحا وجبل جرزيم وجبل البيت « منفى »، أي خارج البلاد – فلماذا جئنا إلى هنا من الأساس؟ ولماذا نواصل إنشاد « هتكفاه » مع « عين إلى صهيون ترنو » وما أشبه؟ إن أحداً منّا لن يصدّق أنّ « أرض الآباء » التي عدنا إليها بعد مئات السنين في المنفى هي بالذات هذا الشريط الساحلي بين نتسريم ونهاريا، حيث الرمال نظيفة تماماً من الذكريات التاريخية التي شكّلت لنا دفعاً للمطالبة بحقّنا بالعودة والإستيطان في هذا البلد، مهد ثقافتنا » (« يديعوت أحرونوت »، ٧/١٢/٢٠٠٠).

إزاء هتاف ميجد للمسيحانية التاريخية، قدمت أحداث الإنتفاضة الجديدة برهاناً آخر على استحالة ما ذهب إليه بعض كُتّاب اليسار الصهيوني من أوهام إستيطانية أنستْهُم حقيقة الأوضاع « في البيت »، فوجدناهم يكتبون الآن « نحن أيضاً أخطانا »، كما فعل الكاتب سامي ميخائيل. « أنقِذوا مدينتي..! »، هتف ميخائيل، اليهودي – العربي الذي اختار منذ عقود منفاه العبري، وتحوّل للكتابة بالعبرية، مخاطباً الجميع، ليس قبل أن يتبنّى مصطلحات الصهيونية الدينية في الصراع، ويبدأ التباكي على مصيره في البلاد، وهو يرى النار تلتهم مختلف « أنسجة العلاقات » التي حكمت تعاملَه مع الآخرين.. بعد أقلّ من أسبوع على إندلاع إنتفاضة الأقصى، وامتداد ألسِنة اللهب إلى « المدن المختلطة » في الداخل، وبضمنها حيفا، بلد الكاتب الشيوعي السابق، الذي صار صهيونيّاً مباشرة بعد هجرته إلى البلاد، كتب ميخائيل مقالاً بعنوان « أنقذوا مدينتي »، استهلّه بالقول :
« عاصفة نار ودم جديدة تغمر أرض إسرائيل، التي ترفض الإنقسام، وترفض التصالح. تاريخ مزور وسياسيّون بلا ضمير، يقودون الشعبين إلى حلبة القتل والإنتحار المتبادل. هذا هو اليوم العظيم لليهود والمسلمين المتعصبين، الذين يرون السّلام خطراً مميتاً. هذا هو الفشل المدوي لأنصار السلام الذين لم يعرفوا كيف يترجمون حلمَهم إلى لغة مفهومة، وهذا هو يوم الحزن الكبير لمن أوصل باراك إلى سدّة الحكم، أملاً أن يجلب السلام ويضع حدّاً لسلطة الديماغوغيين الذين يقومون بإثارة القطيع.

هذا هو اليوم الأسود لليسار الإسرائيلي، الذي تخلّى عن باراك وحطّم صورته في أنظار شعبه. هذا اليسار يتحمّل مسؤولية كبيرة لأنّه صعد إلى قطار علماني منتزَع لكي يحطّم «شاس»، الحليفة الوحيدة من المعسكر الآخر في صنع السلام».

في البداية، لم يكتف سامي ميخائيل ببيته الجديد على ما يبدو وهب يتقمص دور النافخ في البوق بدوره، ما يليق بالمكانة التي يسعى كل الوقت للتربّع فيها، إلى حدّ أنّه أمسك مؤخراً وهو يهذي: «الصهيونيون الحقيقيون اليوم هم المستوطنون» – يكتب، يقول، في كتاب المقابلات المطوّلة التي أجراها معه الصحفي روبيك روزنطال وصدر هذا العام – «المستوطنون هم من يحتلّ الأرض بتضحيةٍ عظيمة بالنفس، ويعرّضون أولادهم وأنفسهم للخطر، وأنا لست معهم. أنا موجود في الطرف الثاني، مع ذلك أخشى أن يُقتل أحدٌ منهم. عندما يُقتل مستوطن في عمليّة، يسيل دم اليهودي الذي بداخلي. أنا قلقٌ على مصير أبنائهم..» (ص ١٦). وهو القائل في نفس الكتاب: «لكي نكون جزءاً من الحاضر الإسرائيلي، ولكي نبرّر عدم التجاوب الفوري مع أمر الهجرة طالما أحسسنا بالأمان هناك، فإنّنا نقوم بقتل اللاّجئ الذي في قلوبنا ونعظّم الصهيوني الذي في أرواحنا..». (ص ١٠).

«تعظيم الصهيوني الذي في الرّوح» كان وما يزال يعني – ثقافياً على الأقل – كراهية العرب كمقدمة «ضرورية» للخروج من مأزق الهويّة، الذي وصله الشرقيون اليهود وما زالوا عالقين فيه حتى اليوم. وفي ذلك يكتب سامي شالوم شطريت، النّاطق بلسان السفاراديم: «عرفتُ على الدّوام إلى أيّ حدّ نحن الشرقيّين أسرى مِصْيَدة الهويّة القومية هذه، التي تلزمنا بكراهيّة العرب للفوز بوجودنا، مع ذلك فقد آمنت بنفس القدر من اليقين أنّنا في الواقع نكره أنفسنا فقط في فخ الكراهيّة هذا. آمنت بأنّها مسألة وقت مردّها القمع الثقافي الذي نتعرّض له. لكن الوقت يظل يلعبُ دوراً حاسماً وديناميكياً. أجيال ثلاثة من الكراهيّة تعمل عملها. لم يعد للشرقي اليوم أيّة حاجة بكراهيّة العروبة لأنّها لم تعد موجودة، عروبتنا غائبة! فقد أُبيدت على يد الصهيونيّة. لا يوجد يهود – عرب في العالم بعد اليوم. هناك شرقيّون في إسرائيل وهناك سفاراديون وشرقيون مغتربون في العالم ومعظمهم يقبعون عميقاً في مصيدة العالم الصهيوني الاشكنازي».

كما سامي ميخائيل، وآخرين، بالضبط!

٤

إذا كانت حرائق الشهور المنتهية قد أثارت هذا القدر من «الضغائن الشرقيّة» لدى الكُتّاب السفاراديم، الذين باتوا يستشعرون القواسم المشتركة بينهم وبين الفلسطينيين ولو بشكل مشطور، فإنّها خلخلت الأسس الواهية التي وقف عليها كُتّاب وشعراء «اشكناز»، ممّن يخطبون ضدّ المؤسّسة، ولكنّهم يخطبون ودّها قبل نهاية المطاف. هكذا بدا نتان زاخ بصورة باعثة للحزن واليأس، وهو يستخلص عِبَرَهُ ودروسَهُ من الأوضاع. في استطلاع أجرته «هآرتس» (٢٠/١٠/٢٠٠٠) عن أزمة اليسار الصهيوني في ضوء الإنتفاضة، إختار زاخ المقارنة بين القاتل والضحيّة، في «إستثناء» مجازي

نادر الوجود لديه، وإنْ بدا أنّه قابلٌ لأن يتكرّر. «من يرغب بالتعلّم من التاريخ مُطالبٌ بقدر قليل من التواضع المناسب. حتى لو عاد التاريخ، فإنّ التاريخي لا يعود إلى الأبد»، يكتب زاخ، الذي يتباكى على «حجم الفرصة الضائعة»، بعد أن وجد أن ياسر عرفات مسؤول عن التفويت! من هنا، فإنّ الطريق إلى الإستنتاج المذهل الذي توصّل إليه ليس من دون «سذاجة قاتلة»، كانت قصيرة: «عدا عن مهمّة الإصلاح الكبرى الملقاة اليوم على إسرائيل، فإنّ إسرائيل المتنوّرة (أقليّة ليست كبيرة في الشعب) تقف مجدّداً أمام المهمّة القديمة – الجديدة: الإعداد النفسي والسياسي للجولة التالية في عمليّة السلام، وهذه المرّة من دون مساعدة عرفات ومؤكد من دون تدخّل الكثيرين من أبطال التراجيديا الحالية. بكلمات أخرى: إنّها العودة إلى الصحراء».

لا أدري ما الذي يدفع شاعراً مُرهفاً وطليعيّاً مثل زاخ إلى هذه الإستنتاجات القاتلة، عن إختفاء «الشريك» الفلسطيني، إلاّ إذا كان ذلك هو «الإحساس بالواجب» وليس «إسقاط الواجب» تجاه المعركة ما يجعله يقول مثل هذا الكلام، الذي لا يختلف كثيراً عن ذاك الذي تقوم بإنتاجه آلة الدعاية الصهيونية يومياً، وبالأطنان، حتى لو غلّفه بالميثولوجيا ذات الطبيعة النقدية، كما في قصة الخروج إلى الصحراء، المعروفة! ولكن ما نفع الميثولوجيا إذا كان الواقع المرّ أشدّ إيلاماً، وأمضى من أيّ «تيه في الصحراء»؟

«ذات يوم، في أواخر شهر سبتمبر ٢٠٠٠، إكتشف الإسرائيلي المتنوّر أنّه ما زال يرتدي حذاء المحتل، وأنّه ما زال يقف أمام مئات الآلاف من الرّعايا المعادين، الذين يمتلكهم الغضب والكراهيّة، ولا يستطيعون إحتمال لا مبالاته تجاه معاناتِهم» يكتب الدكتور عادي أوفير بصورة أوضح، وبخطاب سياسي لا يحتمل اللّبس، خلافاً للشاعر التقدّمي المتنوّر: «الإنتفاضة الفلسطينية الأخيرة تضمن لنا على الأقل شيئاً واحداً: لن يكون هناك إحتلال متنوّر بعد الآن. في ظلّ غياب اتّفاق، ستتّسع الصدامات، وربما تندلع الحرب. وسيضيف الإسرائيلي المتنوّر سترة أخرى واقية من الرصاص إلى حذاء المحتل، ويقوم بالملقى عليه، مسلّحاً بأحقيّته العمياء. وفي تراب البلاد ستختلط لترات كثيرة من الدّم اليهودي ودم الفلسطيني، ضمن النّسب المناسبة، لرسم الصّورة الجديدة لدولة الابرتهايد اليهودية». (١٧/١٠/٢٠٠٠).

فهل هناك تيه أكبر من تيه إنتلجنسيا دولة الأبرتهايد، التي تلجأ، في سبيل المضي نحو هدفها، إلى إعادة إنتاج الميثولوجيا، وإحياء «حكايات» مستهلكة من الماضي البعيد، لعلّها بذلك تعيد إنتاج هويّتها في واقعٍ متغيّر، ليس من الواضح أنّه سيظلّ قادراً على إنتاج المزيد من هذه «الحكايات»؟

تيه الإنتلجنسيا الإسرائيلية، في مطلع الألف الثالثة، ما بعده تيه!

(باقة الغربية / المثلث)

حيث يكون الجنود تكون الحجارة

عميرة هس

* إلى أين تذهبين؟ - سألني أحمد ابن الخامسة، وأراد بدلاً من الاحتجاج على أنّي أفسدت عليه مواصلة اللعب معه بالطائرة والأرجوحة الدوّارة، حسبما نفعل دائماً عندما آتي إلى غزة وأحلّ ضيفةً على بيتهم. في أيام أخرى غير أيامنا هذه، أي قبل انتفاضة ٢٠٠٠، درجت على أن أجيبه بأنني ذاهبة إلى العمل.

في ذلك الوقت، قبل الإنتفاضة، كان «العمل» يعني الخروج من البيت ومقابلة موظفين في مكاتب السلطة الوطنية لاطلاعي على كومة الطلبات المرفوضة لتصاريح خروج إلى الضفة الغربية أو إسرائيل أو للمّ شمل العائلات، وكذلك تجاذب أطراف الحديث مع نشطاء في المعارضة وإن كانوا لا يقترحون بدائل عملية، والتجوال في الشوارع لتسجيل أن الحوانيت تكاد تكون خالية من حركة المتسوقين وأن المسافرين في «التاكسيات» يتحدثون علانية كم أن الأوضاع بائسة وكيف أنهم لم يغادروا حدود القطاع منذ خمس أو سبع سنوات، وتوثيق حركات الناس الذين يملأون «دزينة» من التنكات بمياه صالحة للشرب من صنابير رئيسية لأن المياه التي تصل إلى المنازل مالحة وملوثة، والإشارة باكتفاء إلى أنه على رغم كل ما تقدّم فثمة بعض حوانيت بيع الورود في غزة، وتسجيل مهانة امرأة من مخيم جباليا للاجئين لمحت صحفياً أجنبياً وبحوزته كاميرا فصاحت به : إنكم دائماً تحضرون لرؤيتنا متلبّسين بُذلنا، نفس الشيء منذ ١٩٤٨.

أما الآن، يوم الجمعة، الأسبوع الأول من إنتفاضة الأقصى، قبل ثلاثة أيام من إقدام الجيش الإسرائيلي على تفجير «البنايتين المتجاورتين» قرب الموقع العسكري الإسرائيلي في مفترق «نيتسريم» والجدار المقابل لهما، الذي قتل في محاذاته الطفل محمد الدرّة، فقد أجبت أحمد : «أنا ذاهبة لرمي الحجارة على الجيش». وقد بدا له هذا التفسير معقولاً جداً، إلى درجة أنه صدّ أي احتجاج محتمل. وفي المساء، عندما عدت إلى البيت، أبلغني بصوت مجلجل أنه شاهدني في التلفزيون أرمي الحجارة.

(يا لها من توزيعة عمل غريبة وموجعة، طبيعية وجنونية : هناك من يرمون حجارة، هناك من يرمونها ويُقتلون، بعد ذلك، يتراكض المئات صوب المستشفيات، والآلاف يشتركون في الجنازات،

العشرات يطلقون صيحات الغضب والألم بينما يسير الآخرون كأن على رؤوسهم الطير وراء الحمّالة التي يُسجّى فوقها الميت، وعشرات الآلاف الآخرين يجلسون في البيوت ويشاهدون عبر التلفزيون الجنازات، واطلاق النار، ويحافظون بكل ما أوتوا من قوة على أن لا يخرج أولادهم إلى الشوارع. ويجد الأهل أنواع لا حصر لها من «أشغال الطوارئ» لأولادهم في البيت من أجل أن يبقوا في مرمى بصرهم، لا في مرمى بنادق جنود الجيش الإسرائيلي).

طبعاً لم يشاهدني أحمد أرمي حجارة، لأنني لم أرمها فعلاً. لقد ذهبت إلى هناك كصحفية لأكتب عن رماة الحجارة وعن رميات النار القاتلة المتواصلة، التي أطلقها جنود إسرائيليون غير مرئيين محميون جيداً عن بعد كيلومترين على الأقل، من مواقع قنصٍ في مستوطنة «نيتسريم».

آلاف الناس تدفقوا بعد صلاة الظهر إلى هذا المكان الرمزي، المكان الذي لا يرمز فقط إلى جيش غريب عالق في منتصف الطريق الرئيسي للقطاع، وإنما أيضاً إلى وجود هذا الجيش في مكان يُحظر عليه التواجد فيه، بموجب نصوص اتفاق أوسلو.

في الجيش الإسرائيلي ما زالوا ناقمين على أسامة العلي، أحد الضباط الكبار في الأمن الفلسطيني والمسؤول عن التنسيق الأمني معهم، وهو صاحب مبادرة تشييد بنايتي السكن لعائلات أفراد الشرطة، على مقربة من الموقع. يا للوقاحة! فلسطيني يجرؤ على أن يفرض وقائع على الأرض! والدارج على لسان الجيش الإسرائيلي في العادة أن هاتين البنايتين - كل واحدة منهما ذات خمسة أو ستة طوابق.. أصبحتا «مراكز للهجوم»، في سبيل إثارة الانطباع بأن الحديث يدور عن هجمات فلسطينية مهولة على الموقع العسكري. حالياً ما بقي هو الموقع العسكري فقط. البنايتان هدمتا حتى الطوبة الأخيرة. والعائلات فقدت مأواها. كذلك تم اقتلاع البيارات والبساتين من حولهما. فليعرف الجميع مَنْ القويّ هنا.

في ذلك الوقت، يوم الجمعة نفسه، أوقعت رميات الرصاص عن بُعد المزيد والمزيد من الضحايا. وفي نهاية ذلك اليوم بلغ عدد القتلى أربعة. لكن الناطق العسكري لم يكلّف نفسه عناء التصريح بشأن هذه الرميات اللانهائية، واكتفى بالتصريح عن حادثتين اثنتين، فقط أطلق خلالهما الجنود نيران أسلحتهم في الموقع الذي كان عرضة للهجوم في المفترق نفسه، الأولى رداً على اطلاق النار من جانب مسلح فلسطيني والمرة الثانية رداً على أنبوب غاز جرى قذفه في اتجاه الموقع.

لقد سجلت في دفتري كل رمية نار، وسألت نفسي في ذلك الوقت، وهانذا أتساءل الآن عن عشرات الأماكن في الضفة والقطاع، التي تحدث فيها مواجهات يسقط على إثرها قتلى ويصدر الناطق العسكري بشأنها، على رغم وقوعها فعلاً، بيانات جريئة للغاية، يحتضنها الإعلام الإسرائيلي دون أن يغيّر فيها حتى فاصلة واحدة، فيتماشى كل شيء مع صورة الملاحقة التي أحاط الإسرائيليون أنفسهم بها منذ الساعات الأولى للانتفاضة. يتماشى ويزوّد الوقود لمشاعر المهانة والضحية. الحجارة قاتلة. ونحن حسبنا أن الفلسطينيين راغبون بالسلام، يا للخيانة.

(أعرف أن مجرّد مزاحي مع أحمد ابن الخامسة حول مشاركة متخيلة في رمي الحجارة من شأنه أن يزوّد الذين يزعمون بأني تجاوزت الخطوط الحمراء، بالمزيد من الذخيرة. لكن هاكم الإثبات القاطع

على أني لم أتجاوز مثل هذه الخطوط : ذات مرة، في أخريات الإنتفاضة الأولى، كانت والدتي ابنة الثمانين عاماً ونيّف تشاهد التلفزيون وهو يعرض مظاهرة ما يرمي بعض الأطفال الفلسطينيين خلالها حجارة صوب جيب عسكري إسرائيلي. «فالداكو» ـ قالت والدتي التي كانت تتكلم بلغة عبرية مطعّمة بلغة صربية ـ كرواتية. ومعناها : ما أحلاهم ! وسألت ما إذا كان بالإمكان أن تحصل من أليكس ليباك (المصوّر الصحفي) على صورة أو إثنتين لأطفال الحجارة. وحصلت فعلاً على مبتغاها : الصورة الأولى لطفل من مخيم جباليا للاجئين في غزة والصورة الثانية لطفل آخر من مخيم بلاطة للاجئين في نابلس.

لم تكن والدتي في حاجة لأن تعيش وسط الفلسطينيين كي تحدّد خطوطاً حمراء واضحة لا ينبغي تجاوزها. فهذه المرأة اليهودية التي تعرضت للتمييز بسبب يهوديتها المعلنة في يوغسلافيا الملكية، والتي انضمت إلى فعاليات شعبية بسيطة شبه سرّية ضد سلطة القهر والقمع، والتي ألقي القبض على أصدقائها الأنصار ـ اليهود وغير اليهود ـ من جانب الألمان وعُلّقوا على أعواد المشانق، والتي أودعت في غياهب سجون الغستابو، وبعد ذلك نجت من معسكر الاعتقال في برغن-بلزن، هذه المرأة اليهودية خطوطها الحمراء واضحة وهي خطوط اليسار ـ إذا جاز لي مثل هذا الكشف المعقول ـ وخطوط الحقائق الكونية الإنسانية فوق القبلية. الاحتلال الأجنبي، حتى لو كان يهودياً، هو احتلال ساقط. وأي احتلال، حتى لو كان يهودياً، يستجرّ إنتفاضة. الحق في الانتفاض هو حق إنساني لكل جمهور مضطهد، وبالذات لمثل هذا الجمهور. هل يوجد شيء أبسط من هذا؟.

بيد أن والدي المرحوم والذي طورد أيضاً في الماضي بسبب يهوديته واستميحكم العذر على هذا الاستطراد في الشأن العائلي ـ كان عملياً أكثر. ففي سياق الانتفاضة السابقة رجاني ألا أسافر بسيارتي في الضفة الغربية «لأنهم إذا رشقوا الحجارة فهم يفعلون ذلك عن حقّ»).

حركة يد فتى فلسطيني : اليد ممدودة إلى الأمام، بعد ذلك يميل الظهر والرأس إلى الخلف، تعود اليد إلى الوراء وتبدأ بالارتفاع تدريجياً وببطء ما، ثم تشق الهواء بسرعة وتتجه مرة أخرى إلى الأمام بينما الأصابع تطلق سراح الحجر الذي كانت ممسكة به. إنها حركة تخيف مَنْ يتمسك، بكل ما أوتي من جبروت وقوة، بحقوقه الفائضة، من في مقدوره أن ينصب دبابات، وقناصة من أجل الدفاع عن هذه الحقوق الفائضة، مثلاً، عن المياه ووفرتها للحمّام والعشب الأخضر. بينما في القرية الفلسطينية المجاورة (التي صادروا أرضها قبل عشرين عاماً) ينقلون في الصيف تنكات المياه على ظهور الحمير، فالصنبور خاوٍ لأن إسرائيل، التي تسيطر على مصادر المياه في البلاد ضمن حدودها الانتدابية، تفرض بوقاحة ودون حياء حصة المياه التي ينبغي أن يصرفها الفلسطينيون للاستعمال البيتي.

مخيم قلنديا للاجئين، على بعد خمس دقائق سفر من القدس، يحدّه مطار. ومثل كل فلسطيني في الضفة والقطاع لا يسمح لسكان المخيم بدخول القدس، إلا إذا زوّدهم موظفون وضباط إسرائيليون بتصاريح دخول مناسبة. وهذه التصاريح تُعطى بالقطارة أصلاً.

الحل إذاً : الدخول من غير تصاريح والمخاطرة بالتعرض إلى الاعتقال أو التغريم أو إلى نظرات تبعث الرعب لجندي ما. كان هذا قبل الانتفاضة. أما الآن فمنذ شهرين ونصف الشهر والفلسطينيون

رهائن لدى الجيش كل منهم في جيبه الخاص.

«طوق» هي الكلمة الجديدة للجيش الإسرائيلي، وبالفعل فالمدن والقرى مطوّقة جيداً بواسطة شبان من الكيبوتسات والموشافات والمدن، سفاراديون وأشكناز، جنود بعضهم جاء إلى البلد قبل سنتين أو خمس سنوات من موسكو أو من قيرغستان أو من قرية قرب أديس أبابا أو من بلدة في فلوريدا. وهم الآن ينفذون آخر الأوامر: لا يمنعون ثلاثة ملايين فلسطيني فقط من الخروج من تخوم الضفة والقطاع - وهذا هو الوضع «الطبيعي» في السنوات التسع الأخيرة - وإنما يمنعونهم أيضاً من التحرك في الـ ٢٢ بالمئة من النسبة المتبقية من وطنهم. إنهم يحفرون قنوات، في الحقول حتى يسدّوا عليهم إمكانية الالتفاف، من هناك، على «المحسوم» (الحاجز العسكري) وينصبون كومات الرمال في مداخل القرى والبلدات. وبالمناسبة فإن كل جندي من هؤلاء في مقدوره الآن أن يقرر الانتقال للسكن ضمن شروط مفضلة في أية مستوطنة كولونيالية في الضفة الغربية، إذا لم يكن أصلاً من سكان هذه المستوطنات.

مفتشو «الإدارة المدنية» هم بمثابة «العين الساهرة» التي تضمن أن لا تخترق أية قرية فلسطينية بنيت على أراضيها المستوطنة المحاذية منطقة نفوذها، حسبما تحددت في اتفاقيات أوسلو، لناحية «غزو» أراضي الدولة. وكلمة «غزو» هي ما يكتب على أوامر الإخلاء والهدم والاقتلاع التي يتلقاها فلسطينيون تجرأوا، هم أو آباؤهم، على غرس شتلة شجرة في أرض ستعلن بمرور الأيام أنها «أرض دولة»، أي أرض لليهود. ومن مهبط الطائرات قرب «الإدارة المدنية» تقلع الهليوكوبترات وعلى متنها المفتشون أصحاب الهمّة (قسم منهم يقيم في المستوطنات) فيحلقون فوق القرى ويصورون كل قطعة أرض مزروعة أو بور، ليقارنوها بصور سابقة وليحددوا من ثم «غزوات» أشتال الزيتون أو التين.

من بيتي في البيرة أطلّ على مبنى «الإدارة المدنية»، حيث يقع مقر اللجنة العليا للتخطيط، التي تغيّر الخرائط الهيكلية فتوزّع وتضيف، وتسمع الاعتراضات، وعادة ما ترفضها ليكن واضحاً: هذه اللجنة عملت وتعمل في تخطيط أرض فلسطينية. وليكن واضحاً، مرة أخرى: جميع أعضاء اللجنة إسرائيليون. وليكن واضحاً، مرة ثالثة: ٩٩,٩ بالمئة من التخطيط معدّ للاسرائيليين. وأحياناً تصيب الاحتجاجات الهدف: لجنة التخطيط هذه، سوية مع دائرة الأشغال العامة (ماعتس)، خططتا لشقّ شارع جديد يصل بين مستوطنتي عوفرا بمستوطنة بيت إيل، لكي لا تظلا منعزلتين. وقررت حكومة العمل - ميرتس شقّه في نيسان/ أبريل ٢٠٠٠ بكلفة ٣٦ مليون شيكل. هذا الشارع كان من شأنه تدمير أحد المواقع النفيسة التي تخلب الأبصار في منطقة رام الله، وهو حوض وادٍ ساحر ومحمية طبيعية تابعة لقرية دورا القرع، تعتاش مئات العائلات على زراعتها. لكن في بداية الإنتفاضة وصلت البشرى السارة بتجميد شق هذا الشارع. وتبيّن أن الضغوط الاسرائيلية والفلسطينية ساعدت في تحقيق ذلك بعض الشيء. مع هذا يبقى السؤال: ماذا عن «دزينتين» من شوارع أخرى، ليست أقل تدميراً، يجري شقها على قدم وساق خدمةً لاحتياجات فئة المستوطنين فقط؟.

أحد هذه الشوارع يجري إنهاء العمل فيه هذه الأيام، بالقرب من مخيم قلنديا للاجئين، الواقع على بعد خمس دقائق سفر محظورة من القدس. إنه طريق سريع متعدد المسارات، شارع تل أبيب -

عمّان (طبقاً لبرنامج شمعون بيريس بشأن الشرق الأوسط الجديد، هل تذكرون؟). لكن في الحقيقة هو شارع يختزل الطريق للمسافرين من موديعين ومستوطنة غفعات زئيف، مثلاً، إلى مستوطنتي بسجات زئيف ومعاليه أدوميم. فليحيا حق الإنسان في حرية الحيّز والحركة وتقصير وقت السفر!.

شارع القدس - رام الله يشقّ المخيم. هذا الشارع جرى ضمّه إلى القدس في ١٩٦٧. على هذا الأساس فإنه يعتبر جزءاً غير منفصل من «عاصمة اسرائيل الأبدية». إنك في شارع ضيق ومشوّش، مليء بالحفر، بدون لافتات مرور وخطوط سير وإشارات ضوئية، وكذلك بدون إضاءة ليلية. شرطة إسرائيل تعتبره «شارعاً دموياً» لكثرة حوادث الطرق وضحاياها من قتلى وجرحى فيه. لا يجمعون النفايات منه (رغم أن طابور المنازل على طوله جرى ضمه أيضاً إلى القدس ويدفع السكان ضرائب البلدية كاملة). حاويات النفايات على جانبي الشارع فائضة دائماً عن حاجتها ومحاطة بأكوام القاذورات والخرداوات، في ساعات المساء يحرقون النفايات التي في الحاويات فتتصاعد ألسنة الدخان وتبعث في الجوّ رائحة إحتراق البلاستيك، والخضار المتعفنة. تبرعت حكومة اليابان للسلطة الوطنية الفلسطينية بحوالى خمسة ملايين دولار لترميم هذا الشارع ترميماً جذرياً والسبب، كونه يخدم الفلسطينيين فقط، بينما حظي اليهود المقيمون في المستوطنات المجاورة ببناء وشقّ شوارع التفافية عريضة وآمنة. عينت السلطة الفلسطينية وكالة الأمم المتحدة للتنمية - UNDP - لإنجاز أعمال الترميم الجذري. لكن بلدية القدس رفضت ذلك بكل الحزم، بحجة أن هذا الأمر من شأنه أن يعتبر اعترافاً بكون الشارع غير تابع للقدس، حيث ان تفويض وكالة الأمم المتحدة ينص على أن تعمل فقط «خارج حدود دولة إسرائيل». قالوا في البلدية: أعطونا الأموال ونحن ننجز أعمال الترميم الجذري، وإلا فإن إسرائيل تفتقر إلى ميزانية خاصة لترميم هذا الشارع بصورة جذرية!.

في الجهة الجنوبية - الغربية للمخيم، حيث يلتوي قليلاً هذا الشارع الخطير، توجد رابية تطلّ على مسار هبوط الطائرات وعلى طريق عمّان - تل أبيب السريع. هذا المكان مُعدّ للحجارة والزجاجات الحارقة والأطر المطاطية المشتعلة عندما يكون فيه جنود. وعندما لا يكون جنود، لا تكون حجارة! لكن ثمة جنود، إذ بخلاف ذلك أنّى لنا أن نعرف أن إسرائيل هي الجهة المسيطرة هنا. وعندها يطلقون النار على الأولاد، فيما يبدون في إسرائيل مشاعر المرارة حيال الأهل الفلسطينيين الذين يرسلون أولادهم إلى الموت.

مع ذلك، فإن الذي ليس في عجلة من أمره لضمان شارع آمن لأولاد المخيم ولا يقلقه عدم توفّر مياه للشرب والاستحمام في الصيف، مهتم جداً بحملات تاديبهم المحكمة. منذ حوالى السنتين تقرر في أروقة الجيش الإسرائيلي، القوة السيادية في المناطق، تخفيض عُمر الأولاد الفلسطينيين المسموح إعتقالهم وتقديمهم إلى المحاكمة بتهمة الإخلال بالنظام أو بتهم من أنواع أخرى، من ١٤ سنة إلى ١٢ سنة. وصدرت تعليمات للقضاة العسكريين تقضي بتشديد عقوبة طلبة المدارس المتهمين برشق حجارة على آليات عسكرية. في لوائح الاتهام ضد العديد من هؤلاء ورد مثلاً: «رشق الحجارة في تاريخ كذا وكذا وأيضاً بين كانون الثاني/ يناير وكانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٩٨». وتفضل اثبت العكس.

الحجر هو شيء خطير للغاية ـ قالوا في الجيش الإسرائيلي، في معرض تبرير تشديد العقوبات. وأضافوا أنه لا يمكن تحمل أعمال الإخلال بالنظام. الاحتلال هو النظام هنا. والنظام، أيضاً، أن الحكومة تملك ميزانية لشقّ شارع آمن للأولاد اليهود، لكن هذه الحكومة لا تملك ميزانية لترميم شارع للأولاد الفلسطينيين. هذا هو نظام العالم الذي ينبغي عدم الإخلال به، خصوصاً إذا ما كان مغلّفاً بورق السيلوفان الورديّ لـ «عملية السلام» و «الإدارة الذاتية الفلسطينية».

وهذا السيلوفان الورديّ والمخادع نجح في أن يحجب عن أعين كل من لم يرغب بالرؤية أصلاً، وهؤلاء هم غالبية المواطنين في إسرائيل ـ أنه في سنوات أوسلو أنشأ واقعاً يشكل صفعة يومية لكل فلسطيني، ولكل طموح إلى المساواة محفور داخل كل إنسان لمجرد كونه كذلك، وأيضاً للرغبة في حياة طبيعية. فليس هناك نصف إحتلال ونصف إستقلال. ما هو الأمر غير المفهوم هنا؟ أما الأولاد في عمر ١١ و ١٢ سنة فقد أحسّوا هم أيضاً بالمهانة والظلم. ومن أجل ذلك هؤلاء ليسوا بحاجة إلى «تحريض» في كتب التدريس أو في برامج التلفزيون.

يبدو أن الرقم ١٢ تثبت في الجيش الإسرائيلي كحد أقصى لعمر الولد الفلسطيني. قنّاص إسرائيلي أقسم على مسامعي أن لديه «تعليمات واضحة بعدم إطلاق النار على الأولاد». وعندما سألته ما هو عمر الولد؟ أجاب بثقة كاملة: ١٢ سنة فما دون، جيل «البار متسفاه»! يبدو أن هذا القنّاص أخطأ بسنة واحدة. أما الناطق العسكري فقد رفض أن يقول لي من يكون الولد بالنسبة لهم. وزئيف شيف قرر في «هآرتس» أن يحدد الأولاد الذين قتلوا فعلاً أقل من العدد الذي يعلنه الفلسطينيون، وذلك بعد أن حدد عمر ١٣ سنة كحد أقصى لجيل الطفولة. يمكن الخلوص من كل هذا أن حجراً في يد ولد ابن ١٤ سنة هو سلاح. وإن جاء ليقتلك فبكّر واقتله!

بسرعة فائقة، عملياً منذ اليوم الثاني لاندلاع المواجهات، كان يمكن الخلوص أن هذه هي التعليمات التي صدرت للجنود. ورغم أن هذا كان واضحاً واصل الفتيان تقدمهم نحو «المحسوم- الحاجز العسكري» ـ في البداية كانوا يعدون بالمئات، لكن هذا العدد يتقلص أحيانا إلى العشرات، وإلى أقل من ذلك. لكنهم يتقدمون، لا أحد منهم يعرف كيف يعود، عند المغيب، سليماً أو جريحاً أو قتيلاً؟. والذي لم يشاهد ولم يسمع فتياناً يتفرقون بعد هذه الجنازة أو تلك بصيحات: «يلّلا إلى المحسوم، إلى المحسوم يا شباب» أو «إلى البالوع» (حيّ في البيرة يقع في سفوحه محسوم الجيش الإسرائيلي، -يث موقع المواجهات) فإنه لم يشاهد في حياته فرح الشباب، فرح المنتحرين.

أحد هؤلاء هو «أحمد»، من مخيم الجلزون للاجئين، صادفته للمرة الأولى ذات يوم مع مجموعة من الفتيان الآخرين في ميدان «المنارة» في رام الله. كانوا مثلي يبحثون عن المظاهرة اليومية التي لم تكن قد انطلقت بعد من أجل التقدم مع المتظاهرين نحو «المحسوم». واصلنا البحث معاً وثرثرنا قليلاً. كونهم أبناء مخيم لاجئين بدا واضحاً على جباههم. أحد الفتيان أخرج بفخر مقلاعاً كان في جيبه. وآخرون لم يخفوا أن في حوزتهم بضعة حجارة جاهزة للرشق. إنهم لا يذهبون إلى المدارس، فمن لديه بال الآن للدراسة. أحياناً يعملون في حانوت أو مرآب. والمال الذي يقبضونه يعطون نصفه للأمهات، وبالنصف الآخر يقتنون أحذية رياضية على آخر طراز. لأول وهلة انتابتهم الدهشة من

مجرّد كوني إسرائيلية، لكن بعد ذلك ولدى كل جنازة أو مظاهرة في المدينة يتوجّه واحد منهم إليَّ ويبادرني بالتحية باللغة العبرية. ويسألني، بالعبرية أيضاً «كيف حالك؟». ومن ثم يركض نحو «المحسوم».

وثمة توزيعة عمل صارخة في الإنتفاضة. لا يتكلمون عن ذلك بصوت مسموع. لكن وسط جموع الشبان هؤلاء، أو المنتحرين منهم على باب الاحتمال، النسبة الحاسمة هي من اللاجئين وأبناء الأحياء الفقيرة. وهؤلاء الفتيان ـ «الزعران» على اختلافهم ـ الذين قفزت عنهم الامتيازات الطفيفة الناجمة عن عملية أوسلو ـ فرضوا أنفسهم على الواقع، وليس فقط على إسرائيل في حقيقة الأمر. لقد فرضوا أنفسهم، قبل أي شيء، على الحركة السياسية ودفعوها نحو التخلي عن رسميتها وعن مثاقيل حركة سلطوية يتوقع العالم منها أن تسلك سلوكاً حسناً، وفقاً لاتفاقيات موقعة ولميزان القوى العالمي. وبدورها فرضت حركة «فتح» نفسها على المؤسسة الرسمية وأجهزتها وضمنت بأن لا يحاول هؤلاء إيقاف طوفان الغضب الجارف، بموجب ما تلزمهم إتفاقيات أوسلو، وربما بموجب ما كان بعضهم راغباً بأن يفعل.

ولو أنهم في إسرائيل أصاخوا السمع جيداً للرمزية المنطوية عليها حركة اليد التي تقذف حجراً، ولو أنهم لم يردوا على الحجر منذ اليوم الأول بوجبة يومية من سبعة قتلى، لكان في الإمكان توفير كل البقية. و«كل البقية» هنا هي تحويل مركز الثقل للانتفاضة من الحجر المكشوف إلى البندقية المستورة والقذيفة المنفجرة، وليس كما عرضت ذلك وسائل الإعلام الإسرائيلية. اطلاق النار الفلسطيني في البداية كان رمزياً.

«إنهم يطلقون النار في وجه الشمس»، هكذا عبّر العلي من غزة عن غضبه حيال شبان حسبوا أنهم باطلاق نيران لا فائدة ترجى منها، إنما يدافعون عن كرامة القتلى أو ربما عن كرامتهم هم في نظر إخوانهم. وفي الجيش الإسرائيلي عرفوا أيضاً أن اطلاق النار في البداية كان رمزياً. ففي الشهر الأول من الانتفاضة أثارت «حوادث تبادل إطلاق النار»، التي صرّح عنها الناطق العسكري، نوبة من الضحك لدى الجنود. غير أن مجرّد ذلك، كان سبباً جيداً لاستعمال سلاح ثقيل أضعافاً مضاعفة: صواريخ وقذائف، وكل ما كان في مقدورهم فعله في إسرائيل هو مواصلة الشعور بالمهانة «لأنهم يطلقون النار»!.

عند ذلك بدأت عملية «الاندساس» الحتمية للفلسطينيين المسلحين ولا نزال في بدايات هذه العملية السائرة في وجهة مواصلة مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. في إسرائيل ما زالوا يعتقدون أن الطريق للجم هذه العملية تكمن، مثلاً، في منع رجال فلسطينيين من السفر بمفردهم في سيارات خصوصية، إنما ليس، حاشا وكلا، في الإعلان عن خطوات فورية لإنهاء الاحتلال.

(البيرة ـ رام الله)

ترجمة: أ. شلحت

من الذاكرة الثقافية الفلسطينية :

نجيب نصار :
الصحفي المقاتل الذي انتظر هزيمته

فيصل دراج

إلى طفل فلسطيني لا يحتاج إلى تصفيق أحد..
إلى محمد جمال الدرّة

وقد ترجم الكلمات أمير الكلام إن تداعت القواميس، يُقال. «وقد توفي في حيفا في مطلع سنة ١٩٤٨ (؟) إبّان الإضطرابات، ولم تتح الظروف له آنذاك الإحتفال بوفاته كما يليق به وبجهوده»[١]، هذا ما كتبه قلمٌ نجيب عن نجيب نصّار، «شيخ الصحافة الفلسطينيّة»، كما يقول كثيرون. في إشارة الإستفهام، التي تجعل يوم موته منسيّاً، ما يجعل من ذاكرة الأحزان المتجدّدة ذاكرة وحيدة، كما لو كان الحزن المتوارث بديلاً عن ذاكرةٍ تحسن المحاكمة. والحزن ماءٌ غريب، لا يغسل ما يجب غسله إلاّ في لحظات هاربة.

كان موت «أبو فلسطين» في ذلك اليوم المطير، ربما، رمزياً قبل أن يكون جسدياً. فالشيخ الذي تداعى، وقد جاوز الثمانين، كان قد آثر العزلة في بيتِه في بلد الشيخ، ضاحية حيفا. فإن حاصره الشجن، حملته خطاه المتثاقلة إلى بيّارة موز في بيسان، محاوراً أطيافاً تقاسمه لوعة قديمة. كان الجسد قد استسلم للتّداعي، بعد رحلة مجيدة، والقرى الفلسطينيّة تتساقط، والأمطار تنسجُ مشهداً جنائزياً، وصوت مختنق لزمن يسقط في الأفول. كانت فلسطين تسقط من يدٍ إلى أخرى، واسمها المألوف تطارده أسماء معادية. ونصّار، الذي احتجب وراء الأشجار وثقل السنين، يرى إلى وطن

يغيب، مؤثراً أن يغيب مع الوطن الذي يغيب، بعد أن نذر عمرَه للوطن، الذي قاسمه التّداعي والغياب. رحل إلى قبرِه مخذولاً في وداعٍ أخير نفره قليل. لأنّ «الآخرين» حملوا خذلانهم ورحلوا.

١ – سيرة نصّار في ملامح ناقصة :

كان نصّار، في ذلك اليوم الجنائزي، يصافح موتَه الثالث. فقد لقي الثاني وهو يغلق «كرمله» في مطلع الحرب العالمية الثانية، بعد صدور قارب ربع قرن من الزمن. وربما كان، وهو يُصمت صوته، يشعر بعبء العمر، مدركاً، وهو العقل اليقظ، أنّ انفتاح الثورة الفلسطينية الكبرى – ١٩٣٦ – ١٩٣٩ – على الفراغ، فتح باب الهاوية أمام فلسطين. مع ذلك، فإنّ نصّار، الذي كان يضع طربوشه مائلاً على طريقة تجّار بيروت، كان قد تعرّف على موتِه الأوّل، وهو يرى إلى أرواح ميّتة وعقولٍ صدئة وغثاثة سياسيّة، أخرجت محمد عزّة دروزة عن طورِه أكثر من مرّة، وأتلفت أعصاب خليل السكاكيني مرّات عديدة. كان قوله المنظّم المستنير يتهمّش، وفي أوقات كثيرة، أمام رطانة الأعيان المعلبة. ولأنّ الخطابة تهزم العقل النثري، كان على صاحب جريدة الكرمل، وبعد كفاح نموذجي ضد الصهيونية، أن يمشي في شوارع حيفا وحيداً، لا يلتفت إليه أحد : «ففي سنة ١٩٣٣ سافرتُ إلى حيفا للقاء نجيب نصّار، . . . ، وقد فتح أمامي قلبَه، وأخبرني بما يلاقيه من أبناء شعبِه الذي لا يقدّر ما كان يفعله من أجل الشعب الفلسطيني، ومحاربته للإستيطان اليهودي لسنين طويلة»[٢]. وهذا الذي لم يكن يلتفت إليه أحد، بعد حوالي عشرين عاماً من ظهور الكرمل، كانت الحركة الصهيونية قد شكته، ومنذ زمن، إلى المراجع العثمانية العليا، بعد أن رأت فيه عزماً فرديّاً فريداً يقترب من الظاهرة. فما أن مرّت فترة وجيزة على ظهور الكرمل حتى نشرت صحيفة هاعولام، الناطقة بلسان الحركة الصهيونية المركزية. تقريراً لمراسلها في فلسطين جاء فيه : «إنّ القوّة الأكبر في فلسطين هي قوّة العرب. . ونحن ننسى كلياً أنّ هنالك عرباً في فلسطين، ولم نكتشف هذه الحقيقة إلاّ في السنوات الأخيرة فقط. . . إنّنا لم نأبه لهم ولم نحاول قط أن نقيم صداقات لنا في صفوفِهم. ويعتبر المثقفون المسيحيّون أكبر أعداء اليهودية في صفوف العرب»[٣]. يحيل تعبير «المثقفون المسيحيّون» إلى مثقفين غير نجيب نصّار، لكنّه يحيل عليه أوّلاً.

كتبت فرنسيس نيوتن : «وكنت قبل تلك الحرب قد بدأت أفتح عيني على الصهيونيّة في مقالات ترد في جريدة الكرمل، عن إقبال اليهود على الأراضي يشترونها وينشِئون المستعمرات، فتتعرّض مرافق العرب الزراعيّة والإقتصادية للبوار والدّمار»، ويكتب الكس كرمل : «وكان تأثير «الكرمل» كبيراً، وخصوصاً بين أبناء الطائفة المسيحيّة والتجّار منهم خاصة»[٤]. ويبدو أن نصّار، الذي ازدرى معروف الرصافي وهو يمدح المندوب السّامي في فلسطين، كان محمولاً، حين أسّس جريدته، على لهب داخلي وإحترام إجتماعي كبير. يكتب الدّكتور عبد الوهاب الكيالي : «في السابع من شهر حزيران ١٩١١ نشر نجيب نصّار في صحيفة الكرمل رسالة مفتوحة موجّهة إلى جميع رؤساء تحرير جميع الصحف العربية، الذين يشاركونه رأيه ومشاعره، مقترحاً فيها توحيد جهودهم في جبهة واحدة ضد الصهيونيين. . وهكذا نجد عند مراجعة الصّحف العربية الصادرة في النصف

الثاني من عام ١٩١١ مقالات كثيرة ضد الصهيونيّة ».(٥)

لم يكتف نصّار، الذي كان يدعو إلى غرس الأشجار ويستخف به « تجّار الوطنية »، بتحويل الكرمل إلى الصحيفة الأعلى صوتاً في الدفاع عن فلسطين، بل ترجم أيضاً (في عام ١٩١١) كتاباً دعاه : « الصهيونيّة : تاريخها، غرضها، أهميّتها ». كشف في الكتاب عن إيديولوجيا الصهيونيّة وأهدافها، وأشار إلى بنيتها شبه العسكريّة وطريقة عملها في فلسطين. جاء في الكتاب أنّ الصهيونيّة تسعى إلى « السيطرة على بلادنا ومصادرِ حياتِنا »، وطالب بـ « قيادة صلبة ومخطّطات جريئة، فنحن العرب بحاجة إلى الإعتماد على النّفس والكفّ عن إنتظار كلّ شيء من الحكومة ». والقيادة الصلبة، والتي حلم بها نصّار، هي التي ترى في التعامل مع الصهيونيّة خيانة، كما قال، وتعمل على إنقاذ الشّعب والحفاظ عليه من « خلال العمل الواعي المنظّم ». ولهذا قادت الكرمل حملةً تدعو إلى إيقاظ الوعي وتنظيم العملِ، أفضت إلى ظهور « جمعية مكافحة الصهيونيّة »، التي اتّخذت من نابلس مقرّاً لها، وأقامت لها فروعاً في مناطق أخرى. وبما أنّ الكرمل رأت في « تحسين حالة الفلاّح وتعزيز كرامتِه ما من شأنه أن يعزّز إحساسه بالواجب نحو أمّته »، أصبحت قضيّة الأرض والفلاّح ركناً أساسياً من أركان جمعية مكافحة الصهيونيّة، فاحتجّت على بيعِ الحكومة للأراضي بالمزاد العلني، وطالبت بالحفاظ على حقوقِ الفلاّحين في أراضيهم، التي اغتصبتها الحكومة، و« ذلك بأن يدفع الفلاّح الديون المترتّبة عليه بأقساطٍ سنويّة ».

ومع أنّ نجيب نصّار، كما الكرمل، غدا ذائع الصّيت قبيل الحرب العالمية الأولى، فإنّ أثره، تحديداً، توجّه إلى النّخبة الإجتماعية المتعلّمة. خاصة أنّه لم يكن يحسن اللغة المزخرفة الفارغة، التي تبهر البسطاء، بل كان مشغولاً بلغةٍ أخرى، مفرداتها الوعي والإرادة والتنظيم والإرتقاء بالكفاءة والمسؤولية الوطنية و« العلوم التطبيقيّة ». وهذا التوجّه إلى النخبة بلغة بسيطة، تقترب من الركاكة أحياناً، وبصوت وطني واضح لا مساومة فيه، أمدّه بجملة من العلاقات الإجتماعية أضاء بعض جوانبها في « روايته » : « مفلح الغساني ». وإذا كانت الفاعليّة النخبويّة جعلت إسمه متداوَلاً لدى الإدارة العثمانيّة الحاكمة، فإنّ الفاعليّة ذاتها حرّضت الإدارة على مراقبتِه والتوجّس منه، بسبب تواطؤ مضمر، أو سافر، بين الحركة الصهيونيّة والحكومة العثمانية. وبقدر ما كان عاديّاً أن يشكو حاييم ناحوم، كبير الحاخاميّين في الحكومة العثمانيّة، نجيب نصّار إلى وزير الداخليّة في القسطنطينيّة. كان عاديّاً، بدوره، أن تلاحق تلك الحكومة نصّار القومي العربي، وإنْ كان قد نجا برأسِه مرّتين متتاليتين.

على نقيض وعي غائم، لا يزال يتناتج حتى اليوم، يختزل الصهيونيّة إلى اليهودية، اشتقّ نجيب نصّار موقفَه العقلاني من معنى الوطن. وما كان موقف هذا المثقّف، الذي يميل إلى القِصَر والبدانة. منعزلاً عن مواقفٍ أخرى، تترجم سيرة المثقّف الحديث في مجتمع بلا حداثة. فإضافة إلى تصوّر « علموي » للعالم، استقدم نصّار « الغساسنة » إلى الزمن الحديث، كي يوطّد عروبتَه، ويؤكد الوعي القومي قوّاماً على الوعي الديني. كما لو كان إنتسابه المسيحي، وقد أخذ جذوراً عربية، تعبيراً عن حسّ عروبي راسخ. لم يرحّب به العثمانيّون أبداً. وتعيَّن وعيه الحديث بالمهن التي اختارها، فهو المحامي والمعلّم والصحفي والمترجم، والحالم بزراعة تعتمد على « العلوم التطبيقيّة ». بل انّ هذا الوعي

كان مشدوداً إلى « الدستور »، قبل أن يلتفت إلى الزراعة وقراءة شكسبير، لأنّ بلداً لا دستور فيه يتلف البشر والأشجار في آن. ويذكر نصّار في إحدى إفتتاحيّات الكرمل (عدد ٤٢٦، السنة الخامسة، ١٣ / ١ / ١٩١٣)، يأسه من النّظام التركي الذي ينكرُ الحريّة وقراره بالهجرة، وغبطته بإعلان الدستور - ١٩٠٨ -، وإنْ كان في ممارسات « الطورانيين » ما لا يبعث على الراحة. وكان احتفاؤه بالدستور، في مناخ طوراني يثير التوجّس، مرآة الوعي يؤمن بـ« قوّة الحريّة » إلى حدود الشطط، دون تدقيق كافٍ في ملامح الذين ينادون بها.

وضع نصّار، الذي كان يكتب جريدته ويخرج موادّها وينضّد حروفها ويوزع نسخها، كتباً مختلفة الإختصاص، وقد تعبّر الكتابات المتنوّعة عن معرفة واسعة، لكنّها تعبّر أولاً عن نزوع رومانسي، يرى تعدديّة الحريّة في التحرّر من جهل متعدّد. فإلى جانب كُتيّب عن الصهيونية (٦٤ صفحة)، ظهر في سنة ١٩١١، ملخصاً عن الأنسكولوبيديا اليهوديّة. يوجد كتاب « الزراعة الجاقة » وهو كتاب شبه مترجم، أملته دوافع وطنيّة لا تنقصها الرومانسيّة. وإلى جانب الكتابين الموزعين على السياسة والزراعة، هناك كتب أدبيّة - تربويّة مثل « شمم العرب » و« في ذمّة العرب » وسيرة ذاتية محددة الزمن عنوانها : « رواية مفلح الغساني ». وبما أنّ على الكتب أن تضيع، ولو قُدّ صاحبها من حكمة، فإنّ كتب نصّار لا تتوفّر إلاّ صدفة، بفضل دارسين، لم يفقدوا الذّاكرة، مثل حنّا أبو حنّا ووليد خليف. حين يتعرّض أبو حنّا لكتب نصّار يكتب ما يلي :

« ونبحث عن هذه الكتب جميعها فلا نحظى بنسخة منها. أمّا المكتبة القوميّة في الجامعة العبريّة في القدس فوجدنا في بطاقاتها تحت إسم »نصّار، نجيب« ما يلي من مؤلّفاته.. ». وما يوجد في البطاقات لا يوجد على رفوف المكتبة، فإنْ حصل الأمر، جاءت نسخة وحيدة مجلّلة بالفناء والنسيان. ويكتب خليف، الذي عني بجمع « رسائل صاحب الكرمل »، الكلمات التالية : « إنّ الأيّام والسنين تمرّ تباعاً والموثقات والحقائق التاريخيّة والوقائع الإحصائية، وتأرخة الأماكن والموجودات في طريقها إلى الإندثار ».

ولأن الإندثار يتأبّط المنسي، يغدو البحث عن مسار نصّار شاقاً، ويضع مؤرّخ تاريخ ميلاد الكرمل في عام ١٩٠٨، ويشاء آخر أن يضعه في عام لاحق.

وسواء وضع نجيب نصّار، كتباً للنسيان أم دفاتر للذّاكرة، فإنّ جريدة الكرمل تظل إنجازه الأكبر، بفضل ريادة مزدوجة : رائدة وهي تعلن ميلاد الصحافة الفلسطينية، ورائدة وهي ترى إلى المشروع الصهيوني دون غبشٍ كبير، بل أنّها رائدة وهي تذيع الحقائق عارية، بعيداً عن تشاطر « تجّار الوطنية »، الذين شطارتهم بذاءة. يكتب ماهر الشريف، وهو يبحث عن بدايات الهويّة الفلسطينيّة : « وقد تحدّد عام ١٩٠٨ كنقطة انطلاق بصورة إعتباطيّة إلى حد ما، وذلك باعتباره العام الذي ظهرت فيه أوّل صحيفة فلسطينيّة، وهي صحيفة « الكرمل »، عبّرت، بهذا الشكل أو ذاك، عن بروز تلك المظاهر لوعي « وطني » فلسطيني بدئي، أخذ يتبلور كتعبيرٍ عن إدراك مخاطر مشروع صهيوني صارت ملامحه وأهدافه أكثر وضوحاً »[٦].

ينقل حنّا أبو حنّا عن كتاب « تاريخ حيفا » لجميل البحري الصّادر سنة ١٩٢٢ ملامح نجيب نصّار

آنذاك : «الكرمل جريدة عربيّة تصدر مرّتين في الأسبوع، واشتراكها في فلسطين ١٢٥ غرشاً مصرياً و١٥٠ في الخارج. أُنشئت سنة ١٩٠٩، وتوقفت مدّة أربع سنوات الحرب الكبرى، وعادت إلى الصدور بعدها في بدء سنة ١٩٢٠، وهي اليوم في سنتِها التاسعة التي ابتدأت سنة ١٩٢٢. وقد بلغ مجموع أعدادها لهذا التاريخ ٨٣٠ عدداً. أمّا موادها فغزيرة ومباحثها تدور حول الوحدة العربية وكتاباتها بهذا الشأن شهيرة. وقد عالجت القضية الفلسطينية معالجة أكسبت صاحبها إسم أب فلسطين، خصوصاً وهو أوّل من لفت الأنظار إلى الصهيونيّة وأخطارها. وقد وضع لها كتاباً طبعه قبل الحرب». ويكمل البحري صورة الكرمل فيقول : «أوّل مطبعة أتي بها إلى حيفا هي المطبعة الوطنيّة لباسيل الجدع سنة ١٩٠٨، ثم جاءت بعدها مطبعة جريدة الكرمل سنة ١٩٠٩ لنجيب نصّار».

نصّبت الكرمل، ولفترة من الزّمن، نصّار «أباً» لفلسطين، لشدّة تنديده بـ«سماسرة الأرض»، ولوضوح فكرِه في شرح غايات الصهيونيّة، غير أن صوت نصّار، ما لبث أن اتّسع وامتدّ في صحيفة المقتبس الدمشقيّة وصحف المفيد والحقيقة والرأي العام الصادرة في بيروت. فهذه الصحف جميعاً كانت تنقل صوت نصّار وتترجمه، مندّدة ببيع الأراضي العربيّة للمستوطنين اليهود، ومطالبة السلطة العثمانيّة أن تكون أكثر عدلاً. وإذا كان نصّار قد استنصر صحفاً عربية ونصرته، فإنّ صحيفة فلسطينيّة عنوانها : «النفير»، يحضر اسمها اليوم إذا حضر اسم نصّار لا أكثر، كرّست كلماتها للهجوم على الكرمل، كانت الصحيفة المذكورة تترجم تمويلها اليهودي – الألماني إلى كلمات عربيّة كاذبة.

تنقّل بين مهن عدّة وعاش حرّاً، وتعاطى الزراعة وارتاح إليها، واختلط بالبدو وأبناء القرى وتعلّم عاداتهم، وقرأ شكسبير مرّتين وكتب أكثر من حكاية، وأنشأ جريدةً تُعلِّم مبادئ الوعي والوطنية، ودعا إلى تأسيس «جمعية النهضة الإقتصادية العربية»، بعد أن نادى قبل عقد من الزمن تقريباً بإنشاء «جمعية مكافحة الصهيونيّة». وعمل محامياً وأنصف المظلومين، وشكى من تجاهل شعبه له، ومات مخذولاً يوم فقدت فلسطين أهلها.. قدر غريب لرجل أحبّ الحياة والوطن والعدالة. وما خسرَ إلاّ ما أراد أن يخسر. شيء قريب من المثل القائل : ومداوي الأوجاع يموت في غرفتِه مريضاً.

٢– سيرة ذاتيّة مجزوءة :

«حوالي السّاعة التاسعة من مساء يومٍ في أوائل شباط سنة ١٩١٥، سمع حليم قرعاً خفيفاً على باب بيتِه على ظهرِ الكرمل، فهرع إلى الباب وهو يضرب أخماساً في أسداس». هكذا يبدأ الفصل الأوّل من «رواية مفلح الغساني»، التي تسرد أقدار نجيب نصّار، ولمدّة ثلاث سنين تقريباً، بعد أن أخذ عليه الإتحاديون الأتراك تمسّكه بعروبتِه، بلغة مستقيمة، أو عمله لصالح الإنكليز، بلغة كاذبة. وقد تعامل الإتحاديون مع العرب، وكما تقول الرّواية، بأدوات النفي والتغريب والحبس والتشهير والجلد والسوق إلى الديوان العرفي. وكان على «مفلح الغساني» أي نجيب نصّار، أنْ يختلف إلى أماكن مختلفة، تبدأ بحيفا وتنتهي بدمشق، كي يحرّر نفسه من تهم ملفّقة. لكنّه، وهو ينتقل من مكان إلى آخر، كان يسرد أنساقاً من الثقافة والعادات والحياة الإجتماعية، قبل أن يحكي عن أوجاع الطريد ومفاجآت المطاردة. وكان المطارَد، رغمَ الشتات راضياً، مؤمناً بقولٍ جميل : «إلق خبزك على

وجه الماء تجده بعد حين»، أو كن كما أرادتك الفضيلة أن تكون، فلا كلّ الأماكن ترحّب بالرذيلة. يقول «مفلح»: «لقد علمتُ أنّني أتيتُك لأتوارى لا خوفاً على حياتي، ولكن لأنّي أريد أن أعيش لأولادي ولوطني المهدّد بخطر الإستعمار الصهيوني. ص: ١٣٩»[٧].

«مفلح الغساني»، التي نشرت تباعاً في جريدة الكرمل، نص طريف، يعطي ذاته صفة الرواية، في زمن لم تعرف فيه الرّواية العربية بعد إلاّ عمل محمد حسنين هيكل الشهير: «زينب». وبما أنّ الإسم لا يخلق المُسمّى، يقدّم نصّار وثيقة إجتماعية - تاريخية هامّة، تحيل على أشياء كثيرة، دون أن تلتقي بعالم الرواية بالضرورة. ومن الطريف، وفي ذاك الزّمان، أن يحجب نصّار إسمه وراء اسم آخر ملتمساً، وعن طريق صيغة «الغائب»، قدراً من الحريّة في الكتابة، وكان بحاجة إلى هذه الحريّة، ربما، ليقدّم «عبرة» الدفاع عن الحق ومآله. ولعلّ خروجه من المطاردة سليماً، وضع على قلمه صفة متفائلة وأخرى لا ينقصها الفخار. فمتفائل هو حين اشتقّ إسمه من «الفلاح»، أي النجاح ولا يعوزه الفخر، وهو ينتسب إلى قبيلة عربيّة قديمة ومسيحيّة.

إتّكاء على تصور تربوي - تحريضي للكتابة، لا ينسى «فضائل العرب»، يؤكد نصّار، وهو يلتمس الأمان في أكثر من مكان. جملة فضائل إيجابيّة، منسوبة للعرب. ولهذا وضع «روايتين» إحداهما «في ذمّة العرب» أو «حرب ذي قار» والثانية «وفاء العرب»، ولن تكون الشخصيّات المتواترة، التي تتناوب على إحتضان المطارَد، إلاّ مرايا متجاورة لقيم ناصعة البياض، مثل التعاون والغيرة والوفاء والكرم والردّ على المعروف بالمعروفِ والحفاظ على الكبرياء. وبداهة، ورغم تصوّر رومانسي للقديم، فإنّ نصّار كان يرى إلى القيم الفاضلة وهو يرى إلى توظيفها في مشروعٍ وطني. وبهذا يصبح إصلاح الأخلاق مقدمة لإصلاح العمل السياسي. يتحدّث نصّار، وقد وجد ملاذاً أميناً، عن دورِه في محاربة بيوع الأراضي «إستعرض مفلح هذه الحوادث كلّها وقال في نفسِه لو أعطي إمتياز الغور للأصفر أو لو بيع في أوائل سنة ١٩١٤ من أين كنتُ أجد من يهتمّون بي ويعرضون بأنفسهم للخطر من أجل سلامتي ويقدّرون لي جهادي في سبيل إستبقاء الغور لهم. ص: ١٢٦»، «إرتاح مفلح لذكريات جهاده في سبيل إنقاذ الجفالك وإلى ما كان يراه من وفاء قومه، فقال في نفسِه إنّ أمّة مثل هذه أخلاقها تسيج عليها وتحمي وطنها، ولكن الأخلاق تفسد اليوم. ص: ١٢٧». و«اليوم» الذي كانت تفسد فيه الأخلاق هو بداية العشرينات التي سبقها عقد من الزمن أكثر يقظة وتماسكاً، قبل أن يصل الإنتداب البريطاني متوّجاً بوعد بلفور.

يشتقّ نصّار الأخلاق، في «روايته»، من ضرورتين: ضرورة وطنيّة، فلا إمكانية للمبادئ الوطنيّة إلاّ لدى أرواح تحترم معنى المبادئ أوّلاً. مما يقيم عروة وثقى بين الوعي الوطني والوعي الأخلاقي، وضرورة قوميّة. إذْ العربي يكون كما يجب أن يكون، حين يحمل في ذاتِه الأخلاق التي انتسب إليها العرب، وبهذا المعنى، فإنّ التمجّد القومي يتهالك سريعاً، إنْ لم يتجسّد في جملة قيم عملية تدافع عن التاريخ العربي، وهي تدافع عن «الوطن العربي». أو لنقل: إنّ ضعف «الأخلاق الوطنية»، بتعبير نصّار، كشف عن ضعف «الإنتماء القومي». وما حاول نصّار أن يقوله ولم يقله هو مفهوم: المسؤولية، الذي إن احتضنته فرديّة متطورة ضروريّة له، ربط بين الأخلاق والوطن، وبين الوطن والذّاكرة الجمعيّة

التي تكوّنت فيه. يقول «مفلح»: «هذا الذي إنتقدته بشّدة يظهر مثل هذه المروءة والغيرة. أليس في مثل هذه الأعمال عبرة للعرب ليوسعوا صدورَهم ويتآخوا ويتعاونوا؟ ص: ١١٧». والحديث عن «عبرة» مرتجاة تعبيرٌ عن مسؤوليّة «مرتجاة» غائبة. وبسبب هذا، فإن نصّار يردّد شعار «الشهامة العربيّة العظيمة» إلى ما لا نهاية، رغبةً في نقل الشّهامة من أثير الشعار إلى أرض الواقع. وبالتأكيد، ودون إفراط في التنقيب، فإنّ معرفة نصّار بالتاريخ العربي محدودة، تشهد على ذلك المهن التي ارتاح إليها، وأسلوب كتابي فقير النضارة. و«الشهامة العظيمة»، في تحديد كهذا، إختراع تربوي أملته رغبة تنوس بين مجتمع متخيّل قديم ومجتمع متخيّل قادم. يمكن إدراج الإختراع، بداهة، في سياسة ثقافيّة، أخذ بها دروزة، وكان معجباً بنصّار، واقترب منها السكاكيني. فعلى الأحفاد أن يخترعوا أجدادهم العظام، وأن يقنعوا الأجداد بإختراع أحفاد عظام أيضاً. يفصح الإختراع عن أزمة مزدوجة: تتعيّن الأزمة الأولى بحاضرٍ يستنهض ماضياً ميسوراً، وتتحدّد الأزمة الثانية في فقر الوسيلة، فلا يستنجد بالأخلاق إلاّ من قارب تخوم الإفلاس. بمعنى آخر: إنّ تعظيم العنصر الأخلاقي، في فلسطين التي تقترب من الغرق، تعبيرٌ عن ضعف الحركة الشعبية وضآلة الوعي الاجتماعي وبؤس الأحزاب السياسيّة، التي هي «أحزاب وطنيّة بلا وطنيّة»، كما يقول نصّار، وهذا الواقع، ربّما، هو الذي جعل نصّار يأخذ بعنوان تراثي: «مفلح الغساني»، ويشير في نصِّه إلى روايتين تراثيّتين، ويشير إلى «أشرف التقاليد العربيّة».

كتب نجيب نصّار سيرته الذاتية المجزوءة، وتغطي سنوات ثلاثاً، حين لاحقته الحكومة العثمانية كعروبي يميل إلى الإنجليز. وإذا كانت العناصر التي أنتجت دراما شخصيّة سياسيّة بطبيعتها، فإنّ المناخ التاريخي الذي تكوّنت فيه، وفضاءه الحرب العالميّة الأولى، يعطي السيرة أبعاداً جديدة، ويؤكّدها سيرة ووثيقة تاريخيّة في آن. تحيل عناصر السيرة – الوثيقة على العثمانيّين وحلفائهم الألمان، وعلى الإنجليز والصهاينة، وعلى شعب فلسطيني يحوق به خطر وشيك. أمّا العنصر العثماني فكان مسكوناً بالمفارقة، يقول بالدستور ويمارس سياسة عنصريّة، تضع الأتراك فوق العرب، وتفرض اللّغة التركيّة لغة للجميع. وتجلى الدستور، الذي ينقض ذاته، في «الديوان الحربي العرفي»، الذي جعل من أوامر جمال باشا السفاح قانوناً متعالياً، يدفع بمن يشاء إلى الموت. جاءت صفة السفاح من مشانق الشهداء، ومن مجتمع عربي مذعور تحوّلت فيه الوشاية إلى دين يومي «حتى أنّ الأخ كان يشي أحياناً بأخيه وكان المتزلّفون يتزاحمون على بابِ مقرّه ليتقرّبوا منه بالدسّ على بعضهم بعض. ص: ٩٩». وكان الكثيرون من العرب، وقد قوّضهم الخوف «يمجّدونه ويتهمون الشهداء بالخيانة، حتى قيل إنّه لمّا مرَّ بجنين ذهب أب أحد الشهداء إلى المحطّة للسلام عليه فاعتزّ الرجل بنفسه وتحقّق أنّ البلاد ليس فيها رجال أشدّاء يخشى بأسهم فلم يحترم أحداً.. واحتقر جمال طبعاً الأمّة التي تعبد زعماء يتظاهرون كذباً بالرضى عن تعليق أبنائهم على أعواد المشانق»..وإضافة إلى الظّلم وصناعة الإذلال، لم يقف خلفاء السلطان عبد الحميد في وجه المشروعِ الصهيوني، ذلك أنّ «جمعية الإتحاد والترقّي»، وكما يذكر بروكلمان، تلقّت دعماً مالياً من الـ«دونمة»، وهم يهود سالونيك الداخلون في الإسلام، والذين كانوا يسيطرون على الحياة الإقتصادية في المدينة.

كان الأتراك يعلّقون مشانق العرب، يمنعون الأحزاب ويعطّلون الصحف ويشدّون الزّمن العربي إلى زمن ميّت نتن الرائحة. وكان الأوروبيّون مشغولين بتقسيم تركة «الرجل المريض»، فللقنصل الألماني حضوره في فلسطين، يناوئ من اشتبه بقربهم من الإنجليز، والإنجليز يقفون على مشارف إمبراطوريّة عثمانيّة منهارة، واليهود يجمعون الأخبار للإنجليز، و«يشترون» الأراضي بدعمٍ من حكومة تركيّة مسلمة. وفي هذا المشهد التاريخي الذي يتحالف فيه الألمان مع الأتراك، ويقمع فيه الأتراك العرب، ويتحالف فيه الإنجليز واليهود لحصار الأتراك والألمان والعرب، كان على سارد الأحداث أن يعثر على موقعٍ للتأمّل والنّظر. والموقع الذي اختاره «مفلح الغساني»، ويكتنفه الضّباب، منفتح على أكثر من إتّجاه: إتّجاه أوّل يحدّد صورة الإنجليز، وآخر يعيّن موقف الغرب من بقايا السلطة العثمانيّة، وثالثٌ يرى إلى آفاق الوجود اليهودي في فلسطين. وفي الإتّجاه الأوّل يكون «الغسّاني» مطمئناً، ولو إلى حين، إلى طيبة الإنجليز «الذين لا يقدمون على عمل إلاّ وفيه كل الخير للإنسانية وأبنائها» كما يقول. وهذا راجعٌ إلى إعجاب السّارد بثقافتهم ولغتهم وأدبهم، ذلك أنّ نصّار كان يُحسن الإنجليزيّة ويترجم عنها، بقدر ما كان يحسن الألمانيّة ويترجم عنها أيضاً. ولن يكون الإتّجاه الثاني أقلّ إضطّراباً من الأوّل، ولو إلى حين أيضاً، ويقول: على العربِ الوقوف إلى جانبِ الأتراك إنْ شعروا بأنّ للغرب أطماعاً في الشّرق. وبسبب هاتين المقدمتين سيشعر «مفلح الغساني» بخيبة كبرى، حين يعلم، لاحقاً، بوعد بلفور: «أحسّ مفلح بقشعريرة، وقال في نفسه: أيمكن أن يكون صحيحاً ما قالته الجرائد التركيّة عن أنّ الحكومة الإنجليزيّة وعدت اليهود بان تعطيهم فلسطين وأن نكون نحن العرب مخطئين في تأويلِنا هذه الدعاية، واعتقادنا أنّ الأتراك يقومون بها ليضعفوا ميولَ العربِ إلى الإنجليز وثقتهم بهم؟ ص: ٢٩».

تعطي «رواية مفلح الغساني» صورة الزّمنِ التاريخي بوضوح، وإنْ كان في الوضوح ما يشوب الوضوح، ويقدّم صورة عن المكانِ وأهله أيضاً. تنتشر في الرواية، إنْ جازت التسمية، أسماء قرى فلسطينيّة، وأسماء عائلات وبشر حقيقيّين وقبائل وزعماء للبدو لهم حياتهم «البسيطة» التي عرفها نصّار قبل زمن المطاردة. كل شيءٍ يحيل على ما كان قائماً، من عواطف التّضامن والوفاء والحياة البسيطة والمحاكمة العاطفيّة أيضاً، كما لو كان نصّار إحتفظ بالأشياء كما هي، مكتفياً بتغيير اسمه، توسّلاً للتفاؤل والأصول العريقة. وعلى الرّغم من ريبورتاج صحفي طريف، قوامه يوميّات صحفي وطني عنيد، فإنّ نصّار التفتَ في أكثر من مكان إلى الشخصيّة التي تنوب عنه في الكلام. فـ«مفلح الغساني» لا يحضر كمرآة غبيّة تعكس ما يقع عليها، بل يحضر إنساناً له «إستقلاله الذاتي»، فيتذكّر ويخاف ويرتعد ويناجي أطيافاً تعبره في ساعات المقتِ والعزلةِ. ولعلّ إستنهاض «الشخصيّة» من ركامِ الأحداثِ هو الذي فرض على نصّار. وبشكل غير متوقّع، الحوار الفصيح والحوار العامّي، كما لو كان نصّار، وهو يحاكي نموذجاً روائيّاً قرأه، يريد أن يحوّل تجربته الذاتية إلى رواية، وأنْ يؤكّد ذاته سارداً متخيّلاً. نقع في تقطيع الفصول المتّكئ على التقرير الصحفي على العناوين التالية: قرار مفلح الأخير، الشيخ يصف مفلح، شعور الغساني، الدلالة على مفلح، أبو فارس يفاجئ مفلح، مفلح يتذكّر، حنكة مفلح.. تعطي صيغة الغائب للكتابةِ حريّة كافية، تتيح لسارد الأحداث أن يمنح

ذاته الصّفات التي يريدها، دون حرجٍ كبير، مثل الذكاء والدّهاء والوطنيّة والكبرياء. بل أنّ هذه الصيغة تسمح للكاتب بأن يرى النّاس على مسافة، بعد أن أخذ مسافة عن ذاته، تؤمّن للقول موضوعية معيّنة. ولعلّ هذه المسافة هي التي وضعت على قلم الكاتب الجملَ السعيدة والحزينة التالية : « ثم أخذ مفلح يناجي نفسه قائلاً : أنا ذاهب إلى الصلب؟ فهل أنا أمثل دور السيّد المسيح وهو ذاهب لآخر مرّة إلى القدس؟ ولكن المسيح تمجّد قبل الصلب، فقد إستقبله الشّعب بالهتاف وفرشوا له الطريق بالرّياحين وسعف النّخل. أمّا أنا فماذا عساني ألاقي؟ هل يهتف لي الوطنيّون فأتمجّد قبل الدينونة وأتأكّد من تقدير الشّعب إخلاصي؟.. ص : ١٦٠ ». لم يكن التّماهي بالمسيح ممكناً دون صيغة الغائب، ولم تكن صيغة « الأنا » ملائمة لأحلام الكاتب باستقبال وطني كبير.

تشكّل جملة : « أتأكد من تقدير الشّعب إخلاصي » مدخلاً ملائماً لقراءة « رواية مفلح الغساني ». لا ترد الجملة إتّهاماً، فقد حظي نصّار بإحترامٍ كبير في فلسطين وخارجها، إنّما تحيل إلى أمر آخر يمسّ أحلام المثقفين، أو أوهامهم بشكل أدق. فالرّجل وهو يكتب سيرة كان يؤرّخ لحياته، معتقداً أنّ في حياته ما يستحقّ التأريخ، وأنّ في تاريخ حياته عِبرة وطنيّة، على الأجيال الفلسطينيّة أن تتداولها وهي تنقّب عن الصّواب. وفي كلام نصّار ما يشي بتفاؤلٍ كبير، وهو الذي أصاب الفلاّح، وهو ما يوحي بثقة بالمستقبل وبذاكرةٍ مستقبليّة عامرة باليقظة والوفاء. والدّليل قائم أوّلاً في نهاية « الرواية » التي تحمل عنواناً دالاً : « الدسيسة الأخيرة »، إذ البطل انتصر على مصاعبِ الدّهرِ ورجع « يعمل لإعالة أولاده ». وقائم هو في عنوان آخر هو : « الروايتان المحروقتان »، اللّتان تتحدّثان عن فضائل العرب : « وهما من محصول العزلة، وقد راجعت من أجلهما شكسبير مرّتين، وطالعت أكثر منماية رواية، .. وأنا أعتقد انّ في الأمّة أوفياء يرجونهما، والشّعب طيّب يقبل عليهما.. ص : ١٧١ ». يطلب الكاتبُ من وراء روايتيه « منفعة الأمّة » ولتحقيق النّفع راجع شكسبير مرّتين وهو يكتب عن « موقعة ذي قار »، وراجع أكثر من ماية رواية ليكشف عن فضائل العرب. والسؤال الذي يطرح هو : ما الذي يجعل نصّار يتمسّك بروايتين تربويّتين، لا تختلفان في شيء عن روايات تهذيبيّة دارجة أخرى، وهو صاحب الصّوت الأعلى في محاربة الصهيونيّة، وصاحب الجريدة التي يؤرّخ بميلادها الهويّة الفلسطينيّة؟ ربما هي « أوهام الكتابة » التي تجعل المثقّف يذهب إلى حيث توهم، لا إلى حيث يحبّ الذهاب.

٣- سيرة ذاتيّة فكريّة :

ذلك الرّجل الذي لا يحسن البلاغة، قام بجولتين واسعتين في ربوعِ فلسطين. جمع ما رأى في ثلاثةِ وستّين رسالة بدأها في السابع والعشرين من أيلول عام ١٩٢٢ وأنهاها في نهاية تشرين أوّل ١٩٢٥. ونشرها تحت عنوان : « رسائل صاحب الكرمل على صفحات جريدة الكرمل ». والرسائل ريبورتاج صحفي مباشر، أو « مسيرة إستطلاعيّة تجريبيّة »، كما يقول وليد خليف، حيث نصّار يرى ويسجّل ما يرى، شديد الاستنكار غالباً وقريب من الرضا في أحيانٍ قليلة. وفي الحالين نرى أحوال فلسطين بعين مجرّدة وصادقة، ونقف أمام فكر نقدي وطني، يثق ببصيرته ويبحث، لاهثاً، عمّن لم

يفقدوا البصيرة. يكتب نصّار تحت عنوان «الحقيقة الجارحة» : «وجدنا أنّ معظم الحركات الوطنيّة التي حاولنا أن نقوم بها مع الوجهاء والمتزعّمين في المدن كانت تفشل، وأنّ المتعلّمين إلى الآن لم يتّخذوا لهم موقفاً صريحاً بل تراهم دوماً يتردّدون أو بعبارة أخرى يقدمون رجلاً ويؤخّرون أخرى، ولم يقوموا بعد بأعمال تستجلب الأبصار أو تنعش الآمال ليضع الشّعب ثقته بهم. ولذلك قرّرنا لما صمّمنا على القيام بهذه الرحلة أنْ نزور بعض القرى في كل قضاء لنتعرّف بالقرويّين وأحوالِهم الإجتماعيّة والإقتصادية ونقف على نفسيّاتهم ونرشدهم إلى ما نعتقده صالحاً لهم، ونستوحي منهم المادّة الضروريّة لعملِنا الصحافي، ولنعلم إذا كان يمكن أن نعمل وإيّاهم. ص : ١١٧» [٨].

تضيء السطور السابقة قضايا عديدة : «يعرب نصّار عن يأسِه من العمل مع «الوجهاء والمتزعّمين»، ويستنكر ميوعة المتعلّمين، ويضع نفسَه خارج الطرفين معاً، ولأنّه يرتكِن إلى جريدتِه وإلى عقل يتحصّن بالصّواب، رغم إضطراب لا يعيه صاحبه بالضرورة، يذهب نصّاراً إلى فضاء مفتوحٍ، يقف فيه على أحوال «المهمّشين»، يستمدّ منهم معرفة عارية لا «تزعّم» فيها، ويرسل إليهم بنصائح وبأحلام كثيرة، والرّجل فيما يفعل يطبق نهجاً جديداً في الكتابةِ، إذْ الكلمات المحدّدة تلتقي بمواضيعها المشخصة، ويسعى إلى حلم مستحيلٍ، يكون فيه المثقف الوطني سياسياً مسؤولاً في مجتمع متخم بالمراجع الفقيرة، شيء لا يبتعد كثيراً عن دروس خليل السكاكيني، التي تستولد المعرفة من الحياة والسياسة من معرفة حياتيّة، وتستولد العلاقتين معاً من مسؤوليّة أخلاقيّة، وجهها الآخر مسؤوليّة وطنيّة.

تحت عنوان : «رسائل صاحب الكرمل المسيرة الميدانيّة في أرجاء فلسطين وشرق الأردن»، جمع وليد خليف مشاهدات نجيب نصّار، التي حاول فيها أن يكون صحفيّاً ومثقفاً من نوع جديد. وجديد نصّار أسلوب صحافي ينشد الإمتاع لأنّه ينشد التربية الوطنية، ويرى إلى مصائر البشرِ قبل أن يلتفت إلى الكلمات. وبسبب ذلك تأخذ المقالة شكل الحكاية. وتتحوّل أطراف الحكاية إلى شخصيّات، كما لو كان الصحفي النّبيه معلماً عطوفاً، يعطي تلميذه الأمان قبل أن يوجّه إليه الأسئلة، يعطي نجيب، وعلى سبيل المثال، رسالته الأولى – ١٩٢٢ – عنواناً جميلاً وحزيناً : «عكا النائمة». لكنّه لا يلبث أن يوزّع العنوان إلى عناوين صغيرة لاحقة : البهجة، الطريق بين عكّا وصفد، نجل البهاء، الجمعيّة الإقتصادية، لا يحرف تعدّد العناوين نصّار عن غايتِه. فبعد مقدّمة تعظيميّة عن عكا التي استعصت على نابليون، تأتي سيرة زعماء «يتزاحمون على أمور لا شأن لها في الحياة العمليّة» تعقبها «البهجة» وهي إسم بستان شهير في لواء عكا، لم يحمه اسمه من الإهمال والتداعي. وكحال بستانٍ مغترب عن اسمه، تكون الطريق بين عكا وصفد خشنة وتحتاج إلى «التعبيد»، و«نجل البهاء» معزولاً في قصرِه وغريباً عن قضايا الحياة. ولن يبقى لنصّار، بعد مسيرة يتوّجها الإحباط، إلاّ دعوة ورعة إلى تأليف «الجمعية الإقتصادية»، التي بإمكانها، إنْ تحقّقت، أن تنظّم «الأوقات الثمينة التي تنفق في المقاهي». غير أن نصّار، الذي يبحث عن البهجة في بستان تداعى وعن البهاء عند من فقد البهاء، يعطي عكا صفة جديدة في حلقة جديدة، فتأتي «عكا المستيقظة»، التي تظل نائمة رغم الكلمات المستبشرة، يأخذ العنوان الجديد التفاصيل التالية : المعارف في عكا، المدارس التعليمية،

مدرسة الصبيان الثانوية، مدرسة البنات، الشبيبة، الجمعية الاقتصادية، الحاكم الإداري، الشيخ المتقاعد، السجون. ينقشع التفاؤل الذي يحصّن به نصّار نفسه سريعاً، ذلك أن «الواجب وجوده»، الذي يقول به همساً، يشي برقعة الخراب الواسعة. يثني الصحفي على المدارس العلمية، مقترحاً أن تتضمن البرنامج المدرسي «مبادئ علم الزراعة الأساسية»، و «التجارب العملية» لأنه ثبت «أن العلوم النظرية لا تأتي بالفائدة التي تأتي بها العلوم العملية». فإن وصل إلى «الشبيبة» أطرى عليها، وأعلن «مع الأسف أنه ينقصها حسن القيادة وأكثرية الشباب لا يعتمدون على أنفسهم كفاية ولم تتربَّ نفوسهم منذ الصغر على الجرأة الأدبية». و«الجمعية الاقتصادية» تذكِّر بنضارة عكا الإقتصادية الغابرة. والشيخ المتقاعد، وهو خطيب مفوّه، لا تروق له حرية الصحافة ولا يميل إليها. وحين يصل الى السجون يكتب السطور التالية: «لم نتفقد حالة السجون، مع أن هذا كان في مقدمة واجباتنا كصحفيين. ولكننا سألنا فعلمنا أن الحكومة الحالية أحدثت فيها تحسيناً يستحق الذكر وسنزورها إن شاء الله في زيارتنا الثانية لعكا. ص: ١٥». بيد أن نصّار، وفي حلقة ثالثة، يجهض التفاؤل الذي وعد به بعنوان جديد هو: عكا المعطّلة. أمراض كثيرة تعطل المدينة التي هزمت نابليون وحولها العثمانيون إلى معتقل لأكابر السياسيين منها: «نوادي الكسل» في المقاهي المنتشرة، أو «ملاجئ البطالة والبلادة»، كما يقول، و«المراسح» التي تهدّ القوى العملية، وتربية التبرير والأعذار التي تجعل كل شيء ممكناً، الاستكانة إلى الألقاب المتوارثة، وإقبال الناس على تقبيل يد شيخ قليل الفائدة وكثير الضرر. يتطلع نصّار إلى «مسح اجتماعي شامل» يفصل بين المريض والصحيح، كأنه يعاين صحة «المريض الفلسطيني»، الذي تنتظره معركة لا يعرف موقعها.

يقول نصّار: «إن صدق استدلالنا بان الجرائم والدعاوي يزيد في فلسطين في عهد الإدارة البريطانية فمن الواجب على علماء الحقوق والاجتماع أن يبحثوا أسباب هذه الزيادة. ص: ١٠٨». وواقع الأمر، فإن نصّار يقوم بما لم يقم به علماء الحقوق والإجتماع، وهو يتأمل «نوادي البطالة» وأركان التجهيل، وبما لم يقم به «المتزعم» الدعي والمتعلم الهش، وهو يكتشف أقدار فلسطين من حكايات المضطهدين. وإذا كان نصّار يمثل رومانسية المعرفة، ينتقل من مبادئ الزراعة الفنية إلى نقد المنهاج المدرسي، فإنه، في رومانسيته، عبّر أولاً عن تبشيرية المثقف الوطني، الذي يؤمن بـ«قوة المعرفة» وبقدرة الجريدة على تحويل المعرفة إلى وقائع عملية. وبالتأكيد، فإن تبشيريته المكتنزة لا تستقيم دون بعد تحريضي عريض، هو قوام لها ومرجع في آن. وتكشف العناوين التي كان يقع عليها عن رغبة في استنهاض الكسيح ومن يحسن الوقوف أيضاً، كأن يكون العنوان: «أقرأوها كلكم، استبدلوا، إلى الأمام أم إلى الوراء. كيف يُتّقى الخطر. المؤسفات، البيوع الكبيرة والكثيرة: الله أكبر أين غيرة الزعماء التي كانت تظهر في تافه الأمور..» وعلى الرغم من بحثٍ عن التفاؤل بين طيات الغيوم، فـ «المؤسفات» مسيطرة في «المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن».

يقول نصّار: «تحتاج النهضات إلى إرادة قوية تقاوم العقبات وتدوس العراقيل التي يضعها الرجعيون بأقدام الجرأة الأدبية». لكنه سيكتب بعد قليل، وحين يمر بـ«مرج ابن عامر»: «اجتزنا كل هذا السهل الذي يجب أن يكون ينبوع ثروة فلسطين وإذا هو مع الأسف متشح بوشاح الذل والفقر وليس

عليه علاقة أو مظهر من مظاهر العمران والمدنية». وبين التحريض المجرد، إذ «الجريء تمجده الأجيال» والأسف، المشخص، فالفقر يلتهم القرى، يكتب نصّار: «والذي استوقف نظرنا أن القطار صار يقف أمام الجالود، إحدى القرى التي اشتراها الصهيونيون من نجيب بك سرسق، قبل أن يعمّر اليهود فيها حجراً ومدّوا إليها الخط الحديدي». لا يمر القطار أمام قرى فلسطينية قائمة ويتوقف أمام «قرية يهودية» لم تولد بعد، مفصحاً عن زمنين شديديّ الاختلاف. والفرق قائم بين من يذهب إلى غايته ومن ينتظر أن تجيء غايته إليه: «معظم سكان طبريا اليوم من اليهود أما العرب المسلمون والنصارى فهم أقل من نصف السكان. ولذلك نجح الاستعمار اليهودي في شراء الأراضي من عهد قديم قبل أن يكون الناس يعرفون شيئاً عن الصهيونية ومقاصدها. ص: ٣٢». عرف «الناس» الصهيونية حين أصبحت معرفتها متأخرة، أو عرفوها بوعي متأخر لا علاقة له بالمعرفة. ولهذا فات القطار القرى الفلسطينية.

ارتكن نصّار إلى «عتلة المعرفة» حالماً بتخليق كون جديد. وسقط حلمه قبل أن يرتفع، لأن المكان الذي يوافق «عتلته» لا وجود له. وما لحظة الحلم إلا نثار من وقائع سعيدة، كأن «تعتني مدارس المستر سمبل بتعليم اللغة العربية وتدريس سيرة أبطال العرب»، أو أن ترد «الحديقة الغناء» جانب طولكرم على قول تشرشل: «لا أتوقع أن يعمر العرب بلادهم أو أن يمدوا لها الكهرباء في ألف سنة»، أو أن كسب بعض الناس عيشهم بشرف لأنهم تمسكوا بـ«مزايا العرب». يبني نصّار، مقابل نثار التفاؤل، خطاباً وطنياً ـ نقدياً قوامه جملة من الثنائيات اللامتكافئة: «العلم / الجهل، الغنى / الفقر، الوطنية / الخيانة، فلسطين / المشروع الصهيوني. وبداهة، فإن نصّار، وهو يكتب ريبورتاجاً صحفياً جميل التقطيع، لا يكتب بلغة مفهومية «مشبعة» بالنظرية، بل يرمي بملاحظات نقدية نضرة ومتراصفة، يستطيع الدارس بناءها نظرياً. ويغدو الأمر ميسوراً، بسبب قصدية كتابية سافرة، تحاول قراءة أحوال فلسطين على ضوء المشروع الذي ينذر بإغراقها.

مهما تكن الثنائيات التي ارتكن إليها نصّار، يظل الموقف من الحفاظ على الوطن معياراً رئيساً: يكتب تحت عنوان «تطويب الأراضي»: «غير أن العيب قد ظهر في الأهالي بسبب جهل قيمة الأرض وبسبب ضعف أخلاقهم الوطنية وبسبب الضائقة المالية. ص: ٢٨». ويكتب تحت عنوان الحالة الاقتصادية: «يستهوي السماسرة البسطاء بتضليلهم وبقولهم لهم الأفضل لكم أن تبيعوا فالبلاد راحت والثمن الذي تقبضونه اليوم لا تحصلون عليه فيما بعد.. ص: ١٦٣». يتحدث نصّار عن «الفقر الشامل»، لا عن الفقر الإقتصادي فقط، ذلك أن الفلاح الذي يبيع أرضه، وهي حالات قليلة على أية حال، يفتقد معنى الحياة قبل أن يفتقد الرغيف. ومع أن نصّار يسبغ على الأرض جمالية خالصة، فهي «فردوس المجتهدين»، يؤكد، بلا انقطاع، ضرورة «علم الزراعة» و«المدرسة الزراعية» و«مبادئ التعليم الزراعي»، كما لو كان في العلم، وهو منظور إلى العالم، ما يغوي الأرض على الكشف عن أسرارها. وبهذا المعنى، لن يكون نصّار، وهو المفتون بكلمة العلم والمعرفة والمدرسة، بعيداً عن القول بـ«علم المبادئ الوطنية»، الذي يعلم الفلاح قيمة الأرض ويعضد الأخلاق الوطنية ويسهم في فك الأزمة الاقتصادية.

لن يقطع «علم المبادئ الوطنية» مسافة طويلة قبل أن يتداعى، فالعلم فقر آخر إن لم تباطنه أخلاقية واضحة. فما عصم العلم خائناً عن خيانة. يكتب نصّار: «راج سوق بيع الأراضي في لواء نابلس وقضاء طولكرم رواجاً يشبه رواجه في الجهة الشمالية أو أكثر، وإن كانت البيوع في المنطقة الشمالية كبيرة فالباعة معظمهم من أهالي بيروت وزعماء لبنان الكبار الذين يشار إليهم بالبنان. أما في هذه الجهة فمعظمهم من الوجهاء والعلماء وأبناء العائلات والزعماء وأعضاء المؤتمرات والجمعيات إلخ إلخ... ص: ١١٥». يبيع الفلاح أرضه عن جهل وفقر، و يبيع «الأعيان» الأرض عن جشع ومعرفة، بل أن الفلاح، وكما تشهد الدراسات، لا «تنهب» منه أرضه، إلا بسبب «متزعم» يقف على ظهره. ولهذا، فإن نصّار، المفتون بتعاليم المسيح والنبي محمد، يربط ربطاً وثيقاً بين «المتزعمين» واستحالة المشروع الوطني، لأن دور المتزعم، وكما يقول، بيع المصلحة العامة من أجل مصلحة خاصة. تجعل العلاقة بين المتزعم وتحقيق المصلحة الخاصة، أو بين التزعم وتهديم المصلحة العامة، من تجار الوطنية تجاراً بالوطن والمواطنين. تجاراً لهم مهابة وبهاء وهالة محترمة. يستمدون المهابة من «الوجاهة» والبهاء الكاذب من «العلم» والهالة الخادعة من «المؤتمرات» و «الجمعيات» و«قصور» عائلاتهم المعروفة، بل إنهم يستمدون كل ألقابهم الخاوية من إلغاء إنسانية الفلاح ومصادرة إرادته. ولعل هذه الهالة هي التي تدفع نصّاراً، دون أن يدري ربما، إلى الإحالة إلى قانون التقليد، حيث الضعيف يحاكي القوي. حين يتحدث عن «فساد الفلاحين الذي يتسرب إليهم من المدن». وما يخلص إليه نصّار، وهو يندّد بـ«المتزعمين» في لبنان وفلسطين وبقاع أخرى، واضح، تبرع الزمن بالبرهنة عليه بعد حين: «هؤلاء الزعماء الذين يساعدون متعمدين على تشكيل مملكة يهودية في قلب البلاد العربية بين سوريا ومصر والجزيرة.. ص: ١٤١».

«المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن». هذا هو العنوان الثانوي الذي يضيء العنوان الأساسي: رسائل صاحب الكرمل. يردّ العنوان الثانوي إلى المكان، وإلى رحلة ترصد ملامح المكان وتسجّله. بيد أن نصّار، يضيف إلى الرحلة الأولى رحلة أخرى، تقرأ المكان في مرآة المتزعمين، وتشتق صورة المتزعم من المدرسة البائسة والمزرعة المهجورة والفلاح المخذول الذي يدفع لـ«جلاده الانجليزي» ثمن العصا التي تكسّرت فوق ظهره. يكشف نصّار، وفي استقصاء ميداني، عن معنى «المتزعم» في مجتمع عضوي موزّع على العائلة والطائفة والمشيخة والعشيرة والبلدة. ينطوي التزعم المفترض على ظاهرتين: يعمل المتزعم على الاحتفاظ بالقسط البشري الذي يؤمّن له الزعامة مجتهداً، لزوماً، في إقصاء قسطه عن الأقساط الأخرى، أي مؤمناً أن التفرقة هي عماد وجوده. ولكي يبرهن المتزعم على صلاحه، الذي لا صلاح فيه، يكون عليه أن يبرهن عن تمايزه الإجتماعي، نفوذاً وهيبة وثراء. وهكذا تكون التفرقة قوام الظاهرة الأولى، والفساد والإفساد عماد الظاهرة الثانية. وعن هاتين الظاهرتين معاً، يصدر دور «المتزعم» في إفساد القضاء والتلاعب في الضرائب على الزراعة وتزوير معنى الكفاءة ونقل الفساد من «المدينة؟»، كما يقول نصار، إلى القرية. وحاكم الأمور دائماً هو «النفوذ الشخصي»، الذي يضع مصلحة الجزء المبدّد فوق مصلحة الكل الذي لا وجود له، ويضع مصلحة المتزعم فوق ركام الجزء والكل معاً. وفي منطق كهذا تكون «الأحزاب الوطنية» تنكيلاً

بالوطن، والمتزعمون سماسرة و« الصحافة الوطنية » كتابات صفراء تروّج للسماسرة المتزعمين.

وقد يبدو نصّار عالي الصوت إزاء الخراب الداخلي وخفيضه إزاء الاستعمار البريطاني، وهو ما ينقضه، وبنبرة مقتضبة، في فقرة عنوانها : « بلفورات فلسطينية »، متحدثاً عن : « العاملين على إتمام تصريح بلفور بإنشاء الوطن القومي ومن هؤلاء المرابين الذين يستفيدون من شدة الضائقة الإقتصادية .. ص : ١٤٨ »، حيث فحش الفائدة يجبر الفلاح على بيع أرضه، وبداهة، فإن معايير الربا والبيع والشراء، في مجتمع قائم على « النفوذ الشخصي »، يقرّرها المتزعمون، بقدر ما تقرر الأرباح والطموحات الفاسدة معايير قيادات البوار. وفي الحالات جميعها، يعيد نصّار، وعلى مستوى آخر، الصورة السوداء التي رسمها محمد عزة دروزة مؤرخاً. فحديث الإصلاح يحتاج إلى إصلاح. و« الحصص البشرية » هاجعة، وحرّاس « الحصص » مرتاحون في عباءاتهم، حين يمر نصّار على أكثر من بلدة يكتب « الروح الوطنية نائمة »، فإن التقى بـ« روح طيبة » نسبها إلى « شمم العرب »، أو أخذ عليها كثرة الانفعال : « الحركة الوطنية في نابلس قائمة كلها على العواطف كما هو الحال عند عموم الشرقيين .. ص : ٧٢ ».

في أكثر من مكان وبوعي واضح مستثار، يرى نصّار إلى الفرق بين اجتهاد اليهود وإهمال العرب، كأن يكتب : « كانت مخازن الصهيونيين في حيفا في أول سني الاحتلال قليلة جداً، وما كنت ترى سوى لوحات قليلة باللغة العبرية، أما اليوم فإذا مررت بالسوق ترى اللوحات باللغة العبرية أكثر منها باللغة العربية »، إلى أن ينتهي إلى نبوءة تحققت بعد ثلاثة وعشرين عاماً : « إذا بقي الحال مستمراً نعتقد أنه لا تمضي سنون قليلة حتى يتطبق تصريح بلفور بحذافيره وتصبح فلسطين في قبضة الصهيونيين ولا يبقى لنا إلا التراشق بالكلام رأسمالاً لأن الصهيونيين لا ينازعوننا في شيء من هذا .. ص : ٩١ ». تخبر السطور الأخيرة عن خفوت صوت نصّار في النصف الثاني من العشرينات، وعن كآبته في الثلاثينات، وعن موته الجسدي والرمزي في عام النكبة.

ذلك المولع بكلمات ليست من زمن مجتمعه في شيء، مثل « الرجل العمراني »، كان، وقد ظللته أشجار المعرفة الخضراء والحزينة معاً، يقترح بديلاً عن التراشق بالكلام ويهجس بـ : استراتيجية المقاومة الوطنية، في فضاء أعزل ترتد عنه صحراء الانفعال إلا في لحظات مارقة. فهو يستنهض في الفلسطينيين جمال المسيح الفلسطيني وعدالة الرسول محمد، ويقص عليهم أمجاداً عربية قديمة حقيقية ومتخيلة، ويحرض فيهم، وقد ألمَّ بشيء من ثقافة الغرب، عقلاً يتأبى عليه النهوض، مؤكداً اهمية العلوم والعلوم التطبيقية والمدارس الحديثة وتحرر المرأة وشعاراً لا تنقصه الطرافة : « النهضة الاقتصادية أساس النهضات جميعاً ». وهذا الشعار فرض عليه حديثاً متواتراً عن تنظيم التجارة والارتقاء بالصناعة وتقديس الزراعة والأرض، متأثراً ببعض كلمات تولستوي عن الأرض والفلاح. وكانت هامشيته، في حديث الترقي والتمدن على الأقل، لا تنفصل عن لغة غير أليفة لمجتمع تقليدي، تحتضن جملة من التعابير تخاطب العقل كثيراً والعاطفة قليلاً. من هذه التعابير، التي ينأى عنها المتزعّم ولا يعرفها ربما : الأخلاق الوطنية، الهيئة الاجتماعية، كفاءة الوطني، الكتلة الوطنية الفاعلة، الرجل العمراني، العقول النيرة، فن الإدارة، النهضة الزراعية، الرقي والتمدن، المبادئ الأخلاقية والاجتماعية .. تحيل

هذه التعابير على حياة حرة، لها لغتها الخاصة بها، على مبعدة عن لغة الخطب والرياح وعلى مسافة من متعلم يقوده وعيه الريفي إلى تزلّف الوجهاء والانبهار بالوظيفة الحكومية. وليس غريباً، والحالة هذه، ألاّ نعثر على صوت وطني بارز لدى المتعلمين، الذين كان يرسلهم الانتداب، أو عائلاتهم الميسورة، إلى الجامعات البريطانية، أو إلى مدارس عالية تحت الانتداب البريطاني أو السيطرة العثمانية، ذلك أن هؤلاء المتعلمين كانوا يتلقون «تعليماً ادارياً» هاجسه الانطلاق من وظائف الدولة والعودة إليها. ولذلك، لن يلتقي نصّار، إلا قليلاً، بـ«متعلمين» يستعملون لغته، ولن يلتقي، إلا قليل الأقل، بسياسيين مشغولين بـ«النهضة» و«التقدم الإجتماعي».

كلمة «الوطنية» هي الأكثر رواجاً بين كلمات نصّار، تحتضن الأخلاق والزراعة وما بينهما، وتحيل على أمر مرغوب هو: المواطن الذي يحتفي بالوطن، أو: المواطنون، الذين يرون إلى فلسطين، قبل أن ينصتوا إلى عائلاتهم وطوائفهم ومشايخهم. لم يعثر نصّار على كلمة «الوطنية» في كتاب، إنما جاءته من كفاح وطني، ومن ممارسة مشخصة عاشت دلالات: الاستبداد العثماني والنفاق الانجليزي والتربص الصهيوني والعواطف العربية. ومن معرفة نيرة قوامها الممارسة الأخلاقية انبثق ذلك الحدس العارف، الذي بشّر وأنذر ثم انسحب ينتظر الفجيعة. نقرأ في رسالة له عن حيفا عام ١٩٢٥ ما يلي: «والحقيقة التي لا مراء فيها أنه كلما ازداد الضرر وسرى الخطر في جسم هذه الأمة ازدادت الهمم فتوراً والعقول ذهولاً والنفوس خمولاً وازداد الأطباء إهمالاً بل ازدادوا جدالاً وخصاماً ونسوا أن مريضهم يحتضر بين أيديهم وأنهم أوشكوا أن يصيروا حفاري قبور وأنهم إذا بقي هذا حالهم قد لا يجدون حفاراً يحفر لهم قبورهم». وضوح جميل، وجماله مرارة باهظة، بعيد عن خطر الثلاثينات القادمة، التي تعد بتأديب الجبال ونصرة الحق المبين. ويكتب نصّار عن حيفا أيضاً: «ست سنين وعوامل التنازع تفعل فعلها فينا فتذهب بأموالنا وتزيد في تفريق كلمتنا وتنابذنا وإضعاف جميع قوانا حتى أصبحت هيئتنا الإجتماعية كمن أصبح في الدرجة الثالثة من السل يهدده الموت وهو يحسب أنه أطول الناس عمراً».

في رحلته التي يختلط فيها الحدس بالإحصاء، قدم نصّار خطاباً اجتماعياً نقدياً، وخطاباً وطنياً تحريضياً، وصورة عن مثقف وطني رومانسي، ظن أن جريدته تعيد تخليق العوالم. وبما أن أعلى الناس ارتفاعاً أوقعهم سقوطاً، كان على نصّار أن يبدأ، لاحقاً، رحلة المرارة والتشكي، فما كتبه المثقف محته الريح ولم يره أحد، شيء قريب من عاشق قصب السكر الذي قوّضه السكر لاحقاً، مع فرق حزين، هو أن نصّار لم يكن سجين الشره، بل طليقاً في عشق البلاد.

٤ - سيرة الخطأ والصواب الذي لا سيرة له:

في السابع من تموز - ١٩١٤ - نشرت الكرمل، وهي تعلّق على «نداء عام إلى الفلسطينيين» جاء من إحدى المنظمات الوطنية، السطور التالية: «عليكم أن تجندوا الرأي العام حتى تتمكنوا من تحقيق هذه الأهداف، وليس لكم أن تلوموا الصهيونيين، بقدر ما ينبغي أن تلوموا زعماء بلدكم وموظفي حكومتكم الذين يبيعونهم الأرض ويعملون كسماسرة لهم. أوقفوا هذه المبيعات توقفوا الحركة

الصهيونية». الجملة الأخيرة: «أوقفوا هذه المبيعات توقفوا الحركة الصهيونية»، تعلن عن موقف نصّار الوطني ومحدودية منظوره الوطني أيضاً. وطني وهو يقاتل الصهيونية وبيوع الأرض، ومحدود في منظوره الوطني وهو يرى العامل الداخلي ولا يرى إلى العامل الخارجي. ينصّب هذا المنظور في الأخلاق مبتدأ وخبراً، دون أن يدري أن أخلاقية الشعوب المستضعفة تسعفها في المقاومة ولا تمنع عنها الهزيمة. ولهذا اعتقد أن استعادة العرب، في الحاضر، لفضائل العرب، في الماضي، ترشد القافلة العربية الجديدة إلى طريق قويم.

انعكس تصوّر نصّار الأخلاقي في قضايا متعددة. كان يندهش من موقف الأتراك الجائر من العرب، والطرفان ينتميان إلى شرق واحد، ويتعجب من ظلم الأتراك للعرب، والطرفان يعتنقان ديناً واحداً. في تصور، لا تنقصه السذاجة، يصبح الشرق هو «الجوار»، والدين هو «القربى»، وعلى الأخلاقي أن يحترم الجوار والقربى، ماحياً، وببراءة كبيرة، الدولة وحساباتها وموقف الدولة العثمانية البراجماتي من «القربى» و«الجوار». وبسبب وعي بريء، لا ينشغل بالصراعات المادية والمصالح الاستعمارية، يكون «مفلح الغساني» مستعداً للدفاع عن تركيا في «حالة ظهور المطامع الأوروبية»، التي هي، أي المطامع، «سر غامض» لا يمكن التنبؤ به. وهذا اللامتوقع أوقع نصّاراً في الارتباك والذهول حين علم، فجأة وعلى غير توقع، بوعد بلفور، ذلك أن الانجليز لا يؤذون أحداً، بل أن ثقافتهم، وشكسبير وجهها الأكبر، لا تسمح لهم أن يصيبوا الفلسطينيين بضرر، يشتق نصّار العلاقات العربية - التركية من «الدين» و«الجوار» ويخترع الموقف الانجليزي من فلسطين من الثقافة، على اعتبار أن ثقافة الانجليز وجه آخر للفضيلة.

وفي هذه الحدود، يغدو «الانتماء القومي العربي» لغزاً، يشير إلى ماضٍ أنتج قيماً فاضلة، لا إلى مجموع بشري متمايز يربط هويته المختلفة بمستقبل مختلف، يحقق التمايز وتعيين الهوية سياسياً. ولذا، فإن نصّار لن يميل إلى الأتراك لسببين: اضطهادهم العرب وتحالفهم مع الألمان، بدلاً من التحالف مع الانجليز، الذين لهم أسطول كبير يرافق الشواطئ التركية الممتدة من الأستانة إلى مرسين. وهذا يعني أن رفع الجور وتصحيح التحالف، وهما يردان إلى الأخلاق والحكمة، يجعل من القضية القومية نافلة، ويضع العرب والأتراك في إناء متجانس، بمعنى آخر: إن العروبة أخلاق قويمة لا تستدعي، لزوماً، سلطة سياسية يمارسها العرب.

يظل تناقض نصّار قائماً وهو يعاين المشروع الصهيوني: يعرف غاياته بوضوح مدهش، ويبصر آفاقه ببصيرة نافذة، لكن منظوره يكبو مرتين: مرة أولى، وهو يعزل تكوّن المشروع عن العوامل الأوروبية الأساسية التي أسعفته على الوقوف، ومرة ثانية حين يرى في الصلاح الداخلي، أي تهذيب النفوس، درباً لدحر هذا المشروع، فبما أن المشروع وليد يهودي محض لأطماع يهودية محضة، فمن العبث «بعثرة الجهود» والاصطدام بما هو غير يهودي. ولعل هذا التصور الخاطئ، بعد أن استقر الانجليز في فلسطين سيدفع صوت نصّار الهادر إلى الخفوت، حتى اقترب من التهميش والصمت.

يكشف نصّار عن بصيرته وهو يكتب في الكرمل في ١٩ أيلول ١٩١٣ السطور التالية: «البيروتيون يقتصرون على مطالبة الحكومة بالإصلاح.. مالنا وللبيروتيين! نحن الفلسطينيين على شفا جرف،

فالخطر السياسي والإجتماعي والإقتصادي يهددنا من كل صوب، والأمة تنازعنا البقاء في وطننا برهنت على كونها أمة حية قوية تعمل لنفسها وتعتمد على نفسها.. عقلاء الشعوب أدركوا أن دعائم الحياة هي صيانة المصلحة العمومية والتضامن على إحكام ربط الجامعة القومية، فلماذا لا يقوم أبناء الأمراء والشرفاء والكبراء، والمتعلمون والغيورون في فلسطين لعقد مؤتمر يفكر بتنظيم جامعة عربية فلسطينية تهتم بإحياء التجارة وإنهاض الزراعة والتعليم؟».

يهجس نصّار، وهو يدعو إلى «جامعة فلسطينية»، بالمؤتمر اليهودي الذي عقد قبل خمسة عشر عاماً، مؤمناً بأن «الأمة اليهودية» تعتمد على نفسها، وأن على «الفلسطينيين» أن يعتمدوا على أنفسهم أيضاً. لا يمنع ارتباك المقايسة عن نصّار فضيلتين: تعامله اليقظ والذي لا خفة فيه مع المشروع الصهيوني، مدركاً أخطاره ومؤمناً بإمكانية انتقاله من «القوة» إلى «الفعل». ودعوته إلى إصلاح فلسطيني، شامل، يمدّ الفلسطينيين بأسباب مقاومة وطنية. وسواء كان يترجم إلى العربية سطوراً «إصلاحية» قرأها في كتاب أجنبي، أم كان يردّ على واقع مقوّض يجب تحويله، فإنه كان يهجس بـ«استراتيجية مقاومة»، بعيداً عن الخطابات الملتهبة التي تتبخر لحظة غياب المصفقين.

إن هذا الوضوح في التعامل مع صهيونية مكتفية بذاتها، كان يرتبك، إضافة إلى ما يخالطه من ارتباك، مرة أخرى، حين يخرج نصّار من سؤال ضيق إلى سؤال أكثر اتساعاً. كان يكتب في الكرمل في ٢٢ آب ١٩١١، ما يلي: «بدأنا نشعر بتأثير الصهيونيين على الهيئة الحاكمة مذ علت نغمة الترك والعرب.. إن أحرار الترك سليمو النوايا وحديثو العهد في السياسة. ونعتقد أن الصهيونيون (هكذا وردت في النص) وجدوا فيهم موضوعاً قابلاً للخديعة.. أما نحن العرب فلم نبرهن على كوننا أوفر حكمة من إخواننا الأتراك تجاه السياسة التي تهدد سلامة المملكة. فبدلاً من أن تحملنا هذه الأحوال على زيادة التقرب منهم لنبيّن لهم ضرورة اتحادنا، قابلنا مخاوفهم بالاستياء، فازداد الاعتقاد الذي غرسه فيهم الصهيونيون على ما نظن، بعدم إخلاصنا لهم رسوخاً في أذهانهم..».

يحتضن القول السابق الكلمات التالية: النية السليمة، الخديعة، التقرّب، الإخلاص،.. تظهر هذه الكلمات أكثر وضوحاً بالركون إلى نقائضها: النية الحسنة، والأعمال بالنيات، الوفاء، وهو علاقة فرد بفرد، التنافر، وهو غياب التسامح، الغدر، وهو علاقة فرد بفرد مرة أخرى. توافق الكلمات، وكثير غيرها في كتابات نصّار، خطاباً أخلاقياً، يرى في العلاقات الإجتماعية والسياسية علاقات ما بين-فردية. وبما أن الأخلاق، بداهة، تبدأ بالفرد، فإن إصلاح الأفراد العرب والأفراد الترك مدخل إلى حياة سعيدة توحدّهما. يبدأ القول سياسياً وينتهي إلى فضاء لا مكان للسياسة فيه، إذ القومية العربية أخلاق والقومية الطورانية نافلة بعد إصلاح الأخلاق، وإذ المقاومة الوطنية تردّ إلى النوايا والأفراد والنيات الحسنة. ينبني القول السياسي عند نصّار على عمومية أخلاقية، تستأنف «العواطف الشرقية الملتهبة»، التي ينتقدها في أكثر من مكان. وهذه العمومية الأخلاقية تغوي نصّاراً بتعامل إيجابي مرتاح مع كلمة «الحكومة» سواء كانت عثمانية أم بريطانية، طالباً منها «إصلاح المجتمع» و«دعم القضية الوطنية». يتوزّع معنى «الحكومة» على الأفراد الذين يمثلونها، وبما أن في بعض الأفراد الذين التقى بهم فضائل لا تنكر، فإن الحكومة المزودة ببعض الفضائل قادرة على بعض «الدعم»

وبعض «الاصلاح».

ما الذي يجعل خطاب نصّار، المثقف الحديث، مسكوناً بتناقضات متجددة؟ ما الذي يجعله يبعثر البداية الصحيحة حين يبتعد عن البداية؟ يقول نصّار، وهو يُحَلِّل الايديولوجيا الصهيونية: «والغالب على اعتقاد الموسويين أنه يستحيل عليهم إعادة حكومتهم في سوى أرض الموعد.. ومع أن هذا الاعتقاد يستخدم لتسخير عقول عامتهم، فإنه يفيد أيضاً في تشويق الخاصة منهم؟»[٩]. يمس نصّار مباشرة البعد البراجماتي للإيديولوجيا التضليلية، دون أن يقارب المراجع البشرية التي تنتج الإيديولوجيا وتروّج لها. ويكتب أيضاً: «إننا لم نعلم كيف يدعي الكاتب وكثيرون من الإسرائيليين أن فلسطين هي ملك أجدادهم، فإن كانوا يدعون ذلك لأن أجدادهم امتلكوها بحق الفتوح فقد امتلكتها أمم من بعدهم بالحق نفسه. وإن كانوا يبنون دعواهم على قول التوراة بكون الحق عز وجل أعطاها ملكاً لإبراهيم، فالحق نفسه سمح بأخذها من أيديهم، فضلاً عن كون أمم كثيرة تفرعت من نسل إبراهيم غير الطائفة اليهودية»[١٠]. يردّ «المثقف الحديث» على الحجة التاريخية القديمة بحجة تاريخية قديمة، وعلى القول الديني بقول ديني آخر. ومع أن الرد، في شكليه، لامع وحاضر البديهة، فإن نصّار عاجز عن ربط المشروع الصهيوني بالمشروع الإستعماري الأوروبي، وعن ربط المشروع الأول بآثار الثورة البرجوازية الأوروبية، مكتفياً بشعب ملتف على ذاته، هو الشعب اليهودي، الذي يشتق من كتبه الدينية مشاريع مكتفية بذاتها أيضاً. والسؤال هو: لماذا يأخذ هذا المثقف الذي يقرأ الإنجليزية والألمانية، ويمتهن الصحافة بمقاربة محدودة في موضوع بالغ الخطر كما أكد أكثر من مرة؟ ينفتح الجواب، ربما، على اتجاهين: يقبع في الاتجاه الأول مجتمع عضوي تقليدي، لا يعرف الأحزاب السياسية والحوار المجتمعي وربط الخاص بالعام والمحلي بالعالمي. وهذا يفرض على المثقف العزلة والأخذ بمقايسات ذهنية. فنصّار يدافع عن فلسطين وهو يدافع عن أرض المسيح، ويدافع عن «مسيحية فلسطين»، وهو يقاتل من أجل القيم العربية القديمة، ويكافح من أجل هذا كله تمسكاً بمبدأ الفضيلة التي تواجه الرذيلة، والمسيح يردّ إلى زمن ذهبي قضى وفضائل العرب حلم متوارث والفضيلة رنين جميل ليس له عنوان، أي أن نصّار، وعلى مستوى المنظور، يحج إلى أزمنة مختلطة ويظل ضائعاً. ومهنه الحديثة، مثل المحاماة والصحافة والتعليم، حديثة بالمعنى التقني، الذي لا يوافق، بالضرورة، معنى تاريخياً يفصل بين الدين والقومية وبين الأرض والوطن. وتعطي «رواية مفلح الغساني»، ربما، صورة عن التناقض بين المنظور والتقنية. فالرواية، تعريفاً، تحيل على جنس أدبي حديث يختلط فيه المتخيل بالمستقبل، و«رواية» نصّار مشدودة إلى معيش «حرفي» وقيم منقضية.

استعمل نصّار تقنية أدبية حديثة لخدمة أغراض تقليدية، مبهورة بحسن الضيافة وهدوء البراري، أي مبهورة بمجتمع عليه أن يتغير دون أن يفقد «عادات أجداده». وإذا كان بؤس الواقع الفلسطيني قد فرض على نصّار تمرداً مقيداً، فإن الاتجاه الآخر، أي الثقافة الأوروبية قد حررت نصّار وقيدته أيضاً. تحرّر وهو يقارن بين أكثر من لغة، وبين نصين سياسيين، وبين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية، وظل مقيداً وهو يُقبل على الثقافة الأوروبية ويغمض عينيه عن الاستعمار الأوروبي، لأن «الثقافة الخيرة» لا تسيء إلى أحد، بمعنى أكثر تحديداً: إن كانت أوروبا الإستعمارية قد ضحت بالشعب الفلسطيني

فداء للمشروع اليهودي، فعلى المثقف الحديث أن يضحي بكرهه للاستعمار فداء للثقافة الأوروبية، فأوروبا جاءت بالاستعمار وبالحداثة الفكرية، والعلاقة الثانية تخفف أوزار العلاقة الأولى، أو تزيحها عن مجال البصر. وهذا الموقف، المسكون بالتناقض والتمزق، دفع نصّار، ربما، إلى التعاطي الصارخ مع «الأمراض الإجتماعية الفلسطينية»، كما لو كان المرض الفلسطيني يصدر عن روح فلسطينية مريضة لا أكثر، وإلى التعامل الرفيق مع السيطرة البريطانية على فلسطين.

ومهما تكن التناقضات التي حكمت موقف نصّار، وهو مشروط بزمنه وبمجتمعه، فإن هذا الصحفي الوطني الثائر أنتج خطاباً وطنياً، يتعامل مع المشخص ويرى بلا خطأ إلى آفاق المشروع الصهيوني، وخطاباً تنويرياً، غير مسبوق، يصل بين إمكانية المقاومة الوطنية وإصلاح المجتمع الفلسطيني. كان نصّار يكتب نثراً في مجتمع يحتفي بالبلاغة، ويحض على الفعل المنظم في مجتمع كثير الشعارات والعواطف. وكان، قبل كل شيء، قد اختبر «المتزعمين» وألقى بهم وراء ظهره، وعاين «المتعلمين» واكتشف ميوعتهم الباهظة.

ولد نجيب نصّار عام ١٨٦٥ وتوفي عام ١٩٤٨، لم يلتق نصّار بالأجيال التي تمجّد الجريء، كما اعتقد، لكنه وجد من يحفظ بعض صفحاته من الضياع، ويعرف تاريخ موته وولادته، ولو بخطأ قليل. كان الروائي الألماني هنريش بول يقول: «يعمل المثقف من أجل حلم لن يراه». وفي حدود هذا القول يكون الزمن قد أنصف نصّاراً، أو اقترب من إنصافه.

إشارات :

(١) نجيب نصّار : رواية مفلح الغساني، تقديم وإعداد حنا أبو حنا، دار الصوت، الناصرة، ١٩٨١، ص : ٢٤. استفاد كاتب هذه الدراسة (ف. د) من المقدمة الجادة التي كتبها حنا أبو حنا، فله جزيل الشكر.

(٢) المرجع السابق، ص : ٢١.

(٣) عبد الوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣، ص : ٦٤.

(٤) نجيب نصّار : المرجع السابق، ص : ١٥.

(٥) كتاب الكيالي ، ص : ٦٤.

(٦) ماهر الشريف : البحث عن هوية، الطبعة الأولى ١٩٩٥، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، قبرص، ص : ١١.

(٧) رسائل صاحب الكرمل، بقلم شيخ الصحافة الفلسطينية نجيب نصّار (المسيرة الميدانية في أرجاء فلسطين وشرق الأردن)، تقديم وإعداد وليد خليف، مطبعة الحكيم، الناصرة، (١٩٩٢؟).

(٨) المصدر نفسه.

(٩) ماهر الشريف، ص : ٢١.

(١٠) المرجع السابق، ص : ٢٣.



نوبل 2000

غاو شينغجيان:
قوة الحياة، هشاشة الأديب

تقديم

صنعت الأكاديمية السويدية واحدة من أكبر مفاجآت جائزة نوبل للآداب، إذا لم تكن الأكبر حتى الآن في الواقع، وذلك حين منحت الجائزة إلي الصيني غاو شينغجيان، الروائي والمسرحي والمنظّر الأدبي والرسّام، المقيم في فرنسا منذ العام ١٩٨٨. وليس ثمة مبالغة في القول إنّ السؤال الأوّل الذي تردد فور إعلان النبأ، وفي العالم بأسره ما عدا الصين وأوساط ضيّقة في فرنسا والسويد، هو التالي: مَن هو غاو شينغجيان؟ الخطوة الطبيعية اللاحقة كانت، وبعد قراءة حيثيات منح الجائزة بالطبع، البحث عمّا هو متوفّر من ترجمات لأعمال الرجل باللغات الأوروبية، وبالإنكليزية تحديداً. الحصيلة لم تكن مشجّعة أبداً، باستثناء دار النشر الفرنسية الصغيرة **Editions de l'aube**، التي احتضنت منذ عام ١٩٩٥ ترجمة ونشر أعمال شينغجيان إلى الفرنسية، و... الترجمات السويدية التي أكسبته شعبية واسعة لدى الجمهور السويدي وأعضاء الأكاديمية أيضاً.

ولقد قيل على الفور إنّ هذا، أي ترجمة شينغجيان إلى السويدية، كان السبب «الإجرائي» الأوّل الذي مهّد الطريق أمام طائفة أخرى من الأسباب: سياسية، وإبداعية، وجغرافية. إذْ لولا الترجمة إلى السويدية، تتابع المحاججة، ولولا رغبة الأكاديمية في منح الجائزة ــ أخيراً! ــ إلى أديب صيني، والأفضل أن يكون منشقاً منفياً، فإنّ الجائزة كانت ستخطىء طريقها إلى الصين من جديد. شينغجيان ليس أعظم أدباء الصين، وهو على الأقلّ ليس الأجدر بينهم لحمل لقب أوّل فائز صيني بالجائزة.

أصحاب هذه المحاججة أدركوا ــ سريعاً على الأرجح، وربما فور قراءة الفصول الأولى من رواية «جبل الروح» أو مسرحية «على حافة الحياة» ــ أنّ شينغجيان لا يستحقّ الجائزة فحسب، بل ويستحقها أكثر بكثير من نصف دزينة من الروائيين

الأوروبيين الذين حصلوا عليها قبله. وأمّا أنه ليس أعظم أدباء الصين، فإنّ الردّ على اعتراض كهذا أبسط بكثير: متى كان الفوز بجائزة نوبل شهادة على أنّ الفائز هو أعظم أدباء بلده؟

والحال أنّ المرء ـ وبعد قراءة نماذج من أعمال شينغجيان، وروايته «جبل الروح» تحديداً ـ لا يملك سوى منح الأكاديمية السويدية فضيلة تقديم هذا الفنّان الكبير إلى العالم بأسره، ومنح الجائزة الأرفع صيتاً إلى «أعمال بعيدة تماماً عن كتابات السوق، أعمال أثارت القليل فقط من الإنتباه، ولكنها في الواقع جديرة بالقراءة»، كما يقول شينغجيان في محاضرته، هو الذي يعتبر أنّ صوته ليس سوى «صوت ضعيف لفرد هشّ يستحقّ بالكاد الإصغاء إليه، ولا يُسمع البتّة في وسائل الإعلام».

ولد غاو شينغجيان في جيانغشي سنة ١٩٤٠، وحصل على دبلوم في الفرنسية من معهد اللغات الأجنبية في بكين. تأثّر بالآداب الفرنسية (بريفير، بيكيت، يونسكو)، وطرح مبكراً سلسلة من الأفكار الجسورة حول تحديث الأدب الصيني ضمن إطار إحياء التراثات الشعبية الغنيّة وليس عن طريق القفز عنها وتلقّف النماذج الغربية وتقليدها. لكنه أيضاً ساجل، وإنْ على نحو جيّد التمويه، ضدّ إخضاع الأدب لمبادىء «الثورة الثقافية»، وكان ممّا له دلالة خاصّة أنّ أوّل الأعمال التي جلبت عليه سخط الدوائر الحزبية كان كتاباً في النظرية الأدبية، صدر سنة ١٩٨١ بعنوان «مقالة تمهيدية حول فنّ الرواية الحديثة». قبل هذا الكتاب، وقبل سحب أفكار «الثورة الثقافية» من التداول الرسمي، اضطرّ شينغجيان إلى حرق عشرات المخطوطات في الرواية والمسرح، كما خضع لفترة «إعادة تأهيل» على الطريقة الستالينية الشائعة آنذاك في الصين. المزيد من أفانين الإضطهاد، خصوصاً بعد عرض مسرحياته «شارة الخطر» و«موقف الباص» و«الرجل البرّي»، قادته إلى عزلة ذاتية طويلة في الأرياف الصينية، ثمّ مغادرة البلاد نهائياً إلى فرنسا، حيث يقيم اليوم في إحدى ضواحي باريس الشعبية.

و«الكرمل» في هذا الملفّ تقدّم نموذجَين من كتابات شينغجيان: نظريّ، تمثّله محاضرة نوبل التقليدية التي ألقاها مطلع كانون الأوّل (ديسمبر) الماضي؛ وإبداعي هو ثلاثة فصول من روايته الملحمية «جبل الروح». وفي النموذج الأوّل ما يدهش حقاً، إذْ تبدو أفكار شينغجيان وكأنها قادمة من عصور سابقة، أو ما تزال تعيش في الخمسينيات حين كان السجال مستعراً حول نظريات الفنّ للشعب / الحياة، أو الفنّ للفنّ، وعلاقة الإبداع بالذات الفردية أو الذات الجمعية، وأونطولوجية الإبداع وما إذا كان يعبّر عن حاجة ذاتية أم رسالة / مسؤولية فكرية واجتماعية. ولهذا فإنّ بعض أفكار «محاضرة نوبل» تبدو وكأنّ الزمن تجاوزها حقاً، لأنها الآن حُسمت تماماً أو حُسمت بنسبة عالية حتى في الأوساط التي ما تزال تتشدّد حول الوظيفة الرسولية أو الرسالية للأدب. أكثر من ذلك، تبدو بعض الأفكار وكأنها قاطعة أكثر مما ينبغي، «ساذجة» تارة، وتحصيل حاصل طوراً. غير أنّ الإنصاف يقتضي وضع أفكار شينغجيان في سياق الأدب الصيني بالذات، بحيث لا تكون مسوّغاتها ذات صلة بالمشهد النظري والإبداعي الراهن الذي راكمته التجارب الأوروبية طيلة العقد المنصرم، بل ذات صلة بالمشهد النظري والإبداعي الصيني الراهن، أوّلاً وأساساً. ويكفي التذكير بأنّ هذا المشهد لم يعرف أولى ترجمات غابرييل غارسيا ماركيز وجيمس جويس وصمويل بيكيت إلا في العام ١٩٨٥! وهكذا فإنّ شينغجيان يتوجّه إلى أبناء بلده في المقام الأوّل ربما، أو هو يتحدّث وكأنّ التنظير الأدبي الرسمي في الصين ما يزال يعتبر تقنية تيّار الوعي هرطقة برجوازية، أو يحظر على الجمهور قراءة «الهراء» الذي يكتبه أديب مناهض للشعب مثل... صمويل بيكيت!

وأمّا «جبل الروح» فهي عمل روائي ملحمي حقاً، أو هي ببساطة أشبه بأوديسة صينية تقوم على عناصر الرحلة والقدر والبيئة والحكاية والصراع. وكان شينغجيان قد استجمع مادّة هذا العمل البانورامي الضخم (٦٧٠ صفحة في الترجمة

الفرنسية، و٥٢٨ صفحة في الترجمة الإنكليزية) أثناء مسيرة ترحال طويل على ضفاف نهر اليانغتسي استغرقت عشرة أشهر، تعرّف فيها على عمق الصين الإنساني والبيئي والرمزي، وتمكّن - كما تبرهن الرواية - من اختزان كتلة هائلة من المدوّنات: بصرية تخصّ المكان والبيئة والصورة إجمالاً، وسيكولوجية تخصّ أنماط البشر وتقلّبات الطبائع، وثالثة فولكلورية-رمزية، ورابعة لغوية-بلاغية... أعاد استخراجها وتركيبها في سياقات جديدة متشابكة ومتقاطعة وفوتوغرافية أحياناً، وذلك عند الشروع في الكتابة. والمدقق في أفكار «محاضرة نوبل»، خصوصاً تلك التي تخصّ تقنيات السرد واستخدام الضمائر والتركيز على موضوعة الوجود الإنساني والجانب «العلاجي» في الكتابة الأدبية، يدرك أنّ هذه الرواية ليست أفضل أعمال شينغجيان الروائية فحسب، بل هي إلى حدّ كبير مُختَبره التعبيري وخلاصة جمعه الناجح بين فنون الرواية والمسرح والتشكيل.

وتبقى إشارة إلى أنّ «محاضرة نوبل» تُرجمت عن الإنكليزية إستناداً إلى النصّ الرسمي الذي وزّعته الأكاديمية السويدية، وتُرجمت الفصول الثلاثة من «جبل الروح» عن الإنكليزية بعد ضبطها على الترجمة الفرنسية التي أشرف المؤلف على تدقيقها بنفسه.

غاو شينغجيان
في الإنحياز إلى الأدب

(محاضرة نوبل)

لا أملك وسيلة تمكّنني من معرفة ما إذا كان القدر هو الذي دفع بي إلى هذه المنصّة. ولكن ما دامت مصادفات سعيدة متنوّعة هي التي خلقت هذه المناسبة، فإنني سأعتبر الأمر في حكم القدر. وإذْ أضع جانباً النقاش الخاصّ بوجود أو عدم وجود الله، أرغب في القول إنني أبديت على الدوام الكثير من التبجيل للمجهول، بالرغم من كوني ملحداً.

ليس في وسع المرء أن يكون الله، وليس في وسعه - بالتأكيد - الحلول محلّ الله، وحُكْم العالم مثل سوبرمان. والكوارث التي كانت من صنع البشر تركت، في القرن الذي أعقب نيتشة، السجلات الأكثر قتامة في تاريخ البشرية. وتوفّر سوبرمانات من كلّ صنف، سمّوا أنفسهم زعماء الشعب أو رؤساء الأمم أو قادة العرق، ولم يعقهم شيء عن اللجوء إلى أسوأ الوسائل عنفاً في سبيل ارتكاب جرائم لا تشبه البتة هذيانات أيّ فيلسوف أناني. غير أنني لا أودّ تضييع هذا الحديث الخاصّ بالأدب في قول الكثير عن السياسة والتاريخ، وما أودّ القيام به هو انتهاز هذه الفرصة للتكلّم ككاتب ينطق

بصوت الفرد.

الكاتب شخص عادي، ولعله أكثر حساسية لأنّ الناس المفرطين في الحساسية هم الأكثر هشاشة غالباً. الكاتب لا يتحدّث بوصفه الناطق باسم الشعب، ولا بوصفه تجسيد الرَشَد. صوته ضعيف لا ريب، غير أنّ صوت الفرد هذا بالذات هو الذي يُعدّ الأكثر أصالة.

ما أريد قوله هنا هو انّ الأدب لا يستطيع إلا أن يكون صوت الفرد، وهكذا كان الأمر على الدوام. وحين يُخترع الأدب في صورة النشيد الوطني للأمّة، أو عَلَم العرق، أو المتحدّث باسم حزب سياسي أو طبقة أو جماعة، فإنه عندها يمكن أن يُستخدم كأداة دعاوة جبّارة وشاملة. غير أنّ مثل هذا الأدب يفقد ما هو موروث في الأدب، ويكفّ عن كونه أدباً، ويصبح بديلاً عن السلطة والربح.

وعلى امتداد القرن الذي انصرم لتوّه واجه الأدب سوء الحظّ هذا تحديداً، وكان أكثر تعرّضاً لندوب السياسة والسلطة مما كانت عليه الحال في أية فترة سابقة، وخضع الكاتب أيضاً إلى قمع لا سابق له.

وعلى الأدب العودة إلى صوت الفرد إذا تعيّن على الأدب أن يحفظ علّة بقائه ولا ينقلب إلى أداة للسياسة. ذلك لأنّ الأدب مستمدّ أساساً من أحاسيس الفرد، وهو نتاج الأحاسيس. وهذا لا يعني القول إنّ الأدب ينبغي، بالتالي، أن ينفصل عن السياسة أو ينغمس في السياسة بالضرورة. والسجالات حول التيارات الأدبية ونزوعات الكاتب السياسية كانت بمثابة شروخ جدّية أنهكت الأدب خلال القرن الماضي. والإيديولوجيا ألحقت الأذى عن طريق تحويل السجالات ذات الصلة بالتراث والإصلاح إلى سجالات حول ما هو محافظ أو ثوري، وبذلك بدّلت القضايا الأدبية إلى صراع حول ما هو تقدّمي أو رجعي. وإذا كانت الإيديولوجيا تتّحد مع السلطة وتتحوّل إلى قوّة فعلية، فإنّ الأدب والفرد سوف يتعرّضان عندها للتدمير.

والأدب الصيني في القرن العشرين تعرّض للإنهاك وكاد أن يختنق، مرّة تلو الأخرى، بسبب إملاء السياسة للأدب: الثورة في الأدب والأدب الثوري أصدرا كلاهما أحكام الإعدام بحقّ الأدب والفرد. والهجوم على الثقافة الصينية التقليدية باسم الثورة أسفر عن حظر عامّ وحرق للكتب. كتّاب لا عدّ لهم أُعدموا، وسُجنوا، وتعرّضوا للنفي أو المعاقبة بالأشغال الشاقة على امتداد المئة سنة المنصرمة. ذلك كان أكثر تطرّفاً من فترة حكم أيّة سلالة إمبراطورية في تاريخ الصين، فخلق صعوبات أمام الكتابات باللغة الصينية أو حتى أيّة مناقشة لحرّية الإبداع.

وحين توجّب أن يبحث الكاتب عن الحرية الفكرية، فإنّ الخيار كان واحداً من اثنين: إمّا الصمت، أو الفرار. غير أنّ الكاتب يعتمد على اللغة، وامتناعه عن الكلام لفترة مطوّلة أمر أشبه بالإنتحار. والكاتب الذي حاول تفادي الإنتحار أو التزام الصمت من أجل التعبير عن صوته، كان يواجه خياراً واحداً هو المنفى. وفي استعراض تاريخ الأدب شرقاً وغرباً، يتضح أنّ الحال كانت هكذا على الدوام: من كو يوان Qu Yuan إلى دانتي، جويس، توماس مان، سولجنتسين، والأعداد الكبيرة من المثقفين الصينيين الذين غادروا إلي المنفى بعد مجزرة تيانانمين علم ١٩٨٩. ذلك هو القدر المحتوم للشاعر والكاتب الذي يواصل البحث عن كيفية الحفاظ على صوته.

وخلال سنوات ممارسة ماو تسيتونغ للدكتاتورية الشاملة كان خيار الفرار ذاته غير متوفّر. والأديرة الواقعة في أعالي الجبال، والتي كانت توفّر الملاذ للعلماء في الأزمنة الإقطاعية، دُمّرت تماماً. وحتى

الكتابة في السرّ باتت خطراً على حياة المرء. ومن أجل الحفاظ على استقلاله الذاتي الفكري، لم يكن أمام المرء سوى الحديث مع النفس، وكان ذلك يتمّ في صورة سرّية تماماً. وينبغي أن أقول إنني، في هذه الفترة التي كان فيها الأدب مستحيلاً، بدأت أدرك مدى ضرورته الجوهرية: الأدب يسمح للمرء بالحفاظ على وعي إنساني.

ويمكن القول إنّ الحديث مع النفس هو نقطة انطلاق الأدب، وأنّ استخدام اللغة في التعبير هي نقطة الإنطلاق الثانية. المرء يصبّ أحاسيسه وأفكاره في اللغة التي تصبح أدباً حين تُكتب. هنالك إلزام بالكتابة لأنّ متعة الكتابة توفر التعويض والعزاء. ولقد بدأت كتابة روايتي «جبل الروح» من أجل طرد وحشتي الداخلية في ذات الوقت الذي مُنعت فيه أعمالي التي كتبتها تحت رقابة ذاتية صارمة. «جبل الروح» كُتبت من أجل نفسي، ودون أمل في أنها ستُطبع ذات يوم.

ومن خلال تجربتي في الكتابة أقول إنّ الأدب هو تأكيد الإنسان على قيمة الذاتية الخاصّة، وهذا يتأكد أثناء الكتابة، والأدب يولد من حاجة الكاتب إلي الإشباع الذاتي. ومسالة ما إذا كان الأدب يمارس أيّ تأثير على المجتمع أمر يأتي بعد استكمال العمل، وذلك التأثير لا يتحدّد قطعاً بالإستناد إلى رغبة الكاتب.

وفي تاريخ الأدب ثمة أعمال عظيمة خالدة لم تُطبع في حياة كتّابها. فإذا لم يكن الكتّاب أولئك قد حقّقوا تأكيد الذات عند الكتابة، فكيف إذاً تمكنوا من مواصلة الكتابة؟ وكما هي الحال بالنسبة إلى شكسبير، يصعب اليوم تأكيد تفاصيل حياة العباقرة الأربعة الذين كتبوا أعظم روايات الصين: «رحلة إلى الغرب»، «هامش المياه»، «جين بينغ ماي»، و«حلم المنازل الحمراء». كلّ ما يتبقّى مقالة في السيرة الذاتية كتبها شي نايان Shi Naian ولم تجلب له العزاء بالتأكيد، وإلا فكيف نفسّر أنه كرّس بقيّة حياته لكتابة ذلك العمل الضخم الذي لم يجلب له أيّ تعويض في حياته؟ ألم تكن هذه حال كافكا الذي تصدّر ريادة القصة الحديثة، وحال فرناندو بيسوا الشاعر الأعمق في القرن العشرين؟ إنّ تحوّلهم إلى اللغة لم يكن يهدف إلي إصلاح العالم، ورغم أنهم كانوا على وعي عميق بعجز الفرد فإنهم مع ذلك قالوا وأفصحوا، وهذا هو سحر اللغة.

اللغة هي التبلور الأقصى للحضارة الإنسانية. إنها شائكة، قاطعة، وعسيرة على الإدراك. ومع ذلك فهي تتخلّل وتخترق المدركات الإنسانية، وتربط الإنسان ـ الذات المدركة ـ بوسيلته الخاصة في فهم العالم. الكلمة المكتوبة سحرية أيضاً، لأنها تتيح الإتصال بين الأفراد المنفصلين، حتى إذا كانوا يتحدّرون من عروق وأزمنة مختلفة. هذه أيضاً هي وجهة ارتباط الزمن المشترك الحاضر، عبر الكتابة والقراءة، بقيمته الروحية الأبدية.

وأرى أنّ جهاد الكاتب الراهن من أجل التشديد على ثقافة وطنية يُعدّ مسألة إشكالية. ذلك لأنّ تقاليد الصين الثقافية كانت مترسّبة في أعماقي حيث ولدت وحين استخدمت اللغة. اللغة والثقافة وثيقتا الإرتباط دائماً، وهكذا تتشكّل أنماط الإدراك المميّزة والثابتة نسبياً، مثلما يتشكّل الفكر والملفوظات. ومع ذلك فإنّ إبداع الكاتب يبدأ تحديداً من ذاك الذي تمّ التلفّظ به في لغته، ويتوجّه إلى ذاك الذي لم يجرِ التلفّظ به على نحو كافٍ في تلك اللغة. والمرء، بوصفه خالق الفنّ اللغوي، ليس في حاجة للإلتصاق بأرومته الوطنية الخاصّة التي يمكن التعرّف عليها بسهولة.

الأدب يرقى بالحدود القومية: يرقى باللغات عن طريق الترجمة، ثمّ يرقى بعادات إجتماعية محدّدة، وبعلاقات إنسانية مشتركة يخلقها الموقع الجغرافي والتاريخ، وصولاً إلى كشف الغطاء عن كونية الطبيعة الإنسانية. أكثر من ذلك يحظى الكاتب في يومنا هذا بتأثيرات متعدّدة الثقافات خارج ثقافة عرقه الخاصّ، بحيث يصبح التشديد على السمات الثقافية لشعب بعينه أمراً مريباً لا محالة، إلا إذا أُريد منه ترويج السياحة.

والأدب يسمو بالإيديولوجيا، وبالحدود القومية والوعي العرقي، تماماً كما يسمو الوجود الفردي بهذه أو تلك من الـ«يّة» ism-. ذلك لأنّ شرط وجود الإنسان متفوّق على أيّ النظريات أو التكهنات حول الحياة. الأدب رصد كوني لمعضلات الوجود الإنساني، ومامن محرّم هنا. والقيود على الأدب لا تُفرض إلا من الخارج: السياسة، المجتمع، الأخلاق، والعادات تشرع جميعها في تحويل الأدب إلي ديكورات لمختلف أُطُرها.

لكنّ الأدب ليس زخرفة للسلطة ولا هو مادّة قابلة للتطويع اجتماعياً: إنه كيفية جمالية. والجمالي المرتبط على نحو وثيق بالعواطف الإنسانية هو المعيار الوحيد الذي لا غنى عنه في العمل الأدبي. والحال انّ مثل هذه الأحكام تختلف من شخص إلى آخر لأنّ العواطف تنتمي إلى جملة أفراد وتتغاير من فرد إلى آخر. ومع ذلك فإنّ تلك الأحكام الجمالية الذاتية تنطوي على معايير يمكن تمييزها كونياً. وطاقة التذوّق النقدي التي يغذّيها الأدب تسمح للقارىء أن يعيش، بدوره، الإحساس الشعري والجمال، السامي والمضحك، الأسى والعبث، الضحك والمفارقة التي يصبّها المؤلّف في عمله.

والإحساس الشعري لا يُستمدّ ببساطة من التعبير عن العواطف، ومع ذلك فإنّ قدراً من الأنانية مطلقة العنان، وشكلاً من الطفولية، يصعب تفاديهما في المراحل الأولى من الكتابة. كذلك هنالك مستويات عدّة للتعبير الوجداني، والوصول إلى مستويات أعلى يقتضي التجرّد البارد. الشعر خبيء في التحديقة البعيدة. وهذه التحديقة تتفحّص شخص المؤلّف وتمتدّ إلى شخصيات الكتاب والمؤلّف، بحيث تصبح عين المؤلّف الثالثة، المحايدة قدر ما هو متاح، بحيث تكون كوارث العالم الإنساني جديرة بالتمحيص. وعندها تثور أحاسيس حبّ الحياة والاهتمام بها، تماماً كما تثور أحاسيس الألم والحقد والمقت.

والجمالي المرتكز على العواطف الإنسانية لا يصبح قديم المفعول حتى في ظلّ التغيّر الدائم في موضات الأدب والفنّ. ومع ذلك فإنّ التقييمات الأدبية التي تتغيّر مثل الموضة تنهض على الأحدث: أي أنّ ما هو جديد جيّد. هذه أوالية في حركة السوق العامة، وسوق الكتاب ليست مستثناة؛ ولكن إذا كان حكم الكاتب الجمالي يقتفي حركات السوق فإنّ ذلك سوف يعني انتحار الأدب. وعلى المرء أن يلجأ إلى الأدب البارد، خصوصاً في سياق ما يسمّى بالمجتمع الإستهلاكي.

ومنذ عشر سنوات، بعد إكمال «جبل الروح» التي كتبتها على مدار سبع سنوات، كتبت مقالة قصيرة أقترح فيها هذا الطراز من الأدب:

«الأدب ليس معنياً بالسياسة، ولكنه مسألة تخصّ الفرد حصراً. إنه إرضاء لملَكة التفكير مثلما هو رصد ومراجعة لما تمّ تجريبه، من ذكريات وأحاسيس أو تصوير لحال الروح».

«وما يسمّى بالكاتب ليس أكثر من شخص يتكلّم أو يكتب، وللآخرين أن يقرّروا ما إذا كان

عليهم الإصغاء إليه أو قراءته. الكاتب ليس بطلاً يتحرّك بأوامر من الشعب، ولا هو جدير بالعبادة مثل وثن، والمؤكد أنه ليس مجرماً أو عدوّاً للشعب. إنه تارة يُحوّل إلى ضحية هو وكتاباته، لا لشيء إلا بسبب حاجة الآخرين إلى ذلك ببساطة. وحين تحتاج السلطات إلى تصنيع حفنة أعداء لحَرْف انتباه الشعب، فإنّ الكتّاب يصبحون هم القرابين، والأسوأ من ذلك أنّ بعض الكتّاب المخدوعين يعتقدون بالفعل أنه شرف كبير لهم أن يُحوّلوا إلى قرابين».

«والحقّ أنّ علاقة المؤلف بالقارىء تأخذ دائماً صيغة التواصل الروحي، ولا حاجة لهما للقاء أو التفاعل إجتماعياً، فهما يتواصلان ببساطة من خلال العمل. والأدب يظلّ شكلاً لا غنى عنه من أشكال النشاط الإنساني الذي ينخرط فيه القارىء والكاتب في آن معاً، وبمحض الإرادة. ومن هنا فإنّه ما من واجب للأدب إزاء الجماهير».

«وهذا النوع من الأدب الذي استعاد شخصيته الداخلية يمكن أن يُسمّى بالأدب البارد. إنه يوجد ببساطة لأنّ البشرية تبحث عن نشاط روحي محض عابر لإرضاء الرغائب المادية. وبالطبع لم يولد هذا النوع من الأدب اليوم فقط. ومع ذلك فإنه في الماضي كان مضطراً لمقارعة القوى السياسية القاهرة والعادات الإجتماعية، وهو اليوم مضطرّ لمحاربة قِيَم المجتمع الإستهلاكي التجارية الهدّامة. ذلك لأنّ استمراره في الوجود يعتمد على استعداده لاحتمال العزلة».

«فإذا كرّس كاتب ما نفسه لهذا النوع من الكتابة فإنه سيجد صعوبة في تأمين لقمة العيش. ومن هنا فإنّ كتابة هذا النوع من الأدب يجب أن تُعدّ رفاهية، وشكلاً من الإشباع الروحي المحض. أمّا إذا قُيّض لهذا النوع من الأدب حظّ طيّب فنُشر وانتشر، فإنّ مردّ ذلك هو جهود الكاتب وأصدقائه، وكاو شوكين Cao Xueqin وكافكا مثالان على هذا. ففي حياتهما ظلّت أعمالهما غير مطبوعة ولم يتمكنا من خلق تيّارات أدبية أو حيازة الشهرة. هذا الكاتبان عاشا على هامش المجتمع، وكرّسا نفسيهما لهذا النوع من النشاط الروحي الذي لم يكونا يأملان في أنّ يجلب لهما أيّ تعويض آنذاك. لم يطلبا الموافقة الإجتماعية، بل استمدّا المتعة من الكتابة، هكذا ببساطة».

«الأدب البارد أدب يتوجّب أن يفرّ لكي يظلّ على قيد الحياة، وهو أدب يرفض أن يُخنق بأيدي المجتمع الباحث عن الخلاص الروحي. فإذا كان عرق ما غير قادر على التلاؤم مع هذا النوع من الأدب غير النفعي، فإنّ الأمر عندها لا يشكّل سوء حظّ للكاتب فحسب، بل مأساة للعرق أيضاً».

وإنه لمن حسن حظّي أن أتسلّم، في حياتي، هذا الشرف الكبير من الأكاديمية السويدية، وساعدني في ذلك أصدقاء كثيرون من مختلف أرجاء العالم. وطوال سنوات عكفوا على ترجمة ونشر وتمثيل وتقييم كتاباتي، دون تفكير في المثوبة ودون اكتراث بالمصاعب. ولكنني لن أشكرهم فرداً فرداً لأنّ لائحة الأسماء طويلة.

كذلك يتوجّب عليّ أن أشكر فرنسا لأنها قبلتني. وفي فرنسا، التي توقّر الأدب والفنّ، توفّرت لي ظروف الكتابة بحرّية، وتمكّنت أيضاً من الفوز بالقرّاء والجمهور. ومن حسن حظي أنني لست وحيداً، رغم أنّ الكتابة التي ألزمت نفسي بها تظل مسألة عُزلة في المحصّلة.

أقول أيضاً إنّ الحياة ليست احتفالاً، وإنّ بقيّة العالم ليست آمنة كما هي الحال في السويد، التي لم تشهد أيّة حرب منذ ١٨٠ سنة. هذا القرن الجديد لن يكون محصّناً ضدّ الكوارث لمجرّد أنّ الكثير

منها وقع في القرن الماضي، فالذاكرة تنتقل مثل انتقال الجينات. للبشر عقول، ولكنهم ليسوا أذكياء بما يكفي لكي يتعلموا من الماضي. وحين تشتعل الضغينة في نفوس البشر فإنها عندئذ كفيلة بتهديد الوجود الإنساني ذاته.

والنوع الإنساني لا يتحرّك بالضرورة في مراحل متعاقبة من تقدّم إلى تقدّم، وإنني هنا أشير إلى تاريخ الحضارة الإنسانية. فالتاريخ والحضارة لا يسيران جنباً إلى جنب. ومن ركود أوروبا العصور الوسطى إلى الإضمحلال والفوضى في الأزمنة الراهنة، وصولاً إلى حربَين عالميتين في القرن العشرين، باتت طرائق قتل البشر معقدة أكثر فأكثر. والتقدّم العلمي والتكنولوجي لا ينطوي بالضرورة على المزيد من تحضّر البشرية.

وإنّ استخدام بعض الـ«ـيّة»» العلمية Scientific-ism لتفسير التاريخ أو تأويله ضمن منظور قائم على جدلية زائفة، فشل في إيضاح السلوك الإنساني. والآن، بعد أن تقوّضت الحميّة الطوباوية والثورة المتواصلة في القرن الماضي، لا مناص من تكوّن إحساس بالمرارة في صفوف أولئك الذين نجوا بجلدهم.

وإنكار الإنكار لا يسفر عن تأكيد بالضرورة. فالثورة لم تجلب أشياء جديدة لأنّ العالم الطوباوي الجديد قام على تدمير القديم. وهذه النظرية في الثورة الإجتماعية طُبّقت على الأدب بطريقة مماثلة، فحوّلت ما كان سابقاً ميدان إبداع إلى ساحة قتال شهدت إسقاط أناس سالفين وتقويض تراثات ثقافية. ولقد توجّب أن يبدأ كلّ شيء من نقطة الصفر، فكان التحديث أمراً حسناً، وجرى تفسير تاريخ الأدب على أنه انتفاضة دائمة أيضاً.

والكاتب لا يستطيع أن يلعب دور الإله الخالق، ولهذا فهو ليس بحاجة إلى تضخيم أناه عن طريق تخيّل نفسه في موقع الله. ذلك لن يجلب عليه الخلل النفسي ويحوّله إلى معتوه فحسب، بل سيحوّل العالم إلى هلوسة يكون فيها كلٌّ ما هو خارج جسد الكاتب مَطْهَراً، الأمر الذي يُفقده القدرة على مواصلة الحياة بالطبع. الآخرون هم الجحيم بوضوح، ويُفترض أنّ الأمر هكذا حين تفقد النفس السيطرة. ولا حاجة للقول إنه بذلك يحوّل نفسه إلى قربان من أجل المستقبل، ولسوف يطالب الآخرين بالإقتداء به والتضحية بأنفسهم.

ولا حاجة للهرولة من أجل استكمال تاريخ القرن العشرين. فإذا سقط العالم من جديد في خرائب إطار إيديولوجي ما، فإنّ هذا التاريخ سيكون قد كُتب عبثاً، والأجيال التالية سوف تعدّله بما هو في صالحها.

الكاتب ليس نبيّاً أيضاً. الهامّ هو أن يعيش المرء في الحاضر، وأن يكفّ عن الإنخداع بالمظاهر، وأن يلقي الأوهام جانباً، وأن يحملق جيّداً في برهة الزمن هذه، وأن يمحّص النفس في الآن ذاته. فهذه النفس، بدورها، فوضى شاملة. ومن الخير للمرء أن يلتفت إلى نفسه أثناء مساءلته للعالم وللآخرين. الكارثة والطغيان يأتيان من الآخر عادة، ولكنّ جُبن الإنسان وهاجسه يمكن لهما في الغالب أن يكثّفا المعاناة ويخلقا المزيد من البلاء للآخرين.

هذه هي طبيعة سلوك البشرية، الطبيعة غير القابلة للتفسير. وأمّا معرفة الإنسان لنفسه فهي أكثر صعوبة. والأدب، ببساطة، هو تحديق الإنسان في نفسه، وفي أثناء قيامه بذلك يبدأ خيط الوعي في

النموّ، ويلقي الضوء على هذه النفس.

والتهديم ليس وظيفة الأدب، فقيمته تكمن في اكتشاف وكَشْف ما هو معروف نادراً من حقيقة العالم الإنساني، ما هو معروف قليلاً، وما يُظنّ أنه معروف ولكنه في الحقيقة غير معروف على الوجه الأفضل. وقد يلوح هنا أنّ الحقيقة هي خاصّية الأدب الأهمّ والأكثر رسوخاً.

لقد حلّ القرن الجديد لتوّه. ولن أكترث كثيراً بتبيان ما إذا كان جديداً حقاً، ولكن يبدو أنّ الثورة في الأدب والأدب الثوري، وحتى الإيديولوجيا، قد تكون بلغت نهاياتها. تلاشى ما خيّم طيلة قرن من أمل في اليوتوبيا الإجتماعية، وحين سيتخلّص الأدب من أصفاد هذه وسواها من أنماط الـ «ـيّة» فإنه سيظل مع ذلك ملزماً بالعودة إلى معضلات الوجود الإنساني. غير أنّ معضلات الوجود الإنساني لم تتبدّل إلا قليلاً، وسوف تظلّ موضوعاً أبدياً للأدب.

هذا عصر بلا نبوءات ولا وعود، وإعتقد أنّ الأمر خير هكذا. وينبغي على الكاتب أن يتوقف عن لعب دور النبيّ أو القاضي ما دام قد ثَبُتَ أنّ الكثير من نبوءات القرن الماضي كانت زائفة. ولا حاجة لتصنيع خرافات جديدة حول المستقبل، فمن الأفضل كثيراً أن ننتظر ونرى. سيكون من الخير أيضاً أن ينتقل الكاتب إلى أداء دور الشاهد، الجاهد لتقديم الحقيقة.

ذلك لا يعني القول إنّ الأدب مماثل للوثيقة. والحقّ أنّ الشهادات الموثّقة لا تحتوي إلا على القليل فقط من الحقائق، وغالباً ما يجري طمس أسباب وبواعث الحوادث. ولكن حين يتعامل الأدب مع الحقيقة فإنّ من الممكن كشف كامل السيرورة دون ترك أيّ مخفيّ، بدءاً من ذهن المرء الداخلي وحتى تفصيل الحادثة. هذه القوّة تظلّ موروثة في الأدب ما دام الكاتب لا يتوقّف عند تجميع الهراء بل يشرع في تصوير الظروف الحقيقية للوجود الإنساني.

وإنّ رؤى الكاتب في التقاط الحقيقة هي التي تحدّد نوعية العمل، وألعاب الكلمات وتقنيات الكتابة لا يمكن أن تكون البدائل. وثمة في الواقع تعريفات عديدة للحقيقة، وكيفية التعامل معها تتفاوت بين شخص وآخر. ولكن يمكن بلمحة خاطفة أن يخمّن المرء ما إذا كان الكاتب يجمّل الظاهرة الإنسانية أم يصوّرها على نحو مكتمل ونزيه. والنقد الأدبي المنتمي إلى إيديولوجيا معيّنة حوّل الحقيقة واللاحقيقة إلى تحليل دلالي Semantic، غير أنّ مثل هذه المبادىء والمعتقدات ذات مغزى ضئيل في الإبداع الأدبي.

وأن يواجه الكاتب الحقيقة أو لا يواجهها ليس مسألة منهجية إبداعية فحسب، بل هي وثيقة الإرتباط بموقفه من الكتابة. وعندما يمسك الكاتب قلمه فإنّ الحقيقة تنطوي في الآن ذاته على بقاء المرء نزيهاً بعد ترك القلم. الحقيقة هنا ليست مجرّد تقييم للأدب، بل هي في الوقت ذاته مدلول أخلاقي. ليس في واجبات الكاتب أن يعظ، وإذْ يجهد لتصوير مختلف أنماط البشر في العالم فإنّ عليه أيضاً أن يكشف نفسه بكلّ أمانة، بما في ذلك تسليط الضوء على دخائل ذهنه. ذلك لأنّ الحقيقة عند الكاتب تعادل الأخلاق، بل هي منتهى أخلاق الأدب.

وعلى يد الكاتب ذي الموقف الجادّ من الكتابة يمكن للمختلقات الأدبية ذاتها أن تنهض على تصوير حقيقة الحياة الإنسانية، وتلك كانت قوّة الحياة في أعمال واصلت خلودها منذ أقدم العصور وحتى الحاضر. ذلك بالذات هو السبب في أنّ الزمن لن يبطل قيمة التراجيديا الإغريقية وقيمة

شكسبير.

الأدب لا يصنع ببساطة مجسّماً مصغّراً عن العالم، ولكنه يخترق طبقات السطح فيصل عميقاً إلى اشتغالات الواقع الداخلية؛ إنه يزيل الأوهام الزائفة، وينظر إلى الوقائع العادية من ارتفاعات شاهقة، ويكشف الوقائع في شموليتها التامّة ضمن منظور عريض.

وبالطبع يعتمد الأدب على المخيّلة أيضاً، لكنّ هذا النوع من السفر في الذهن لا يقوم على مجرّد استجماع عدد من المهملات. المخيّلة المنفصلة عن الأحاسيس الحقيقية، مثلها مثل الإختلاقات المنفصلة عن أساس التجارب الحياتية، لا يمكن إلا أن تنتهي إلى التفاهة والضعف، والأعمال التي تفشل في إقناع الكاتب نفسه لن تكون قادرة على التأثير في القرّاء. والأدب في الحقيقة لا يكتفي بالإتكاء على تجارب الحياة المألوفة، كما أنّ الكاتب ليس مقيّداً بالتجارب التي عاشها شخصياً. فمن الممكن للأشياء التي سُمعت وقيلت من خلال حامل لغوي ما، والأشياء ذات الصلة في أعمال أدبية لكتّاب سابقين، يمكن لها أن تتحوّل إلى أحاسيس تخصّ أيّاً منّا. هذا أيضاً سحر لغة الأدب.

وكما بالنسبة إلى النعمة أو النقمة، في وسع اللغة أن تهزّ الجسد والروح. وإنّ فنّ اللغة يكمن في قدرة صاحب الأحاسيس على تقديمها للآخرين، وهي ليست نظام علامات أو بنية دلالية لا تتطلّب ما هو أكثر من البُنى النَحْوية. وإذا نُسي الكائن الحيّ الذي يقف خلف اللغة، فإنّ الإستعراضات الدلالية يمكن أن تنقلب بسهولة إلى ألعاب نحوية.

اللغة ليست مجرّد مفاهيم أو مجرّد ناقل للمفاهيم، لأنها تنشّط الأحاسيس والحواسّ على قدم المساواة، وهذا هو السبب في أنّ العلامات والإشارات لا تستطيع الحلول محلّ اللغة التي ينطق بها البشر الأحياء. الإرادة، والبواعث، والنبرة، والمشاعر وراء ما يقوله المرء لا يمكن التعبير عنها في وجهة تامّة عن طريق علم الدلالة والبلاغة وحدهما. على تضمينات اللغة الأدبية أن تُنطق وتُلفظ على لسان البشر الأحياء، وأن يُعبّر عنها تعبيراً تاماً. وهكذا فإنّ على الأدب أن يستجيب للحواسّ السمعية إلى جانب خدمته كناقل للفكر. والحاجة الإنسانية للغة لا تنهض على بثّ المعنى فقط، لأنها في الان ذاته إصغاء لوجود المرء وتأكيد لذلك الوجود.

وفي الإستعارة من ديكارت يمكن القول عن الكاتب: أنا أقول، إذاً أنا موجود. بيد أنّ أنا الكاتب يمكن أن تكون الكاتب نفسه، ويمكن مساواتها مع السارد، أو تحويلها إلى شخصية في العمل. وكما في مقدور الذات ـ السارد أن يكون هو وأنت، يمكن له أيضاً أن يكون ثلاثياً. وإنّ تثبيت ضمير متكلّم أساسي هو نقطة الإنطلاق من أجل تصوير المدركات، هذه التي منها يمكن لمختلف أنساق الحكاية أن تأخذ شكلها. والكاتب لا يعطي مدركاته شكلها الملموس إلا أثناء سيرورة بحثه عن منهج سردي خاصّ به.

وفي رواياتي أستخدم الضمائر بدل الشخصيات المعتادة، كما أستخدم ضمائر الـ« أنا »، الـ« أنت » والـ« هو » من أجل الإخبار عن الشخصية أو التركيز عليها. وتصوير الشخصية ذاتها عن طريق استخدام ضمائر مختلفة يخلق إحساساً بالمسافة. ولأنّ هذا يخلق أيضاً ممثّلين على خشبة ذات فضاء نفسي عريض، فإنني أيضاً أدخلت تبديل الضمائر في أعمالي المسرحية كذلك.

وكتابة القصة أو المسرح لم ولن تبلغ نهايتها، ولا أساس للإعلانات المتهوّرة حول موت بعض أنواع

الأدب أو الفنّ.

واللغة، التي ولدت في فجر الحضارة الإنسانية هي، مثل الحياة، ملأى بالمعجزات ولا حدود البتة لطاقتها. وشُغْل الكاتب يبدأ من اكتشاف وتطوير المخزون الكامن في اللغة. الكاتب ليس الإله الخالق، وليس في وسعه اقتلاع العالم حتى إذا كان عتيقاً شائخاً. إنه أيضاً لا يستطيع تأسيس عالم مثالي جديد حتى إذا كان العالم الراهن عبثياً وعصيّاً على الفهم الإنساني. بيد أنّ الكاتب يستطيع، بالتأكيد، صياغة أقوال التجديد عن طريق الإضافة إلى ما قاله أناس سابقون، أو عن طريق البدء من النقطة التي توقّف عندها أناس سابقون.

كان تهديم الأدب هو بلاغة «الثورة الثقافية». لكنّ الأدب لم يمت، والكتّاب لم يفنوا. لكلّ كاتب مكانه على رفّ الكتب، وله من الحياة بمقدار ما يملك من قرّاء. وما من عزاء للكاتب أكبر من أن يترك كتاباً في خزانة الأدب الواسعة التي تملكها البشرية، يُقرأ ويُقرأ في ما سيأتي من أزمنة.

والأدب لا يكتسب فاعليته وجاذبيته إلا حينما يكتبه الكاتب ويقرأه القارىء. والزعم بالكتابة للمستقبل خداع للذات وللآخرين أيضاً، إلا إذا كان الإدّعاء هو الباعث. الأدب للبشر الأحياء، وهو يشدّد على حاضر الأحياء. إنّ هذا الحاضر الأبدي، وهذا التشديد على الحياة الفردية، هما السبب المطلق في أنّ الأدب هو الأدب. وأن تتحوّل كتابة الأدب إلى مهنة أمر بغيض ناجم عن تقسيم العمل في المجتمع الحديث، وهو ثمرة مريرة بالنسبة إلي الكاتب.

تلك هي الحال في عصرنا الحاضر بصفة خاصة، حيث شَدّ اقتصاد السوق وبات الكتاب بضاعة مثل سواه. ثمة في كلّ مكان أسواق عشوائية هائلة، والمآل لا يقتصر على اندثار الكتّاب الأفراد، بل أيضاً على اندثار جمعيات وحركات المدارس الأدبية الماضية. وإذا لم ينحنِ الكاتب أمام ضغوطات السوق، ورفض الإمتثال إلى صناعة المُنْتَج الثقافي الذي يلبّي أذواق الموضة السائدة، فإنّ عليه تدبّر العيش بوسائل أخرى. الأدب ليس الكتاب الأكثر مبيعاً، وليس الكتاب الذي يتصدّر اللائحة، والمؤلّفون الذين يروّج لهم التلفاز إنما يشتغلون بالدعاوة وليس بالكتابة. حرّية الكتابة لا تُمنح ولا تُشترى، بل تنبع من حاجة داخلية عند الكاتب نفسه.

وبدلاً من القول إنّ بوذا في القلب، من الأفضل القول أنّ الحرية هي التي في القلب، وهي ببساطة تعتمد على ما إذا كان المرء سيستخدمها أوّلاً. فإذا بادل المرء الحرية بشيء آخر فإنّ الطير الذي هو الحرية سوف يطير بعيداً، وهذا هو ثمن الحرية.

الكاتب يكتب ما يكتبه دون اكتراث بالتعويض، ليس من أجل تأكيد ذاته فحسب، بل من أجل تحدّي المجتمع أيضاً. وهذا التحدّي ليس ادّعاءاً، والكاتب ليس بحاجة لتضخيم أناه عن طريق الإنقلاب إلى بطل أو محارب. الأبطال والمحاربون يقاتلون من أجل إنجاز عمل عظيم أو من أجل تأسيس فعل جدير بالمكافأة، وهذان يقعان خارج نطاق الأعمال الأدبية. وإذا أراد الكاتب تحدّي المجتمع فإنّ ذلك ينبغي أن يتمّ من خلال اللغة، وعليه الإعتماد على الشخصيات والأحداث في أعماله، وإلا فإنه لن يتسبب إلا في إيذاء الأدب. الأدب ليس الصراخ الغاضب، وليس في وسعه تحويل سخط الفرد إلى اتهام. ولن تصمد مشاعر الكاتب أمام خراب الأيّام، ولن تعيش زمناً طويلاً، إلا حين يمتلىء عمله بمشاعره هو، بوصفه الفرد أوّلاً.

وهكذا فإنّ الأمر لا يدور فعلياً حول تحدّي الكاتب للمجتمع، بل بالأحرى تحدّي أعماله. والعمل الباقي يظلّ، بالطبع، ردّاً جبّاراً على أزمنة الكاتب ومجتمعه. وقد يتلاشى ضجيج الكاتب وتضمحلّ أفعاله، ولكن ما دام هنالك قرّاء فإنّ صوته في كتاباته سوف يواصل التردّد.

ومثل هذا التحدّي لا يغيّر المجتمع في الواقع. الأمر في النهاية يخصّ فرداً يطمح إلى السموّ بتقييدات البيئة الإجتماعية واتخاذ موقف غير واضح أبداً. لكنّ هذا الموقف ليس مألوفاً بأيّ حال من الأحوال، لأنه موقف يستمدّ اعتزازه من كونه إنسانياً. ولسوف يكون من المحزن أن يظلّ التاريخ الإنساني خاضعاً لمناورات القوانين المجهولة، وأن يتحرّك كالأعمى في عوالم الراهن بحيث يصبح من المتعذّر سماع مختلف أصوات الأفراد. الأدب يملأ فراغات التاريخ بهذا المعنى تحديداً. وحين لا تُستخدم قوانين التاريخ الكبرى في تفسير شأن البشرية، فإنّ من الممكن عندئذ أن يترك الأفراد أصواتهم وراءهم. التاريخ ليس كلّ ما تملكه البشرية، فهنالك أيضاً تراث الأدب. والناس في الأدب اختراعات، لكنهم يحتفظون بيقين جوهري في قيمة ذواتهم الخاصة.

حضرات السادة أعضاء الأكاديمية، أشكر لكم منحكم جائزة نوبل للأدب إلى أدب لا يهادن في استقلاليته، لا يتفادى العذاب الإنساني ولا القمع السياسي، ولكنه في الآن ذاته لا يخدم السياسة. أشكركم جميعاً على منح هذه الجائزة الأرفع صيتاً إلى أعمال بعيدة تماماً عن كتابات السوق، أعمال أثارت القليل فقط من الإنتباه، ولكنها في الواقع جديرة بالقراءة. كذلك أشكر الأكاديمية السويدية التي أتاحت لي اعتلاء هذه المنصّة والحديث على مسمع من العالم بأسره. صوت ضعيف لفرد هشّ يستحقّ بالكاد الإصغاء إليه، ولا يُسمع البتّة في وسائل الإعلام، سُمح له اليوم بمخاطبة العالم. وأعتقد أنّ هذا بالذات هو معنى جائزة نوبل، وأشكر الجميع على منحي فرصة الكلام.

غاو شينغجيان

جبل الروح

الفصل (١)

الباص القديم سقط متاع المدينة. بعد الإرتجاج داخله منذ مطلع الصباح وطيلة اثنتي عشرة ساعة على الطريق الرئيسية المحدّدة، تصل إلى هذه المقاطعة الجبلية في الجنوب. وفي محطة الباص الملأى ببقايا أغلفة الكراميل المثلّج ونفايات قصب السكّر، تقف حاملاً محفظة الكتف وحقيبة وتتطلّع حولك قليلاً.

الناس ينزلون من الباص ويقطعون الشارع، الرجال يحدودبون تحت الأكياس والنساء يحملن الأطفال. وثمة حشد من الشبّان، لا تعيقهم أكياس ولا سلال، يسيرون بأيد خالية. يخرجون بذور عبّاد الشمس من جيوبهم، يلقون بها دفعة واحدة في أفواههم، ثم يلفظون القشور. وبحذق وطقطقة عالية تُؤكل النوى. التخفّف وخلوّ البال مرض مستوطن في المكان. إنهم من أهل البلد والحياة

جعلتهم هكذا، وهم أقاموا هنا على امتداد أجيال عديدة، ولن تكون بحاجة إلى الذهاب إلى أيّ مكان آخر من أجل البحث عنهم. وأبكر مَنْ غادر المكان بينهم، حيث لم تكن محطة الباص هذه موجودة بالطبع ولم تتوُفر أيّ باصات ربما، سافر عن طريق النهر مستخدماً قوارب العريش السوداء أو عن طريق البرّ في عربات مستأجرة أو سيراً على الأقدام إذا لم يتوفّر لهم المال. وفي هذه الأيّام، وما داموا قادرين بعدُ على السفر، تراهم يتدفقون عائدين إلى البلد، حتى من الطرف الآخر للباسيفيكي، قادمين في سيّارات أو عربات مكيّفة. يسارعون إلى العودة لأنهم أخذوا يطعنون في السنّ، الغنيّ والشهير وذاك الذي لا يتيمّز بشيء خاصّ. وفي نهاية الأمر، مَنْ ذا الذي لا يحبّ أرض الأسلاف؟ لكنهم لا يعتزمون البقاء بالطبع، ولهذا تراهم يتبخترون وراحة البال بادية على وجوههم، يتحدثون ويضحكون بصوت عالٍ، ويطلقون عبارات التحبّب والولع بالمكان. وحين يلتقي الأصدقاء هنا فإنهم لا يكتفون بإيماءة أو مصافحة حسب طقس المدينة الذي لا معنى له، بل يهتفون باسم الشخص ويقرصونه من الكتف. العناق شائع أيضاً ولكن ليس عند النساء، اللواتي يمتنعنّ عنه. وقريباً من الحوض الإسمنتي حيث تُغسل الباصات ، تماسكت امرأتان بالأيدي وانخرطتا في تجاذب أطراف الحديث. النساء هنا يمتلكن أصواتاً بديعة وليس في وسعك أن تتجنّب إلقاء نظرة ثانية. الأولى التي تدير ظهرها لك كانت تضع غطاء رأس مطبوعاً باللون النيلي. وهذا النوع من أغطية الرأس، وكيفية عقده، يعود في القِدَم إلى أجيال عديدة ولكنه نادراً ما يُرى هذه الأيام. تجد نفسك سائراً صوبهما. غطاء الرأس معقود أسفل الذقن وطرفاه شاخصان إلى أعلى. إنها امرأة ذات محيّا جميل. وملامحها رقيقة، مثل جسدها النحيل. تمرّ بالقرب منهما. كانتا تواصلان الإمساك بالأيدي، الأيدي الخشنة ذات الأصابع القويّة. ولعلهما عروسان جديدتان عادتا لمشاهدة الأقارب والأصحاب، أو لزيارة الأهل. وفي هذه الأصقاع تعني كلمة «شيفو» كنّة المرء، ولكنّ استخدام الكلمة على منوال ما يفعل الشماليون للإشارة إلى أيّة امرأة شابّة متزوّجة أمر قد يعوّض القائل لسوء الفهم وقد يجلب عليه الغضب. ومن ناحية أخرى تطلق المرأة المتزوجة على زوجها اسم «لاوغونغ»، لكن مفردتكَ «لاوغونغ» ومفردتي «لاوغونغ» هما قيد الإستخدام أيضاً. الناس هنا يتحدّثون بطريقة فريدة في التنغيم رغم أنهم يتحدّرون من الأباطرة الكبار أنفسهم وينتمون إلى ذات الثقافة والعرق.

وهكذا فإنك أنت نفسك لا تستطيع تبيان السبب الذي جاء بك إلى هنا. لقد تصادف أنك كنتَ في قطار وذكر ذلك الشخص اسم مكان يدعى «لينغشان». كان يجلس قبالتك وكان كوبك محاذياً لكوبه. وكلّما تحرّك القطار كان غطاءا الكوبين يصطدمان ببعضهما ويطقطقان. ولو أنّ الغطاءين طقطقا كلّ الوقت أو طقطقا ثمّ توقّفا، لانتهى الأمر عند هذا الحدّ. ولكنّ كلما عزمتَ وعزم هو على فصل الكوبين كانت الطقطقة تتوقف، وكلما أشحتما بالبصر كانت الطقطقة تتعالى من جديد. مدّ يده ومددتَ يدك، لكنّ الطقطقة توقفت. ضحكتُما معاً في اللحظة ذاتها، فصلتُما الكوبين، وانخرطتما في الحديث. تسأله أنت إلى أين يذهب؟

«لينغشان».

«ماذا؟»

«لينغشان، لينغ تعني النفس أو الروح، وشان تعني الجبل».

لقد سافرتَ إلى العديد من الأماكن، وزرتَ العديد من الجبال الشهيرة، ولكنك لم تسمع أبداً بهذا المكان.

صاحبك الذي قبالتك أغمض عينيه وأغفى. وإنك مثل كلّ الناس لا تستطيع مقاومة الفضول وتريد بالطبع أن تعرف أيّ الأماكن المشهورة فاتتك في رحلاتك. كذلك فإنك تحبّ إتمام الأمور على أفضل وجه، ومن المزعج وجود مكان لم تسمع به أبداً. تسأله أين تقع «لينغشان».

«عند منابع نهر يو» يقول فاتحاً عينيه.

لا تعرف «نهر يو» هذا أيضاً، لكنك تتحرّج في السؤال وتومىء على نحو غامض يوحي بما معناه: «صحيح، شكراً» أو «أوه، أعرف المكان». ذلك يشبع رغبتك في التفوّق ولكنه لا يشبع فضولك. وبعد هنيهة تسأل كيف الوصول إلى المكان وإلى طريق الجبل.

«خذ القطار إلى ووتزيهين، ثم بالقارب صعوداً إلى أعلى نهر يو».

«ما الذي يتوفّر هناك؟ مناظر طبيعية؟ معابد؟ مواقع تاريخية؟» تسأل، محاولاً اصطناع اللامبالاة.

«المكان كله بريّة عذراء».

«غابات قديمة»؟

«طبعاً، ولكن ليس الغابات وحدها»

«ماذا عن الإنسان البرّي؟» تسأل مازحاً.

يضحك، ولكن ليس بسخرية، ولا يبدو أنه يمازح نفسه، الأمر الذي يثير فضولك أكثر. ينبغي أن تعرف المزيد عنه.

«هل أنت أخصائي في البيئة؟ عالِم أحياء؟ عالم إناسة؟ عالم آثار؟»

يهزّ رأسه نافياً في كلّ مرّة، ثم يقول:

«أنا أكثر اهتماماً بالبشر الأحياء».

«أنت إذاً تقوم بأبحاث حول العادات الشعبية؟ أنت عالم اجتماع؟ عالم أعراق؟ صحفي ربما؟ مغامر؟»

«أنا هاوٍ في كلّ هذه المِهَن».

تشرعان في الضحك معاً.

«أنا خبير هاوٍ في كلّ هذه المهن»!

الضحك يجلب عليكما البهجة. يشعل سيغارة ولا يتوقف عن إخبارك بأعاجيب لينغشان. بعدئذ، وبناء على طلبك، يمزّق علبة سغائره الفارغة ويرسم لك خريطة الطريق إلى لينغشان.

في الشمال كان الخريف قد حلّ لتوّه. امّا هنا فإنّ حرارة الصيف لم تخمد تماماً بعد. والجوّ ما يزال حارّاً قبيل ساعة الغروب، والعرق أخذ يتصبب على ظهرك. تغادر المحطة لكي تستكشف المكان. لا شيء في الجوار سوى نزل صغير في الطرف الاخر من الطريق. إنه بناء من الطراز العتيق ذو واجهة خشبية وطابق أعلى. في الطابق الأعلى يصدر خشب الأرضية صريراً مزعجاً والأسوأ منه السخام

الذي يغطي الوسادة وفرشة النوم. ولكي تغتسل يتوجّب أن تنتظر حلول الظلام لكي تتعرّى وتصبّ الماء على نفسك في الباحة الرطبة الضيّقة. هذا المكان موقف للباعة المتجوّلين وللصنّاع من أهل القرية.

ثمة وقت طويل قبل حلول الظلام، ولهذا أمامك زمن كافٍ للعثور على مكان نظيف. تقطع الشارع حاملاً محفظة الظهر لكي تتفرّج قليلاً على البلدة الصغيرة، آملاً في العثور على إشارة ما، لوحة إعلان أو ملصق، أو مجرّد اسم «لينغشان» يفيدك أنك تسير في الدرب الصحيح ولم تنخدع حين قرّرتَ القيام بهذه النزهة. تنظر في كلّ مكان فلا تجد شيئاً. ولم يكن هنالك سوّاح من أمثالك بين الركاب الذين هبطوا معك من الباص. وبالطبع، أنت نفسك لست بالسائح الحقيقي، والأمر لا يتعدّى ما ترتديه: حذاء رياضي متين ظاهر للعيان، ومحفظة ظهر ذات سيور، ولا أحد يرتدي ما ترتديه. وبالطبع، هذا أيضاً ليس المكان السياحي الذي يرتاده المتزوّجون حديثاً والمتقاعدون. تلك أماكن بدّلتها السياحة، وثمة عربات مصطفّة في كلّ مكان والخرائط السياحية متوفّرة لمن يشتري. قبّعات سياحية، قمصان تي - شيرت سياحية، ثياب داخلية، مناديل تحمل اسم المكان وتملأ المحالّ ومنصّات البيع، واسم المكان يُستخدم في أسماء كلّ الأصناف التي «لا تُباع إلا بالعملة الأجنبية»، وثمة فنادق للأجانب، وشقق مفروشة، ومصحّات علاج، فضلاً عن الفنادق الصغيرة التي تتنافس في اجتذاب الزبائن. لم تأتِ لكي تمتّع نفسك في واحد من هذه الأماكن على الجانب المشمس من الجبل حيث يحتشد الناس لا لشيء إلا لكي يتدافعوا بالمناكب، ولكي يضيفوا المزيد إلى قمامة قشور الليمون والفاكهة، وزجاجات المشروبات الخفيفة، والعُلَب، والكرتون، ولفائف الصندويش، وأعقاب السغائر. ولن يطول الأمر حتى يزدهر هذا المكان أيضاً، ولكنك تزوره اليوم قبل نصب السرادق المبهرج وجلب المراسلين الصحفيين وكاميراتهم، وقبل أن يتوافد المشاهير بدبابيس الزينة التي تحمل أسماءهم منقوشة بخطّ فنّي جميل. لا تستطيع منع نفسك من الإحساس بالرضى عن الذات، ولكنّ القلق يعتريك مع ذلك. لا إشارة البتة على أيّ شيء ينفع السوّاح هنا، فهل ارتكبتَ حماقة؟ أنت تسير وليس في حوزتك سوى خريطة مرسومة على علبة سغائر في جيب قميصك، فماذا لو انّ الخبير الهاوي الذي قابلتّه في القطار كان مثلك قد سمع بالمكان في رحلاته ولم يزره أبداً؟ كيف تعرف أنه لم يخترع الأمر كلّه في الأساس؟ أنت لم تصادف المكان مذكوراً في أيّ كتاب رحلات، وهو غير مدرج في أدلّة السياحة ذات المعلومات الأحدث عهداً. ومن السهل، بالطبع، العثور على أماكن مثل «لينغاتي»، «لينغكي»، «لينغيان»، أو حتى «لينغشان» في خرائط الضواحي وأنت تعرف حقّ المعرفة أنّ «لينغشان» تظهر في كتب التاريخ والكلاسيكيات، وتظهر كذلك في أعمال تعود بتاريخها إلى عهد الكتاب الشاماني العتيق حول الجبال والبحار، وفي النشرة الجغرافية القديمة عن المياه. وفي لينغشان قام بوذا بإضاءة «ماهاكاشيابا المبجّل». لستَ غبياً، فاستخدمْ عقلك إذاً، واعثرْ أوّلاً على المكان المدوّن على علبة السغائر، ووتزيهين، لأنّك هكذا سوف تصل إلى لينغشان. تعود إلى محطة الباص وتدخل غرفة الإنتظار. المكان الأكثر ازدحاماً في هذه البلدة الصغيرة هو الآن مهجور تماماً. شبّاك التذاكر وشبّاك الطرود مغلقان من الداخل، ولهذا لا فائدة تُرجى من طرقهما. لا مكان يمكن أن

تقصده للإستفسار، ولهذا ليس أمامك سوى استعراض مواقف الباص فوق شبّاك التذاكر: «قرية جانغ»، «الشقة الرملية»، «معمل الإسمنت»، «الكوخ العتيق»، «الحصان الذهبي»، «الحصاد الطيّب»، «المياه الفائضة»، «خليج التنّين»، «غور براعم الدرّاق». . . الأسماء تتحسّن تدريجياً، لكن المكان الذي تريده غير موجود. هذه مجرّد بلدة صغيرة ولكن ثمة الكثير من الطرق والقليل فقط من الباصات. الطريق الأكثر ازدحاماً، بخمسة أو ستّة باصات يومياً، هو طريق معمل الإسمنت الذي لا يمكن أن يكون طريقاً سياحياً بالتأكيد. والطريق الأقلّ في عدد الباصات، باص واحد يومياً، هو ذاك الذي يذهب إلى أبعد جهة، وتبيّن لكَ أنّ ووتزيهين هي الموقف الأخير. لا خصوصية في الاسم، وهو مثل اسم أيّ مكان آخر، ولا سحر يكتنفه. ومع ذلك لاح أنك عثرت على طرف أوّل في متاهة لا أمل منها، وإذا لم يكن ما تشعر به هو الحبور الصوفيّ فإنك على الأقلّ تحسّ بالارتياح. تحتاج إلى شراء تذكرة في الصباح قبل ساعة من المغادرة، وتعرف من التجربة أنّ الفوز بمقعد في باصات جبلية مثل هذه، تنطلق مرّة يومياً، يقتضي خوض معركة حقيقية. فإذا لم تكن جاهزاً للمعركة فإنه يتعيّن عليك الحضور مبكراً غداً للوقوف في الصفّ. أمّا الآن فإنّ لديك الكثير من الوقت، رغم أن محفظتك المحمولة على الظهر أخذت تزعجك. تسير متمهلاً على الطريق، تمرّ بك الشاحنات المحمّلة بالأخشاب، مطلقة أبواقها الزاعقة. الضجيج داخل البلدة أسوأ لأنّ الشاحنات، وبعضها يجرّ مقطورات، تطلق إبواقها ويمدّ السائقون أيديهم خارج النوافذ للقرع على جوانب الباصات وحثّ السابلة على إخلاء الدرب. الأبنية العتيقة على جانبي الطريق تنتصب شاخصة متوهجة، حيث الطوابق السفلية للأعمال، ومن الطوابق العلوية يتدلى غسيل منوّع، شراشف، وحمّالات نهود، وثياب داخلية، وسراويل مفتوحة، وأغطية أسرّة شبيهة بأعلام الأمم جمعاء، تخفق كلّها هكذا وسط الضجيج والغبار وحركة السير. أعمدة التلغراف الإسمنتية الممتدة على طول الطريق مغطاة حتى مستوى البصر بكلّ أنواع الملصقات. ويلفت انتباهك أحدها، ذاك الذي يعلن عن علاج رائحة الجسم. ليس لأنك تعاني من رائحة الجسم، بل بسبب اللغة الفارهة والكلمات المحصورة بين هلالين بعد عبارة «رائحة الجسد»: رائحة الجسد (التي تُعرف أيضاً باسم أريج الخالدين) وضع مقرف يفرز روائح كريهة مثيرة للغثيان. وهي غالباً تؤثّر على العلاقات الإجتماعية، ويمكن أن تعيق أهمّ أحداث الحياة: الزواج. إنها ليست في صالح الشبّان والشابّات في مقابلات الترشيح للوظائف، ممّا يتسبّب في الكثير من المعاناة والضنك. ونحن نستطيع تخليصكم على الفور من رائحة الجسد بنسبة نجاح تصل إلى ٩٧,٥٣ في المئة، وذلك باستخدام طريقة علاج جديدة تماماً. فمن أجل المتعة في الحياة والسعادة في المستقبل نرحّب بمجيئكم إلينا لتخليص أجسامكم من روائحها! تصل بعد ذلك إلى جسر حجري: ما من رائحة جسد هنا، بل النسيم المنعش البارد. سطح الجسر الممتدّ على النهر العريض مطليّ بالقار، لكنّ نقوش القرود على أحجاره العتيقة تشهد على تاريخ طويل. تتكيء على الحواجز الإسمنتية وتستعرض البلدة المحاذية للجسر. على ضفّتي النهر تتراكب أسطحة البيوت مثل حراشف السمك، وتمتدّ في الأفق إلى ما لا نهاية. الوادي ينفتح بين جبلَين حيث عناقيد الخيزران الأخضر تتخلّل المناطق العليا المؤلّفة من حقول أرز ذهبية. النهر أزرق وصافٍ، يقطر بدعة نحو الضفاف الرملية، ثم يصبح أخضر غامقاً وعميقاً

حين يلامس بوّابات الغرانيت التي تقسم لجّة التيّار. وعلى مقربة من حدبة الجسر تزبد المياه المندفعة وتصطخب، ويتصاعد الزبد الأبيض من الدوّامات. السدّة الحجرية المرتفعة بعلوّ عشرة أمتار تحمل علامات منسوب المياه: لعلّ الخطوط الصفراء المائلة إلى الرماديّ كانت تلك التي تركتها فيضانات هذا الصيف. أيكون هذا هو «نهر يو»؟ هل يتدفّق هابطاً من لينغشان؟

الشمس توشك على المغيب. القرص البرتقالي اللامع مشبع بالضياء دونما سطوع. تحدّق في البعيد صوب الطبقات الضبابية للقمم المثلّمة حيث يلتقي طرفا الوادي. هذه الصورة السوداء المنذرة بالسوء تقضم الأطراف السفلى من الشمس المتّقدة التي بدا وكأنها تدور. تنقلب الشمس إلى اللون الأحمر الغامق، وتصبح أكثر طلاوة، وترشق الأخيلة الذهبية على كامل طيّات النهر: الأزرق الغامق في المياه ينصهر في ضياء الشمس اللامع، يخفق وينبض. القرص الأحمر يأخذ في الإنحدار إلى بطن الوادي، يصبح أكثر سكوناً، يصبح جماله باعثاً على الرهبة، مكتوم الصوت. تصغي أنت إلى بضعة أصوات، مراوغة محيّرة، تتردّد في أعماق قلبك، ثم تندفع خارجة نحو الشمس التي بدت وكأنها تستند على أطراف أصابعها، تتعثّر، ثمّ تغرق في ظلال الجبال السوداء، مطلقة حفنة ألوان متألقة سرعان ما تتبعثر في جوف السماء. تهبّ ريح مسائية تصخب عند أذنيك، وتندفع سيّارة مارّة، مطلقة كالعادة بوقها الذي يصمّ الآذان. تعبر الجسر وتبصر حجراً جديداً نُقشت عليه كتابة باللون الأحمر: «جسر يونغنينغ. شُيّد في السنة الثالثة من ولاية كايوان المنتمي إلى سلالة سونغ، ورُمّم في العام ١٩٦٢. وهذا الحجر وُضع في العام ١٩٨٣». ولا ريب أنّه يدشّن بدء صناعة السياحة في هذه الأرجاء.

كُشكان لبيع الأطعمة ينتصبان عند نهاية الجسر. في الأوّل الذي على الميسرة تأكل زُبدية من خُثار اللوبياء، النوع الناعم طيّب المذاق بكلّ موادّ صنعه السليمة. الباعة الجوّالون اعتادوا بيعه في الشوارع والأزقة؛ ثمّ اختفى تماماً لبعض الوقت، لكنه اليوم عاد من جديد على هيئة تجارة عائلية. في الكشك على الميمنة تأكل اثنتين من فطائر الكُرّاث اللذيذة المحلاة المرشوشة بالسمسم، ساخنة خارجة للتوّ من الفرن. وبعدئذ، ولم تعد تتذكّر في أيّ الكشكين، تأكل زبدية من زُلابية يوانشياو، مشوية بنبيذ الأرز: إنها بحجم لؤلؤة كبيرة. وبالطبع، لستَ في الطعام أكاديمياً مثل السيد «ما الثاني» الذي جالَ البحيرة الغربية ولكنك مع ذلك تمتلك ذائقة مكينة. تتلذّذ بطعام أسلافك هذا وتصغي إلى ثرثرة الزبائن مع الباعة. أنهم من أهل البلد إجمالاً، وهم يعرفون بعضهم البعض. تحاول استخدام اللهجة المحلية المعسولة لكي تتودّد إليهم، لكي تكون جزءاً منهم. لقد عشتَ في المدينة زمناً طويلاً وأنت بحاجة إلى الإحساس بأنّ لكَ بلدة مسقط رأس. تريد بلدة مسقط رأس لكي تكون قادراً على العودة إلى طفولتك واسترجاع الذكريات التي ضاعت منذ زمن بعيد.

وعلى هذا الجانب من الجسر يحدث أن تعثر على نزل يقع في شارع مرصوف بالحجر. الأرضيات الخشبية كُنست وتبدو نظيفة كفاية. تأخذ غرفة صغيرة مفردة تحتوي على سرير خشبي مغطى بحصير الخزيران. البطانية القطنية ذات لون رمادي يثير الريبة، فهي إمّا لم تُغسل جيداً أو أنّ هذا هو لونها الأصلي. تلقي جانباً الوسادة الدهنية الموضوعة تحت حصير الخيزران، ومن حسن الحظّ أنّ الجوّ

حارّ بحيث تستطيع الإستغناء عن الشراشف. ما تحتاج إليه الآن هو إفراغ متاعك الذي بات ثقيلاً تماماً الآن، وغسل الغبار والعرق، وتسطيح جسمك على الفراش. ثمة صراخ وصياح في الغرفة المجاورة. إنهم يقامرون وفي وسعك سماع أصوات التقاط ورمي أوراق اللعب. حاجز من الخشب يفصلك عنهم، ومن خلال الثقوب في الورق الذي يغطّي الألواح تستطيع تمييز الأشكال الزائغة لرجال عراة الصدور. لستَ تعباً إلى حدّ يجعلك تسقط نائماً سريعاً هكذا. تنقر على الجدار، فيتعالى الصراخ على الفور. إنهم لا يصرخون عليك بل فيما بينهم: هنالك دائماً رابحون وخاسرون والخاسر يحاول التملّص من السداد. إنهم يقامرون علانية في النزل رغم لافتة تحذير «مكتب الأمن العام» الملصقة على الجدار والتي تحظر القمار والبغاء، وها أنت تقرّر التحقّق مما إذا كان للقانون أيّ مفعول. ترتدي بعض الثياب، تسير في الممشى وتقرع الباب الموارب. قرعك لا يسبّب أيّ فارق، فهم يواصلون الصراخ والصياح في الداخل ولا أحد يعبأ بشيء. وهكذا تدفع الباب وتدخل. الرجال الأربعة الجالسون علي الفراش في منتصف الغرفة يلتفتون بأبصارهم صوبك. لكنك أنت مَن يُصاب بالصدمة، وليسوا هم. فالرجال هؤلاء كانوا قد ألصقوا قصاصات ورق صغيرة علي وجوههم، وجباههم، وشفاههم، وأنوفهم، وخدودهم، فبدا منظرهم قبيحاً ومضحكاً. يحملقون فيك ولا يضحكون. أنت الذي اقتحمت، والإنزعاج واضح على وجوههم.

«أوه، أنتم تلعبون الورق»، تقول، مصطنعاً نبرة اعتذارية.

يواصلون اللعب. أوراق اللعب الطويلة ذات علامات حمراء وسوداء من طراز المهاجونغ، وثمّة «بوّابة الفردوس» و«سجن الجحيم». والفائز يقاصص الخاسر عن طريق تمزيق قطعة من أوراق الصحف ولصقها في موقع محدّد. وسواء أكان هذا مزحة، أم تنفيساً عن الإحتقان، أم وسيلة للحساب، أمر يتفق عليه المقامرون أنفسهم وما من شيء يتيح للدخلاء أن يتكهنوا بما يجري حقاً.

تنسحب والحال هذه، وتعود إلى غرفتك، تستلقي ثانية، وترى كتلة ثخينة من البُقع السوداء حول مصباح الضوء. ملايين البعوض تنتظر انطفاء الضوء لكي تهبط للتغذّى على دمك. ترخي الناموسية سريعاً، وها أنت منحصر في فضاء مخروطي ضيّق، تعلوه طارة من الخيزران. مضى زمن طويل منذ أن رقدتَ تحت طارة مثل هذه، وتجاوزتَ منذ زمن طويل العمر الذي يسمح لكَ بتأمّل الطارة والاستغراق في أحلام اليقظة. اليوم لا تعرف ما سيجلبه الغد من رضوض. تعلّمتَ من خلال التجربة كلّ ما تحتاج إلى معرفته. ما الذي تبحث عنه، إذاً؟ حين يبلغ المرء منتصف العمر، ألا يتوجّب عليه البحث عن وجود آمن ومستقرّ، العثور على وظيفة ليست شديدة التطلّب، وملازمة مرتبة متوسطة، والانتقال إلى طور الزوج والأب، وتشييد بيت مريح، ووضع بعض النقود في المصرف وإضافة المزيد إليها كلّ شهر بحيث يتوفّر شيء للشيخوخة وشيء للجيل القادم؟

الفصل (٢)

وكان أن شهدتُ أثر حضارة إنسانية مبكّرة، عبادة النار، في منطقة كيانغ منتصف المسافة إلى جبل كيونغليا، في المناطق الحدودية بين نجود كينغهاي التيبتية وحوض سيشوان. النار، جالبة الحضارة،

عبَدها أسلاف البشر الأوائل في كلّ مكان. مقدّسة هي. وهو جالس قبالة النار يحتسي الشراب من الزُبدية. يغمس إصبعاً قبل كلّ رشفة، ثم ينفض بضعة قطرات على الفحم الذي يئزّ ويصخب ويرسل شرارات زرقاء. عندها، عندها فقط، أخذتُ أدرك أنني حقيقي.

يقول: «هذه من أجل إله فرن الطبخ، فبفضله نأكل ونشرب».

ضوء النار الراقص يلتمع على وجنتيه النحيلتين، وعلى أرنبة أنفه العالي، وعلى عظام وجنتيه. يخبرني أنه من رعايا كيانغ، من قرية غينغادا في أسفل الجبل. ولا أستطيع أن أسأله عن الجان والأرواح مباشرة، ولهذا أقول له إنني هنا من أجل القيام بأبحاث حول الأغنيات الشعبية في الجبل. ألا يزال سادة الأغنية الشعبية وراقصوها على قيد الحياة؟ يقول إنه واحد منهم. الرجال والنساء اعتادوا تشكيل حلقة حول النار، والرقص حتى انبلاج الفجر، لكنّ العادة هذه مُنعت فيما بعد.

«لماذا»؟ أعرف السبب حقّ المعرفة، ولكنني أسأل. ها أنني أبتعد عن النزاهة من جديد.

«بسبب الثورة الثقافية. قالوا إنّ الأغنيات كانت قذرة، فانتقلنا إلى غناء تعاليم ماو تسي تونغ بدلاً عنها».

«وماذا بعد هذا»؟ ألحفتُ في السؤال. باتت هذه عادة لديّ.

«لم يعد أحد يغنّي تلك الأغنيات. الناس ما زالوا يمارسون الرقص، وقلّة قليلة من الشبّان هي التي تفعل ذلك، وأنا أعلّم الرقص لبعض هؤلاء».

أطلب منه أن يريني مثالاً. وبلا تردّد ينتصب على قدميه ويشرع في الرقص والغناء. صوته خفيض وغنيّ، وهو صاحب صوت حقاً. أنا متأكد أنه من كيانغ، رغم أنّ الشرطة المسؤولة عن تسجيل السكان تصرّ على أنه ليس منهم. يعتقدون أنّ كلّ من يزعم الإنتماء إلى التيبت أو الكيانغ إنما يحاول التهرّب من قوانين تحديد النسل، من أجل زيادة النسل.

يغنّي أغنية تلو أخرى. يقول إنه شخص محبّ للمرح. أصدّقه. وحين أنهى عمله كرئيس للقرية، عاد إلى سابق عهده كواحد من أهل الجبل، عجوز جبلي يحبّ المرح، ولكنه للأسف تجاوز سنّ القصص الغرامية. هو يحفظ الرُقى أيضاً، تلك التي يستخدمها الصيادون حين يقصدون الجبل. إنها تُسمّى السحر الأسود الجبلي، أو التعاويذ، وضميره لا يوجعه إذْ يستخدمها. يؤمن صادقاً أنها قادرة على استدراج الحيوانات البرية إلى الشراك والفخاخ. ولكنها لا تُستخدم مع الحيوانات وحدها، بل من أجل الإنتقام من الكائنات البشرية

أيضاً. وضحية السحر الأسود الجبلي لن يفلح في العثور على طريق الخروج من الجبل. تلك التعاويذ أشبه بـ «حيطان الجان» التي سمعتُ عنها في طفولتي: حين يسافر المرء ليلاً في الجبال، فإنّ جداراً، أو جُرفاً، أو نهراً يظهر قبالته تماماً، بحيث لا يستطيع المضيّ أبعد. وإذا لم تُكسر التعويذة فإنّ قدمَيّ الشخص لا تتقدمان إلى الأمام حتى إذا واصل المشي، لأنه يظلّ لابثاً في المكان الذي انطلق منه، ولن يكتشف إلا عند انبلاج الفجر أنه إنما كان يدور في حلقات. ليس هذا أسوأ العواقب، فالأسوأ أن يُساق المرء إلى زقاق أعمى، الأمر الذي يعني الموت الأكيد.

يدندن بتعاويذ شتّى. ليست بطيئة ورخيّة كما هي حاله عندما يغنّي، ولكنها أقرب إلى نان ـ نان

ـ نا ـ نا ضمن لحن متسارع. لا أستطيع فهمها كلها، لكنني أستشعر الجاذبية الصوفية في الكلمات، والمناخ الشيطاني المرعب يتخلل الحجرة التي اسودّت من الدخان. عيناه تومضان لمرأى ألسنة اللهب تلعق القِدْر الحديدي الذي يُسلق فيه لحم الضأن. ذلك كله حقيقي، شديد الواقعية.

وبينما تواصل أنتَ البحث عن الطريق إلى لينغشان، أتجوّل أنا على امتداد نهر اليانغتسي باحثاً عن هذا النوع من الواقع. لقد مررتُ لتوّي بأزمة، وبعدها زاد في الطين بلّة أن الطبيب أخطأ في تشخيص المرض حين اعتبره سرطان رئة. كان الموت يمازحني، وكنتُ وقد نجوتُ من حائط الجان أشعر ببهجة سرّية. الحياة عندي ما تزال تنطوي على نضارة رائعة. وكان عليّ، منذ زمن طويل، أن أغادر هذه الأرجاء الملوّثة، وأن أعود إلى الطبيعة باحثاً عن الحياة الأصيلة.

وفي تلك الأرجاء الملوّثة خضعتُ لتعليم يفيد أنّ الحياة هي منبع الأدب، وأنّ على الأدب أن يكون وفيّاً للحياة، وفيّاً للحياة الحقيقية. خطأي كان أنني غرّبتُ نفسي عن الحياة، وانتهيت إلى إدارة ظهري للحياة الحقيقية. غير أنّ الحياة الحقيقية ليست شبيهة بتجليات الحياة. الحياة الحقيقية، أو جوهر الحياة الأساسي، ينبغي أن يكون الحياة لا تجليات الحياة. لقد سرتُ عكس الحياة الحقيقية لأنني ببساطة كنت أدَوْزِن تجليات الحياة، ولهذا فإنني بالطبع لم أكن قادراً على تصوير الحياة بدقّة، ولم أنجح في النهاية إلا بتشويه الواقع.

ولستُ أعرف ما إذا كنتُ أسير على الدرب القويم، ولكنني في كلّ حال خلّصتُ نفسي من هياج عالم الأدب ونجوت كذلك من الحجرة العابقة بالدخان. الكتب المكدّسة في كلّ أرجاء الحجرة كانت طاغية وخانقة. كانت تعرض كلّ أنواع الحقائق، من الحقائق التاريخية وحتى الحقائق حول كيفية أن يكون المرء آدمياً. لم أكن أدرك حكمة توفير كلّ هذه الحقائق، لكنني رغم ذلك عَلِقتُ في شبكة تلك الحقائق وكنت أقاوم بلا أمل مثل حشرة عالقة في شبكة عنكبوت. ومن حسن الحظّ أنّ الطبيب الذي أعطى التشخيص الخاطىء أنقذ حياتي. كان صريحاً للغاية وجعلني أقارن بين صورتَي الأشعة الملتقطتَين لصدري في مناسبتين مختلفتين: ظلّ غائم على الفلقة اليسرى من الرئة ،على امتداد الضلع الثاني لجدار القصبة الهوائية. وحتى استئصال الفلقة اليسرى بأسرها لن يفيد في شيء. كانت النتيجة واضحة. والدي توفي بمرض الرئة. توفي خلال ثلاثة أشهر من اكتشاف المرض، وكان هذا هو الطبيب نفسه الذي شخّص المرض بدقّة. كنت مؤمناً بخبرته الطبية وكان مؤمناً بالعلم. وصورتا الأشعة اللتان التُقطتا في مصحّين مختلفَين كانتا متشابهتَين، ولم تكن هناك إمكانية لوقوع خطأ فنّي. كذلك كتب الطبيب ترخيصاً بإجراء صورة أشعة مقطعية، وكان الموعد بعد نصف شهر. لا شيء في هذا يدعو إلى القلق، والهدف هو تحديد نطاق التورّم. أجرى والدي الصورة ذاتها قبل وفاته. والنتيجة ستكون واحدة سواء أجريتُ تلك الصورة أم لا، ولا خصوصية في ذلك. وإنه الحظّ الطيّب وحده هو الذي جعلني أنزلق هكذا من بين أصابع الموت.

ذات يوم رأيت قطعة خشب بطول أربع بوصات، جمعها في منطقة كيانغ عالم إناسة خلال الثلاثينيات. كانت تمثالاً منحوتاً لشخص واقف على يده. العينان والأنف والفم رُسمت على الوجه بالحبر، وكُتبت على الجسد كلمة «عمر طويل». كان اسم المنحوتة «ووشانغ رأساً على عقب»،

وكانت تنطوي على أمر مؤذٍ غريب. وأسأل رئيس القرية المتقاعد عمّا إذا كانت مثل هذه الطلاسم متوفّرة هذه الأيّام. يقول لي إنّ هذه تُدعى «لاوجين» أو «الجذور العتيقة». وهذا الوثن الخشبي يتوجّب أن يرافق الطفل الوليد من الولادة وحتى الممات. وعند الموت فإنّ الوثن يرافق الجثة لدى خروجها من البيت، ويُترك بعد الدفن في البرّية لكي يسمح للروح بالعودة إلى الطبيعة. أسأله إذا كان يستطيع تأمين وثن لي أحمله معي. يضحك ويقول إنّ هذه أوثان الصيادين يشبكونها بقمصانهم لإبعاد الأرواح الشريرة، وهي لن تكون ذات نفع لأناس مثلي.

أسأل: «أيوجد صياد عجوز يتقن هذا النوع من السحر ويوافق على اصطحابي معه إلى الصيد»؟

يقول بعد تفكير: «الجدّ الحجر سوف يكون الأفضل».

أسأله على الفور: «وأين أعثر عليه»؟

«إنه في كوخ الجدّ الحجر».

«أين يقع كوخ الجدّ الحجر هذا»؟

«إمشِ عشرين لِيّاً [وحدة صينية للمسافات، حوالي ثلث ميل] حتى «أخدود منجم الفضة»، ثم اتبعْ الجُون يميناً وصعوداً حتى النهاية. ستعثر هناك على كوخ من الحجر».

«أهو اسم المكان أم تقصد كوخ الجدّ الحجر»؟

يقول إنه اسم المكان، إذْ يوجد في الواقع كوخ حجري، والجدّ الحجر يعيش هناك.

أتابع السؤال: «هل تأخذني إليه»؟

«إنه ميت. استلقى على سريره ومات وهو نائم. كان طاعناً في السنّ، وعاش أكثر من تسعين سنة، والبعض يقول أكثر من مئة. في كلّ حال لا يوجد مَن هو متأكّد من سنّه».

ولا أستطيع منع نفسي من السؤال: «أما يزال أيّ من أحفاده على قيد الحياة»؟

«في زمن جيل جدّي، وبقدر ما أستطيع أن أتذكّر، كان الجدّ الحجر وحيداً طوال حياته».

«بلا زوجة»؟

«عاش وحيداً في أخدود منجم الفضة. عاش في أعلى الأخدود، في الكوخ الأعزل، وحيداً. نعم، وما تزال بندقيته معلّقة على جدار الكوخ».

أسأل ما الذي يحاول قوله لي.

يقول إنّ الجدّ الحجر كان صياداً رائعاً، صياداً خبيراً في فنون السحر. لم يبق صيّادون من أمثاله في هذه الأيّام. الكلّ يعرف أنّ بندقيته ما تزال معلّقة في الكوخ، وأنها لا يمكن أن تخطيء الهدف، ولكن لا أحد يجرؤ على الذهاب لأخذها.

«لماذا»؟ أسأل وقد ازددتُ حيرة.

«الطريق إلى أخدود منجم الفضة مقطوع».

«لا يوجد طريق يوصل إليه»؟

«لم يعد هنالك أيّ طريق. في السابق اعتاد الناس التنقيب عن الفضة هناك، واستأجرت شركة من شينغدو فريقاً من العمّال وبدأوا التنقيب. في أعقاب ذلك، وبعد نهب المنجم، غادر الجميع.

وشاخصات الطريق التي نصبوها تحطّمت أو تسوّست».
«متى جرى كلّ هذا»؟
«حين كان جدّي ما يزال على قيد الحياة، منذ أكثر من خمسين سنة».
ذلك هو الزمن الصحيح، إذْ أنه الآن متقاعد وجزء من التاريخ، التاريخ الحقيقي.
أسأل وقد أصبحت أكثر تشوّقاً: «وهكذا لم يذهب أحد إلى المكان بعدها»؟
«يصعب الجزم، الذهاب إلى هناك صعب في كلّ حال».
«والكوخ تسوّس»؟
«الحجر يتقوّض، فكيف يتسوّس»؟
«أقصد دعامة السقف»؟
«نعم، هذا صحيح».
لم يكن راغباً في أصطحابي إلى هناك، كما لم يكن راغباً في العثور على صيّاد يرافقني، ولهذا فإنه يبلبل تفكيري على هذا النحو، كما أعتقد.
أسأل، رغم ذلك: «فكيف إذاً تعرف أنّ البندقية ما تزال معلّقة على الجدار»؟
«هذا ما يردّده الجميع، ولا بدّ أنّ أحداً رأى البندقية. الجميع يقولون إنّ الجدّ الحجر أمر خارق، جثته لم تتعفّن والوحوش الضارية لا تجرؤ على الإقتراب منه. إنه يجثم هناك متيبّساً وهزيلاً، وبندقيته معلّقة هناك على الجدار».
«محال. قياساً على درجة الرطوبة هناك في أعلى الجبل، لابدّ أنّ جثته تعفّنت والبندقية تحوّلت إلى كومة من الصدأ»، أقول مجادلاً.
«لا أعرف. في كلّ حال يردّد الناس هذه الأقوال منذ سنوات». يرفض التنازل ويظلّ متمسكاً بحكايته. ضوء النار يتراقص في عينيه ويلوح لي أنني ألمح خبثاً ما فيهما.
«وأنت نفسك، ألم تره»؟ أسأل وقد أزمعت تضييق الخناق عليه.
«الناس الذين رأوه يقولون إنه يبدو أشبه بالنائم، وأنه هَزُل، وأنّ البندقية ما تزال معلّقة على الجدار فوق رأسه»، يتابع الكلام هادئاً. «كان يتقن السحر الأسود. ليس الأمر أنّ الناس وحدهم لا يجرؤون على الذهاب لسرقة بندقيته، بل إنّ الحيوانات نفسها لا تجرؤ على الإقتراب».
الصياد أسطورة الآن، لتوّه. والحديث عن مزيج من التاريخ والخرافة هو سبيل ولادة حكايات الشعب. الواقع لا يوجد إلا من خلال التجربة، ولا مناص من أن تكون تجربة شخصية. غير أنّ التجارب الشخصية تصبح حكايات حين تُروى. الواقع لا يمكن التحقّق منه، وهو لا يحتاج إلى ذلك، فهذا أمر متروك للخبراء في تحليل حقيقة الحياة. ما هو مهمّ هو الحياة. الواقع ببساطة هو أنني أجلس قبالة النار في هذه الحجرة المسودّة بالسُخام والدخان، وأنني أرى ضوء النار يتراقص في عينيه .الواقع هو نفسي، والواقع ليس سوى إدراك هذه البرهة التي لا يمكن نقلها إلى شخص آخر. وكلّ ما ينبغي قوله هو التالي: ثمة في الخارج غبش يطبق على الجبل الأخضر المائل إلى الزرقة، وثمة ضباب، وقلبكَ ينبض بالمياه الدافقة من جدول بطيء الجريان. وهذا يكفيك.

الفصل ٨١
(الفصل الأخير)

من النافذة أبصر ضفدعة صغيرة جاثمة على الأرض المغطاة بالثلج. إنها تطرف بعين وتجحظ بالأخرى. تراقبني دون حراك. أفهم أنّ الأمر يتعلّق بالربّ.

إنه يتجلّي أمامي في هذه الهيئة ويرى ما إذا كنتُ أفهم.

يطرف عيناً لكي يحادثني. وحين يتحدّث الربّ إلى البشر فإنه لا يرغب في أن يسمعوا صوته.

أمّا أنا فلا يدهشني ذلك، وكأنه ينبغي أن يكون هكذا، وكأنّ الربّ كان على الدوام ضفدعة ذات عين مستديرة تماماً، ذكيّة، مفتوحة على اتساعها. أيّة رأفة منه أن يكترث برجل يدعو إلى الرثاء مثلي!

لغته التي يتكلم بها غير مفهومة من عينه الثانية، وعليّ أن أفهمه إذْ يطرف بالبؤبؤ لشدّ انتباه البشر. غير أنّ هذا ليس شأنه.

أستطيع كذلك التخمين أنّ تحريك البؤبؤ لا ينطوي على أيّ معنى، وأنّ معناه قد يكمن ربما في غياب المعنى على وجه التحديد.

لا توجد معجزة، هذا ما قاله الربّ لي، أنا الذي لا أقتنع أبداً. وأطرح عليه السؤال:

في هذه الحال، هل يتبقى شيء نبحث عنه؟

السكون يعمّ الجوار. الثلج يتساقط بصمت. أنا مندهش من هذه السكينة. سكينة الفردوس.

ما من غبطة. الغبطة لا توجد إلا في علاقة مع الحزن.

وحده الثلج يتساقط.

وفي تلك اللحظة لا أعرف أين يقع جسدي، لا أعرف من أين تأتي قطعة أرض الفردوس هذه. أتفحّص الجوار.

لا أعرف أنني لا أفهم شيئاً، وأعتقد أنني أفهم كلّ شيء.

الأشياء تجري خلفي. ثمة دائماً عين غريبة. والأفضل أن يدّعي المرء أنه يفهم.

ادّعاء الفهم، ولكن دون فهم أيّ شيء في الحقيقة.

وأنا في الواقع لا أفهم شيئاً، لا أفهم أيّ شيء.

هكذا هو الأمر.

صيف ١٩٨٢ - أيلول ١٩٨٩

بكين - باريس

ترجمة: صبحي حديدي



الخروج من سجن الآخرين

الأدب الصيني في التسعينات

لي ميبل

في أوائل الثمانينات أصبحت أسماء مثل هابرماس، ودريدا، وفوكو، مألوفة بصورة مفاجئة في أوساط المثقفين الصينيين، إلي جانب كتّاب ومفكرين من الغرب حُظرت كتاباتهم في الصين لمدة نصف قرن. لعبت الأعمال الإبداعية والنظريات الأدبية الغربية دورا بالغ الأهمية في تبديد سلطة المبادئ الأدبية التي أرساها ماوتسي تونغ. المبادئ التي جرى العمل على ترسيخها حتى أصبحت قيدا من الحديد في زمن الثورة الثقافية.

فمع نهاية تلك الثورة، كان قد تم تعقيم الأدب والنقد الصينيين، وتعقيم الكاتب والقارئ والكتب بطريقة أيديولوجية. كان النقد، والملاحقة، والسجن، وحتى خطر فقدان الحياة، من الأدوات الفعالة المؤثرة في تلك الفترة. لكن القواعد الجامدة المفروضة على العقول في الفترة نفسها خلقت أعراضا للفقر الروحي. لذلك، تفتحت شهية الناس بشراهة لزاد الحرية الفردية التي تسمح بقدر ضئيل من التعددية الفردية والاختلاف.

وقد كان هذا التعدد والاختلاف متوفرا في الأدب والفن الأجنبيين، وفي الميراث الأدبي الصيني ما قبل الماركسية. وعندما اتجه الحزب نحو نوع من الليبرالية لتحقيق التحديث الاقتصادي في المقام الأوّل، سمح بدخول ثقافة الغرب، وبقدر ما نالت طريقة الرأسمالية الغربية في التسويق جاذبية لدى مجتمع يعاني من الخضوع والامتثال، نال أدب الغرب القدر نفسه من الجاذبية لدى العقول المفكرة في المجتمع.

وضع معهد الأدب المقارن، الذي جرى تأسيسه في جامعة بكين عام ١٩٨٠ كهيئة غير حكومية وشبه مستقلة، نصب عينيه تعريف الصين على الأدب العالمي. ويرجع الفضل في هذا المجال ليو دايوون، أستاذ اللغة الصينية، الذي نجح بفضل جهوده الدؤوبة في تجاوز العقبات البيروقراطية، وفي

لي ميبل استاذة الأدب الصيني ومترجمة «جبل الروح» الى اللغة الانكليزية

وضع المعهد على قدميه.

وقد أدى هذا الوضع إلى إنشاء مزيد من الهيئات المشابهة في مختلف الجامعات الصينية. وغالبا ما كانت هناك علاقة قوية بين وجود أقسام اللغات الأجنبية في الجامعة وظهور العديد من الطلاب الراغبين بدراسة الأدب والخطاب الغربيين. كانت الدراسة تشبع حاجتهم النفسية لفهم تطورات الثورة الثقافية، كما فاز بعضهم بفرصة الدراسة في الخارج.

وقد اعتنق المثقفون الصينيون لفترة من الوقت نظريات غربية مختلفة بحماسة تنسجم شدتها مع ما يتصل منها بالتطورات المتلاحقة في المجتمع الصيني، كما اتسمت دراسة الأشياء الجديدة بالبهجة والتشويق. يلاحظ شياوبينغ تانغ المثقف الشاب الذي استكمل دراسته في الغرب، في نقاشه لملامح لتلك الفترة، التناقض الكامن في فترة الثمانينات، عندما سادت فكرة أن النظرية الجديدة تعني «جهدا ثقافيا عاما لترجمة نص الصين المعاصرة إلى لغة عالمية مفترضة»:

«بينما كان على المشروع المعارض للهيمنة طرح إطار نظري جديد لمجابهة القمع السياسي، بالعودة التعسفية إلى النزعة الإنسانوية الكلاسيكية، والتعددية الليبرالية، أو مفهوم الاختلاف في أيديولوجيا ما بعد الحداثة، لم يكن اقتصاد السوق، بفعل مضمونه التجاري، وعدم اهتمامه بهموم المثقفين من العوامل المساعدة. بين غياب الحرية السياسية، ولا مبالاة السوق، لا توجد فرصة حقيقية».

طرحت هذه التعليقات في التسعينات، ومن المستبعد أن كتّاب الصين ونقادها في الثمانينات، بما فيهم شياوبينغ تانغ، كانوا مدركين لهذا التناقض. ومع ذلك، أسهمت النظريات الغربية الجديدة في «تفكيك» القبضة القوية لعادات ثقافية جرى تأسيسها وترسيخها في زمن الثورة الثقافية. كما شهدت الفترة نفسها زيادة هائلة في نشر الأعمال الأدبية الغربية المترجمة إلى الصينية، إلى جانب الاهتمام بدراسة لغات غربية.

وكما كان الطموح أن تلحق الصين سريعا، بفضل تطورها الاقتصادي، ببقية العالم، أراد المثقفون الصينيون، بما فيهم الكتّاب، وجود عملية تطوّر متسارعة في مجالهم الخاص: حيث مكنتهم قراءة أعمال أدبية أجنبية من الحصول على تجارب كانت محظورة عليهم، كما خلقت لديهم نوعا من التوتر، فهم يريدون الكتابة والتعبير عن أنفسهم كجزء من كتّاب العالم، الذين تعرّفوا عليهم من خلال الاتجاهات الأدبية السائدة في العالم.

حدثت ردة الفعل هذه في عالم الأدب الصيني أولا كردة فعل غريزية بعد الرفع التدريجي للقيود على حرية التعبير الفني للكتّاب في المجالات الإبداعية. وتلا ذلك أعمال نقدية استهدفت تفسير العمليات الأدبية المتغيرة، بينما شرعت الجامعات في تعليم النظريات الأدبية الغربية لطلابها.

ورغم أن حرّاس النقاء الثوري في الأدب شنوا حملات ضد التلوث الأخلاقي القادم من الغرب، إلا أن أفكار الليبرالية ترافقت مع محاولات الصين الجادة لنيل قبول واعتراف وموافقة بقية العالم الصناعي، باعتبارها أمة حديثة، وهذا بدوره جعل وقف استيراد الثقافة الغربية من الأمور الصعبة.

وفي عقد الثمانينات تنوّعت الأعمال والنظرية الأدبية في عملية متضافرة مع التطوّرات الجديدة في الاقتصاد والمجتمع. كما خلقت سياسة دينغ شياو بينغ لإشاعة نوع من الليبرالية ديناميات لا يمكن

التراجع عنها. ديناميات تتطور بصورة ذاتية وصلت إلى الذروة في الحركة الطلابية عام ١٩٨٩.
مر الآن ما يزيد عن نصف عقد على أحداث ١٩٨٩ (كتبت هذه المقالة في عام ١٩٩٦) التي كانت نقطة تحوّل أعاد الحزب بعدها تأكيد سلطته، رغم السماح بقدر أكبر من الليبرالية في مجالات معينة، أحيانا. لكن الأدب الصيني تغيّر إلى حد كبير خلال عقد ونصف العقد. فقد اختار عدد كبير من الكتّاب الصينيين الإقامة الدائمة في الخارج، وواصلوا النشر في الصين وتايوان وهونغ كونغ، أو في بلدان أخرى تتواجد فيها جاليات صينية كبيرة إلى حد يسمح باستمرار النشاط الأدبي.

كما أصبحت المشاركة في الأنشطة الأدبية المحلية والدولية من الأمور الشائعة. وفي الوقت الحاضر تمثل منشورات الصين الشعبية وتايوان وهونغ كونغ منبرا دوليا يمتاز بالحيوية والأهمية للخطاب الأدبي للكتّاب والأكاديميين الصينيين، خطاب غير مراقب، وغير « موّجه » بصرف النظر عن مكان إقامتهم. وربما كان الابتعاد بالمعنى الجسدي وسيلة جيدة للتقيم الموضوعي وتأمل التطوّرات التي شهدها الأدب الصيني في القرن الحالي، وهي مسألة يحرص عليها الكتّاب الصينيون بعناية.

تمكن خلال الفترة نفسها الموهوبون الشباب من الأكاديميين الصينيين من أمثال ليو كانغ، وشياوبينغ تانغ، من امتلاك زمام النظريات الغربية، وظهرت أصواتهم في أوساط الدراسات الأدبية الغربية، وكانوا مسلّحين بالتجربة الحية النابعة من معرفتهم بالمشهد الأدبي الصيني، لدعم نماذجهم النظرية. كثير من أفكارهم ثاقبة وحادة، لكنهم يتبنون الموقف المتشدد والكفاحي الذي لا يمكن تفاديه في مجال الدراسات الأدبية. ورغم ذلك، لا توجد هذه المشكلة لدى كاتبين وناقدين ثقافيين في أواسط العمر، نركز عليهما في هذه المقالة، هما ليو زايفو، وغاو شينغجيان.

الفرق في العمر مسؤول عن تجارب شخصية تراكمت خلال فترة زمنية أطول، لذلك يتسم تحليل الرجلين للمشهد الأدبي الصيني في التسعينات، وللإبداع بشكل عام، بالأصالة والفرادة. يتماشى غاو شينغجيان مع أحدث الاتجاهات الأدبية الأوروبية، بينما كرّس ليو زايفو حياته لدراسة التاريخ الثقافي والفكري، والنظريات التحليلية الأدبية الحديثة.

ولا تعني حقيقة عدم استخدامهما لنظريات تحليلية غربية في نقاش الأدب أن الكاتبين يجهلانها، أو أن تحليلهما الخاص أقل صلاحية منها. فمنذ التسعينات « يخرج الكاتبان من سجون ناس آخرين » بصورة واعية، رغم أن الطرق التي اختاراها تقود إلى اتجاهات مغايرة.

تعبّر أعمال الكاتبين، التي نناقشها في الفقرات اللاحقة، عن وعي جديد، وعن ثقة بالنفس يقولان أنها أصبحت متاحة للكتّاب الصينيين بعد قرن تقريبا من الإحساس بفقدان الطمأنينة الثقافية بفعل احتكاك الصين بالشعوب الصناعية واليابان.

ونقوم، هنا، بمناقشة أفكار الكاتب المسرحي والروائي غاو شينغجيان (مواليد عام ١٩٤٠) والمنظّر الأدبي والمؤرخ الثقافي وكاتب المقالات ليو زايفو (مواليد عام ١٩٤١) بصورة مشتركة، وفي سياق بعض الموضوعات التي طرحها معاصروهم الأصغر سنّا، الذين أصبحوا كما يبدو مغرمين بالخطاب النظري الغربي.

رغم انتماء الكاتبين إلى الدياسبورا الصينية، إلا أن تجاربهما مختلفة تماما كما سيتضح لاحقا.

ورغم ذلك، ثمة تشابه في تقييمهما لما طرأ من تطوّرات في تاريخ الأدب الصيني خلال هذا القرن. فقد نبعت أفكارهما عن تاريخ وأدب الصين من تجارب حيّة، وكذلك الأمر بالنسبة لأفكار تخص الإبداع، بحكم ممارستهما للكتابة الإبداعية.

هناك، بالضرورة، أوجه اختلاف كبيرة في الطريقة التي يتأملان بها الأدب، فهما يمتازان بأسلوب نثري خاص وحساسية فنية فريدة. كلاهما أستاذ في أسلوب كتابته لكنهما اختارا مجالات تعبيرية مختلفة، وموضوعات مختلفة أرادا استكشافها بواسطة الكتابة. ومع ذلك يشتركان في الرأي أن الأدب مسألة فردية وليست جماعية، وأن الكتّاب الصينيين ضحوا عن طيب خاطر بالفرد لصالح الجماعة. ويتفقان، أيضا، في الرأي أن من واجب الكتّاب الصينيين في التسعينات إعادة تأكيد ذواتهم ككتّاب، وأن على الأدب ألا يربط نفسه بالسياسة. كما يعني التقارب في عمريهما أن مولدهما جاء بعيد بداية حرب المقاومة، وأنهما عاشا بصورة شخصية ولادة وعذاب نمو جمهورية الصين الشعبية.

لا ينبع اختيار هذين الكاتبين من اعتبارات تعسفية أو من باب المصادفة، بل لأن السطور الافتتاحية في كتاب غاو شينغجيان « بلا لوازم ism » [إشارة إلى اللازمة التي تلحق بالكلمة في عدد من اللغات الأوروبية، وتكتب بالعربية إية: مثل الفردية، الإنسانية، الإشتراكية ..الخ] (١٩٩٣) تشير إلى مقالة ليو زايفو « وداع الآلهة » (١٩٩٠).

اشتهر غاو في الصين بعد عرض مسرحيتيه التجريبيتين « علامة الخطر » و « محطة الباص » في قاعات مكتظة بالحضور في بكين عامي ١٩٨٢ و١٩٨٣. لكن كون المسرحيات « تجريبية » لم يكن بالعذر الكافي، فقد منعت السلطات عرض « محطة الباص » التي أسماها نائب رئيس قسم الدعاية « أكثر مسرحية إثارة للسموم منذ تأسيس الجمهورية الشعبية ».

كان غاو في الواقع تحت المراقبة منذ عام ١٩٨١ بعد نشر كتابه « اكتشافات أولية في فن وتقنية الرواية الحديثة » الذي افتتح النقاش حول الحداثة في الأوساط الأدبية. ففي أوائل ١٩٨٣ تعرضت الحداثة لنقد رسمي يربط بينها وبين الرأسمالية والليبرالية البرجوازية. في هذا الجو، جو القلق الذي يعيشه الكتّاب بعد الثورة الثقافية، عُرضت « محطة الباص » وتوقفت. وفي تلك الظروف قرر غاو الفرار من بكين ليشرع في أوديسة مدتها عشرة أشهر في أعماق الصين، شكّلت نسيج روايته « جبل الروح ».

تمكن بواسطة الهرب من بكين من تفادي الهجمات الضارية التي شنت خلال حملة « تصفية التلوث الأخلاقي »، وفي الوقت نفسه حافظ على صحته الجسدية والعقلية. وفي عام ١٩٨٥ قبل دعوة لزيارة ألمانيا وفرنسا، وما عدا عودة قصيرة إلى الصين في عام ١٩٨٦، أقام غاو في باريس بصورة متواصلة منذ عام ١٩٨٧.

نجح غاو، بفضل معرفته للأدب واللغة الفرنسيين، في الانخراط في الأوساط الأدبية الفرنسية، وجرى تكريمه بوسام الفارس الفرنسي للفنون والآداب في عام ١٩٩٣ كاعتراف بإنجازه الأدبي. وتبين أعماله التي كتبها بعد استقراره في باريس قدرا كبيرا من النضج. لكن أعماله تثير النقاد الغربيين

الذين يتبنون الموقف « الاستشراقي » ويطالبون الدراما الصينية أن تبقى جامدة بلا تغيير للمحافظة على هويتها الصينية، وهي تزعجهم لأنها لا تشبه الدراما الصينية التقليدية.

يوحي عرض تلك المسرحيات للوهلة الأولى أنها دراما غربية حديثة، ورغم ذلك تبقى مميزة وأجنبية في نظر الجمهور الغربي، ومهما كانت الطريقة التي نصنف بها مسرحياته، المهم أن أعماله منذ استقراره في باريس تحظى بنجاح كبير في مسارح فرنسا وأوروبا. وحقيقة أن أعماله الإبداعية تتكون في معظمها من مسرحيات تُمثل على الخشبة، تفسر ضرورة إضافة جوانب أخرى تجعلها مفهومة من جانب الجمهور الغربي.

وقد نالت التقنيات الفردية والمفرطة في التجريب التي يوظفها في أعماله القبول والإعجاب في أوروبا، وتُرجمت إلى لغات مختلفة ليجري تمثيلها في المسرح. نشر المسرح الملكي السويدي في عام ١٩٩٤ ترجمة سويدية لعشر من مسرحياته، قام بها العالم المشهور غوران ماليكفست، بمناسبة اختيار غاو كاتبا للمسرح الملكي. ونالت روايته « جبل الروح » إعجاب نخبة القرّاء الصينيين (١٩٩٠) لكن القدر الأكبر من الإعجاب جاء من اوروبا بعد الطبعة السويدية لترجمة ماليكفست (١٩٩٢) ومؤخرا بعد الترجمة الفرنسية التي قام بها نويل وليليان دوتريت (١٩٩٥) التي اعقبها إطراء بالغ.

ويبدو أن غاو نجح في الحفاظ على حياة إبداعية مفيدة نال بفضلها الشهرة في الوسطين الصيني والأوروبي، كما موّل مشروعاته الأدبية بواسطة بيع لوحات يرسمها بالحبر الصيني الأسود، وتباع بأسعار مرتفعة في أروبا وتايوان.

النقيض الحاد لهذه الصورة هو ليو زايفو، المقيم في المنفى منذ أحداث ١٩٨٩. تعرّض زايفو، عندما كان مديرا لهيئة البحث الأدبي في أكاديمية العلوم الاجتماعية في بكين، ورئيسا لتحرير مجلة « النقد الأدبي » لهجوم عنيف من جانب السلطات، بفضل تحليله للذاتية في الأدب وشخصية الإنسان، كما فُرضت عليه الإقامة الجبرية لعدة أشهر في عام ١٩٨٥، وتسببت كتاباته النقدية عن الثقافة الصينية خلال الحركة الطلابية عام ١٩٨٩ في وضعه على القائمة السوداء، فغادر على مضض « الأرض الصفراء التي تحبني لكنها تخلّت عني ».

لم تكن حياة ليو في المنفى مريحة كحياة غاو، فقد عاش على معونة منح البحوث الأكاديمية (جامعات شيكاغو وكوليرادو وستوكهولهم) وعائدات كتاباته الغزيرة، لكن مقابلة اجراها مؤخرا مراسل من هونغ كونغ تُظهر لنا روحا غاضبة جرحتها تجارب شخصية وما زالت تعاني عذاب المنفي خارج بلادها. كما تؤكد كتاباته نفسها هذا الغضب، فبعد سنتين من العيش في المنفى يتذكر بصورة تفصيلية دقيقة ما ألحقته الثورة الثقافية من خراب بتلك الحدة اللاذعة التي تسم كتاباته:

« كانت الحياة مقرونة بالجوع والخوف، لكنها كانت مقرونة بالبربرية والجنون، أيضا. جيلنا كان مغرما بالقتال، ومدمنا على القتل. جيل تقع على عاتقه جرائم كثيرة، ينطوي كل قلب من قلوبنا على سفر للجرائم، وعلى لسعات السوط الذي نزل بالآخرين، وآخرين نزلوا بسياطهم في آخرين. لم يكن طعامنا الروحي خشنا وحسب، بل كان ممزوجا ببارود الكلمات الثورية، حتى أن أجسادنا انطوت على مواد لغوية سامة ورائحة البارود. بطوننا كانت متخمة بأفكار شائكة، لو لم نتخلص

منها بالقتل لاختنقنا ».

يعتقد ليو زايفو أن الفقر جعل الناس غلاظ القلوب، منحهم شجاعة ابتلاع الجرذان، وأشجار البتولا، وحتى لحم وأرواح بني جنسهم. منحت الغابة العذراء الكبيرة في قريته الأصلية الظل والحماية للناس على مدار أجيال، لكن القرويين جعلوها تربة حمراء.

هل يلومهم لأنهم قطعوا شجر الغابة، هل يلومهم لأنهم أرادوا البقاء على قيد الحياة؟ يعترف بأنه في عام ١٩٥٨ كان واحدا من النمل الأحمر الذي عرّى الجبل خلال أيام قليلة:

« تحوّل الجميع في تلك الأيام إلى شعراء وثوريين ونمل أحمر مسه الجنون.. أنا، أيضا، كنت نملة حمراء مسها الجنون أحمل راية حمراء على كتفي وأُنشد أناشيد الحرب».

لم تغب الدلالة الرمزية لصورة النمل الأحمر التدميرية والجبال الخضراء التي أصبحت حمراء عن أذهان النقاد في الصين، لذلك قالوا عنه « عاهر يبحث عن الطهارة ويتهجم على الأرض التي أنجبته ».

ومع ذلك، لا ينبغي القول أن النقّاد في الصين وحدهم يمارسون الضغط على الكاتب. فالظروف المحيطة بمسرحية غاو المكوّنة من فصلين « فرار » (١٩٩٠) مثال جيد.

تجري المسرحية في مستودع مهجور بعد صدور أمر للدبابات بالزحف إلى ميدان تيان آن مين يوم الرابع من حزيران عام ١٩٨٩. المسرحية باردة وساخرة، ولا أثر لبلاغة الحماسة فيها سواء تجاه المتظاهرين أو السلطات. يلجأ شاب وفتاة كانا في الميدان بين المتظاهرين إلى المستودع، ينجذبان إلى بعضهما البعض بفعل الظلام والخوف، رغم أن كليهما غريب بالنسبة للآخر.

يقطع الوصل بينهما وصول كهل تطارده السلطات، أيضا. يتكلم غاو من خلال تعليقات الرجل الساخرة. يخرج الشاب من المخزن، وتُسمع أصوات رصاص، يعتقد الكهل والفتاة أن الشاب قد مات. وتحت جنح الظلام تأخذ الشابة زمام المبادرة، فيمارسان الجنس، بعد مقاومة واهية من جانب الكهل.

هاجم أحد النقّاد في الصين المسرحية باعتبارها « عملا لا يتحلى بالمسؤولية « لكاتب في الخارج » لم يعش شخصيا أحداث الرابع من حزيران، كما يوصف سلوك البطل في المسرحية « بالمنحل ».

لكن الأسوأ من ذلك أن مجموعة الدراما الأميريكية التي طلبت من غاو كتابة المسرحية لم يعجبها غياب الطلاب الأبطال، وطلبت من الكاتب إجراء تعديلات. فقام غاو بدفع تكاليف الترجمة وسحب المخطوطة.

ثمة خط فاصل في نظر غاو بين الأدب والسياسة. الأدب مسألة تهتم بالفرد، الذات، بينما تهتم السياسة بالإرادة الجمعية ونكران الذات. وقد دفعته تلك الحادثة إلى نشر أفكاره في كتب « مذكرة موجزة من باريس » (١٩٩١) حول الإبداع الأدبي، في الأدب الصيني خاصة، و« أسطورة الشعب وجنون الفرد ». (١٩٩٣) و« بلا لوازم ism » (١٩٩٣).

حول موضوع الفصل بين الأدب والسياسة، يقدم كتاب ليو كانغ « الذاتية، الماركسية، والنظرية الأدبية في الصين » تحليلا فذا لفكرة ليو زايفو عن الذاتية في الأدب، وخاصة تأثير أفكار لي جيهو الجمالية على ليو زايفو، وعلى جيل كامل من المثقفين. ومع ذلك، يؤكد كانغ أن التركيز على الذات

في أدب ليو زايفو وآخرين رفع من شأن الذات لأسباب سياسية غير مباشرة، أي لغرض تعزيز الأنا.
ورغم أن النظريات مفيدة كأدوات في التحليل، إلا أن أدوات القياس التي تستخدمها تُسقط اختلاف الناس واختلاف الأزمنة، أحيانا: تحاول أداة القياس جعل الواقع ينسجم مع النموذج بصرف النظر عن الفرد موضوع الفحص. ويبدو أن وجهة نظر ذات نزعة جمعية جديدة يجري تأسيسها لتجاوز الأنا الفردي.

يتأمل غاو شينغجيان في « أسطورة الأمة وجنون الفرد » كيف أضرت الروح الوطنية بالتطور الأدبي في الصين في الأزمنة الحديثة. فمنذ فترة الرابع من مايو، اعتبر المثقفون الصينيون، بما فيهم الكتاب، أنفسهم ناطقين باسم الشعب، وبهذه الطريقة أنكروا حقوقهم كأفراد. فقد جعلت الروح الوطنية والقومية الصينية تحقيق حقوق الإنسان، والاعتراف بحركة الفكر خاصة، مسألة بالغة الصعوبة.

كان المثقفون الصينيون قادرين على معارضة النظام الأخلاقي التقليدي بشجاعة وكذلك سلطة البيروقراطية السياسية، لكنهم كانوا عاجزين عن مواجهة الخرافة الحديثة للأمة. تقوم هذه الخرافة في وعي قومي جمعي أكثر عمقا من الظاهرة الأخلاقية. وتعتمد في قوتها على غريزة البقاء البدائية. فبعد انهيار النظام الإقطاعي الإمبراطوري، تحوّلت الأخلاق الإقطاعية القائمة على الولاء للحاكم إلى روح وطنية قومية مصابة بمس معنوي وأخلاقي.

وفي تحليله لتطوّر الأحداث في الصين في عهد دينغ شياوبينغ، يرى غاو أن تراخي قبضة السيطرة على الأدب معناه فوز المثقفين الصينيين بقدر محدود من الفضاء. وفي سياق كفاحهم من أجل الديمقراطية، وانعتاق الفرد، ووعي الذات، عاد المثقفون الصينيون إلى الواجهة مرّة أخرى. ويرى أن فلسفة نيتشه عن الرجل الأعلى والمشاعر الرومانسية لتخليص العالم تصل إلى إحدى الذرى العالية في ممارسة المثقفين الصينيين لدورهم التاريخي كأبطال للشعب أو شهداء.

لا يعارض غاو انخراط المثقفين في السياسة بل يحيل المشاركة السياسية إلى حق الاختيار الفردي. فإذا انخرط جميع المثقفين الصينيين في السياسة سيكون مصيرهم، آنذاك، نفس مصير المثقفين خلال فترة الرابع من مايو، أي الانتحار الجماعي. وبينما يعبر عن تقدير عميق للعديد من المثقفين الذين ضحوا بحياتهم من أجل الشعب ومن أجل رفاهيته، ويتعاطف أيضا مع الذين دخلوا السياسة وضحوا بهذه الطريقة بحيواتهم الأكاديمية والإبداعية.

من سوء حظ الأدب أن الكاتب لو شوم سحق حتى الموت على يد السياسي لو شوم. من الواضح بالنسبة للو شو أن الأمر لم يكن من قبيل سوء الحظ بالضرورة، لكنه ربما كان مصدرا للندم.

ككاتب مبدع يرى غاو شينغجيان خيارا واحدا فقط، الفرار. في مواجهة السلطة، والرأي العام، والمواعظ الأخلاقية، ومنافع الحزب والجماعة، للحفاظ على الجدوى الشخصية، والتماسك الشخصي، والاستقلالية الفكرية، أي الحرية، ليس للفرد من خيار سوى الهرب. بالهرب، فقط، يستطيع الإنسان الحفاظ على تماسك الذات واستقلاليتها. البديل إما التعفن، أو السحق بواسطة نقد الجماهير، الغرق والانجراف مع الموج، أو معاناة العذاب حتى آخر العمر من المجد الفارغ، في غربة عن كل ما تعنيه الذات.

تتردد فكرة الهرب باستمرار في أعمال غاو شينغجيان. فهي ما يقترحه من حل على الفرد المحاط بالجموع، حتى لو كانت مجرد شخصين. الصفحات الستمائة وخمسون في روايته جبل الروح تتيح له فحص العديد من جوانب معنى أن يكون الإنسان محاطا بالناس، أما في مسرحية « فرار » الموصوفة سابقا فيجرى تصوير هذا الأمر ببراعة. ظهرت الأحداث المأساوية لتيان آن مين أمام العالم على شاشات التلفزيون يوما بعد يوم، تمثل تلك الصور إلى جانب الخلفية المذكورة في المسرحية بعدا اضافياً للقرّاء الذين كانوا في الميدان في ذلك الوقت. تنجح هذه المسرحية القصيرة المكوّنة من فصل واحد في تفحص الجوانب المختلفة للسلوك الإنساني، لكن العلاقة بين الفرد والجماعة هي ما يهم البحث الحالي. يقول الرجل الكهل أن يذهب الإنسان إلى الهجوم دون فهم لاستراتيجيات التنظيم والتراجع، يحتم عليه ألا ينخرط في السياسة، وإلا سيكون مجرد ضحية في المغامرة. ينتقده الشاب بعنف لأنه لم يتحول إلى قائد طالما يستطيع التنبؤ بكل هذه الأشياء. وهذا جوابه البسيط:

الكهل: « قلت لك من قبل بأنني مجرد متفرج، أمر أحيانا قرب الأحداث، وفي أحيان أخرى أجد نفسي منجرفا في أشياء. تجتاحنى المشاعر، وأحيانا أتكلم. هذا كل ما في الأمر. لدى أشيائي الخاصة، أنا مريض من السياسة منذ وقت طويل، لا أملك مواهب القائد، ولا تتملكني رغبة أن أكون كذلك. ثمة الكثير من القادة، وأخشى توسيخ يديّ ».

يرى الشاب نفسه بوضوح في وضع بطولي ويتهم الكهل (صادقا) بأنه ليس عضوا في الحركة من أجل الديمقراطية، وأنه مجرد متفرج. يستعرض الشاب أمام الشابة، الأكثر ميلا من ناحية فكرية لما يقوله الكهل (التي تنجذب إلى الكهل جسديا، أيضا، بفعل ظروف الظلام والخوف من الموت).

الشابة : وإذا كان مجرد متفرّج ؟ ألسنا مطاردين ؟

الكهل : تمام. الهرب من مطاردين مصيرك، ومصيري، ومصيره أيضا. الهرب من المطاردة قدر الجنس البشري.

وفي حين يواصل الكهل الكلام عن رغبته في ألا يكون مجرد بيدق في لعبة، أو ضحية استغلال من أحد، وأن السبب إصراره على حريته في الفعل، لذلك اختار الهرب، يصبح الشاب عدوانيا ويتهم الكهل (صادقا) بالتهرّب من الحركة من أجل الديمقراطية. يكون جواب الكهل أنه يتجنب جميع المواقف التي تنطوي على ما يسمى الإرادة الجمعية. هذا بدوره يُغضب الشاب: ولكن ماذا عن الأمة والشعب، هل تكتفي بالفرجة بينما الأمة والشعب يتعرضان للتدمير ؟

الكهل: أي أمة ؟ أمة مُن ؟ هل تأخذ على عاتقها المسؤولية عني وعنك ؟ ولماذا أحمل مسؤولية تجاهها ؟ مسؤوليتي تجاه نفسي فقط.

الكهل: أنقذُ نفسي، فقط. إذا تحطّم العرق فإنه يستحق ما أصابه، أليس ذلك ما تحاول جري للاعتراف به ؟ ما هي أسئلتك الأخرى ؟هل انتهي التحقيق ؟.

تترك تلك الأسئلة الشاب في حيرة من أمره. السؤال الضمني: أليس ما يفعله نوع من الملاحقة والاعتداء على حقوق الفرد ؟ أليس هذا موضوع مظاهرات الحركة من أجل الديمقراطية ؟

في « بلا إيّات » يجرى نقاش معمّق للصراع بين إرادة الفرد وإرادة الجماعة، وما يعنيه الأمر بالنسبة

للكاتب، وقد كان الصراع موضوع محاضرة غاو في مؤتمر للأدب الصيني خلال ٤٠ سنة، عقد في تايبه. فقد لاحظ أن مبدأ لو شون « لربط جميع الأشياء بلازمة ism » ليس مسألة سيئة في حد ذاتها، بقدر ما يتعلق الأمر بالأفكار الغربية، لكن الكتاب الصينيين بالغوا كثيرا في استحضار كل لازمة أوروبية معروفة. فلا حاجة للسير في الطرق نفسها التي سار عليها الأدب الغربي: ما أن يُذوّت الكاتب اللازمة ism لا تعود كما كانت في الأصل. لذا من غير المجدي نقاش اللازمة أكثر من ذلك أو الإصرار على « رفع يافطات الآخرين على أكتافنا ».

مرّة أخرى، تلك خلاصات استمدها غاو من تجاربه الشخصية. لذلك، سمي « بالحداثي » في عام ١٩٨١ بعد نشر « اكتشافات اولية في فن وتقنية الرواية الحديثة » وبصاحب مسرح العبث عام ١٩٨٣ مع ظهور « محطة الباص » و « بالفطري » عام ١٩٨٥ بعد « الرجل البرّي » و « بالرجعي » عام ١٩٩٠ بعد « فرار ». لكنه يرفض كل تلك التسميات، ويعلن عدم التزامه بأي لازمة ism مهما كانت، سواء في الأدب أو السياسة.

« في الوقت الراهن لتحلل الأيديولوجيا، يصبح التساؤل، بالنسبة للفرد، الموقف الوحيد الممكن للحفاظ على استقلاليته الروحية. هذا، أيضا، موقفي تجاه الأشياء التي تنال الكثير من الإعجاب والموضة ـ الحركات الجماهيرية والذائقة الشعبية ـ مثلها في تجربتي مثل ما يعرف بالذات، لا تستحق العبادة، ولا تستحق المعتقدات الخرافية، بالتاكيد ».

وككاتب يعيش في المنفى، يرى غاو أن وسيلته الوحيدة للخلاص الذاتي، هي الفن والخلق الأدبي. ذلك لا يعني تحوّله إلى مدافع عن الأدب الصافي الذي يدعوه « بالبرج العاجي المنفصل تماما عن المجتمع ». فالإبداع الأدبي في نظره تحدى وجود الفرد للمجتمع. أهمية التحدي قليلة الأهمية، فما يهم هو الموقف.

ويعترف غاو أن الأدب يستطيع تحقيق الحرية عندما يفصل نفسه عن اعتبارات المكاسب المادية. الحرية رفاهية إنسانية بعد تلبية الحاجات الأساسية من أجل البقاء، ووجود الحاجة للأدب مصدر فخر للكاتب والقارئ. تلك هي الطبيعة الاجتماعية للأدب. الأدب، في نظره، يوّسع الأفق، ينتقد، يتحدى، يقلب أشياء، ويتجاوز. لكن حصر الأدب في الإطار الضيق لسلسة من الوظائف السياسية، أو القواعد الأخلاقية، وتحويله إلى دعاية سياسية، وتعليمات أخلاقية، وحتى إلى سلاح ضد الأحزاب السياسية المنافسة، كان من سوء حظ الأدب. لم يتمكن أدب الصين الشعبية من تحرير نفسه بعد. فمنذ بداية القرن العشرين مزّقت الصراعات السياسية الأدب الصيني. وفي الوقت الحاضر يتمكن الكتّاب الصينيون، للمرة الأولى، من النطق بأصواتهم الخاصة.

« الأدب من حيث الجوهر مسألة شخصية وفردية تماما. المهم ألا يُقحم نفسه على آخرين، وألا يقبل بقيود تفرض عليه، بصرف النظر عما تتسمى به تلك التقييدات من أسماء، سواء كانت أسماء أمة أو حزب أو عرق أو شعب. ففي تمكين تلك الإرادات الجمعية المجرّدة من وسائل القوة ما يعني موت الأدب ».

وكما ذكرنا من قبل، يفتتح غاو كتابه « بلا لوازم » مشيرا إلى عبارة لليو زايفو في « وداع الآلهة »

أن الوقت قد حان لخروج الأدب الصيني من ظلال الآخرين، وتوديع الآلهة. ويعقب ليو زايفو أن النقد الأدبي الصيني الحديث، الذي كان مثاليا وتقدميا، أخلى مكانه لحالة تتسم بالفقر والعبث والحيرة، وذلك لأن المدارس النقدية المختلفة في القرن العشرين، منذ دراسات ليانغ كيتشاو عن الرواية في نهاية القرن التاسع عشر وحتى دراسات هو شي وزاو زورين في فترة الرابع من مايو كانت « مسروقة » من الخارج. يعترف زايفو أن هذا القول يبدو جارحا، لكنه يصر على اعتباره السبب الحقيقي، ويستشهد بمقالتي لو شون « ترجمات صعبة » و« الطبيعة الطبقية للأدب » لتبرير استخدامه لكلمة « مسروق ».

« يقارن الناس عادة الثوري بشخصية بروميثيوس الأسطورية، الذي لم يشعر بالندم، لأنه سرق النار من أجل الناس، عندما عذّبه إله السماء. تتساوى الشخصيتان من حيث التصميم، ومع ذلك عندما نسرق النار من بلدان أخرى، نستهدف طهي لحمنا الخاص، معتقدين أن إمكانية تحسين الطعم ستفيد آكل الطعام، ونحن من جانبنا، بدرجة اقل، بددنا أجسادنا بلا جدوى ».

يؤكد ليو زايفو أن لو شون كان رجلا نزيها اعترف « بسرقته للنار »، كما يعترف أن أعمال السرقة الأولى كانت تستهدف تنوير الناس. ورغم انطواء الأمر على سرقة، إلا أن الغرض كان شريفا. لكن « السارقين » في وقت لاحق « سرقوا القشر » واستخدموا مختلف اللوازم ism الأجنبية لتزيين وجوههم بما يمكنهم من إخافة الناس. يالها من نتيجة عبثية ومضحكة.

يلاحظ ليو، أيضا، أن السجالات الأدبية في الصين، كانت ما جرى من عراك في البلدان الأخرى: سواء بين أفلاطون وأرسطو، أو زولا وهوغو، أو تشيرنيشفسكي وفرويد. وهي في الواقع ليست سجالات أكاديمية صينية أصيلة. لم تجر تعديلات إبداعية على تلك النظريات الأدبية الأجنبية لأن الصينيين يفتقرون إلى لغتهم النظرية الخاصة لممارسة تفكيك مستقل لتلك النظريات، وهم يفتقرون حتى إلى الموضوعات التي تخصهم والسرديات المناسبة لتلك النظريات.

« بعبارة أخرى، عاشت النظريات الأدبية الصينية لمدة قرن فعليا في ظلال الآخرين، وتاهت في سجون مفاهيم ومحددات أشخاص آخرين. نالت وجودية سارتر فترة من الشعبية في الصين لأن الناس أحبوا مفهومها عن « الآخر سجن الأنا » ».

يكشف هذا الوضع، كما يقول زايفو « ظاهرة نفسية أساسية في صين القرن العشرين: يشترك المثقفون الصينيون في القرن الحاضر، بما فيهم الكتّاب والمنظرون، في فكرة مفادها أنهم يعيشون في السجون الكلية القدرة للآخرين. لذلك « الخروج من سجن الآخرين » من إهم أهداف الأدب الصيني في نهاية القرن العشرين. ويلاحظ أن العديد من كتّاب الصين الشعبية عبروا طقس « وداع الآلهة » الذي يعني التخلص من الأنماط السلوكية والسلوكية السائدة في أواسط القرن، التي جرى دمجها في القلب والعقل.

وداع الآلهة يعني أولا،

وداع إله الثورة، أي التمرد على طغيان الأعمدة السماوية. طغيان استخدام منهج التحليل الطبقي للعثور على « حلول أساسية » للمشاكل الاجتماعية، بما فيها المشاكل الثقافية. وفي النظرية الأدبية استخدام مفاهيم الصراع الطبقي الخشنة والفجة لفهم الأدب، ولتدمير الأدب.

ثانيا، وداع الإله الذي « يرتق السماء » أي الذي يرتق القوانين القديمة. تجلى هذا الأمر في النظرية الأدبية من خلال استحضار الصيغ الأساسية « المسروقة » من كتب نصوص النظرية الأدبية لروسيا السوفياتية، وترقيعها لتصبح صالحة للاستخدام.

ثالثا، وداع بروميثيوس، سارق النار، الذي تسبب في دعم كثير من اللوازم ism لحل المشاكل. تجلى هذا الأمر في النظرية الأدبية من خلال النظر إلى أيديولوجيات سياسية وأدبية مستوردة كأدوات للخلاص.

كما يؤكد ليو أن نقّاد الأدب الصينيين قد أدركوا بالفعل أن الأباطرة الروحيين في صين القرن العشرين هم من صنع الأجانب، بعضهم من الألمان وبعضهم من الروس. يصدق الأمر نفسه على النظرية الأدبية، فالأباطرة من الروس والألمان، لكن بعضهم مصنوع في فرنسا وأميركا، أيضا. تسبب هذا الوضع في حرمان النظرية الأدبية الصينية من الطاقة الإبداعية والنتيجة هي ذلك النقاش للأدب الذي غالبا ما يكون نقاشا لمشاكل آخرين. فتلك النقاشات « مستنسخة » عن الأصل. لذلك، دعوة ليو لتوديع الآلهة، هي دعوة للتوقف عن العيش في ظل آلهة شعوب أخرى، والعيش بدلا من ذلك في كينونة مستقلة تتجاوز الالهة المذكورة. بهذه الطريقة يمكن « المبادرة بطرح » أشياء و« نقاش مشاكلنا الخاصة ». هكذا يكتب ليو بقناعة وتفاؤل عن الأدب الصيني:

« في مستقبلنا سنتعلم بفعالية بالتأكيد ونستوعب إنجازات الجنس البشري، ولكن لا أعتقد أن من الممكن بعد الآن خضوعنا لأباطرة روحيين صنعهم الناس في بلدان أخرى ».

بلوّر ليو زايفو أفكاره حول « الخروج من سجون الآخرين » في وقت لاحق، ففي نقاشاته الطويلة مع لي زيهو، التي نشرت مؤخرا بعنوان « وداع الثورة » (١٩٩٥) يصر على الذاتية في الأدب وعلى فصل الأدب عن السياسة. وإذا لم يكن قد تخلى عن مبادئه العامة، وأعتقد أنه لم يفعل، فهذا يعني أنه اختار أن يلزم نفسه بالسياسة، وأن يقلل من الوقت المكرّس للكتابة الإبداعية. من الواضح أنه خرج من سجون الآخرين من خلال رفضه لما يقدمه الغرب من حلول لمشاكل الصين، ولكنه اختار - من ناحية اخرى - الدخول الطوعي في السجن الذي يفرضه المثقف الصيني التقليدي على نفسه لممارسة دوره السياسي في المجتمع. ولن يتمكن زايفو إلا في تلك اللحظات العابرة التي يكرسها للكتابة الإبداعية من تحقيق الحرية الشخصية في الأدب.

مختارات
مختارات
مختارات

فرناندو بيسوا
كتاب اللاطمأنينة

(مقاطع)

لم تظهر الطبعة الكاملة لكتاب الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا «كتاب اللاطمأنينة» إلا عام ١٩٨٢. لم يتعد ما نشر منه، من قبل، بعض المقاطع والشذرات. ويبدو من خلال دراسات وتحقيقات المختصين أن بيسوا شرع في كتابة هذه اليوميات حوالى عام ١٩١٤ واستمر فيها حتى قبيل وفاته بأسابيع قليلة. ولا شكَّ في أن تأخر صدور الكتاب في طبعته «الكاملة» يعود إلى الصعوبات متعدّدة المستويات التي واجهها المحققون المختصون في تصنيف وترتيب نصوص الكتاب، الذي وُجِد موزعاً على تسعة أغلفة، وخالياً تقريباً من أيِّ ترقيم أو عنونة أو تنظيم، بالإضافة إلى غموض الخطّ وكثرة التشطيبات والبياضات.

وقد سبق بيسوا أن نشر بعض المقاطع في حياته، في مجلتين أو ثلاث، وبخاصة في مجلة «حضور»، موقعة باسمه ومنسوبة إلى برنارد سوارش الذي اختلف دارسو أدب بيسوا بشأنه، فمنهم من اعتبره نديداً لبيسوا، ومنهم مَنْ عدّه نصف نديد، فيما ذهب آخرون إلى اعتباره مجرد اسم مستعار.

عليَّ أن أشير إلى أن الترجمة الإسبانية للكتاب ظهرت كاملة للمرة الأولى عام ١٩٨٥، وقد أنجزها الشاعر الإسباني **Angel Crispo**. وبلغ عدد الطبعات تسع عشرة طبعة حتى عام ١٩٩٨.

المترجم

فصل أول

عندما جاء الجيل الذي أنتمي إليه إلى الوجود لم يجد أي سند عقلي أو روحي. ذلك أن العمل الهدام الذي قامت به الأجيال السابقة لنا، جعل العالم الذي ولدنا فيه مفتقراً إلى الأمان الديني، وإلى الدعم الأخلاقي، وإلى الاستقرار السياسي. لقد ولدنا إذن في أوج القلق الميتافيزيقي، في أوج القلق الروحي، وفي أوج اللاطمأنينة السياسية. الأجيال التي سبقتنا لجأت. مُتْخَمةً بالصيغ الخارجية،

وبالمسائل البحتة للعقل والعلم، إلى الإطاحة بأسُس الإيمان المسيحي كافّة، لأن نقدها للكتاب المقدس، بانتقاله من نقد النصوص إلى النقد الميثولوجي، حَوَّلَ الأناجيل والعهد القديم لليهود إلى ركام مشكوك فيه من الأساطير والخرافات ومن الأدب المحض؛ أما نقدها العلمي فقد دَلَّ بالتدرج على الأخطاء وعلى السذاجات الهمجية لـ «العلم» البدائي للأناجيل؛ وفي الوقت نفسه فإن حرية الجدل التي أخرجت إلى النقاش العلني سائر المعضلات الميتافيزيقية، سحبت معها أيضاً كل القضايا والمشكلات الدينية المنتمية إلى الميتافيزيقا. لقد انتقدت تلك الأجيال، ثَمِلةً ومُتيَّمةً بما أسمته «الوضعية» الأخلاقيات كُلَّها وقلبت كافة قواعد الحياة. ومن صدمة تلك المعتقدات لم يبق سوى يقين زوالها بالكامل. إن مجتمعاً مُقوَّضاً في نظامه وأسسه الثقافية لم يكن بقادر على أن يكون شيئاً آخر بالطبع، سوى ضحية، للانظامية تلك؛ وكذلك جرت الأمور كما لو أننا أيقظنا عالماً متعطشاً إلى الجديد الإجتماعي. سيمضي ذلك الجيل مبتهجاً بتحقيق حرية لم يعرف كنهها، وتقدم لم يتمكن قط من تحديد ماهيته.

لكن، إذا كان النقد الابتذالي لآبائنا قد أورثنا استحالة أن نكون مسيحيين، فإنه لم يورثنا، بالمقابل، الرضى بذلك. إذا كان قد أورثنا عدم الإيمان بالصيغ الأخلاقية المتحققة، فإنه لم يورثنا اللامبالاة تجاه الأخلاق وتجاه قواعد العيش الإنساني؛ إذا كان قد ترك المشكل السياسي بدون حل، فهو لم يدع روحنا لامبالية إزاء كيفية حل ذلك المشكل.

لقد قوّض آباؤنا ما قوضوا بفرح لأنهم عاشوا في لحظة كانت ما تزال محتفظة بانعكاسات من صلابة الماضي، الذي أطاحوا منه بما يهب المجتمع القوة حتى يتمكنوا من الهدم دون أن يشعروا بتشققات البناء. نحن إنما ورثنا الهدم ومخلفاته.

عالم اليوم هو عالم البلهاء وعديمي الإحساس والمهيجين. الحق في العيش وفي النجاح يتم اليوم بنفس المبررات التي يتم بها الحجز في مصحات الأمراض العقلية...

سلالة النهاية

أنتمي إلى جيل ورث الارتياب تجاه الإيمان المسيحي خالقاً في ذاته الكفر بكل أنواع الإيمان. آباؤنا ما زالوا يمتلكون الباعث الإيماني الذي نقلوه من المسيحية إلى أشكال أخرى من الوهم. بعضهم كان من المتحمسين للمساواة الإجتماعية. بعض منهم اقتصر على عشق الجمال لذاته. بعض آخر أودع إيمانه في العلم ومنافعه. وثمة آخرون، أكثر مسيحية، مضوا يبحثون في مشارق الأرض ومغاربها عن أشكال تدينية أخرى لتلهية الوعي الذي سيغدو مجوفاً بدونها في تجربة العيش الخالص. هذا كله فقدناه نحن، ومن كل هذه التعزيات والبلاسم وُلِدْنا يتامى. كل حضارة تتبع الخط الخاص للدين الذي يمثلها: الانتقال إلى أديان أخرى يؤدي إلى إضاعة هذا الدين، وإلى إضاعة الأديان كلها في النهاية.

أما نحن فقد فقدنا هذا الدين منذ البداية، ومعه الأديان الأخرى بدورها، وانتهينا إلى الاستسلام لذواتنا الفردية، داخل وحشية الإحساس بالحياة. إن المَرْكَب، أي مركب هو أداةٌ هَدَفُها الإبحار. بيد أن الغاية الفعلية ليست هي الإبحار، وإنما الوصول إلى ميناء. نحن وجدنا أنفسنا مبحرين، فاقدين

لفكرة الميناء الذي علينا أن نرسو فيه. وهكذا أنجبنا، داخل الجنس الإنساني الموجوع، الوصفة المغامرة للأبطال الأسطوريين: الإبحار ضرورة، العيش لا.

بلا أوهام نعيش بالكاد من الحلم الذي هُو وَهْمُ من لا قدرة له على امتلاك الأوهام. وباقتياتنا من ذواتنا نزداد ضآلة، لأن الإنسان الكامل هو الإنسان المتجاهَل. وبافتقادنا للإيمان أصبحنا نعيش دون أمل. وبفقداننا الأمل لم تعد حَيَاتُنا نحن هذه التي نحياها. ومع افتقارنا لأية فكرة عن المستقبل أصبحنا فاقدين لأية فكرة عن الحاضر. لأن الحاضر، بالنسبة إلى رجل الفعل ليس سوى مدخل للمستقبل. مَعَنَا مَيْتةً وُلِدتْ طاقةُ الكفاح، لأننا ولدنا محرومين من حماسة الصراع. البعض منا سجنوا أنفسهم في مجرد امتلاك ما هو يومي، مبتذلين صغاراً يلهثون وراء خبز كل يوم، راغبين في الحصول عليه دون فعل محسوس، دون الوعي بالمجهود المبذول، دون نبالة ما يُنَال. آخرون من طينة أفضل: انسحبوا أو لنقل انسحبنا من الانشغال بالشأن العمومي، دون أن نرغب في شيء ولا أن نطمح إلى شيء، محاولين حمل صليب وجودنا إلى جلجلة النسيان، مجهود لا طائل وراءه بالنسبة إلى من لا يملك، مثل حامل الصليب، محركاً إلهياً داخل وعيه.

آخرون استسلموا، بانشغالهم بما يقع خارج الروح، للصخب والفوضى. يحسبون أنهم يحيون إذ يتبادلون الإنصات. ويحسبون أنهم يجربون الحب عندما يقعون في قشوره. يؤلمنا العيش لأننا نعلم أننا نعيش؛ الموت لا يخيفنا، لأننا فقدنا المفهوم المعتاد عن الموت.

غير أن آخرين من سلالة النهاية، الحد الروحي للساعة الميتة، لم يمتلكوا قسمة الرفض ولا الملاذ في ذواتهم، ما عاشوه عاشوه في النفي والإنكار والغم. لكننا عشناه من الداخل، بلا إشارات منبهة، محبوسين دائماً، على الأقل فيما يتعلق بنوع الحياة، بين الجدران الأربعة للغرفة والجدران الأربعة لانعدام المعرفة بالفعل.

لو كان العالم ملك يدي

رابط الجأش، أواجه حبسي الدائم لحياتي في شارع Los Doradores [1] هذا، في نفس هذا المكتب، بين هؤلاء الناس. حيث أعيش بالقليل المتاح لي، وحيث المحدود من الفضاء الحر المتاح في الزمن لي كيما أحلم، أكتب ـ أنام ـ، وما الذي بإمكاني أن ألتمسه أنا من الآلهة أو أتوقعه من القدر؟

كانت لديّ طموحات كبيرة وأحلام واسعة، لكن الحَمَّال ومتعلمة الخياطة كذلك كانت لديهما نفس الأحلام. لأن الأحلام مشاع للجميع: ما يجعلنا متمايزين هو القدرة على تحقيقها أو قدرة تحققها فينا. في الحلم نحن سواء متعلمة الخياطة والحمال وأنا، ما يميزني عنهما هو معرفتي بالكتابة التي هي فعل خاص بي. على مستوى الروح نحن سواء. حسناً أعرف أن هناك جزراً في الجنوب وعشقيات كونية كبيرة و [2].

لو كان العالم ملك يدي لغيرته، وأنا متيقن، مقابل تذكرة شارع Los Doradores.

ربما كان مقيضاً لي أن أظل محاسباً إلى الأبد. أما الأدب والشعر فهما بمثابة فراشة كلما كانت

أجمل وأبهى بَدَوْتُ أكثر إثارة للسخرية بفعل حومانها فوق رأسي.

سأحس بكل اشتياقات Moriera [٣]؛ لكن ما الذي تعنيه الاشتياقات أمام المعارج الكبرى؟.

أعلم جيداً أن اليوم الذي سأغدو فيه محاسباً [٤] في إدارة فاسكيز سيكون من الأيام الجيدة في حياتي. أعلم ذلك بتكهن استباقي مرير وتهكمي لكنني أعلمه بالامتياز العقلي لليقين.

حديث النثر

أُفضِّل النثر على الشعر، كشكل من أشكال الفن لسببين: الأول شخصي خاص وهو أنني غير قادر على الاختيار، وإذن فأنا عاجز عن كتابة الشعر. السبب الثاني عام، وهو ليس - أعتقد ذلك حقاً - ظلاً أو قناعاً للأول، ... إنه يمس المفهوم الخاص لقيمة الفن بكاملها.

أعتبر الشعر شيئاً وسيطاً، خطوة من الموسيقى باتجاه النثر. الشعر، مثل الموسيقى، محكوم بقوانين إيقاعية محددة، وحتى لو لم تكن من نمط القوانين الصارمة للشعر المنظوم، فهي قائمة، مع ذلك، كدفاعات، كإكراهات، كأجهزة أوتوماتيكية للضغط والعقاب. في النثر نحن نتحدث أحراراً. بإمكاننا أن نضمن إيقاعات شعرية، وأن نوجد خارجها، مع ذلك. إن تسرب إيقاع شعري معين بصفة عرضية إلى النثر لا يعوق النثر؛ لكن تسرب إيقاع نثري عرضاً إلى الشعر يفسد الشعر.

الفن كله متضمن في النثر. من جهة لأنه في الكلمة، الكلمة الحرة يتركز العالم بكامله. ومن جهة ثانية لأنه في الكلمة الحرة توجد الإمكانية الكاملة لكي نعبر عن العالم ونفكر فيه في آن. في النثر نمنحه كل شيء، بواسطة التحويل: نمنحه اللون والشكل اللذين ليس بمقدور الرسم منحه إياهما إلا على نحو مباشر، وبدون أي بعد حميم؛ ونمنحه الإيقاع الذي لا تمنحه الموسيقى إلا مباشرة أيضاً، ودون شكل مُجَسْدَن، ومجرّداً من ذلك الجسد الثاني الذي هو الفكرة؛ ونمنحه البنية التي إذا كان على المعماري أن يشكلها من مواد صلبة، معطاة وخارجية فإننا نصنعها من إيقاعات وترديدات من متتاليات وانسيابات؛ ثم نمنحه الواقعية التي على المَثَّال أن يخلقها في العالم بلا ليونة ولا استحالة؛ وأخيراً نمنحه الشعر، الشعر الذي دور الشاعر فيه شبيه بدور المبتدئ في محفل سري، هو عبد، وإن طوعاً، لمقامات وطقوس معينة.

إنني على يقين من أنه، في عالم متحضر تماماً، لن يوجد فن آخر غير النثر.

سوف نترك الغروب للغروب، معتنين بالفن وحده، مستوعبينه شفوياً، ناقلينه هكذا بواسطة موسيقى تفهم بالقلب. لن نصنع نحتاً للأجساد التي ستحتفظ، مرئية وممسوسة، برونقها متحركاً وبرودتها ناعمة. سننشئ بيوتاً، فقط لنقيم فيها، وهو ما من أجله وجدت البيوت في النهاية. أما الشعر فسيبقى ليقرب الأطفال من النثر المستقبلي، لأن الشعر، بالفعل، طفولي وأولي وتحضيري.

حتى الفنون الدنيا، أو تلك التي يمكن تسميتها كذلك، تظهر وشوشاتها في النثر. ثمة نثر يرقص، نثر يغني، نثر ينشد بذاته لذاته. ثمة إيقاعات شفهية هي بحدّ ذاتها رقصات تتعرى فيها الفكرة ملتوية بشهوية وحسوية نصف شفافة ومتقنة، ثمت في النثر أيضاً خبايا مرتعشة. يبث فيها ممثل كبير هو الفعل، بجوهره المُجَسْدَن، عبر الإيقاع، سرَّ الكون المتعذر على الإدراك المحسوس.

شهوة الكلمات

يحلو لي التلاعب بالكلمات. إنها بالنسبة إليّ أجساد يمكن لمسها، حوريات مرئيات، شهويات لا ماديات. ذلك لأن الشهوة الفعلية لا تستثير أي اهتمام لديّ. سواء في الواقع أو في الأحلام، لقد استَعضْتُ عنها بِمَا يُولِّدُ الإيقاعات الشفوية لَديَّ أو الرغبة في الإنصات إلى تجسُّدها عند الآخرين، بحيث تتولد الرعشة فِيَّ عندما يَتِمُّ التلفظ بها بإتقان. من ذلك مثلاً أن قراءة صفحة لـ FIALHO [٥]. أو لشاتوبريان من شأنها أن تُصيبَ شراييني بالتَّنَمُّل مُسبِّبةً لي ألماً شديداً مصحوباً بقشعريرة داخلية هادئة بفعل المتعة الغالية التي أجنيها من هذه القراءة.

كما أن صفحة من صفحات Vieira [٦] بإتقانها البارد ذي الهندسة النحوية تحملني على الارتعاش ارتعاشة غصن إزاء الريح في هذيان مُنْصاع لشيء نوّاس.

ومثل كل العشاق الكبار أعشق حلاوة الانفقاد في ذاتي نفسها، حيث متعة الاستسلام كاملةً تُعاش. هكذا أكتب، أحايين كثيرة، بدون رغبة في التفكير في أي هذيان خارجي، مُسْلِماً أمري للكلمات تصنع احتفالاتها بي، مثل طفل صغير في حضنه الأليف، جمل لا معنى لها تجري ناعمة جريان مياه محسوسة، جداول غفل، حيث الموجات تختلط لا مُتعينة متحوّلةً باستمرار إلى غير ما كانته.. كذلك الأفكار، الصور، رعشات التعبير، من خلالي تمرُّ، بمغازلات صائتة لتموجات حريرية خافتة. حيثُ مُبْهماً يهتزُّ الصَّفاء القمريُّ للأفكار.

مَا تَسْلُبني إيَّاهُ الحياة وما تهبني لا يعنيني ولا يبكيني. بالمقابل لطالما أبكتني بضع صفحات من النثر. أتذكر، كما لو كنت أرى ذلك بعيني الآن، في تلك الليلة، طفلاً كنت ما أزال حينما قرأت، للمرة الأولى، في إحدى المختارات ما أورده Vieira بخصوص الملك سليمان:

«صنع سليمان قصراً..». وواصلت القراءة، حتى النهاية، مرتعشاً، متحيراً كيما أنخرط في بكاء سعيد مديد، لم ولن يكون بمقدور أي سعادة واقعية أن توفره لي، ولا أي حزن من أحزان الحياة أن يدفعني إلى تقليده.

تلك الحركة الكهنوتية للغتنا الواضحة المهيبة. ذلك التعبير عن الأفكار في الكلمات اللاّمناصّ منها. ذلك الجريان المائي بفعل انحدار المجرى، ذلك الانخطاف الصوتي حيث الأصوات ألوان ذهنية؛ ذلك كله كان يسكرني غريزياً كما لو باهتياج سياسي هائل. لذلك بكيت؛ واليوم، إذ أتذكر، أبكي، لا حنيناً - لا - إلى الطفولة التي ليس لديَّ أي حنين إليها : بل هو الحنين العاطفي إلى تلك اللحظة، والحزن المتولد عن العجز عن قراءة ذلك التأكيد السنفوني.

لا أملك اي نوع من المشاعر السياسية أو الإجتماعية إلا أنني أملك، بمعنى من المعاني، شعوراً وطنياً عالياً جداً. أما وطني فهو اللغة البرتغالية. ولن يحزنني أن تُجْتاحَ البرتغال أو تُحتلَّ، طالما لم يصبني الأذى شخصياً. لكنني أشعر بكراهية حقيقية، هي الكراهية الوحيدة التي أستشعرها إزاء، لا من يكتب البرتغالية سيئاً، ولا من يجهل النحو، ولا من يكتب وفق قواعد إملائية مبسطة، وإنما نحو الصفحة المكتوبة بشكل سيء، كما لو كان شعوراً بالكراهية نحو شخص بعينه. أكره النحو المستعمل

مغلوطاً كراهيتي لأشخاص يتوجب صفعهم، أكره الاستعمال اللا مضبوط لقواعد الإملاء، كما لو أن الأمر يتعلق ببصقة مباشرة.

أجل، ذلك أن قواعد الإملاء هي كائنات بشرية بدورها. الكلمة كائن كامل مرئيّةً ومسموعةً.

ملك روما

فكّرتُ اليوم، أثناء لحظة إحساس معينة، في شكل النثر الذي أستعمله. حقاً، لا بد من التساؤل، كيف أكتب؟ لقد كانت لديّ، مثل الجميع، تلك الرغبة المفسدة في امتلاك نظام وقاعدة بهذا الشأن. أكيد أنني مارست الكتابة قبل امتلاك أي قاعدة أو نظام. وأنا لا أختلف بهذا عن الآخرين.

وقد اكتشفت، بتحليلٍ ذاتيٍّ قمتُ به هذا المساء، أن نظام الأسلوب عندي يرتكز على أساسين ينبنيان بدورهما حسب الطريقة المثلى للكلاسيكيين الجيدين على الأسس العامة لكل أسلوب وهما: أن أعبر عمّا أحسّ تماماً وِفْقَ مَا أُحِسُّ - بوضوح إن كان ما أحسّه واضحاً، وبغموض إن كان غامضاً، وملتبساً إن كان ما أحسّه ملتبساً بالفعل - ؛ أن أدرك أن قواعد النحو هي أداة وحسب وليست قانوناً.

لنفترض أنني أشاهد أمامكم فتاة ذات سلوك ذكوري. إذن هناك شخص عامي سيقول عنها: «البنت تبدو ولداً» ثم شخص آخر سيقول، إنما بصيغة أقرب إلى الوعي بأن الكلام هو التعبير: «هذه البنت ولد»، شخص ثالث واعٍ هو الآخر بمتطلبات التعبير، لكنه، مدفوعاً بنزوة الاقتضاب الذي هو التجسيد الحي لشبقية الفكر، سيقول عنها: «ذلك الولد». أما أنا فسأقول على الفور: «تلك الولد»، منتهكاً أكثر القواعد النحوية أساسية وهي الملزمة بتوفر تطابق في الجنس والعدد بين النعت والمنعوت.

وسأقول حسناً.. أنا استخدمت الألفاظ مُطْلَقةً، على نحو فوتوغرافي، خارج المألوف، خارج القاعدة، وخارج ما هو مبتذل، وبذلك فأنا لم أتكلم وإنما عبَّرت.

إذا فحصنا الاستعمالات اللغوية، نجد النحو يضع تقسيمات مشروعة وزائفة. فهو مثلاً يقسم الأفعال إلى لازمة ومتعدية. لكن الإنسان الذي يجيد التعبير عمّا يحس ينبغي عليه أحياناً كثيرة أن يحول فعلاً متعدياً إلى لازم حتى يصور بالضبط ما يحسّه. لو أردت مثلاً أن أقول «أنا موجود» existo لقلت: "Soy" (٧). لو شئت أن أقول بأنني أوجد كروح منفصلة سأقول: "Soy yo". لكن إذا أردت أن أقول بأنني موجود كذات متشكلة بذاتها وتمارس إزاء ذاتها الوظيفة الإلاهية لخلق ذاتها (crearse). فكيف ينبغي أن أستعمل الفعل (ser) (الدال على الكينونة) إن لم أُحَوِّلْهُ من اللزوم إلى التعدية؟ وحينئذٍ، وبصوتٍ عالٍ، وضد النحو وبإحساس الظافر، سأقول: "Me soy". وبذلك أكون قد عبرت عن فلسفة بكاملها في لفظتين صغيرتين. أوَ يُمْكن أن نطلب أكثر من هذا من الفلسفة والتعبير معاً؟.

من لا يعرف كيف يفكر ما يحس هو الذي يخضع للنحو، أما الذي يخدمه بالفعل فهو من يعرف التحكم في استعمالاته التعبيرية. يُحْكَى عن سيجموند ملك روما، أنه أجاب بعض من نبهه إلى خطأ نحوي ارتكبه أثناء إلقائه لإحدى خطبه: «أنا ملك روما، وملك النحو علاوة على ذلك».

والتاريخ يروي أنه عُرف خلال حكمه باعتباره سيجموند «السُّوبر نَحْوِي». رمز عجيب بلا شك!. كل من يعرف قول ما يقول هو ملك روما بطريقته الخاصة...

من أنا ؟

كل شيء يفلت مني. حياتي كلها، ذكرياتي، مخيلتي بما تحتويه، شخصيتي، الكل يتبخر، أحس باستمرار أنني كنت شخصاً آخر، وأنني أحسست وفكرت بأنني آخر. وذلك الذي أعاينه هو مشهد من سيناريو آخر. ذلك الذي أعاينه هو أنا بالذات.

أحياناً أعثر في الفوضى الخاوية لأدراجي الأدبية، على أوراق كتبتها منذ عشر سنوات، منذ خمس عشرة سنة، وربما أكثر. والكثير من هذه الأوراق يبدو لي منتمياً لرجل غريب. إذ لا أتعرف على نفسي فيها. لا بد أن أحداً قد كتب هذه الأوراق. وهذا الكاتب هو أنا. أنا الذي عايشها بإحساسه، لكن ذلك حدث في حياة أخرى سبق أن استيقظتُ منها كما لو من حلم ينتمي للغير.

يحدث مراراً أن أعثر على أشياء كتبتها وأنا شاب صغير، مقاطع تعود إلى سن الثامنة عشرة، مقاطع تعود إلى العشرين. وبعضها يمتلك قوة تعبير لا أتذكر كيف كنت قادراً على امتلاكها في تلك المرحلة من عمري. ثمة مقاطع تَخُصُّ أموراً مكتوبة بُعَيْدَ مراهقتي، تبدو لي من ثمار شخصي الراهن الذي حنكته سنوات وتجارب وأحداث. أعرف أنني لست ذلك الذي كان. ومع إحساسي بأنني أعرف تطوراً كبيراً بالمقارنة مع ما كنته، أسأل أين يوجد هذا التطور إن كنت حينئذٍ الشخص نفسه الذي أنا اليوم.

ثمت في هذا كله لغز محيّر يحبطني ويغمني. منذ أيام عانيت من إحساس مرعب، بسبب نصٍّ مكتوب قصير لي يعود إلى الماضي. أتذكر تماماً وسواسي البارز فيه تجاه اللغة التي تعود إلى سنوات قليلة خلت. ثم في أحد الأدراج عثرت على نصٍّ مكتوب لي، يعود إلى تاريخ أقدم، يبدو فيه وسواسي ذاك مُبرَّزاً بقوة. لم أدرك في الماضي إدراكاً إيجابياً، كيف أمكنني أن أتطور لأصبح ما كنته بالفعل حينئذٍ؟ كيف عرفت ما كنت أجهله بالأمس؟ والكل متداخل عندي داخل متاهة أنا التائه في ذاتي فيها.

مفكراً أغرق في الهذيان، موقناً بأن ما أكتبه الآن قد كتبته بالفعل من قبل. أتذكر ذلك، وأسأل هذا الموجود المزهو فِيَّ أين يوجد إن لم يكن في أفلاطونية الأحاسيس ذاكرة أخرى، ذكرى أُخرى من حياة سابقة تنتمي بالكاد إلى هذه الحياة...

يا إلهي .. يا إلهي. مَن أكون؟ كم من ذوات أنا؟ من هو أنا؟ ما هو هذا الفاصل الموجود بيني وبيني؟.

عمر الخيام

عمر الخيام كانت له شخصية معينة، أما أنا، فلا أملك، لحسن الحظ أو لسوئه، أي شخصية على الإطلاق. ما أكونه في لحظة معينة، أنفصل عنه في اللحظة الموالية؛ ما كنته ذات يوم، أنساه في اليوم

الذي يليه. لا يشبه عمر الخيام إلا ذاك الذي يعيش في عالم واحد، هو العالم الخارجي، أما من هو مثلي فيحيا في عالم داخلي متعاقب متنوع. وحتى لو رغب في أن تكون له نفس فلسفة عمر الخيام فلن يستطيع ذلك حتماً. هكذا أمتلك فِيَّ، ولو لم أرغب في ذلك حقاً، الفلسفاتِ التي أنتقدها كما لو كانت أرواحاً مقيمة بداخلي؛ بإمكان عمر الخيام أن يستبعدها لأنها شيء خارجي بالنسبة إليه، أما أنا فلست بقادر على ذلك، لأنها أناي.

روحي

روحي عبارة عن أوركسترا خفية : لا أدري أي الآلات تعزف فيها أو تصر، أوتار وقياثير، نقارات وطبول، بداخلي. لا أتعرف على ذاتي إلا كسنفونية وحسب.

لا أحد

توصلت اليوم، إلى إحساس لا معقول وصحيح في آن، لقد تنبهت، بوميض برق باطني، إلى أنني لا أحد. لا أحد، على الإطلاق لا أحد. حينما أضاء البرق، هناك حيث المدينة المفترضة لم يكن ثمة غير سهل قاحل، أما النور الذي أسفر عنه فلم يكن ليكشف أي سماء فوقه. لقد سُرِقتْ مني قدرة أن أوجد قبل وجود العالم. وإذا كان عَليَّ أن أعاود التجسّد، لَقَدْ عاودتُ التجسد بدوني، بغير تجسُّد أناي.

أنا هوامش مدينة ليس لها وجود، أنا التعليق المسهب على كتاب لم يكتب، لست بأحد أنا، لا أحد. لا أعرف كيف أحس، لا أعرف كيف أفكر، لا أعرف أن أرغب، أن أريد. أنا نموذج (شخص) في رواية ينبغي أن تكتب، يمر مرور الأثير، ويتوارى، بدون أن يكون قد وُجِدَ، في أحلام مَنْ لا يعرف مَنْحى الاكتمال.

دائماً أفكر، دائماً أحس، لكن تفكيري لا يحوي أي منطق. وعاطفتي خالية من أية عواطف. أحس بأنني أسقط، عبر الفخ المنصوب هناك في الأعلى، في الفضاء اللانهائي بتمامه، سقوطاً ليس له اتجاه، سقوطاً لا متناهياً وفارغاً، روحي تيار بحري أسود، دوار أسود حول الفراغ، حركة محيط لا نهائي حول ثقب من هباء، وفي المياه الدوارة، تطفو جميع صور ما رأيتُ وما سمعتُ في هذا العالم -منازل تمر، وجوه، كتب، صناديق، مخلفات موسيقية، مقاطع أصوات في دوامة عَسْراء ليس لها قرار.

وأنا، أنا بالفعل، أنا المركز اللاوجود له لهذا كله إلا بهندسة الهاوية؛ أنا الهباء الذي حوله تدور هذه الحركة بدون أن يكون لذلك المركز من وجود سوى لأنه دائرة كله دائرة. أنا حقاً، أنا البئر بلا حيطان، إنَّما بِكُلِّ اللزوجة التي تملكها الحيطان. أنا مركز الكل محاطاً بالهباء.

ذلك أنه، فِيَّ أنا، كما لو أن الجحيم نفسها مع إنسانية الشياطين تضحكان، فِيَّ أنا يثوي الجنون النَّعاق للكون الميت، الجثة الدوارة للفضاء الفيزيقي، نهاية العوالم كلها وهي تتقلب مسوْدّةً أمام الريح، مشوَّهة، مهجورة، بدون الله الذي قد يكون خالقها، بدونه هو ذاته متدحرِجاً في غياهب

الغياهب، مستحيلاً، فريداً ـ كل شيء.

أن أعرف كيف أفكر! أن أعرف كيف أحس!

في فترة مبكرة جداً توفيت أمي، وأنا لم يتح لي التعرف عليها.

١٩٣١/١٢/١

وسواس

فلأَمْنَحْ كُلَّ عاطفة شخصيةً خاصة بها، كُلَّ وضع من أوضاع الروح رُوحاً مستقلة.

ما يرى من الداخل

لأنني لا أملك ما أفعل؛ ولا حتى التفكير فيما عليّ أن أفعل، سأضع على هذا الورق خطاطة وصف لحاشية نموذجية؛ أريد حساسية مالارمي داخل أسلوب فييرا، الحلم على طريقة فرلين بجسد هوراس؛ أن أكون هوميروس على ضوء القمر.

أريد أن أحس كل شيء بكل الأشكال الممكنة وغير الممكنة؛ أن أعرف كيف أفكر بالأحاسيس وأحس بواسطة الأفكار، ألا يكون لي طموح إلا بواسطة الخيال؛ أن أتألم بدلال؛ أن أرى ما أراه بوضوح كيما أكتب بطريقة صحيحة؛ أن تكون معرفتي ممنهجة ومداجية،.. وبالجملة أن أستخدم من الداخل الأحاسيس كلها، نازعاً عنها القشور قشرة قشرة، حتى أصل إلى الله، لكن مع تغليفها من جديد وإعادتها إلى الواجهة الزجاجية على نحو ما يفعل ذلك البائع الذي أراه من هنا بعلب زفت صغيرة من النوع الجديد.

كل هذه الرغبات المثالية الممكنة أو المستحيلة تتبخر الآن، ثمة الواقع أمامي: ليس البائع ما أرى، إنها يده (البائع لا أراه)، وهي مَلْمَسٌ لا معقول لروح ذات عائلة وحظ، يصنع تعرجات لعنكبوت لا نسيج له عبر تَمَدُّدِ اسْتِعادَةِ الهنَاكَ الذي قبالتي.

١٩٣٠

الصدى والهاوية

بالتفكير خَلَقتُ صدى وهاوية، بتعمقي ذاتي تكاثرت. الحادث العرضي، الصغير جداً، ما ينبثق عن الضوء من تغير، السقوط الملفوف لورقة جافة، البتلة المنتزعة مُصْفَرّةً، صَوْتُ الجانب الآخر من الجدار أو خطوات المُتَلفِّظِ بالصوت جنب خطوات من ينبغي أن يسمعه، البوابة المواربة للضيعة القديمة، الساحة المنفتحة على قوس البيوت المتجمعة تحت ضوء القمر، كل هذه الأشياء، التي لا تنتمي إليّ، تُثبِّتُ فِيَّ التأمل الحَسَّاس بأواصر من رنين وحنين. في كل إحساس من تلك الإحساسات أشعر أنني آخر، متألماً أَتَجدَّدُ في إحساس لا مُحدَّد.

من أحاسيس لا تنتمي إليَّ أَحْيَا، غَيْرَ عابئ بالتنازلات، آخرَ أغدو في الشكل مثلما أنا بالفعل.

أنا المسرح الحي

خَلَقْتُ فِيَّ شخصيات متعددة، باستمرار أخلق شخصيات بداخلي. كل حلم من أحلامي، يتجسد لحظة ظهوره كحلم، في شخص آخر، يصبح هو حالم الحلم وأبقى أنا خالي الوفاض.

لكي أبني، كان عليّ أن أتهدم: كثيراً ما كنتُ بَرَّانياً داخل ذاتي. لأنني لا أوجد داخل ذاتي إلا خارجياً. أنا المسرح الحي الذي تتعاقب عليه أدوار ممثلين متنوعين يشخصون أعمالاً درامية شاسعة التنوع.

أغنية بلد بعيد

كان يغني، بصوت شديد النعومة، أغنية بلد بعيد. وكانت الموسيقى تجعل الكلمات المجهولة أليفة حميمة، يبدو أنها كانت أغنية روحية من أغاني الفادو، لكن بغير أي شبه بالفادو.

كانت الأغنية تعبر، بالكلمات الكتيمة والنغم الإنساني، عن أشياء كائنة في أرواح الجميع وما من أحد يعرفها. وكان هو يؤديها بنوع من التوهيم، متجاهلاً المستمعين بنظره، بانتشاءة متسكع شوارع.

الناس المتجمعون كانوا ينصتون إليه بلا جلجل مرئي. كانت الأغنية أغنية العالم كله، والكلمات تتحدث إلينا عن السر الشرقي لجنس مفقود.

ضوضاء المدينة ما كانت لتنفذ إلى مسمعي، والسيارات كانت تمرق عن قرب إلى حدّ أن إحداها لامست ذيل بدلتي. لكنني كنت أحسها بدون أن أسمعها. كان هناك في أغنية المجهول امتصاص مريح لذلك المحلوم المتعذر فينا. الحادث كان حادث متسكع عابر، وكلنا ركزنا نظرنا على الشرطي الذي دار حول زاوية الشارع على مهل، ثم دنا متوقفاً للحظة خلف حامل المظلات، كمن يتفرج على مشهد، في تلك اللحظة. كَفَّ المغني عن الغناء، لم ينبس أحد بشيء، وحينئذٍ تدخل الشرطي.

أشياء تمر بدون أن تحدث

الحالمون بالممكن، والمنطقي القريب يثيرون شفقتي أكثر من الحالمين بالبعيد والغريب. الحالمون بالكبير، هم إما مجانين يؤمنون بما يحلمون محققين بذلك سعادتهم الخاصة، وإما هذيانيون بسطاء مِمَّنْ يمثِّل الهذيان بالنسبة إليهم موسيقى روحية تهدهدهم بدون أن تقول لهم شيئاً. لكن من يحلم بالممكن لديه دوماً الإمكانية الواقعية لخيبة الأمل الحقيقية. لا يمكن أن يؤثر فِيَّ كثيراً لو تَخلَّيْتُ عن أن أكون امبراطوراً رومانياً، لكن يمكن أن يؤلمني عدم قدرتي على محادثة الخياطة التي تجتاز، حوالى الساعة التاسعة صباحاً، الزاوية اليمنى من الشارع. الحلم الذي يعدنا بالمستحيل يحرمنا منه بمجرد الاستسلام للحلم. لكن الحلم الذي يَعِدُنَا بالممكن يندرج في الحياة الفعلية وَيُفوِّضُ لها إمكانية تحققه، الأول يحيا منفصلاً ومستقلاً؛ الثاني خاضعاً لاحتمالات الحدث.

لذلك أحب المشاهد الطبيعية المستحيلة والفيافي الشاسعة التي لن أطأها أبداً. إن للحقب التاريخية الماضية روعة خالصة، لذلك، لا يمكنني بالطبع التفكير في إمكانية العيش فيها. لا أنام إلا عندما

أحلم بما لا وجود له، وأستيقظ فقد عندما أحلم بما يمكن أن يوجد.

أطل، من إحدى نوافذ المكتب الخالي في منتصف النهار، على الشارع الذي يحس شرودي بحركات الناس في العيون، بدون أن يراهم، من خلال المسافة الفاصلة لتأملاتي. أنام على المرفقين، حيث يؤلمني الدرابزين... تفاصيل الشارع الخامل حيث يسير الكثيرون، تفصلني بعيداً، ذهنياً: الصناديق المكدسة في العربة، الأكياس الموضوعة عند باب المخزن، وفي الواجهة الزجاجية البعيدة للمتجر الكائن في الزاوية. بمعروضات ما وراء البحار، ألمح قنينات خمر أوبرطو التي أتخيل ألا أحد يستطيع شراءها. ينفصل عني جوهر النصف الآخر من المادة. أتفحص وأنقب بالتخيل وحده. الناس الذين يمرون عبر الشارع هم دائماً نفس الناس الذين مروا منذ قليل، إنه المظهر المتقلب لأحد ما، بُقَعٌ بلا حركة، أصوات مرتابة، أشياء تمر بدون أن تكون قد حدثت بالفعل.

التفسير بواسطة الوعي الحواسي، قبل الحواس ذاتها... إمكانية أشياء أخرى... و، بغتة، يرن، من ورائي، في المكتب، نداء الصَّبِيِّ المستخدم كما لو من هاوية ميتافيزيقية. أشعر بأنني قادر على قتله لأنه قطع عليّ حبل ما لم أكن أفكر فيه. أنظر إليه، بصمت مفعم بالكراهية، أنصت مسبقاً، بنية قتل دفينة، إلى الصوت الذي سيهم بأن يقول لي شيئاً. يبتسم من داخل البيت ويقدم لي تحية المساء بصوت عالٍ. أكرهه مثلما أكره الكون. عيناي مثقلتان بالنعاس.

«محاولة عيش»

منذ أن انتقلت الأمطار الأخيرة نحو الجنوب، وبقيت، وحدها الريح، التي كنستها، عادت إلى تجمعات المدينة بهجة الشمس الأكيدة وظهرت ثياب بيضاء كثيرة معلقة على الحبال الممدودة بواسطة القضبان في النوافذ العالية للمنازل المتعددة الألوان.

بدوري أصبحت فرحاً، لأنني موجود. لقد خرجت من البيت تحدوني غاية كبرى، هي في النهاية، الوصول إلى المكتب في الوقت المحدد. لكن في هذا اليوم، يبدو أن القسر المحض للحياة قد انصاع لذلك القسر الآخر المحبب، الذي جعل الشمس تأتي في ساعات التقويم متطابقة مع عرض وطول الأمكنة الأرضية. لقد أحسستني سعيداً لأنه لم يكن بمستطاعي أن أحسني بائساً. نزلت الشارع مرتاحاً، مفعماً باليقين، لأن المكتب المعروف، في آخر المطاف، والناس المعروفين الموجودين بالمكتب، كانوا من اليقينيات. ما كان ليدهشني إحساسي بأنني حر، بدون أن أعرف لماذا. في السلال الموضوعة على جوانب أرصفة شارع La Plata [٨] كانت أعذاق الموز المعروضة للبيع، تحت الشمس، فاقعة الصفرة.

أنا فرح، فوق كل شيء، بالقليل: بتوقف المطر، بوجود شمس طيبة في هذا الجنوب السعيد، بالموز المتجاوز حدّ الاصفرار بما يعروه من بقع سوداء، بالناس الذين يبيعونه لأنهم يتبادلون الحديث، بأرصفة شارع La Plata، بنهر التاج في العمق، أزرق مخضراً ضارباً إلى الذهب، وبكل هذا الركن الأليف من نظام الكونْ.

سوف يأتي اليوم الذي لن يكون بمقدوري أن أرى فيه هذه الأشياء، اليوم الذي ستستمر فيه حية

أعذاق الموز بجانب الرصيف، وأصوات البائعات الفطنات، والصحف اليومية التي نشرها الصبي الصغير في زاوية الرصيف الآخر من الشارع. حسناً أعلم أن الموز سيكون موزاً آخر وكذلك البائعات، وأن الصحف سيكون لها، بالنسبة إلى من سينحني لرؤيتها، تاريخ آخر ليس هو اليوم، لكنهم، لكونهم لا يحيون، يستمرون وإن كانوا آخرين؛ أما أنا، الذي أعيش، فعابر ولو كنت نفسي.

هذه اللحظة يمكن الاحتفال بها بشراء الموز، إذ يبدو لي أنه في هذا الموز قد تركّزتْ كل شمس هذا اليوم مثل فانوس بلا بطارية. لكنني أخجل من الطقوس، من الرموز، من شراء أشياء في الشارع. بإمكانهم ألا يُلَفّفُوا الموز جيداً، ألا يبيعونيه كما يجب أن يباع لعدم معرفتي بشرائه كما ينبغي أن يشترى، يمكنهم أن يستغربوا صوتي عند سؤالي عن الثمن. أن أكتب خير لي من أن أجازف بأن أعيش، حتى ولو كانت محاولة العيش مجرد شراء موزات تحت الشمس، طالما ثمة شمس وموز معروض للبيع.

فيما بعد، ربما... أجل، فيما بعد... آخر.. يوم آخر، ربما.. لا أدري...

ملوك الواقع، ملوك الحلم

ما يدهشني أكثر من غيره ليس هو البلادة التي يحيا بها أغلب الناس حياتهم : وإنما الذكاء الموجود في تلك البلادة.

إن رتابة الحيوات العامية تبدو، مرعبة، في الظاهر. في هذا المطعم الشعبي أتناول غدائي، وأنظر، فيما وراء الحاجز الخشبي، إلى هيأة الطباخ؛ وهنا، بجانبي، واقفاً يوجد النادل الكهل الذي يخدمني، كما كان يفعل منذ ثلاثين عاماً في هذا المطعم، ترى إلى أي نوع من الحياة تنتمي حياة هذين الرجلين؟ منذ أربعين عاماً ظل ذلك الرجل يعيش حياته كل يوم تقريباً داخل مطبخ؛ العطل المتاحة له قصيرة؛ ينام نسبياً ساعات قليلة؛ يذهب من حين إلى آخر إلى بلدته، التي يعود منها بلا تردد ولا حسرة؛ يدخر ببطء مالاً لا ينبغي إنفاقه؛ سوف يغدو مريضاً إذا ما أجبر على ترك مطبخه (بصفة نهائية) قصد التوجه إلى الحقول التي اشتراها في غاليسيا [٩]، إنه مقيم في لشبونة منذ أربعين عاماً. ولم يسبق له قط الذهاب، حتى إلى روطوندا [١٠]. ولا إلى مسرح، ولديه يوم واحد فقط مخصص لسيركه الخاص: مهرجون في الأطلال الباطنية لحياته. لقد تزوج لا أدري كيف ولا لماذا، لديه أربعة أبناء وبنت واحدة، أما ابتسامته، عند انحناءته، من الجانب الآخر للعارض الخشبي نحو الجانب الذي يوجد فيه، فهي تنم عن سعادة عظيمة، بهيجة، رائعة. وهو لا يتظاهر، ولا مبرر لديه لكي يتظاهر، فإذا كان يحس بهذه السعادة فلأنه يمتلكها بالفعل.

وماذا عن النادل الكهل الذي يخدمني، والذي وضع أمامي كأس قهوة لعله الكأس المليون منذ امتهن وضع كؤوس القهوة على الطاولات؟ إنه يحيا نفس حياة الطباخ، مع فارق بالكاد يصل إلى أربعة أو خمسة أمتار : هي الفاصلة بين المطبخ الذي يوجد فيه أحدهما عن القسم الخارجي من المطعم الذي يشتغل فيه الثاني. هذا الكهل لديه ولدان فقط، لكنه يذهب مرات أكثر لزيارة غاليسيا. كما أنه يعرف لشبونة أكثر من زميله، ويعرف أوبرطو حيث كان هناك منذ أربع سنوات. أما من

حيث السعادة فما من فارق بينه وبين الأول.

أتفحص، باستغراب بانوراما هاتين الحياتين، فأكتشف، حالما أكون موشكاً على الإحساس بالرعب، والحزن، والحنق تجاههما، أنهما بالذات من ينبغي أن يحس بهذا الإحساس، هما بالذات اللذان يعيشان تلك الحياة. إنه الخطأ المركزي الجسيم للتخيل الأدبي: افتراض أن الآخرين هم نحن وأن عليهم أن يحسوا إحساسنا. لكن لحسن حظ الإنسانية، كل إنسان هو فقط من هو، إلا في حالات تعد محسوبة تحديداً على العبقرية.

الكل، في النهاية، يتحدد بالعلاقة مع ما يتحدد به. حادث عرضي صغير في الشارع، يجذب إلى الباب طباخ هذه الدار، يهبه من التسلية أكثر مما يمنحني تأمل أكثر الأفكار أصالة، وأكثر مما تمنحني قراءة أفضل الكتب وأكثر الأحلام اللامجدية غرابة. وإذا كانت الحياة رتيبة بصفة جوهرية، فذلك لأنه هو (الطباخ) قد تحرر من الرتابة بسهولة أكبر مني. الصواب ليس معه ولا معي. لأن الصواب ليس بجانب أي كان. غير أن السهولة موجودة حقاً بجانبه هو.

الحكيم هو من يضفي الرتابة على الوجود، بحيث يكتسب، حينئذٍ، كل حادث مهما صغر شأنه ميزة الأعجوبة. بعد الأسد الثالث تفقد مغامرة صياد الأسود كل إثارتها. بالنسبة إلى طباخي الرتيب الحياة يظل مشهد مصافحات في الشارع ممتلكاً، على الدوام، شيئاً من جاذبية قيامية متواضعة، من لم يغادر لشبونة قط يحس أنه مسافر صوب اللانهائي في الترام عندما يمضي إلى بمفيكة [11]، وإذا ما أتيح له الذهاب إلى سينترا [12]، يحس أنه ذهب إلى المريخ. المسافر الذي قطع الأرض كلها فيما يتجاوز الخمسة آلاف ميل، لا يصادف الجديد، لأنه يصادف أشياء جديدة فقط؛ الجديد مرة أخرى، شيخوخة الجديد الدائم، لكن المفهوم المجرد للجديد يظل كامناً في البحر على الدوام.

بإمكان أي شخص، إذا كان ممتلكاً للحكمة الحقيقية، أن يستمتع بالمشهد الكامل للعالم، من خلال كرسي، بدون معرفة بالقراءة، بدون حاجة إلى الحديث مع أي كان، فقط بواسطة الاستخدام السليم للحواس وبروح لا تعرف كيف تكون حزينة.

إضفاء الرتابة على الوجود، لكي لا يكون رتيباً. تَتْفِيهُ اليومي، كيما يغدو أقل الأشياء أهمية مَجْلبةً لأكبر التسليات. وسط عملي اليومي، الشاحب، الرتيب واللامجدي. تباغتني رؤى هروبية. آثار حلمية لجزر قصية، احتفالات في حدائق حقب أخرى، مشاهد طبيعية أخرى، أحاسيس أخرى، أنا آخر، غير أنني اكتشفت، بين مقعدين، أن لو كان ذلك كله لي، لن يكون أي شيء منه من نصيبي. الباطرون باسكيس أنفع لي، في الواقع، من ملوك الحلم، شارع Los Doradores، يساوي أكثر بكثير مما تساويه كبريات الساحات في حدائق المستحيل. بامتلاكي شخص الباطرون باسكيس، أستطيع التمتع بحلم ملوك الأحلام؛ بوجودي في مكتب شارع Los Doradores أستطيع الاستمتاع بالمشاهدة الباطنية للمناظر الطبيعية التي ليس لها وجود. لكن لو امتلكت (بالفعل) ملوك الحلم. ماذا سيتبقى لي من أحلام؟ لو امتلكت المناظر الطبيعية المستحيلة، ماذا سيتبقى لي من مستحيل؟.

الرتابة، تماثل الأيام الخالية من أي بريق، انعدام الفارق بين اليوم والأمس، هو ما يبقى لي على الدوام، مع الروح المتيقظة لأجل الاستمتاع بالذبابة التي تسليني، عندما تمرق مصادفة أمام عيني،

بالقهقهة القادمة متقلبة من شارع غير محدد، بإحساس التحرر الفسيح لكون الساعة ساعة إقفال المكتب، بالاستراحة اللانهائية ليوم عيد.

بإمكاني أن أتخيل الكل، كل شيء، لأنني لا شيء، لو كنت شيئاً لما كان بإمكاني أن أتخيل. مساعد الحسابات بإمكانه أن يحلم بنفسه إمبراطوراً رومانياً؛ ملك إنجلترا محرم عليه أن يكون، في الأحلام، ملكاً آخر مختلفاً عن الملك الذي هو إياه. الواقع لا يترك له مجالاً للإحساس.

عابر أقل

دخلت إلى صالون الحلاقة بنفس المتعة التي أجدها في ارتياد المنازل التي سبق لي ارتيادها من قبل. لديّ حساسية مقلقة تجاه ما هو جديد: لا أكون مرتاحاً إلا حيث ألفت أن أكون.

عندما استويت على المقعد. سألت الفتى الحلاق الذي كان يضع على عنقي قماشاً بارداً ونظيفاً، عن حال رفيقه الكهل والذكي حلاق المقعد الأيمن، فقد كان مريضاً. سألته بدون أن يجبرني هو على طرح السؤال: المكان والتذكر قاداني إلى ذلك. «مات أمس»، أجابني بدون تنغيم الصوت، بينما أصابعه تنتهي من إدخال الثوب بين قذالي وياقة القميص. كل حماسي مات على الفور، تماماً مثلما غاب إلى الأبد حلاق المقعد المجاور. سرت البرودة في كل ما فكرت فيه. لم أقلْ شيئاً.

الاشتياقات! لديّ منها الكثير حتى مما لا يمت إليّ بصلة بسبب قلق الهروب من الزمن وداء الحياة الملغزة. الوجوه التي اعتدت رؤيتها في شوارعي المعتادة، يعتريني الحزن حين لا أراها وهي ليست مني في شيء إن لم تكن رمزاً للحياة بكاملها.

العجوز ذو القماطين المتسخين الذي كان يتقاطع معي باستمرار في التاسعة والنصف صباحاً؟ بائع اليانصيب الأعرج الذي كان يضايقني بلا فائدة؟ العجوز المدور بالسيجار عند باب دكان الطبكيرية؟ صاحب الطبكيرية الشاحب؟ ماذا فعل الله بهم جميعاً، هم الذين أصبحوا جزءاً من حياتي لأنني اعتدت رؤيتهم مراراً؟ غداً سأختفي أنا أيضاً من شارع La Plata من شارع الـ Doradores، ومن شارع Los Lenceros غداً أيضاً أنا ـ الروح التي تحس وتفكر، الكون الذي أنا إياه بالنسبة إليّ ـ أجل، غداً أنا أيضاً سأصبح ذلك الذي كف إلى الأبد عن المرور بهذه الشوارع، والذي سيستحضره الآخرون من خلال «ماذا سيكون منه؟» وكل ما أفعل، كل ما أحس، كل ما أعيش، لن يكون سوى عابر أقل اختفى من الحياة اليومية لشوارع مدينة ما.

أستنطق الحياة

لم أطلب سوى القليل من الحياة، وحتى ذلك القليل رفضت الحياة منحي إياه. طلبت حزمة ضوء من الشمس، حقلاً [...]، القليل من السكينة مع قليل من الخبز، ألا تثقل عليّ كثيراً معرفتي بأنني موجود، وألا أطلب من الآخرين شيئاً وألا يطالبونني هم بأي شيء. هذه الرغائب ذاتها تم تجاهلها، كمن يتجاهل الظل لا بسبب الافتقار إلى المشاعر الطيبة، وإنما لكي لا يتحتم عليه أن يفك أزرار السترة [...].

أكتب، مكتئباً، في غرفتي الهادئة، وحدي مثلما كنت، وحدي مثلما سأكون. وأفكر إن لم يكن صوتي، على ضآلة شأنه ظاهرياً، يجسد جوهر آلاف الأصوات، والحاجة إلى التعبير لدى آلاف الحيوات، صَبْرَ آلاف الأرواح المذعنة مثل روحي، تحت شمس القدر اليومي، متشبثة بالحلم اللامجدي، والأمل الذي بلا بارقة. في هذه اللحظات ينبض قلبي نبضات أعلى بسبب إحساسي الحاد بنبضاته. أحيا زيادة على اللزوم لأنني أحيا على نحو أكبر وأعمق. أشعر في شخصي بقوة دينية، أشبه بنوع من الصلاة، أشبه بالشكوى. لكن ردّ الفعل ضدي من الذكاء يأتي.. أراني في الطابق الرابع من شارع الـ Doradores، حالما أمارس الإحساس؛ أبصر فوق الورق نصف المكتوب، الحياة الباطلة الخالية من الجمال والسيجارة الرخيصة [...] فوق النُّشَّاف العتيق. هنا أنا، في هذا الطابق الرابع، أستنطق الحياة، صانعاً نثراً [...].

اشتياقات مجهولة

أن تعيش معناه أن تكون آخر. لو أحسستَ اليوم على نحو ما أحسستَ بالأمس فليس ذلك بإحساس، أن تُحسَّ اليوم بنفس ما أحسستَ به أمس لا يعد إحساساً: إنه يعني أنك تتذكر اليوم ما أحسست به أمس، وأنك اليوم الجثمان الحي لما كان بالأمس الحياة المفقودة.

باستقبالك ليوم جديد عليك بدفن كل ما يتعلق باليوم الذي سبقه، كن جديداً في كل صباح جديد، في عملية تجديد مستديمة لبكارة الإحساس: وهذا، وحده فقط، ما يستحق أن يمتلك بالنسبة إلى كينونتنا الناقصة.

هذه الصبيحة، هي الصبيحة الأولى في العالم. لم يسبق قط أن استقر هذا اللون الوردي ذو الصفرة الضاربة إلى البياض، هكذا على الوجه الذي تجابه به قرية الغرب مكتظة بالعيون المبرنقة السكون الآتي في النور المتنامي. هذه الساعة لم توجد قط، ولا هذا النور، ولا كينونتي هذه. غداً، كل شيء سيكون شيئاً آخر وما أراه أنا سيكون مرئياً بعينين أعيد تركيبهما، مفعمتين برؤية جديدة.

أيتها الجبال الشامخة للمدينة! العمارات الشاهقة المدعومة والمضخمة بمرتقيات شديدة الإنحدار، انزلاقات الأبنية المتراكمة بأشكال شتى مما ينسجه الضوء من ظلال وحرائق، أنتن هُنَّ اليوم؛ هذا اليوم، أنتنَّ أنا، لأنني أراكُنَّ ما [...] وأحبكن من الداخل مثل مركب يمر بجانب مركب آخر وهو يحمل حنيناً مجهولاً للمشهد.

١٨/٥/١٩٣٠

أخويات

بسبب ما أحدثه لديّ الإحساس الجسدي من ضيق وقلق قديم يصل أحياناً إلى حدّ الانفجار، لم آكلُ، اليوم، جيداً، ولا شربت ما أشرب دائماً، في المطعم، أو في بيت الوجبات الطعامية، الذي في طابقه الوسيط تتأسس استمرارية وجودي. ولأن النادل لاحظ، عند خروجي، أن قنينة النبيذ تُركتْ مملوءة للنصف، فقد اتجه نحوي قائلاً: «إلى اللقاء، يا سيد سوارش، أتمنى أن تتحسن حالتك».

ما إن تلفظ بهذه العبارة البسيطة حتى انفرجت روحي كما لو أن غيوماً في سماء أزيحت فجأة بفعل الريح، وحينئذٍ اكتشفت ما لم أتمكن قط من اكتشافه بوضوح : ذلك أنني وجدت في نُدُل المطاعم أو المقاهي هؤلاء، في الحلاقين، في حمالي الزوايا لطافة تلقائية، وطبيعية، لا أستطيع أن أزهو بتلقيها ممن يعاملونني بكثير من الحميمية.

إن للأخوة لطافتها.

بعض يحكمون العالم، آخرون هم العالم. بين مليونير أمريكي له أموال في إنجلترا أو سويسرا، وبين الرئيس الاشتراكي لأي قرية، لا توجد فوارق في الكيف بل في الكم. أسفل [. . .] هؤلاء، نحن، الخاملون، المؤلف المسرحي الغافل وليم شكسبير، معلم المدرسة جون ميلتون، المتشرد دانتي أليجيري، الحمال الذي قام بخدمتي أمس، الحلاق الذي يحكي لي النوادر، النادل الذي تصرف معي بأخوية متمنياً لي ذلك التحسن لأنني شربت فقط نصف قنينة نبيذ.

طفل في السيرك

مرات كثيرة، أُحِسُّني رجلاً، تحت تأثير السطحي والمصطنع. حينئذٍ أحيا طافياً، بفرح وصفاء، ويصبح التوصل بالأجرة ثم التوجه إلى البيت مفرحاً بالنسبة إليّ. أحسّ الزمن بدون أن أراه، وأحبُّ كل ما هو عضوي. حينما أمارس التأمل، أعجز عن التفكير. أحب الحدائق كثيراً هذه الأيام.

لا أدري ما يحويه الجوهر الباطني للحدائق العامة، من عجيب وبئيس، مما لا يمكن أن أحسه جيداً إلا عندما أحس جيداً بنفسي. الحديقة، أي حديقة تختصر الحضارة بكاملها، إنها تعديل غفل للطبيعة. هنالك النباتات. لكن ثمة شوارع. أشجار تنمو، ثمة مقاعد تحت الظل. في الاصطفاف المرتد نحو الجهات الأربع للمدينة، توجد الساحة وحدها، المقاعد الكبيرة ممتلئة دائماً تقريباً بالناس.

لا أبغض تناسق أزهار الأحواض، أبغض، على العكس، الاستعمال العمومي للأزهار. لو أن الأحواض وجدت في حدائق مغلقة، لو أن الأشجار نمت في زوايا إقطاعية، لو أن المقاعد لم تكن في ملك أحد، لوجدت تسليتي في التأمل اللامجدي للأزهار. هكذا هي الحدائق المنسقة بلا فائدة في المدينة بالنسبة إليّ هي عبارة عن أقفاص لا تمتلك فيها التلوينات العفوية للأشجار والأزهار فضاء، ولا مكاناً تنحبس فيه. وحيث الجمال الطبيعي نفسه مجرد من الحياة التي ينتمي إليها.

لكن ثمة أيام يغدو فيها هذا المشهد منتمياً إليّ، فأدخل إليه مثل ممثل صامت في مأساة فكاهية. في تلك الأيام أكون تائهاً، لكنني، على الأقل أكثر سعادة، على نحو من الأنحاء. يبدو لي حينما ألهي نفسي، أنني أملك بالفعل بيتاً. مأوى آوي إليه وأنني شخص سوي. مدخر لغاية ما، أنظف بدلة أخرى وأقرأ صحيفة بكاملها.

بيد أن الوهم لا يدوم طويلاً مثلما يحدث في الليل. فلون الأزهار، ظل الأشجار تناسق الممرات والأحواض تضمحل وتتقلص. ينفتح بغتة من وراء خطأ اعتقادي برجولتي، كما لو أن ضوء النهار كان ستارة مسرح أخفي لأجلي، المشهد الأعظم للنجوم. وحينئذ أنسى بالرؤية، المقعد الأمامي وأنتظر ظهور الممثلين الأوائل بانتفاضة طفل في السيرك.

حُرٌّ أنا وَضائع.
أحس بزكام وحُمَّى، أنا أناي. [١٣].

١٢/٤/١٩٣٠.

فكرة السرعة

للإحساس بلذة ورعب السرعة لا أحتاج إلى سيارات سريعة ولا إلى قطارات سريعة. حسبي الترام وقدرة التجريد الرهيبة التي أمتلكها وأرعاها.

أعرف، دخل ترام متحرك، وبفضل موقف تحليلي ثابت وخاطف، كيف افصل فكرة الترام عن فكرة السرعة، فصلاً تاماً عن كل ما سواها، حتى أحولها إلى شيئين - واقعيين مختلفين. بعدئذٍ يمكنني أن أحسني متتبعاً، ليس داخل الترام، وإنما داخل سرعته - الخالصة. ولو شئت، بالمصادفة الحصول على هذيان السرعة القصوى أستطيع نقل الفكرة إلى المحاكاة المحضة للسرعة مضاعفاً إياها وفق هواي، أو مقللاً منها، موسّعاً إياها إلى مدى يتجاوز السرعات الممكنة للقطارات.

إن التعرض لأخطار واقعية يؤدي، بالإضافة إلى ما يثيره فيّ من رعب، إلى تشويش التيقظ الكامل لأحاسيسي، مما يضايقني ويفقدني تشخصني.

لا أمضي أبداً إلى حيث يوجد الخطر، لديّ خوف تجاه ضجر الأخطار.

الغروب هو ظاهرة ذهنية قبل كل شيء.

كم من قياصرة كنت

الحياة بالنسبة إلينا هي ما نتصوره فيها. حقل الفلاح وهو الكل بالنسبة إليه، هو بمثابة إمبراطورية. الإمبراطورية بالنسبة إلى القيصر غير كافية. وهي ليست بأكثر من حقل. المسكين يمتلك إمبراطورية؛ العظيم يمتلك حقلاً. في الحقيقة، نحن لا نملك أكثر من أحاسيسنا الخاصة، ففيها، إذن، وليس فيما تراه هي، علينا أن نوطد واقع حياتنا.

/ هذه الخواطر لم تأت بمناسبة معينة /

لقد حلمت كثيراً، أنني متعب من وجودي حالماً، ولست متعباً من فعل الحلم. لا أحد يتعب من الحلم، أن نحلم هو أن ننسى، والنسيان لا يحزن وهو نوم بلا أحلام نكون فيه مستيقظين. في النوم حققت كل شيء. كنت أستيقظ أيضاً. لكن ما أهمية ذلك؟ كم من قياصرة كنت! كم من مشاهير وكم من مساكين! القيصر، وقد أنقذ من الموت، بفضل أريحية أحد القراصنة، يرسل منقذه إلى الصلب، بعد اعتقاله إثر بحث طويل عنه. نابليون، يوصي، في الوصية التي أعدها في سانتا هيلينا، بتركة لمجرم حاول اغتيال ولينغتون. أوه لجلائل الأعمال المعادلة لروح الجارَة الحَوْلاء، أوه للرجال العظام، رجال طبّاخة العالم الآخر! كم من قياصرة كنتُ، وما زلت أحلم أن أكون.

كم من قياصرة تقمّصْتُ، لكن قياصرة الحلم لا قياصرة الواقع. إمبراطورياً حقاً كنت كلما حلمت، لذلك لم أكن شيئاً قط، جيوشي تكبدت الهزيمة، لكنها هزيمة رخوة فما من أحد مات. لم أفقد

رايات. لم أحلم حتى نقطة الوصول إلى امتلاك جيش، حيث تظهر تلك الرايات ذات الزاوية الحلمية أمام بصري. كم من قياصرة صرت، هنا بالذات، في شارع ألدورادوريس. والقياصرة الذين كنتهم ما زالوا يعيشون في مخيلتي؛ لكن القياصرة الذين كانوا بالفعل ماتوا، وليس باستطاعة شارع الـ دورادوريس والقياصرة الذين كنتهم ما زالوا يعيشون في مخيلتي؛ لكن القياصرة الذين كانوا بالفعل ماتوا، وليس باستطاعة شارع الـ دور/ دوريس Doradores، أي الواقع، معرفتهم.

أرمي بعلبة الثقاب الفارغة إلى الهاوية، حيث الشارع الأبعد من مسند نافذتي الذي بلا جلية معمارية. أنهض من الكرسي وأصيخ السمع. وبجلاء، تُصدر علبة الثقاب صوتاً ـ كما لو كان يعني شيئاً في الشارع شبه الخالي. لا صوت البتة بَعْدُ، عدا أصوات المدينة بكاملها. أجل، أصوات مدينة يوم أحد تام...

يا لقلة ما يمثله، في العالم الواقعي، حامل أفضل التأملات. الوصول متأخراً لتناول الغداء، نفاد أعواد الثقاب، إلقائي بالعلبة إلى الشارع، الوضع الذهني السيء بسبب الأكل في وقت غير مناسب، كون الأحد وعداً هوائياً بغروب سيء، كوني لا أحد في العالم هو الميتافيزيقا برمتها.

لَكِنْ كَمْ من قياصرةٍ كنتُ!.

١٩٣٠/٦/٢٧

«أنا بحجم ما أراه!»

أعاود بلا اكتراث قراءة تلك العبارات البسيطة لـ كاييرو (١٤) متلقياً ما أحسه كإلهام وتحرير للنفس، ضمن المرجعية الطبيعية للتأثير الخاص لصغر حجم قريته. من هنالك. ولأنها صغيرة، يقول كاييرو، يمكن أن يُرى العالم أكثر مما يرى من المدينة؛ لذلك كانت القرية أكبر حجماً من المدينة.

« لأنني بحجم ما أراه
لا بحجم قامتي »

عبارتان كهاتين، متناميتان خارج إرادة التعبير التي أوجدتهما، تُنقيانني من كل الميتافيزيقا العفوية التي أضيفها إلى الحياة. بعد قراءتهما، أقتربُ من نافذتي المطلة على الشارع الضيق، أنظر إلى السماء الهائلة، وإلى النجوم الكثيرة، وأنا حرّ مثل إشراقة مجنحة يرجف اهتزازها سائر جسدي.

«أنا بحجم ما أراه!» كلما فكرت في هذه الجملة بكل تنبهي العصبي، بدت لي موجهة إلى إعادة بناء أعلى للكون. «أنا بحجم ما أراه!» يا لعظمة هذا التموقع الذهني الذي ينتقل من بئر الانفعالات العميقة إلى النجوم العالية المنعكسة فيه، والموجودة بداخله، بشكل من الأشكال.

والآن، وأنا واعٍ بالطريقة التي أرى بها الأشياء، أنظر إلى الميتافيزيقا الموضوعية لكل السماوات بثقة تمنحني الرغبة في أن أموت مغنياً. «أنا بحجم ما أراه!». ويشرع غموض القمر المضيء الذي هو الآن في ملكيتي كلية، في تعكير زرقة الأفق نصف المسودة بالغموض.

لديّ رغبة في أن أرفع ذراعي وأصرخ منادياً بأشياء ذات وحشية مجهولة، وأوجه الكلمات للخبايا

العليا، بانياً شخصية جديدة شاسعة للفضاءات الكبيرة للمادة الفارغة.

لكنني أنكبح فأهدأ، «أنا بحجم ما أراه!» عبارة ستبقى هي الروح بتمامها بالنسبة إليّ. إليها ترتكز كل أحاسيسي، وعليّ أنا من الداخل، مثلما على المدينة، من الخارج، تنزل السكينة الملغزة من النور الناصع للقمر الذي يبدأ في الاتساع مع نزول المساء.

١٩٣٠/٣/٢٤

قرابات باطنية

من الانشغالات الثابتة المستحوذة على تفكيري سعيي إلى أن أفهم حقيقة وجود أناس غيري، وكيف أن هناك أرواحاً غير روحي، وضمائر غريبة عن ضميري الذي لا بد، باعتباره وعياً، أن يكون متفرداً-وفق تصوري-. أدرك جيداً أن الرجل الموجود أمامي، والمتحدث إليّ بكلمات مماثلة لكلماتي، والمستخدم لإشارات شبيهة بتلك التي أستخدمها أو يمكن أن أستخدمها، هو شبيهي بشكل من الأشكال. نفس الشيء، مع ذلك، يحدث لي مع الرسوم التي أحلم بها، مع الشخوص التي أراها في الروايات، مع الشخصيات الدرامية التي تمرّ أمامي في المشهد المسرحي من خلال الممثلين الذين يجسدونها.

لا أحد، فيما أفترض، يوافق حقاً على الوجود الواقعي لشخصية أخرى مطابقة له. يمكن أن يقبل بأن تكون تلك الشخصية على قيد الحياة، بأن تحسَّ وتفكر على نحو مطابق له، لكن سيبقى هناك عنصر اختلاف مجهول، على الدوام، وتباين مجسَّدٌ أكيد. ثمة وجوه من أزمنة سالفة، صور أرواح في كتب، هي بالنسبة إلينا واقعٌ أكبر من تلك اللامبالاة المجسدة التي تتحدث إلينا من أعلى العوارض الخشبية في الحانات، أو تنظر إلينا مصادفة في الترامويات، أو تلامسنا مارةً، في المصادفة الميتة للشوارع. الآخرون ليسوا بالنسبة إلينا بأكثر من مشهد، دائماً تقريباً، خَفيٌّ لشارع معروف.

لديَّ قرابة انتماء باطنية مع وجوه معينة موصوفة في كتب، ومع صور تعرفتُ عليها مطبوعةً، أكبر وأقوى مما لديَّ مع كثير من الأشخاص ممن ندعوهم واقعيين، ممن ينتسبون إلى اللاّجدوى الميتافيزيقية المدعوة لحماً وعظماً. وبالفعل فعبارة «لحم وعظم» نعت مناسب لهم: فهم يبدون أشياء مقطوعة موضوعة على السطح المرمري لدكان لَحَّام، موتى ينزفون على هيأة أحياء، كَوارِع وأضلاع القدر.

لا أخجل من الإحساس على هذا النحو لأنني رأيت الجميع يفعل ذلك. وما يبدو من احتقار بين رجل وآخر، ومن لا اكتراث يسمح بأن يَقتل أناس بدون إحساس بأنهم يَقتلون، كما يحدث بين المجرمين، أو بدون تفكير في أن ثمت قتل، كما يجري بين الجنود، فذلك لأنَّ لا أحد يعير انتباهاً للفعل ذاته. يبدو أن من العسير إدراك أن للآخرين أيضاً أرواحاً خاصة بهم.

في أيام، في ساعات معلومة، محمولة إليّ عبر نسيم أجهل كنهه، مفتوحة لي انفتاحة ما لست أدري من أبواب، أحسُّ فجاةً بأن صاحب دكان في زاوية الشارع كائن روحاني، وأن صَبِيَّة الدكان التي تنحني في هذه اللحظة قرب الباب، على كيس البطاطا، هي بالفعل، روح قادرة على أن تتألم.

عندما أخبروني أمس بانتحار صاحب الطبكيرية، لم أصدق، يا للمسكين كان موجوداً بدوره! لقد تناسيناه، جميعاً نحن، [. . .] جميعنا نحن الذين عرفناه بنفس طريقة كل الذين لم يعرفوه. غداً سوف ننساه بشكل أفضل. لكن الروح كانت موجودة لديه، كانت لديه روح، فلماذا قتل نفسه، أبسبب الحب، الضجر؟ لا شك. . . لكن بالنسبة إليّ، كما بالنسبة إلى الناس جميعاً، أحتفظ منه فقط بذكرى ابتسامة بلهاء من أعلى سترة نسيج وسخة، متفاوتة من الكتفين. هذا ما أحتفظ به من الرجل الذي انتحر، لشدة ما عانى من أحاسيس ذلك أنه لا ينبغي، في النهاية، أن يقتل أحد نفسه بسبب شيء آخر غير هذا. . . فكرت ذات مرة، لدى شرائي سجائر من دكانه أنه سيغدو أصلع في النهاية في القريب العاجل. لم يجد الوقت الكافي ليصبح أصلع. تلك واحدة من الذكريات التي بقيت لديّ عنه. فأي ذكرى سأحتفظ بها عنه، طالما أن هذه، بعد كل شيء، لَيْسَت بذكراه هو، وإنما هي من اختراع تفكيري الخاص؟.

أمتلك فجأة، منظور الجثة، منظور التابوت الذي وُضعتْ فيه في القبر الغَيْريِّ الذي كان ينبغي أن تُحمَلَ إليه. وأرى، على حين غرة، أن صاحب الطبكيرية، كان بالسترة الملْويّةِ، يُمثّل الناس جميعاً.

تلك كانت لحظةً وحسب. الآن، بالطبع، أنا حي وهو قد مات، لا أكثر ولا أقل.

أَجَلْ، الآخرون لا وجود لهم. . فلأجلي بالذات ينشر هذا الغروب، بثقل مجنَّح، ألوانه الضبابية والقاسية. لأجلي، يرتعش النهرُ الكبير، تحت الغروب، بدون أن أرى جريانه. لأجلي أنا شُيِّدتْ هذه الساحةُ المفتوحة على النهر بحركة مدّه وجزره الوشيكة. أوَ ثَمَّ اليوم دفنُ صاحب بالطبكيرية في المقبرة العامة؟ غروبُ هذا اليوم ليس موجَّهاً إليه. لكنه، وبدون أن أفكر في الأمر أو أرغب فيه، قد كفَّ كذلك عن أن يكون موجهاً إليّ.

١٩٣٢/١/٢٦

رماد على السرير

اليوم استيقظت باكراً جداً، في لحظة مشوَّشة، ثم نهضت من السرير على الفور تحت ضغط ضجر غامض لم يتمخض عَنْ أيِّ حلم، ولا كان صنيعة أي تجربة واقعية. كان ضجراً مطلقاً وتاماً، لا بد أنه كان مستنداً إلى شيء ما. في العمق المعتم لروحي، هناك قوى لا مرئية مجهولة شرعت في قتال كانت كينونتي ساحته، وأنا كلي كنت أرتعش للقتال المجهول. قرف فيزيقي من الحياة بكاملها ولد مع استيقاظتي. رُعْبُ ضرورةِ مواصلة العيش نهض معي من السرير. خاوياً بدا لي كل شيء وتولَّد لديّ الانطباع البارد بأن ليس ثمة أي حل لأي مشكلة كانت.

قلق فظيع جعل أصغر حركاتي ترتجف. أحسست بالارتياب والخوف من أن أفقد صوابي، لا جنوناً. جسدي كان صرخة دفينة، وقلبي ظل يخفق كما لو كان يتكلم.

حافياً قطعتُ بخطوات واسعة ومصطنعة، حاولت عبثاً أن أجعلها مختلفةً، المسافة الطولية الصغيرة للغرفة، والمسافة القطرية الفارغة للغرفة الداخلية التي يوجد بابها في الركن المؤدي إلى ممر المنزل، بحركات غير متماسكة وغير مضبوطة، لامست الفراجين الموضوعة فوق الخزانة. دحرجت أحد

الكراسي، وَبَيَديّ دفعت آخر ليترنّح على الحديد الحاد لقدم السرير الإنجليزي. أشعلت سيجارة. دَخَّنْتُها بلا وعي، وفقط عندما رأيت رماداً يسقط على رأس السرير ـ كيف؟ كما لو لست الذي وضعه هناك؟ ـ أدركت أنني كنت ممسوساً، أو ما يشبه ذلك، وأن وعيي الذي يفترض تملكي له، قد غاص في الهاوية.

استقبلت بشارة النهار، بالقليل من الضوء البارد الذي يمنح الأفق المنجلي زرقةً بيضاء، مثل قبلة امتنان للأشياء، لأنَّ ذلك الضوء، ذلك النهار الحقيقي، حرَّرني، حرَّرني مما لستُ أدري، منحني قوةَ شيخوخةٍ مجهولة، باتجاه احتفالات طفولة زائفة، وحُمَّى الراحة المتسولة لحساسيتي الطافحة. آه، أي صبيحة هذه التي توقظني على بلادة الحياة، وحنانها الأكبر! إنني أبكي تقريباً، ناظراً إلى الشارع الضيق العتيق ينجلي أمامي وتحتي، وعندما تكشف الستاراتُ الحديدية لدكان الزاوية ذلك الكستنائيَّ القذرَ في الضوء المرتشح بعض الشيء يُحِسُّ قلبي بانشراح حكاية عن جنيات حقيقية. ويبدأ في امتلاك وثوقية عدم الإحساس.

من أي صباح هذه المرارة؟ وأيُّ ظلال تتناءى؟ وأي غوامض تكمن هناك؟ لا شيء: ضجيج الترام الأول مثل فوسفور سيضيء عتمة الروح، والخطوات العالية لأول مارٍّ هي الواقع الملموس الذي يقول لي، بصوت صديق، لا تكن هكذا.

من يعيش مثلي

رتابة حياتي الخامدة الشبيهة بغبار أو قذارة متجمعة على سطح انعدام التغيير تبدو لي في أمسِّ الحاجة إلى التنظيف.

هكذا مثلما نغسل الجسد، علينا أن نغسل المصير، أن نغير حياتنا مثلما نغيّر الثياب. لا لننقذ الحياة، مثلما نأكل وننام، ولكن لأجل تكريس ذلك الاحترام المستقل عنّا والذي بالإمكان تسميته تخصيصاً: نظافة.

ليست القذارة لدى كثيرين قابلية إرادية، وإنما هي بمثابة استخفاف من الذكاء. كما أن الخمود والحيوية لدى الكثيرين ليسا شكلاً من أشكال الرغبة في الحياة، أو تنازلاً طبيعياً عن عدم الرغبة فيها، وإنما هو انطفاء للذكاء في أنفسهم، وتعبير تهكمي تلقائي عن المعرفة.

ثمة قذرون تشمئز منهم قذارتهم الخاصة، لكنهم لا يتخلّوْن عنها لنفس ذلك الحد من الإحساس الذي يجعل الشخص المرعوب عاجزاً عن تلافي الخطر. ثمّة قذرون بحكم المصادفة مثلي، ممن لا يبرحون التفاهة اليومية بفعل نفس جاذبية ذلك العجز ذاته، إنها طيور مفتتنة بغياب الأفعى؛ ذباب يطير عبر الجذوع بدون أن يرى شيئاً حتى يجد نفسه في المتناول اللزج لِلسان الحرباء.

هكذا أنقل رويداً رويداً لاوعيي الواعي، على غصن شجرة الاعتيادي. هكذا أنقل قدري السائر على قدمين، لأنني عاجز عن السير، هكذا أنقل زمني المتواصل، لأنني غير قادر على مواصلة أي شيء. لا ينقذني من الرتابة سوى هذه التعليقات التي أخطها. يسرّني توفر زنزانتي على واجهات زجاجية من داخل قضبان النافذة، وبأحرف كبيرة أكتب على الزجاج، في غبار الضروري، إسمي،

أكتب التوقيع اليومي لكتابتي مع الموت.

مع الموت ؟ لا، ليس مع الموت. من يعيش مثلي لا يموت : ينتهي، يذوي، يتيبس. المكان حيث كنتُ سيبقى خالياً منه هو، في الشارع الذي عَبَرْته هو الذي سيبقى غير مرئي هناك، المنزل حيث أقمتُ يقطنه اللاَّ ـ هُو. هذا كل شيء، ونُسمِّيه لا شيء؛ لكن ولا حتى تراجيديا النفي هذه بإمكاننا تقديمها مصحوبة بالتصفيق، إذ لا نعرف ماذا تكون إن لم تكن هباءً، نباتيات للحقيقة مثلما للحياة، الغبار المتجمع بكثرة من داخل كما من خارج الزجاج، أحفاد القدر وربائب الله، الذي تزوج الليلة السرمدية عندما ترمَّلَتْ هي من العماء الذي منه ولدنا نَحْنُ.

(بعد ١٩٢٣)

بفضل الذكرى

الشمُّ حاسة بصر شاذ. يستدعي مشاهد عاطفية بواسطة رسم مباغت يأتي من اللاوعي. مرات كثيرة أحسستُ بهذا. أمُرُّ بأحد الشوارع. لا أرى شيئاً، أو بالأحرى، أرى كل شيء، أرى كما يرى كل الناس. أعرف أنني أمضي عبر شارع موجود بالفعل بجانبين مكونين من منازل مختلفة ومشيّدة لأجل كائنات بشرية. أمُرُّ بأحد الشوارع. من إحدى المخابز تنبعث رائحة تبعث على الغثيان لحلاوتها : وإذا بطفولتي تنبعث من أحد الأحياء البعيدة، وإذا بمخبزة أخرى تنبعث من مملكة الجِّنيات التي هي كل ما فقدناه. أمُرُّ بأحد الشوارع أَشُمُّ فجأةً، فواكه اللائحة المائلة للدكان الضيق؛ فإذا لحياتي القصيرة في البادية، لا أدرى الآن متى ولا كيف، أشجار في نهاية الممر، مع طمأنينة تُفْعم قلبي وقد أضْحَى طفلاً على الدوام. أمُرُّ بأحد الشوارع، فتُبَلبلني، على غير توقُّع مني، رائحة منبعثة من درج بائع كُتُب : أوه ثيساريو [١٥]، ها أنت تظهر أمامي، وها أنا سعيد في النهاية لأنني رجعتُ، بفضل الذكرى، إلى الحقيقة الوحيدة التي هي الأدب.

غيوم ...

غيوم ... اليوم أمتلك وعياً بالسماء، إذ منذ أيام لم أنظر إليها لكنني أحسها، عائشاً في المدينة وليس في الطبيعة التي تحتويها. غيوم... غيوم... هي اليوم الواقع المركزي وهي تشغل بالي كما لو أن استخدام السماء كان من المخاطر الكبرى المحدقة بمصيري . غيوم... تمرّ من العارضة إلى الـCastillo [١٦]، من الغرب إلى الشرق، في صخب متفرق وَعَار، رثَّةً تبدو في طليعةِ ما لستُ أدري؛ بعضها نصف ـ أسود، نعم، وأكثر ابطاء، تتأخر لتصبح مكنوسةً من قبل الريح الجسور، سوداء من بياض قذِر، نعم، كما لو كانت ترغب في البقاء، تسودُّ من القدوم أكثر مما من الظل الذي تشرعه الشوارع كفضاء مصطنع بين الخطوط المغلقة للمنازل. . . .

غيوم... موجود أنا بدون أن أعرف أنني موجود وسأموت بدون أن أريد الموت. إنني الفاصل بين ما أنا إياه وما لست إياه، بين الحلم وبين ما صنعته الحياة بي، وأنا القياس المجرد والجسدي بين أشياء ليست في حقيقتها بشيء، لكوني كذلك لا شيء. غيوم... لَكَمْ ثَمَّةَ من لا طمأنينة في حالات

إحساسي، كَمْ ثمتَ من غمّ في تفكيري، كَمْ مِنْ لا جدوى في رغباتي! غيوم... غيوم تمرُّ على الدوام، بعضها يبدو كبيراً، لأن المنازل ما كانت لتسمح برؤيتها لو كانت أقل حجماً مما تبدو، وهي في طريقها لاحتلال السماء بكاملها؛ بعض آخر بحجم غير واضح، لعلهما غيمتان يمكن اجتماعهما في واحدة ستنشطر إلى اثنتين، بدون أي اتجاه في الهواء العالي فوق السماء المتعبة؛ ثمت غيوم أخرى صغيرة ما تزال، تبدو لُعباً لأشياء..، كرات مختلفة للعبة باطلة، باردة، باتجاه ناحية عزلة كبرى.

غيوم... أستنطق ذاتي جاهلاً إياها. لم أقم بأيِّ عمل نافع ولن أقوم بما يمكن تبريره. لقد استهلكتُ حصتي من الحياة التي لم أضيعها في الاعتراض الغامض على اللاشيء، محوِّلاً إلى شعر نثري الأحاسيسَ غير القابلة للنقل والتي بواسطتها أجعل الكون المجهولَ كونيَ الخاصَّ. لقد ضقت ذرعاً بي، موضوعياً وذاتياً. ضقتُ ذرعاً بكلِّ شيء، وبكل الكل. غيوم... الكل غيوم... فوضى من الأعالي، أشياء هي اليوم وحدها واقعية بين الأرض الفارغة والسماء العديمة الوجود؛ ضباب مكثف بتهديدات ذات لون مغيّب. قِطَع قطن وَسِخة في مستشفى ليس له جدران. غيوم... هي مثلي، عبور مشوَّهٌ بين السماء والأرض، بمذاق زخم لامرئي، مرعدٍ أو غير مرعد، تُزيِّنُ بالأبيض أو تُعَتِّم بالأسود، خيالات المدى، بعيداً عن صخب الأرض وسكينة السماء. غيوم... غيوم تمر، تواصل المرور دائماً، ستمرّ دوماً مواصلة مرورها، في التفاف متقطع لخصلات معكرة، في تمدد مُنْبَتٍّ لسماء مزيفة متفككة.

١٩٣١/٩/١٥

تراجيديا غامضة

لقد ذهب اليوم / يقولون / ، بصفة نهائية، خادم المكتب إلى مسقط رأسه، ذلك الرجل نفسه الذي اعتدتُ أن أعتبره جزءاً من هذا البيت الإنساني، وإذاً، جزءاً مني ومن العالم الذي هو عالمي. لقد مضى، عند التقائنا في الممر، بمصادفة منتظرة للوداع المنتظر، عانقتُه بخجل، وقد امتلكتُ ما يكفي من شجاعة لأمنع نفسي من البكاء الذي كانت عيناي المتقدتان ترغبان فيه من دوني.

ما من شيء كان ملكاً لنا، ولو فقط عبر أحداث المعايشة أو النظر العابرين، إلا وأصبح جزءاً منا لأنه كان شيئاً بحَوْزتنا. الذي مضى اليوم، إذن، إلى أرض غاليسيّة أجهَلُها، ليس خادم المكتب: بل قطعة حيوية، بَصَرية وإنسانية، من ماهيتي الإنسانية. اليوم تَمَّ الانتقاص مِنّي. لم أعد نفس شخص كل يوم. خادم المكتب مضى.

كل ما يحدث في المكان الذي نعيش فيه، إنما يحدث فينا نحن، كل ما ينتهي فيما نراه إنما فينا نحن ينتهي أو يزول. كل ما كان، لو عشناه كما كان، فمنا نحن انتزع بالذات عندما انقضى ومضى. لقد مضى خادم المكتب بلا رجعة مضى.

أُحِسُّ بالمكتب العالي أكثر ثقلاً، أكثر شيخوخة، أقلَّ مُطاوعة وأشرع في مواصلة كتابة أمس. غير أن تراجيديا اليوم الغامضة، تَقطعُ، بتأملات يجب أن أسيطر عليها بالقوة، السيرَ التلقائيَّ للكتابة كما ينبغي. لا أملك شجاعة لمواصلة العمل، إلا لأنني أستطيع، بفتور نشيط، أن أكونَ عبداً لذاتي نفسها. خادم المكتب مضى إلى غير رجعة.

أجل، غداً أو في يوم آخر، أو متى شاء جرس الموت أو الحياة المجرد من الصوت، كذلك أنا سأكون من لم يَعُدْ مَوْجُوداً هنا، ساكون الكتابَ المنقولَ المُستَغْنى عنه الذي سَيُحتفَظُ به في الخزانة الواقعة أسفل السُّلَّم. أجل، غداً، أو عندما يقولها القدر، ستكون هناك نهاية حتمية لكل ما تظاهر من داخلي بأنه أناي. أسَامضي إلى مسقط رأسي؟ لا أدري إلى أين سأمضي؟ اليوم، التراجيديا تبدو مرئيّةً... يا إلهي، يا إلهي، خادم المكتب إلى غير رجعة مضى.

١٩٣١/١٢/١٦

خيط حرير

الكلُّ باطل ولا معقول. هذا يكرس حياته ليجني مالاً يَدْخَرُه، وليس لديه أبناء يورثهم ذلك المال ولا أملاً في سماء تحفظ له قيمته. وذاك يكرس مجهوده للحصول على الشهرة ليموت بعدئذٍ، بدون أن يؤمن بتلك الاستمرارية الحياتية التي تجعله يتعرف على شهرته. وآخر يستهلك حياته للحصول على أشياء لا تروقه في الواقع (...).

هنالك مَنْ يقرأ لأجل المعرفة اللامجدية. هنالك من يستمتع بالعيش اللامجدي أيضاً.

في أحد الترامواياتِ، أمضي، متفحصاً على مهل، وفق عادتي، كل تفاصيل الأشخاص الموجودين أمامي. التفاصيل، بالنسبة إليّ، أشياء، أصوات، جمل. في لباس هذه الفتاة التي توجد قبالتي، أُحيلُ اللباس إلى القماش الذي صنع منه، والشغل الذي صنعوه به - أراه كلباس لا كقماش - والتطريز الخفيف حول الجزء المحيط بالعنق الذي يفصلني عن خيط الحرير الذي طُرِّز به، والشغل الذي تم تطريزه. وعلى الفور، ومثل كتاب أولي في الاقتصاد السياسي، امتدتْ أمامي المصانع والأشغال؛ المصنع حيث صنع القماش؛ من لون أكثر قتامة، الخيط الحريري الذي أحيط موضعه بجانب العنق باشكال صغيرة موشّاة؛ وأرى فروع المصانع، الآلات، العمال، الخياطات. عيناي المتحولتان إلى الداخل تنفذان إلى المكاتب، أرى الوكلاء يحاولون التظاهر بالهدوء، في المكتب، أواصل حسابات هذا كله. أرى، هنالك، الحيوات المنزلية لمن يحيون حياتهم الإجتماعية في تلك المصانع وتلك المكاتب... العالم أجمع يتمدد أمام عيني فقط لأنني امتلك أمامي تحت العنق الأسمر لِوَجْهٍ ما هنالك في الجانب الآخر، تطريفةً خضراء قاتمة على الأخضر الناصع لثوب ما.

كل الحياة الإجتماعية مضطجعة أمام عيني.

أتوجّس، فيما وراء هذا كله، غراميات، حميميات، أرواح كل الذين يعملون كي تكون هذه المرأة أمامي في الترام، حاملة، حول عنقها الفاني، الرثاثة الملتوية لخيط حرير أخضر قاتم منسوج من اخضرار أقلّ قتامة.

أصاب بدوار، مقاعد الترام، المصنوعة من تبن مشبَّك دقيق، تأخذني إلى جهات قصية، تضاعفني إلى صناعات، وعمال، منازل عمال، حيوات، وقائع، وكل شيء.

من الترام أخرج منهكاً وَمُسْتَرْخياً. لقد عشت الحياة بكاملها.

١٩٣١

ترجمة: المهدي إخريف

هوامش :

١) أحد شوارع لشبونة .

(٢) كاتب برتغالي .

(٣) سوارش الآن يشتغل منصب معاون حسابات .

(٤) José valentin Fiolho (١٨٥٧ - ١٩١١) كان كاتب يوميات مشهوراً وقصاصاً برتغالياً متميزاً تأثر بالتيار الطبيعي وبالأفكار التقدمية لعصره .

(٥) Vieira : الأب Antonio Vieira أنطونيو بييرا (١٦٠٨) توفي في البرازيل في نهايات القرن ١٧ ، فضلاً عن كونه عرف كخطيب كبير فقد الف كتاب Clavis Prophetarum الذي أفاد منه بيسوا في كتاباته السيبستيانية .

(٦) فضلت الإبقاء على هذه الأمثلة عن استعمالات فعل الكينونة الإسباني : ser كما هي لتعذر الوفاء بالمقصود منها في حال ترجمتها إلى العربية .

(٨) شارع متفرع عن شارع كبير تكررت الإشارة إليه هو Los Doradores (المترجم) .

(٩) لعل المؤلف يشير إلى منطقة MINO البرتغالية .

(١٠) Rotonda : هو الاسم الشعبي لساحة المركيز De Pombal وهي قريبة جداً من المطعم المعني بالحديث وإذن فالمبالغة هنا من المؤلف ذات قصد تهكمي واضح .

(١١) Bimfica : كان وقتها حياً نصف ماهول على أطراف لشبونة ، قبل أن يندمج فيما بعد في الفضاء العمراني للمدينة .

(١٢) مدينة أثرية قريبة من لشبونة .

(١٣) Soy yo.

(١٤) البرطو كايرو : النديد الأول الذي ابتكره بيسوا عام ١٩٠٨ توفي سنة ١٩١٥ .

(١٥) ثيساريو فيردي شاعر برتغالي .

(١٦) Castillo de San Jorge : يقع على ربوة باتجاه شرق لشبونة .



كيوثاء
(بزوغ اللون)

سليم بركات

البريق الذي التمع على الأدراج المغسولة برذاذ الخريف ، قسَّمَ خَتْمَه نصفين بين آثار « ميدو » المبعثرة على رقعة معناها الحجريّ. لسانٌ صغير تدلّى من فم الغيم ـ لسانُ نورٍ بلَّلَ الأدراج التسع والتسعين ، فالتمعت بالعافية ذات الأثداء المندلقة ملآى على أفواه الشجرات الزرقاء، المحيطة صفَّيْن بالأعمدة القديمة المكسورة، المتناثرة من نهاية الأدراج حتى ساحة الخان المرصوفة بالحجر الرمليّ الأصفر.
الرجال السبعة، الذين عبروا الساحة، ممسكيْنَ بأرسان دوابهم، أبقوا أبصارَهم ـ أبصارَ الكمائن العريقة على الشجرات يَصفُونها لأنفسهم بلسان العَجَب الصامت : هي زرقاء، أو تشرَّبَ لحاؤها وورقُها بنَفَسٍ أزرق من رئة اللامعلوم النَّديم. أكثرُ ورقها مبعثر، بإشارة من جواذب الخريف لأرواح النّبات، على المَعْبَر وحواليه، والقليل الباقي متشبثاً بالغصون يعرف أن الخفقة الأخيرة لجناح العافية ستبعثرهُ أبعدَ من مراقد شقيقاته، في اتجاه الساحة الدائرية حيث تنقذفُ الريحُ، أبداً، كأنما خيالُها مرصودٌ بالأرقام الصُّلبة لخيال الحجر.

سبع وثلاثون شجرة. ثماني عشرة تتقابل صفَّيْن، وواحدة مفردة تسدُّ الممرَّ في نهايته قرب الخان. « شجر المُعْجَم » ـ هذا لقبُها الذي استأنس به عقلُ المقيمين على مشارف أرض الآثار المطحونةُ، نقلوه عن لسان « أرْدَهان » حارثِ النَّقْشِ، ابن قاضي الطهاة راونْدْ لُورْ، دهقان الدساكر الثماني والأربعين في سنجق فِيْشْ خابور. هي شجراتُه في بستانه الحجريّ المترامي، من الساحة المرصوفة التي تقوم عليها دارتُهُ الفارهة، الدائرية، حتى آخر عمود مُنْقصف من إرث « ميدو »، على التلال المتوسِّدة عانة السماء البليلة غرباً. جَمَع « أرْدَهان » الشجرَ والحجَرَ إلى خلافته في مِلْكِ أبيه المنصرف، في عزلة قلبه

(*) الفصل الأول من رواية بعنوان « الأختام والسَّديم ».

ويقينه، إلى تدوين «فاكهةِ الرَّقْم» ـ الأَصواتِ ومراتِبها، بعد اعتزاله القضاءَ الذي أمضى نصف قرنٍ في فرعٍ من الأحكام لم يسبقه إليه أحد، ألا وهو فضُّ المنازعة بين الطُّهاة في إقليم شَهْرَزُوْرْ.

«شجر المعجم». كذا كنَّى «أردهان» الفصيلَ النَّباتَ المتسامقَ في حوزةِ فراغه. لم يشرح، إلاّ باقتضابٍ لا يُغْني، نازعَ خياله إلى تأكيد الكناية: «انظروا المعجمَ: تكثُرُ الكلماتُ فيه فتختبل. وشجري هذا كَثُرَ عليه ذهولُ الحِفْظ». الشجر ساهرٌ أبداً. مشرفٌ أبداً على ودائع المسكونات. «امتحانٌ نباتٌ مبوَّبٌ على حروف الدَّهْر» يقول الكهل، الذي انفتحت بوَّاباتُ قلبه عن مَهَبٍّ من النقوش على كل شيء: جدران دارته، وغُرفها، وأرضها، وساحتها، وأدراجها، والخان المُلحق بها، ومعادن آلاتها من الأسرجة والفوانيس حتى الأباريق وصِحاف الطعام. ويكاد أن يمسك الغيوم، في مرحٍ، ليعيدها إلى السماء مزَّينةً بصروفِ الأشكال وقضاءِ الخطوط. فهو المنحدر أصلاً من سلف تملَّكوا الإيالات في نواحي هكَّارْ بمراسيم من الخط الأيغوري، مدموغةٍ بأختام السلاطين الجنكيزية، عَمَدَ، في سخريةٍ استوفاها من أبيه، إلى «دباغةٍ بلا ألم في جِلْد آدميٍّ حيٍّ»: «العلوم والنّحو لا يكفيان لإبقاء الكرديِّ كردياً. جِلْدٌ تحوجه دباغةٌ، وكَشْطٌ بشفرة الرَّسم والخطِّ»، لكنه بقي على ريبته المأثورة عن سلالة نَسْلِ الجنِّ من الشعر. الكردُ لا يحبون صنف الكلام هذا، الذي يقيِّدُ الهيبةَ في الموقف ويُطلق الخفَّةَ بحساب المبالغة والاعتراف اللذين لا يليقان بالأقوياء. الجنُّ، الذين أورثوا شِعابَ الجودي، مذ تزوجوا الآدميات هناك، عِرْقاً ليس على مشارب النُّطَفِ في أصلاب الجنِّ، طووا صَفْحاً ـ بإلحاحٍ عذبٍ من نسائهم ـ عن تلقين الأبناء مرادفاتِ المعنى في طنينه، عبر صوتٍ ذي معارجَ في أوزانٍ لا تليق بالصوت كهبة حُرَّةٍ من النُّطق القُدسيِّ. ليبقَ إرثُ الشعر في موطن الجنِّ الأول، على تخوم اليابسة العريقة، أما الصُّقْع الجديد الذي استوطنتْهُ قبائلُه المرئية فما من حاجة بالقرائح إلى نَظْم الفكر فيه مبثوثاً في رحاب الصُّور، أو مغشياً عليه من أثقال البيان. هكذا وطَّد الدمُ المختلطُ من ماءٍ حيٍّ، وقرمزٍ مسكون، وفراغٍ متاه، نشأةَ الطَّبْع في الكُرد على حيلة الظاهر وحده، بلا توريةٍ، فيتصبَّب الواحد منهم من مسامة الطيشِ، والتهوُّرَ، ومنازعةَ الأرض على كونها أرضاً والسماءِ على كونها سماءً. لكن «أردهان»، المُنتدَبَ من جموح الطبائع في زلال خصيتيه على تسعة فرُوْجٍ مكتنزةٍ بلا خصامٍ في عصْمَةِ ذكَرِه، التفَّ على حيلة الظاهر من جهةٍ يغشاها العابثون، مزمعاً أن يعيد إلى أجداده من الجنِّ العُصاة، ممزِّقي قميص الطاعة على كتف سليمانَ النبيِّ العاشق، خمرةَ يقينهم في الكلمات المحسوبة ضلالاً يُرشِد الخيال إلى كماله: «سأحفر الشِّعْرَ على مناقير الطير ومناسرها».

هو لا يدري كيف هاجت به الإنعطافةُ من ريبة عقله في الشِّعر إلى تزويق الجسوم الصلبة في معمورة مُلْكه ـ مُلْكِ أبيه المنعزل، قاضي الطهاة ـ بالشِّعر حتى فاضت الخطوطُ عن مساربها في الأبهاء إلى العتبات، وانسرحتْ أبعدَ إلى حجر الساحة فالأدراج فالأقبية، التي ينحدر إليها الممسوسون بجلال الوجود الأرق ليتأملوا صفوفَ الجرار الملآى برماد أمراء جزيرة بوتان. الأب راوَنْد لُوْر خلط الأرمدةَ بالتوابل: لكل رماد ما يعادل طباعَهُ من الطَّعْم. وتدبير ذلك، عن عِلْمٍ دقيقِ النَّظَر كالمتحصِّل للأب راوند لور، هو شرعةُ بقاء الحقيقة متأصِّلةً بجوهرها في بذرة الجماد الجَوهر. الرماد والتوابل جوهران، أما الأرواح فهي أبخرةُ الطهو يتنشَّقُها الغيبُ الجائع ثم ينساها بعد الشبع. الأرواحُ عَرَضٌ

من أعراض الضرورة.

راوند لور اكتفى، في أعوامه الثمانين، بخاصِّية اللَّمس وحدها. الذوق نَفْسُه غدا لَمْساً. إصبعه تنتقل من الطعام إلى فمه، ومن التراب إلى فمه، ومن السطور، التي لا يراها في كتابه المهترئ، إلى فمه. يقرأ بلسانه - لسان المعتزل في الدهليز ذي النقوش الخضراء، على الصفيح الفضَّة، تحت الأربعة الأعمدة في بهو البيت الفاره. وقد أصغى قليلاً إلى الجَلَبة التي تدحرجت خافتةً صوب مرقد يقينه ففتح فمه. هَمْهَمَ. عاد بعينيه النازحتين من تِيْهِ النور إلى الظلام الكليم يتتبَّع قلوعَ الطهاة في عبورهم الأرخبيلاتِ الأزلية.

سريعاً التمَّ نفرٌ من المرحِّبيْنَ حول الرجال السبعة، الذين سلَّموا أرسانَ دوابهم إلى عناية القائمين بتدبير المباهج الصامتة للحيوان في زرائب الحجر، خلف الخان، حيث أعيد تصويب الغاية من الأعمدة المتحطمة في آثار «ميدو»، فرُفِعَتْ ثانيةً، وكُرِّمتْ بسقوف من جذوع الزَّان عَلاها الطينُ الأحمر المُغْتلم، والمداخنُ ذات القباب المثلَّثات - سليلةِ الشَّكل الساهر على حُلم الهندسة. وهناك، تحديداً، ضربت شفاعةُ النار والنوم مسكوكَها المعدنَ فانبثق من نَقْشَةِ المسكوك خانٌ هو الأكبر في الأقاليم المدحوَّة كرغيفٍ كونيٍّ من نواحي جبال طوروس حتى زاغروس، وأرارات، مع انفراجٍ في المشهد المسكون على الفراتَيْن وما يليهما شرقاً من أُمِّ المعمورات والمهجورات.

كانت أيدي الوافدين السبعة تُسلِّم الأرسان إلى الأدلاَّء المبعوثِين طلائعَ للخدمة، وعيونهم على الشجرات الزرقاء، قبل أن يخرج أردهانْ بنفسه إلى الساحة، من شَقِّ الباب القوسيِّ الضخم كختمٍ ضخم من الخشب المطعَّم بتسعة أرطال من الفضة جَرَتْ بها الحروفُ أقصوصةً عن لسان المُلاَّ سياهْ، مولانا السيد عبد الله الملقب بالشيخ الأسود، مدوَّنةً بالفارسية على نَسَقٍ من خطِّ الإمام السعيد في علوم الحبر والتدوير سعد الدين شمشاه الباهناني، الذي أُلقي به من قلعة الهناخْ بعد ضربها بالمنجنيق، في تاريخٍ عاثر الحظ. أُوَيْس أوْسِنْجَانْ بكْ الأعور كان إلى يمين أردهان. أمير النوم والنار، الموكل بتدبيرهما نقَّيْنِ، في الخان، أعطى إشاراتٍ من عينه اليسرى الوحيدة، المثلومةِ البياض بسيوف من العروق الحمراء المحتقنة، فهرع الخدمُ بالدواب إلى كمائن العلف والسقاية. وكاد يسبق مخدومَهُ أردهان بن راوند لولا أن سحبه مخدومُه من كمِّ عباءته يلجُمه من الإسراف في إعلان طباعه الراضعة من أثداء الهررة الكلدانية. فهو - أويس أوسنجان بك - مذ تسلَّم مقاليدَ إدارة الخان من سلفه أَنْداكيْ تاجْ، الذي مزَّقه سبعة غلمان من القاجار العابرين مع قافلةٍ بالخناجر، يستعرض على كل وافد مراقيَ من الإنشاء المتملِّق في لسانه، حتى لكأنه يستظهر سوراً من علم الأنساب والحمائل المتبوعة بسلاسل من الحمد والمحامد.

تراجع الأعور قليلاً. «أهلاً بكم» قال أردهان فاتحاً ذراعيه. احتضن السبعة واحداً واحداً يقبِّلهم من أعناقهم، فوق ذؤابات العمائم المعقودة باستدارتين هما علامتا المشرق والمغيب. تراجع قليلاً حين انتهى العناق - ساواهم بترحاب يديه وعينيه وقُبَلِهِ قبل أن يعرضوا عليه حدائقَ أسمائهم وثمراتِها. إنهم، تحديداً، أهل الغاية التي أسرجَ من أجلها الغيومَ ثماني مرات، يقودها رُسُلُه من منابت الريح في «ميدو» إلى فسطاط الله فوق ولايات الصفويين شرقاً، وولايات القاجار شمالاً، كي يذلِّل المطرُ،

بشفاعة ما لا لونَ له، طباعَ الُممانعات وجفافَها: «فلْيَحضروا، بحقِّ الخواتم»، قال أردهان للرُّسل خائفاً من أن يُخْذَل. وها هم حضروا - أولئك الذين عرضوا على برهة قلبه الممتلئة لَبناً أسماءَ حقائقهم المتصلة بالأنساب - بعد أن قادهم رُسُل أردهان من الولايات فرادى إلى ملتقى القوافل في قلعة بوران، من أرض النكبات - الجلود الآدميةِ التي كتب عليها الشاعر تولون فيغيني مديحَه العذبَ للجمال في صحراء الهون. ولمَّا اجتمعَ السبعةُ وسط امتنان الرُّسل للهبوب الموائم من جهات الأقدار، بُسِطَتْ الغيومُ الاستبرقُ لقوائم الدواب والعربات من قلعة بوران حتى نَجْد «ميدو»، وفي البرهات التي أصغى فيها أردهان بخواصِّ الصلاح الأعظم في مَلَكات الإصغاء إلى رنين الأنساب، كانت الغيوم تلك تُطوى لفائفَ كوسائد الأمراء في حاضرة «مُوْش»، وتُطْلَقُ خفيفةً فوق أرائك الأبد ذات التطاريز البويهيَّة: «عودي يا بنات الحِيْلة»، تمتم أويس أوسنجان، محدِّقاً بعينه الواحدة إلى الغيوم، وانحدرَ بها - بعدئذ - يُحصي السعة. أرعدتْ غمامةٌ مسَّها لسانُ كبده: «أين الثامن؟» ساءلَ خيالَ الأرقام ذا النُّظُم المهجورة.

«مَيْكَر بَابُوْليس بينهم»، قال أردهان. شَمَّم بأنفه الرَّقْم السبعة - رقمَ الميزان ذي المكاييل المتدلية من حزام العَدَم. هو ليس رقماً، في الأرجح، بل نَفَسُ المشيئة بعد فراغها من تسطير الميثاق الُممْتَحِن. سبعة أيام بلاءٌ قرب عقل النشأة. الكلُّ بلا نقصان، من الروح حتى فساء الذئب. سبعة لا تتوازن في كفتين: تلك هي المُعضلة. أردهان وزَّع حسابَ الكينونة على حَدَّيْن هما رباطُ المعقول. طلبَ ثمانيةً فحضرَ سبعةٌ. كيف سيقتسمون زادَ اللون ومَتاعَ الشكل؟ هم أمراء في مهنة التشخيص رَسْماً. تحت أيديهم ممالك من صور الممسوسين بالكَرَم القُدسيِّ استعادوا بها خيالَ اللامعلوم ناطقاً.

وها أردهان، ابن قاضي الطهاة في شهرزور، يستميلهم بهباته فيُحْضِرُهم إلى «ميدو»، كي يُعِيْنوه على استيلاد شيخَيْنِ من الممسكيْنَ بتلابيب المُعْضِل استيلادَ البزرة من الممكنات؛ شيخين لا اسميهما جسارةُ المحسوسِ بيَدِ اليقين، لكن ينبغي أن يتخيَّر لهما الرسمُ، بالحفظ الذي لا يقبل التسوية إلاَّ عَدْلاً تتعافى به مداركُ الظاهر قَبْل الباطن، بهاءَ الإقامة في حجابٍ مرئيٍّ، حاضرِيْنِ غائبيْنِ، مشرفيْنِ من البرزخ على البصر في استحالة بصر الناظر إليهما قلْباً، ووجداناً، وطَعْماً من مَذاق المشمومِ الخالد: ريحِ المجهول. لقد تطاول، في ماضٍ من علومِ اللون، مبشِّرون بمآدب الكشوف المرقونة، على تخطيط المشور من ظلِّ شخصهما، فاقاموا الصناعة مقامَ «نداء الهيئة»، وهو علِمٌ يتحصَّل بالمِران على مخاطبة اللون. وصلت الرسومُ إلى أسواق تبريز، وديرسيم، ونصيبين، وملاطية، من غير روح. والذين علَّقوها إلى جدران منازلهم بخيطان من قنَّب، أو ألياف من قصب الأهوار السوداء، عادوا فأنزلوها، بعدما سَرَى أن إماماً في أرض بوتان سمع استغاثة اللون في رسم الشيخين النقشبندي، والكيلاني. «بَرَكَةُ اللون من بركتهما»، قال أردهان. «سنعيد إلى اللون كرامةَ حضوره الأزلي تحت عرش الله»، وهو يرمي بلسان الفقيه البسيط فيه إلى أن الظلامَ - خرزةَ السواد الأولى في الموجودات الجوهرية القائمة بذاتها - موصوفٌ أوحدُ في إشارة الإلهيِّ إلى مكين إقامته، بحسب الشروح الكبرى والصغرى في علوم «الأَيْنيَّات» الشديدة المقاييس: كان العرش، منذ ما لا يتَّصف ببدءٍ، في عماءٍ كليٍّ - سوادٍ مُعَتَّقٍ في قارورة القِدَم. ومن السواد؛ من خَلِّه الحامض الأنيق، ارتسمت - من ثمَّ - عَلَقَةُ البياض حتى غدت

فراشةٌ تسرح فوق غمر الوجود المنبثق من أجاصة الطين.

يقيناً، لا يحاول أردهان أن يمضي إلى تأويلٍ أبعد من اختصاص قلبه بالمحظورات الشفيفة، وبإرث العقل البسيط بلا خزائن تُذْهِل وتَصْرَعُ، حين يصف القائمَ على إمارة خانِه وملحقِه الإسطبل الشاسع أويس أوسنجان بقرابة الأصل مع الكرامات وحقائقها : «أن تكونَ مجذوباً ـ وأنت لستَ مجذوباً يا أويس، أو تكون لك عين واحدة ـ ولك عينٌ واحدة، فذلك تدبيرٌ لا يَخْفى معناه عليك. لقد أُعْطِيْتَ حظّاً في الأقدَمَين: الظلام والنور. الحقيقة فيك، يا أويس، أصلُها في عينك المُطفأة، الحُرَّة. بها، وحدها، ترى من أنت يا أويس. النُّورُ غِيْرَةٌ. منذُ بدءَ النُّورُ بدأتِ الغيرةُ. المرئيُّ ـ لا سواه ـ يغار من المرئيِّ». هكذا تتأوَّلُ العلومُ شراراتِ الجمر في خزائنها : خُمِرَتْ طينةُ آدم أربعين صباحاً حتى نضَّجَ عجينُها الخالقُ صورةَ الحركة. الصباحاتُ ـ النُّورُ هي التي وهبت الرُّشيمَ الذاهلَ، المستورَ في ذهوله، خصِّيصة النَّقْلة إلى الوجود العاقل: وُلِدَ الشكلُ؛ وُلِدتِ الدائرةُ الناطقةُ بلسان الجَدَل؛ وُلِد الحِلْفُ الذهبيُّ للمعجزة في قفير الجسد الآدميِّ، حيثُ يدخل نحلُ الغيب غاضباً ويخرج غاضباً، مسعوراً من قيظ الفكرة ذاتها : أن يكون الوجودُ ميثاقَ الضجر من وجوده وجوداً.

منذ بزَغَ النُّورُ، المُنضجُ للخمائر في قِدْره، بزغَ الإمتحان. أُضيئتِ الخلائقُ المستولَدَةُ من كمال غيبوبتها في البرهة التي قدَّرَتِ المشيئةُ لها أن تكون امتحاناً. ما ينتظرُ الكائنَ، بعد عثور النور على تاريخٍ للنور، هو الامتحان، أي خضوع الماهية امتناناً لِمَا لَمْ تستطع تلافيه، وأن تنطحنَ بحثاً عمَّا يُرضي أسبابَ مثولها ماهيةً بعدَ أنْ لم تكنْ.

ما قبل النور ليس ما بعد النور. في الظلام كان كلُّ شيءٍ ـ كلُّ عقلٍ، وفراغٍ، وإرثٍ مكنونٍ، اختزاناً للأزل في تقدير الله للظلام أن يكون ذاتاً تتحدَّد بوجوده، هو، في مغاليق ثِقله.

الظلامُ هويةٌ تقومُ بها ضرورتُها؛ خلاصٌ لا يخصُّ أحداً؛ رسولُ الإلهيِّ إلى نَفْسه في المُطْلَق المُعذَّب شوقاً إلى اللاَّمقدور، اللامكنون، اللامتَّصف، اللامُثْبَت، اللاوساطة، اللامنتقل، اللاموجبَ له أو عليه، اللا إحاطة، اللا خاصيَّة، اللامعمور واللامهجور. لكن، حين قُدِّر للنور أن يُنشِىءَ خميرةَ الامتحان الأولى، انجرفت مصكوكاتُ الغيبوبة الكبرْى إلى التعلُّق بالأسماء فصارت علوماً ناقصةً في تقدير الآدميِّ القادم من مصنع النور محمولاً على خِفَّةِ آلاته، التي ينكبُّ بها ترميماً على قَدَره كي يوسِّع لنَفْسه باباً إلى القبر.

مع النُّوْر جاءت الأسماء؛ جاء الصوغُ الأكثر قسوةً في تنظيم الإشراقات على هَدْيِ النقصان وتبعية التعيين. لم يعد لشيءٍ منجى من الفتنة. «عينك الفارغة ـ عينُ القِدَم شاهدةٌ على عينك الملآى ـ عينِ التبذير، يا أويس، فاحفظْ لنفسك هذه الحظوة»، يقول أردهان. غير أن عيني أويس تخاصمتا وهما تحصيان الرجال الواقفين على ذراع من أنفاس ابن قاضي شهرزور : سبعة. يا للرقم المتدلِّي كخصية من حجاب الأرقام. «أين الثامن؟».

إنها برهته الأولى التي يتعرَّف فيها أردهان إلى ضيوفه ـ أمراءِ التشخيص بأقلام اللون وترياقاته : الظلامُ الأسودُ، وجراؤه البقيةُ من أحمرَ وأصفرَ وأخضرَ ومهتوكٍ ومستورٍ. لا بأس. هم ندماء المُسْكِر من الخصائص المُسْكِرة في اللاتعيين، يُشرقون على العماء من مجاهل الشكل، ويستولدون الخفيَّ

خدعةً في مضائق الخطوط. فتح أردهان ذراعيه كأنما يطوِّقهم بالهواء الذي هو امتداد جوارحه اللامنظورة. «تفضلوا»، وأشار إلى باب الدارة، ثم تلمَّس بأنامل يده اليسرى كتفه اليمنى، حيث تتدلَّى خرزتان صفراوان في خيط ذهبي.

تقدَّم السبعةُ المنبثقون نقوشاً آدميةً في لوح الفراغ الظاهر. أُزيحت الستائر البيض، المخرَّمة، المنسوجة بأنوال قرى سَهرابْ، عن النوافذ الدائرية الثلاث، بأنامل أنثوية، كي تستجلي العيونُ خصائص الخطوات المُحْكمة لذكورٍ موصوفين باقتدارهم على ترتيب الوجود الصامت مشتعلاً من فتيل العدم الكتيم. فتح فرهاد الطاهي، ابن الفقيه مَرْدان زَنْكَنَهْ، البابَ الضخم، ذا الصرير المشموم كفراء شجر الزَّان. دخل السبعة يتبعون أويس. تبعهم أردهان، فالطاهي، فثمانية فضوليين من نزلاء الخان، فالفتيات الأربع اللواتي دَرَسْن، بتؤدة، نداءَ الكيفية في الايوان الأكبر، خلف الفُسقيات الستِّ المتقابلة بمياه نوافيرها، وهنَّ ـ بحركاتٍ من أيديهن المختومة بثمارِ الحناء، تلكَ التحفِ النازعة إلى التماثل مع حروف اليقين مصادفةً ـ يتأكدن من ثبات قبعاتهن المصنوعة من رقائق المصكوكات النقدية في ولاية أربيل. قبعاتٌ كالخوذ الرقيقة؛ فلوسٌ فضةٌ معقودة بسلاسل مجدولةٍ كسيقان خنفساءِ الكَرَفس، فوق مناديل الرأس. ثلاث منهن كذلك، والرابعة بعمامة تتلاطم في دائرتها، من الجبين حتى القذال، ذوائب من وَدَع بحيرة وانْ.

مرَّ الجمْع من حديقة الدار المسقوفة بقبة واسعة الأرجاء، عالية على نسق المساجد في أرضروم، جُعلت لها كوىً بزجاج أزرق وأصفر، تُرى على حوافها أعشاش سنونو ـ ذلك الطير الذي تُبْقى له منافذ إلى الفسطاط الحجريِّ المُغْلق، كي تتكرَّم بعلوم نسله المزقزقِ خيواتُ السَّكينة الكبرى. طيرٌ فكرةٌ. سواد في بياض. حجابٌ سوادٌ من الظاهر وبياضٌ من الباطن. مثلث صغير بُنيٌّ في الرقبة، أسفل المنقار، هو أثرُ نبات الحنَّاء تعرَّف الرعاةُ به إلى كشفٍ من الخضاب، مذ رأوا الطائرَ يمسح برقبته على الغصون، فزيَّنوا أوداجَ الخراف، وإلْياتها، ثم اتخذت النساءُ بعصارة ذلك النَّبْت، ونقيعِ اليابس من ورقه، حُجُباً من رسوم الغيب على أيديهن، وأقدامهن، وحلمات أثدائهن، وفوق العانات الحليقة، لتبقى حقيقةُ الجسد مستيقظة في كمالها الساحر، ألفاً بعد ألفٍ، كخلود الرَّجفة في العناق المُسْتَنْزِف ماءَ الذَّكر بشِفرة الأنثى. طيرٌ فكرةٌ، يرقد بصدره على حواف المياه حين يشرب، ملتقطاً صورةَ ذاته الشفيفة رشفةً رشفةً كي تتوزَّع في جوارحه بنداء الكثافة. هو يلد صورتَهُ وتلده صورتُهُ. ذرقُهُ يُصفَّى في الخلِّ الأبيض فتُؤْخَذُ غثاثتهُ الطافية على السطح فيكون لها مقامُ حبرٍ فضيٍّ. ربما الأمر؛ بحسب توصيف النظر إلى نشأة الأَحْمَاض، أن السنونو شَرِهٌ في التقاط يرقات الحلزون من مراقد الماء وحوافِ البِرَك، فإذا انحلَّت أصدافُ اليرقات إلى عصارة في المعدة خرج السلحُ من المعي صمغاً زئبقاً، أو شاكلَ الزئبقَ بلا سُمِّيَّةٍ. وقد اتقنت الفتياتُ الأربع، الموكلات بمخاطبة الحصى في حديقة زانا خاتون ـ امرأةِ أردهان الأولى، نقيبة نسائه الأُخريات الثماني ـ استطلاع مساقط الذُّرْق في عبور السنونو فوق الفُسقيات الستِّ إلى الأعشاش الخشنة، فيأخذن الحصى الملطَّخ إلى قوارير الخلِّ، ثم يُرجعْنَه إلى مواضعه: كل حصاة عروة في القميص الأرضيِّ الممتد الحواشي في الفناء الشاسع تحت القبة الشاسعة. حصىً حملته بغال مُوشْ، ذات الجباة الضيقة، من كهوف الصحراء الباردة شمال

تبريز، إلى «ميدو».

الينابيع، التي تعبت من فكٍّ لغز الظاهر، عادت غائرةً في اتجاه الباطن المُداهِن ـ خزانة أرقام السِّحر الرثة ومتاعه المهترئ، تاركةً خلفها، في عماقة الزمن ما بعد القلق المصغي إلى الماهيات المحيِّرة، سبائكَها الكُرَيَّة، بألوان كأعين الضفادع الزرقاء العلجومية، والسمندر الطويل الذَّنَب، ذي السموم التي تفجِّر أقواس قزح في ممرات الخيال المنحدر إلى الموت، إذا سُقيَ به المغلوبون والمخدوعون. حصىً هو لعبة الجماد في إنقلاب اللدائن على نفسها، وانتقال المعادن الناطقة من برزخ الفلز المعتزل إلى الإجتماع المؤنس، في صورة الكتلة الملتحمة بانجذاب الذَّرات بعضِها إلى كمائن بعضٍ. رخويات الهيئة الهيولى، والخلايا الآحيَّة في فتنة وجودها البسيط، تتصلَّب، بانسلاخها من ديْنِ الماهية المُطْمئنَّة إلى ديْنِ الماهية المجرِّبة بلا احتراز، فتغدو حالاً من بشرى الحجر بميلاد السكون العاقل. لا خصائص أنقى من خصائص العَدَم المُستَحْدَث في كينونة الحصاة؛ لا جمال أكثر ثرثرةً من الذي لحصى حديقة زانا خاتون، تحت أظلاف غزلانها التسعة، التي استعرضت ـ في هدوءٍ مفصَّلٍ على مقاس النوافير التي تقرأ للفسقيات ضياءَ القبة العُلْوية ـ عبورَ الرجال المرسومَ على لوح الجَبْر. خُصيَ غزالٌ فمات لوعةً على ذكورته المهتوكة. بقي تسعة تحت غمامة قلب زانا. وصلت يدا الطاهي فرهاد إلى الغزال في حمّى خياله المُنَقِّب عن سطر الله الناقص في مصير أردهان: منيَّةٌ لا يُنْجب. لا خيالَ لمنيِّهِ كي يستحدث، بآلة الصور في ظلام خصيتيه، شكلاً زلالاً يَثْبتُ على لوح الأرحام. عنده تسع نساء، اختارهنَّ بجلود عليها نقشُ الولاية الأزلية للملائكة المسرعة بالصلصال المشوي إلى غمامة الصفات، حيث اتخذ اسمُ آدم من حروفها الشفيفة توريات القلق. الذَّرُوْرُ الدقيق، الذي تناثر من الصلصال، دحرجَهُ النفخُ الإلهيُّ إلى الظلِّ الأول ـ ظلٌّ الأجنحة المرفرفة في الغيهب، هناك، تحت لسان اللامنطوق الذي سيغدو تأويلاً مؤرِّقاً في بزوغ حواء من عضلة المكيدة عَصَباً من لون. شروقٌ مُعْشٍ تخلَّل عظامَ الذَّكر بأمشاطه ـ أمشاط التبرُّج فتباعدت ضلعاً ضلعاً لتخرج صورةُ المصكوك الثاني تأكيداً لصورة المصكوك الأول مختوماً بختم اللحم الحيِّ. تقلَّبت الأنثى الوليدةُ على الظل فعلق بجلدها ذَرُوْرُ الصلصال، ذلك التدوين الأول للنقش الذي سيُسمَّى نَمَشاً. وقد امتحن أردهان بَرَكةَ النقش الموصوف بجلال الحقيقة، فاختار نساءه ببشراتٍ يترقرق تحتها مسيلُ الحليب أو ينبسط الشفقُ أحمرَ برتقالياً، بيضاواتٍ حُميراواتٍ، على خدودهن وأنوفهن ثرياتُ نمشٍ تُقاسُ ـ خيالاً ـ بالتطابق بين فَلَك الأبراج وفلك النجوم. أما الدروب الخفية لمجرات النمش، التي تفتح لنفسها في الأثير الدافئ للكثافة مساكبَ من أكتاف النساء حتى ترائبهنَّ، ومن السُّرر حتى قباب الفُرُوج، فتلك أقاليمُ تستطلعها أنفاسُ أردهان إذ تنتحل علومَ الرعاة، غاديةً رائحةً بالقطعان القُبَل في سهول الجسد الريح. لقد وطد الرجلُ ـ حرَّاثُ النقش ـ للحقيقة خصائصَ البناء كي تلد له ذريَّةً من الرحم الموصوف، باختبار النمش، يقيناً لا ينفذ إليه عبثُ المصادفة، فإذا بالعبث يلتهم أملَ الصور في أن ترتدي أمام مرآة المنيِّ ثوبَ الشكل. امرأةً بعد أخرى هيّج السديمُ العَدَمَ في خصيتيه. فحولتُه المخضبةُ بالحناء كراحتي يديه فكّت رباطَ رئتيه في كل استنزافٍ لقَدَرِ الماءِ فيه، حتى لتكاد نساؤه أن يوقِنَّ أن يدين خفيتين تتفقَّدان في أحشائهن، من مضائق المهبل إلى المَبيْض، علاماتِ المشيئة التي يهتدي بها تدوينُ الصور على لوح

الخَلْق، لكنهما لا تعثران إلا على الهباء.

سطرُ الله الناقصُ، إذاً، أَلْهم الطاهي فرهاد أن يستجير بالممكنات المستورة في خيال التدبير. نزل السردابَ إلى ملجأ قاضي الطهاة راوند لور، وهو يحمل صور الأختام التي سيُضمِّنها كتابَه الفريد الطريف: «مأدبة الإعدام». الأبُ الدهقان، مزلزلُ الأحكام في أمورٍ لم يسبقه إليها قاضٍ قط، كان منصرفاً إلى قراءة الفصول الناقصة في المؤلَّف الذي لن ينجزه: «فاكهة الرَّقم». راوند لور لم يكن طاهياً ليحفظ لنفسه شَرْعَ الأحكام عن مرانٍ في خصائص انتقال العناصر إلى أطعمة، وانتفاع الحِيَل بالحِيَل في توليد الأجناس من روائح الطهو ونكهاته، لكنه تتبَّع الحواشي المُهْمَلة في تصانيف السِّيَر الثماني - سِيَرِ القصَّابين المعتمدين في قلاع بلاد زوزان، وبخاصَّةٍ سيرة بوري الهدهد، عالِمِ اللّحم في قلعة جُرْذقيل، التي فيها كرسيُّ ملك الكرد آتيل.

اللحمُ قِيَافةٌ. علومُ الأعصاب، والأوردة، والألياف، والشحوم، والغضاريف، والأغشية، والعظم، والنخاع، والنِّقْي، ستورٌ تُزاح عن مراتب التفضيل. لا قطعة من جوارح الحيوان المذبوح تشبه الأخرى في مَسْلَكِ الطهو. أسرارٌ بَلْغَمٌ، وعَلَقٌ، وماءٌ، ودم، وأبخرة تجسَّدتْ كثافاتٍ في نشأة الجَسد الحيوانيّ. أسرارٌ تلزمُها آلةُ النظر في إقامة العقل على مشارف المُلْغِز - آلةُ القيافة، ذلك الهمُّ الذي يستجلي بالنُّقصان الإنسانيِّ شواهدَ المُحْتَجِب. قصَّابُ قلعة جُرْذقيل، بوري الهدهد، صنَّف مثاقيلَ المستورات على مقاس الطعومَ في أجزاء اللحم، فاستهدتْ بوصفه الطُّهاةُ القيافون. وقد آلت قراءةُ سيرته بالقاضي راوند لور إلى استخلاص الطباع على هَدْيِ مقادير التوابل، كعنايةٍ عِرْفانية، واقتدارها على تنظيم السلوك بعد الشَّبَع. ولَمَّا فرغ من ملاحظات في هوامش السيرة نقلَها إلى مَتْنٍ مخطوطٍ اعتمده الوقف الإسلامي في شهرزور، بعد تشاحنٍ قوي، وتقاذفٍ بالتهديد بين الطهاة انتقل منهم إلى أسياد مطابخهم من موبذانات الإقليم وأمراء الإيالات. كلُّ مقتدرٍ انتصر لطاهيه، وتوابله، وأعشابه، وأسرار أخلاطه في الانتقال بالطهو من أسر الوعاء إلى كرامة الذوق المستنير بخصائص الفردوس الموصوف نكهةً بعد الأبدية. رُفِعَت المظالمُ، قبل استفحالها شرّاً يأخذ بيد الخير، إلى القضاء الذي اعتلى منصَّته راوند في جبَّته المقصَّبة الأكمام، فأخذ بيد الطهاة والموبذانات، معاً، إلى أحكامٍ هي تفصيلٌ كالقيافة في شؤون النِّسبة، والمقادير، والمثاقيل، تكون قاطعةً عبر امتحانٍ للطهاة يحملون - لاجتيازه - توابلَهم، وقواريرَ خلِّهم، وحُققَ الزجاج المُستخدَمة لتقدير الكمِّ، إلى المحكمة، فيجري ردُّ المُسْتَحْدَث من الطَّعْم إلى مُسْتَحدثه، وابتكار الخَلْطِ إلى مبتكِره، وتغريم منتحلي التوصيفات، ونشَّالي أسرار الأوعية، بالتعريض بهم في ورقة ممهورة بختم الولاية الفقهية يتمُّ لَصْقُها على باب الخان. وتلك غاية ما تستطيع المحكمة فعله لتعذُّر التغريم والمعاقبة على أي وجه آخر ما دام الطهاة في عهدة أمرائهم. وكانت سرقة النكهات المرصودة، والطعوم المُسْتَغْلِقة بحرصِ المبتكِرين، قد شاعت في تلك الأنحاء، بعدما تبادل الطهاةُ دسَّ النساء العاملات في المعاجن، الخبَّازات منهنَّ وموقدات النار والغاسلات، في مطابخ الآخرين يجعلون منهن عيوناً على أيدي المَهَرة وقوارير مُطَيِّباتهم.

راوند لور عزَّز علومَ فرهاد زنكنَة بالشفاعات التي تبيحُها الأسرارُ المُحْكَمة في مذاهب الطعام، منذ التحق فرهاد بمطبخهم شاباً في عمر ابنه أردهان. صقل بمبرد الجسارة خناجرَ النكهات ونصالَ

التوابل، بتحريض الشاب الطاهي على التمرد في حلقة الموازين من حوله، حيث المعارف تتشاحن بين القوارير، والأوعية، وقفف المجفّفات أعشاباً وفاكهةً وقشورَ أفاويةٍ. ولمّا نضج الشحمُ الرقيق على عضلة العقل الحافظ، في خزانة قلب الطاهي الشاب، المؤتمن مع أمه سَهْبَا، وأختيه قبل زواجهما، على مملكة الدخان العرّاف، أباح له راوند أن يروِّض ما يشاء من الكيفيات المهجورة أولاً، بإعادتها إلى سُنَّة المآدب، والتلاعب بالمكاييل ثانياً، بحسب ذوقه المتأمِّل في بروج النكهات وأفلاكها المعدودة على سُلَّم الأرقام الغبارية: «الطعامُ فِقْهُ الحقائق».

حين أشرف راوند لور، دهقان الدساكر الثماني والأربعين في إقليم فيشْ خابور، على ثمانيناته، حجب نظرَةُ الغمامُ المتسرب من سهل الجمجمة إلى الوقبيْنِ ـ غمامُ الخليَّة وهي تنحدر من شفق المعلوم الأرضيِّ إلى المجهول الأرضيِّ، بدفعٍ من حيلة الوقت المعهودة. صار يتقرّى حدودَ الممكن بلسانه وأصابعه، في السرداب الذي اتخذه أسطرلاباً على أطلس العماء الكبير، تحت الطبقة التي تنتصب على رخامها الناطق بحكمة جبل كاسْ الأربعةُ الأعمدةُ في البهو المفضي إلى حديقة زانا خاتون. آنئذ، في الوحدة الرملية المحروثة بخطوات شبح زوجته الميتة ريشمَلَكْ، وبأنامل حنينه الحديدية إلى أبنائه الأربعة الآخرين، أوقد سراجاً من شحم الطاووس فوق غطاء الجرة التي يحفظ فيها رمادَ الملا سياه ـ الشيخ الأسود، وجرَّد خطوطاً عشواء، وأرقاماً، وكلمات، بالمصادفة التي تقود يقينَ يده على الرزمة الضخمة من ورق الأرزِّ، بعدما ثبَّتَ على رقعة من جلد السلّور الصحراوي عنواناً بحبر القرمز: «فاكهة الرَّقْم»، متبوعاً بسطرٍ أسفلَ: «أسباب الصوت واتصالها بأسبابها الماهيات الأخرى للخيال الناطق»، بلغة كُرْدِ زوزانْ، أعانه على استقامة حروفه على الطرْس فرهاد زنكنةْ نفسُه، الذي تسرَّب إلى عضلة الخلود فيه صمغُ الثمرةِ الزجاجية ـ ثمرةِ الكمال غير الناضجة بَعْدُ على غصن السّدرة، فاستثار الدّهقانَ المُنكبُّ على العماء المولود من شمع بصره المحترق في أمر مكيدته الإنسانية: «ماذا تقول، أيها الشريف القاضي، في أن أجمع مُصَنَّفاً في الطعام المسموم ـ ملوكٌ أعدُّوا الموتَ لضيوفهم على الموائد؟»، فاستعان القاضي ببصر المصكوكات العمياء، المضروبة بالختم الآجُرِّيِّ على لوح المعلوم المستور:

ـ كيف استقصيت المداخلَ إلى الملوك، يا فرهاد؟

ـ بخطوات الموتى في المآدب.

ـ حَسْبُكَ هذا. استَعِنْ بخيال المواقد.

ـ بل أستعين بخيال الدخان.

في الهزيع الثاني من كل ليل، بعد أن تتجرَّد الظلالُ من طبائع النُّور الداهية، وتتنفَّس مُمتنَّةً لأزَلِها العريق، يجلس الطاهي الكهل إلى جوار القاضي الشيخ، أمام المنصة الحجرية الواطئة، المطوَّقة بحزام من الأجراس الفضة الصغيرة، منكبين، معاً، على الورق الخشن، بصريرٍ واحد من قصبتَيْ ريشتيهما ـ ريشتَيْ جناح الألباتروس الأسود، اللتين شهدتا تدوين انتقال سبع وثلاثين ألف خزانة من الزمرد، في قرنين، من فاتحٍ إلى فاتح، في خطٍّ من الريح يصل بحار الإله أوْدنْ الأشقر بكهوف كريت، حيث استقرَّتا على منصة المِيرْمِيْرانْ، المنتدب من سُلْطة الختم الذهبي في شمس الترك على الجزيرة المنزلقة

عن سكة البحر في اتجاه غياهب الشرق الحرِّيف. الأمير بدرخان، أمير جزيرة بوتان المنفيُّ تسلَّم الريشتين من الآمر على الجزيرة، الميرميران الحالم بنقل الجزائر اليونانية على ظهور الثيران إلى الجبال، والصعود بها، بوساطة حبال من تكك سراويل الباشَوات البدناء، إلى سرير النجم العثماني ـ نجم القِشدة. أمير جزيرة بوتان، نفسه، كان يغرف من حليب الحلم الجبلي في أرض الكرد المنتدبين على إماراتهم بختم مثقوب، ينظر منه الشاه طهماسِبْ إلى الغرب مرة، والسلطان سليمان خانْ إلى الشرق مرة أخرى. وفي الآناء التي يتبادل فيها الشاهات والسلاطين النظر إلى معجم الممالك المنكوبة في البرزخ بين الحقيقتين، تركض جياد سعاة البريد من جهة إلى أخرى، بحقائب من جلود النُّوق فيها رؤوس الخارجين من الكرد على أختام الأمصار الكبيرة: «رأس مَنْ معك، اليوم؟»، يتنادى الفضوليون والسعاة: «رأس الجوهريِّ. رأس نقاب الفضة. رأس البرق. رأس الحجّام. رأس البزرة». رؤوس بلا أسماء. ألقاب من طحين أصفر. وقد ترأفت العناية الجبريَّة برأس الأمير بدرخان فبقي بين كتفيه، كي يشهد عشر سنين من النفي في جزيرة الثور الإلهيِّ ذي القرنين الحجريين، مع نسائه الأربعين. ولما اشتعلت شرارة النهب الكبرى بين الطورانيين ـ أبناء زَبَد مرمرةَ والبوسفور وبين الروميين اليونان، أبناء الآلهة العجولة في سراديب أحلامهم البشرية، فتح المنفيُّ السجينُ بابَ داره، التي خصَّه بها أقوياءُ الآستانة احتراماً لأرومته الأميرية، للاجئين اليونان، واستحدث حكمةً غدت أحكاماً تحت قلم الميرميران، الذي أهداه الريشتين يوم أُفرجَ عنه: لقد وطَّد الكرديُّ العبوس لسجّانه ركنَ الرياسة في مذهب المنازعات العمياء بجسارة العدل ورهبته.

من بدليس ـ أرض الدنيا الثانية في عرف الأمراء الكرد المنكوبين سلالةً عن سلالة، حملت ريحُ البحار المحجوبة تحت رمال الإخشيديين ريشتَيْ جناح الألباتروس إلى قضاة شهرزور، فأحكم راوند لور يَدَيْ علومه المؤجّلة في كهانة الحبر القادر عليهما. غسلهما بماءٍ فيه رماد الوزغ، وحفظهما في جعبة صغيرة من صَفَن الجاموس معلَّقة إلى عمود في البهو الذي يعلو السرداب الحافظَ رمادَ الملا سياه. «رائحة هاتين الريشتين تدغدغ عِرْق الشهوة في باطن فخذي اليسرى»، كان أردهان يتَعلَّل بمنطقِ الشبهة الذكورية فيه إذ يقول جملته الدائخة، ويقسم أنه يسمع لهاث أمير بوطان نافخاً في كِللِ أَسِرَّة نسائه المنتفخة أشرعةً في أرخبيلات النار العذبة. أربعون امرأة، أكثر من نصفهنَّ يزيدياتٌ ـ فروجٌ موهوبة من عناية الظاهر الجليل للباطن الجليل. لَحْمٌ رائقٌ كفكرة تروِّض نَفْسها على اللامتعين في القياس؛ لَحْمٌ مرئيٌّ، مدوَّن بحساب الخصائص الصغيرة في الكيمياء، لكنهُ مُستَغْلِق، مُلْغِز، مفاجئ؛ هُذَاءٌ ـ لحمٌ هُذاء يسوط به العقل تَرَفهُ الوحشيَّ في استعراض الله للعقل. اللحمُ الفَرْجَ. الخاصية المستعصية إلاَّ على الوصف الأخرس. أربعون امرأة. أربعون تورية تحت سقف البيان، واليزيدياتُ، اللواتي استأنس الأمير بدرخان منهنَّ بمجرات من ريش الطاووس ـ الطائرِ المَلَك، الذي بقفزتين يعبر الفردوسَ الأزليَّ متعقِّباً الأبدَ الهاربَ المتنكِّر في هيئة الثور كيوثاء ذي الأربعة آلاف عين، مرشد السحاب؛ اليزيدياتُ أولاء نقشن على وسائد الأمير مغانمَ ملائكة الليل ـ العصاةِ النورانيين في اقتدارهم على تبديل الكلمات السبحانية بالأرق المطهو جيداً على جمر الصيرورات: النجوم المُذنَّبات، وأوراق الجرجير ذات العروق القرمز، والأسماك بعيون آدمية، والبيارق المتماوجة في ريح العَدَم الأول؛

تلك نقوشُ الفكر وهو يمتحن البقاءَ بحساءِ الكمأ الذي لم يُغْسَل من رمل الفردوس المذعور.

قيل لأردهان إن الأمير ذاك، العارف بعوارض السُّموم واخلاطها، كان يسأل واحدة من نسائه، كلَّ الصباح، عن حلم حلمَتْهُ ليتأوّل مثاقيلَ يومه، فاتخذ أردهان الأمرَ لنفسه عرْفاً، مع زوجاته القِزلْباشيات الثلاث دون سائر الأخريات. أحلامهنَّ عوارضُ من مصكوكات النقود المضروبة في منازل التركمان، على الحدود مع أقاليم الصفويين. نقود لا تشتري شيئاً في أرض شاهات الشمس الشرقية ولا في أرض سلاطين الشمس الغربية فوق قوس الأناضول. نقودٌ حيرةٌ. نحاسٌ مستديرٌ بلا إتقان، ذو حواف رقيقة ممحوَّة النقش، ودواخل ثخينة في المراكز غير مستوية، تظهر الحروف عليها متقطِّعة. أسماء أئمة مطوَّقة بإشارات من جبر الباطن-الألف المستقيم، والمثلث، وهاء الشبهة والمتاهة، وأقواس الحَصْر. نزوعٌ إلى اللاتعيين لا يُغضب المذاهبَ إذا غلَبتْ أو انْغَلبتْ في الصُّقع المترامي المشمول بمصادمات الملائكة من طوروس إلى صحراء الملح الكبرى بخراسان. ثلاث نساء قزلباشيات، من مجموع التسع، تخصَّصن في نقل الصباح من كمين النُّور إلى كمين المصكوكات النقدية، كي يُشرف أردهان من منبع ذكورته على العوالم النقيَّة في بلُّور الجماد الناطق: «ربع قطعة النقد، في الحلم، يعني نزول ضيوف على الدار يحملون أقمشة. نصف القطعة يعني حلول حُمَّى من ريحٍ خبيثة. القطعة كلها، بتمام نقوشها، تعني غَدْرَ القربى بالمواثيق». لكن لم يحصل أن انفردت واحدة منهن برؤية أكثر من خيالٍ معدنيٍّ لا يشبه المصكوكَ النقدي تحديداً، ولا يشبه غيره. إنما-بالجزم والقَطْعِ-هو خيالٌ من إشراق النحاس التركماني المصكوك بضغطٍ من أختامٍ محفورةٍ في كُعْبُرَة نمر الجَليد.

«الدنيا كأس، والفَلَكُ هو الساقي، والأَجَل هو الشراب»، يردِّدُ أردهان كلما فزع من الإنصات بعظام يقينه المتلامسة إلى إحداهنَّ. ويضرب على فخذها مداعباً: «أَمَا في نقوش نقودكم صورة طفلٍ، يا أهل الباطن؟»، مُلَمِّحاً إلى سطر الله الناقص في سيرته هو، التي يأبى منيُّه أن يستحدث لها بياناً بآلهة الكمال في ترتيب الصور ذُرِّيَّةً، ونسلاً، وزينةً، وصيرورةَ لحمٍ وعظامٍ يكتسي بها القَدَرُ النَّحيل كمزمار المهرِّج. وذلك السطر، بتحديدِ الحبر المحوُّ فيه من رداءة أخلاطِهِ اللامُتْقَنَة، أَلْهَم الطاهي فرهاد أن ينزل، ذا فجر بارد، إلى سرداب راوند لور، وفي يده كُراتُ جوز. جلس على زرابية تحتها لُبُود أسود، مواجهاً الرجلَ الشيخ المتمدّد متكئاً برأسه على راحة يده: «أتنام الليلَ، أيها السيد القاضي؟»، قال، وضغط الجوزات، حبَّة على الأخرى في راحتيه، فانفلقتْ. ترك اللُّبَّ ينهمر على حِجْره فوق الجلباب، ووضع القشر القاسي جانباً.

«ما الليل، يا سليل الفقهاء؟»، رد الدهقان ذو البصر المحتجب في غمام الرجاء المدحور.

بقي الطاهي، المتوسِّل بمذاق المجهول إلى المعلوم، منصرفاً إلى كشف القشور القاسية عن حروف الطَّعْم ذات التلافيف الشبيهة بأدمغة الملوك. وضع في فمه فُصّاً. طَحَنه. تمتم الشيخ الدهقان:

-الزبيب مع الجوز يخفف جفاف الفم في الفجر.

«يَعْلق عُجَم الزبيب بأضراسي، أيها السيد القاضي»، قال فرهاد.

«ما الليل؟»، عاد الدهقان إلى مساءلته.

«قِدْرٌ»، ردَّ حاكم المذاقات العادلة.

«قِدْرٌ تغلي»، قال الدهقان. تريث يستنبتُ حشائشَ لسانه الناطقة، واسترسل ثانيةً: «ما الذي يفور منها زَبداً، يا سليل الفقهاء؟».

«اللون»، رد الطاهي.

أنزل راوند لور ساقيه عن فراشه واستوى جالساً. حدّق إلى الطاهي بعينين انكفأتا إلى تدبير السديم: «ظننتك ستقول: الألم».

رد الطاهي عمامته الصفراء إلى الخلف قليلاً يحكُّ لَمّةَ شعره، فوق الجبين. تقرّى أعماقَ الشيخ بأنامل الحذر:

ـ ما الذي يجعل مَنياً يختلف عن غيره؟ لقد بلوتَ أخبارَ الذُّكْران الأقوياء والموْهَنيْنَ، أيها السيد القاضي.

«خيالُ صاحبه»، ردَّ الدهقان من وراء ستر العبث الشفيف. تحسَّس علبة السَّعُوط الذهبية فوق غطاء الجرَّة، التي يحفظ فيها رماد الُملا سِياه. استنشق مثقالين، من كل منخرٍ دفعةً، قَدْرَ ما جمعتهُ السبابةُ والإبهام في رِفقٍ. هزَّ رأسه كي يتمكَّنَ طحينُ التبغ العسليُّ من النفاذ إلى قَدَرِ العقل، ويلتصق بالحقيقة النازفة فيجمِّد نزفها: «أيقلقُك أن أردهان لا يُنجب، يا سليل الفقهاء؟»، قال الدهقان.

«هو ينجبُ، قَطْعاً، أيها السيد القاضي. له في أرض ميدو ذريّةٌ من علوم المسالك التي تنتهي إلى خانِه، ومن علوم النقش والتدبير..»، فقاطعه الشيخ:

ـ لكنه لا ينجب أطفالاً.

«الأطفال يُعوَّضون»، تمتم حاكمُ المذاقات بنبرةِ المواسي، فردَّ الدهقان:

ـ لا. الأطفال خيال الرجل.

«وأفعاله أيضاً»، قال الطاهي ملتقطاً شرارةَ الحكمة النازلة إليه من فراغ المسكونات.

«اللحم الناطقُ أمر آخر، يا سليل الفقهاء»، قال الدهقان الشيخ.

صمت فرهاد. مضغ فصّاً من لبِّ الجوز وهو يعاين وجه الرجل المتلبِّد في خسوف اللون:

ـ أليس لأردهان خيال؟

«بل فيه إفراطٌ يبلبلُ الشكلَ. منيُّهُ مَحْوٌ من ازدحام الصور بعضُها ينهش بعضاً، يا سليل الفقهاء»، قال الدهقان الشيخ.

صَمَتا. طقطقَ الجوز متكسراً في راحتي فرهاد الضاغطتين، في الفاصل الذي علا فيه بخارُ الثُّقل من خمائر العقل المنبسط على ثغرة المعلوم الحائر. تكلم الشيخ:

ـ اجعلْ على وجهه تبرُّجاً كلَّ عشاء، قبل مواقعته امرأةً من نسائه، وأطعِمْهُ خُصىً مختلفة.

سمَّر الطاهي بصره على الودائع الخفية في قسمات الشيخ: «تبرُّجاً؟!»، تمتم بلسانِ المستنكر، وأردف المساءلة إلى المساءلة: «تعني أن أجعل على وجهه عصارةَ الورد بحبِّ السُّمَّاق؟ أن أدهن جبينه بالشِّيْرَج؟ أن أخطِّط حدودَ شفته السفلى بحبر صَبِّيْدج البحر؟ أن أمسِّد صدغيه بالحنَّاء المخفَّف؟ أهذا...».

«نعم»، قال الشيخُ بصوتٍ رنَّ فيه فِلزٌّ صلدٌ. ابتسم فرهاد:

ـ سيظنني أهذي إذا فاتحتُه بطلب كهذا.

«نعم»، رد راوند الشيخ، مثبّتاً بصرَهُ الفارغ على المعنى المرصود، فلم يطلب الطاهي إضافةً. طحنَ جوزتين في حِجْرِه: «ما الخُصى التي ترجّح أن أُطعمَهُ؟».

«الأقل استنزافاً للشهوة؛ الأقل تبذيراً في الجماع»، قال الدهقان.

«لا علوم عندي في خواصَّ كهذه»، نَطَقَ حاكمُ المذاقات.

«دوِّن، إذاً، على ورق المقادير في الخواص: خُصى القنافذ، والأروى، وديَكَة جبال أرارات، واليربوع، والحدأة الشاهين ـ أسراب منه تقيم في وادي الظل؛ وذَكَر الطاووس، والشاذهَوارْ».

«الشاذهوار؟»، تمتم الطاهي مستغرباً.

«حيوان النَّغم»، قال الدهقان. أحْكم يديْ يقينه على ريش الحضورات المسؤولة: «الصَّفير الذي في شعاب قرنه الوحيد سيوقظ ملاكَ النُّطفة. شيء مَّا نائم في زلال ذكورة أردهان. آلةُ المجابهة مع السديم نائمة يا سليل الفقهاء، فادهَنْ عتَلَتها المُحَرِّكةَ بمَرَقٍ فيه خُصى الشاذهوار».

هزَّ الطاهي رأسَهُ مُستَكثراً. بأرضِ رومَ زوجان من الشاذهوار ـ زوجانِ ريحٌ في الغِياض المسوَّرة بقصب الملوك. زوجان هُمَا هُما، منذ عبور الإسكندر ذي القرنين أنفاقَ المحاجر، التي اقتلع منها جنُّ الأنهار الكبرى حجارةَ قصر الملاك الكَروبيِّ إبليس قبل العصيان. رجالُ فاتح الأقاليم السفلى والعليا، مرشدِ الحكمة إلى إسطبل العلوم بلا تعنيفٍ أو قَسْرٍ، سمعوا زوجي الشاذهَوارْ ينفخان من مناخيرهما المثقوبة سَبْعاً سَبْعاً على كل جهةٍ ما يشبه صوتَ القياثر في أرخبيلات البحار المفقودة. وإذْ أصغى بنفسه إلى الحيوانين، المُحتَجَبين في غلالةٍ من بخار الهَوْر الذهبيِّ، لم يتوقف عن البكاء حتى بلوغه، في المساء السادس والعشرين من ميسرته، أرضَ التيه الأصغر، التي ينبت فيها الفُطر مُخْتَبلاً من رائحة غدَّة سِنَّور الزَّباد فائحةً كشقيقيها المِسْك والعنبر. بَدْليس، غلام الإسكندر، المتنصِّت على خزائن الهندسة العريقة في إشارات الكهانة، انتشل الرموز الأكثر غبرةً. مسح الهَبابَ عن أرقام التدبير، وأسند الخطوطَ المستقيمة إلى نهايات المُطلَق المنعكفة على نَفْسها، فخرج من بين يديه، من شرانق السديم المسفوح على ورق المعماريّين، فَرَاشٌ يحلِّق مثلثاتٍ مثلثاتٍ. أكمل الرسومَ الدهرية بأقلام الوجود العارض حتى انتصبت قلعة من حجر وطين على الهضبة هناك، بجدران مائلة تتلاقى في الأعلى كسُلالتها الأخرى من الأهرامات ـ تلك المدائح المعلّقة من أثدائها إلى كُلاَّبات البلاغة العدمية. ثم جعل على القلعة رَصْداً من أسرار الخلود المتاه سمَّاه «طلَّسم الباب»: آدميٌّ من نحتٍ بارزٍ في صخرة عظيمة، يحمل على كتفيه ثعبانَ الحجاب الأبديِّ، المشرف من جهالة الجماد على الوجود المدوَّن مسالكَ التصاريف. ثعبان بعين واحدة لم يقيَّض له، في الأرجح، أن يهتدي إلى شجرة الرَّازِيَانجْ، التي من خواصها أن تعيد البصرَ إلى سلالته في آتي الزمن، المحكوم في روايات العِلْم المُشْكِل بصناعة أحداثه الواضحة، المُسَطَّرة قبل وقوعها بحبر المصادفة الجبرية. أحفاد ذلك الثعبان مسحوا عيونهم العمياء بالشجرة تلك فأبصروا خيالَ الموجودات ظاهراً مرئياً، من ألواح الغيم حتى شهوات السيدة «عُنُق»، ابنة آدم التي عزا إليها العارفون كشوف البغاء، في السنة الثانية من نزول أبويها إلى حراثة الأرض، متلقِّفين من السماء بذور الحنطة والدُّخن. الريحان، الغامض التأويل، هو ما ستهديه

الأفاعي إلى كسرى فارس، فيكون لهذا النبات ظهوره الأول في عهده، بعدما خُبِّيءَ بزره طويلاً عن آفات العصيان المتقنّعة في أشكال العِطْر. والقلعة، التي بُنيَتْ مشرفةً من الهضبة على أقواسٍ من متاهات الظاهر، مثلثة الحجرِ، مثلثة الحيلة؛ القلعةُ الخيالُ المنصرف إلى تأويل الخلودِ الثعبان، سُمِّيت باسم غلام الاسكندر: بَدْليس.

لم يدوِّن الطاهي فرهاد، في قائمة الخُصى المبوَّبة على حروف المعجم الناقص، ما يتَّصل الشين فيه بحيوان الشادهوار، بل نزل به إلى الشادن، بعد إفتاء من الدهقان راوند لور بجواز تعريب اسم ابن الظبية الوارد على صورة حرف آخر بالكردية، كي يتمكن المعنى من الاستحواذ على ضلالة الشكل، ويروِّض الكثافة التي هي تورية الله الأولى حين استولدَ الروحَ من شوقه إلى ابتكار المرئيِّ. شفرة رهيفةٌ جَبَّتِ الكُرتيْن من أصلهما المتصل بإحليل الحيوان المنحسر إلى سديم الباطن، تحت حجاب الجلد. ارتعشت قوائمه المُحْكَمة الوثاق، ونطق لسانُه ـ لسانُ الأكيد الذي يعيد اللغةَ إلى طبعها استغاثةً يتوسل بها العبثُ إلى المشيئات: هكذا استقرت خصيتا غزال من غزالات زانا خاتون العشرة بين يدي دَرْديْ وَا، ابنة الطاهي، دافئتين في صفنهما المغطّى بوبر أبيض. حامو، أحد مساعِدَي فرهاد الموكَّليْن بشؤون المؤنة يُحصيان النواقص فيكملانها من تجار الزاد والتابل، الصق الحديدَ المُحمَّى بموضع النَّزْف. اختبلَ دخانُ الكيِّ من نشيشِ العناق بين المعدن واللحم. فُكَّ وثاقُ الغزال في حظيرة النعاج التي اقتيد إليها فاستوى واقفاً مصعوقاً. ارتجَّ عِرْقا صدغيه، وتدحرجتْ خدعةُ الحياة قطرةَ دمع من زاوية عينه اليمنى.

زانا، التي شقَّت كمَّ قميصها كَمَداً من أثر الغدر، وهي القمينة أن تُبَلَّغ من قَبْلُ بالإهانة المُحاكة لحيوان حديقتها، ضربت عنقَ الغزال بحدِّ اليَطَق الذي استلّته من حزام الطاهي، فوق الحصباء المحيطة بالفُسقيات الستِّ، في اليوم الثاني من إخصائه. حزَّت، في لَمْح كشهاب النقائض بين يدي الملاك نمرود الهارب، بلعومَهُ الرقيق ووريديه. شخر الغزال مبهوتاً. ركضَ في اتجاه الأبواب الأربعة الدفينة في رمال خياله كي يعبرها إلى شفق الغيبوبة الرحيم. سقط في البهو الشاسع، الحجريِّ المُطوَّق دائرةَ الحصى بحنان، ثلاث مرات، بانزلاقات من أظلافه على الدم. سقط ونهض. أحصى صورَ الحقائق المُمْتَحَنة بألمه، ثم استسلم للأرقام الكبرى تحت ساعة الفراغ السحيق. ترك جسدَه لحجر البهو الصقيل لكمالٍ نائم، وألقى بخيال كينونته الثانية إلى شبَاك المغاليق.

بُهِتَ الجالسون على زرابيات البهو آنئذ، وقد مسَّت نعالَهم – المخرومة الأعناق فوق أرساغ الأقدام بسيُورٍ من عَصَب الجِمَال المغولية ـ رذاذُ الحياة النازفة حمراءَ من عنق الغزال. رنَّ في عظام أعقابهم حديدُ اليطق إذْ رمتْه زانا من يدها متبوعاً بالقَسَم الكامل ـ قَسَم العناصر الستَّة التي يزن بها الوجودُ عقلَ الظاهر الكلِّيِّ؛ قَسَم الماء، والهواء، والتراب، والنار، والروح، واللون: «لا أكون زانا خاتون، ابنة السنجق بَكي ابراهيم عز الدين أخلاطي، إذا تركت أحداً يمسُّ هذا الغزال»، وأوحت بدفنه إلى عمال زوجها في حقول الريحان القرمزي، وزنجبيل عُمان، والأفْسَنْتين الروميِّ، والسُّورنجان القويِّ في التداوي به من آلام النقرس؛ أوحت إليهم فدفنوه تحت بقايا القوس الرابع من فسطاط «ميدو» الحجري المتناثر. لكن أردهان كان قد التهم خصيتي حيوانها قبل ليلتين من دفنه، مسلوقتين في رُبِّ العُنَّاب الحامض

مع دقيق ملتوتٍ في شحم البطّ. وزاد فرهاد في مواءمة موصوفات الباه على مراتبها اللونية فزيَّن الخصيتين بورق العَبَيْثُران النيء. ثم تتالت على ليالي حرَّاث النقش أردهان راوند لور خُصى البهائم النبيلة، المعلومة الأنفاس شهيقاً وزفيراً بعدد مراتب الغابات الدهرية، وسهول التدوين المُحيِّر بأقلام الريح؛ خُصى الوَرْوَر الصغيرة كحبوب القمح، وخُصى الحجل المستطيلة كحبوب الفاصوليا، وخُصى القنافذ المسطَّحة، وخُصى ضبِّ الرمال، وخُصى الشواهين ذوات العروق الصفراء، وخصى التيوس المغلَّفة بقشر أزرق، وخصى ثيران الهور في نواحي الخابور، وخُصى الجِمال، والأكباش التي لم تُسَافِد بَعْدُ، وخُصى الثعالب واليرابيع. كلُّها قُشِّرت بأناة، ومُلِّحتْ ثم عُلِّقت في صُرَرِ كتَّانٍ على غصن من شجرة الميْس يواجه الشرق، كي يهبَّ عليها نَفَسٌ من يقظة النور التي هي برهان الشكل على استعادة عافيته صورةً جسْماً وظلالاً. علوم التقدير الصغرى توكل الخصية بتاريخ هو انحسار السديم عن خيال الإنسان، الذي لم ينجب بنيْنَ في رفاهته الأولى تحت نقوش الفردوس. في الكمال - تقول علوم التقدير الصغرى - لا اقتدار للعقل على توليد الجسارة. الفردوسُ الكمالُ حجب العقلَ عن استيلاد ذاته في خصائص النقصان الجَسُور: لقد أُعطيَ الأسماءَ الكُلِّيةَ مدوَّنةً على اللوح، والثناءُ - وحده - هو ما يتوجَّب عليه أن يرهن به خصِّيصتَهُ كعقل. ولَمّا أُعفي الإنسان من حاصل وجوده الفردوسيِّ، الذي تبنَّى نشأتهُ إنساناً، ونزل من مقام الكمال إلى نقصان الطبائع الكثيفة، استعاد الخيالُ في الذَّكَر مشيئةَ البرهان، فاستولد ذاتهُ من خصيتيه بآلة الأنثى التي هي حاصلُهُ: هناك، في الوعاءِ الصَّفن الرقيق، المتجعِّد، المنكمش كقطيفة، أسَّستِ الصورُ لصناعتها حَلْبة الشكل، ومهَّدت لانبثاق المنظورات.

«أعطه غذاءً فيه عينُ الماهية». هكذا ألزم الدهقانُ طاهي البيت بإرشادٍ من عقل المُعْضِلة، ورسم بإشارة من يده، في الفراغ المصكوك كدرهم القزلباشيين، كُرتيْنِ هما مجموعُ الأرقام الأزلية. وأكد الصورةَ فوضع راحته، في جلالٍ، على موضع خصيتيه.

غير أن أردهان تحوَّط، منذ إخصاء الغزال، لشأن نَفْسِه إذ رأى في عيني زانا توريات الحيلة، وسمع من قلبها طنينَ يعسوب الزَّنْجَفْر - حشرةِ الثأر: «ستدسُّ هذه المرأة في طعامي سمّاً، يا فرهاد»، قال، مصارحاً حاكمَ المذاقات.

«سنحتكم إلى الحجر»، ردَّ الطاهي.

لا علوم تنجو من البُحران إذا هبَّ عليها نَفَسٌ من لغز الحجر. فلزٌّ كريمٌ، وفلزٌّ متواضع، وفلزٌّ رديء. خيال مرفوع بعَتَلةِ النار إلى مشهد المُعضلة الخلاَّقة - معضلةِ حساب الصيرورات بأرقام الله العَدَمية. الكمال المائيُّ ينحسر طائعاً أمام الكمال القيد، ذلك الارتجاع الصلب للجفاف الذي انبثق منه التراب الصلصال حيّاً، خفيفاً في نور شهوته. وُضِعَ الصلصال أولاً بين يدي المشيئة؛ وُضِعَ الفلزُّ الصلب أولاً، قبل انقلابه طيناً من سَكْبِ الماء. الخيالُ المتحدِّرُ من نشأة خواصه الصلبة وزَّع مراتب المُحْدَث - أصلِ الحيلة وكتابها ذي الغلاف الهاذي: حجرٌ زينةٌ. حجرٌ ملجأٌ. حجر سُمٌّ. حجرٌ حِيْطةٌ. حجرٌ ترياق. على الأرض بدأ كل شيء في اتجاه السماء، حتى أن الجحيم ذاتها يكون وقودُها الحجر. لا بأس. فصوص الزمرد للزينة، والصوان للقلاع، وسُحَاقة الماس للموت تسميماً، والخزف المرقون بالحروف للرُّقى، وسُحاقة حجر المغناطيس للترياق الذي يُبطل السمَّ. «ضع هاتين الخرزتين في مكان ما من

ظاهر ثوبك»، قال الطاهي لحرَّاث النقش، بعد يوم من مفاتحة الأخير له في ريبته من زانا. خرزتان عُلِّقتا بخيط ذهبي إلى كتفه اليسرى. «إذا قُرِّب منهما السمُّ عرقتا عَرَقاً كالندى»، أضاف حاكم المذاقات.

الياقوت الأسَمانجوني يوصف ترياقاً لدفْعِ السموم جميعها، من الأفعى حتى الزرنيخ. أخوه الماس الأصفر يعرق إذا قُرِّب منه السمُّ. تيمور كوركانْ لنْك، الذي عضَّ أصابعه أمام حجارة قلعة الجزيرة، في أرض ماردين، وأقسم ببيْضِ سمندل النار وتنين الريح الأخيرة أن سيذبح الهواءَ نَفْسَه إذا لم يسلِّم إليه الكردُ شيخاً فرَّ إليهم لاجئاً، لم تكن لوعته على زخْرفِ الذهب وفصوص البلورات النبيلة، بل على خرزٍ كوَّرَهُ مُتقطعاً بشفرات الرصاص الأسود من ألواحٍ حُملت إليه من محاجر ما بعد ليل السهوب الكبرى. وثق بالشيخ موجود بن رُوْنَا فحمَّله تُحفاً إلى عمٍّ له ففرَّ الشيخ بالنفائس إلى حاكم قلعة الجزيرة الأمير عز الدين المعدود من حكام العزيزية. أربع خرزات فتحت لقلب تيمور كوركان لنك علوماً لم تكن لأناس قبله: تخاطُر الحجرِ البلَّورِ والسم. غوَّاصون في متاهات المعلوم المجهول عثروا، بإشراق الخيال وإرث سِحْره، على مفاتيح المقدور الصغيرة، يفتحون بها خزانة الكَرَم ـ خزانة الخواص المحوَّة القُفْل إلاَّ من نتوءٍ رَمْلٍ. نكتوا الرملَ بعيدان شجرِ المُصْطَكى ربيبِ هواءِ الخليج المفقود في بحر الروم، فانجلت لهم المساررات العَشْرُ بين الهواءِ البلورِ من جهةٍ والماءِ المحموم من ثقل عِلْم السديم: عناصرُ الحيلة وعناصر النشأة في اضطراب، تتمازج ثم تتفارق. ومن المحنة يتولد البخارُ العريق الذي يتكثَّف فيكون السُّمَّ.

قطْرٌ متخثر، أو قطْرٌ سائلٌ، مُميتان، يتبعان الحياةَ من مهد بِذرتِها. غير أنهما مسكونان، في الآن ذاته، بكرامة المحنة المخصَّصة لأقدار الأحياء، فتصيبهما الحُمَّى. قطْر متخثِّر أو سائل تصيبه الحُمَّى فيعرقُ حين تدنو ذرةٌ منه من ذرة أخرى في جنسه. تيمورلنك تسلَّم حُصالةَ السرِّ من غوَّاصي متاهات المعلوم المجهول، فحفظ لنفسه خرزتين، وسَيَّرَ الشيخ موجود بن رونا بالخرزتين الأخريين لتكونا وديعةَ شفاعات الوجود الكشَّاف في خزائن عمه، بأرض قرقروم.

حملِ الرسلُ الناطقون بألفاظ الكرد الهائمة على وجوه مجازاتها الظاهرة خطابَ الخان المتزلزل تهديداً: «سأذبح الهواء. سأذبح الحجر. سأذبح الطير. سأذبح الماء. سأذبح الغيم. سألجم الريح سبعين فرسخاً في محيط قلعة الجزيرة حتى يبلغ النتنُ الوباءُ عُمقَ أرضها سبعين فرسخاً، فلا تتعافى الحياةُ فيها ثانيةً إلا إذا نما حجرُ الحية شجرةً بتسعة أغصان، على كل غصن ثمرة من روح الناموس الأصغر ـ جَدِّ الهاوية الكونية».

لن ينمو حجر الحيَّة، بالطبع، لا في أرض الجزيرة ولا في غيرها. هو حجر من زبرجد أسود، ذو عروقٍ شُعَبٍ من عصارة البرق البيضاء حين تصير جَمَداً. فيه خيالٌ من متاهات الغيم، وعقلٌ دخانٌ صلبٌ من انقباض البلور عليه، إذا طُحِنَ استعاد فاقدُ الذاكرة ذاكرتَه باستنشاقه سَعوطاً. تيمور كوركان لنْكْ لن يترك ذاكرةً لقلعة الجزيرة على أية حال. ستتطاحن في السَّحَر المذبوح بمدية المصائر المعلومة حجارةٌ من حقائق المعدن الجماد والمعدن النباتِ، تاركةً للنُّواح الذهبي أن يملأ تجاويف الريح وتلافيفها. كُتبُ الخواصِّ المعتمَدةُ في مسالكِ العلوم والطبائع تؤاخي المراتبَ بعضَها في شفاعةِ

بعض، فما يكون صلباً يتنفّس من أسمائه اللّدنة، وما يكون لَدناً يتنفّس من أسمائه الصلبة. «حجر الإسفنج» : حصاة في خلية الحيوان الإسفنج تتداوى به المثانة إذا انعقد الكلسُ في المجرى. «حجر إقْرِيْطِس» : كحل للعين الرمداء. حجرٌ بمصر صفته «القبطيُّ» يجلو الكتّان غسْلاً، وتندمل به الجروح. «حجر الكلب» يتخذه السَّحرة لإيقاع الشرّ بالمحبين، وإحلال التباغض بين الخلاّن. «حجر البقر» غايةُ النساء في طلب الشحم تحت جلودهن كي يقع الذّكرُ على وثيرٍ من اللحم في مناضَلاتِ الجماع عن الرَّهْز، ويكون الفَرْجُ رابيةً رجْراجاً يقرعه القضيبُ فيرتدُّ عنه ليعود إليه أكثر هياجاً في ارتطامه به الكَرَّة تلو الأخرى. كلما استدار القمر بدراً اكتملت نشأةُ هذا الحجر في مرارة الثور. يُسحق مع اللبن. يا للّحم. «حجرٌ أرمنيٌّ»، أغبر، يرقّق المزاجَ إنْ خالطتْهُ السوداءُ. «حجر البُسَّد»، النباتُ المرجان، المتحيّر في انتسابه إلى الماء أم إلى الهواء. «حجر مَرْقَشِيْثاً»، أو حجر النُّور. يقوي البصر، ويُتَّخذ رقْيةً للصِّبْيان فلا يفزعون. «حجر الكُزبرة»؛ هكذا تقدَّم اسمه. ينبغي تشطيرُ الكتلة منه أربعة أنصافٍ في البيت فينشطُ القلبُ ويستروح الدماغ. فإن لم تكن أنصافه الأربعة على تساوٍ ظهر الخَلْط في استذكار الأسماء. ونسبتُه إلى الكزبرة لها حُكمٌ من وحي النَّمل، الذي عجَّل به الإلهامُ الحيواني إلى إدراك الخواص، فاستنسخت علومَه العلومُ: كلُّ بزر إذا كُسِّر نصفين لم ينبت في البذار إلاّ الكزبرة. نصف البزرة منها ينبتُ كالكاملة، لذا يعمد النمل إلى تشطيرها أربعة أنصاف حتى لا تنمو في جحوره. «حجر الصوفيين» بَقْلٌ من بقول الأحواض الراكدة، ينمو عليه وَبَرٌ زَهْرٌ في غاية الرقة أربع مرات في اليوم الواحد. غير أن في الأصناف المبذولة الأسماء نوعاً دَرَجَ الاسكندر ذو القرنين على حفظه في جِرابٍ من جلد الزرافة، مكتوب عليه بلغة أهل الخليج التائه - خليج بحر لُوْث المحمول على قرنيْ أفعوان الدَّهر : «المَاءُ لسانُ الخزائن، يصفُ بحروف الحِيْلة جواهرَ المعمور والمهجور». إنه «حجر الإمتحان». كُرة غير متساوية الإستدارة، تنطبق عليها راحةُ يدٍ بأصابعها، فيها خمسةُ أثلام، رمادية، عليها عروق نافرة كعروق الآدمي، صفراء باهتة. حجرٌ كُرَةٌ يزن به الإسكندر مراتبَ الماءِ قيمةً : الثقيل على الهضم والخفيف على الهضم. الأنقى والمتكدِّر. الحلو والمالح. الزائدُ نِسْبَةُ معادنه وناقصها. تؤتى بالعَيِّنة من الماء في قصْعةٍ ثم يُرمى الحجر فيها، ويُلْحَظ - بالتدقيق العارف - صدورُ الفقاعات من خَلَل الخمسةِ الأثلامِ، متلاحقةً أو متباطئة، صغيرةً أو كبيرة، متماثلة في صعودها أو مستقيمة الصعود. هكذا يُجَازُ استخدام ذلك الماء شُرْباً، أو اغتسالاً به، أو سقياً للبهائم، أو ريّاً للحقول. والاسكندر كان يطلب الماء الخفيف على الهضم لجيشه، في عبوره المجاهل البكْر، وشموسَ الطبائع المشرقة على تراب الأقاليم العليا والسفلى. وهو الذي أفتى في شَرَفِ مياه دجلة، وينابيع بدليس، حيث دوّن قيافو الأسرار عجائبَ الظهورات القدسية : في هواء المكان الذي سُمِّي باسم غلامه شهد الناظرون ضمورَ قرنَيْ الاسكندر وامِّحاءَهما.

«سأذبح الحجر»، قال تيمور كوركان لنك. عَرِقَ قلبُه عَرَقاً بارداً من جَزَعِه على خرزتيه أن تقعا في يدين لا تتكلمان بكلام الأقدار كيديه - كلامِ البلاءِ والنغمة. «أعطني الشيخَ الهاربَ أحفظْ عليك شفاعة قلعة الجزيرة»، - رسالةُ السيلِ المُمْتدحِ بهبات الغرقى حَمَلها آخرُ رسولٍ يُلْحِنُ بالكردية إلى أمير قلعة الجزيرة عز الدين، الذي أكد له كبدُهُ، بإصغاءٍ إلى لهاث الحوت الأعظم تحت أساسات

أسواره، أن لا أحد يملك جلالَ تهديد القلعة سوى الريح إذا هبَّت موسومةً بوشم الوباء الأعظم من اهتراء الأجساد على المشارف ـ أجساد القتلى آدميين وبهائم. لكن لا حرب على المشارف. لا وباء. لا أختام للريح غير ما تصرفُ به شؤون النَّقل من نواعير الله الخفية إلى حقوله الخفية. «هات أمعاءَ الخراف المحشوة بجوز أورْفَه. والدُّراج المطهو بخَلٍّ رَشْتْ. هات السُّكباج، والفالوذج عليه قطرُ العسل، أيها الطاهي. افرشوا ظهرَ السور، قرب المرصد الكبير، بجلودِ نمورِ صحراء الحجر، وأحيطوا المجلسَ بمشاعل من نفطٍ ممزوج بغُدَّة الزَّباد وشحمِ سنام جِمال بايَزيدْ. سأجعل جيشَ هذا الملتصق الأجفان يغرق في لعابه وهو يشمُّ دخان تبغ خُوذاتْ المُعسَّل من جنى النحل في بساتين القيامة». ذلك ما قاله الأمير عز الدين، الذي اصطحب ضيفَه اللاجئ إليه إلى عَرْضِ علياء السور، ثلاث ليال متتاليةً لا ينبلج عليها الفجر إلاَّ مبتلاً برسم الذبائح المشوية على نار أغصان البُوْرَق ـ ذي الحَبِّ المُنعِظ ذكر الرَّجل إنعاظاً لا ارتخاء بعده ـ وقد طُعِّمت ببَعْرِ التيوس وبعظامٍ من ترقوات الجياد لها وَقْدٌ لا يطفئه سوى الماء. غير أن تيمورلنك داهمَ خيال الأمير بأهرام من الكلاب المقتولة في مواجهة البوابة الكبيرة، حيث الكوى المُسَطَّرة طولاً في السور يرصد منها الحرسُ العراءَ المترامي، وغطى جثثها بالواح من الخُوْص المشدود بعضه إلى بعض بألياف نباتٍ ستة أيام احتقنت فيها روائحُ الفساد فاطلقها، بكشف الألواح عنها إذ واتته الريحُ منعكسةً صوب الأسوار. أربعة أيام لا غير: كلَّما اتجهت الريح صوب الأسوار كُشِفَتِ الجثثُ، وإذا تغير الهبوبُ غُطيت الجثثُ. لم ينفع الحراسَ ما تلثموا به، فكادوا لا يأكلون. أُلْقيتْ إليهم بالسهم رسالةُ الحثُّ على التواطؤ مقابل عفوٍ متبوع بياقوتة وأربعين فِلْساً ذهباً. فُتِحَتِ البَّوابة، فاختلطت أعضاء الآدميين المبتورة بأعضاء البهائم.

«سأذبحُ الحجر»، كرر تيمور وَقْدَ وعيده بالزناد القادح في غابة كيانه. جَمَع الأسرى رجالاً ونساءً، وقرأ عليهم بلسان الهاوية ما لا يترجمه إلاَّ التيه: «ستنقلون حجارةَ القلعة وسورها، في ثمانين اتجاهاً، توثقونها بالحبال وتجرُّونها»، فجرُّوها حتى تخوم ممالك الأقوياء المجهولين، ذوي الأسماء المنحوتة تسعة أسطر في ألواح الصين وهضبات أُمم الياجوج المعدودة خلائقَ مبهمةً في التعريف. غير أن الأمير عز الدين نجا بنفسه على نحوٍ لا يُحاطُ بوصفه، وقضى عمره متجولاً في ديار الأرمن والفرس لا يعرفه أحد، حاملاً في جيب قفطانه الوحيد، الموشَّى بعروقٍ خضراء من حرير بدليس، خرزتين اشترى بهما من الورَّاق حَمْدين أشرف زَنكنَهْ سبعين صحيفة خشنة من صناعة «دار الجَبْر في تدوين المُخَيَّرات» ببلدة أخلاط، وبعضاً من حبر الزَّاج، مصرِّحاً للورَّاق ـ الذي أنجب له ابنُه الفقيه في معاني التَّثليْث حفيداً هو الطاهي فرهاد ـ بعزمه على وضع أشعار عن إمارته التي تنتظره في المنعطف الثاني بعد نهر الغيهب، وراء أكَمَة الجودي الكبرى من جهة الشرق: «ثمانمائة وأربعة وثلاثون بيتاً من الشعر. لا أقل ولا أكثر. حَرْقَةُ الكردي لا ينبغي أن تُجاوز ذلك. تصريحه بلوعته لا ينبغي أن يُجاوز ذلك»، هكذا حدَّد الأمير غاية خياله في بناء المعاني الصغرى. ولمَّا أبدى الورَّاقُ شكَّاً مهذَّباً في إمكان أن تتسع الصحائف السبعون لقوافيه المتزاحمة في غسق عينيه ابتسم الأمير: «الورق لا يخذل أحداً». ثم لم يُعثر على أثر له بعد ذا. قيافون من إقليم ارجيش ذي الأغوار الكلسية، وقيافون من زارا المسوَّرة بهضبات الكنوز المرصودة، تتبَّعوا أنفاس الأمير المنكوب كي يعيدوا قلبَهُ، مُصاناً بعض الشيء من ذلٍّ

التيه، إلى المعترفين بنجداته من أمراء أقطارهم، فأخطأوا رَصْدَ خياله: لقد انسرب الرجلُ الملتاع ذائباً إلى قارورة السرِّ ليقتبس لنفسه شرارةً من معنى «المفقود». أشعلَ الفتيلَ الغامض، وأغلقَ معدنَ المصباح على زيت المعقول المجهول.

تصادمت الخرزتان الصفراوان على كتف أردهان اليمنى حين جلس على الأريكة الخضراء، في الفسطاط الحجري المُغْلق، بعدما حثَّ ضيوفه السبعة، واحداً واحداً، على الجلوس. هرعت الفتيات الأربع، ذوات المناديل الثلاثة المخيَّطة بالفلوس الفضة كالخوذات، والعمامة التي تتدلى منها ذوائب من وَدَع بحيرة وانْ. حملن وسائد زرقاء، وسوداء، وحمراء، حَشْوُها ريشُ القَبَج، وأغلفتُها قطيفةٌ موشاة برسوم الهدهد طائراً؛ ثلاث وسائد للرجل الواحد يميل عليها بكتفه نصف متمدِّد. الحضور الآخرون اقتعدوا الزرابيات الفارسية والبُلُسَ الأذرية. دخل حامل قِرْبة شرابِ الأتْرُجِّ المفضَّل لدى أردهان؛ شراب النظر بعين الدم النهمة إلى اللذة. تبعه حامل الكؤوس الصلصالِ الحمراء، المطعَّمة الأعناق الدقيقة بخزفٍ كالرمل ذي بريق كسول. ترقرق الشراب في الحناجر بنداء القِدَم البارد - قِدَم الماءِ اللِّسان الذي كلَّم العَدَم بأدبٍ من طباع الوجود. علت همهمات الحديث بدخول سرب من السنونو إلى مغاليق القبة العالية: «لم يهاجرْ بعد»، ثم هدأتْ بدخول زانا خاتون آتية من ممر لا باب بينه وبين الإيوان المتصل بحديقتها المسقوفة. نهضت الغزالات التسعة تتبعها بعيون الكمال الساهر في طباع الحيوان. حيَّتهم المرأة الملثمة بطرف خمارها الأرجواني، المصفَّح أربعَ دوائر على محيط رأسها بدراهم ذهبٍ تُصْدِرُ وشوشةً من لغة الكنوز الأمينة. ألقتْ تحية الرجاء الكرديِّ عليهم - رجاءِ العافية للروح أولاً، وللجسد ثانياً، وللنَّسل ثالثاً. جلست على حشيتين من الصوف مستطيلتين على مبعدة من الرجال، وهي تردُّ أذيال قفطانها الطويل على حِجْرها. أومأت إلى امرأة واكبتها منذ دخولها الإيوان، فجلست الأنثى الملثمة، الأخرى، بدورها، على بُعْد شبر من كتفها اليسرى.

صفَّق أويس أُوسِنْجان بأجنحة الكلمات من حنجرته: «وصل إلى خاننا أربعة من حَمَلَة الأكفان، هذا الفجر».

حدق الضيوف إليه. رنَّت الهيبةُ رنينَ النحاس في الفراغ القُدسيِّ. مدَّ أردهان يدَ خياله يستعيد البرهة المُخْتَطَفة: «هذا سِنْجَقْ بَكِيْ إقليم ميدو»، وأشار إلى أويس. علا الضحك. «سنجق بكي» هو أمير راية في لفظ ملَّة العثمانيين، وحاكم خُمْسٍ من ولاية مقسومة. لقبٌ رفرفَ خفيفاً حول رأس أويس، الذي حَصَر قلوع العوالم التائهة بعينه اليسرى الوحيدة، وتراجع بكلماته من غَمْر الرموز المتَّصلة بحَمَلَة الأكفان إلى منابت الرَّقم: «إنهم سبعة، يا سيد أردهان».

«أرى ذلك»، ردَّ حرَّاث النقش، والتفت إلى ضيوفه الجالسين نصفَ قوس إلى يمينه: «طَلَبْنا ثمانية كراماً من أهل التدبير في خوارق المُؤْتلِفات، الصُّنَّاع المحتشمين في نقل خيالهم من الطيش إلى الترويض. حضرتم أنتم، واعتذر الثامن». نقَّل بصره في جَمْع من روَّاد مجلسه: «هل اعتذر عن عدم الحضور؟» فَهَمْهم اثنان:

- لم يؤكد على وجه الجزم.

«لا بأس. كان من سَعْدِ اللون في حضرة النقوشِ - الرسومِ لو أمَّ دارتَنا مَيْكَر بابو. تعرفون مَيْكر؟»

ساءَل أردهانُ السبعة، فهزوا رؤوسهم اتِّفاقاً: «نسمع به، كما سمع واحدنا بالآخر ـ نحن الجالسين هنا»، قال جَابَانْ زَرُوْ، ذو اللحية الدائرية، المشذَّبة بإتقان. ابتسم الآخرون. هم، حقاً، لم يتعارفوا من قبل إلا سماعاً من سعاةٍ في نقل ثمرات الأخبار من مجالس الولايات، التي يُعلن منها مولدُ الرسوم الكبيرة على أيدي صيارفة الخطوط الحذقة، الذين يتبارى الولاة في إعلان مقادير الهبات الممنوحة لهم: تزيدُ الهبَةُ تزيدُ المباهاة. يكبر النقش في الأروقة، أو الرسوم في صدور الإيوانات، فيكبر النبأ. لكن أردهان، الذي جمع سبعةً من صنَّاع الجسوم مستولَدَةً من سديم اللون المُغْلَق، لم يتوقَّف عند سَعْده الطالع عليه من أطلس الفروق الفَلَكية، بل مال قليلاً مع هبوب القلق الصلصاليِّ على خمائر العقل: «لا أكتمكم، أيها المرفَّهون بالوَهْبِ الفردوسي منذ قُدِّر لخيالكم أن يجاور المجهولَ المُتعيِّنَ صورةً في حقائق الله؛ ـ لا أكتمكم أنني في حيرة من أمري، قليلاً. لقد أبلغكم رُسُلي بالغاية من تكليفكم الحضورَ إلى دارتنا. رَأَيْنا أن تكون لنا تحفةٌ من جلال الوسائط بين العين وبين المستور. وتوسَّلْنا بشرف الخصائص في المُقْتَنيات الأكثر كمالاً أن نحوز منكم على النفيس من صور الأقرباء في حقائق الله إلى الجلال العالِم. أوقفْنا قلوبنا، ومذاهبَ أبصارنا على السيدين العادلين في ميزاني علومهما الذوقية، الشيخين بهاء الدين الفاروقي النقشبندي، وعبد القادر الكيلاني، حفظ الرحمن سرَّهما. وكانت بغية وجداننا أن نحظى بأربعة رسوم لكل جليل منهما، لكن غياب ميكر بابو أوجبَ خللاً، وأوقعَ التقدير في الوسواس. فماذا ترون يا أكابر النقوش؟».

«لا إشكالَ»، همهم دَرْبَنْدْ كَرْمَانْ ذو البشرة الحمراء. فتح راحة يده اليسرى يعيدُ بها ترتيب النُّقلة بين المرئيِّ واللامرئيِّ، فالتمعت فصوصُ خواتمه الثلاثة، السوداء، المحزَّزةُ بخطوط المتاهةِ ـ الدوائرِ المتداخلة للتمويه على استغاثة المعنى. «أنا أرجع إلى موش. سُعدتُ بالتعرُّف إليك يا سيد أردهان»، قال، ثم ضمَّ راحة يده يقبض بها على صروف الحكمة، واتِّزان الرَّقم الذي أعاده ستةً يقبل القسمة بنداء الواحد اللامنقسم: ثلاثة وثلاثة. اعتدالٌ وسيطٌ يحفظ اللونَ عادلاً في توزيع الحقائق على رسوم الشيخين المُنْتَدَبين على براهين المقامات السريَّة.

«لا» تمتم زَغْروسْ غُوْنيْ في همسٍ ضارع. دار بعينيه الصغيرتين على غمام المعاقل في العيون الأخرى، الشاخصة إلى اعتراضه: «أنا آخر من حضر إلى الخان. لي خطوة ناقصة في الذي يترصَّده المكانُ ويدوِّنه. سطري سطر ناقص، حالما يكتمل تكون سطوركم قد زادت. لا أحد يدخل حيزاً وتكون لشخصٍ يليه في الدخول المقاديرُ ذاتُها من ترويض الأبعاد. أنتم تتقدَّمونني، يا عقولَ النقش الجليلة، بمثقالٍ من الأرق ليس في ميزاني بَعْدُ. سأعود إلى خيزان».

لـم يوافقه الستة الآخرون. هزوا رؤوسهم وأيديهم اعتراضاً. تقلَّبت صفحاتُ السكون بنَفْخٍ من فم النشأة الأزلية. تقدم غزال من المجلس خارجاً من خليج الحصى. تبادل والجَمْعَ أنفاسَ الطبعِ الأعظمِ ـ طبع الخصائص الكليَّة في لوح الظاهر، ثم التفت إلى زانا خاتون التي نطقت من تخوم البرزخ: «أعِدُّوا قُرعةً بحجرِ النُّشادر».

انتقلت العيون، في حياءٍ يليق بمقام المرأة الأولى في عصمة أردهان، سيِّدةُ الموازين المنصوبة في هواء الأروقة والحُجرات ـ موازينِ الحيلةِ المُؤَيَّدةِ بعلوم المكاييل البلورية. «القرعة. نعم»، قال أويس

أوسنجان، فحدَّجه أردهان ببصرٍ مِلؤه استخفاف لم يَجد الأعور منه منجىً إلاَّ بالنهوض وهو يتعلّل للجمع، غير المصغي إليه، بشؤونٍ تنتظره في الخان: «حَمَلةُ الأكفان يحملون بنادقَ، هذه السنة. هم عجولون»، وانسلَّ طائراً في خفق عباءته ذات الحاشية المقصَّبة بسلكٍ طريٍّ مطليٍّ بالزئبق الخُلَّب. عَبَر حقلَ الحصى في حديقة زانا، وانضمَّ إلى سرب السنونو خارجاً.

لم يعجب زانا أن يُهْمَلَ اقتراحُها حين وجدت زوجَها منصرفاً إلى الضيوف السبعة كأنما يحثهم، من جديد، على إغاثته في تدبير شفاعةٍ للرقم الذي يَنْشرخ إذا بلغتهُ القسمةُ. رقم طريٌّ، رَخْصٌ، حَيِيٌّ، خجول، فيه لوعةٌ إذا هُيِّجَ، وإجهاشٌ إذا انْتُهِرَ، وإغماءٌ إذا قصَدَهُ العقلُ بالغواية، لأنه منذورٌ ـ من مبتدأ الخيال في ترتيبه رقماً ـ للمنزلة الأبدية في حساب الوجود: حَمَلةُ اللهُ بآلة متاعه إلى كمين العرش، بعدما فتَّقَ السديمَ عن الوجود كالبندق، ونثرَ طَلْعَ شجرة الحِجاب الأزلية فهرع بُستانيو النُّور إلى حدائق الأفلاك.

«هاتي حجر النشادر، يا ديدا»، قالت زانا خاتون وهي تحسم، بصاعقة الذهب في إبرام الميثاق لحضورها، استغاثة أردهان بتلبيته في أمر الرقم: «إنه في صندوق الزبيب، يا ديدا»، فنهضت المرأة التي تجاورها. نهضت العيون مع السواد الذي استقام فارعاً تحت العباءة القرغيزية الحمراء المطرَّزة الأكمام الواسعة بأطواق من صور الجياد، متتابعة في نسق كسُبْحةٍ، وقد تعمَّدت أن تَردَّ خمارها على فمها الرقيق بعد أن أزاحته قليلاً ليلْحظ الشاخصون إليها أن شفتيها ليستا صناعةً من عِرْق أُمَم حَام. هي سوداء ممهورة الدم بختم الأب الأول قبل أن تتفرَّع من لونه المختار مسالك الألوان التي يرتاب فيها الوجودُ الناطق: السود، والصُّفر، لا نبوَّةَ فيهم. هذا ما تقوله مُعْضلةُ تقسيم الإرث الإلهي على تاريخ الأعراق. لكن ديدا صنفٌ من مجابهات الحيرة في انتساب اللون إلى يقين: ذلك ما يبدو واضحاً في مرآة جلدها الأسود: صورة البياض. ولَّما غابت عن الأعين في منعطف من الأروقة، عادت العقول إلى استقراء المعنى في القرعة بالحجر النشادر، ذي المعدن المُخْتَلف في مقامه، وطبعه، وخيال أبخرته الصلبة غير المرئية. وأفضل نوعه ـ يُقال ـ في خُراسان: أبيضُ لا قلق فيه، يجذب الهواءَ المُحتبس تحت مسام الجسد إذا مُسِّد به، ويجعل الرقمَ الخفيَّ ظاهراً على سطح ورق عرائش العنب بتبخيرها بماءٍ ذُوِّبَ فيه: لكل ورقة قُفْلٌ خيالٌ في مسيل نُسْغها، استودعتْه النشأة صورةَ رقم من أرقام الحساب الموكَّلة بمقدار من الوقت حاصلُ حسابها، معاً، هو الأمدُ المقدورُ ـ بلا زيادة أو نقصان ـ بين ساعة نَفْخ الله في صلصال آدم والنفير من بوق إسرافيل إيذاناً بالقيامة. حجرُ النشادر يجذب الرقمَ إلى ظاهر عِلْمه؛ حجرٌ منذور للظاهر، فيه كمالُ التعيين. وقد دأبت زانا خاتون ـ التي تحفظ في القُفَف طبقات من ورق العرائش المُملَّح، المُنتقى غضّاً في مطالع الصيف كي يكون مؤنة للحشو بأدمغة الخراف المتبّلة بجوز الطِّيْب، المعجونة بمقادير من بزر الصنوبر والبندق الهندي، ولُبِّ الحرشوف البريِّ بعد قلْيِه ـ أن تُبخِّر الورقَ في القرعة بين نساء أردهان الثماني الأخريات، حتى يستقرَّ الرقمُ المفرد على واحدة منهن تفوز بليلةٍ مع البعل هي مِلْكُ زانا في تعاقب الليالي على مخادعهنَّ.

كلُّ ليلة عاشرة يصرف أردهان، بحساب التناوب، حُلْمَ جسده تصريفاً عادلاً في سرير واحدة من نسائه. يقلّبها بأصابع شهوته كورقة الكتاب، أو لا يُقلِّبها، أمرٌ آخر. لكنه يعطيها مفتاحَ أنفاسه

تفتح به مسامَرَةً في أحوال العلوم الناضجة على نار المطارحات الصغرى في الدلال السماويّ، والمساءلات المحبوكة من الفضول الأرضيّ. زانا، كبرى النساء الموسومةُ بعقد ثالث في مسيرة عمرها، تخفَّفتْ من طلبِ قِسمتها المحفوظة شَرْعاً في أن ترعى بخراف قلبها وقلب أردهان حشائشَ المخدع، بعد زواجه المتلاحق بالأبكار النواهد في حُمَّى غزوات مَنِيِّه تنكيلاً بالعماء العاقر من غير جدوى: لا أشكالَ ظاهَرَتْهُ كي تنقلب الخسارةُ العدميةُ إلى فوز الوجود بصورٍ ترتدي لأردهان بشارةَ الذُّرِّية. المرأةُ الطويلة، سليلةُ أرضِ الكمثرى في ولاية أخلاط الحائزةِ، من الغيب النَّقَّاش، شرفَ مُسَاكنةِ البُزاة البِيْض أدغالَها، آثرت نقلَ الليل المحسوب في متاعٍ شراكتها إلى واحدة من الأُخريات، حيناً بعد آخر، بإدْراج القُرعة في اقتدار النَّقْل من سلطان فَرْجٍ إلى سلطان فَرْجٍ: «هَيُّوا، يا أقلام الله. سأعطي واحدةً حصَّةَ الجنِّ من السِّحر». هكذا تناديهن ليجتمعن بورق العرائشِ أمام نجار الحجر الخُراساني. هُنَّ أقلامُ الله. زانا وسَمَتهنَّ بصفات القلم منذ تخيَّر لهنَّ أردهانُ معلِّماً من سراي سِيْرتْ، أنفق نِشارةَ سبع وسبعين شجرة عولجتْ وَرَقاً لتصحيح شجرات الأنساب في الإقليم الغُباريِّ التائه، كي يتقدَّم بنسائه إلى مجاهل الرَّهبة في ممالك الحروف السُّفلى: حروف عربية عليها أستار من شهوات الخلائق إلى البوح للثور الأزليِّ كيوثاءَ؛ لكن أروقة تلك الحروف، ما يلي الأستار، فراغاتٌ زبرجدٌ من ضلال المعنى المُنْشِد بصوتٍ هو خصِّيصةُ النداء الكرديِّ في جنبات المعلوم المجهول. نساء أردهان لم يتحكمن في رسم القَلَق شكلاً على المتن الحامل لصور حروفٍ تتقلّب على فُرُشِها ـ فُرُشِ الفردوس المنكوب بعقل الحيلة أبداً. بضعة أشهر، قبل وصول الضيوف السبعة، من التمرين على اتخاذ الحروف نَفَساً، انتهت بهرب المُعلِّم، بعد انقلاب الدروس في الإيوان، تحت أعين الغزالات المسحورة بكمال أعماقها ـ أعماقَ زُحَل، إلى انتقاصٍ من هيبة الرَّجاءِ المستور في المعنى المستور. كُنَّ يتفكَّهن كلَّما انتقلن إلى خيالَ حرف مرسوم بالقَدَر الذي يفصح به الحرفُ عن غياب إرادته في هبوب البطش العذب عليه من خيالهنَّ المُبذِّر. حَلَجْنَ الصوتَ المنسوبَ إلى جوهره الناطق حَلْجاً بالنَّبر المُجدِّف من مساكب السنتهنَّ الناطقة، وأسرفن في إقران رسْمِه شكلاً بالمآثر القوية لآلات الحواس: خُصى، وفُروج، وأحاليل، يدوِّن اليقينُ بها قَدَرَ الممكنات المسحورة. كنَّ يرسمن الحروفَ على قماش ذي خروم، أبيضَ، مشدود في طاراتٍ خشبٍ، بالخيوط والإبر. حروفٌ كي لا تُمحى بعد حفرها في خيال الظاهر الكُلِّيِّ ـ هكذا أوصى أردهانُ المعلمَ عوضاً عن اتخاذ ألواح الخزف الأزرق، وأقلام الحَكِ. وقد استبدَّ بهنَّ عِلْمُ مجاورة المعقول في المتاهات المحسوسة لفردوس الكتابة، فحوَّلن القماشَ المشدود في الطارات إلى دفوف ينقرن عليها، كلَّما أنجزن تدبير الإغواء لحرف مّا، أغانيَ ممزَّقة الأذيال من انجرارها على حَجَر الأعراس الخشن: «أهذا فحلٌ أم طفل، يا ذات الجديلتين المبلَّلتين بلسان الماء في البئر؟.

أغلقي الوسادةَ عليه؛

انْفُشيْه كصوف اللحاف؛

أعيديه إلى سُمَّار ليلته مُتْعَباً».

بقيت الحروف مرسومة على قماش الطارات بثقلِ النَّدم على خروج الكون من سكون الجوهر إلى حركة العَرَض وصَخَبه، أما «أقلام الله» فقد تحرَّرن من تضليل الأزل بالتمويه عليه بالأشكالِ الحروف،

التي هي صوتٌ في الأصل انحدر به اليأسُ إلى مرتبة التدوين. عُدْنَ أقلاماً، حقّاً؛ أقلاماً هي عِلْمُ الإشارات المكنونة في خزائن الحفْظ، قبل نقل الوجود.

المتعثِّر الحظِّ نَسْخاً ـ بحبر الباطل الشفيع ـ عن صورة أبيه الإمكان المتعثِّر الحظِّ، المولود من خيال العدم الجَدِّ في برهةٍ من مشاجراته مع الخلود. لكن «أقلام الله»، المحفوظة أرحامهنَّ لصور الخَلْق المؤيَّدة بالأسماءِ اللانهائية، مِثْلُهنَّ مِثْلُ الكشوف المدوَّنةِ على اللوحِ العارف، كنَّ يستسلمن للمجهولِ الصغير، ربيبِ القرعة بحجر النشادر، بين يدي زانا وهي توزع ورقَ عرائش العنب عليهن، اثنتين لكل امرأتين، وتبخِّرهما ـ من ثم ـ لتقرأ كثافات الأرقام، والتي تحوز الرقمَ المفرد تمضي في الرهان على الجواد اللامرئيِّ في حقل الليل، حتى تستقرَّ النهايةُ، بباشِقها القنَّاص، على أكَمَة اليقين ذي المجادلات الأنثوية.

من علَّم زانا قراءة الرقم حتى لو لم يفتح الرقم مغاليقه لبخار النشادر؟ أهلُ أخْلاطَ ـ ولايةِ أقواس قزح المُهَشَّمةِ على قباب شجر الكمثرى، توارثوا القرعةَ بحجر النشادر عن أهل قلعة مُوْش، المشرفة على حقول الدخان، المتصاعد، أبداً، من بين عرائش العنب هناك، حيث ينمو الشجر قَزْماً عامين ثم يموت. يُزْرع ثانيةً لينمو عامين ثم يموت. غير أنه يحمل ورقاً، في عامه الثاني، صغيراً جداً، بأربعة فصوص مُسنَّنة، فضية اللون، يغزوه عَلَقٌ أبيض يتناسل في شرانق العنكبوت الأبيض، الذي يطلي مسامَّ النبات بصمغ فيختنق النباتُ. وقد استنزل علماءُ الخصائص المُعَذَّبةِ بامتحان الفناءِ العادل تراكيبَ الدَّفْع والمَنْع في تصانيف العَقْل النباتي، الموضوعة بعد اختبارٍ في حقول البلاءِ بأرض سومر المفقودة، فتحَصَّل لهم كيموسٌ من بخار النشادر يسقط منه العَلَق ميتاً. لكن الورق، بعد تبخيره، استظهرَ عروقاً نافرةً على سطحه لها أشكالُ أرقامٍ مفردةٍ ومزدوجة مما درج على رسمها المجهولون في قيافة الحروف الكلدانية، بحسب بعض الألواح الباقية في آثار الممالك التائهة حتى عودتها الألفيَّةِ إلى مجرة الفَلَك الأصغر، على تخوم الإهليلج المائي المحيط بجرْمِ الأرض الظاهرِ والخفيِّ معاً.

فُكَّ اللُّغزُ، واستُصدرَ العلمُ بهمَّة العقل المُنْشىءِ لسطور الله الممحوَّة بحيلة الوجود الداهية ـ كَنَّاسِ القُمامة عن باب المجهول: الأرقام النافرةُ عروقاً من باطن النُّسْغ هي مجزوءات من الرقم الكليِّ، الذي قدَّرت الحقيقة أنه يكفيها لتبقى محتفظةً برباطة جأشها أمام استنطاق العَدَم المُمْتَحِن، من أوَّل البزوغ النورانيِّ للشكِّ على قلب آدم حتى انقراض نسله بالنفير الصاعق من بوق ملاكِ القيامة.

هُدِمت أخلاط مراراً، وبقيت قلعة موش قابضةً على الطلَّسم المُفْتَضَح. آباء أويس أُوْسنجان، المشمولون بقرابة إلى آباء زانا خاتون، أحصوا في إرث ألقابهم، المدوَّنة على كؤوس النحاس بأقلامٍ من أغصان التين المجوَّفة، ستاً وثلاثين عاصفة من عواصف الإمتحان المعذِّب قوَّضت أعمدةَ أخلاط: مزق سلاطين فارس نقوش سمائها الممهورة بأختام السحاب الناطق في ردِّهم السلاجقةَ إلى أرض الأخدود القَمَريِّ المتاخم لشرق طوروس. ثم مزَّق المغول بساتينها في ردِّهم سلاطينَ فارس إلى أخدود الشمس المموَّهة بأقنعة أُسُود الأكاسِرة. حرثها الشاه طهماسب، وبعثرها السلطان سليمان جداراً جداراً. وما لم يقطِّعْه الآدميون بحراب الفتوح قطَّعه الزلزال ثلاثاً. لكنها عادت، مفتونة بإرث الخراب الساحر، إلى ترميم سطورها المقروءة على لوح المُمْكن بعد ظهور البُزاة البِيض، طيورِ الملوك القناصين في سَرْمَدِ

المتاهات الأليفة، في نواحي دَغْلها، آتيةً من جبال أُمّ أرمينية. وإذا ذُكرتْ الأصولُ المُكرَّمة في أنساب أخلاط يُقسم أُوَيس، الملتجئ أبداً إلى تَسنَدٍ تعزِّزُ به زانا حصادَةً من بَرَاعات المُشْكِل، أن السيد الأكبر حسين أخلاطي، وارثَ كشوف الظاهر والباطن، القائم بشفاعة الحجاب العريق في الأسرار على علوم الجَفْر الجامع، تنبأ بولادته هُوَ قبل قرون، في الأرجح: «يكون من نسل بعض أحفاد أويسنجان، علاَّفِ الشِّياه على ضفاف الأنهار، جَسُورٌ أعورُ، تأكل من يديه جهاتُ الله السَّبعُ كدجاجات البيت».

إنها تورية مثل راحة أويس التي يقرِّبها من عينه اليسرى، القابضةِ على منازل المرئيِّ في فَلَكِ مصكوكات النُّور، وينفخ عليها ليجلوَ عن بلورة المعلوم الحَذر غمامةَ الحِيَل: «واضحٌ ما قاله سيد الأشراف حسين أخلاطي. أنا أمير الخان في ميدو ـ ملتقى أقاليم السماء من بحر الروم إلى بحر الخزر». هكذا سيضع الرجلُ ذو العين الواحدة خصائصَ المكاشفات بين قلوب القناصين في شعاب المستور وبين الغيب على سويةٍ واحدة في ميزان التأويل: «تنبأ الأخلاطي بخروج جنكيزخان من خمائر العدم الغاضب لاجماً كَيْدَ العمران في تمادي العمران بالنقوش البَطِرة على الحدود المشترعة من مجاراة الله في تلبيس الفراغ، والحيِّز، حُليّاً من كمالِ مكنونه. نعم، العُمران الفائضُ مروقٌ». وليس لأويس، على أية حال، تدبير مخارج للعقل من إسرافه في ترويح المُعْضِل. إنه يُجْهِدُ الإشاراتِ الأزلية كي تنطق بالبراهين على انتسابه، بحصافة النبوءة، إلى برزخٍ لامست فيه كتفه كتفَ تيموجين بن يشوكي، سليل إقليم دولون بُلْدُق، الملقَّب بجنكيزخان. لقد كانا، معاً، في الخلية ذاتها التي يشرف بها الغيبُ على كُتلته المرفوعة بعتَلَةِ العِلْم الناظم إلى خيال حسين أخلاطي، الذي بنى قريبه محيي الدين أخلاطي مرصداً لهولاكو ببلدة مَرَاغة، في ناحية من تبريز: حجر، ورصاص، وشمع، وكُنْدر. حجر غُمسَ في الرصاص الذائب حتى غدا في غلافٍ صفيحٍ، وجُعِل ملاطةُ الكُنْدرُ ـ صمغُ النقاءِ الإغريقي، الحافظُ بزرةَ نسلٍ من الصنوبر أُخرجت منه بيد المواريث الجبلية. أما الشمع فكي لا تنفذ من الخَصَاص والأثلام أهويةٌ أو ماء أو صوت. مرصد في مَرَاغة هو عين هولاكو المُنتدبةُ على أعماق السلالات، غذاها محيي الدين ببصرٍ من علوم الهيئة يقلِّب الأشكالَ كالوَدَع بين يديْ الجماد الكاهن: الأمم صورٌ، والأقاليم سبائك الغمام. غير أن قريبه حسين الأخلاطي سيواكب، ببصر النديم على مائدة الموت، من قبره ببرِّ مصر، جيوشَ هولاكو المرتَّة تتقلَّب كالجريد اليابس في تراجعها من مساكب ألغاز الرسوم ـ صحراء الأهراماتِ المنازلِ إلى الغسق المحمول على مرصد مراغة: الأمم صورٌ، والأقاليم سبائك الفراغ.

قطعاً، لم تكن أخلاط سيرورةَ قِدَمٍ في مذاهب رواةٍ كأويس، المستنجد بشفاعة زانا خاتون في تأكيد روايته لولا أن أخلاط نَفَسٌ من أنفاس بدليس ـ إمارةِ أعماق الكرد في البستان المُمزَّق على تخوم الهاوية الكبرى: أطلسِ العبث ذي المدارين المرسومين بحبر الترك والفرس. الأزلُ المستلقي هناك، من تُخمته، يَنْكتُ أسنانه بعيدان الشِّمَار. الأمراء الهاربون من غَدْر الأمراءِ ينكتون أسنانهم، في لحظات الجزع، بعيدان الشِّمار: «حاملو الأكفان، الذين ينزلون الخانَ لَمْحاً ويغادرون، يحملون رسوم الطرق الخفية إلى بدليس»، يقول أردهان، وهو ينكت أسنانه، التي لا أثر للطعام عليها بعدُ،

بعود من عيدان الشّمار. ضيوفه السبعة ينتظرون تدبير مخرجٍ للرقم من خُلوة النفائس الأبدية، فيما زانا تنقر بأنامل يدها اليمنى على باطن خفّها الأيسر، ذي الجلد الأصفر، فيهتز القرطُ الحَلَقةُ في خِنّابة أنفها ـ القرطُ الإشارةُ من لسان الديمومة إلى نفير الحواس الصُّغرى. «فلْنقُلْ ثلاثةٌ، وثلاثة، وواحد»، ينفخ أردهان الكلمات محتشمةً في بلاغتها الرقيقة، فيتلقّفها منه حاكم الطُّعوم فرهاد، ابن مردان زنكنةْ فقيه المجازفات في مراتب الإنشاء اللغوي الكردي: «كل ثلاثة يرسمون شيخاً ـ تقدّس سِرُّهما، والسابع يتوكّل بالحقائق».

نفذ السهم في مرآة الحيلة كالهواء فلم تنشدخ. تمتمت زانا «ها هو حجر النشادر، والوعاء، تحملها دِيْدا»، فصرف عنها النظرَ جابان زَرُوْ، الشابُ المحتكم في علوم الرسم إلى المجادلات: «ما الحقائق، أيها الكريم؟»، قال سائلاً الطاهي جوازَ النُّقْلة بين المعاني الرقيقة وأخواتها، فردَّ فرهاد:

ـ البرزخ مثلاً.

«أي برزخ تعني؟»، ساءله دَسْتِيدَانْ دَاسَنْ، الأربعيني ذو الوجه المراوغ في عُثْنونٍ حليقِ الشاربين.

«ما يتصل بالشكل وبالفراغ»، ردَّ حاكمُ المذاقات.

«اسمعوا»، قال جليسٌ في الإيوان من أهل «ميدو»، وأتبعَ الأمرَ الخجولَ بالألقاب العادلة على لسان المريد البسيط: «أيها المشمولون بالوَهْب العريق، ماذا لو تخيَّر واحد منكم رَسْمَ الجنة والجحيم، فيما يتوكل الآخرون، ثلاثةً ثلاثةً، بأميرَيْ الأسرار عبد القادر الكيلاني، وبهاء الدين النقشبندي؟ أنتم نظرٌ نستطيع أن نرى به أحْكامَ الدرجات بين أجسادنا الدنيوية وأجسادنا الطيفية».

«ها.. إذاً»، تمتم حرَّاث النقش أردهان، ابن قاضي الطهاة، وأضاف: «لديكم محرابٌ في عقولكم تُصلِّي فيه ملائكةُ الموازين، يا أحمد نشْمي. أنتم أهل بدليس..»، قال منشرحَ اليدين يبسطُهما بخاتميه الذهبيين كأنما يدعو جليسَهُ إلى عناق، فانبرت زانا من كمين الحيلة التي ضاقت على نداءِ علومها: «ها هو حجر النشادر. أوقدي يا ديدا النارَ في فتيل موقد الزيت».

«يا أمَّ الغزالات، لقد أفتى سليل من عِرْق بدليس. لا نشادر، ولا ورق عنب»، قال أردهان.

ركعت ديدا السوداء قرب زانا، التي تدلى على صدرها قرص رقيق من حجر الماطليس الهندي ـ حجر الجدال الذي ينفر الجنُّ من الخوض فيه. تهامستا كأنما تبريان قلمَ الميثاق ضد الذَّكَرَ الجاحد. الأنثى زانا، المثقالُ الأخفُّ في مراتب الضرورات، المُخْتَلَقة بخيال النقصان في الفردوس الأول المحكوم بحلول المهجور في صِفته المهجورة، عاينت وجه شريكتها الأنثى ديدا مليّاً تستنزل منه استخفافَ قلبها بحكم أردهان. نقرت بإصبعها على قرص الحجر فوق ثدييها نقرةَ الوعيد: «ما الجنة؟ ما الجحيم؟ هلاّ تخيَّروا من يرسم لنا حارسة الغزالات جيهان، ابنةَ شاه جيهان، وَلِيَّةَ مرايا الأقاقيا؟»، قالت في همسٍ نازفٍ.

«أسمعُكِ»، ناداها أردهان ضاحكاً. «ضيوفنا يسمعون. هم حكّام الحُجُبِ، وليسوا ممن ينسخون الجسومَ المعلومة. غزلانُك تستطيع أن تنتظر مرور النقّاشين برسوم الحنّاء».

«سمعتَ ناقصاً يا أبا الحمد والجود. ذكَرْتُ وليَّةَ الأقاقيا»، قالتِ المرصودةُ بحجر الماطليس، زانا.

«أنا أرسم الغزالات، يا سيد أردهان»، تكلَّم دَرْبَنْد كَرمان، وهو يضيِّق بين جفني عينه اليسرى،

فالتمعت خواتمه الثلاثة المشمولة بنقوش المتاهة.

«عفوكَ، يا كريم العقل. أمُّ الغزالات تريد رسماً للوليّة جيهان أرابيكُمْ. لكنها رغبةٌ تؤجِّل»، قال حرَّاث النقش أردهان، ابن قاضي الطهاة. سمَّر بصرَ حواسِّه المجتمعة في سِلْكٍ من ماءِ المُمكن: «سيكون ألفاً من شفاعة خيالك لو نثرتَ في إقليم ميدو بزرةً من خيال الله - جنَّتَهُ وجحيمَهُ. سأدعو الأكابر في أنحاء بهبهان. وسِيْرتْ، وبَايزيد، وزارا، وأورفه، كي يدحرجوا قلوبهم شاخصةً إلى متاع الميعاد».

هزَّ الستةُ الضيوفُ رؤوسهم تأييداً، فارتسم في عيني دَرْبَند الأحمر البشرة جناحا القبول. أطبقت زانا يدها على حجر الماطليس: مُذْ رأت صورةً مهشمة الخطوط لجيهان أرابيكم، حاملة ختم أبي جدِّها تيمور كوركان لنك، على ظهر المرآة في بهو ستيرْكِيْ خاتون في موش، أدركتِ الشبه العالق في برزخ المنظورات بين جبينيهما المنخفضين، وفميهما. ثم أجْرَتْ بنفسها، طباقاً أبعدَ فطوَّقت خمارَها، على محيط الرأس، بأربعة أطواقٍ من الفلوس الذهب مصكوكةً برموز الخير-الحروفِ المُخصِبَة في حقول التوريات الأزلية. كانت الكرديات يتطوَّقْن باثنين على رؤوسهن فزادت زانا المقادير طوقين آخرين على سُنَّة التشريف في رسم جيهان ذات الخمار الأزرق، واقتنت نسخةً مهترئة من «مؤنس الأرواح» المنسوخ بخط النُسَّاخ الجوالين في قرى سفوح التاي.

جيهان أرابيكم أسلمتِ الدنيا إلى مشيئة التَّرْف، وانصرفت بكيان الخلاءِ في حقيقتها الممتلئة إلى التبتُّل للمعاني - اللهِ والشّفافةِ. ابنة الأسلاف التي انسفحت لهم الأرضُ منبسطة كقَرْح البابون، جلست على حافة الجرْفِ المحيط بسيل الكَمال، بين حقل صغير من زهور الأقاقيا الصفراء، وهي تُسطِّر بريشة من جناح الألباتروس خواصَّ البسائط الكليَّة - العزلة في مهبِّ النَّفْس من جهة السديم. زانا قدَّرتْ، بتخمين قلبها لنبرة اللون في عصب الريشة، أنها من جناح الألباتروس، وفق وصف أسبغه الدهقان راوند لور على ريشته هو، التي يرقِّش بها البوابات العشر في سُور كتابه الأمين على مراتب الصوت «فاكهة الرقم»: «الألباتروس، وليس الخُطَّاف، أول طائر آنس آدم في عزلته. طائرٌ بقيدٍ في قدميه، يحوِّم ولا يحط. لا قصاص في المعنى: الجناحان أبديان والقيد أبديٌّ، ولهما كرامةُ الثقل الواحد. بريشة الألباتروس تُدوِّن عزلةُ آدم، وأنا سأحيلُ عزلتَهُ إلى صوتٍ». جيهان أرابيكم، بدورها، تدوِّن ما يؤنس الروح المطوَّقة بقيد الباطن: الروح شبكة الظاهر التي يقتنص بها بسائطَ الأحوال الكُلية. الروح قَلَمُ الظاهر وحبرُهُ. نداءُ القلم نداءُ التدوين. القلم الأول - قلمُ المشيئة الذي جرى على لوح الله بالعلوم منقولةً من خصائص الغيهب إلى خصائص المعلوم - دوَّن بحبر العماء نُقْلَةَ الظاهر من كمين العدم إلى الإنشاء الخالق، لأن الظاهر هو القِدَمُ محفوظاً في خزانة الباطن، فُرِّجَتْ عنه المغاليقُ فاستُحْدِثَتِ الموازينَ: لا حساب بلا الظاهر. لا امتحان بلا الظاهر. لا نقائض بلا الظاهر. لا انجذاب للقيامة أن تقوم، مُسْتخلِصَةً من أوعية الفناءِ الكتيم المُغلقِ أبديةً من صور المخلوقات هابطةً درجَ النعيم إلى المحسوس النعيم؛ صاعدةً درجَ الشقاء إلى المحسوس الجحيم، - لا انجذابَ لها بلا عونٍ من انقلاب الخلاءِ الكُليِّ إلى ظاهرٍ يشمل بزوغَ الله، نفسه، على كونِ القضاءِ الأخير، الذي لا استحالة فيه، مُنْتحِلاً كمالَ الظاهر المعدود من حقائق اللانهايات. جيهان أرابيكم دوَّنت «مؤنس الأرواح»

بشفاعة الظاهر في حقل الأقاقيا ـ زهرةِ الحُلوة الذهبية في شريعة اللون : امرأةٌ قلمٌ هي . وكل امرأةٍ قلمٍ حِبرُها رحمُها المنشِئ للزخارف التي يتمّم بها المطلق زينةَ الغايات النهائية، في اليوم الذي يُعفى فيه الخيرُ من تبرير الخيار كعصيانٍ يحقِّقُ الآدميُّ به للخير صفتَه، ويُعفى الشرُّ من تبرير الجَبْر كعصيانٍ تتحقَّقُ به صفةُ الشرّ. زانا خاتون أوْكلتْ، بشفاعة الوَليَّةِ سيدةِ الأقاقيا، إلى نساء أردهان ثوابَ القلم ـ هُنَّ المنتظرات حبرَ أرحامهنَّ التي يتردَّد فيها صدى النَّرْد مقذوفاً بيدِ الغمام الحَجّاب . « أقلام الله » . صورٌ تتشاكل. فلماذا لم يُؤْذَنْ لها أن تستميل رسولاً من رُسُل اللون السبعة، في فسطاط بيتها، كي يستعيد لها كمالَ الظاهر في رَسْمٍ يستنطق به اللونُ علومَ القلم الأول؟؛ رسولاً يفتح لها ممرَّ الأحوال الخرساء كي تمشي زانا، بقدمين من اللون، إلى حقل الأقاقيا، وتقلِّب بيديها المرصودتين بإشارات الحناء كلَّ صفحة تنتهي جيهان من تدوينها : كتاب لن تقرأه قطُّ، لكنها ستطبع على ورقاته البيضاء، قبْل التدوين عليها، واحدةً واحدةً، قُبْلَةَ الصَّفْح عن المشيئة التي أنجزتِ الوجودَ نازفاً .

« الجنة أوّلاً، أم الجحيم؟ »، قال أردهان بلسانِ المُسْتَمْزِج المَرِح، ملقياً بصرَ حواسّه على دربند كرمان، ورفع يده معترضاً قبل أن ينطق ذو البشرة المحتقنةِ بلون الغايات : « ربما علينا إجراءُ القرعة ببخار النشادر » .

« سأتدبَّر ثقة اللون أولاً. على خيالي أن يقدِّم عروضَه المُحْتَمَلة، اللونُ يختارُ ويوجِّه »، قال دربند متلمساً بأصابع يده اليمنى خواتمَ يده اليسرى الثلاثة ـ خواتمَ الدورة السرمدية .

« ثقة اللون؟ »، تمتم حاكم المذاقات فرهاد كأنما عثر على مصكوكٍ من علوم المراتب . « أنا، بدوري، أتدبَّر ثقة الأبازير التوابل. هي خيالي. لطالما أجهدتُ بصرَ لساني في قراءة ذلك السطر الممحوِّ، وها أنت تكتبه لعقلي، يا سيد دربند، بريشة من جناح ديك العرش » .

تدخَّل حرَّاث النقش أردهان مدحرجاً بندقَ المسألة الذهبية : « بيانُ الثقة من خصائص المحظور . الكتمان هو التحديد » .

تبادل الجلوسُ نظرَ التخمين . الثقة مسألة لا يحوجُها تدبيرُ بيانٍ أو كتمان . الثقة ثقة . نطق الضيف جُوْدي غُوْرْغيْن، ذو الخاتميْنِ المشمولين بنقش المرح ـ أهداب بينهما ريش : « أبازيرُ توابلُ، ولونٌ، وحذر، وشكوك . أين يمضي الخيال بمتاعه؟ الثقة تُرى، يا سيد أردهان . الثقة خطوط من حبر دوابِّ البحر » .

« بمَن لا تثق، عادة، يا سيد دربند؟ »، ساءله سَلْمَاسي شَاهْجَانْ، الضيفُ الشريك في تدبير النجاة للأشكال بمعونة اللون .

« لا أثق بمن لا يكذب »، ردَّ الأحمر البشرة، وهو يضع يده اليسرى على صِداره المعقود بسيُور من ألياف نخل القِنَّب .

« أنا، نفسي، لا أثق بمن لا يخطئ »، قال فرهاد، من غير أن يُستشار في تصنيف الماهيات الصغرى، فانبرى أردهان مقتسماً من خزانة النقائض الكسولة بريقَ التوريات : « اسْألْني يا سيد سلماسي . أنا لا أثق بمن لا يقلق » .

تدحرج صوتٌ خافت على زرابيات الفسطاط . انفلق القِشْرُ عن فُسْتُقَةِ النَّبرة الملمومةِ كتويج

البابونج: «لا أثق بمن لا يثرير»، قالت المرأة السوداء، المنبثقةُ من جِرْم الفَراغ المسكون بعَطَالته المسكونة. رنَّ درهمُ القِدَم في خَزانةِ المتعيِّنات ـ العقلِ المعدود آلةً، فضحك أردهان، ضحك الطاهي. نشرت القهقهة وَبَرَها المدغدغ في الحناجر. تماوجَ الإيوان.

«حَضَر إبليس»، قالت زانا خاتون وهي تضع راحتها، جانبياً، على فخذ ديدا تواسيها. همدت القهقهة. اعتُصِرَتِ الإشاراتُ المُلْهِمةُ، وتواشجت النقائض بشِفافةِ الخيال الأليف. حكَّت الأسئلةُ خطمَها بمخلب التلميح المُخادع: «نثق. لا نثق. نثق. لا نثق. المسألة مقادير. نثق إذا كانت الحيلة مُحْكَمَةً، والقلَموتُ مَبْرِيّاً بشفرة الإقتدار»، قال كالدي بخْتريان، سابع الضيوف، المتوسِّدُ سيرورةَ اللون في الأريكة الزرقاء.

«ما القلموت؟»، تمتم جليس من جلساء أردهان. أصغت الأسماعُ إلى أثر اللفظ المكنون.

«هو أصل القلم. نحن نستعير لخيالِ التدوين لفظاً عربياً. نعرف القلم، ونسميه القلم بالكردية. حقٌّ الله محفوظ نطْقاً عند أم الإيمان باللوح؛ واللفظُ الجامع لوجاهة التأكيد يُؤخذ من فم الوحي بلسانه. نحن نأخذه كغيرنا حتى لو كنا نملك فَضْلَ المثول به في الألسن. لكن القلموت حاصلُ خيال الإغريق في ابتداع الرسم الناطق، المتجسِّم، لآلة التدوين»، قال كالدي، الذي اهتزت قلادةُ جلد الوَشَق على صدره.

«أسبق الإغريقُ اللهَ؟»، ساءله جليسٌ مصعوق في متاهة المعنى.

«لا، قطعاً. إنما، في الأرجح، كانوا يسترقون السمعَ على أسماء آلاته. الإغريق لصوص آلات الآلهة»، ردَّ كالدي، الذي استنطقَ اللونَ في ثلاثمائة رسمٍ من أُمَّهات رسوم الطاووس، حتى بات بداهةً أن اللون يسرد سيرةَ اللون بين يديه.

رفرفت سنونوةٌ فوق الجمع الجالس. «أُقْسِم بالشمس أن هذا الطير ألقى عليهم خرزاً»، قالت ديدا السوداء لزانا. تقدم غزالٌ مجتازاً برزخَ حديقة الحصى، فنهض حاكم المذاقات فرهاد الطاهي:

ـ اعذروني. سأستقصي المؤامرات.

«لا مؤامرة تُحاك إلا في مطبخك»، قال أردهان. نَقَّلَ بصرَ فطرتِه ـ فطرةِ النقش المشروخ في الإيوان، من الغزال المقترب في رفاهةِ خياله الأزليِّ حتى البوابة التي خرج منها الطاهي مستقصياً مراتب النار تحت أوعية اللحم، حيث يهيئ الماءُ، في غليانه المُسْكِر، شرارةَ الطُّعوم المُمْتحنة، ويبدِّلُ التابلُ من خصائص المشمومات بجسارة علومه الأبدية. «أسمعُ الطعامَ مستبشِراً»، تمتم حرَّاث النقش، فانفتقت حوصلةُ الصوتِ التميمةِ في نبرةِ الأنثى: «بل نسمع الشيطان يَبِيْض»، قالت زانا.

نقر الغيبُ بسبَّابته المرجانية على غشاء الفَلَك، فتهيَّأ ديكُ العَرْش للصياح، إيذاناً بنقل النهار ميزانه إلى ردهة العصر. تكلَّم زغروس غوني المطوَّق المعصمين بسوارَيْن جلْدٍ فيهما تطريز يشاكل غصونَ السَّدْر: «سمعت أن الشيخ شريف خان البدليسي اقتنى واحدة من بيض الشيطان، حملها إليه، في ولايته، بدوٌ من صحراء قره قُوْمْ، فجعلها في صحنِ حجرٍ مطوَّق بكُراتٍ كالجوز يسمونها فُسَاءَ الذئب».

«الشيطان يبيض، إذاً !!!»، تمتم جليسٌ أخذتْهُ رِعْدَةُ الطبائع.

«أَفَقَستْ تلك البيضة، أمْ ماذا؟»، تساءل جليس آخر.

«مكتوب على قِشرها ثمانمائة بيت من شِعر الخصيان، جمعها للشيخ البدليسي، في ولايته، جوَّابون تجّارٌ في ممالك الأرُزّ. شِعر بلغة أهل الصين على قِشْر البيض يُميت الرُّشَيم - بيضِ الدجاج أو بيض الشيطان»، قال زغروس. ضرب براحته على فخذه في البنطال الأناضوليِّ الواسع تحت جُبَّته: «البيضة تُجاور مخطوطَ الشيخ «شَرَفْنَامَهْ» في مرقده ببدليس. هكذا سمعت. بين البيضة والكتاب سراج مكتوب عليه «أطفأها شريف خان هنا» بسهم يشير إلى البيضة، و «أشعَلَها شريف خان هنا» بسهم يشير إلى الكتاب. بيانٌ خليقٌ بشيخٍ مؤرِّخٍ، وحاكم عادل»، قال زغروس.

«يا سيد أحمد نشمي، لم تخبرنا بقصة البيضة، وأصلُكَ من بدليس»، قال أردهان، مُلقياً بصرَ كلماته على قلب الرجل الذي اقترح توكيلَ الرسامَيْنَ، كلٌّ ثلاثة بشيخ من الوليَّيْنِ الكيلاني والنقشبندي، والسابع بأحوال الجنة والجحيم.

«هي هناك. لكنني أظنُّها بيضة حورية من نهر سيحون»، ردَّ الرجلُ مبتسماً.

ترقرقت جَلَبَةٌ من جهة أرض السرداب، تحت الأعمدة الأربعة المنتصبة في بهو الإيوان. العقلُ الجوَّالُ - عقلُ الصوت رتَّب مراقيَ إنشائه نبرةً نبرةً كسهام القنَّاص، قبلَ أن يظهر هيكلُ الآدميِّ، الدهقان راوند لور، من مشيمة الأرض الرخام إلى الخلاءِ الرخام، متمايلاً في هبوب عمره عليه من شروخ الأحوال وفتوقها: «في أي عام نحن؟»، تساءل مدمدماً بلسان الميثاق المُمزَّقِ الذي لم يحتمله النُّور.

«هلاً أعَنَّاكَ؟»، قالت الفتيات الأربع ذوات الخُمُر الموشاة كالخُوَذ برقائقَ فضّةٍ، وهرعن إليه بجلبة خلاخيلهن المرقومة بسطور من بيان الحقائق الخفية. صمتَ الشيخ الدِّهْقان. رفرف عليه قبسٌ من طالع المحظورِ العليم - فطرةِ النهاية، فهز ريشةَ الألباتروس التي حملها من مكمنه المرصود بشرائع البسيط الكليِّ. هزّها بيده اليسرى؛ هزَّ خيال الطير الرهين في طيرانِه القَيْد. تأمَّل بشرارة العقل الجوَّال في عينيه المرتدّتين على سُلطان المرئيِّ، فجلسَ ابنه، الذي ارتبك قليلاً، وهمَّ بالنهوض كي يعرِّف ضيوفه إلى أبيه، لكن الشيخ، غير المسترشد بعصا العميان، استدار إلى ثغرة كمينه. تقرَّى العمود ذا التويجات المقتطفة من حدائق شعوب الغَمْر، ثم وجَّه الإرادة المحتقنة في الهواء، حول قدميه الواهنتين، إلى خصائص التيه فاستنبط بها غاياتٍ هي خطواته المحسوبةُ، بتقدير من شرائع الأمل، كفايةً لا يلزمها مزيدٌ كي تنزل به من الدرج السفلي إلى سردابه الحالم بنُظُم المُشْكل. تمتم بصوت القيد في لسانه القيد: «هذا عام الرَّنين».

صاح ديكُ العرش - الملاكُ ذو العُرْف الصلصالي من جنبات الغيب المجاور لأنقاض المدائن في «ميدو»، فردَّدتْ صياحَهُ ديَكَةُ ساحةِ الخان. راوند لور، قاضي الطهاة، أكد مراراً للطاهي المقتسم معه تدابيرَ التصنيف، كلٌّ على جبهة من علوم الحِيَل، أن الصوتَ افتراضٌ، لا غير، نقيس به الأشبار التي تفصل الوجود عن انقلابه على الله. الوجود العارضُ - بزرةُ العماء، التي أنْبتَها تَعَرُّقُ السكون هيبةً من كمال ذاته، استُحْدثَ بآلة الصوت. كلَّم اللهُ أزَلَهُ في فاصلٍ من ضرورات التدبير المجهول المعلوم فانفلقتْ جوزةُ الصوت عن ثمرتِه – الصلصالِ الحيِّ ومستلزماتِه: الفردوسِ الأول، الشهواتِ الأولى،

المكيدة، القصاص والثواب المتهدلين من جدالهما في الانتساب إلى عقل الذّكر وعقل الأنثى. الوجود العارضُ، في تغاضي الكمال عن نقصانه، حقيقةً بعد أخرى، ابتدعَ للكليِّ سهوَهُ عن المراتب بعروضٍ هي حيرةُ الكليِّ ذاته في حسم المُنازلة الآسرة بين ابنيْهِ – الخيرِ المحتوم المُشْكِل والشر المحتوم المُشْكِل: كلاهما يُريه انتساب الحقائق إلى مشيئته هو. لكنهما يستدرجان نَفْسيهما إلى صُلْحٍ لا يُستَطْلَع: الخيرُ يكمِّم مشاغلَه بلثام الشرِّ، والشرُّ يُكمِّم مشاغله بلثام الخير. هكذا، يغدو الوجودُ أزلَ الأبد. والوجود صوتُ البوقُ، الذي اقتطعه إسرافيل من شعْبةِ نحاسٍ في قرن الثور كيوثاء، سيؤكد انتسابَ القيامةِ وبناتِها الفردوسِ والجحيمِ والبرزخِ إلى بصر الحواس – خاصّةِ الوجودِ الصوتِ. سينعم الصوتُ بخلوده على مرآى من العماءِ العُطالة المُنتحِبِ على جبهة السديمِ المفقودِ – فردوسِ اللامُدْرَكِ اللاَّخيال.

لا يعرف راوندو لور، حقّاً، إن كان تقديرُهُ كَوْنَ الصوت افتراضاً يجعل الخلودَ افتراضاً. لم يتأمّل عقلُ الأحوال فيه خصائصَ الغَرَضِ الجوهريِّ؛ لم يقلِّب درهمَ المتاهة بين يديه ليتقرى تاريخ تداوله مصكوكاً في أسواق اليقين؛ معدناً أحمرَ نفرتْ فيه النقوشُ أباريقَ وسحاباً. لقد جلس الرجل على باب شيخوخته، باسطاً أمام بصره المنحسر عن رمال المرئيِّ صحائفَ يدوِّن عليها، بخطوطٍ ممزَّقةٍ من لغة أهل زوزان، فجرَ خياله المنتفض في براثن الغسق: «فاكهة الرقم».

لا يتَّصل الإسم الجامع لفكرته الشقية، ومذاهبها، بالمعنى المتوطِّد لبحثه الشقيِّ في أحوال الصوت. «الصوت ليس رقماً، وليس للرقم فاكهة»، ذلك ما حاول حاكمُ المذاقات فرهاد الطاهي أن يفاتحه فيه بكلمات الحياءِ المغسولة، كلما دخل السردابَ – العقلَ المتجاسرَ أن يكون حجراً وصدىً، لكن الدهقان يطوِّق علومَ الطاهي المتَّصلة الأسباب بعناد الخاسرِ القويِّ: «الصمت ماضي الله، والصوت آتي الله. الصمتُ هو القِدَم، والصوت هو المُحْدَث. اسمعني يا فرهاد. الموت عودة إلى القِدَم، تتبعه القيامةُ وهي الوعد الأبديُّ بالتسليم للصوت سرمداً. لكل شيء، في الخاتمة، حركة لن تنقطع. حركة بلا نهاية، صوتُ ختام: البشر يتخاطبون في مقاصيرهم، هناك؛ يلهثون متعةً. خريرُ سواقٍ في الفردوس المُطلق، زفير لهب في الجحيم المطلقة. ماذا ترى يا فرهاد؟ الصوتُ المُحْدَثُ يغدو قِدَماً. أم ماذا؟ يغدو القِدَم مُحْدَثاً؟. أخبِرْني ماذا ترى يا فرهاد».

لا تستطلع توابلُ الطاهي مرابطَ الإشارات المتجادلة على ألْسِنة الأحياء المغدورين. ليكُنِ الصوتُ ما يكون. لِيَكُنِ القِدَم والمُحْدَث ما يكونان. لحظةَ استلَّ جسدُ الشيخ إلى صَدَفة السرداب عاد الطاهي أكمل إرشادَ النار، تحت القدور الثلاث، إلى نبوَّة الرماد الموقوتة، وعاد إلى الإيوان. سيكون في وسع الضيوف السبعة، وجلساء أردهان، ان يستقصوا مغاليقَ الهِبات القدسية بسراج الذوقِ القدسيِّ – ذوق الإغواء. أسَرَّ اللهبُ إلى القُدور سطوراً من شرائع حظوظه فرَعتْها القدورُ حفظاً بعون الأبازيرِ التوابلِ الساهرة على خصائص التوليد والنَّقل. كُشِفتِ الأغطيةُ الخزفية ففوَّض العقلُ المشمومُ لسانَ الحواس بالتصريح عن ولايته. تسلّم فرهاد المقاليد: «دَرْديْ وَا» نادى ابنتَه – الملاكَ المرفرفَ في القفطان الأسود فوق السروال المخمل. هبّت إليه الفتاة ذات الجديلتين الذهبيتين، المتماديتين تسكُّعاً على كتفيها من تحت الخمار المرصوص برقائق الفضة. «قولي لإخوتك أن يرفعوا القدور عن النار»، قال حاكمُ المذاقات، فتطاير الريشُ عن لسان درديْ وَا وهي تبذِّر الحروفَ ناقصةً، مفهومةً، أمام أسماع

الشبّان السبعة الحاسري الرؤوس. قضم كل واحد قضمة من التين المحشو بالجوز، وانحنوا على مقابض القدور يرفعونها عن أفواه المواقد الحجرية. رجع الطاهي إلى الإيوان عبر الممشى الذي يصل الخان بالدار. قرأ لأردهانَ، صامتاً، في اقترابه من الأرائك، أحوالَ الطهو الجليلةِ، فتلقّفه حرَّاثُ النقشِ صارخاً في مرح المُقْتَدر : « هلاّ مددتم سماطاً هنا، قرب حديقة زانا خاتون، يا فرهاد؟ أريد أن أترك أثراً من نداء طَهوك في خيال السنونو»، مشيراً إلى الأعشاش في قبّة السماء الحجريّة، حيث أوَت الطيور باكراً، في عصر الخريف الذي لا يتفق مع طباعها، إلى منازلها المرصوصة الغُثاءِ بكراتِ الطين. « أين أويس؟ » قال ثانيةً. فتح ذراعيه يكمل بهما إشارات لسانه : « سندلُّكم، يا ضيوف هذا البيت، على مهاجعكم ومَرافقِ أعمالكم المنتظرة. كلٌّ متاعٍ سينزلُ منزلته قرب أيديكم. بعد ذلك نخْلُد، هادئيْنَ، إلى مباحثنا في أسرار الفقيه في مواعظ التابل فرهاد، ابن الفقيه في النحو الفلكيّ مردان زنكنه».

«بل هو فقيه في علوم الظاهر»، قال حاكم المذاقات.

«النحو، والظاهر، فتنتان. والفتنةُ برغوثُ العقل النائم»، قال أردهان.

«أتُهينُ البرغوثَ؟»، تمتمت السوداءُ ديدا، المتلالئة الجبين من انعكاس طوق الرقائق الفضة على استدارة خمارها.

«لا تتركين حيواناً لا تجدين فيه كرامةَ المنفعةِ، يا ديدا. ما كرامةُ البرغوث؟»، ساءلها أردهان.

«ثَقُلَ النومُ على نبيّ فأيقظه البرغوثُ إلى صلاة الفجر»، أكّدت ديدا لأردهان بلسان التحصيل المكين. تأمَّلها حرّاثُ النقش. أدار بصرَه إلى زنا خاتون : «أين حاكمُ أخلاط الممزّقُ الراية، قريبكِ الرّاوية، مُخصي شجرات الكمثرى في سهول موش، أويس أوسينجان بك؟»، قال وهو يغمزُها مداعباً. لم ينتظر أن تنطق إذ رأى دخانَ الآجُرِّ في عينيها. ضرب كفّاً بكفٍّ : «هيا ندلُّ الضيوفَ على بيدر صورهم المحفوظة في خزائن اللون»، قال ناهضاً، فهرعت الفتيات الأربع إليه. رنّت الرقائقُ الفضة على رؤوسهنَّ متناقرةً بمناقير الأختامِ النقوشِ، وصَلْصَل وَدَعُ بحيرة وَانْ. «هذه الفتيات رياحين الحدائقِ المفقودةِ»، قال أردهان ممتدحاً وجودَهنَّ الغمامَ لضيوفه فطارت قلوبهن امتناناً في البهو الشاسع. تقدَّمنَ الجَمْعَ مرفرفاتٍ يفتحن ثغراتٍ في حُجُب الفراغ المعقول، ويمسِّدن الخفيَّ كي يبسط للخطى من خلفهنَّ لَبُودَ العافية.

من الساحة الخلاء، المرصوصة بحجر أصفر صُفْرةً هو كتمانُه عبثَ اليقين، اتجه الجمعُ إلى القبة الصغيرة، الطينية، المضروبة على درج لا يُرى إذا لم يَصِر المرءُ إلى حلقة مدخله. «ستشمون أنفاسَ ثلاثة آلاف عام»، قال أردهان وهو يدعو ضيوفه إلى النزول خلف الفتيات، عبر سطورٍ في ناموس الظاهر إلى بياض الباطن. الأدراج اللولبية، الثلاث والأربعون، مسّت برخاءِ ذيلها أرضَ البهو المترامي، في الأعماق. ستة عشر عموداً من رخام ذي أطواق زرقاء بعروقِ ذهبٍ أسندت سماءَ القبو تحت حجارة الساحة الدائرية. نوافذ مثلثةُ الزجاج أضاءتْ، من جنبات نهايات الأعمدة، الفراغَ الشاحب من طول بقائه فراغاً مقيَّداً بأسماء الربَّات المرتديات أجسادَ النمور المهشَّمة قليلاً، في بروزها من المحاريب المجوَّفة في الجدران. «ملوك ميدو ذبحوا كاهناتهم هنا كلما خسروا حرباً»، قال أردهان.

«نحن أضفنا نوافذ إلى السقف، ومدخنةً إلى المداخن الثلاث، ومجرين للتهوئة مستورين، وهذه الفُسْقية أمام مدخل الحمَّام الكبير، خلف ستارة الخوص البيضاء تلك. الغرف الإحدى عشرة، التي حوت المدوَّناتِ على الجلود اللفائف، هي على حالها. اللفائف نفسها على حالها. أسرارُ حَنُوطٍ، وأسرار دفنٍ، وأنسابٍ، وصناعة تروس، وقِصَارةٍ، وتوليدِ فيروزج من خام الرمل، وخواص دماءِ الحيوان. صنعنا للغرف أبواباً من خشب الزان، كما ترون، بلا طلاءٍ، لتمتصَّ الرطوبة فيتولَّد هواءٌ فيه فوحُ صِمْغ الكُنْدُر. وتلك هي جرار الرمل المجلوب من منابع الفرات والخابور. تَرَوْنَها على يمين الأدراج، هناك: خيالُ الماء. لا قبوَ يحيا بلا خيال من خيال الماء. في الجهة اليسرى من الأدراج جرار الرماد. الجرار الخضراء، تلك، جرار رماد»، قال أردهان، وطوَّق وجوة ضيوفه بفُحَّةٍ من أنفاس الفلفل تشهَّاها في متاع الطهو الذي ينتظرهم قرب حديقة زانا. «رماد من بقايا آل ابراهيم»، تمتم حرَّاث النقش. ثمانية وثلاثون فرداً، بينهم امرأة وصَبيَّان، سُلخت فروات رؤوسهم، وعُرضوا على سطح قلعة أرجيش للرياح القادمة من حقول الصَّاصَل. عطرٌ خفيف ولسْع كالكيِّ. الأيدي، غير المغلولة، لم تقدر على حماية عظام الجماجم العارية في المهبِّ المعتدل للريح المعتدلة. أقحاف بيضاء لوَّثتْها عروقُ دمٍ أبقاها السَّلْخُ من مهارة آلاته: «أعطُوهم طعاماً، وماءً»، قال الشاه طهماسب، بعد اجتياح القلعة ونزع الفروات عن رؤوس آل ابراهيم بن بدر، الأمير المسكون بطباع ثمرات السفرجل: فجاجة في الفم، وحلاوة في الأحشاء. نطقَ الأمير بكلماتِ التحصيل المحظور: «أن تلتحق بولاية بدليس ألويةُ الأقاليم الصغرى عن حولها. بدليس سَمَعُ الكرد وبصرُهم». فكَّت الكلماتُ قيدَ التسكين عن عقل طهماسب الشاه. أخلى الهاجسُ الدمويُّ للهاجس الدمويِّ مقعد النظر في شؤون الأقاليم المحفوظة لخزائن الكرد. فحُسمت المناظراتُ الخفية: «سأجفِّف أقحافَ آل ابراهيم، وهم أحياء، كتجفيف التين. أعطوهم طعاماً وماءً»، قال الشاه وهو يستعرض آل الرجل الذي نطقَ بكلمات التحصيل المحظور. بياضٌ كالقبَّعات فوق سمت الرؤوس - بياضُ العظام. أفواه مفتوحة بعد ارتداد الألم من الوجوه إلى الأكباد، وارتعاشاتٌ في الأكتاف كلَّما مسَّتِ الأقحافَ ريشةُ الهواء الصَّكَّاك.

لم يأكل أحد من آل ابراهيم طعامَه. لم يشرب أحد ماءً. أوصد الألمُ على نفسه خيالَ الإثم متراجعاً إلى حافة سور المرصد في أعالي القلعة، ورمى أختامه الى السطور الظاهرة من زهر الصَّاصل: بزفراتٍ خفيضةٍ كزفرات طائر القُوق غادرت أرواح آل ابراهيم، الحاملةُ فوانيسَ المعادن، أجسادَ آل ابراهيم الحاملة فوانيس المُعْضلة الأزلية وجواهرها. أُحرقت الجثثُ بحريَّة النار، واعتُقِلَ الرمادُ في جُرْنٍ ضخم كامثولة.

تنشَّق أردهان، باستعراضٍ من خيال شهواته، فروقَ الأسرار في اتحاد التوابل حين عاد بضيوفه إلى الإيوان. سُوِّيتْ لكل ضيفٍ غرفةٌ من غرف المدوَّنات بحروف الطمث الثالث لألفيَّات العمارة. رُكِنَ متاعُهم إلى جوار الفُرُش السميكة الممدَّة على حُصُرٍ من صناعة أهل هَمَذان - حُصُرِ النَّدى المحاطةِ الحُوْص بقماشٍ أصفر وأخضر، وحُذِّروا من الطاووسين المحوِّمين حول الفُسقية المطعَّمُ مرمرُها بصنوف من الجُزْعِ الصقيل عليه حروف التقييد والحَصْر بلغة أهل «المنطق المُحايث»: «الطاووس مولود من خَبَل الزهر الذي تخاصم في الفردوس على مقادير اختصاصاته، قبل انتقال العِلْم إلى آدم بأسماء

الزَّهر. الطاووس تجديفٌ أوّلُ على لسان النبات، إذا دخل الغُرَفَ حرَّض فيها اللونَ على المروق».
هكذا سَكَبَ أردهان حكمةَ الشُّبهات المصكوكة في أقداح المُشَافَهات. ولمّا عاد بضيوفه إلى مطلع الإيوان، تحت تيجان الأعمدة، تنشّق مرافعةَ التوابل ببصر الشمِّ وسَمَعِه ولمسه وذوقه: «أيحاصركم ما يحاصرني؟»، ساءل ضيوفه بلسان التشبيه المُسْتَغْلَف، فردَّ سلماسي شاهجان ذو القبعة النيسابورية:
-نعم. يحاصرنا عَدْلُ المذاق.
أحاط الضيوفُ، وبعض خواصِّ أردهان من الجلساء، بالصحاف الثلاث جلوساً على زرابيات متقابلة على تُخْمٍ من حديقة زانا. بخارٌ بثمانين ضِلْعاً، وستٌّ تَرْقوات كآذان الفيلة، تمطّى مهذَّباً وديعاً فوق الطعام الساخن: ألسنةُ نعاج مقشَّرةٌ، مفتوحة طولاً بالسكين لتُحشى بقضبان الهليون المُحمَّرة في دهن النيلوفر. أكارعُ في صمغها سُلِقت بماء فيه بصيلاتٌ من سيف الغراب - سوسنِ البرِّ الناضجة في الأغلفةِ اللِّيْفِ. أحشاء دقيقة، حَشْوُها الجُمَّار المفروم، وريحان الحَمَاحِم، وحَبُّ الدردار - لسان العصافير، والشحوم الغُدد مع غضاريف قصباتِ المريء المُقطَّع ناعماً. كروش خراف بالقمح والفستق، والزبيب الأصفر، والقراصيا، يزيِّنها العُصْفر ويمدُّها الدَّارْصيني بروحٍ من فوح مسالك الصين. طحالات غُلِّفت بِصفاق الحيوان وشويت، مع بزر الكَرفس والكمأ المجفَّف، في التنُّور. «سيغلي الماء الراكد في فِقَر ظهورنا، من الأعناق حتى العصاعص، هذه الليلة»، قال أردهان. ضحك ضيوفه ضحكاً خافتاً وهم يقطِّعون الأرواحَ الساخنة في الصحاف المستطيلة بأيديهم. تمادى حرَّاثُ النقش بإلهام من فَهْمِ ضيوفه للتورية: «ستكون أحلامنا على قَدْر انبثاق الصور من الماء». أحلامٌ من صعود الشحم والدَّسم بمقادير الأبخرة الثقيلة إلى القلب - صانعِ طباعِ النقائض، حيث يستقدم الماءُ المنيُّ، من هناك حَمَلَةَ النواميس الرقيقة، الرافعين متاعَ الصور المكنونة إلى مَلَكات النوم العاقل. الصور ستعتقل الهيولى - إرثَ الله بآلاتها. الضيوف التقطوا التورية، فتمادى أزدهان، وهو يختلس النظر الى حلقة النساء المحيطات بصحاف أخرى على مبعدةِ سبع أذرع، كأنما يطمئن إلى انصراف أسماعهنَّ عن سماطه إلى ابتكار الوسوسات الخفية بعضهن لبعض: «فرهاد من أهل القياس في أمور العدم»، قال بلسان المستحوذ على سَمَع المغاليق. «العارفون بالعدم ينجبون الصورَ من نكاح الأحوال»، تمتم حَذِراً. «التوابلُ الأبازيرُ أحوالٌ: الفلفل المطحون درايةُ الندم بانقضائه. الدارصيني فِسْقٌ من خصائص العفَّة. العُصْفر نَفَس القَدَر. القرفةُ عدلُ الثمرة في انتسابها إلى جَوْر الشجر. فرهاد يضرب المثاقيلَ أخماساً في أسداس على مرآى من بصر المذاقات المشمومة حتى تنعقد للطعوم حكمةُ الجِماع: صمغ الأكارع يضاعف الرُّهز. ألسنة النعاج تنفخ الكَمَرةَ. الأحشاء المحشوة تولِّد الدغدغةَ في الصَّفَن. الكروش بمرق القمح سيلُ الله من ترائب الرجال إلى ترائب النساء: دفْقٌ من الثُّنْدُوَة إلى الثدي بلا وساطة من ملائكة العِلل. الرجل يقود المرأةَ إلى الحَبَل بصدره».
التمع الدَّسمُ الساحر على شفاه الرجال، وتكاسلت العيونُ من استحواذ عقل الماهيات، المطهوَّة في خمائرها، على بصرِ التأويل: كانوا يأكلون الحقائقَ مطحونةً بأضراس النعمة، ويرتشفون من الطاساتِ الخَزَفِ، المطوَّقةِ الحواف برسومٍ لذيل التنين ذي الزعانف، لبناً مخيْضاً رشح أصلُه إلى الضروع من فَرْث الضأن، الذي تغذى خيال طباعه بالنبات الغضيض، المرصود الجوهر كنَفَسٍ حالمةٍ بثمرات المعقول

الأزلي. لبنٌ مُرَطِّب يجادل الدسمَ بحياءِ النَّفْح العريق، فيستزيد الرجالُ من مداهماتهم على الصحاف.
«التوابل رهانٌ»، تمتم جودي غورغين. مسح على شاربيه فالتمع الخاتمان المصكوكان بشرع المَرَح.
«لا رهان إلاّ على الله»، قال جليسٌ من جلساء أردهان، في أدب.
«ماذا تقول في الرهان على الخيل؟»، ساءله جليس آخر.
انبرى ثالثٌ بلسان التحصيل: «الخيل ريح. في علوم المتأدِّبين على الكمالات أن الخيل نسلٌ من ريح الجنوب».
«ما الشرع في الرهان على الريح؟»، تمتم سائل، فرد الطاهي فرهاد:
ـ لا شرع، ذمّاً أو حَمْداً، في الرهان عليها.
«إذا كانت الخيل من نسل الريح، فقد حبَّب اللهُ إلى ملائكته حضور سباقاتها»، قال جليس.
«من أين لك هذا التحصيل؟»، ساءله جليسٌ آخر.
«ورد في الأحاديث النبوية أن...»، قال شخص تقطَّعت كلماته بدخول أويس مهرولاً يسبقه لسانه:
ـ يا سيد أردهان، ماذا نفعل بالرهينة؟
توقفت الأفواه عن المضغ، وانكمشت الأيدي.
«أية رهينة، يا أويس؟»، تمتم أردهان بصوت أرهقته شرارةُ الطلَّسم.
«حاملو الأكفان يريدون أن يستودعوا الخانَ رهينةً جلبوه معهم من نواحي سِرْتْ»، قال أويس.
فغر فمُ حرَّاث النقش. تبلبل مذاقُ الفهم على لسان عقله. جال ببصره على وجوه الضيوف مستعيناً، فالفاهم مثله أنزلتهم الحيرةُ مقامَها الذهبيَّ. استنجدَ بكلماتِ الذهول الرقيقة: «ماذا؟ حَمَلة الأكفان... ماذا؟ من نحن لنحفظ رهائن في خاننا؟»، تمتم أردهان فلم يسمعه أحد في الأرجح. قرفص أويس بعدما لفَّ العباءة على جذعه فبدا مقيَّداً. تخاصمت سنونوتان في سقسقةٍ صاخبة، ثم ارتدَّتا إلى عشيهما، في البرهة التي انتقلت الفتيات الأربع فيها إلى إشعال الفتائل في الأسرجة والفوانيس، بحلول المغيب رقيقاً، مُسَطِّرَ اللوح بأشعار الغيم. تمالك أردهان نَفَسَ يقينه: «يأخذون معهم رهائنهم إلى نواحي بدليس، عادةً، فلماذا يستودعوننا، اليوم، رهينةً؟. لا طاقة لنا على إثارة منازعاتٍ في أرض ميدو»، وأطرق برهةً. رفع بصره إلى أويس: «من أية ملّة هو الرهينة؟»، فردَّ ذو العين الواحدة:
ـ لست أدري. ثيابه من ثياب أعيان السلاجقة.
غمغم أردهان من أعماقه المنكمشة بصوت يستقصي حيلة العلوم في شؤون المجابهات. حَمَلةُ الأكفان، الموسومون سَحَرةً على البياض، بثيابهم البيضاء، وأكفانهم التي يحملونها على العواتق، أقلقوا مجامرَ أمراء الأنهار من كرمَنْشَاهْ حتى مَلاطِيَهْ. ظهروا فجاءةً غامضينَ حازمين في مبايعة الشرعِ الذي يوجبُ إمارةَ بدليس مقاماً للحقِّ المقدور نصيباً للكرد، مذ أفتى الشيخ نصرةُ الله بالْوَجَان، ذو العمامة المتَّصلةِ الشراريب بحصىً مثقوبٍ جُمِعَ من حواصل الطير ـ خيال القيد الجامعِ للضرورات، بأنَّ الوقت قد نضج على نار المُعضلة الدهرية، التي تستوجب سنَّ دستورٍ للظلِّ: «في هذا الفرع من

انفصال الزمن عن عِلَل التشبيه، ستولد الإمارةُ الموعودة من عقل الماء في بحيرة وانْ. بدليسُ خميرة الظلِّ المنْجِب، والكردُ شفاعةُ الناموس. فَليحَضُرِ الأئمة العارفون، ولْتحضُرْ غمامةُ الله». هكذا جرى روحُ القول في الأسباب، وتمّت البيعة للأكفان بمددٍ من الخفيِّ الظاهر.

كان حَمَلَةُ الأكفان ينزلون الخانَ في «ميدو» على عجل، ويغادرون على عجل، ببنادقهم الملفوفة المواسير بالخِرق الصفراء - علاماتِ التوكيد علي مبايعة الموت. كلٌّ يحمل كفنه. الحقائق مُخْتَمِرة في القوارير المختومة بشمع النظُم الخالدة - نُظُم الممكنِ البرزخِ بين الله وكلماته. الخيرُ حاصلُ حسابٍ من الأعشار الصغيرة للأرقام، وحَمَلَةُ الأكفان يحفظون، في عقولهم البرزخية، نواظمَ المسألة وحسابها المتصرِّفِ جداولَ من الرقم المُفْرَدِ - خِصِّيصةِ الخيال الذي لا يقبل القسمة الا على اللامدرك اللامعلوم. لقد خيروا الأبدية خياراً لا ثاني له: أن يكون إرثهم أو يكونوا إرثه، مهملين الإصغاء الى مرافعات الشرِّ القوية الحَبْك عن الخير كي يظل الإثـمُ هداية الجدل إلى آلاته. حَمَلَةُ أكفانٍ، وخيرٌ صرف، خالصٌ، نقيٌّ، لا أمل للخطيئة معه في أن تحظى بقُبلة على قدَم الغفران: إمّا بدليس، أو الفردوس. وقد جرفوا، في الطريق إلى الفردوس، خزائن الإمارات المطمئنة والقلقة، والكثير الكثير من السهول الحائرة وأخواتها الحقول.

«بمَ سيبادلون رهينةً في أرض ميدو؟»، تمتم أردهان شاحباً.

«أن يأخذوه معهم، أو يقتلوه، أجدى»، قال الطاهي.

«فليخصوه»، غمغم أويس بلسان لم يتبيّن انحيازُه إلى السخرية أو الفطنة. نزلت الكلمةُ مصكوكةً الى خيال الطاهي. نطق أردهان وهو يلجم انسراحه في شفق المُعْضل: «أستميحكم عذراً على هذا الكدر الخفيف. كلوا هنيئاً، ولا تتوقفوا»، قال لضيوفه، واقتطع عقدةً من أحشاء الضأن.

نهض أويس. «إذا أصرُّوا على إبقاء الرهينة هنا، سأدربه على الغناء لنزلاء الخان»، وألقى شبكة بصره، من العين اليسرى، على مجرّات الخفيّ الظاهر. همس من حنجرته المشجوجة الخيال بنظمٍ ملحونٍ، في انصرافه:

«الطيرُ يعرف أنه طيرٌ،

فلا تُلحَّ عليه أنك تعرف أنّه طيرٌ، أيها المتلمِّسُ جناحيكَ المفقودين».

الهم الاجتماعي

قراءة في «بؤس العالَم» لبيير بورديو وآخرين

صدرت منذ فترة طبعة شعبيّة لمؤلّف ضخم، مرجع سوسيولوجيّ لا غنى عنه، كان عالم الاجتماع الفرنسيّ بيير بورديو Pierre Bourdieu قد أصدره منذ سنوات بعنوان «بؤس العالَم» La misère du monde عن منشورات «لوسوي» Le Seuil بباريس. جنّد بورديو ما ينيف على عشرين باحثاً اجتماعياً توزّع معهم المهامّ وقاموا جميعاً بجردة واسعة لمظاهر العُسر التي يعاني منها المجتمع في فرنسا بمختلف عناصره المكوّنة، بما فيها، بل خصوصاً، مختلف فئات المهاجرين والأجانب. ولقد عمدوا إلى تحقيقات سوسيولوجيّة أو اجتماعية وحوارات موسّعة وأردفوها بتحليلاتهم لنتائج هذه الحوارات ورؤيتهم لمصادر عسر المجتمع الفرنسيّ والمهاجر. وبمناسبة صدور هذه الطبعة الشعبيّة، ونظراً للأضواء الحادّة والكاشفة التي يسلّطها الكتاب على الظواهر المعالَجة، ارتأينا أن نعرض في الفقرات الخمس التالية عدداً من فصوله الأساسيّة. في الفقرة الأولى نتوقّف عند الأسلوب الذي اتّبعه بورديو والمتعاونون معه في إجراء الحوار والتحقيق السوسيولوجيّين. وفي الثانية نقدّم رؤية بورديو لما يدعوه باستقالة الدولة. وفي الثالثة عند ما يراه من مساهمة للنظام التربويّ والمدرسيّ في مفاقمة الأزمة. وفي الرابعة عند تحليل أحد مؤلّفي الكتاب، پاتريك شامپاني، لمسؤوليّة وسائل الاعلام. وفي الفقرة الخامسة والأخيرة عند تجارب مغاربيّة عرضها المؤلّفون وحلّلوها.

أسلوب في الحوار:

في دراسة حملت عنوان «أنْ نفهم» وتمثّل ما يشبه المفتاح المنهجيّ للكتاب، يبدأ بورديو بالتذكير بأنّ عقوداً عديدة من السنوات أمضاها في إجراء التحقيقات والاستفتاءات السوسيولوجيّة، علّمته بأنّ هذه الممارسة لا تجد تعبيرها المناسب لا في الوصفات المنهجيّة المعدّة سلفاً والتي تظلّ علمويّة أكثر منها علميّة، ولا في التحذيرات من العلم الداعية الى الانصهار العاطفيّ أو الشعوريّ بين مُجري التحقيق والمجرى معه التحقيق أو بين المستجوِب (بكسر الواء) والمستجوَب (بفتحها). ومن هنا تنبع في رأيه ضرورة تحديد المبادئ والمعايير التي أجريَت على أساسها عشرات التحقيقات التي استمدّ منها هذا العمل الضخم مادّته ومحتواه. لا شكّ أنّ العلاقة التي تقوم أثناء التحقيق بين المستجوِب والمستجوَب، إن كان مبتغاها الأساس هو إقامة مقاربة معرفيّة، فهي تظلّ تمثّل علاقة اجتماعيّة كبقيّة العلاقات. أي أنّ لها نتائجها وآثارها المتباينة على التبادل الناجم عنها. وإذا كان الطابع العلميّ أو المعرفيّ لهذه العلاقة يُبعد عنها مبدئيّاً أو بالضرورة كلّ ممارسة لأيّ من أنواع العنف الرمزيّ القادر على التأثير على نوعيّة الأجوبة، فمع ذلك لا يمكن في مثل هذه الاجراءات الركون إلى الإرادة أو النيّة وحدهما، وتظلّ جملة احتياطات منهجيّة وعمليّة تفرض نفسها في هذه العلاقة. إنّ ثمّة التواءات ممكنة في هذه العلاقة كما في سواها، ووحدها الاحتياطات المتّخذة

بكامل الوعي تمكّن من تطويع هذه الالتواءات.

القاعدة الأولى التي يطالب بورديو بتوفّرها لدى الباحث السوسيولوجيّ القائم بالتحقيق أو المحاورة تتمثّل في ما يدعوه بالانعكاسيّة Réflexivité، وهي أن يطبّق الباحث قواعد مهنته ومبادئها القيميّة على عمله نفسه. إنعكاسيّة أي منعكسة على الذات. وهو يدعو إلى أن تشكّل هذه الانعكاسيّة نوعاً من ردّة الفعل الدائمة، ومن الغريزة، تتأسّس على مراس مهنيّ وعلى «عين» أو نظرة سوسيولوجيّة تتيح السيطرة على مجرى الحوار وعلى نتائج البنية الاجتماعيّة التي يتحقّق الحوار فيها. فكيف تطمح السوسيولوجيا الى تشكيل عِلم للفرضيّات والأحكام المسبقة من دون أن تعمل على تحليل فرضياتها المسبّقة وأحكامها هي؟ إن الحلم الوضعيّ ببراءة معرفيّة أو ابستمولوجيّة كاملة يتخفّى في الواقع على الجهل بأنّ الفارق لا يقوم بين علم يمارس بناءات نظريّة (أي يقيم مقدّماته ثمّ يسعى الى التحقّق منها) وعلم آخر لا يمارس مثل هذه البناءات. بل الفارق يقوم بين علم يمارس ذلك من دون أن يعلم، وعلم آخر يعلم أنّه يمارس البناء النظريّ فيجهد في معرفة أفعال بنائه هذا وتطويع نتائجها المحتّمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ينبغي التساؤل عن الآثار التي تنجم عن العلاقة بين المتحاورين، وبالخصوص آثار الحوار نفسه على المستجوَب، على نظرته الى هذه العلاقة التي يمكن أن تبدو له كمثل تسلّل إلى عالمه الشخصيّ، وعلى شاكلته في تلقّي هذا التبادل، ما دام الحوار السوسيولوجيّ والاستفتائيّ يشكّل نمطاً من أنماط التبادل. ينبغي التساؤل عن آثار التشجيع المعطى له أو المرفوض عنه في أثناء الحوار، طبيعة إدراكه لكامل الوضع وفهمه لغايات الحوار والنتائج المنتظرة أو غير المنتظرة منه.

إنّ الباحث هو الذي يقيم غالباً إن لم نقل على الدوام قواعد اللعبة، أو كيفيّات الحوار، بصورة أحاديّة ومن دون تفاوض. هذا انزياح أو تفاوت يأتي ليضاعفه تفاوت آخر، اجتماعيّ هذه المرّة، كلّما كان القائم بالحوار يشغل مكانة اجتماعيّة ومهنيّة متفوّقة على هذه التي يشغلها الطرف الآخر، الشخص «الخاضع» للمحاورة. هكذا بحيث يتفاوت سوق الممتلكات اللغوية والرمزيّة الذي ينشأ في المحاورة بمقتضى العلاقة الموضوعيّة التي تقوم بين المتحاورَين، بل بين الرساميل من كلّ نوع، وبالدرجة الأولى اللغويّة، التي يمتلكها المتحاوران.

انطلاقاً من هذا الوعي بالانزياحات والتفاوتات الممكنة، وبغية تطويع آثارها الرمزيّة إلى أقصى حدّ ممكن، صار يلزم العمل على اجتراح إصغاء منهجيّ وفعّال يبتعد في الأوان ذاته عن عفويّة الحوار غير الموجَّه وعن نوع من التسلّط أو القرار المسبق يرافق عادةً الاستفتاءات (الإجابات المقدّمة على استمارات معدّة سلفاً). في هذه التجربة كان ينبغي، كما يعبّر بورديو، الاعراب عن حضور كامل أمام المستجوَب، إرادة في تلقّي خطابه، وامتثال لتاريخه الخاصّ يمكن أن يقود، بفضل نوع من التكيّف أو المحاكاة شبه المدروسة، إلى تبنّي لغته والدخول في وجهات نظره ومشاعره وأفكاره، وذلك ضمن بناء منهجيّ تساعد عليه معرفة بالشروط الموضوعيّة التي تتحكّم بالوضع كلّه وبالمحاورة. وكان يجب أحياناً العمل على تعديل بنية الحوار نفسها، أي طبيعة السوق الرمزيّ واللغويّ، واختيار مَن يقوم بمحاورة مَن.

إنّ كلّ مَن أجرى محاورةً سوسيولوجيّة أو تحقيقاً يدرك كم هو من الصعب حصر الانتباه باستمرار بما ينقال (لا عبر الكلمات وحدها وإنّما في مجمل المحاورة مأخوذة كمشهد كليّ)، واستباق الأسئلة التي يمكن أن تندرج بصورة طبيعيّة في مجرى المحاورة وفي الأوان ذاته باتّباع «خطّ» نظريّ معيّن. وبالتالي فلا أحد في منجى من أثر الأسئلة الساذجة أو الساهية ببساطة، ومن أثر الأجوبة المتسرّعة أو المزيّفة التي يكون «المحقّق» قد أثارها بسؤاله نفسه، ونتائجها

على بقيّة الحوار. أجوبة يكون هو نفسه قد أنتجها في فم المحاوَر بصورة من الصور.

لقد طلب بورديو من العاملين معه إجراء حوارات وتحقيقات مع أشخاص يعرفونهم هم أنفسهم من قبل. فالعمّال العرب أو أبناؤهم مثلاً قام بمحاورتهم باحثون اجتماعيّون مغاربيّون يعيشون في حيّهم السكنيّ نفسه، وتربطهم بهم أحياناً علاقة جيرة تمتدّ على سنوات عديدة. وكان لهذا الاختيار أثران إيجابيّان. فعندما يكون المستجوب على قرب اجتماعيّ من المستجوَب، فهو يهبه، بادئ ذي بدء، وبفعل التبادل القائم بينهما من قبل، ضمانات في عدم رؤية بواعثه الذاتيّة وقد حُوّلت إلى أسباب موضوعيّة. ضمانات في عدم رؤية اختياراته المعيشة باعتبارها ثمرة قرارات حرّة أو مَمليّة بفعل شرطه نفسه، رؤيتها مختزلةً إلى تحديدات موضوعيّة ناجمة عن قريحة الباحث أو استنتاجاته. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهناك أثر بالغ على المسار التقنيّ للحوار نفسه. إنّ وفاقاً مباشراً يقوم بين الاثنين، ويعرب عن نفسه في التلاؤم، العسير على التحقّق بصورة مقصودة، بين جميع العلامات اللفظيّة والاشارات غير اللفظيّة التي ترافق المحاورة، وهذا كلّه مما يساعد إلى درجة بعيدة في تأويل الحوار أثناء انعقاده ولدى الفروغ منه. وكان ويليام لابوڤ قد أفاد من قبل من هذه الاستراتيجيّة كثيراً: فحتّى يختزل بأكبر قدر ممكن آثار التفاوت والانزياح والتوجيه القسريّ في المحاورة لدى دراسته لانجليزيّة السود المحكيّة في هارلم، أرسل للتحقيق معهم باحثين سوداً.

لكنّ هذا لا يكفي لتحقيق الحوار المطلوب. بل يجب تحقيق انخراط المستجوَب نفسه في الحوار وإشعاره بأنّه هو نفسه مساهم فعّال في عمليّة البناء النظريّ التي ينطلق منها الحوار أو يصبّ فيها. ولن يتوصّل المستجوب إلى نيل مساهمة المستجوَب القصوى من دون معرفة عميقة، هي في بعض الأحيان ثمرة سنين طويلة من البحث والمعاشرة، بمجمل وضعيّته. وغالباً ما يعتمد هذا على معرفة متبادلة تحقّقت بين الطرفين في حوارات مسبقة عديدة. فالحوار الناجح هو واحد، تكلّل بالنجاح، من سلسلة حوارات لم تجد ولن تجد سبيلها الى النور. هذا كلّه مما يبعدنا عن العفويّة المفتعلة للحوارات الفوريّة التي يخامر القائمين بها الانطباع بأنّهم حالفهم النجاح منذ أوّل «ضربة».

إنّ الباحث السوسيولوجيّ مطالب هنا بأن يحقّق وضعيّة تواصليّة بلا عوائق، وضعيّة متحرّرة من الضغوط الممارسة على التبادلات اللغويّة اليوميّة، وضعيّة تتيح للمستجوَب أن يعبّر فيها عن عسره وافتقاداته ونقصه ومطالبه، اي كلّ ما يشجّع على انبثاق خطاب استثنائيّ كان يمكن ان لا ينبثق مع انّه كان هنا، في انتظار أن تتحقّق شروط انعقاده.

بعد هذا يأتي تسجيل الحوار أو تحريره خطيّاً. وهنا يتمسّك بورديو بنوع من الحرْفيّة، لا يكتفي فيها بعدم حذف التكرار والعبارات المترددة والأخطاء النحويّة واللغويّة، بل يحرص هو ومساعدوه حتّى على تدوين الانفعال أو التعبير الايمائيّ الذي رافق هذه العبارة أو تلك. وهذا أيضاً لا يُقام به من أجل مسرحة الحوار أو شحنة بدرجة عالية من المأساويّة، بل لتوفير شروط أعلى مقروئيّة ممكنة للحوار أو التحقيق السوسيولوجيّ مفهوماً كوضعية تواصلٍ أصيل.

استقالة الدولة:

في دراسة ضمّها الكتاب، مخصّصة لـ«استقالة الدولة»، يلفت بورديو النظر إلى أنّ إرادة حميدة تدفع أحياناً إلى البحث عن تفسير الظواهر الخاضعة للمعاينة في أماكن لا يقوم فيها هذا التفسير حقّاً. فمن المؤكّد في نظره أنّ حقيقة ما يحدث في ما يُدعى بـ«الحارات الساخنة» أو «الصعبة» لا يقوم في هذه الأماكن المنسيّة التي تصعد بين الفينة والفينة إلى صدارة الأحداث وتحتلّ الصفحات الأولى من الجرائد. إنّ الموضوع الحقيقيّ للبحث، الذي ينبغي بناؤه

بالتحرّك في الاتّجاه المضادّ للمظاهر، إنّما يقوم في نظر بورديو في البناء الاجتماعيّ نفسه، وبتحديد أكثر في البناء السياسيّ للواقع، واقع يفرض نفسه عبر الأحداث والتمثّلات الصحفيّة والبيروقراطيّة والسياسيّة التي تساهم في إنتاج آثار أو انعكاسات فعلية، في العالَم السياسيّ أوّلاً، إذ تتحكّم بطبيعة النقاشات، وفي العالَم العلميّ من ثمّ.

إنّ التمثّلات الجماعية تشكل جزءاً لا يتجزأ من الواقع الاجتماعيّ الذي يجب فهمه، وهي مسؤولة عنه إلى حدّ بعيد. فالرؤية النيو – ليبراليّة في فرنسا مثلاً هي التي ألهمت سياسة العقد السبعينيّ في مجالي التمويل العموميّ وسياسة الإسكان. وهي التي تمخّضت عن التقسيم الاجتماعيّ الذي يجد في الغالب صورته المشخّصة، كما في حارة سان – فلورنتان مثلاً، عبر شارع صغير يفصل بين سكّان الڤيلاّت الصغيرة وجمهور المجمّعات السكنيّة الواسعة. لكن عندما تدفع أحداث الشغب، كهذه التي تفجّرت قبل سنوات في حارة « ڤو – أو – ڤلان » في ليون أو جريمة القتل التي وقعت سان–فلورنتان، تدفع بهاتين الحارتين أو مثيلاتهما إلى واجهة الصحف والاعلام السمعيّ – المرئيّ، فإنّ قليلين يتذكّرون سياسة « البيوت متهاودة الايجار » (HLM) وعمل لجان رايمون بار ونورا – إيڤينو، وجميع المناقشات التي شغلت حكومة جيسكار ديستان ووزيره للاسكان جاك بارو. إنّ البيروقراطيّات، يقول بورديو، لَضعيفة الذاكرة، والكثير من هذه القرارات التي تظلّ، في مردودها الاجتماعيّ المستمرّ، من أخطر ما عرفت فرنسا بعد الحرب، قد سقط في مجاهل النسيان.

يُكثر الصحفيّون الفرنسيّون والمتفلسفون بين الصحفيّين الكلام عن « الحجاب الاسلاميّ » وعن الأحداث الجارية في « الحارات الساخنة »، لكنّهم قلّما يتساءلون عن دورهم ودور الدولة في صناعة هذه الأحداث. ثمّة جدال بيزنطيّ واسع عن تعارض الليبراليّة والدولتيّة (تحكّم الدولة بالأجهزة والخطط والمشاريع)، لكنّ هذا الجدال لا يصمد في اعتقاد بورديو أمام معاينة فعليّة للواقع. فالجميع يعرفون دور الدولة الحاسم في تسيير سوق الأملاك غير المنقولة، خصوصاً عبر الاشراف على سوق العقارات وأشكال المساعدة المقدّمة أو غير المقدّمة لشراء المباني واستئجارها. أي بالتالي، دور الدولة الحاسم في التوزيع الاجتماعيّ للفضاء، وبتشخيص أكثر توزيع مختلف الفئات الاجتماعيّة على الفضاء. فضاء تمارس كذلك سيطرتها عليه بتحكّمها بسوق العمل من جهة، وبما يدعوه بورديو بالسوق المدرسيّ أو سوق التعليم (سنعود إليه في فقرة قادمة) من جهة أخرى. وإنّ تراجع الدولة، استقالتها، وتضاؤل المساعدة العموميّة للبناء والاعمار، هذا التضاؤل الذي بدأ يتأكّد في السبعينات، هذا كلّه يظلّ هو المسؤول عمّا نلاحظ اليوم من تكاثر لمواضع النفي والتهميش والعزل هذه التي ترى فيها، تحت ضغط البطالة والأزمة الاقتصاديّة، إلى أفقر شرائح السكّان وهي تتكدّس بعضاً فوق بعض.

هكذا يظلّ من المتعذّر في نظر بورديو أن نفهم حقيقة الأوضاع في مجال الإسكان ما لم نأخذ بعين الاعتبار التحوّل الجماعيّ للرؤية النيو – ليبراليّة التي بدأت في العقد السبعينيّ واكتملت في الثمانينات مع انخراط الاشتراكيّين في هذه الرؤية.

لا يكفي، للتعبير عن هذا التحوّل، الكلام عن « موت روح انتفاضة ٦٨ »، وما إليه من المقولات النظرية أو الرثائيّة. بل هو، أي التحوّل إلى الأسوأ، يترافق وانهيار فكرة الخدمات العموميّة بالذات، انهيار ساهم فيه منظّرون ودعاويّون جعلوا من الليبرالية الاقتصادية الشرط الضروريّ والكافي للحريّة السياسيّة. من هذا المنطلق راحوا يساوون بين تدخّل الدولة والتوتاليتاريّة، حتى قادوا الدولة إلى استقالتها. وبخلطهم بين التجربة السوفياتية المخصوصة وكلّ فكرة إشتراكية راحوا يلوّحون بأنّ كلّ نضال ضدّ انعدام التكافؤ او اللاّمساواة لا يمكن أن يتمّ إلاّ على حساب الحريّة. فصار كلّ نضال

ضدّ اللاّمساواة يبدو كمثل دعوة إلى إعادة اعتناق التجربة السوفياتية. وبالخلط بين النجوع الانتاجيّ والحداثة والمشروع الخاصّ، وكذلك بالخلط بين السلفية وانعدام النجاعة والخدمات العامّة، صير إلى إحلال الزبون محلّ المستخدَم أو المواطن، وإلى المطابقة بين التحديث وإلغاء المشاريع العامّة وتذويبها في القطاع الخاصّ والاستغناء عن العاملين في القطاعات العامّة، المسؤولين المزعومين عن انعدام النجوع وجميع أشكال ركود الانتاج.

لم تتمّ الأمور اعتباطاً في نظر بورديو، لا ولم تتمخّض عنها مصادفة «تاريخيّة». بل لقد أُضفيَت عليها صفة الضرورة، وإنّ مآلها ليكشف للمراقب الدقيق عن توزيع للمهامّ وتضافر للمبادرات والمسؤوليّات. فجميع هذه «الكليشيّات» عن المشاريع الخاصّة كأفق وحيد للممكن وعن لا تدخّل الدولة كحلّ أوحد، التي انتهت إلى فرض نفسها على الواقع وإلى التحوّل إلى فلسفة عمل ومنهاج إدارة، إنّما صير إلى تهيئتها في مجالات لقاء وحوار (مجلاّت، منتديات، برامج سمعيّة - بصريّة، ملتقيات ومؤتمرات) جمعت «مفكّرين» مغزوّين بشهوة السلطة أو الحكم وحكّاماً مفتقرين إلى «فكر». هكذا راحت الصحف والمجلاّت والمذياعات والتلفازات وما تزال تروّج مباشرةً لرؤية «نبلاء» الدولة الجدد، الذين ترجموا مصالحهم إلى اجتهادات، المتخرّجين جميعاً من «المعهد الوطنيّ للادارة» ENA والمنذورين لتدريس العلوم السياسيّة. «مثقّفو الصالونات» الجدد هؤلاء، الدائمو النهم للترقيات والعلاوات، هم الذين يشيعون المذهب الجديد للقطاع الخاصّ عماداً أوحد للعمل، ويزعمون إدارة المؤسسات العموميّة على شاكلة القطاع الخاصّ. هم، كذلك، من يمتدحون مزايا مرونة العمل، عندما لا يشجّعون بصراحة على الاختزال التدريجيّ لعدد العاملين، وذلك باسم الانتاجيّة.

نفهم، على هذا الأساس، يقول بورديو، أن يشعر جميع الموظفين الصغار، وخصوصاً مَن يشغلون الوظائف التي تدعى بالاجتماعيّة، من قضاة ثانويّين ومساعفين اجتماعيّين ومربّين ومعلّمين وأساتذة، إلخ.، نقول ان يشعروا بأنّهم منسيّون وفي الأوان ذاته مدفوعون إلى العمل، من دون امتلاك الوسائل اللازمة لذلك، على الحدّ من نتائج اللاّمساواة التي جعلت منها الدولة فلسفة عملية ومعياريّة إنتاجيّة. وإنّ هذه الخيبة لتجازف بأن تنسف من الأساس هذه الوظائف الاجتماعية التي تفترض من ممارسيها، كما هو معروف، قدراً من الايثار والنضاليّة.

إنّ هذه الفئة من العاملين الاجتماعيّين لا يمكنها أن تجهل المأساة الفعليّة لهذه الفئة من المواطنين التي تتعامل هي معها يوميّاً، فئة الأحداث. احداث يسكنهم الإحساس بأنّهم يكبّلهم العوز الماليّ والافتقار إلى وسائط النقل ويشدّهم إلى أماكن حاطّة («عفنة» كما يعبّرون هم أنفسهم) ومنذورة للتلوّث بجميع معاني الكلمة. إحساس يثقل عليهم كلعنة، ندب أو رضّة، ويمنع عليهم النفاذ إلى أماكن العمل والتسلية والاستهلاك، إلخ. إحساس ينذرهم، أكثر من ذلك، لأن يعيشوا تجربة الفشل المتكرّر، في المدرسة أوّلاً، وفي سوق العمل بعد ذلك. وهذا الفشل يحرمهم من كلّ استشراف إيجابيّ للمستقبل. هي، جميعاً، بعض من علامات تجربة دون - البروليتاريّ أو البروليتاريّ المتدنيّ هذا، الذي يدفعه عدم تمكنّه من التحكّم بالحاضر بأيّة صورة من الصور إلى الاستقالة أمام الآتي.

هذه الإشكالات تتفاقم بصورة مأساويّة بالنسبة للعوائل المهاجرة المغاربيّة. جانب من مصادر هذه الاشكالات نابع من الفارق الأساسيّ بين هذه الأسَر وبقيّة الأسر المهاجرة. إنّ ارتفاع نسبة الانجاب في هذه العوائل (نسبة تقلّ بقدرما يرتفع مستواها الثقافيّ والاقتصاديّ) لا يتلاءم بسهولة والمشروع التربويّ الذي يفرضه محيطها الاجتماعيّ. ثمّ إنّ الهوّة تظلّ شاسعة في أسلوب العيش والتطلّعات ورؤية العالم بين آباء قليلي التعلّم إن لم يكونوا غير متعلّمين، وأبناء تلقّوا في الصميم نتائج «إقامة» طويلة الأمد في النظام التربويّ الفرنسيّ. نتائج متناقضة إلى أبعد الحدود. فمع كلّ

شيء، تشكّل المدرسة لأبناء المهاجرين هؤلاء محلاً لاكتشاف الانتماء الكامل، من وجهة النظر القانونيّة، إلى المجتمع الفرنسيّ وإلى ثقافة ديموقراطيّة يفترض بها أن تتمخّض عن مبادئ كونيّة، كرفض التمييز العنصريّ مثلاً. إلاّ أنّ هذا المعطى يجيء ليحدّ منه، أو يلغيه، ما يتعرّضون له على مستوى الواقع من تهميش واستبعاد. والآباء عاجزون عن أن يردأوا لدى أبنائهم هذا الاحساس بكونهم «زائدين عن العدد»، «مرفوضين». مثلما هم عاجزون ماديّاً عن إشباع حاجاتهم الاستهلاكيّة والترويحيّة التي يمتدحها حولهم نظام دعائيّ كامل يبدأ بغزو علبة البريد كلّ صباح ولا ينتهي بالشاشة الفضيّة. ومن جديد، تمارس سياسة الإسكان أثرها في تخليع البنيات القديمة: فإيواء الأسر المهاجرة بمقتضى ما يتوفّر من البيوت متهاودة الايجار يمنع من التجمّع بحسب أواصر القرابة كما في مدن الصفيح.

كانت الدولة تقدّم مساعدات للبناء أبدلتها منذ سنوات بمساعدات مالية هيّنة للأشخاص («الحدّ الأدنى من العائد»، الذي يمثّل في الواقع ما هو أدنى منه بكثير). وبذا نعود بنا في نظر بورديو إلى عهود الاحسان الدينيّ، عبر تضامنيّة كاذبة تحوّل الأفراد من مواطنين منتجين إلى مَعولين «مستبعَدين» كما تدعوهم الدولة ووسائل الاعلام عندما يعاودون احتلال صدارة المشهد السياسيّ والاجتماعيّ عبرَ هذا الحدث الساخن أو ذاك، عمليّة الشغب هذه أو تلك.

مستبعَدو الداخل:

في دراسة أخرى من الكتاب نفسه، اشترك في كتابتها بيير بورديو وپاتريك شامپاني، يتوقّف المؤلّفان عند وضعيّة طلبة المدارس في فرنسا. كان الطلبة قد أقاموا في العام ١٩٩٠ تظاهرات متكرّرة، للمطالبة خصوصاً بزيادة عدد المعلّمين. هذه التظاهرات يمكن في نظر المؤلّفين أن تدفع إلى تكوين صورة متجانسة، وبالتالي خاطئة، عن المدرسة الفرنسيّة. والحال، فلا شيء متجانس هنا، وليس بالممكن أبداً الكلام عن «مدرسة» واحدة أو عن «المدرسة» وكفى. بل يجب معرفة الفضاء الاجتماعيّ والطبقيّ والثقافيّ الذي تندرج فيه هذه المدرسة أو تلك، فلا شيء أكثر تأثيراً وأهميّة في هذه الحالة من «السياق» العامّ.

يمكن في نظرهما الكلام، مع شيء من التخطيطيّة والإجمال، عن عالمين دراسيّين أو واقعين تعليميّين متقابلين «تقابل الليل والنهار» كما يعبّران. فهناك، من جهة، المدارس التي بُنيت كيفما اتفق وعلى عجل في الضواحي الفقيرة والمحرومة ثقافيّاً، لاستقبال جمهور من الطلبة متزايد. ولا شيء يجمع هذه المدارس، عموماً، بأنموذج المدرسة كما كان قائماً في فرنسا حتّى الخمسينات. وهناك، من جهة ثانية، المدارس الخاضعة لحماية ورعاية متزايدتين، والمنذورة لاستقبال أبناء الأسر المرموقة بخاصّة (هذا مع أنّنا نتحرّك هنا في فضاء عموميّ، بعيداً عن مدارس التعليم الخصوصيّ). هؤلاء، ما يزال متاحاً لهم متابعة حياة دراسية غير شديدة الاختلاف عن هذه التي حظي بها جيل آبائهم وكذلك جيل أجدادهم.

وعليه، فحتّى إذا كان ممكناً أن يفجّر ما يُدعى بـ«عُسر المدارس» تظاهرات واسعة تجمع تحت نفس المطالب جموعاً غفيرة من الطلبة وآباء الطلبة ممّن يتكبّدون جميعاً العسر ذاته، فإنّ هذا العسر يظلّ يكتسي أشكالاً متعدّدة ويشهد درجات متباينة، وهو لا يشمل الجميع بالشكل ذاته ولا بالقدر ذاته. فالمصاعب وظواهر القلق التي يعيشها طلبة مدارس «النبالة» الباريسيّة تختلف بصورة جذرية عن هذه التي يتكبّدها طلبة مدارس التأهيل التقنيّ في الضواحي والبلدات الفقيرة.

حتّى نهاية العقد الخمسينيّ، كانت مؤسسات التعليم المتوسّطة والثانوية تشهد استقراراً كبيراً، مفارقاً ومجحفاً

ولا شكّ، ولكنّه يتمتّع بفضيلة الوضوح الكبير: فمنذ بلوغ الطلبة عتبة المدرسة المتوسّطة، يُصار الى استبعاد أبناء الأسر المحرومة ثقافياً واقتصادياً. هذا الانتقاء الممارس على أسس اجتماعية وطبقية كان مقبولاً إلى حدّ واسع من قبل ضحاياه من الطلبة، ما دام لا يقوم إلاّ على مزايا «المختارين» أو «المحظيّين» ومواهبهم. ويقول المؤلّفان إنّه لم يكن عسيراً على الطلبة من أبناء الفقراء الذين لم تكن المدرسة راغبة فيهم أن يقنعوا أنفسهم بأنّهم ليسوا في المدرسة براغبين. كان هذا الحدّ الفاصل المقام بين الابتدائية والمتوسّطة يدعم حدوداً هي الأخرى مرسومة بوضوح بين الفئات الاجتماعيّة. فهناك من كانوا «مخلوقين» للمدرسة، وهناك من لم يكونوا «مجبولين» لها ولما تتيحه بعد ذلك من وظائف غير يدويّة ومواقع قياديّة في مجالَي المناصب والأعمال. أي أنّ نوعاً من القدريّة ربّما كان يميّز الفئات المتواضعة سرعان ما يترجم «الانتقاء الاجتماعيّ» إلى ضرب من «الانتقاء الطبيعيّ».

بين التحوّلات التي طرأت على النظام التربويّ منذ الخمسينات، يتمثّل التحوّل الأخطر والاكثر اكتنازاً بالنتائج في انفتاح مشهد التعليم لفئات اجتماعيّة كانت محرومة منه. حدث هذا مع تمديد سنّ التعليم الالزاميّ حتى سنّ السادسة عشرة، وتعميم الدخول في المدارس المتوسّطة والاعداديّة.

واحدة من نتائج هذا السياق، الذي استعجل الكثيرون في نظر المؤلّفين فتحدّثوا بصدده عن «مقرطة التعليم»، تتمثّل في الاكتشاف التدريجيّ الذي يقوم به المفيدون الجدد من التعليم الدراسيّ للواقع المحافظ للمدرسة «الليبراليّة». فبعد فترة الوهم والانتشاء والغبطة، يكتشف هؤلاء، أوّلاً، أنّه لا يكفي الوصول الى المرحلة الاعداديّة للنجاح فيها، وثانياً، أنّه لا يكفي نيل البكالوريا لبلوغ المواقع الاجتماعية والوظيفية التي كانت البكالوريا تمكّن من اختراقها. وإذا بالمدرسة التي فتحت أبوابها واسعة للجميع تمارس الاستبعاد الخفيّ لأبناء بعض الفئات (هي نفسها دائماً)، وذلك بالاستناد الى معايير التقسيم السابقة نفسها، التي بقيت ثابتة وإنْ صير إلى تنويع مسميّاتها واضفيَت عليها رطانة سوسيولوجيّة وتربويّة جديدة. فبدل الكلام عن «موهوبين» و«غير موهوبين»، «أذكياء» و«غير أذكياء»، يُصار إلى الكلام عن «عوائق اجتماعيّة» و«موانع ثقافية» و«نواقص تربويّة» وما إليه. صارت المسؤولية الجماعية عن الفشل تحلّ محلّ المسؤولية الفرديّة. وبنوع من «التفجّع» على الضحيّة، يتكلّم البعض عن الواقع الثقافيّ لبعض الأسَر، غير المحبِّذ لازدهار الأبناء، والبعض الآخر عن تقصير الأساتذة، الذين طالما عدّهم الآباء مسؤولين عن فشل أبنائهم الدراسيّ. وعموماً، يُصار إلى الكلام عن نظام تربويّ فاشل يتعيّن تجديد طرائق العمل فيه، وهذا كلّه مما يعفي من النظر إلى استمرار طرائق التقسيم الاجتماعيّ والانتقاء الطبقيّ التي ما تزال عاملة في المدرسة.

ينبغي في نظر المؤلفين العمل على إثبات أنّ التغيّر الذي طرأ على بنية المدارس مع دخول «الزبائن» الجدد لم يصحبه تغيير في بنيات التوزيع المتفاوت للمنافع المدرسية والمزايا الاجتماعية المرتبطة بها أو الناجمة عنها. لقد بقيت الهوّة واسعة بين الفئتين الكبريَين المشار إليهما في بداية هذا العرض، «نبالة المدن» و«المحرومين العتيدين». بل لقد تدعّمت هذه الهوّة مع هذه الزيادة الخطيرة المتمثّلة في أنّ سياق الاستبعاد، الذي كان يتموقع في بداية المتوسّطة، قد تمّ مطّه في الزمن وإرجاء لحظة انكشاف نتائجه الأليمة. فصارت المدرسة ماهولة بمستبعَدين «بالقوّة» في انتظار أن يكونوا كذلك «بالفعل».

إنّ من الواضح أنّه لا يمكن تعميم مزايا التعليم الديموقراطيّ بحيث تشمل أبناء جميع الفئات من دون دفع ثمن باهظ: رؤية الشهادات وهي تفقد من قيمتها يوماً بعد يوم، وذلك بقدر ما يكثر حاملوها، اي مع تزايد العرض. لكن من الواضح أيضاً أنّ «المسؤولين» عن انخفاض قيمة الشهادات، اي الوافدين الجدد، هم من يشكّلون الضحايا الأولى

لهذا الانخفاض. فأبناء الأسر المحرومة ثقافياً يجازفون إلى درجة بعيدة في عدم الظفر، بعد تضحيات عديدة، إلاّ بشهادة غير كبيرة القيمة في سوق عرض الشهادات وطلبها. وإذا ما فشل الواحد منهم في سياق تعليمه، فهو منذور لاستبعاد أكثر مرارة بكثير. استبعاد مرير، من حيث أنّه نال في الظاهر «فرصته» في التعلّم، ومن حيث أنّ المؤسسة التعليميّة هي المرشّحة أكثر فأكثر لتحديد الهويّة الاجتماعيّة. وهو مرير أيضاً من حيث أنّ الأماكن في سوق العمل مرصودة أكثر فأكثر لحاملي الشهادات المتزايدين عدداً يوماً بعد يوم. هذا ممّا يفسّر أنّ الفشل الدراسيّ صار يُعاش ككارثة حتّى في الأوساط التي لم يكن حرمانها المتوارث ليدفعها إلى أن تمحض التعليم كبير قيمة. وعلى هذا النحو صارت المدرسة تبدو للطلبة مثلما لذويهم كمثل خدعة ومنبع لخيبة اجتماعية كبيرة: أفق يتراجع بقدر ما يتقدّمون نحوه.

أكثر من هذا، فإنّ تعدّد الاختيارات والتوجيهات التعليميّة صار، كما يكشف عنه المؤلّفان، يساعد في خلق استبعاد «رقيق»، بطيء وغير محسوس. ممّا يبقي على السياق التعليميّ في مكانه، بثمن إطالة عمر الوهم لدى ضحاياه ومستهدَفيه. قلنا إنّ الاستبعاد (إستبعاد الطلبة غير المؤهلين للمواصلة) كان يتمّ في لحظة مبكّرة. أمّا اليوم، فهو يتحقّق مبكّراً أيضاً، لكنّ لحظة انكشاف الوهم وحصاد الثمار المريرة تأتي متأخّرة. فمنذ نهاية المتوسّطة، صار الطلبة يوجّهون إلى اختيار أحد فروع التعليم، العلميّ أو الأدبيّ أو التقنيّ (هذا ما يفسّر وجود طلبة صغيري السنّ أو يافعين بين المتظاهرين). لكنّ نتائج هذه الاختيارات تظهر في نهاية السياق. ممّا يعني أنّ هؤلاء الطلبة كان محكوماً عليهم بالفشل مع وقف التنفيذ. الذي حصل لهم هو تأجيل الحساب النهائيّ، وإبعاد لحظة تجلّي الحقيقة، اللحظة التي يتضح لهم فيها أنّ الزمن الذي أمضوه في المدرسة كان زمناً ميتاً أو مهدوراً.

لا شكّ أنّه ليس من العسير تقدير الآثار النفسيّة والعاطفيّة التي يعود بها هذا المعيش الذي يبدأ بانعدام اليقين حول المستقبل وينتهي بانكشاف الوهم الأكثر مرارة. إنّه يربّي، في نظر المؤلفين، نوعاً من «سوء الطويّة»، بالمعنى النفسيّ للتعبير، سوء طويّة بإزاء النفس وبإزاء الآخر، وخصوصاً بإزاء الواقع المؤسّساتيّ نفسه. فهؤلاء الطلبة، الفاشلون احتمالاً أو «بالقوة»، إنّما يتمتّعون بجميع «الحظوظ» لحمل صورة عن الذات مجرّحة باستمرار، ومرضوضة. تشويهات نجدها حتّى في أعلى مستويات النجاح، الذي يظلّ متفاوتاً، بين طلبة المدارس التأهيليّة الصغيرة بالقياس إلى مَن نالوا فرصة تعليم أكثر «علوّاً».

لكنّ كبت الحقيقة الموضوعيّة، حقيقة الموقع الفعليّ الذي يشغله الطالب في قلب النظام التربويّ (ورديفه المتمّم له: النظام الاجتماعيّ) لا تنجح باكتمال على الدوام. فلا يتمتّع التمويه المؤسّسيّ بكبير وزن أمام المصاعب الناجمة من الكذب على الذات. ولذا ترى إلى هؤلاء المستبعَدين مع وقف التنفيذ وهم يزاوجون في داخلهم بين أعلى أشكال وضوح البصيرة إزاء واقع المدرسة من جهة، والاختيار شبه الحرّ في قبول الوهم والمساهمة في اللعبة من جهة ثانية. ولعلّهم يفعلون ذلك ليتمتّعوا لمزيد من الوقت بزمن الحريّة والمجانية اللذين توفّرهما المؤسّسة الدراسيّة. هو نوع من ازدواج الوعي أو ما يدعوه علماء النفس بالإكراه المزدوج، يخضع فيه المرء لوازعَين متعادلين في القوّة ومتضادّين.

لكنّ هذه المراوحة بين إكراهين يظلّ لها ثمنها الذي يذكّر به المؤلّفان بقوّة. إنّه العنف الذي يشهده الواقع الدراسيّ والتظاهرات الصاخبة التي «تنغّم» إيقاع الحياة الدراسيّة في فرنسا منذ ثلاثة عقود.

إنّ المدرسة تمارس الاستبعاد اليوم كما بالأمس. الفارق هو أنّها باتت تحتفظ في داخلها بمستبعَديها ردحاً من الزمن. تمارس استبعادهم في جميع المراحل، وتمسك بهم عبر الوهم. فيروح «مستبعَدو الداخل» هؤلاء يتماوجون بين

الانسحار بالوهم والقبول بالعقاب، بين الخضوع القلِق والتمرّد الكسير. يعرفون أنّ التقسيمات ما تزال قائمة في ما وراء تطابق مفردات «المدرسة» و«التلميذ» و«المعلّم». ويعرفون هبوط قيمة الشهادات المتزايد وانعدام الجدوى في شهادة بكالوريا يحصلون عليها بدون امتياز. فيواصلون سياق تعليم يعلمون أنّه مجرّد في أحيان كثيرة من كلّ مستقبل.

الرؤية الاعلاميّة:

في دراسة حملت عنوان «الرؤية الاعلاميّة»، ينطلق باتريك شامباني من بديهيّة مفادها أنّ ظواهر العسر والأحداث الاجتماعيّة لا تتمتّع بوجود مرئيّ إلاّ عندما تتكلّم عنها وسائل الاعلام، اي عندما يتكلّم عنها الصحفيّون، كما هي مبدئيّاً. هذا يدفع في نظره إلى ملاحظة أساسيّة أولى: أنّ ظواهر العسر لا تنحصر في هذه التي يتحدّث عنها الاعلام. وإلى ملاحظة ثانية: أنّ ظواهر العسر التي تجد طريقها إلى ما يُدعى بـ«التغطية» الصحفية والاعلاميّة لا تنحصر غالباً في الصورة التي تقدّمها عنها وسائل الاعلام. يحدث أن يتوهّم الاعلاميّون (جميع العاملين في وسائل الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئيّة من صحفيّين ومعلّقين على الأحداث ومديري نشرات الأنباء ومصوّرين وجميع مَن يساهمون من بعيد أو قريب في «صناعة الخبر»)، نقول يحدث أن يتوهّموا المساهمة في التعريف بظواهر العسر هذه وإدخالها إلى ما يُدعى بـ«الميدان العامّ». لكن من الساذج أن نصدّق هذا الزعم على علاّته. لا سيّما وأنّ علاته ومظاهر الشوّه والزيغان فيه كثيرة.

لا تتمتّع جميع الأحداث والكوارث وما دعوناه بظواهر العُسر بالقدرة نفسها على «المرور» عبر الاعلام ولا تسمح جميعاً (وفي أحيان كثيرة لا يُسمَح لها بذلك) بتغطيتها بالدرجة نفسها من «المقروئيّة» أو «الشفافيّة». هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فظواهر العسر التي تجد سبيلها الى التغطية تتعرّض بما لامفرّ منه إلى عدد من الشويهات والتزييفات ما إن تتعهّد بها وسائل الاعلام. ذلك أنّ هذه الأخيرة لا تكتفي بتسجيلها، بل لا بدّ أن تمارس عليها عملاً من البناء أو الانشاء يعتمد في درجته ومداه على المصالح الخاصّة بهذا القطاع من الأنشطة (قطّاع الاعلام الذي تظلّ له مصالحه الخاصّة واستراتيجيّاته التي يمليها عامل المنافسة التجاريّة بين مختلف قنواته) من جهة، وانخراط هذه القناة أو تلك في هذه الأيديولوجيّة المهيمنة أو تلك من جهة أخرى.

ويرى الباحث أنّ المقارنة بين ظواهر العسر التي تجد سبيلها إلى التغطية الاعلامية وهذه التي يتغمّدها السكوت تتيح الكلام عن ظواهر عسر أو إشكالات أو أحداث «خاصّة بالصحفيّين» أو مفصّلة على مقاس الاعلام. إنّها الأحداث التي يصاغ تمثّلها الجماهيريّ بحيث تثير فضول الصحفيّين وتمدّهم بالكلام أو بمناسبة للكلام. صحفيّون يساهمون بالنتيجة في صناعة الحدث أو إثارته بقدر ما يزعمون الاكتفاء بـ«تغطيته». من صفات هذه الأحداث المعسرة أنّها تقع «خارج المألوف»، هي مأساويّة، تثير الانفعال، وتظلّ مربحة تجاريّاً، اي متناسبة والتحديد الاجتماعيّ للحدث المعتبر جديراً باحتلال الصفحة الأولى من الجرائد أو صدارة نشرات الأنباء.

إنّ الصحفيين والإعلاميّين، مهما كان اختلاف وتباين طرائقهم في العمل وقنوات إيصالهم لمنتجاتهم الاعلامية، معروف أنّهم يسمع بعضهم البعض، يقرأه ويتابعه. إنّ جردة يوميّة أو أسبوعيّة يقوم بها كلّ فريق عملٍ للمتوفّر من الأنباء تظلّ ضروريّة ليعرف الواحد ما يتحدّث عنه الآخرون، فيتمكن بالتالي من ملاحقة الركب وربّما من تجاوزه أو التميّز عنه. لكنّ التشابه في المعالجة يظلّ هو القاعدة الغالبة في هذا المضمار. هذا ما يكتشفه الباحث الذي يراجع،

لاحقاً و«على البارد»، التغطية الاعلامية التي حظيت بها حرب الخليج مثلاً أو حركة طلبة المدارس أو انتفاضات الحارات الفقيرة. تجد ولا شكّ بعض المعالجات الناجعة لهذه الأحداث. لكن تلاحظ في الأوان ذاته أنّها مرّت جميعاً غير ملموحة، بل لقد غرقت في سيل من التناولات الجاهزة شبه المُجمَع عليها في إعلام متشبّث بطريقته في «معالجة الحدث».

إنّ وسائل الاعلام تعاجل على الفور، والحدث ما يزال في البيضة أحياناً، لتقدّم عنه تمثّلاً اجتماعياً يروح يفرض نفسه رغم التكذيبات اللاحقة التي يقدّمها أحياناً سياق الحدث نفسه، نتائجه، أو النظرة الملقاة عليه بأناة. ذلك أنّ هذا التمثّل، مهما كان من بُعده عن الواقع، لا يقوم في الغالب إلاّ بتدعيم تأويلات عفوية (أي جاهزة) وتقوية الأحكام المسبقة ومضاعفتها. يمكن في هذه الحالة أن تحدث جميع الالتواءات الممكنة: تحويل تظاهرة صغيرة إلى حدث كاسح، أو تهميش حدث جدير بالاعتبار واختزاله إلى فاصل عديم القيمة وغير ذي بال.

يطرح الباحث مثلاً انتفاضة طلبة المدارس في ١٩٩٠. كان الأمر يتعلّق في البداية بتظاهرة قام بها ثلاثة آلاف طالب خرجوا يطالبون بزيادة عدد الأساتذة. وبقدر ما راح التلفزيون يستولي على الظاهرة، بدأ الأمر يتحوّل إلى انتفاضة كبيرة مزعومة. للتلفاز هنا وزنه البالغ. وذلك أوّلاً بباعث من سهولة نفاذه إلى جميع الأوساط بالقياس إلى الصحافة المكتوبة والتحاليل المتعمّقة. وثانياً لقوّة الصورة وتأثيرها «الدراميّ» وتمتّعها بمصداقية مزعومة بالمقارنة مع الخطاب (نعرف مع ذلك أنّ ثمة ريبورتاجات ملفقة وصوراً «ممنتجة»). ثمّ إنّ التلفاز يمدّ حتى الصحف المكتوبة بمادّة للكلام، فلا صحيفة تجرؤ على أن تهمل في الغد ظاهرة كان التلفزيون قد خصّها في العشيّة بدقائق أولى من نشرته. ويرى الباحث أنّ صانع الأنباء وصحفيّ الأحداث قد يندفع الواحد منهما بنيّة بريئة إلى تضخيم حدث معيّن. قد يفكّر هنا بالسوابق: فما الذي يمنع تظاهرات أحداث ١٩٩٠ من أن تكون نسخة مكرّرة قد تزيد على الأصل هولاً من تظاهرات ١٩٨٦ بل وحتى من انتفاضة ٦٨ الطلابيّة الشهيرة؟ الذي أثبتته الأحداث هو أنّ الأمر كان بعيداً عن أن يكون كذلك. وبقدر ما تزايدت التغطية، راح مسؤولو الحركة، من تلامذة المتوسطة والثانويّة، يتخذّون وقفات (بوزات) النجوم والأبطال، يرفضون الكلام إلاّ أمام كاميرات التلفزيون، ويقلّدون خطاب النوّاب، ولم يهدأوا حتى تناولوا طعام الغداء مع رئيس الوزراء وقدّموا له مطاليبهم باليد ووجهاً لوجه. ويحدث أن يختفي مثل هذا الحدث بمثل ما ظهر فيه من سرعة. ولقد صرّح صحافيّ إذاعيّ للباحث بأنّه لا يندر أن ينهض مسؤول عن التحرير بعد أيّام من تزايد الكلام عن الحدث ويقول: «ألا كفى. لقد سئمنا من الشبيبة. ثمّة أشياء أخرى جديرة بالكلام عنها». وبالفعل، فلا يندر أن تجود راهنية الأحداث بموضوعات وظواهر كانت قيد الانتظار. ستسارع صحيفة «لوموند» إلى تهدئة الجوّ (بصدد الحدث السابق الذي صار عتيقاً في ظرف أيام). وستعمد «ليبيراسيون» إلى التحليل والتأويل اللذين يُنذران، بصورة مفارقة، بنفاد الحدث و«سقوطه» في التاريخ أو وقوعه تحت ذمّة التاريخ.

لكن أسلوب «التغطية» يظلّ يتفاوت بحسب الانتماء الاجتماعيّ للمجموعة «موضوع» الحدث. فالمجاميع المعدمة محرومة غالباً من الكلام، وتعدّ غير قادرة على صنع خطابها، فيتعيّن الكلام عنها بمعنيَي التعبير، التحدّث بصددها وباسمها. يستحضر الباحث مثلاً أحداث حارة «ڤول - أو - ڤلان» الهامشيّة في مدينة ليون الفرنسيّة. الغالبية العظمى من سكّانها هم من المهاجرين وأبناء المهاجرين المغاربيّين. كانت عمليّة تفتيش قامت بها الشرطة في نهاية أيلول / سبتمبر ١٩٩٠ قد دفعت إلى انقلاب دراجة ناريّة ومصرع أحد راكبَيها، شابّ إيطاليّ الأصل. فتمخّض الحدث عن احتجاج صاخب من قبل الشبيبة قاد إلى حرق عدد من السيّارات والمغازات ونهب محتوياتها التي كانت

بدون ذلك ستتفحّم بالضرورة وسط النيران. فغزت الصحف والشاشة الفضيّة على الفور صور العنف الصارخ، مشاهد استثنائيّة كما يطالب به منطق الصورة الاعلاميّة. الذي حدث، ولم ينتبه له أحد سوى الباحث ومجموعة من العاملين من أجل صحافة مغايرة، هو انّ وكالة صحفيّة في المدينة نفسها كانت قد اقترحت قبل قيام الحدث نفسه بأيّام، وبكامل العفويّة، إجراء تحقيق موسّع عن ظروف العيش في هذه الحارة المصنّفة بين «الحارات الساخنة». ولم تتلق اذناً صاغية ولا طلباً لإجراء التحقيق، «فلا شيء يحدث في مثل هذه الحارة». وفي أيّام الحدث نفسه، وهذا ممّا يذهب في الاتجاه ذاته، تلقّت وكالة لأفلام «الفيديو» في المدينة طلباً من إحدى القنوات التلفزيونيّة بإجراء تحقيق عن «مُحرقي السيّارات والجانحين في الحارة، ومقابلتهم ولو كانوا مقنّعي الوجوه». لكنّ محرّري الوكالة، وهم مغاربيّون، قاموا بحرف الطلب عن وجهته الأصليّة وقابلوا عاطلين عن العمل وعاملين اجتماعيّين للكلام عن المشاكل الحقيقيّة للحارة. لم يجد التحقيق سبيله إلى البثّ.

المحرومون، يقول الباحث، هم أقلّ الناس قدرة على السيطرة على التمثّل المعطى عنهم. فما بالك بالقدرة على وضع تمثّلهم الذاتيّ؟ كان مسؤول سياسيّ قد صرّح إبّان أحداث الحارة المذكورة، وكأنّه ينطق بلسان حال الاعلاميّين: «لا يمكن أن يأتي الواحد ويتكلّم على هواه، عن حالته المزاجيّة مثلاً. يجب أن يتعلّم الافصاح عن نفسه بوضوح». هو، مرّة أخرى، معيار الوضوح العقلانيّ المتخفّي على إرادة للهيمنة ونيّة في التطويع. وطوال أيّام التغطية المشهديّة للحدث، راح رجال الشرطة والاعلاميّون يقدّمون تأويلات بعضها يقارب الصواب وبعضها يجانبه («هفوات أفراد الشرطة»، «عطالة الشباب»، «الجنوح والاجرام»، «الشروط السكنيّة»، إلخ.)، لكن لا أحد فكّر بخطاب «أبطال» الحدث أنفسهم. كانوا متكلَّماً عنهم أكثر منهم متكلّمين. وحتّى عندما يُعطى لهم الكلام، تراهم ينطقون بخطاب مستعار ويردّدون الخطاب الاعلاميّ المردّد بصددهم. ولقد لاحظ الباحث أنّ بعضهم راح يتحدّث عن نفسه بصيغة الغائب: «الشبيبة تريد صالات للاجتماع...» صعوبة الاضطلاع بضمير «نحن»! أضفْ أنّ الصحفيّين والاعلاميّين، شأنهم شأن رجال القضاء، كانوا يدّعون نقل ما يحدث بدون التعليق عليه. كأنّهم، هم أيضاً، بلا خطاب. حياد تمويهيّ.

طوال أسابيع، صارت الحارة «قِبلة» الصحافة وأجهزة الاعلام. كان يجب الكلام عنها بأيّ ثمن. تصوير ولو سيّارة محروقة واحدة. لمنافسة القنوات الأخرى، أو على الأقلّ «لتغطية الكلفة»، كلفة إرسال صحفيّين وكاميرات، كما عبّر رئيس تحرير إحدى القنوات يستنهض مراسليه. ثمّ عاد الصمت إلى هذه الناحية من العالم وغطّى من جديد على كلّ شيء.

نماذج للاقتلاع:

في ثنايا هذا الكتاب الضخم الذي تتوالى بين عناصره المكوّنة الدراسات التحليليّة والمقابلات السوسيولوجيّة، نقف في الواقع على العديد من التجارب المخصوصة والعذابات الفرديّة والجماعيّة، مصائر متأرجحة بين يأس طاحن وأمل متواتر، بعضها فرنسيّ والآخر مهاجر أو سليل مهاجرين، متفرنس بالتجنّس أو لا. بين النماذج المهاجرة، نعرض هنا خمس تجارب دالّة قابل أصحابها بورديو والمشاركون معه في وضع الكتاب. ولن يخفى على القارئ «نمطيّة» هذه التجارب، بالمعنى التحليليّ للمفردة، أي إمكان العثور في هذا المعيش الاقتلاعيّ على العديد ممّا يقارب هذه الحالات أو يشبهها. فما هي بتجارب معزولة، بل هي دالّة على إرث متقاسَم وأفق جماعيّ. وبتوزّعها على أجيال مختلفة

وقطاعات متباينة، فهي ترسم ما يشبه « مروحة » للتناولات الممكنة و« بانوراما » مصغّرة لهذا النمط من التجارب.

هناك أوّلاً عبّاس (جميع الأسماء، كما يؤكّد عليه الباحثون، مستعارة)، شيخ من أصل جزائريّ، عامل متقاعد. خطابه، وإنْ كان ينهل من الإرث الشائع، ينطوي على حكمة شخصيّة هي عصارة معاناته وتجاربه. لكنّ خطابه كلّه مخترَق بلعنة لا تهدأ يصبّها على ما يمكن دعوته، من وجهة نظره هو، بـ« خطيئته الأصليّة ». « خطيئة أصليّة » متمثّلة في الخطوة الأولى التي قام بها نحو فرنسا، هذا العالَم الغريب عليه. يقول إنّ أباه، الشيخ الورع المتديّن، كان نهاه عن الرحيل. وأمام ضغط الفراغ والعطالة في قريته الأصليّة، واجهه هو بنيّته الملّحة في الرحيل للعمل في أوربا. لم يواجهه بها، بل بعث له وفداً من علية القوم لنيل موافقته. فناداه أبوه وقال له إنّه لا يبارك خطوته، ولا يلعنها، لكنّه يطلب منه شيئاً واحداً، ألاّ يرسل له ممّا سيكسبه هناك من نقود، « فهي حرام ». « حرام »، لمجرّد انّه سيغنمها في فرنسا.

ومع أنّ صاحبنا سيجد عملاً ويسيّر حياته بشكل معقول، فهو يشعر بفشل كليّ. فشل يأتي ليدعّم الاحساس به ما يراه من بؤس الآخرين، من جميع الأجيال المهاجرة، حوله. وهو لا يفتأ، ربّما تحت وطأة التقدّم في العمر، من ترديد كلمة أبيه تلك، عن « المال الحرام ». ومع أنّ أباه لم ينطق بلعنة فهو يفهم الآن كلامه كلعنة. إدانة مبرمة لعقوق نهائيّ. « أنا نفسي لا اصدّق، يقول. كيف وصلنا إلى هذا الحدّ؟ هل نحن أنفسنا، كما كنّا في اليوم الأوّل لوصولنا هنا؟ كيف وقعت اللعنة؟ لم نرَها تصل. هبطت علينا عندما فات الأوان لمواجهتها. يجب القبول بها كما هي. يجب القبول بنا كما نحن. لا شيء لنقوم به. إلاّ أن نشكر الله، فهو وحده يعرف ما يفعل. وما نحن إلاّ دمية بين يديه... »

الانموذج الثاني يتمثّل في حسين، عامل تونسيّ الأصل، ذو مهارات، في سكك الحديد. وعيه النقابيّ وإيمانه بأنّ « خيانة التضامن الاجتماعيّ إنّما هي خيانة للذات »، يدفعانه إلى القبول بالإشراف على تحسين الحياة في المجمّع السكنيّ الواسع الذي يتقاسم هو العيش فيه مع ما يقرب من مائة أسرة مهاجرة وبعض الفرنسيّين. ما يؤكّد عليه هو ممّا يجب القبول به بصراحة والتحديق به بإمعان، لأنّه يكشف عن الوجه الآخر لمأساة المهاجر، مأساة يفاقمها هو، أي المهاجر، بنفسه أغلب الأحايين. كانت مقترحاته، هو واللجنة التي تشكّلت لإعادة إحياء المجمّع السكنيّ، بسيطة: العناية بشروط الصحّة والنظافة العامّتين، الإقلال من الصخب، وأن يعود السكّان بعضهم البعض ويساعده عند الشدّة. وإذا كانت مبادرات طيّبة قد حصلت على مستوى التضامن والزيارات المتبادلة، فإنّ الكثير ما يزال يتعيّن القيام به على صعيد هدوء الحارة حيث يقوم التجمّع السكنيّ، ونظافتها. يرمون، كما يقول هو، بكيس قاذوراتهم من الطابق الثامن مع انّ هناك مكاناً مخصّصاً لتكديسها. يقضي الصغار حاجتهم في كلّ مكان. وهناك أبواق السيّارات التي تلعلع في الثانية صباحاً: « إنّه تجمّع لباعة مخدّرات صغار ». جرّب معهم حسين، عبثاً حتّى الآن كما يقول، جميع الوسائل المعنوية والحيل الأخلاقيّة والاقناعيّة. قال لهم: « عرفتكم صغاراً ورأيتكم تولدون. فما بالكم تلطّخون بالوحل كلّ شيء وتكسرون كلّ ما ترون؟ ». هكذا يتأرجح خطابه بين الإحساس بضرورة مواصلة العمل من أجل مستوى معيشيّ جماعيّ أفضل وبين الشعور بعبث المحاولة لإنقاذ منفى يتداعى على ساكنيه.

الانموذج الثالث يتمثّل في عائشة، شابّة مغربيّة الأصل متخرّجة حديثاً في الدراسات الاجتماعيّة (سوسيولوجيا). وهذا ممّا أمكنها من أن تقدّم في الحوار المُجرى معها وصفاً دقيقاً ومفصّلاً لمعاناتها ونظرة تحليليّة تلقيها على هذه المعاناة. هي الابنة البكر لأسرتها. ولذا مثّلت الابنة الأنموذجيّة لأبيها بخاصّة، وسنده الرمزيّ والثقافيّ الأساسيّ. فكما يحدث في أغلب الأسر المهاجرة، وجد أبواها فيها وفي إخوتها فرصة لتحقيق مثالهما الوظيفيّ والتعويض عن حرمانهما الثقافيّ. وما إن صارت تفقه القراءة والكتابة بالفرنسيّة، حتى بدأت تضطلع بدورها (دور « كلاسيكيّ » لدى الأسر

المهاجرة، والباحثة التي أجرت معها الحوار، فرانسين مويل - درايفوس، تدعو عائشة بـ«الرسولة») دورها كوسيط ومترجم بين العائلة والعالَم المحيط، الفرنسيّ منه والمهجريّ. إنّها تدوّن تصريحات الأب للضرائب في كلّ عام، وتردّ على استمارات المؤسّسة والدولة، وتحرّر باسمه بطاقات تهنئة للأقارب والأصدقاء والمعارف في العيدَين، الفطر والأضحى (يسمّونه «الكبير»). تتحدّث عن أمسيات عديدة تمضيها في تدبيج البطاقات، عشرات البطاقات هي مناسبة ليعبّر الأب عن وجوده. وجوده عبرَ ابنته. حتّى عندما فكّرت العائلة بالرجوع إلى المغرب، أرسلت عائشة إلى البلاد في ما يشبه رحلة استطلاعيّة. فعادت وأقنعت الجميع بانّ لحظة العودة، وظيفيّاً ومهنيّاً على الأخصّ، لم تحن بعد. هذا يعني، مع تقدّم العمر وضرورة الاستقرار في مكانٍ ما، أنّها لن تحين.

هو إذنْ تفاهم متبادل يقوم عليه توازن جميع الأطراف. لكنْ تأتي، إن عاجلاً أو آجلاً، اللحظة المؤذنة بانفصامه بدرجة من الحدّة تقلّ أو تزيد. لحظة خروج الابن أو الابنة إلى العالَم ومواجهة المصير الفرديّ. لحظة حبلى بالتعقيد، تزدوج في حالة عائشة (وليست الوحيدة في ذلك) بتعقّد إضافيّ: فهي تنوي الاستقرار مع شابٍ فرنسيّ تحبّه ويحبّها. العائلة تتلقّى هذا كطعنة في الصميم. خصوصاً الأب: «لقد توقّعتُ هذا من الجميع، إلاّ منكِ أنتِ»، يقول مخاطباً ابنته في مزيج من الادانة والانجراح.

وهناك أيضاً مثال الاحتكاك المُخفق أو المتعذّر مع الأسَر الفرنسيّة في حالة الحارات المختلطة السكّان. هي ذي أسرة بن ميلود تواجه مدام مونييه في حرب ما فتئ أوراها يضطرم منذ سنوات. وإذ تحدّق مع الباحث (عبد الملك الصيّاد، الذي قام بمحاورة كلّ من الجهتين على حدة) بأسباب الصراع تجدها واهية. فما هي إلاّ تعلاّت لتأجيج صراع يجد في نفسه وفي عوامل أخرى تتخطّاه ما يغذّيه، فيرتفع كنايةً عن وفاق غير متحقّق. أفراد أسرة بن ميلود المساهمة في الحوار هم الأب (عامل متقاعد) وابنته البكر (بلا عمل، تقيم في شقّة مجاورة وتزور ذويها كلّ يوم) والابن (صبيّ يافع ما برح في المدرسة). جارتهم السيّدة مونييه تمضي سحابة نهارها في تحرير شكاوى تقدّمها للشرطة وللقضاء تتّهم فيها جميع أفراد الأسرة بالاخلال بالأمن العامّ. هناك زيارات البنت اليوميّة لأبويها، وهذا في نظرها غير طبيعيّ، ألاّ تجد فتاة ما تعمل. وهناك زيارات الأقارب، زيارات لا تنتهي، خصوصاً في الأعياد، وما يتبعها من هرج ومرج. وهناك القطط التي تأتي غالباً لـ«تخمش» باب بيتها وتصخب في السلالم والأدراج. وعلى حين «تكتفي» السيّدة بالشكاوى وبما تدعوه الفتاة بالنظرات الساخرة، الماكرة، الحقود، فإنّ هذه الأخيرة وأخاها قد أشهرا منذ سنواتٍ سلاح السخرية الجَهور والسباب العلنيّ. وهي، أي الفتاة، لديها حججها: «هي لديها كلب، ونحن لا نقول شيئاً. تشكو من القطط، وعلى حدّ علمي فالقطط لا تنبح». الأب يحاول التهدئة والفهم: «إنّهم (يقصد السيّدة مونييه وزوجها الصامت وأمثالهما) معزولون. تجدهم في سنّ متقدّمة ولا أحد يأتي لزيارتهم». وعلى حين يقترح الباحث سبلاً للتفاهم على كلّ من الطرفين، تأتي الإجابتان مبرمتين قاطعتين. الفتاة: «لن نرحل. لن نرحل إكراماً لعينيها. تريد هي أن تصل إلى هذه النتيجة، ولكننّا لن نرحل. سنناضل. ضدّها وضدّ إدارة الإسكان وضدّ البلديّة وضدّ الجميع. سنناضل...» ومدام مونييه: «العرب يتزايدون هنا يوماً بعد يوم. أنظر المَتاجر والحوانيت، حوانيت الأغذية بخاصّة، كلّها في أيدي العرب. والحارة تفرغ من سكّانها الأصليّين يوماً بعد يوم...». هو غيظ تراكم وتحوّل إلى آيديولوجيّتين متضادّتين و«بلاغتين» متناحرتين. ولا شكّ أنّه يجد في الاعلام السائد والتمثّلات الجماعيّة الشائعة ما ينعشه ويغذّيه.

في أسفل هذا السلّم الاجتماعيّ، تجد عليّاً وصديقه الفرنسيّ فرانسوا، وكلاهما متأرجح بين إخفاقه في المدرسة وعجزه عن اختراق عالم التسلية والترويح. فعليّ لا أحد يسمح له بالدخول إلى العلَب الليليّة، التي تقبل بدخول

المراهقين ممّن هم في عمره، وذلك لأنّه عربيّ. صديقه الفرنسيّ لا يفهم دواعي ذلك، ويدافع عن رفيقه عبثاً. كلاهما من سكّان حارة مكتظّة ومتداعية تدعى، بمفارقة معهودة، «بستان الورد» La Roserie. عليّ ابن عامل مغربيّ مهاجر وصل إلى هنا في نهاية السبعينات، يوم كان عليّ في سنّ الثامنة. متأخّر في دراسة الفرنسيّة ويشعر بالرعب من اللحظة التي يطالبه فيها المعلّم بالقراءة بصوت مسموع. ولعلّ في إخفاقه الدراسيّ هذا ما يفسّر في نظر بورديو، الذي حاوره هو وصديقه الفرنسيّ فرانسوا، ما يفسّر سلوك التحدّي وشخصيّة «القبضاي» التي تماها على سبيل التعويض. أمّا فرانسوا، فإنّ سلوكه المشاغب دفع إلى طرده من مدرسة الحارة ونقله إلى مدرسة بعيدة يكره الذهاب إليها. كلّ شيء، يقول بورديو، يجمع الشابيّن إلاّ أصلهما العرقيّ. أصل لم يتطرّقا إليه قطّ. وهذا التضامن الذي يشكّل للّحظة الحالية نوعاً من طوق الحماية لهما إنّما ينبع لا من خطاب آيديولوجيّ أو تقريظ للصداقة قد لا يكونان قادرين عليه، بقدر ما من اشتراكهما في نفس المعاناة و«السمعة السيئة»، سمعتهما كمشاغبيّن وعنيفيّن التي توحّدهما في نظر الشرطة والجيران. وهما لا يطالبان في أيّة لحظة بردّ الاعتبار إليهما ولا يستجديان الفهم. بيد أنّ أحدهما يعبّر في إحدى اللحظات، بكامل الصحو، عن وعيه لما يتهدّد ذويه من خوف عندما يخرج في المساء، من جرّاء ما يسمعانه في المذياع والتلفاز.

كاظم جهاد

«الحزام» أحمد أبو دهمان، منشورات غاليمار، باريس.

Ahmad Abodahman, "La ceinture", éd. Gallimard, Paris, 2000

طويلاً تساءل البعض وما زالوا يتساءلون عن أسرار النجاح منقطع النظير الذي حظيت به رواية «الحزام» التي وضعها بالفرنسيّة الكاتب السعوديّ، المقيم في فرنسا منذ ما يقرب من ربع قرن، أحمد أبو دهمان، والتي صدرت عن إحدى أكبر دور النشر الفرنسيّة، إن لم تكن الأكبر: غاليمار. قبل أيّام، صدرت الطبعة السابعة للعمل، بعد سنة واحدة من ظهوره إلى النور. وبعدما وقّع الكاتب عقدَيْ الترجمة إلى الانجليزية والألمانية، هو ذا ينتظر توقيع عقود الترجمة إلى الاسبانية ولغات أخرى. بعضهم رأى سرّ هذا النجاح في الجدّة اللاّفتة للعمل وإتاحته لنا الوقوف، لأوّل مرّة، على وجه آخر للعربيّة السعوديّة: عالم القرى والطفولة والفقر والتلاحم الاجتماعيّ حول رموز معدودة وقيم أساسيّة، قيم الأمومة والتآخي والكدح والايمان الفطريّ بالكائن وبالحياة. بضع آخر رآه في لغة الكاتب، البسيطة بساطة ممتنعة، والمحمّلة بالدلالات الرمزية من دون أن تسقط في شباك التأويل، والتي تقدّم عن العالَم الذي تصوّره وتستبطنه قراءة عميقة تتوسّل طرق الأنثروبولوجيا (التكوين الثقافيّ الأساسيّ للكاتب) وتعْقد الامتياز للغة الشعر (ممارسة الكاتب الأولى وأساس موهبته). ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه العوامل تقف جميعاً وراء نجاح هذا الكتاب وهي التي تفسّر لغز فرادته.

تقع الرواية في أحد عشر فصلاً يحمل كلّ منها عنوانا مستقلاً، يسبقها استهلال وجيز وتتلوها خاتمة هي الأخرى وجيزة. منذ الاستهلال يعلن الكاتب أنّ الكتابة هي بالنسبة إليه «اقتسام العالم وإعادة ابتكاره». ويقول إنّه يكتب بالفرنسيّة ليشهد على أنّ «آخرين يفهمونني، يفهموننا، أكثر ممّا نفهمنا نحن أنفسنا». فما هي عناصر

هذه الشهادة، المكتوبة في اتّجاه الآخر، والتي ترتدّ إلى العالَم الأصليّ الذي ولد فيه الكاتب وعنه كتب، ترتدّ إليه عبر الترجمة (وعدَ الكاتب بالقيام بترجمة عمله نفسه إلى العربيّة عمّا قريب) وعبر القراءات النقديّة والتناولات الصحفيّة؟ في القراءة التالية، نعرض أهم المحاور الكيانيّة والروائيّة التي يتأسّس عليها هذا العمل، والعناصر الأساسيّة للقراءة التي يقدّمها عن هذا العالَم فيما هو يكتبه.

القرية / القبيلة:

هناك أوّلاً القرية، والقبيلة التي تعيش على أرضها والتي ينتمي إليها الكاتب، «خليّة في الجسد الواسع للقبيلة»، جسد يسعى هو إلى الاستقلال عنه، استقلالاً لم يتمكّن، بتصريحه هو نفسه، من تحقيقه إلاّ في باريس، عبر المسافة وما تفتحه من أفق مراجعة نقديّة وتساؤل ممضّ. هي في نظر أهلها «القبيلة الواحدة النازلة من السماء.» فالقرية واقعة في منطقة جبليّة، تشكّل السماء فيها جزءاً من الجبال. هكذا بحيث يبدو المطر فيها وكأنه «لا يسقط، بل يصعد صعوداً».

لقريته هذه، كما لجميع قرى العالم، طقوسها وشعائرها. يصف الكاتب هذه الطقوس بأناة وشعرية عالية. هناك أولاً الختان. يشرف عليه الخال، إذ «الخال في رحم الأم» كما يقول أهل القرية. هناك يصوغ الخال ابن أخته ويمنحه شاكلة وجود. هو أبوه الثاني، كما تقول للبطل امّه. لإتمام هذه الشعيرة، يأتي كلّ صبيّ مهيأ للختان وقد حفظ قصيدة طويلة تطري على أصوله وتعرض شجرة أنسابه من جهتَي الأب والأم. يقرأها أثناء الختان حاملاً خنجرين طويلين يضرب أحدهما بالآخر عالياً فيما يقرأ قصيدته. كلّ كلمة يتعثّر في نطقها وكلّ أمارة على الضعف تدلّ على موته الاجتماعيّ، فلا أحد سيفخر لاحقاً بتزويج ابنته لصبيّ كهذا. والصبيّ الذي يجتاز هذا الاختبار بنجاح يجد مكافأته في التمتع بـ «التدراع» وهو الحقّ في الاختلاء بإحدى الصبايا ومعانقتها من دون أن يتخلى أيّ منهما عن ثيابه.

كلّ ربّ أسرة في القرية يحمل مفتاحاً كبيراً هو مفتاح حجرة يخزن فيها مؤونة تمكّنه من إطعام الضيوف المحتملين في كلّ لحظة. ومن أضاع هذا المفتاح فكأنّه فقد رجولته، وهو يُدعى هنا «زوجة زوجته» أو «امرأة امرأته». ويجتمع الرجال في وقت العصر في ساحة القرية الكبيرة، لتبادل الأخبار والكلام. ويحدث في أحد الأيّام أن تجتاز القرية، في عزّ اجتماع الرجال، امرأة محزّمة بقطعة قماش ملّطخة بالدم. هو دم طمثها، به، وبهذه الصورة الصارخة، جاءت تكذّب مزاعم الرجال في أنّها كانت حاملاً، هي الأرملة. وسرّ هذه القماشة الملطّخة بالدم إنّما تكشفه لبطل الرواية أخته، فأبوه يؤثر أن يلزم الصمت.

من المعيب في القرية أن تمرّ قرب أحد ولا تلقي التحيّة. وهذا ممّا يتعارض مع مشهد الناس في المترو الباريسيّ، لا يحيّي بعضهم البعض، ممّا يدفع البطل إلى مواصلة إلقاء التحيّة، وقد اعتادها منذ نعومة أظفاره، إلقاءها في ما يشبه الهمس.

يستيقظ أهل القرية مع أوّل تباشير الفجر، ممّا يمنحهم الحقّ في هذه المقولة الجميلة: «نحن من توقظ الشمس». ولئن كان هذا يهب أهلها الانطباع بالولادة مع الشمس كلّ يوم من جديد، فإنّ لديهم من عناصر التاريخ والأسطورة ما يعزّز لديهم هاجس البدايات هذا. كانت هذه القبيلة هي الوحيدة التي قاومت الغزو التركيّ، فصارت القرى الأخرى تدعوها بـ «الوطن»: قرية واحدة صارت تلخّص البلاد بكاملها وتكون هي الوطن، كالوردة التي تحمل في داخلها البستان بحسب تعبير جلال الدين الروميّ. أمّا ولادتها الأسطوريّة، فيردّها أهل القرية إلى غضب الأب المؤسّس، رأى فيه إلى أبنائه الستّة وهم يخوضون حرباً مع قبيلة مناوئة ويغتالون سبعة رجال في ليلة واحدة. فيأمرهم بالتفرّق في عرض الأرض، كلاًّ في وجهة مغايرة. يقيم أحدهم، وكان لديه ابنة جميلة، في جوار مالك أرض القرية الأصليّ. يهيم الملاّك بالفتاة. وأبوها يطمع بأرض القرية. فيقترح على جاره سباقاً

بالركض مع الفتاة، يعود بموجبه إلى الأب كامل المجال الذي تجتازه الفتاة قبل أن يلحق بها الرجل، بعدما يكون تنازل لها عن بعض المسافة وجعلها تتقدّمه قليلاً. تركض الفتاة وتغيب عن بصر والدها ولا يوقفها إلاّ شوكة اعترضت طريقها ونبتت في قدمها. وعلى ما فازت به الفتاة، يؤسّس الأب القرية. وهذا كلّه مما يندرج بالطبع في فلسفة القرية، الداعية أبداً إلى العمل والتي تفهم الحياة كمحصّلة سباق وتجاوز للذات مستمرّين.

الغرام هو الآخر ولد للمرّة الأولى على أرض القرية، بحسب مزاعم أهل القرية وما تقوله أساطيرهم. بعضهم انتحر وقد أصيب للمرّة الأولى بهذا الشعور الجارف. ولحماية البشر والحبّ، حوّلت الشمس الحبّ إلى قوس قزح وتمخّضت عن هذه المروحة من الألوان الجميلة، الفاتنة. ولذا فإنّ البطل نفسه يدعو حبيبته «قوس قزحي».

القرية بكاملها مؤسّسة أخيراً ضمن بنية تنافذيّة يحتفظ فيها كلّ بيت بكيانه المنضمّ هو عليه وبـ«ثغرة» تسمح له بالانفتاح والتواصل مع البيوت الأخرى. فلكلّ بيت بابان، واحد من الأمام وثانٍ ورائيّ يقود إلى السطح. ويمكن للمرء أن يجتاز جميع البيوت، من باب ورائيّ إلى آخر ومن سطح إلى سواه. وغالباً ما يتلصّص الشبّان في الليل على ما يدور في البيوت، خصوصاً في ليالي الزفاف، يترصّدون فرح العناق الأوّل وصرخة اللذة والألم الأولى.

حزام:

«حزام»، الذي وهب الرواية عنوانه، هو، إلى جانب الأمّ، الشخصية الأكثر إثارة ومحورية في هذه الرواية. يأسر هذا الشيخ بطلَ الرواية الصبيّ منذ البداية بفلسفته التي هي مزيج من الأقوال المأثورة عن السلف والتعاليم الدينيّة والتفكير الشخصيّ الفريد. فهو مثلاً يؤمن بأنّ المرض ليس سوى كذبة أو وسيلة للتملّص من العمل. العمل هو لديه العلاج الوحيد لكلّ ضعف أو داء أو تعب. لا لأحد أن يتبرّم من الحياة أو يشكو من ضعفه. وبصورة مفارقة، يرى حزام أنّ الأمراض لم تأت إلى القرية إلاّ بعد وصول الممرّض المصريّ الذي جاء للعمل في المستوصف الذي أقامته الحكومة فيها. قبل ذلك، كان أغلب أهل القرية يعالجون همومهم وعللهم بالغناء.

رجل بلا لحية هو في نظر حزام إنسان زائف. وهو يمشي حافياً على الدوام حتّى لا يفقد صلته بالأرض. ويرى في نحافة الرجل علامة على فحولته، فبطن الرجل يجب أن يكون مستوياً كبطن الذئب. ولئن كان يزدري النساء، فهو يسارع إلى تحيّة العروس غداة زفافها، وتكون هذه تحيّته الأولى والأخيرة. عدا ذلك، يرى في الحقل مكان الرجل الطبيعيّ، وفي المسجد آخر قلعة للمقاومة في وجه التحديثات غير الضروريّة في نظره والمُفسِدة (المدرسة، المستشفى، إلخ). وفي وصف البطل لزيارة سيقوم بها رجال القرية وأبناؤهم لمستشفى المدينة المجاورة، لفحصهم وتثبيت أحوالهم المدنيّة، نرى إلى حزام وهو يبصق لدى مرور كلّ ممرّضة باكستانيّة. كما أنّه يحذّر الصبيان من فقدان ذكورهم لدى الفحص، فالمؤسّسة الطبيّة لا تقوم في نظره إلاّ بفعل إخصاء. وهو يفحص بالفعل ابنه بعد عودة الأخير من مكتب الممرّضة ويتنفّس الصعداء عندما يتحقّق من أنّه حافظ على ذكره.

لا يصدّق حزام كلام مَن لم يُختَن بعد ولا يحمله على محمل الجدّ. والكلام عموماً لا يحظى باحترام كبير عنده. ولذا تراه وهو يحشو فاه بالزبيب والتمر باستمرار. يفعل ذلك ليلزم السكوت. يعتبر نفسه الضامن الأخير لروح القرية، ويريد أن يورث الصبيّ، بطل الرواية وراويتها، معرفته الكاملة بأسرار القرية وحكمة الحياة. مقابل ذلك، يطالب الصبيَّ باجتراح معجزات، وبأن يعرب عن قدرة على التواصل مع الظواهر فوق الطبيعيّة التي يمكن في نظره تطويعها بالصدق وبنوع من الرياضة الداخلية. إنّه يسأل الصبيّ مثلاً أن يلمس أمامه السماء، أن يثير عاصفة بمجرّد نظرة منه، وأن يتحوّل إلى صخرة. ويطلب منه ان يتذكّر أوّل إحساس كان له في لحظة

ولادته. ويحدّد حزام فحولة المقابل انطلاقاً من سكّينه ومن علاقته بهذه الأداة. رجل بلا حزام وبلا سكّين ليس سوى طفل أو مزحة. ومثلما ينتشر الحزام في دلالات متعدّدة على امتداد الرواية، فالسكّين هي الأخرى حبلى بدلالات شتّى، حقيقيّة ومجازيّة. اللّه خلق الرجل في نظر حزام على هيأة سكّين، مدية قادرة على قطع كلّ شيء، في كلّ لحظة. كلماته، نظراته، افعاله، نومه نفسه، هذا كلّه ينبغي أن يكون بصلابة المدية وسرعة أثرها. وسكّين الرجل، هذه التي يحملها معلّقة إلى حزامه، هي وعيه، ضميره. السكّين تصنع الرجل، لا لحيته ولا ذكره.

يمقت حزام لا الطبّ وحده، بل كلّ ما هو كماليّ وإضافيّ وكلّ ما هو زيادة نافلة في رأيه إلى الطبيعة. هكذا تعرض عليه زوجة حانوتيّ القرية شيئاً من الحنّاء لابنته، فيرفض اخذه ويقول: «لا أدري كيف يُصنَع الجمال صنعاً. يكون المرء جميلاً أو لا يكون. لا اجمل من الطبيعة». أخيراً، يؤمن حزام بانّ لكلّ امرئ عدداً من الابتسامات محدوداً في حياته، وانّنا إذْ نبتسم بمناسبة وبلا مناسبة، فإنّما نبذّر ابتساماتنا. وابتسامة الانسان الأخيرة (لكنْ مَن يحدس أنّها الأخيرة؟) قادرة على تحويل الشجر العقيم إلى شجر مثمر.

هذا كلّه ينشئ بين حزام والبطل الصبيّ علاقة تماهٍ وتبنٍّ ووعد والتزام. فعندما يلقي حزام بسكّين الصبيّ أرضاً بعدما عجز عن أن يحلق بها شعر ساقه، يقول له الصبيّ: «سأكون الشابّ الذي تحلم به». ويظلّ هذا الوعد يرافق الرواية حتّى آخرها. سيكون حزام هو الأب الروحيّ للفتى، يتنازع في داخله هذه السلطة مع أبيه الفعليّ، الذي لا يفتقر هو الآخر، كما سنلاحظ، إلى الشحنات الرمزيّة والدلالات الفكريّة التي ستساهم في تأسيس وعي بطل الرواية.

الغناء:

من أهمّ ما تمتاز به هذه القرية، ومن اكثر ما يشكّل وعي الصغير بطل الرواية، إلى جانب دروس حزام وتعاليم الأمّ التي سنعرضها أدناه، التزامها، أي القرية، بموقف غنائيّ من الحياة وانخراطها في الغناء في كلّ مناسبة وأمام كلّ مازق. الغناء هو هنا هبة طبيعيّة لا يكاد يضيف إليها البشر شيئاً خلا الأداء. هو ضرب من الفيض الوجدانيّ والطبيعة السمحاء التي تنساب من السماء والنجوم والرمل والماء والذوات وتغمر كلّ شيء. لكلّ نشاط في القرية غناؤه الخاصّ. لا أحد يقوم بشيء من دون الغناء. لا شيء يمكن أن ينبت بدونه أو ينمو او يكتمل. وترى أمّ البطل انّ القرية نفسها كانت في الأصل اغنية، والناس جميعاً قصائد، وكذلك الشجر والنبات والأزهار والصخور والماء. تقول له: «إن انت أصخت سمعاً للأشياء سمعتَها تغنّي». ولذا يحسب الصبيّ أنّ أصوات الأجداد قد امتزجت بالتربة كمثّل السماد، وأنّ جميع الثروات الطبيعيّة آتية من غناء الاسلاف. والشيخ حزام يعزّز في داخله هذا الاعتقاد، إذ يقول له إنّ الأسلاف كانوا يغنّون حتّى في نومهم. سوى أنّهم كانوا في نظره، أي حزام، يغنّون لتمجيد العمل فحسب. أمّا الغناء الذي يجد غايته في الطرب وإعلاء نشوة الحياة فقد لا يحبّذه حزام، خلافاً لأمّ البطل – الراوية التي تجد الغناء في كلّ شيء ولكلّ شيء. وعلى حين يلعن حزام سكّان «الطرف» (وهي التسمية التي تُطلق في القرية على مجموعة من الأسَر المهمّشة وغير المتمتّعة بكيان قبليّ واضح ولا بشجرة أنساب دقيقة) لأنّهم أشاعوا الغناء – الطرب، فإنّ الأمّ تعترف بفضلهم وإضافتهم الوجوديّة لحياة القرية. وهي ما انفكّت تردّد انّه بفضلهم صار الناس يحرثون الأرض أفضل من ذي قبل. لقد ادخلوا للقرية لا الغناء وحده، بل كذلك الرقص والملابس الملوّنة والحنّاء والقهوة والسكّر وأدوات العمل والسجّاد، وخصوصاً المفاتيح، وهذا ما يجرّ بدوره غضب حزام، فقبلهم، كما يقول، لم يكنْ يعنّ لأحد أن يقفل باب داره. هكذا تلتقي فيهم وتتضافر سلسلة من الصفات المزدوجة وشبه المتضادّة، هذا الافتتان والخوف اللذان يثيرهما الأجنبيّ أو الغريب. والبطل

مفتون بالفعل بحركيّة «الطرف» الفائقة، فهم يسافرون باستمرار، وبلا خوف. يكفي أن يرفعوا راية بيضاء يعلوها رأس ديك ليخترقوا مضارب القبائل المتناحرة التي لا يقدر أبناء مختلف القبائل اجتيازها من دون المجازفة بالموت. أبو البطل نفسه أمضى ردحاً من شبابه يرافق «الطرف»، يسهر معهم ويغنّي، حتّى لقد لُقّب بـ«الرّعدان»، أي هذا الذي، بسحر غنائه وحده، يُحدث الرعدة في أذن سامعيه. البطل، من ناحيته، يدعوه أحد «أمراء الليل» – تسمية جميلة. هذه الحركيّة يدركها حزام بكامل قوّتها، وإن كان يشجبها من أجل ذلك. يقول للصبيّ: «نحن نتزوّج الحقول. إنّنا متجذّرون. وأهل الطرف مخلوقون من الريح. فأنّى لك أن تتزوّج الريح؟».

الأمّ:

لأمّ البطل مكانة محوريّة في هذا العمل تتجاوز المكانة العاطفيّة التي ترافقها تقليديّاً. وربّما كان أوّل وأغنى ما تهبه لابنها هو محبّة الشعر، فقد كانت شاعرة بالفطرة، تؤمن بقوّة الكلمة وسلطان الغناء. الشعر يمنح في نظرها الأشياء لونها الحقيقيّ. وحده الماء احتفظ بالقوّة والطاقة الضروريّتين للحياة، قوّة وطاقة وحدهم الشعراء يحدسونها. خصوصاً ماء العينين، ففيه ينعكس ما نحن في حقيقتنا، في ألوان ثرّة متعدّدة.

كانت أمّ البطل قد فقدت زوجها الأوّل لأنّها «سرقت» من دارها حفنة من البنّ أعطتها لجارة محتاجة فعوقبت بالطلاق. وهي وحدها عرفت أن تحوّل أحد «أمراء الليل»، والد بطل الرواية، إلى رجل حقيقيّ. تذهب الأمّ برفقة النساء الأخريات إلى أعلى الجبال بحثاً عن الحطب. يخرجن في منتصف الليل ليعدن أوّل الفجر للمساهمة في أعمال الحرث مع رجالهنّ. يتناولن طعامهنّ سائرات. ولمّا لم يكن لدى الأمّ ما تأكله، فهي تمضغ الحبل الذي به تشدّ على رأسها كومة الحطب. ولمّا كانت تسير في مقدّمة الصفّ دائماً، فلم تكتشف النساء حيلتها ولم يعرفن ما كانت «تأكل». ولقد علّمتهنّ الغناء، فصرن يدعونها «شاعرة الجبال».

علّمت الأمّ ابنها الشعر، ودرّبت أخته على الموسيقى. حتّى صار الصبيّ يحسب النجوم كلمات لا تفعل أمّه سوى أن تقتطفها وتحوّلها إلى أغان. ولكي تعاقبه أمّه لكونه ضرب مرّةً أخته، راحت تغنّي له طوال ليلة. فاجهش بالبكاء واعتذر بإلحاف. موقف صادق عليه الأب إذ قال له مؤنّباً: «أختك أغنية، فكيف يمكن الإساءة إلى أغنية؟». ولمّا رأته أمّه يكذب للمرّة الأولى، قالت له إنّ للأمّ عيوناً وآذاناً وأنوفاً وأيدي في جميع الاتجاهات. وهذا ما صادق عليه الأب أيضاً إذ قال للصبيّ إنّه «وحدهنّ الأمّهات يفتحن جميع الأبواب».

لكنّ تعاليم الأمّ تتعدّى موضوع الغناء لتشمل سائر جوانب الحياة. فهي تنصح بعدم ممارسة الحبّ بكامل العري، لأنّ صدر المرأة قادر على إشعال حتّى الأرض. وعندما يرفض الصبيّ في البدء تعلّم السباحة، تنصحه أمّه بالعودة إلى البيت ليساعد أخته في تنظيف الصحون. فيقرّر أن يتعلّم السباحة ليظلّ صبيّاً. وأن تكون صبيّاً هو أن تتحلّى بالشجاعة. مجرّد الشعور بالدوار أو الدوخة فقدان للشجاعة. ولا يكون الانسان إنساناً في نظر الأمّ ما لم يتحلّ بصفات القطّ الثلاث وصفات الحمار الثلاث. صفات القطّ: إنهاء وجبته من الطعام ومعرفة أعدائه وإخفاء فضلاته. وصفات الحمار: الشرب ببطء وبكفاية، وحَمل الحِمل ومعرفة الطريق.

هذه التربية العاطفيّة والوجدانيّة الكاملة ترافق الصبيّ، الرجل القادم، في جميع المراحل. فعندما يبلغ السنّ التي لا تعود تسمح له بمواصلة النوم إلى جانب أمّه، صار هو وأمّه يؤخّران لحظة الذهاب إلى الفراش ويماطلان في النوم، حتّى تواصل الكلام معه وليواصل الامتلاء بالدفء والشّعر. ولدى عودته بعد سنوات من مدرسة المدينة إلى القرية، محمّلاً بالهدايا، تدعه ينام في فراش أبيه، وكان الأخير غائباً للمعالجة. هناك ينام الشابّ وحده، برفقة عصا الأب وسكّينه، وكانت هذه علامة تكريسه رجلاً. كما يهيئه كلّ من حزام والأمّ للحِداد وقبول الموت، موت

القريب الذي فيه ينعكس موتنا نفسه: «كنت أصغر منك عندما توفيّ أبي»، يقول له حزام. وأمّه تروي له حكاية آسرة تعيدنا كذلك إلى قوّة الغناء وارتسامه شرطاً للحريّة. ففي اليوم الذي فقدَ عبد ابناً له، أمره مالكه بالذهاب للعمل حال رجوعه من دفن الابن. فطفق العبد يعمل ويغنّي، أغنية نترجمها عن الفرنسيّة لعدم توفّرنا على نصّها الأصليّ بالعاميّة:

«آه يا غرابي!

آه يا غرابي الأسوَد!

يا ثمرتي التي دفنتُها

آه يا ثمرتي

أنتَ ثمرتي، أنتَ روحي

آه يا ثمرتي السوداء!

إنّني أدفن عينَيّ

آه يا ثمرتي

كان ينبغي أن أدفنني».

فيدور على أثر ذلك بينه وبين سيّده هذا الحوار:

«– لم يكن لك الحقّ في الغناء.

– أعرف. لقد قلتَ لي ذلك. إنّني لم أفعل سوى البكاء.

– بل لقد غنّيت. ولقد علّمتني ما هي الحريّة.

– لكلٍّ حرّيته.

– لو تقاسمنا أنا وأنت الحقل والغناء!

– سأكون في هذه الحالة أنا السيّد.

– لكلٍّ حرّيته.»

وفي موقف آخر، محمّل هو الآخر بالدلالات الرمزيّة، نرى الى الأمّ وهي تعالج خفّاشاً سقط في الحجرة وتدهنه بالزبدة. تقول لابنها إنّه يمثّل روح أحد الأسلاف. وعندما تدخل أخته تقول له الأمّ إنّ خفّاشاً آخر يدخل. في هذا التمازج بين المخلوقات وعبر هذه الشاكلة في تهديم السدود بين العوالم، يرى الراوية بقايا معتقدات سابقة للاسلام استطاع أهل القرية، كما في سائر البلاد العربيّة، إدخالها في ثقافتهم الشعريّة وإدراجها ضمن آثار مخيالهم الجماعيّ.

والأمّ، أخيراً، هي من تزوّج بعلها، أبا البطل، من زوجة ثانية أكثر فتوّة، عندما كبرت هي ولم تعد قادرة على الاضطلاع بشؤون البيت. ولكي تدَع للزوجة الجديدة كامل سلطانها على البيت وحريّتها فيه، تهجر الأمّ المنزل الزوجيّ وتضطلع بكامل الشجاعة بحياة متوحّدة، لا سيّما وأنّ الأخت وجدت هي الأخرى طريقها إلى الزواج.

وأثيرة هي الصفحات الختاميّة التي يصف فيها البطل، العائد من المدينة بعد الدراسة، اكتشافه لعمل الزمن وأثره القاضم للأشياء والذوات. كان يحسب أمّه قصيدة. والآن «اكتشفتُ أنّها كائن إنسانيّ. لم يعد أمامها سوى حياة عاديّة، حياة تتضمّن على الأمراض والتعب والهموم الصغيرة والشيخوخة، حياة عاديّة». ولمّا كان الأب مريضاً وغائباً للمعالجة، فإنّ الصبيّ يستدين للعائلة من حزام عشرة ريالات، يقول له حزام إنّ قيمتها المعنوية تعادل مائة ريال، ويصادق هو على ذلك، لأنّ وراء هذه الريالات العشرة عناء أجيال متوالية. بعد ذلك، يعود الصبيّ إلى المدينة صحبة رفاقه، هناك حيث ينتظرهم الفقر والمهانات اليوميّة والجوع والمدينة الصغيرة «التي تعرف الغناء لحسن الحظّ». ولدى عودته، يجد في حقيبته الحذاءين اللذين كان سرقهما ليهديهما لأمّه: كانت عينها المسلّطة عليه من داخله تحدس كلّ شيء وتحيط بكلّ شيء.

إلى جانب الأمّ، هناك أخيراً الأخوات اللائي يشاركن هنّ أيضاً في ترسيخ عالم الأنوثة العارفة والعميقة هذا. أخوات شقيقات وغير شقيقات يمنح كلاًّ منهنّ اسماً شعريّاً، فواحدة اسمها «أختي – ذاكرتي» وثانية اسمها «أختي التي أُحبّ»، وثالثة اسمها «أختي التي تحبّني»، إلخ.

الأب:

بالرغم من تواضع المجال المعقود له في الرواية، بالقياس إلى حضور الأمّ وحزام المتواصل، يتمتّع الأب بمكانة فعليّة في هذه الرواية. قلنا إنّه بدأ حياته بمحبّة الغناء والتنقّل

في السهرات مع أبناء «الطرف» وإنّه كان يُلقّب لذلك بـ «الرعدان». ثمّ صار يتنقّل للاتجار، بعدما استدان مبلغاً صغيراً من جار له راح يتقاسم معه الأرباح وكان لبُخله يُدعى بـ «الصخرة». لكنّ الأب، في محادثاته مع ابنه، بطل الرواية، التي تساهم هي الأخرى في تعزيز تربيته العاطفيّة والعمليّة، يقول له إنّ رأسماله الوحيد كان هو خبراته وصداقاته المكتسبة في التجارة: «صار لي قصر في كلّ جبل»، يقول له مشيراً إلى معارفه.

يكتسي الأب قدراً من الانسانيّة كبيراً عبر بعض الصفات والممارسات. فكان لا يقدر على الأكل من دون تلويث ثيابه. كما أنّه يفقد مرّةً مفتاح حجرة الضيوف، ولا يهدأ بال الصبيّ حتّى يستعيد الأب المفتاح، رمز فحولته. وكان مولعاً بالمطر. يقول لابنه إنّ لكلّ مطر نباته الخاصّ، وهو يتلقّى المطر بكامل مسامات جسمه، عارياً في العراء، ويدعو ابنه إلى أن يفعل مثله. وما كان ليتوقّف عن أعمال الريّ إلاّ من أجل الصلاة. وفي اليوم الذي يستعيد فيه مفتاح مخزن طعام الضيوف، يصلّي ابنه معه، إلى جانبه، «كما لم يصلِّ قبل ذلك أبداً»، بتعبيره هو نفسه.

والأب هو الآخر، بالنسبة إلى الابن، معين للأساطير والحكايات لا ينضب. يسرد له حكايات عن الجنّ، الطيّبين الذين يمدّون الشعراء بالالهام والذي يوقظون رجلاً في منتصف الليل ليدلّوه على كنز مخبّأ، والخبثاء الذين هم على هيئة أفاعٍ تقتل نفسها إن لم تفلح في القتل. وكان للأب خنجر ثمين يضطرّ لبيعه لشراء ثور، بعدما نفقَ ثور الأسرة. يرفض جاره، الذي كان يذهب للشحذ في المدينة، اشتراء الخنجر، لمعرفته بأنّ قيمته لا تُقدّر بدراهم وريالات. ثمّ يشتريه بعد إلحاح، ولكنّه يخفيه طالما كان الأب على قيد الحياة.

البطل:

من هذا كلّه يحتفظ البطل بعناصر مكوّنة أساسيّة يضيف إليها مكوّناته الشخصيّة الخاصّة. هو مزيج من غنائيّة الأمّ ووعيها الشعريّ العالي بالحياة، ومن طابع الحسم لدى حزام وتمجيده لإرادة العمل، ومن محبّة التنقّل لدى الأب وإيمانه بالقوّة التي لا تُعوَّض للرموز وبعض الأشياء الملازمة للانسان والتي تنهض كحوامل للوعي وشواهد على الوجود. هذا البطل، الذي نتعرّف عليه في البداية طفلاً تغذّيه الأمّ وحزام بالحكايات، ثمّ صبيّاً يافعاً يغزو المدينة للدراسة، وأخيراً روائيّاً يعيد خلق عالمه الأصليّ في مدينة غريبة (باريس) بلغة أجنبيّة (الفرنسيّة)، هذا البطل هو قبل أيّ شيء آخر نظرة. كتب: «كان حزام يعرف أنّني أخترق الآخرين بمجرّد النظر إليهم». وهو، إلى ذلك، بوح. ففي قرية يتمثّل شعارها ودعاء أبنائها اليوميّ في المقولة: «اللّهم احفظ سرّي وسرّ ذويّ إلى الأبد»، يجد هو متعة قصوى في الافشاء بجميع الأسرار التي يودعه إيّاها الآخرون. وعن عجب، فكلّما أفشى للآخرين بأسراره، أفشى له الآخرون بدورهم بأسرار عديدة من حياتهم الخاصّة. وليتخلّص من مخزونه الهائل من الأسرار هذا، يدوّن ذات يومٍ جميع أسرار القرية في لائحة طويلة يعلّقها على باب دار أهله. نجم عن هذا مشهد سحريّ حرّر القبيلة وأطلق من عقالها جميع عواطفها المكبوتة. لقد خرج جميع أهل القرية من بيوتهم وراحوا يحتفلون باكين. كان ذلك كمثل يوم نشور وانبعاث. شيخ القرية نفسه استقال، فـ «قرية بلا أسرار ليست بحاجة إلى شيخ»، على حدّ تعبير الشيخ نفسه.

تتوالى حياة هذا الصبيّ كسلسلة من الأفعال التأسيسيّة والمبادرات التدشينيّة. ففي اليوم الذي يعود فيه لأخواته وأمّه من أحد أعراس القرية بعظم علق به شيء من اللحم، احتفظ به تحت حزامه، تحتفل العائلة بفعله هذا الذي جاء ليكرّس وصوله عتبة المسؤولية والرشد. وعندما يعود أبوه ويعلم بنبأ العظم – التحفة، يذبح للمناسبة خروفاً. في اليوم التالي، يهديه الأب سكّينه الأولى مع حزام من الجلد جميل، ملوّن. أمّه، من ناحيتها، تذكّره بسلطة الخال وبالانحدار الأموميّ

للرجولة: «إسمع يا بنيّ، تقول له. إنّ خالك يقبع في داخلك. إنّ شرف العائلة بين يديك. وإذا أصبح الصبيّ رجلاً، فلأنّ الخال هو كذلك من قبل».

ويتجلّى العشق داخل الصبيّ وفي سلوكه على هيئة خروج متواصل عن القاعدة. يبالغ الصلاة مثلاً ويُفاقم أفعال العبادة، فيلاحظ ذلك والد المعشوقة نفسه وينصح ذويه بالعناية بابنهم. ثمّ يروح يتبختر على ظهر حماره أمام المعشوقة وأمّها ويعثر به الحمار ويسقط هو، فيشعر بالعار. وهنا أيضاً تأتي أمّه لنجدته وتنصحه باستمالة قلب المعشوقة بالغناء. وينصحه حزام برؤية الشمس في الليل، فيسهر لياليَ عديدة إلى جانب امرأة عجوز عارفة بجميع أسرار القرية. لا يفلح في رؤية الشمس ليلاً، ولكنّ العجوز تلقّنه جميع الأسرار. هكذا يتزوّج جنونه («لستَ مجنوناً بالفعل، ولكنّك مجنون بالغناء»، يقول له حزام). صار التلميذ الأذكى في المدرسة، وباتت القرية تخشى معرفته بأسرارها. ولدى وفاتها، تورثه العجوز المذكورة جميع حقولها، فيقول له حزام: «نلتَ بالغناء كلّ ما لم أفلح بنيله بأموالي».

لكنّ الصبيّ، الذي كبر ونال شهادة المدرسة الابتدائيّة، بات عليه أن يغادر القرية و«قوس قزحه»، ليحقّق حلم أبيه وأساتذته: أن يصبح صحفيّاً. ذلك بالنسبة إليه «ضرب من الموت». فركض وشرب من جميع الآبار واجتاز القرية بكاملها مغمض العينين. وفي كلّ مرّة يعود فيها إلى القرية في إجازة، سيجد أمامه اختباراً آخر وعتبة تلقينيّة جديدة يجتازها. مرّة يفقد «قوس قزحه»، التي تزوّجت من شابّ آخر وتركت للبطل خصلة من شعرها وقارورة عطر. وحزام هو الذي جلس إلى جانبه ليؤاسيه، على صخرة سمّياها «صخرة الذاكرة». مرّة أخرى، يشارك أباه في ذبح خروف الأضحى، ولمّا كان الوالد مريضاً وعلى أهبة الرحيل للمعالجة، فإنّ هذه هي المرّة الأولى التي تشهد فيها العائلة صعود الابن وتراجع الأب.

المدرسة / المدينة:

ترتسم المدرسة (الثانويّة) والمدينة، ومن قبلهما المستوصف والمستشفى، كمؤسّسات تقع على طرفي النقيض من «المؤسّسة» التي تمثّلها القرية أو القبيلة، ومصدر تهديد بالتقوّض لن تفلح القرية في تطويعه إلاّ بالتدريج، وبفضل أبنائها (وبينهم البطل) الذين سيشكّلون ما يشبه «رزّة» أو همزة وصل بين عالمَين ومخيالَين.

قبل المدرسة الثانويّة، كان مستشفى المدينة قد بدأ يجتذب بعض أبناء القرية. كان أحدهم قد عُيّن مسؤولاً عن أمن المستشفى. فراح آخرون يلتحقون به ويجدون في المستشفى نوعاً من الفندق المجانيّ يُتاح للبعض العثور على عمل فيه فيما يعود آخرون بخفّي حنين.

يذهب الصبية لإكمال الدراسة في المدينة متكافلين متضامنين، حاملين معهم من القرية، في صرر محفوظة بعناية، كميّات من الرزّ والطحين وما يلزمهم لكفاف اليوم. لكنّهم لن يبطئوا في اكتشاف ضرورة غزو المدينة بافعال تنمّ عن دهاء وجراة متدرّجين. يحلبون في السرّ عنزات أحد الجيران، وينهبون محتويات حانوت كان صاحبه، وكان يعرف ذويهم، قد رفض أن يبيعهم بالدَّين بعض ما يحتاجونه من موادّ غذائيّة. وهم يهبّون كجسد واحد للمطالبة باسترداد حزام رفيق لهم وسكّينه، كان جارهم، صاحب البيت الذي استأجروا غرفاً فيه، قد صادرهما منه بغير حقّ. وشديد الدلالة هو المشهد الذي نرى فيه إلى الصبيّة، في عمليّة لتطويع غربتهم في المدينة، وهم يكتبون اسم قريتهم على جدران الغرف ويخرجون إلى الشوارع حاملين سكاكينهم ومتمنطقين بأحزمتهم التقليديّة. مشهد يعيدنا بدوره إلى مغامرة بطلنا العائرة في قريته، عندما ذهب إلى مدرستها في أحد الأيّام بالزيّ الحديث وشرع، لدى رفع العلم، بإلقاء التحايا المعهودة إلى الوطن واعضاء الحكومة والأساتذة ورأى إلى بنطاله وهو ينزل تدريجيّاً حتّى يبلغ قدميه. ومن حسن حظّه أنّ قميصه كان طويلاً بحيث يغطّي ساقيه، وأنّ معلّمه

هرع لإنجاده فصعّد البنطال وامسك به حتى الفروغ من إلقاء التحيّة أمام العلَم.

ويتمثّل فعل الغزو الأكبر لفضاء المدينة الاجتماعيّ بقيام أحد رفاق البطل بإعالة جميع أصحابه بارتياده نساء التجّار وكتابته رسائلهنّ وإرضائه حاجاتهنّ جميعاً. كان يعود كلّ مساء لأصحابه بأشهى أنواع الطعام. بفضله، تمكّن رفاقه من النجاح وعاد هو في نهاية العام الدراسيّ يحمل ما كانوا يعدّونه «فشله» وما كان يؤرّق ضمائرهم بشدّة. لكنّه كان يعدّ نفسه هو الرابح، إذ عاد للقرية بمعرفة واسعة في الحياة وبعدد من الهدايا جعلت رفاقه يتلاشون وراءه لدى استقبال القرية الجماعيّ للعائدين.

ولئن كانت المدينة تشكّل مصدر إثراء للقرية، فهي ظلّت تمثّل من نواحٍ أخرى إمكان فسادٍ للأبناء. فالمسؤول عن أمن المستشفى يُفرح ذويه وجيرانه ويفجعهم في آنٍ معاً. يُفرحهم إذ يأتيهم بملابس قام الأولاد بارتدائها فوق ملابسهم الريفيّة («كنّا نرتدي العاصمة فوق القرية»، كتب الراوية في عبارة تعبّر بصورة بليغة عن تراكب هذين العالَمين وتمازجهما). ويفجعهم إذْ يُمعن في التدخين أمام ذويه ومستقبليه، وكانت هذه في نظرهم عادة مستورَدة وهجينة. افقده هذا جانباً من حظوته كبيراً. كانت القرية حزينة. وعرف أهلها بعد ذلك أنّ أبا المعنيّ نفسه قد أجهش بالبكاء.

وعلى العموم، فالموقف من المدرسة، بدءاً بالمدرسة الابتدائيّة في القرية نفسها، يظلّ مشوباً بالحذر وبالخيبة. فالمعلّمون حملوا للقرية عادة استخدام القمامة. قبلهم، لم تكن الناس لترمي شيئاً، إلاّ الرماد. واتّهم الآباء المدرسة بإحالة أبنائهم جبناء، وفي عبارة أحد المعلّمين: «أبناؤكم أبناء الحكومة»، لحظ الآباء تغيّراً سلاليّاً بالغ الخطورة يهدّد بإحلال الجسد الرسميّ الواسع والمتناثر محلّ جسد القبيلة المتضامّ والمنغلق على ذاته. ولا أكثر خيانة ونكراناً في نظرهم ممّن يغادر القرية بعد بيع ممتلكاته فيها. وما كان ليسرّهم أن يروا إلى علم البلاد وهو يحلّ محلّ راية القبيلة، وإلى النشيد الوطنيّ الصباحيّ وهو يحلّ محلّ صلاة الفجر التي تؤدّى في مسجد القرية والتي منها ينسلّ القرويّ الى فعل عبادته الآخر المتمثّل في الحرث.

بالنسبة إلى الصبيّ الذي كانه بطل الرواية، مثّلت المدرسة التخلّي عن السكّين، تقليم الأظافر، الإمعان في النظافة، الكفّ عن السير حافياً والامتثال لتعاليم أساتذة آتين من مصر وسوريا والأردنّ. وخصوصاً الاكتساب التدريجيّ لحقيقة شخصيّة داخليّة حيثما كانت القبيلة تريد الاحتفاظ به «خليّة صغيرة في جسدها الكبير». كانت الكلمات التي بدأ يتعلّمها في المدرسة تبدو له «أكبر من الحقول»، كلمات يلمسها ويتصوّرها، لا يقرأها فحسب. إنّه ينفتح إلى عالم آخر سوى عالم حزام. لا غرابة، والحالة هذه، أن تتمثّل إحدى الكلمات الأثيرة لديه في «العالَم». عالَم ينال هو والصغار الآخرون فيه الحقّ بالضحك والبكاء والكلام واللعب: يكونون صغاراً لا سكاكين.

في باريس، أعاد البطل خلق قريته لأنّه قام، طيلة سنواتٍ، بإعادة اكتشافها. جاء وهو يحمل معه طبائعها وطقوسها. قلنا إنّه ظلّ يحيّي جميع الناس في المترو (القطار الجوفيّ داخل المدن)، وإذْ لا يردّ عليه أحد، فهو يواصل إلقاء التحيّة همساً. فرنسا التي يختار هي، بتعبيره، «بلد إيلوار وأراغون وبريڤير»: سلالة شعريّة يضعها بمقابل شجرة أنسابه التي يسردها في الصفحة الأولى من الرواية والتي تقوده إلى قحطان، السلف البعيد، وأبعد منه. كتب: «في باريس، استطعتُ أن أرى بلدي وقريتي. هناك، كنت شاعراً فحسب. وباريس مكّنتني من أن أكون إنساناً بكاملي. وهذا هو المعنى الحقيقيّ للحداثة.» والمسافة التي تفصله عن القرية وتجمعه بها في آنٍ معاً، هي التي أتاحت له أن يقوم بفعل الكتابة هذا الذي يُطلقه هو كإعلان استقلاليّ: «ما تزال القبيلة تنظر إليّ كخليّة صغيرة في جسد واسع، خليّة سوداء في نظر البعض، لأنّني تزوّجتُ من فرنسيّة».

إبتعد الصبيّ، والكاتب الذي سيكونه، عن القرية، ولم يبتعد. «أحمل قريتي في داخلي كمثْل شعلة لا

تخمد »، كتبَ في مطلع الرواية. ولدى اكتمال العمل، يهتف إلى حزام، وكان في المستشفى، ويُعلمه بأنّه سيسمّي روايته « حزام »، لأنّ « الحزام يكشف، أمّا الحجاب فيُخفي ». يسأله حزام: « ألم تبعْ قريتك على الأقلّ؟ »، فيجيب الكاتب – الراوية: « من ذا الذي يقدر على بيع روحه؟ ». فيعده حزام بأن يترك له حزامه وسكّينه (وهذا ما حصل) ويقرّ أمامه أخيراً بعظمة المرأة: « أبداً لم أكن متّفقاً مع أمّك التي كانت تنظر إلى القرية كأغنية. لكن قلتَ لي إنّ النساء رافقنك طوال الكتابة. أنحني إذن أمامهنّ ما دمن انقذنَ القرية من الضياع ».

في محلّ آخر من الرواية كتب البطل – الراوية: « أنا نفسي نُصبٌ تاريخيّ »: نصب يحمل، في تكوينه العضويّ نفسه، رموز عالمه الأصليّ وآثاره. ولئن كان يجهل العام الذي ولد فيه، فهو يتذكّر جيّداً اليوم الذي أخرج فيه إخصّائيّ القدم من باطن قدميه بضع أشواك منغرسة فيهما كحيوانات متحجّرة. تاريخ وما قبل تاريخ. والكتابة هي الاختبار الذي يسمح بمعالجة هذا كلّه وإعادة تصنيفه في خارطة هي شعريّة بالأساس وأوّلاً بأوّل.

بقي، في ختام هذا العرض الذي شئنا أن يقف فيه القارئ العربيّ غير المتوفّر بعدُ على ترجمة الكتاب على لغة الكاتب وأجوائه وشخصيّات عمله المحوريّة، أن نشير إلى بناء الكتاب. والحقّ، فمع تأكيد الكاتب في العديد من الحوارات المجراة معه بالفرنسيّة والعربيّة، وبتواضعه الأنموذجيّ، على « جهله » بفنّ الرواية وعلى أنّه لم يقرأ إلاّ « حفنة » معدودة من الروايات، إذ هو آتٍ إلى الأدب من جهة الشعر وإلى الثقافة من ناحية الدراسة التاريخية والأنثروبولوجيّة، نلاحظ في عمله هذا، وهو الأوّل الذي يكتبه سرداً، تمكّناً تقنيّاً عالياً ونوعاً من الحذق أكيداً. فصول الكتاب هي بنيات متراصّة، يقبض كلّ منها على نواة أساسيّة من عالم القرية أوّلاً والمدينة من بعدُ، ويرسم الشخوص والأفكار والعوالم الداخليّة والأحلام بنصاعة وكثافة. الكثير من عباراته تنتصب بتشخيص بالغ، ولها نفاذ الحكمة أو المثل السائر. صفحات أخرى يمكن اعتبارها قصائد نثر أو أغاني. هذا كلّه ربّما كان يأتيه من عالم الطفولة الذي كان زاخراً بالحكايات، والحكاية فنّ تأليفٍ وتقنية بناءٍ وشاكلة في تكثيف التجارب وترميز المعيش والحلم. ومؤكّد انّ هذا يأتيه من تلك الأمّ الرائعة التي كانت أمّه، والتي كانت، كما تبين لنا في هذه الرواية، شاعرة وراوية استثنائيّة.

ك.ج

أرونداتي روي، ثمن العيش، ١٩٩٩

Arundhti Roy, The Coast of Living, Modern Library Paperback, New York, 1999

منذ روايتها الأولى واليتيمة « إله الأشياء الصغيرة » اهتمّت الكاتبة الهندية الشابة أرونداتي روي (٣٩ عاماً) بالقضايا الشائكة في النسيج الإجتماعي المعقّد في الهند (أنظر تعليقاً لكاتب هذا العرض على تلك الرواية في الكرمل، العدد ٥٤، شتاء ١٩٩٨). وقد بنت روايتها، التي فازت بجائزة البوكر البريطانية عام ١٩٩٧، على حكاية قطع الحدود بين الطبقات في الهند، وما أنتجه ذلك من موت مدمر وتقطّع أوصال الأسرة الصغيرة التي تجرّأت الأم فيها على إقامة علاقة مع واحد من طبقة المنبوذين.

الثيمة الأساسية في « إله الأشياء الصغيرة » إذن تدور حول الإنقسام الطولي الحاد المروّع في بنية الحياة الهندية على مدى العصور، وعدم قدرة الحداثة على

رأب هذا الصدع أو تغيير التراتب الإجتماعي في شبه القارة، التي تدّعي نخبها السياسية أنّها من بين دول العالم الثالث التي استطاعت أن تقوم بتحديث بنياتها الإقتصادية والثقافية، وتحاول اللّحاق بالعالم الأول. لكن أرونداتي روي، ومنذ مساهمتها الأولى في عالم الكتابة، تكشف الجرح العميق الذي تحياه الهند، وتضع يدها على تجاور المتناقضات واجتماع الأضداد : من عصر الفضائيات إلى عدم السماح لطائفة المنبوذين بالزواج من أيّة طبقة أخرى من طبقات المجتمع الهندي في زمان تدّعي فيه الهند أنّها جزءٌ من العالم الحديث، الذي يساوي بين أفراده بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي أو الإجتماعي!

كتاب أرونداتي الأخير «ثمن العيش» الصادر بالإنجليزية حديثاً (منشورات مودرن لايبراري بيبر باك، نيويورك) هو بمثابة مانيفستو يركز خطابه على الأفكار الأساسية التي تقيم في فضاء عملها الروائي الأول؛ أي على الكشف عن طبيعة فساد الأفكار والنظام الذي يتحكّم بحياة الجماهير الغفيرة في الهند الشاسعة المقسّمة والمنقسمة على ذاتِها.

ليس «ثمن العيش» رواية، كما يتوقع المرء من كاتبة أحرز كتابُها الروائي الأوّل أرفع جائزة أدبية في العالم الأنجلوساكسوني وأصبحت أرونداتي روي بسببه من أصحاب الملايين، بل هو عمل ينتمي إلى عالم الصحافة مازجاً التحقيق الصحفي بالتأمّل الذاتي والمادة الأرشيفية.

تعقد روي فصلي كتابها على موضوعي بناء السدود الضخمة في الهند، وإنجاز مشروع تصنيع القنبلة النووية الهندية لمواجهة التهديد النووي الباكستاني! وهي من خلال تفكيك المنطق الذي يستند إليه الخطاب السياسي الرسمي، في تبرير هذا النوع من المشاريع الخطرة المدمرة (في نظرها)، تعمل على نزع الغموض والسحر عن أسطورة الهند الحديثة المعاصرة.

يتناول الفصل الأوّل من «ثمن العيش» عملية بناء السّدود الضخمة في الهند، التي بلغ عددها أكثر من ٣٦٠٠ سد، وتسببت بنزوح أكثر من خمسين مليوناً من البشر الذين يسكنون على ضفاف الأنهار التي بنيت السدود على مصبّاتها أو ضفافها، كما أدّت إلى تشريد ملايين من طبقات الهند الفقيرة وحرمانها من مصادر رزقها الرئيسية وتدمير أراضيها وإغراقها لتضطر هذه الملايين الغفيرة، إلى النزوح إلى مناطق بعيدة عن أماكن سكناها التي اعتادت عليها، وليعمل أفرادُها من ثم عمال مياومة ينتقلون من مكان إلى مكان إن سمحت لهم الدولة بذلك. إنّ روي، في سبيل الكشف عن تراجيديا العيش التي تعاينها في هذا الكتاب – المانيفيستو، تجمع المادّة الأرشيفية التي تستفيد منها في هذا الفصل وتعيد تنظيمها لتصبح ذات معنى بالنسبة للقارئ. وتتكوّن هذه المادّة الأرشيفية من التقارير الحكومية حول السدود الضخمة وما تصرح به هذه التقارير من أعداد البشر، الذين أجلتهم عمليات بناء السدود والفيضانات التي نشأت عن عمليات تحويل مجرى الأنهار، ومن تقارير البنك الدولي والقروض المقدمة للحكومة الهندية لبناء تلك السدود، وأعداد المهندسين والمستشارين والبيروقراطيين، برواتبهم وحوافزهم الضخمة، الذين وظفهم البنك الدولي؛ لتصل في النهاية إلى بدعة

السدود الحديثة التي تخلّص منها العالم الغربي بسبب الأضرار الكبيرة التي تسببها للطبيعة ونظام الري والأمراض التي تنشأ عنها. ولهذه الأسباب قام العالم الغربي بتحويل هذه المشاريع إلى العالم الثالث ليحافظ على عوائد القروض الضخمة، ويموّل جيشه من البيروقراطيين والمستشارين الذين سرعان ما يظهرون على المسرح، متكاتفين كلما طالبت دولة من دول العالم الثالث البنك الدولي بإعطائها قرضاً طويل الأجل، للمساعدة في تمويل مشروع سدّ ضخم يجعلها تدخل العصر الحديث من أوسع أبوابه!

الأساسي في كتابة أرونداتي روي عن مشاريع السدود الضخمة في الهند ليس المادة الأرشيفية المنتقاة، أو كشفها عن الأضرار الفادحة التي تترتب على بناء هذه السدود، بل البعد الإنساني المكافح ضد إستغلال النّاس والتهوين من شأنهم وتشريدهم من أوطانهم دون الشعور بأيّ قدر من تأنيب الضمير. إنّ روي تتابع عدداً من العائلات التي شرّدها بناء السدود وكيف دمّر حياتها، وتحول أفرادها من مزارعين يملكون أراضي يزرعونها ويعتاشون منها، أو صيادين يعتمدون صيد أسماك المياه الحلوة، إلى عمّال مياومة أو شحاذين يمدون أيديهم للناس. وتشير روي إلى أنّ أعداداً كبيرة ممّن شرّدتهم السدود هم من أبناء طبقة المنبوذين في الهند، تلك الطبقة التي كرّست الكاتبة الهندية الشابة كتابها الروائي الأوّل لإنصافها والحديث عن عمق الشّرخ الإجتماعي الحاد، الذي يقيم في أساس القارّة الهندية بسبب هذا التمييز المتوارث بين الطبقات الإجتماعية.

الفصل الثاني والأخير من كتاب روي يدور حول «القنبلة النووية الهندية» التي صوّرت للجماهير الهندية، لا للنّخب السياسية الحاكمة فقط، أنّها استردت كرامتها الوطنية بسبب النجاح في صنعها، وأن الهند (الهندوسية) قادرة على الإنتصار على عدوتها الإسلامية باكستان. لكن أرونداتي روي تشرح في هذا الفصل، الذي تضع له عنواناً موحياً هو «نهاية الخيال»، أنّ السلاح النووي سيكون مدمراً لكلا الطرفين إن فكّر أيّ طرف باستعماله، وأنّ الوهم القائل بأن السلاح النووي ذو طبيعة رادعة لا يأخذ بالحسبان الصدف الطارئة التي تتسبب بالفعل بنشوب حرب نووية مدمرة. ما هو دال في هذا الفصل هو كلام روي عن جهل العامّة بما يمكن أن تسبّبه حرب نووية وسخريتها من كلام النخب السياسي عن سبل الوقاية من الحرب النووية بتناول حبوب اليود، والبقاء في المنازل وعدم الخروج، وتناول مخزون المنزل من الماء والطعام، والكف عن شرب الحليب، وأن يتناول الرضّع الحليب المجفف فقط! وتعد روي هذا الكلام جنوناً مطبقاً لأن الحرب النووية إذا نشبت بالفعل فلن توفر أحداً ولن تنفع معها سبل الوقاية التي تنصح بها الدولة الجماهير، التي اعتقدت أنها عزّزت هويّتها بعد نجاح التجارب النووية التي قامت بها الحكومة الهندية.

تمزج أرونداتي روي، في كتابها الممتع (١٢٦ صفحة من القطع الصغير)، بين أسلوب الريبورتاج الصحفي، الذي يقدم مادة أرشيفية تغذيها أصوات الناس والمختصين والمشاركين في التحقيق، والتأمل الذاتي وتذكير القارئ بالكاتب الذي يقف وراء السطور التي تتتابع تحت بصره. بهذا المعنى فإن

روي، الكاتبة الحاصلة على جائزة البوكر وصاحبة رواية «إله الأشياء الصغيرة»، حاضرة بقوة في الكتاب؛ فهي موجودة في خلفية الفصل الأول، الذي يحكي عن خرافة التحديث في الهند من خلال إنشاء السدود العملاقة، عبر التركيز على هويّة المهجّرين من منازلهم وأعمالهم وأراضيهم من طبقة الأديفازي (المنبوذين)، وكذلك من خلال تصوير البيئة التي راقبت الكاتبة من خلالها تحولات الحياة الهندية المعاصرة في زمن التحديث المدمر للطبيعة الهندية. إنّها نفسها زاوية النظر التي نعثر عليها في «إله الأشياء الصغيرة» سواء من حيث الرسالة التي تشدد عليها الرواية أو من خلال البيئة المرسومة في مقاطعة كيرالا الهندية الجنوبية. أما في الفصل الثاني، الذي يتحدث عن «أسطورة» القنبلة النووية الهندية، فهي موجودة على خلفية رحلتها إلى الولايات المتحدة للترويج لكتابها «إله الأشياء الصغيرة» حيث تعاين في الإعلام الأمريكي النظرة الغربية الإستعلائية والدهشة المتقزّزة من إمكانية أن تنجح دولة من العالم الثالث في امتلاك السلاح النووي. لكن هذه المشاعر المجروحة، التي تترك أثرها على الكاتبة الهندية الشابة، سرعان ما تتبدد وتتوارى في خلفية المشهد عندما تكتشف حجم الرعب الذي يمكن أن يسبّبه انفجار حرب نووية بين دولتين جارتين مثل الهند وباكستان، وكذلك عندما تتبيّن حجم الجهل بالدمار الشامل الذي يهدد الهند قبل باكستان إن نشبت تلك الحرب النووية.

«ثمن العيش» يعيد النظر في أسطورتين إثنتين من أساطير الحداثة الهندية: السدود الضخمة والسلاح النووي، فالهند، حسب روي، إذ تدخل العصر الحديث من خلال هذا النوع من المشروعات الضخمة تدمر الطبيعة وتشرّد مواطنيها وتهدّد مستقبلهم وتجلسهم في بيت الرعب الذي يفغر فاه ليبتلعهم إن نشبت في يوم ما حرب نووية لا تبقي ولا تذر بين الهند وباكستان.

فخري صالح



(66) 2001

ISSN 1607-7024
AL-KARMEL(Ramallah)